



٣٩٠

محاضرات

الأستاذ المحقق

الشيخ جعفر الشبلي

مبدأ المرسلين

دراسة تحليلية شاملة للشخصية والسيرة المحمدية
في شتى أبعادها الاجتماعية والرسالية والسياسية والعسكرية

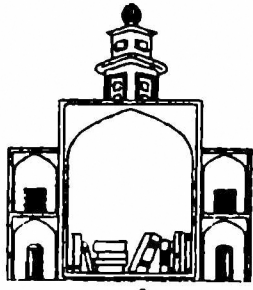
بقلم

جعفر الهادي

الجزء الأول



مكتبة النشر الإسلامي
الطبعة الأولى: ١٩٨٥



٣٩٠



محاضرات

الامتنان للحق

الشيخ جعفر الشيباني

سيرة المرسلين

صلى الله عليه وآله

دراسة تحليلية شاملة للشخصية والسيرة المحمدية
في شتى أبعادها الاجتماعية والرسالية والسياسية والعسكرية

بقلم

جعفر الهادي

الجزء الأول



مكتبة النشر الإسلامي
الناطقة بجماعة المحدثين بقرعة الشريعة

سبحاني تبريزي، جعفر، ١٣٠٨ ش.

سيد المرسلين صلى الله عليه وآله / تأليف جعفر السبحاني. -- مؤسسة النشر الإسلامي التابعة
لجماعة المدرسين بقم المشرفة ١٤١٢ ق. = ١٣٧٠ ش.

ج ١ -- (مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة. ٣٩٠).
شابك الدورة ٦ - ٣٩٦ - ٤٧٠ - ٩٦٤ - ٩٧٨
عربي.

ISBN 978 - 964 - 470 - 396 - 6

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیما.

ج ١ (چاپ چهارم: ١٤٢٩ ق = ١٣٨٧ ش).
کتابنامه.

ج ٢ (چاپ اول: ١٤١٣ ق = ١٣٧١ ش).

١. محمد (ص)، پیامبر اسلام، ٥٣ قبل از هجرت - ١١ ق. الف. جامعه مدرسين حوزه علمیه قم، دفتر
انتشارات اسلامی ب. عنوان.

٢٩٧ / ١٩٣

٩ س ٢ / ٩ / ٢٢ BP

٧١ - ١١٤٦ م

کتابخانه ملی ایران



سيد المرسلين صلى الله عليه وآله

(ج ١)

- تأليف: الأستاذ المحقق آية الله الشيخ جعفر السبحاني
- تعريب: الأستاذ الشيخ جعفر الهادي
- الموضوع: السيرة النبوية
- طبع ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي
- عدد الصفحات: ٧٠٠
- الطبعة: الرابعة
- المطبوع: ١٠٠٠ نسخة
- التاريخ: ١٤٢٩ هـ. ق.
- شابك ج ١: ٩٧٨ - ٩٦٤ - ٤٧٠ - ٧١٦ - ٢

ISBN 978 - 964 - 470 - 716 - 2

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

سَبِيحُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

لم تزل السيرة المحمدية العطرة في جميع أبعادها موضع اهتمام الأمة الإسلامية من لدن بزوغ فجر الإسلام العظيم، ومنذ الأيام الأولى من البعثة النبوية الشريفة.

ولا غرو فقد كان الرسول الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله يجسد بسيرته المثلى قيم الدين ويمثل بأخلاقه السامية أخلاق القرآن، ويعكس بمواقفه الرشيدة وبإدارته الحكيمة لشؤون الأمة طريقة الإسلام في إداره دفعة الحياة.

هذا مضافاً إلى أنه كان القدوة التي أمر الله تعالى المسلمين بالاقتران بها، واقتفاء أثرها، كما أنه كان الظاهرة الفريدة الباهرة في الأدب الرفيع والانسانية الشفافة والعاطفة الصادقة والرحمة واللفظ، وغيرها مما كانت تفتقر بيئة ظهور الإسلام الأولى إليه وتتعطش إلى مثله.

من هنا أخذ المسلمون يهتمون بكل حركات الرسول صلى الله عليه وآله وسكناته، ويتأملون في جميع أعماله وتصرفاته فاذا رأوا منه خلقاً بادروا إلى تكراره في سلوكهم، واذا شاهدوا منه عملاً أسرعوا إلى فعله في حياتهم، وعمدوا في المال إلى تسجيل كل صغيرة وكبيرة في هذا المجال، وضبط كل دقيقة وجليلة في هذا الصعيد.

وفعلاً كانت هذه السيرة الطيبة العطرة المقدسة هي المنهج العملي للمسلمين، وهي سرّ تقدّمهم، وهي رمز عظمتهم وسموّهم، وعلوّ شأنهم وشأوهم.

ولا تزال هذه السيرة المشرفة اليوم قادرة على أن تكون ضوء المسيرة، ومشعل الطريق، ومنهج العمل ومفتاح الانتصار في معركتنا ضد قوى الشر والطغيان.

وحيث إن أموراً اقحمت في هذه السيرة، كما أن تطور الزمن وكيفية الدراسات اقتضيا إخراج دراسات في مجال السيرة تتناول البعد الذاتي والرسالي والسياسي والقيادي والعسكري لسيد المرسلين صلى الله عليه وآله بالتحقيق والتحليل، وتناسب مع حاجة العصر ولغته، لهذا رأت مؤسسة النشر الإسلامي أن تقدم للجيل الحاضر خاصة وللمسلمين عامة هذه الدراسة القيمة في سيرة خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وآله لا تسامها بكثير من هذه المواصفات.

والدراسة هي مجموعة محاضرات للاستاذ المحقق الشيخ جعفر السبحاني الذي عرف في الأوساط الإسلامية بتحقيقاته العميقة في الكتاب والسنة والعقيدة والتاريخ.

وفي الوقت الذي تقوم به المؤسسة - والله الحمد - بطبع هذه الدراسة القيمة ونشرها بعد مقابلتها تقدم جزيل شكرها وامتنانها لسماحة الاستاذ الأمامي الشيخ جعفر الهادي لما بذله من جهود وافرة من تعريبها واستخراج النصوص من مصادرها سائلة الله سبحانه له ولسماحة الشيخ المحاضر ولها المزيد من التوفيق، كما وتدعو المولى عزّ وعلا أن يتقبل منا جميعاً وأن تشملنا شفاعة الرسول الأعظم وآله الأطهار عليهم السّلام في يوم الحشر إنه خير موفّق ومعين.

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

السيرة المحمّدية مدرسة الأجيال

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»

القرآن الكريم

النبيُّ الأكرم «محمّد» صلّى الله عليه وآله أسوةٌ للمسلمين... أسوةٌ يقتدون بها في جميع مناحي حياتهم: الفردية والاجتماعية، والسياسية... أسوةٌ إلى الأبد... في كل زمان و مكان، في كل عصر ومصر، لجميع المسلمين من كل لون ولغة.

ولكن كيف يتأسى المسلمون - في مختلف الأجيال والأدوار - برسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكيف يقتدون بسيرته المثلى، وهتدون بهديه العظيم؟ إن هذا لا يتسنى إلا إذا كانت حياة رسول الإسلام بجميع خصوصياتها، وتفصيلها، وفي جميع مجالاتها ونواحيها، مدوّنة مسجّلة، بل ومحلّلة تحليلاً دقيقاً وعميقاً.

من هنا فإن الضرورة تقضي بوجود تاريخ مدوّن، مشفوع بالتحليل الدقيق، والدراسة الموضوعية لشخصية وسيرة سيد المرسلين صلّى الله عليه وآله في كافة مجالاتها الشخصية والرسالية والسياسية والعسكرية.

حقاً إن في حياة رسول الإسلام العظيم «محمّد بن عبدالله» صلّى الله عليه وآله - كما هو واضح لمن تتبّع وتصفح - أموراً دقيقة، ولكن بالغة العظمة في مداليلها ومعانيها، بالغة الأهمية في معطياتها ودروسها.

فرسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم الأنبياء، ورسالته وشريعته خاتمة الرسالات والشرائع ونهضته هي النهضة الكبرى التي مهدها الأنبياء السابقون، وقد فتحت هذه النهضة الالهية صفحة جديدة في حياة البشرية، وغيّرت مسار التاريخ الإنساني تغييراً جذرياً، وأسست حضارة كبرى لا تزال أمواجها -رغم مرور أربعة عشر قرناً- حية نابضة، فاعلة، تهزُّ الضمائر، وتتفاعلُ مع العقول.

ولهذا فإنَّ السيرة المحمّدية مشحونةٌ بالمناهج والدروس، زاخرةٌ بالبصائر والعبر، بقدر ما هي مليئةٌ بالدقائق والحقائق، واللطائف والاسرار.

حقاً إن حياة النبي صلى الله عليه وآله بحاجة إلى تعمقٍ جديدٍ كلما تجدد الزمن، وكلما تقدمت العلوم والمعارف، وتطورت الحياة، وانفتحت أمام البشرية آفاق جديدةٌ في شتى الأصعدة والمجالات.

ولاشك أن هذه المهمة ليست عملاً بسيطاً ومهمة سهلة، وخاصة مع ما عليه الكثير من المصادر التاريخية الأولى من تصحيف أو تحريف أو تشويه للحقائق، أو تغيير للأُمور.

فان هذه المهمة تحتاج -في ما تحتاج إليه- إلى ثلاثة أشياء أساسية:

- ١ - عقلية متفتحة، متدبرة، نافذة متأنية.
- ٢ - جهود كبيرة، وتتبع واسع، وتميز للصحيح عن السقيم، والدخيل عن الاصيل.

٣ - معرفة بجوانب تتصل بالسيرة المحمّدية اتصالاً وثيقاً كالمعرفة بمكانة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم.

فمع توفر هذه الشروط يمكن الحصول على صورة نقيّة، ومفيدة للسيرة المحمّدية المباركة، صورة تتفق مع روح القرآن، وتلتقي مع الواقع، وتصلح للاتساء، والاقْتداء، والاهْتداء والاقْتفاء.

ولقد توفرت هذه الشروط -ولله الحمد- في استاذنا العلامة الحجّة المحقّق سماحة الشيخ جعفر السبحاني، حفظه الله.

فهو المعروف بسلسلته القرآنية «مفاهيم القرآن» التي تكشف عن إحاطة كبيرة بكتاب الله العزيز، وإمام قليل النظر بمفاهيمه. كما عُرف بأعماله الفكرية الناضجة المتنوعة الكاشفة عن عقلية متفتحة، واعية ومعاصرة.

ولهذا كان خيرَ من قام في عصرنا الحاضر بدراسة السيرة المحمّدية الطاهرة العبقة، فكان هذا العمل التاريخي المبارك الذي توفّرت فيه المستلزمات الثلاثة الأنفة الذكر: العقلية المتفتحة، والمعرفة الواسعة بالقرآن الكريم وخاصة في ما يتصل بالرّسول الأكرم، إلى جانب التتبع الواسع والاستقصاء الكبير لمواقع العبرة والاسوة في حياة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

ولا أجدني - في هذا التقديم العابر- بحاجة إلى ذكر نقاط القوة الكثيرة في هذه الدراسة المستوعبة لشخصية وحياة رسول الإسلام، بل أرى أن يحاول القارئ الكريم بنفسه الاطلاع على ذلك حتى لا يفوته شيء ممّا لا يفوت، وسيقف بنفسه أيضاً على جسامته ما بذل في هذه الدراسة من جهد، وروعة ما ضمنت من تحليل، وأهمية ما احتوته من حقائق.

وفي الختام أسأل الله العليّ القدير ان يتقبل منا جميعاً هذا الجهد، ويجعله ذخراً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، انه خير معين.

قم

جعفر الهادي

٣٠ شعبان ١٤٠٩ هجرية

التاريخ في أعظم حماساته

- * مُختبرُ «الحياة» العظيم.
- * «لقد عُمِّرتُ مع أولهم الى آخرهم!».
- * حياة العظماء، والخالدين.
- * عندما يلتقي العالم الحاضر بالعالم الغابر.
- * التاريخ بين التسجيل
- * أخطاء المستشرقين العجيبة.

يُحاولُ الإنسان دائماً أن ينظر إلى كل قضية من القضايا من نافذة الحس، وإن يدرسها من خلال المنظار الحسي المادي، لأنَّ أوثقَ المعلومات لديه هي تلك التي تتألف من هذه «المعلومات الحسية» ولهذا فإنَّ المسائل التي تحظى بأدلة حسية أكثر تكسب في العادة قسطاً أكبر من ثقة الانسان، وتصديقه.

وعلى هذا الاساس عمّد العالم اليوم الى تأسيس آلاف المختبرات الضخمة للتحقيق في شتى القضايا العلمية، ويعكف العلماء في هذه المختبرات على دراسة وتحليل الامور المتنوعة باسلوب خاص وطريقة معينة.

ولكن هل يمكن -تُرى- أن تدخلَ المسائل والقضايا الاجتماعية في نطاق التجربة المختبرية، وتخضع للمجهر والميكروسكوب، ليتمكن الحكم في هذه المجالات من خلال ذلك؟!!

فمثلاً؛ هل يمكن أن نعرف عن طريق التجارب المختبرية ما يؤدي إليه

الاختلاف والتشردم في المجتمع الواحد، وما يصيب شعباً من الشعوب أو أمة من الامم من هذا الطريق؟

أم هل يمكن تقييم ما تنهي إليه جهود المستعمرين، أو ما يؤول إليه الظلم والحيف، من خلال تجربة حسية؟

أم هل يمكن الوقوف على نتائج «الاختلاف الطبقي»، و«التمييز العنصري» في المجتمع عن طريق التجربة المختبرية؟

في الاجابة على كل هذه الاسئلة يجب أن نقول: كلام مع الاسف. وذلك لأنه لا توجد للقضايا الاجتماعية-رغم أهميتها القصوى- مثل هذه المختبرات، وحتى لو أمكن توفير مثل هذه المختبرات المناسبة لتحليل وتقييم ودراسة القضايا الاجتماعية، فإن إنشائها وإيجادها يكلف نفقات باهضة، وتستدعي جهوداً عظيمة.

ولكن الأمر الذي في مقدوره أن يقلل من حجم هذا النقص إلى حد كبير هو أننا نملك اليوم شيئاً يسمى بـ: «تاريخ الماضين» والذي يشرح لنا ما كان عليه البشر-أفراداً وجماعات- طوال آلاف السنين من الحياة على هذه الارض، كما ويعكس مختلف الذكريات والخواطر عنهم، من انتصارات وهزائم، ونجاحات وانتكاسات، ويوقفنا بالتالي على كل ما وقع في حياة الامم والشعوب من حوادث مرة او حلوة.

إنّ التاريخ يذكر لنا: كيف وُجِدَت الحضارات المشرقة والمدنيات العظيمة في العالم، وكيف سلكت -بعد مدة- طريق السقوط والانقراض، حتى أنها قد مُحيت عن صفحة الوجود بالمرّة، واصبحت خيراً بعد أثر، وبالتالي ماهي العوامل التي كانت وراء سيادة الشعوب ثم اندحارها.

إنّ حياة الماضين و تاريخهم يحتفظ لنا في صفحاته بقسط كبير ومهم جداً من هذه الحوادث، ولهذا صح أن يقال: «التاريخ مختبر الحياة العظيم»، فبمعونة التاريخ يمكن تقييم مختلف القضايا الاجتماعية، ودراستها واستخلاص النتائج والعبر المفيدة منها.

وإنَّ من حُسن الحظ أننا لم نكن أول من حطَّ قدمه على هذا الكوكب، فهذه الأرضُ بسهولة وشعابها العريضة، وتلك السماء بنجومها وكواكبها الساهرة شهدتا ملايين الملايين من البشر الذين سكنوا الأرض من قبلنا، وشهدتا افراحهم واتراحهم، همومهم وغمومهم، حروهم، ومصالحاتهم، وكل ما رافق و اكتنف حياتهم من حبّ وبغض وظلمات وأنوار، وارتقاء وهبوط، إلى غير ذلك من شؤون وشجون الحياة البشرية التي يزخر بها تاريخ الشعوب والاقوام والامم.

صحيح أنهم قد اختفوا مع الكثير من أسرار حياتهم، وغابوا جميعاً -أشخاصاً وأسراراً- في بحر من النسيان وانسدل عليهم الستار، إلا أن قسطاً مُلفتاً للنظر وجملة يُعتد بها من تلك الامور إما أنها قد دُونت بأيدي أصحابها، أو لا تزال طبقاتُ الأرض وبطون التلال تحتفظ بها في ثناياها وطياتها، كما ولا تزال ذات الاطلال الصامته -في ظاهرها- تشكل أضخم متحف، واغنى معرض، واكبر مخبر، يعيد لنا شريط التاريخ ويحكى وقائعه وأحداثه، ويشرح رموزه وأسراره.

إنَّ مُطالعة تلك الصفحات من تاريخ الامم الغابرة في الكتب، او في الاطلال العظيمة، أو في ما يعثر عليه المنقبون في بطون التلال، وثنايا الأرض تعلمنا أموراً كثيرة، وتضيف إلى عُمرنا عُمرأً جديداً وزمناً اضافياً، لا يُستهان به وذلك بما تقدم لنا مِنَ الخبرة والعبرة، والهدى والبصيرة.

أليست حصيلة العمر ماهي إلا ما استفاده المرء من تجارب؟ ألا يجعل التاريخ خلاصة أفضل التجارب تحت تصرفنا؟

ولقد اشار الامام اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في وصية لولده الى هذه الحقيقة حيث قال:

«أَيُّ بُنْيٍّ! إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عَمَّرْتُ عُمرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسَرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيْيَ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عَمَّرْتُ مَعَ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ»^(١).

(١) نهج البلاغه، قسم الرسائل. رقم ٣١.

ولكنَّ المؤسف أن كُتِبَ التاريخ الموجودة الآن تعاني من نقص كبير من حيث الإشارة الى العبر والدروس الاجتماعية المفيدة، لأن هذه المصنفات لم تدوَّن لأجل هذا الغرض، ولهذا أغفلَ فيها - في الاغلب - كل ما هو مؤثر في كشف الحقائق التاريخية، وإبراز العلل الكامنة وراء الحوادث المتنوعة والوقائع المختلفة، وبالتالي فقد تجاهلت تلك الكتب والدراسات ما هو المفتاح الطبيعي لحلِّ الرُّموز الكبرى في مسيرة التاريخ البشري، واعتنت - بدلاً عن ذلك - بالقضايا التافهة.

لقد تصدَّى كثيرٌ من المؤرِّخين لتدوين وتسجيل القضايا التاريخية، تارة بهدف التسلية وأخرى بدافع إبراز الفضل لأقوامهم او طوائفهم، واطهار تفوقها على الاقوام والطوائف الأخرى، وثالثة بدافع الحب والبغض، او التعصب لهذا أو ذاك ولهذا عجزت هذه المؤلفات والكتب عن حل أية مشكلة، وتبديد أية حيرة، بل هي تزيد المرء ضلالاً إلى ضلال، وحيرة الى حيرة!

ولكن رغم كل هذا يستطيع أولو النباهة والبصيرة، واصحاب الفهم والتحقيق ان يتوصلوا - من خلال مطالعة هذه المؤلفات التاريخية على مافيها من عيوب ونقائص، ومع مافيها من أساطير عن الشعوب المختلفة - إلى ما يساعدهم على كشف الكثير من اسرار وخلفيات القضايا والامور المتعلقة بالشعوب الماضية، تماماً كما يفعل الطبيبُ الحاذق، او القاضي البارِعُ الذي يمكنها من خلال الوقوف على القرائن الجزئية المتفرقة، التوصل إلى اكتشاف نوع «المرض» أو حالة «المتهم» الحقيقية، ومايعاني منه في واقعه النفسي.

* * *

إنَّ أعظم صفحات التاريخ قيمة هي تلك التي تعكس لنا حياة العظماء وسيرة الرجال الخالدين، وتبحث عنها بصدق وامانة وموضوعية.

إنَّ لحياتهم أمواجاً خاصة، كما أنها زاخرة بانواع الحوادث.

لقد كانوا عظماء حقاً، وكذلك كان كل مايرتبط بهم، ومن ذلك تاريخهم، إنه شيء عظيم يستحق التأمل والتدبر، فهو يتيسمُ بلمعان يلفت الأنظار، ويخلب

الالباب وإنه غني بالعظات والعبر، زاخرٌ بالبصائر واليدروس والى درجة لا توصف.

إنهم معجزةُ الخليفة بلا رب، وإن حياتهم هي - في الحقيقة - ملحمة التاريخ الكبرى، وساحة البطولات الخالدة، ومسرح الحماسات العظمى، الحياة النابضة على مر العصور، والايام.

لقد كان أولئك العظماء يعيشون في الاغلب على خط الثورات والتغيرات الاجتماعية الاول (وبعبارة أصح) كانت الثورات والتحويلات الاجتماعية تجد مصداقيتها في حياتهم وتتجسد في مواقفهم، ولهذا كانوا يشكلون - في واقع الأمر - حلقة الاتصال بين الدنياوات المختلفة المتناقضة، وكانت حياتهم الحافلة بالاحداث شاهدة للألوان المختلفة والمشاهد المثيرة المتنوعة.

وعلى رأس أولئك الرجال التاريخيين والعظماء الخالدين رسول الإسلام العظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانه لم تتسم حياة أحد - من حيث وفرة الاحداث، وعظمة الأمواج، كما اتسمت به حياته صلى الله عليه وآله ولا اتصفت شخصية بمثل ما اتصف به ذلك النبي العظيم.

فلم يستطع احدٌ سواه أن يؤثر في بيئته، ثم في جميع العالم، وينفذ إلى أعماق الاعماق بمثل السرعة والسعة التي حصلت له صلى الله عليه وآله. ولم يوجد أيُّ واحد منهم قط من مجتمعه المنحط المتخلف، حضارة بتلك العظمة والشموخ، كما فعله رسول الإسلام صلى الله عليه وآله - وتلك حقيقة يقرها كل مؤرخي الشرق والغرب.

إن مطالعة عميقة لسيرة وحياة هذا الإنسان العظيم، قادرة على أن تعلمنا الكثير الكثير، وأن توقفنا على مشاهد متنوعة في غاية النفع ومنتهى الفائدة. إن مشاهد عجيبة مثل الأيام الأولى من بناء الكعبة المعظمة، واستيطان اسلاف النبي الكريم «مكة» وهجوم عسكر الفيل الفاشل لهدم بيت الله المعظم، والاحداث والملابسات المرافقة لمولد النبي صلى الله عليه وآله.

كما وإن مشاهد محزنة مثل وفاة «عبدالله» و «آمنة» والذي رسول الله صلى الله عليه وآله في مطلع حياته الشريفة بتلك الكيفية المؤلمة. ومشاهد عظيمة ومهيبة وحافلة بالاسرار مثل الايام الاولى من نزول الوحي، وما جرى في جبل «حراء» وماتبعه من مواقف الاستقامة والمقاومة التي ابدتها واتخذها رسول الله و اصحابه المعدودون طيلة ثلاثة عشر عاماً، في سبيل نشر الدين الاسلامي في مكة، ومكافحة الوثنية والجاهلية. وكذا مشاهد مثيرة وساخنة وحماسية مثل وقائع السنة الأولى من الهجرة المباركة وما عقبها من حوادث ومواقف.

* * *

ولقد آلفت حول حياة رسول الإسلام أعظم قادة البشرية على الإطلاق كتب ورسائل ودراسات كثيرة بحيث لو اتيح لنا أن نجتمعها في مكان واحد لشكلت مكتبة عظيمة وضخمة.

ويمكن القول - بشكل قاطع - بأنه ليس ثمة من عظيم استقطب اهتمام التاريخ والمؤرخين والمفكرين العالمين الكبار، كما ليس ثمة شخصية من شخصيات العالم كتب حولها المؤلفون والباحثون هذا القدر الهائل من المؤلفات والمصنفات، والرسائل والكتب، كما حصل لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إلا أن أكثر هذه الكتب والمؤلفات تعاني من أحد إشكاليين: إما أن الكتاب جاء على نسق التسجيل المجرد للحوادث، أو النصوص التاريخية، من دون أن يتصدى فيه مؤلفه لتحليلها، ودراسة خلفياتها ونتائجها، وإصدار الحكم اللازم فيها، بل إن البعض قد تجنب عن بيان علل الوقائع الإسلامية واسبابها، وثمارها ومعطياتها كذلك.

أو أن المؤلف - في بعضها الآخر - عمّد إلى طائفة من الآراء الحدسية، والاجتهادات الباطلة، العارية عن الدليل واثبتها في مؤلفه على أنها الحكم الحق،

وخلط هذه الاحكام مع بيان الحوادث، ومن ثم اخرج كتابه ذاك الى الجمهور المتعطش الى تاريخ الإسلام، على أنه التاريخ المحقق، المُمَحَّص.

إن الإشكال الذي يَرُدُّ على الطائفة الاولى هو: أن الهدف من التاريخ ليس هو مجرد تسجيل الحوادث التاريخية وضبطها وتدوينها، إنما هو كتابة صفحات التاريخ، وقضاياه وأحداثه من المصادر الصحيحة الموثوق بها، وإبراز عللها واسبابها، وثمارها ونتائجها، والتاريخ بهذا الشكل أعظم كنز تركه الأقدمون لنا، ومثل هذا النوع من الدراسة التاريخية لم تُدَوَّنْ - أو أنه قلما دُوِّنَتْ - حول أعظم قادة البشر، محمد صلى الله عليه وآله فقد تجنب أكثر كتاب السيرة النبوية عن اظهار الرأي في الحوادث، او القيام باي تحليل للوقائع، بحجة الحفاظ على أصول الحوادث ونصوصها.

في حين أنَّ هذا العُذر، وهذه الحجة غير كافية لتبرير هذا الموقف، لأنه كان في مقدور اولئك المؤرخين - للحفاظ على ما ذكروه - أن يؤلفوا نوعين من الكتب، نوعاً يختص بسرد الوقائع والنصوص التاريخية على ما هي عليه من دون ابداء رأي، او تحليل ودراسة، ونوعاً آخر يعتني بذكر الحوادث والقضايا التاريخية مع تحليلها ودراستها بصورة موضوعية صحيحة أو ان يتم كلا الأمرين في كتاب واحد بأن تفرز الحوادث التاريخية عن التحليل والرأي.

على كل حال قلما نجد بين قدماء الكُتَّاب المسلمين من تصدى للسيرة النبوية المحمّدية الطاهرة بهذه الصورة، وقلما يوجد هناك كتاب يتناول حياة خاتم الانبياء وسيد المرسلين بالتحليل المذكور.

بل لا بد من القول بان السيرة النبوية الطاهرة ليست هي وحدها التي حُرمت من مثل هذا النمط من التأليف والكتابة، بل شمل هذا الحرمان أكثر الحوادث التاريخية التي وقعت على مر العصور الإسلامية فهي أُدرجت في الكتب من دون دراسة موضوعية وتقييم دقيق.

نعم إن أول من فتح هذا الطريق على وجه عامة المؤلفين والكتاب هو:

العلامة المغربي «ابن خلدون»^(١) فقد أسس في مقدمته المعروفة باسم مقدمة ابن خلدون نمط التاريخ التحليلي بنحو من الانحاء.

وأما الطائفة الثانية من تلك الكتب فهي وإن ألفت على نمط التاريخ التحليلي واتسمت بصفة التحقيق والدراسة ولكن حيث ان بعضهم لم يتجشم عناء التتبع والاستقصاء، أو أنه اعتمد في تحليله للحوادث على المصادر غير المتقنة وغير الصحيحة، فقد تورط في أخطاء فضيعة محيرة، وأكثر مؤلفات المستشرقين - التي لم تكتب في الأغلب بهدف التوصل الى الحقيقة - من هذا النمط، ومن هذه القماشة.

ولقد دأب في هذه الدراسة - بعد ملاحظة هذه الاشكالات - على ان يقدم إلى القراء جهد امكانه كتاباً يخلو عن عيوب ونقائص كلتا الطائفتين.

* * *

مزايا هذا الكتاب:

قد لا يكون من الضروري بيان مزايا هذا الكتاب، واستعراض امتيازاته في مقدمته، فذلك أمرٌ ينبغي أن يقف عليه القارئ الكريم بنفسه ضمن مطالعته لهذه الدراسة، إلا أنه إلفاتاً لنظر القارئ نشير الى مزيتين هامتين هما:

أولاً: أننا عمدنا في هذا الكتاب الى تناول وبيان الحوادث والوقائع المهمة التي تنطوي على قدر، اكبر من الفائدة، والعبرة، وأعرضنا صفحاً عن ذكر الاحداث الجزئية، والوقائع الصغيرة مثل الكثير من السرايا.

ثم إننا أخذنا الحوادث التاريخية هذه من المصادر الأصيلة، والأولية، التي دُوّنت في القرون الإسلامية المشرقة الاولى، فقد استخلصنا الحادثة من مجموعة تلك المصادر، ثم أشرنا إلى مصدر أو مصدرين من المصادر التي ذكرت الحادثة

(١) هو القاضي عبدالرحمان بن محمد الحضرمي المالكي المتوفى عام ٨٠٨ هـ، ومقدمته وتاريخه - على ما فيها من أخطاء فضيعة في التحليل. معدود ان من الكتب الجيدة المفيدة، وهما مبتكران في نوعهما.

بصورة أكثر تفصيلاً ودقة.

وربما يظن بعضُ القراء الكرام أننا اكتفينا في نقل الحوادث والوقائع بمراجعة مصدر أو مصدرين ممّا ذكرناه في أقصى الصفحة (أي الهامش) في حين أن الواقع هو غير هذا، فنحن قد راجعنا حتى في نقل الحوادث الصغيرة مهما صغرت، أكثر المصادر الأصلية المعروفة، وبعد التحقق والتثبت منها لخصناها وذكرناها في هذا الكتاب.

ولو أننا أشرنا - في جميع الحوادث والوقائع - إلى جميع المصادر التي مررنا بها لاستأثر جدول المصادر بقسم كبير من صفحات هذا الكتاب، وهو أمرٌ من شأنه أن يبعث على الملل عند القراء، فلكي لا يحسّ القراء بأيّ تعب أو ملل من جانب، ولأجل أن نحافظ على وثاقية الكتاب وأصالة أبحاثه وإتقانها من طرف آخر اكتفينا بذكر القدر اللازم من المصادر وتجنبنا تحشيدتها بتلك الصورة المملة. وأما المزية الثانية: فإننا أشرنا - ضمن الدراسات اللازمة - إلى الاعتراضات والاشكالات، بل وأحياناً إلى مواطن الاساءة التي قام بها المستشرقون المفرضون وأجبنا على جميع الانتقادات والاعتراضات غير المبررة وغير الصحيحة بأجوبة مقنعة وقاطعة وصحيحة، وجرّدناهم من الاسلحة التي شهِروها في وجه الإسلام ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كما يقول المثل، وتلك حقيقة يقف عليها القارئ الكريم بنحو أجلى في محلّها.

وعلى هذا الأساس عمّدنا إلى ذكر رأي المؤلفين الشيعة (في المسائل المختلف فيها بين المؤرخين الشيعة والمؤرخين السنة) مع ذكر المصادر والشواهد التاريخية الواضحة والمبرهنة عليه، وأزحنا كل ما يثدور حول ذلك الرأي من شبهة أو إشكال، ويستهدف إنكار صحته وحقانيته.

إننا إذ نقدّم هذه الدراسة التحليليّة لشخصية وحياة خاتم الأنبياء محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى القراء الكرام نأمل أن يهتم بها عامّة المسلمين وخاصة المثقفين والشباب منهم بوجه خاص، ويتناولوا هذه السيرة العطرة بالمطالعة المتأنية والتأمل

والتدبر، ونأمل أن يستطيع شبابنا المؤمن المتحمس من أن يرسم خريطة حياته
وحياة مجتمعه في ضوء ما يستلهمه ويستوحيه من سيرة وحياة رسول الاسلام صلى
الله عليه وآله، في هذه الحقبة البالغة الخطورة. والله ولي التوفيق.

جعفر السبحاني

٢٦ / جمادى الآخرة / ١٣٩٢

سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لقد سلط القرآن الكريم الضوء على رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله في آيات كثيرة تناولت بيان أسمائه ونشأته وصفاته وخصاله، وبشارات الانبياء السابقين به وعصمته وأميته ورسالته وخاتمته وجهوده العظيمة التي بذلها في سبيل ابلاغ مهمته، والخطابات الخاصة الالهية الموجهة إليه وما يتوجب على المؤمنين تجاهه في حياته وبعد وفاته، وما يتوجب عليهم تجاه أهل بيته وعترته، ولكي تكون هذه الرؤية القرآنية الشاملة الدقيقة هي القاعدة الاساسية في دراسة الشخصية والسيرة المحمدية العظيمة آثرنا ادراج طائفة منها

في مقدمة هذا الكتاب.

* وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ. (آل عمران / ١٤٤).

* مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ. (الفتح / ٢٩).

* وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْتَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ. (الصف / ٦).

* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ وَلِآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ. (الضحى / ٨/٤).

* أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ. (الانشراح / ١-٤).

* وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِضْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. (آل عمران / ٨١).

* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ. (الأعراف / ١٥٧).

* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. (البقرة / ١٤٦).

* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. (الأنعام / ٢٠).

* فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. (الأعراف / ١٥٨).

* هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ. (الجمعة / ٢).

* وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. (النساء / ١١٣).

* وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذْ آتَاكُمْ الرِّبَاتِ الْمُبْتَلُونَ. (العنكبوت / ٤٨).

- * اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم. (العلق / ١-٥).
- * ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذميرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمازونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى. (النجم / ٢-١٧).
- * ولوتقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين. (الحاقة / ٤٤-٤٧).
- * وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. (يس / ٦٩).
- * ويقولون أتتنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين. (الصافات / ٣٦-٣٧).
- * إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون. (الحاقة / ٤٠).
- * وما هو على الغيب بضنين. (التكوير / ٢٤).
- * سنقرئك فلا تنسى. (الاعلى / ٦).
- * فسيفيكهم الله وهو السميع العليم. (البقرة / ١٣٧).
- * والله يفصمك من الناس. (المائدة / ٦٧).
- * وهموا يا لم ينالوا. (التوبة / ٧٤).
- * إنا كفيناك المستهزئين. (الحجر / ٩٥).
- * وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لا تأخذوك خلاباً ولولا أن تبنتك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً. (الاسراء / ٧٣-٧٤).
- * أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه. (الزمر / ٣٦).
- * وأضرب لحكم ربك فإنتك بأعيننا. (الطور / ٤٨).
- * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين (آل عمران / ١٠٨).
- * أتله ما أوحى إليك من الكتاب. (المنكوت / ٤٥).
- * واتبع ما يوحى إليك من ربك. (الاحزاب / ٢).
- * وأنذر عشيرتك الأقرنين. (الشعراء / ٢١٤).

- * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ. (الحجر/٩٤).
- * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. (الحج/٤٩).
- * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. (المؤمنون/٧٣).
- * تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. (الفرقان/١).
- * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. (الفرقان/٥٦).
- * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ. (الأنفال/٣٣).
- * لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ. (التوبة/١٢٨).
- * بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. (التوبة/١٢٨).
- * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ. (الأنبياء/١٠٧).
- * إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ. (الحج/٦٧).
- * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. (الشعراء/١٩٣).
- * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ. (البقرة/١١٩).
- * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. (البقرة/١٥١).
- * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَئِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. (آل عمران/١٦٤).
- * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا. مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. (الفتح/٢٨-٢٩).
- * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا. (الاحزاب/٤٦).
- * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا. (سبأ/٢٨).
- * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنُوًا وَفِرَادَىٰ تُثَمِّمُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. (سبأ/٤٦).
- * فَيَرَوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. (الذاريات/٥٠).
- * وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا. (النساء/٧٨).
- * وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. (النساء/١١٣).

- * إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده. (النساء/١٦٣).
- * لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه الحق والحكمة تعلمه والملئكة يشهدون وكفى بالله شهيداً.
* (النساء/١٦٦).
- * ما كان محمد أباً أحدهم من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين. (الاحزاب/٤٠).
- * قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً. (الاعراف/١٥٨).
- * ولا يخزئك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم. (يونس/٦٥).
- * فلعلك تارك بغض ما يوحي إليك وضائق به صدورك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أوجاء
* معه ملك إنا أنت نذير والله على كل شيء وكيل. (هود/١٢).
- * وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة
* وذكرى للمؤمنين. (هود/١٢٠).
- * ولقد استهزئ برسل من قبلك فاملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب.
* (الرعد/٣٢).
- * لا تمدن عيتك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم. (الحجر/٨٨).
- * ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وأعبد
* ربك حتى يأتيك اليقين. (الحجر/٩١).
- * وأصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع
* الذين اتقوا والذين هم محسنون. (النحل/١٢٨).
- * فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً. (الكهف/٦).
- * فاصبر على ما يقولون. (طه/١٣٠).
- * وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط
* وأصحاب مدين وكذب موسى فاملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير.
* (الحج/٤٢-٤٤).
- * وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً. (الفرقان/٣١).
- * لعلك باخع نفسك ألا تكونوا مؤمنين. (الشعراء/٣).
- * ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. (النحل/١٢٧).
- * فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون. (الروم/٦٠).
- * ومن كفر فلا يخزئك كفره. (لقمان/٢٣).

- * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ. (فاطر/٤).
- * سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. (الأسراء/١).
- * فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. (فاطر/٨).
- * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ. (فاطر/٢٥).
- * فَلَا يَخْرُجُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ. (يس/٧٦).
- * وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. (الصفات/١٧١-١٧٢).
- * وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصَرْتَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ. (الصفات/١٧٣-١٧٥).
- * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ. (الصفات/١٧٨-١٧٩).
- * إِضْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ. (ص/١٧).
- * أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيَخَافُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ. (الزمر/٣٦).
- * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. (المؤمن/٥٥).
- * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. (الانعام/٥٢).
- * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا. (الكهف/٢٨).
- * إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (النور/٦٢-٦٣).
- * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيبُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ

حِجَابِ ذَلِكُمْ. أَطَهَّرْ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا
أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا. (الاحزاب/٥٣).

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ
وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ. (الحجرات/٥-١).

* وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِعْصِيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ.
(الحجرات/٧).

* وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ. (القلم/٤).

* وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. (الحجر/٨٨).

* وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. (الشعراء/٢١٥).

* لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ.
(التوبة/١٢٩).

* فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ.
(آل عمران/١٥٩).

* لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا.
(الاحزاب/٢١).

* قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.
(آل عمران/٣١).

* فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا
قَضَيْتَ وَتَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا. (النساء/٦٥).

* إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.
(الاحزاب/٥٦).

* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ. (الكوثر/١-٢).

* إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً. (الاحزاب/٣٣).^(١)

(١) ولقد بحث سماحة الاستاذ العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحاني صاحب هذه المحاضرات حول جميع هذه الآيات ونظائرها في دراسة عميقة وشاملة في الجزء السابع من موسوعته «مفاهيم القرآن».

شبه الجزيرة العربية أومهد الحضارة الإسلامية

الجزيرة العربية هي في الحقيقة شبه جزيرة كبيرة وتقع في الجنوب الغربي من آسيا، وتبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، أي ضعف مساحة إيران، وستة أضعاف فرنسا، وعشرة أضعاف إيطاليا، وثمانين ضعف سويسرة. ويحد شبه الجزيرة - هذا الذي هو أشبه ما يكون بمستطيل غير متوازي الاضلاع - من الشمال فلسطين وصحراء الشام، ومن المشرق الحيرة ودجلة والفرات والخليج الفارسي، ومن الجنوب المحيط الهندي وخليج عمان، ومن المغرب البحر الأحمر.

وعلى هذا يحاصر هذه الجزيرة من المغرب والجنوب البحر، ومن الشمال والشرق الصحراء، والخليج.

وقد جرت العادة بتقسيم هذه المنطقة من القديم إلى ثلاثة أقسام:

١ - القسم الشمالي والغربي ويسمى بالهجاز.

٢ - القسم المركزي والشرقي ويسمى بصحراء العرب.

٣ - القسم الجنوبي ويسمى باليمن.

وتشكل داخل شبه الجزيرة هذا صحاري كبيرة، ومناطق شاسعة رملية حارة، وغير قابلة للسكني تقريباً، ومن جملة هذه الصحاري صحواء «بادية

سماوة» التي تسمى اليوم بصحراء «النفوذ» وصحراء أخرى واسعة الاطراف تمتد إلى الخليج الفارسي يُطلق عليها اليوم اسم «الربع الخالي» وقد كان يسمى قسم من هذا الصحاري سابقاً بالأحقاف، ويسمى القسم الآخر بالدهناء.

وعلى أثر هذه الصحاري تشكل ثلث مساحة شبه الجزيرة هذا أراضي خالية من الماء والعشب وغير قابلة للسكنى، اللهم إلا بعض ما يحصل من المياه، بسبب تساقط الامطار، في قلب الصحاري فيتجمع حولها بعض القبائل العربية بعض الوقت، ويرعون فيها ابلهم وانعامهم رداً قليلاً من الزمن.

وأما حالة المناخ في شبه الجزيرة العربية، فالهواء في الصحاري والأراضي المركزية (الوسطى) حارٌ وجافٌ جداً، وفي السواحل مرطوبٌ، وفي بعض النقاط معتدلٌ، وبسبب رداءة الطقس هذه لايتجاوز عدد سكانه خمسة عشر مليون نسمة.

وتوجد في هذه الجزيرة سلسلة جبال تمتد من الجنوب الى الشمال، ويقارب ارتفاع أعلى قممها ٢٤٧٠ متراً.

وقد كانت معادن الذهب والفضة والاحجار الكريمة تشكل مصادر الثروة في شبه الجزيرة هذا منذ القديم، وكان سكانها يعتنون -من بين الانعام والحيوانات- بتربية الابل والفرس اكثر من غيرهما، ومن بين الطيور بالحمام والنعام اكثر من الطيور الأخرى.

بيد أن اكبر مصدر للثروة في الجزيرة العربية اليوم يأتي عن طريق استخراج النفط.

وتعتبر مدينة «الظهران» الذي يسميه الاوربيون بالدهران المركز النفطي الرئيسي في هذه الجزيرة، ويقع هذا البلد في ناحية الاحساء التي تقع في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على حدود الخليج الفارسي.

ولكي يتعرف القارئ الكريم على الأوضاع في شبه الجزيرة العربية هذا بنحو اكثر تفصيلاً فاننا نعمد إلى شرح الاقسام الثلاثة المذكورة:

١ - «الحجاز» وهي المنطقة التي تشكل القسم الشمالي والغربي من الجزيرة

العربية وتمتد أراضيها على ساحل البحر الاحمر ابتداء من فلسطين وحتى حدود اليمن.

والحجاز بعد هذا منطقة جبلية، و ذات صحار قاحلة، و اراض حجرية، و صخرية، يكثر فيها الحصى.

ولقد كانت هذه المنطقة - في التاريخ - اكثر شهرة من غيرها، و من المعلوم أنَّ هذه الشهرة جاءت بسبب جملة من العوامل المعنوية و الدينية، فهي الآن تضم بين جوانبها بيت الله الحرام «الكعبة المعظمة»، قبلة ملايين المسلمين، و مهوى افئدتهم.

وقد كانت البقعة التي تقوم عليها بنية «الكعبة المعظمة» تحظى منذ سنوات مديدة قبل بزوغ الإسلام باحترام العرب و غيرهم، و لهذا حرّموا القتال حول الكعبة تعظيماً لها، حتى إذا جاء الإسلام أقرّ للكعبة و لما حولها، مثل ذلك الاحترام، و التعظيم أيضاً.

و من أهمّ مُدُن الحجاز: «مكة» و «المدينة» و «الطائف»، و كان للحجاز منذ القديم ميناءان هما: ميناء «جدة» الذي يستخدمه أهل مكة، و ميناء «ينبع» الذي يستخدمه أهل المدينة، في سدّ الكثير من احتياجاتهم و يقع هذان الميناءان على ساحل «البحر الاحمر».

مكة المعظمة:

وهي من أشهر مُدُن العالم و أكثر المُدُن الحجازية سُكّاناً، و ترتفع عن سطح البحر بما يقارب ٣٠٠ متراً.

و اذ تقع مدينة «مكة» بين سلسلتين من الجبال لذلك فانها لا تُرى من بعيد، و يقطنها اليوم حوالي (١٥٠) ألفاً من السكان.

تاريخ مكة:

يبدأ تاريخ «مكة المكرمة» من زمن النبي إبراهيم الخليل عليه السّلام، فقد

أسكن هذا النبي ولده «اسماعيل» مع أمه «هاجر» في ارض مكة، فنشأ اسماعيل هناك، وتزوج من القبائل التي سكنت على مقربة من تلك المنطقة. ثم إن إبراهيم عليه السلام بنى وبأمر من الله تعالى البيت الحرام «الكعبة». وتقول بعض الروايات الصحيحة إن الكعبة بنيت على يد النبي نوح عليه السلام وأن إبراهيم عليه السلام جدد بناءها. وهكذا نشأت وبعد هذا تأسست مدينة مكة.

وتتكون نواحي «مكة» من أراضٍ سبخة شديدة الملوحة بحيث لا تكون قابلة للزراعة اصلاً، حتى أن بعض المستشرقين يذهب إلى أنه لا يوجد أية منطقة في العالم في رداءة أوضاعها الجغرافية والمحيطية والطبيعية مثل هذه المنطقة.

المدينة المنورة:

وهي مدينة تقع في شمال مكة وتبعد عنها بـ: ٩٠ فرسخاً تقريباً، وتحيط بها بساتين ومزارع ونخيل وافرة، وأرضها أكثر صلاحية لغرس الأشجار والزرع. وكانت المدينة المنورة تسمى قبل الإسلام بـ «يثرب»، وبعد أن هاجر إليها رسول الإسلام صلى الله عليه وآله سُميت بمدينة الرسول، ثم أُطلقت عليها لفظة «المدينة» مجردة تخفيفاً.

ويحدثنا التاريخ أن العمالقة كانوا أول من سكن هذه الديار، ثم خلف العمالقة طائفة اليهود، والأوس والخزرج الذين سُمي المسلمون منهم بالأنصار في ما بعد.

هذا وقد سلمت الحجاز - على عكس سائر المناطق - من طمع الطامعين وغزو الغزاة والفاحين، ولم نشاهد فيها أي شيء من آثار حضارة الامبراطوريتين العظيمتين انذاك قبل الإسلام: الروم والفرس، وذلك لأنها إذ كانت تتألف من أراضٍ قاحلة مجذبة غير قابلة للسكنى والعيش لم تحظ باهتمام أحد من أولئك الفاتحين حتى يفكر في تسيير العساكر، وتجييش الجيوش لفتحها ليعود بعد تحمّل آلاف المشاكل التي تستلزمها عملية الاستيلاء على أراضي تلك المنطقة.

خالي الوفاض صفر اليدين.

وللوقوف على هذه الحقيقة اقرأ القصة التالية التي نقلها «ديودرس».
عندما دخل ديمتريوس القائد اليوناني الكبير «بطرا» (وهي مدينة قديمة من مدن الحجاز) بهدف فتح جزيرة العرب خاطبهُ سكانُ تلك المدينة قائلين:
لماذا تحاربنا أيها الملك ديمتريوس ونحن من سُكان الصحارى التي لا تُسدُّ فيها خلّة، ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية. إقبل هدايانا، وارجع الى حيث كنت، سنكون من أوفى الاصدقاء لك، ولكنك اذا رغبت في حصرنا حرمت كل هناة، ورأيت عجزك عن اكرهنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا، وإذا قدرت على أسربعضنا أيقنت أنك لن تجد واحداً ممن أسرت يستطيع أن يألف حياة غير التي ألفناها.
هنالك رأى ديمتريوس أن يقبل هديتهم وان يرضى بالمآب^(١).

٢ - المنطقة الوسطى والشرقية، التي تسمى بـ«صحراء العرب» ومنطقة «نجد» التي هي جزء من هذه المنطقة أرض مرتفعة يقوم فيها بضع قُرى صغيرة معدودة.

ولقد أصبحت الرياضُ التي اتخذها السعوديون عاصمة لهم بعد استيلائهم من المراكز المهمة في هذه الناحية من الجزيرة.

٣ - المنطقة الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، والتي تسمى بـ«اليمن» وتمتد طولاً من الشمال الى الجنوب حوالي (٧٥٠) كيلومتراً ومن الغرب الى الشرق حوالي (٤٠٠) كيلومتراً.

وتقدر مساحة هذا البلد بستين الف ميل مربع تقريباً، ولكنها كانت - قبل ذلك - أوسع من هذا القدر، وقد كان قسم منها (وهو عدن) خلال النصف الاول من القرن الأخير تحت الانتداب البريطاني، ومن هنا ينتهي شمالاً الى نجد، وجنوباً الى عدن، وغرباً الى البحر الأحمر وشرقاً الى صحراء الربع

(١) حضارة العرب: تأليف غوستاف لوبون ص ٩١ - ٩٢ ترجمة عادل ومهتر.

الحالي (١).

ومن مُدُن اليمن المعروفة مدينة «صنعاء» التاريخية العريقة، ومن موانئها المشهورة ميناء «الحديدة» التي تقع على البحر الأحمر.

ومنطقة اليمن من أكثر مناطق الجزيرة العربية خصوبة وبركة، ولها تاريخ مشرق وعريق في المدنية والحضارة، فقد كانت اليمن مقراً لملوك تبع، الذين حكموا اليمن سنيماً مديدة وكانت اليمن قبل الإسلام مركزاً تجارياً مهماً، وكانت في الحقيقة ملتي طرق الحجاز، اشتهرت في العصور القديمة بمعادن الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، وكانت تصدر الى خارج البلاد.

ولا تزال اثار الحضارة اليمنية القديمة باقية الى الآن.

ولقد قام أهل اليمن الاذكىء باقامة أبنية وعمارات عالية وجميلة بهمهمهم العالية في عصور كان البشريفقد فيها الوسائل الثقيلة، والاجهزة المعقدة.

كان ملوك اليمن يحكمون البلاد دون أي منازع، إلا أنهم رغم ذلك لم يكونوا يمتنعون عن تنفيذ مرسومه حكماء اليمن ورجالهم من انظمة وقوانين للحكم وادارة البلاد آنذاك .

ولقد سبقوا الآخرين في الزراعة والفلاحة، وقد نظموا لإحياء الأراضي وزراعتها، نظاماً دقيقاً للريّ طبقوا بنوده بدقة، ولهذا كانت بلادهم تعدّ -آنذاك - من البلدان الراقية المتقدمة من هذه الناحية.

فهاهو «غوستاف لوبون» المؤرخ الفرنسي المعروف يكتب حول اليمن قائلاً: إن بلاد العرب السعيدة من أغنى بقاع العالم (٢).

ويكتب الادريسيّ المؤرخ المعروف الذي كان يعيش في القرن الثاني عشر حول «صنعاء» قائلاً: كانت صنعاء مقر ملوك اليمن، وعاصمة جزيرة العرب، وانه كان لملوكها قصر متين شهير وكانت تشتمل على بيوت مصنوعة من الحجارة

(١) لقد انقسمت اليمن مؤخراً الى يمن شمالية وأخرى جنوبية لكل واحد منها نظام حكم خاص وحكومة خاصة.
(٢) حضارة العرب: ص ٩٤.

المنحوتة^(١).

هذه الآثار العجيبة التي عثر عليها المستشرقون وعلماء الآثار في تنقيباتهم الأخيرة تثبت حضارة عجيبة لليمن في عصورها القديمة وذلك في مختلف نواحيها مثل «مأرب» و«صنعاء» و«بلقيس».

ففي مدينة مأرب (وهي مدينة سبأ المعروفة) كانت تقوم قصور ضخمة وصروح عالية ذوات أبواب وسقوف مزينة بالذهب، وكانت تحتوي على أوان وصحون من الذهب والفضة، وأسرّة كثيرة مصنوعة من المعدن والفلز^(٢). ومن آثار «مأرب» التاريخية السدّ المعروف باسم ذلك البلد والذي لا تزال اطلاله باقية، وهو السدّ الذي تهدّم بسبب السيل الذي وصفه القرآن الكريم بالعِرم.

فقد جاء في سورة سبأ الآية ١٥-١٩ قوله تعالى:

«لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَا لَهُمُ جَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي الْكَافِرِينَ. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرًا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»^(٣).

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق على مافي حضارة العرب، ص ٥٥.

(٢) حضارة العرب: ص ٩٤.

(٣) للوقوف على المزيد من المعلومات عن اليمن قديماً وحديثاً، راجع الكتب المؤلفة حول جغرافية العالم الإسلامي.

العرب قبل الإسلام

لمعرفة أوضاع العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع الى المصادر التالية:

- ١ - التوراة على ما فيها من تحريفات.
 - ٢ - كتابات اليونانيين والروميين في القرون الوسطى.
 - ٣ - الكتابات التاريخية التي كتبها علماء الإسلام ومؤلفوه.
 - ٤ - الآثار القديمة التي عثر عليها المستشرقون في تنقيباتهم والتي استطاعت عن أن تكشف النقاب عن طائفة لا يُستهان بها من الحقائق في هذا الصعيد.
- إلا انه مع وجود كل هذه المصادر والمراجع لا تزال هناك نقاط كثيرة عن تاريخ العرب في القرون البعيدة تعاني من الغموض.
- ولكن حيث أنّ دراسة أوضاع العرب قبل الإسلام هي من باب المقدمة في هذا الكتاب، والهدف الاساسي إنما هو دراسة السيرة النبوية الطاهرة، من هنا نكتفي في هذا الفصل باستعراض النقاط الخاصة والواضحة من حياة العرب قبيل الإسلام على اننا يمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب خاصة قبيل بزوغ الإسلام من خلال مصدرين اسلاميين اساسيين هما:
- ١ - القرآن الكريم.
 - ٢ - ماورد عن الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة.

فقد وردت في هذين المصدرين تصريحاتٌ ونصوصٌ صريحة تكشف عن ما كان عليه العرب في الجاهلية من سوء الأحوال والأوضاع والأخلاق في جميع الأصعدة والابعاد، وسنشير إلى أبرز هذه النصوص ونقف عندها بعض الشيء، ولكننا نستعرض قبل ذلك شيئاً من تاريخ العرب في القرون البعيدة فنقول:

إن من المسلم أن شبه الجزيرة العربية كان منذ أقدم العصور موطناً لقبائل كثيرة انقرض بعضها بمرور الأيام، وفي ثنايا الأحداث، بيد أن هناك ثلاث قبائل قد تشعبت عنها أفخاذٌ وفروعٌ تحظى بشهرة أكثر من بين من سكنوا هذه المنطقة.

وهذه القبائل الأُم هي:

١ - العرب البائدة: وإنما سُميت بالبائدة لأنها أبيدت بالعذاب الإلهي السماوي أو الأرضي بسبب عصيانها وتمردها، وهلكت شيئاً فشيئاً، ولم يبق على وجه الأرض من نسلهم أحد!

ولعلهم كانوا هم المعنيون بقوم «عاد» و «ثمود» الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم مراراً.

٢ - القحطانيون: وهم أبناء يعرب بن قحطان الذين كانوا يقطنون في «اليمن» وسائر المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ويُسمون بالعرب الأصلاء، وهم اليمنيون اليوم، ومنهم قبائل الأوس والخزرج وهما قبيلتان كبيرتان كانتا تقطنان المدينة المنورة إبان ظهور الإسلام.

وقد كان للقحطانيين حكومات كثيرة، كما كانت لهم جهودٌ كبرى في تعمير أرض اليمن وأحيائها، وقد تركوا من ورائهم حضارات ومدنٍ لا يستهان بها.

وتوجد الآن كتابات تُقرأ بصورة علمية توضح إلى حد كبير تاريخ القحطانيين وكل ما يقال عن مدنية العرب وحضارتهم قبل الإسلام تعود في الحقيقة إلى هذه الطائفة وخاصة من سكن منهم أرض اليمن.

٣ - العدنانيون : وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السّلام،

وسوف يأتي ذكر جذور هذه الطبقة في الابحاث القادمة. وخلاصة ذلك : أن إبراهيم الخليل عليه السّلام أمران يسكن ولده الرضيع اسماعيل مع زوجته «هاجر» ام اسماعيل في ارض مكة، فخرج بهما ابراهيم عليه السّلام من «فلسطين» وهبط بهما في ذلك الوادي العميق الخالي عن الماء والعشب «مكة» ثم ان يد العناية الالهية امتدت إلى تلك العائلة المهاجرة، وجادت عليها بعين «زمزم» الذي جلب الرواء والحياة الى تلك المنطقة القاحلة الضامئة.

ثم تزوج إسماعيل من قبيلة «جُرْهُم» التي خيّمَت بالقرب من مكة، واصاب من هذا الزواج عدداً كبيراً من الابناء، والاحفاد، وأحفاد الاحفاد كان من جملتهم «عدنان» الذي ينتهي نسبه الى النبي اسماعيل عبر عدد من الآباء والجدود.

ثم تشعبت ذرية إسماعيل الى بطون وأفخاذ، وعشائر وقبائل عديدة، كان من بينها قبيلة قريش التي حظيت بشهرة أكبر، ومنها عشيرة بني هاشم التي انحدر منها رسول الله صلى الله عليه وآله كما ستعرف ذلك بالتفصيل، عما قريب.

أخلاقُ العرب و تقاليدُهم العامة:

والمراد منها هو الأخلاق والآداب الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع، وقد سادت بعض هذه الاخلاق والعادات والتقاليد في المجتمع العربي عامة.

ويمكن تلخيصُ ما كانَ العربُ يتمتعون به من أخلاق وصفات حسنة عامة في مايلي:

لقد كان العرب زمن الجاهلية وبخاصة ولد «عدنان» أسخياء بالطبع، يكرمون الضيف، وقلما يخونون في الامانة، لا يغتفرون نقض العهود، ولايتهاونون مع من يتنكر للمواثيق، يضحون في سبيل المعتقد، ويتحلون بالصراحة الكاملة، وربما وجد فيهم من تمتع بذكاء لامع، وذاكرة خارقة يحفظ بها الأشعار والقصائد الطوال، والخطب المفصلة.

هذا الى جانب براعتهم في فن الشعر و الخطابة بحيث لم يسبقهم في ذلك غيرهم والى جانب انهم كانوا مضرب المثل في الشجاعة والجرأة، والمهارة في الفروسية والرمي.

يرون الفرار والادبار في الحرب عاراً لازماً، وصفة ذميمة يلام صاحبها بسببها اشد اللوم.

ولكن في مقابل ذلك. كله كانوا يعانون من مفاصد أخلاقية تغطي على كل كمال عندهم، وتنسي كل فضيلة.

ولولا تلك الكوة المباركة التي فتحت عليهم من عالم الغيب، لطويت صفحة حياتهم الإنسانية على القطع واليقين.

يعني لو لم تبزغ شمس الإسلام في أواسط القرن السادس الميلادي، ولم تسطع أشعتها الباعثة على الحياة، على عقولهم وقلوبهم لما رأيت اليوم من العرب العدنانيين أي أثر، ولتكررت مقولة العرب البائدة مرة أخرى!

لقد حوّل فقدان القيادة الرشيدة، وغياب الثقافة الصحيحة حياة العرب، من جانب، وانتشار الفساد والفحشاء من جانب آخر إلى حياة حيوانية مُزرية حتى أن صفحات التاريخ تروي لنا أخباراً وقصصاً مفصلة عن حروب دام بعضها خمسين عاماً، وبعضها الآخر مائة عام قد نشبت بين الاطراف العربية لأسباب طفيفة ودوافع تافهة جداً.

لقد أدى عدم سيادة النظام والقانون على الحياة العربية، وعدم وجود حكومة قوية مسيطرة على الاوضاع، توقف البغاة والمتمردين عند حدودهم، إلى أن يعيش العرب -آنذاك- في صورة القبائل الرُّحَل، ويرحلوا في كل سنة الى منطقة معينة من الصحراء التماساً للعشب والماء لانفسهم ولانعامهم، فاذا عثروا على ماء وعُشب أو شيء من آثار الحياة نزلوا عنده، وأنزلوا رحالهم بجواره، فاذا سمعوا عن وجود مكان افضل استأنفوا رحلتهم الصحراوية التماساً لحياة اكثر بركة، وعطاء، وأوفر خصباً وأمناً.

هذه الحيرة وهذا الضياع وعدم الاستقرار كان ناتجاً من أمرين:

الأول: سوء الأوضاع الجغرافية ورداءة الأحوال الطبيعية للجزيرة العربية، وخاصة من حيث الماء والمناخ والمراعي.

والآخر: الحروب والمصادمات الدموية الكثيرة، واضطراب الأحوال الاجتماعية، التي كانت تلجئ جماعات كثيرة إلى التنقل الدائم والرحيل عن الأوطان ومغادرتها، وعدم الاستقرار في منطقة معينة.

هل كان للعرب حضارة قبل الإسلام؟

يستنتج مؤلف كتاب «حضارة العرب» من دراسته لأوضاع العرب الجاهلية أن العرب كانوا أصحاب حضارة عريقة سبقت الإسلام بقرون.

فالقصور الصخمة التي أقاموها في مختلف نقاط ومناطق الجزيرة العربية، والعلاقات التجارية التي كانت لهم مع أرقى شعوب الأرض، شواهد قوية على تمدنهم وحضارتهم الغابرة، لأن قوماً أنشأوا المدن العظيمة - قبل الرومان بقرون كثيرة - وكانت علاقاتهم بارقي وأكبر شعوب الأرض وثيقة، لا يمكن عدّهم همجاً، وشعباً بلا حضارة.

ثم إنه يستدل - في موضع آخر من كتابه - على حضارة العرب الغابرة بادابهم ووحدة وكمال لغتهم اذ يقول:

«ولو كان التاريخ صامتاً إزاء حضارة لقطعنا - مع ذلك - بوجودها قبل ظهور «محمد» بزمن طويل، ويكفي لتمثلها أن نذكر أنه كان للعرب آداب ناضجة ولغة راقية.

والحق أنّ الآداب واللغة من الأمور التي لا تأتي عفواً، وهي تتخذ دليلاً على ماضٍ طويل، وينشأ عن اتصال أمة بأرقى الأمم اقتباسها لما عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك».

وقد خصّص المؤلف المذكور صفحات عديدة في كتابه لإثبات حضارة عريقة وعظيمة للعرب قبل الإسلام معتمداً في ذلك على ثلاث أمور:

٢ - وجود علاقات مع الامم الراقية.

٣ - وجود قصور وأبنية ضخمة، وفخمة في اليمن كما يصفها المؤرخان المسيحيان المعروفان «هيردوتس» و«ارتميدور» اللذان كانا يعيشان قبل المسيح بقرون، وقدامى المؤرخين المسلمين كالمسعودي^(١).

لا كلام في أنه كانت هناك في بعض مناطق الجزيرة العربية بعض حضارات، ولكن الأدلة التي استند اليها المؤلف المذكور لا يمكن ان تكون شاهداً ودليلاً على وجود الحضارة في جميع نقاط الجزيرة العربية أبداً.

صحيح أن تكامل اللغة يسير جنباً الى جنب مع غيره من مظاهر المدنية، ولكن لا يمكن ان نعتبر اللغة العربية لغة مستقلة وغير مرتبطة باللغات الأخرى اي العبرانية والسريانية والآشورية والكلدانية؛ لأن جميع هذه اللغات - حسب ما يؤيده ويؤكد المتخصصون في علم اللغات - كانت ذات يوم - متحدة الأصل، وقد تشعبت من لغة واحدة، وفي هذه الحالة يحتمل أن تكون اللغة العربية قد حققت تكاملها عبر اللغة العبرانية أو الآشورية، وبعد تكاملها أصبحت لغة مستقلة، أي ان الآخرين أسهموا في تكميلها.

كما أنه لا شك أن وجود علاقات تجارية مع الأمم والشعوب الراقية هو الآخر دليل على الحضارة والمدنية إلا أنه هل كانت جميع مناطق الجزيرة العربية تملك مثل هذه العلاقات، أم إن اكثرها كانت محرومة من ذلك؟ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فان وجود علاقات بين حكومتين في الحجاز وهما: «الحيرة وغسان» وبين حكومتي «الفرس» و«الروم» لا يدل أبداً على وجود حضارة في المنطقتين الحجازيتين إذ أن جميع هذه الحكومات كانت متصفة بالعمالة، فان الكثير من البلاد الافريقية هي اليوم من مستعمرات الدول الاوربية ومع ذلك لا توجد فيها أية مؤشرات ولا أية مظاهر من الحضارة الغربية الواقعية.

(١) حضارة العرب: ٧٨ - ١٠٠.

طبعاً لا يمكن إنكار حضارة «سبأ ومأرب اليمن» العجيبة لأنه مضافاً إلى ماجاء حول هذه الحضارة في التوراة، ومائِقِلَ عن «هيردوتس» وغيره، كتب المؤرخ المعروف «المسعودي» عن مأرب يقول: إن أرض سبأ كانت من أخصب أراضي اليمن وأثراها وأغدقها، واكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مُروجاً، بين بُنيان وجسد مقيم وشجر موصوف ومساكب للماء متكاثفة، وأنهار متفرقة، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحال، وفي العرض مثل ذلك، وإنّ الراكب أو المارّ كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا يرى جهة الشمس، ولا يفارقه الظلُّ لاستتار الأرض بالعمارة والشجر واستيلائها عليها واحاطتها بها، فكان أهلها في اطيب عيش وارفهه، وأهنا حال وارغده، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء، وتدفق المياه وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة، ونهاية المملكة... فذلت لهم البلاد، واذعن لبطاعتهم العباد فصاروا تاج الارض»^(١).

وخلاصة القول أن هذه الدلائل لا تدل على وجود حضارة في كل مناطق الجزيرة العربية وخاصة منطقة الحجاز التي لم تذوق طعم الحضارة أبداً، حتى أن «غوستاف لوبون» نفسه يعترف بهذه الحقيقة إذ يقول: «ان جزيرة العرب نجت من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حدودها الشمالية، وإن عطاء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التي أوصدت دونهم أبوابها»^(٢)

وعلى فرض صحة كل ما قيل عن وجود حضارة شاملة في جميع مناطق الجزيرة العربية فانه يجب القول بان القدر المسلّم في هذا المجال هو انه لم يبق أي اثر من هذه الحضارات في منطقة الحجاز، إبان طلوع الإسلام، وبزوغ شمسهِ، وهي حقيقة يصرح بها القرآن الكريم اذ يقول تعالى: «وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا»^(٣).

(١) مروج الذهب: ج ٢ ص ١٦١ و ١٦٢. (٢) حضارة العرب: ص ٩٣. (٣) آل عمران: ١٠٣.

ويبغى هنا أن نقف عند القرآن الكريم قليلاً - كما وعدنا بذلك - فانه خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بدقة متناهية وبشمولية ماوراءها شمولية.

ملامح المجتمع الجاهلي العربي في منظور القرآن:

إن القرآن يكشف إجمالاً عن أن النبي صلى الله عليه وآله بُعث إلى قوم لم يبعث اليها احد قبله اذ يقول: «وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (١).

ويقول في آية أخرى: «أَمْ يَقُولُونَ افتراه بل هو الحق من ربك ليتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون» (٢).

ومن المعلوم أن المقصود في هاتين الايتين ونظائرها هم قريش والقبائل القريبة اليها.

على أن أشمل وصف قرآني لأوضاع المجتمع العربي الجاهلي وأحواله هو قول الله تعالى: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (٣).

فإن هذه الآية تصوّر حياة العرب تصويراً مرعباً، اذ تصوّرهم اولاً وكأنهم قد سقطوا في قعر بئر الجاهلية، والضلال والشقاء فلا ينقذهم شيء من قعر التردّي والسقوط الا التمسك بحبل الله، حبل الإيمان والقرآن.

وتصوّرهم ثانياً وكأنهم على شفير جهنم يوشكون أن يسقطوا فيه وهووا في نيرانه، وليست تلك النار إلا نيران العداوات والحروب التي لو لم يقض عليها الإسلام بتعاليمه لأحرقت حياة العرب جميعاً.

هذه هي صورة سريعة عما كان عليه العرب في الجاهلية من جهل وسقوط. واما تفصيل ذلك فيمكن الوقوف عليه بمراجعة الآيات الأخرى التي

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٢) السجده: ٣.

(١) القصص: ٤٦.

تعرضت لذكر عادات العرب وأخلاقهم، وأفعالهم وتقاليدهم، بصورة مفصلة، وهانحن نشير هنا إلى تلكم العادات والاخلاق الفاسدة على ضوء تلك الآيات على نحو الاختصار تاركين التوسع في ذلك إلى مجال آخر.

لقد اتصف المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام وشاعت فيه أخلاق وعادات من أبرزها مايلي:

١ - الشِرْكُ في العبادة:

صحيح أن العرب في الجاهلية كانت- كمايكشف القرآن ذلك لنا- موحدّة في جملة من الامور والمجالات كالخالقية والتدبير والذات^(١) إلا أنهم كانوا- في الأكثر- مشركين في العبادة، بل قد ذهبوا في هذا السبيل الباطل إلى أحطّ المستويات في إتخاذ المعبودات والوثنية.

و إلى ذلك يشير قوله تعالى: «وَجَعَلُوا لَهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»^(٢).

وقوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ»^(٣).

وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى ماكان يعبده الجاهليون من أوثان وأصنام ومبلغ ماوصلوا اليه من انحطاط، واسفاف وانحراف في هذا المجال.

٢ - إنكارُ المعاد:

كان المشركون والجاهليون يرفضون الاعتراف بالمعاد الذي يعني عودة الإنسان إلى الحياة. في عالم آخر للحساب والجزاء، ويصفون من يخبر عن ذلك

(١) نعم يُستفاد من آية واحدة أنه كان هناك اتجاه نادراً بين العرب في الجاهلية ينسب الظواهر الطبيعية إلى الطبيعة والدهر يقول الله تعالى: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (الجملة ٢٤).

(٢) الأنعام: ١٠٠. (٣) النجم: ١٩ و ٢٠.

اليوم بالجنون او الكذب على الله!!

يقول تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ إِنْكُمْ لَنْ يَخْلُقَ جَدِيدًا. وَأَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ»^(١).

٣ - هَيْمَنَةُ الْخَرَافَاتِ:

لقد كانت حياة العرب الجاهلية مليئةً بالخرافات التي كان منها تحريمهم الأكل من أنواع أربعة ذكرها القرآن مندداً بهذه البدعة اذ قال: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا لَحَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْذَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»^(٢).

أما (البحيرة) بوزن فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق، فهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها أثى - وقيل ذكر - بحروا أذنفا وشقوها ليكون ذلك علامة وتركوها ترعى، ولا يستعملها أحد في شيء.

وأما (السائبة) على وزن فاعلة بمعناها أو بمعنى مفعولة فهي الناقة إذا نتجت اثني عشر بطناً - وقيل عشرة - فهي تُهْمَلُ ولا تُركب. ولا تمنع عن ماء، ولا يشرب لبنها الاضيف.

وأما (الوصيلة) بوزن فعيلة بمعنى فاعلة او بمعنى مفعولة فهي الشاة تنتج سبعة أبطن او تنتج عناقين عناقين.

وأما (الحامي) بوزن فاعل من الحمى بمعنى المنع فهو الفحل من الإبل الذي يستخدم للقاح الأناث، فاذا وُلِدَ من ظهره عشرة أبطن قالوا: حُمِي ظهره فلا يحمل عليه، ولا يُمنع من ماء ومرعى^(٣).

والظاهر ان هذا المذهب تجاه هذه الانواع من الانعام كان بدافع الاحترام

(٢) المائة: ١٠٣.

(١) سبأ: ٧ و ٨.

(٣) راجع مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ في تفسير الآية.

والشكر لما وهب أصحابها من النعم والبركات، غير أن هذا العمل - كان في حقيقته - نوعاً من الإيذاء والإضرار بهذه الحيوانات، لأنهم كانوا يُهمّلونها ويحرمونها من العناية اللازمة فكانت تشقى بقية حياتها، وتقاسي من الحرمان، مضافاً إلى ما كان يصيبها من التلف والضياع، وما يلحق ثروتهم والنعم التي وهبها الله لهم من هذا الطريق من الضرر والخسارة.

والأسوأ من كل ذلك أنهم - كما يُستفاد من ذيل الآية - كانوا ينسبون هذه المبتدعات المنكرات وهذا المنع والحظر إلى الله سبحانه وتعالى، اذ يقول سبحانه: «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» وقد أعلم الله في مطلع الآية أنه لم يحرم من هذه الاشياء شيئاً، وأنهم ليكذبون على الله بادعائهم أن هذه الأشياء من فعل الله أو أمره.

وقد أشار القرآن إلى هذه الخرافات التي كانت تُكبّل عقول الناس في ذلك المجتمع اذ يقول: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»^(١).

٤ - الفساد الاخلاقي:

كان المجتمع الجاهلي العربي يعاني من فساد ذريع في الاخلاق وقد أشار القرآن الكريم الى اثنين من أبرز وسائل الفساد ومظاهرهما: القمار (الذي كانوا يسمّونه بالميسر وانما اشتق من اليسر لأنه اخذ مال الرجل يُيسر وسهولة من غير كد ولا تعب) والخمر.

وقد بلغ شغفهم بالخمر أنهم عرضوا عن قبول الإسلام واعتناقه لأنه يحرم تناول الخمر وشربه، كما نقرأ ذلك في قصة الاعشى عما قريب.

يقول القرآن في هذا الصعيد: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهَا اكْبَرُ مِن نَّفْعِهَا»^(٢).

وقد استطاع القرآن الكريم عبر مراحل أربع أن يستأصل هذه العادة البغيضة

(٢) البقرة: ٢١٩.

(١) الأعراف: ١٥٧ و راجع المحرر ص ٣٣٠ - ٣٣٢.

التي كانت قد تجذرت بشكل عجيب في نفوس ذلك القوم، حتى أصبحت السمة البارزة لحياتهم وأصبح التغني بالخمرة، ووصفها الطابع الغالب لأدبهم، واللون البارز الذي يصنع قصائدهم وأشعارهم.

على أن الفساد الأخلاقي في المجتمع الجاهلي العربي قبل الإسلام لم يكن ليقصر على معاقرة الخمر، ومزاولة الميسر بل تعدى إلى ألوان أخرى ذكرها القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً، حيث عدّ منها الزنا، واللواط، والقذف، وإكراه الفتيات على البغاء وما شاكل ذلك^(١).

٥ - وأد البنات وإقبارهن:

و يشير القرآن الكريم أيضاً إلى عادة جاهلية سيئة أخرى كانت رائجة بين قبائل العرب الجاهلية قاطبة وهي دفن البنت حية.

فقد شجب القرآن الكريم هذه العادة البغيضة وهذا العمل اللاساني ونهى عنه بشدة في أربعة مواضع، إذ قال تعالى: «وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»^(٢). وقال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا»^(٣).

وقد اتى جُدُّ «الفرزدق» «ضعصة بن ناجية بن عقال» رسول الله صلى الله عليه وآله وعدّ من اعماله الصالحة في الجاهلية أنه فدى مائتين وثمانين مؤودة في الجاهلية، وأنقذهنّ من الموت المحتّم باشترائهنّ من آبائهن بأمواله.

وقد افتخر «الفرزدق» بإحياء جدّه للمؤودات في كثير من شعره اذ قال:

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَأْتِدَاتِ

وَأَحْيَا الْوَأْتِيدَ فَلَمْ يُؤَادِ^(٤)

(١) راجع للوقوف على ذلك سورة النساء: ١٥ و ١٦. وسورة النور: ٢ و ٣ وغيرها. وراجع المحبر:

(٣) الإسراء: ٣١

(٢) التكويز: ٨ و ٩.

ص ٣٤٠.

(٤) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣ ص ٤٥ و ٤٦.

٦ - تصوراتهم الخرافية حول الملائكة:

ومما أشار اليه القرآن الكريم تصورات العرب الجاهلية حول الملائكة، فقد كانوا يعتقدون أن الملائكة من الإناث وأنهن بنات الله، اذ يقول تعالى: «فَاسْتَفْتَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ الْبَنَاتُ وَأَلَهُمُ الْبَتُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ لَيَقْرَأُونَ وَلَدَالِلُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»^(١).

٧ - كيفية الانتفاع من الانعام:

إذا كانت العرب الجاهلية تمتنع من تناول لحوم الأنعام الاربعة المذكورة آنفاً وتجتنب عن استعمال ألبانها وشعورها وأصوافها إلا أنها كانت في المقابل تتناول الدم، والميتة والخنزير، وتأكل من الحيوانات والأنعام التي تقتلها بصورة قاسية، وبالتعذيب والأذى، وربما كانت تعتبر ذلك نوعاً من العبادة، ويُعرف ذلك من الآية التالية التي نزلت تنهى بشدة عن أكل هذه اللحوم، وتحرم تناولها، اذ يقول سبحانه: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ»^(٢).

فقد حرم الله في هذه الآية اكل:

١ - الميتة.

٢ - الدم.

٣ - لحم الخنزير.

٤ - ما ذكر اسم غير الله عليه.

٥ - التي تموت خنقاً، وهي المنخنقة.

(٢) المائدة: ٣.

(١) الصافات: ١٤٩ - ١٥٤.

- ٦ - التي تضرب حتى تموت، وهي الموقوذة.
- ٧ - التي تقع من مكان عال فتموت وهي المتردية.
- ٨ - التي تموت نطحاً من حيوان آخر وهي النطيحة.
- ٩ - ما افترسه سبع إلا اذا ذُكي قبل موته.
- ١٠ - وما ذُبِح أمام الاصنام.

٨ - الاستقسام بالأزلام:

فقد كان تقسيم لحم الذبيحة يتم عن طريق الأزلام، والأزلام جمع (زلم) بوزن (شَرَف) وهي عيدان وسهام تستخدم في ما يشبه القرعة لتقسيم لحم الذبيحة. فقد كان يشتري عشرة أنفار بغيراً ثم يذبحونه، ثم يكتبون على سبعة منها اسهماً مختلفة من الواحد الى السبعة ولا يكتبون على ثلاثة منها شيئاً، ثم يجعلونها في كيس ثم يستخرجونها واحدة بعد أخرى، كلُّ واحدة باسم أحدهم فيأخذ كل واحد منهم من الذبيحة ما خرج له من السهم، وهكذا يقتسمون الذبيحة بينهم^(١)، فنهاهم الله عن ذلك بقوله: «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ» لآته ضربٌ من القمار الذي ينطوي على مفاصد الميسر والقمار.

٩ - النسيء:

كان العرب الجاهليون يعتقدون حرمة الاشهر الحرم (وهي أربعة المحرم ورجب وذوالقعدة وذوالحجة) فكانوا يتخرجون فيها من القتال، وجرت عادة العرب على هذا من زمن إبراهيم واسماعيل عليهما السلام. إلا أن سَدَنَةَ الكعبة أو رؤساء العرب كانوا يعمدُون أحياناً، ولقاء مبالغ يأخذونها، أو جرياً مع أهوائهم، الى تأخير الاشهر الحُرَمَ، وهو الأمر الذي عبّر

(١) راجع للوقوف على تفصيل هذه الطريقة بلوغ الارب: ج ٣ ص ٦٢ و ٦٣، والمحرر: ص ٣٣٢ -

عنه القرآن الكريم بالنسيء ثم نهى عنه وعدّه، كقوله: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»^(١).

وقد ذكرت كتب التاريخ والسير كيفية النسيء وتأخير الأشهر الحرم، الذي كان يتم بصور مختلفة منها: أن جماعة ما لو كانت ترغب في استمرار الغارة والقتال ولم تطق تأخير النضال مدة الأشهر الحرم كانت تطلب من سدنة الكعبة، لقاء ماتقدمه لهم من هدايا واموال، تجوز الغارة والقتال في شهر محرم، وتحرم القتال في شهر صفر بدله ليم عدد الأشهر الحرم (وهي اربعة). وهذا هو معنى قوله تعالى: «لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» و كانوا إذا أحلوا القتال والغارة في المحرم من سنة حرّموه في المحرم من السنة التالية، وهذا هو معنى قوله تعالى: «يُحِلُّونَهُ عَامًا، وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا».

١٠ - الربا:

ومما يشير اليه القرآن الكريم من المفاصد الشائعة، والأعمال المنكرة في المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام: «الربا» الذي كان يشكل العمود الفقري في اقتصاد ذلك المجتمع.

وقد حارب القرآن الكريم هذه العادة المقيتة، وهذا الفساد الاقتصادي حرباً شعواء، إذ قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ»^(٢).

والعجيب أنهم كانوا يبررون هذا العمل اللإنساني بقولهم «إنما البيع مثل الربا»^(٣) فاذا كان البيع حلالاً وهو اخذ وعطاء فليكن الربا كذلك حلالاً، فإنه أخذ وعطاء أيضاً، مع أن «الربا» من اشنع صور الاستغلال، وقد ردّ

(٣) البقرة: ٢١/٥.

(٢) البقرة: ٢٧٨ و ٢٧٩.

(١) التوبة: ٣٧.

سبحانه على هذه المقالة بقوله تعالى: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»^(١) ففي البيع والشراء يتساوى الطرفان في تحمل الضرر المحتمل، بينما لا يتضرر المرابي في النظام الربوي أبداً وإنما يلحق الضرر بمعطي الزبا دائماً، ولهذا تنمو المؤسسات الربوية، ويعظم رصيدها، وثروتها يوماً بعد يوم فيما يزداد الطرف الآخر بؤساً وفقراً، ولا يحصل من جهوده المضنية إلا على ما يسدُّ جوعته، ويقيم اوده، لا أكثر، كل ذلك نتيجة لهذا الاسلوب الاقتصادي غير العادل..

صور من الوضع الجاهلي

ما قدمناه كان أبرز المفاصد الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أشار اليها القرآن الكريم، وأما التاريخ فليست بالصور والقصص التي تحكي عن تردي حالة العرب الجاهلية وسقوطها الفضيع في قعر الفساد في جميع المناحي والجهات.

واليك في مايلي نماذج وصور معدودة تكفي للوقوف على الحالة العامة في ذلك المجتمع نقتبسها لك من أصح المصادر واثقتها:

وها نحن نقدم قصة «أسعد بن زرارة» التي تسلط الضوء على ما كان عليه الوضع الجاهلي في أكثر مناطق الحجاز، فقد قدم «أسعد بن زرارة» و «ذكوان بن عبد قيس» - وهما من الأوس وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهرًا طويلاً، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم «يوم بُعث» وقد انتصرف فيها الأوس على الخزرج - مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان اسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه فقال: انه كان بيننا وبين قومنا حربٌ وقد جئناك نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبة: إن لنا شغلاً لا نتفرغ لشيء. قال سعد: وما شغلکم وأنتم في حرمکم وأمنکم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجلٌ يدعي أنه رسول الله سقّه أحلامنا، وسبّ آهتنا وأفسد

شُبَّانِنَا، وِفَرَّقَ جَمَاعَتِنَا، فَقَالَ لَهُ أَسْعَدُ: مَنْ هُوَ مِنْكُمْ؟ قَالَ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مِنْ أَوْسَطِنَا شَرَفًا، وَأَعْظَمِنَا بَيْتًا.

وَكَانَ أَسْعَدُ وَذَكَوَانُ، وَجَمِيعُ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ يَسْمَعُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَهُمْ: النَّضِيرَ وَقَرِيظَةَ وَقَيْنِقَاعَ، أَنَّ هَذَا أَوَانَ نَبِيِّ يَخْرُجُ بِمَكَّةَ يَكُونُ مَهَاجِرَهُ بِالْمَدِينَةِ لِنَقْتَلِنَكُمْ بِهِ يَامَنْعُشِرَ الْعَرَبِ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ أَسْعَدُ وَقَعَ فِي قَلْبِهِ مَا كَانَ سَمِعَ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: جَالِسٌ فِي الْحَجْرِ، وَإِنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ شَعْبِهِمْ إِلَّا فِي الْمَوْسِمِ، فَلَا تَسْمَعُ مِنْهُ وَلَا تَكَلِّمُهُ فَانْهَ سَاحِرٌ يَسْحَرُكَ بِكَلَامِهِ، وَكَانَ هَذَا فِي وَقْتِ مُحَاصِرَةِ بَنِي هَاشِمٍ فِي شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ «أَسْعَدُ»: فَكَيْفَ أَصْنَعُ وَأَنَا مَعْتَمِرٌ لِأَبَدِّي أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ؟ قَالَ: ضَعُ فِي أُذُنِكَ الْقِطْنَ، فَدَخَلَ «أَسْعَدُ» الْمَسْجِدَ وَقَدَحَشَا أُذُنَيْهِ بِالْقِطَنِ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَرَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ فِي الْحَجْرِ مَعَ قَوْمٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَجَازَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الشُّوْطِ الثَّانِي قَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا أَجِدُ أَجْهَلَ مِنِّي؟ أَيَكُونُ مِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ بِمَكَّةَ فَلَا أَتَعَرَّفُهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى قَوْمِي فَأَخْبِرَهُمْ، ثُمَّ أَخَذَ الْقِطْنَ مِنْ أُذُنَيْهِ وَرَمَى بِهِ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ: أُنِعِمَّ صَبَاحًا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأْسَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: قَدْ أَبَدَلْنَا اللَّهَ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالَ لَهُ أَسْعَدُ: إِنَّ عَهْدَكَ بِهَذَا لَقَرِيبٌ، إِلَى مَا تَدْعُو يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: إِلَى شَهَادَةِ إِلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى: «إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَأَنْكَلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»^(١).

فلما سمع «أسعد» هذا قال له: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، يارسول الله بأبي أنت وأمي... (١).

إن الامعان في مفاد هاتين الآيتين يغنيانا عن دراسة شاملة وواسعة لاوضاع العرب الجاهلية لأن هاتين الآيتين تكشفان عن الأمراض الاخلاقية التي كانت تكتنف حياة العرب الجاهلية. ولهذا تلا رسول الله الآيات التي تشير إلى هذه الادواء والامراض ليلفت نظر «سعد» إلى أهداف رسالته الكبرى.

العقيدة والدين في الجزيرة العربية:

عند مارفع «إبراهيم الخليل» لواء التوحيد في البيئة الحجازية، واعاد بناء الكعبة المعظمة ورفع قواعدها بمعونة ابنه «اسماعيل»، تبعه في ذلك طائفة من الناس ممن أنار الله به قلوبهم، الآ انه من غير المعلوم إلى أي مدى استطاع ذلك النبي العظيم أن يعتم دين التوحيد ويبسط لواءه على الجميع، ويؤلف صفوفاً مترابطة، وجبهة عريضة قوية من الموحدين، غير ان من المعلوم انه اصبحت تلك المنطقه مسرحاً للوثنية ولعبادة الاشياء المختلفة مع الايام فقد كانت الطبقة المثقفة من العرب تعبد الكواكب والقمر، فهذا هو المؤرخ العربي الشهير الكلبي الذي توفي عام ٢٠٦ هجرية يكتب في هذا الصدد قائلاً كان «بنومليح» من خزاعة يعبدون الجن وكانت «حمير» تعبد الشمس، و«كنانة» تعبد القمر، و«تميم» الدبران، و«لحم» و«جذام» المشتري، و«طي» سُهَيْلاً، و«قيس» الشعري، و«أسد» عطارداً.

أما الدهماء والذين كانوا يشكلون اغلبية سكان الجزيرة فقد كانوا يعبدون -مضافاً إلى الصنم الخاص بالقبيلة أو العائلة- ثلاثمائة وستين صنماً، وكانوا ينسبون أحداث كل يوم من أيام السنة إلى واحدٍ منها.

وقد دخلت عبادة الأصنام والأوثان في مكة بعد «إبراهيم الخليل»

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٨ و ٩، اعلام الورى: ص ٣٥ - ٤٠.

عليه السّلام على يد «عمرو بن لحي»، ولكنها لم تكن في بداية أمرها بتلك الصورة التي وصلت إليها في مابعد فقد كانوا يعتبرونها في بداية الامر شفعاء إلى الله ووسطاء بينه وبينهم، ولكنهم تجاوزوا هذا الحد في مابعد حتى صاروا يعتقدون شيئاً فشيئاً بانها اصحاب قدرة ذاتية مستقلة، وأنها بالتالي آلهة وأرباب.

وكانت الاصنام المنصوبة حول الكعبة تحظى باحترام جميع الطوائف العربية، ولكن الاصنام الخاصة بالقبائل فقد كانت موضع احترام جماعة خاصة فقط، ولأجل أن تبقى حرمة هذه الأصنام والأوثان الخاصة محفوظة لايمسها أحد بسوء كانوا ينشؤون لها أماكن وبيوت خاصة، وكانت سدانة هذه البيوت والمعابد تنتقل من جيل إلى آخر بالوراثة.

أما الأصنام العائلية فقد كانت العوائل تقتنيها للعبادة كل يوم وليلة، فاذا أراد احدهم السفر كان اخر ما يصنعه في منزله هو ان يتمسح به أيضاً.
و كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها، واتخذهُ رَبّاً وجعلَ ثلاثة أثافيّ لقدره، وإذا ارتحل تركه.

وكان من شَغَفَ أهلِ مكة وَحُبَّهم للكعبة والحرم أنه كان لايسافر منهم أحدٌ إلا حَمَلَ معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، وحباً له فحيثما حلّوا نصبوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صباية بها، ويمكن أن تكون هذه هي «الأنصاب» التي فسرت بالاحجار العادية غير المنحوتة وتقابلها الأوثان، وهي الاحجار المنحوتة؛ على هيئة خاصة، وأما «الأصنام» فهي المعمولة من خَشَب أو ذهب أو فضة على صورة انسان.

لقد بلغ خضوعُ العرب أمام الاصنام والأوثان حدّاً عجيباً جداً، فقد كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون كسب رضاها بتقديم القرابين اليها، وكانوا بعد نحر الهدايا يلطخون وجوه الاصنام ورؤوسها بدماء تلك الهدايا، وكانوا يستشيرونها في مهام امورهم، وجلائل شؤونهم، فاذا أرادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدّوا له ومعرفة عاقبته أخيراً هوأم شرّاً استقسمَ لهم أمين القداح بقدحي

(الأمر والنهي) وهي قطع كَتَبَ على بعضها (إفْعَلْ) وعلى بعضها الآخر (لا تَفْعَلْ) فيمُدُّ أمين القداح يده ويحيل القداح ويخرج واحداً فانْ ظَلَعَ الأمر فعل أو الناهي ترك .

وخلاصة القول، ان الوثنيّة كانت العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية، وقد تَفَشَّتْ فيهم في مظاهرَ متنوعة ومتعددة، وكانت الكعبة المعظمة - في الحقيقة - محطَّ أصنام العرب الجاهلية وآلهتهم المنحوتة، فقد كان لكل قبيلة في هذا البيت صنم، وبلغ عدد الاصنام الموضوعة في ذلك المكان المقدس (٣٦٠) صنماً في مختلف الاشكال والهيئات والصور، بل كان النصارى أيضاً قد نقشوا على جدران البيت وأعمدته صوراً لمريم والمسيح والملائكة، وقصة ابراهيم.

وكان من جملة تلك الأصنام: «اللات» و «العزى» و «مناة» التي كانت تعتبرها قریش بنات الله ويختص عبادتها بقریش.

و كانت «اللات» تعتبر أمّ الالهة، وكان موضعها بالقرب من «الطائف» وكانت من الحجر الابيض، وأما «مناة» فكانت في عقيدتهم إلهة المصيرورة الموت والاجل وكان موضعها بين «مكة» و «المدينة».

ولقد اصطحب «ابوسفیان» معه يوم «أحد»: «اللات» و «العزى».

و يروى انه مرض ذات يوم «أبوأحيحة» وهو رجل من بني أمية، مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه ابوهب يعوده، فوجده يبكي، فقال: مايبكيك يا اباأحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه؟ قال: لاولكني اخاف ان لا تُعَبِّد العزى بعدي! قال ابوهب: والله ما عُبِدَت حياتك (اي لاجلك) ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك!! فقال أبوأحيحة: الآن علمتُ ان لي خليفة^(١).

ولم تكن هذه هي كل الأصنام التي كانت تعظمها وتعبدها العرب بل كانت لقریش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان اعظمها «هُبَل»، كما انه لم يكن لكل قبيلة صنم خاص فحسب بل كانت كل عائلة تعبد صنماً خاصاً بها

مضافاً إلى صنم القبيلة وكانت المعبودات تتراوح بين الكواكب، والشمس، والقمر، والحجر، والخشب، والتراب، والتمر، والتماثيل المنحوتة المختلفة في الشكل، والهيكل، والاسم، المنصوبة في الكعبة أو في سائر المعابد.

لقد كانت الاصنام جميعها أو أغلبها معظمة عند العرب، يتقربون عندها بالذبائح ويقربون لها القرابين، وجرت عادة بعض القبائل انذاك أن تختار من بين أفرادها كل سنة شخصاً في مراسيم خاصة ثم تذبحه عند أقدام اصنامها، وتقبر جسده على مقربة من المذبح.

هذا العرض المختصر يكشف لنا كيف أن أرض الجزيرة العربية برمتها كانت قد اصبحت مسرحاً للاصنام ومستودعاً ضخماً للاوثان، وكيف تحولت هذه البقعة من العالم ببيوتها وازقتها وصحارها وحتى بيت الله المحرم كانت قد تحولت الى مخزن للنصب المؤلّهة، والتماثيل المعبودة، ويتجلى هذا الأمر من قول شاعرهم الذي اسلم وراح يستنكر ما كان عليه من عبادة الاصنام المتعددة الخارجة عن الاحصاء والعدّ، اذ قال:

| | |
|--|---------------------------|
| أدينُ إذا تقسّمتِ الأمورُ | أرتأُ واجِداً أم ألف رب |
| كذلك يفعلُ الجليدُ الصبورُ | عزلتُ اللات والعزى جميعاً |
| ولا صنمي بني عمرو أزورُ | فلا عزى أدين ولا ابنتيها |
| لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ | ولا غنماً أزورُ وكان رتأُ |
| ليغفِرَ ذنبي الربُّ الغفورُ ^(١) | ولكن أعبدُ الرحمان رتي |

وقد حدثت بسبب الاختلاف والتعددية في عبادة الاصنام والاثان المؤلّهة السخيفة الباطلة، تناقضات، وصراعات، وحروب ومناحرات، قد جرّت بالتالي -ويلات ومأس وخسائر مادية ومعنوية كبرى على تلك الجماعة المتوحشة، الضالة.



(١) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٢ ص ٢٤٩ وجاء البصير.

عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت:

و عن مصير الإنسان وحالته ما بعد الموت هذه المشكلة الفلسفية العويصة كانت رؤية العرب ونظرتهم تتلخص في مايلي:

عند ما يموت الانسان تخرج روحه من جسده على هيئة طائر شبيه باليوم يسمى عندهم بـ «الهامة والصدى» ثم يبقى هذا الطائر قريباً من جسد الميت ينوح نوحاً مقرحاً وموحشاً، وعند ما يوارى الميت يبقى هذا الطائر مقيماً عند قبره إلى الابد!

وربما وقف على جدار منزل الميت أحياناً لِيَسْقُطِ أخبار عائلته والاطلاع على أحوالهم!!

قال شاعرهم في ذلك :

سَلَطَ الْمَوْتُ وَالْمَنُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ
وإذا كان المرء قد مات بموتة غير طبيعية كما لو قُتِلَ -مثلاً- فإن ذلك الحيوان ينادي باستمرار: «اسقوني... اسقوني» اي اسقوني بسفك دم القاتل واراقتة؛ ولا يسكن عن هذا النواح والنداء الخاص الابعد الانتقام والثأر من قاتله.

قال احدهم في ذلك:

فِيَارِبَ إِنَّ أَهْلَكَ وَلَمْ تُرَوْهَامَتِي بَلِيلِي أُمَّتٌ لَأَقْبِرُ أَعْطَشَ مِنْ قَبْرِي^(١)
من هنا بالضبط تتجلى الحقيقة للقارئ ويعلم جيداً كيف أن تاريخ العرب ما قبل الإسلام وتاريخهم ما بعد الإسلام ما هو إلا تاريخان على طرفي نقيض:

فذلك تاريخ جاهلية، ووثنية وإجرام، وهذا تاريخ علم ووحداية وانسانية وإيمان، وشتان ما بين وأد البنات، وبين رعاية الايتام، وبين السلب والنهب والاغارة وبين المواساة والايثار، وبين عبادة الاوثان والاصنام الصماء العمياء

(١) بلوغ الارب. ج ٢ ص ٣١١ و ٣١٢.

والتقرب الى الله الواحد القادر.

الآداب مرآة آداب الشعوب ونفسياتها:

المخلفات الفكرية والثقافية، وما يتركه أي شعب من الشعوب من قصص وحكايات افضل وسيلة للتعرف على خلفياته النفسية والأخلاقية، ذلك لأن الآداب بما فيها الشعر والقصة، والخطبة والحكاية، والمثل والكناية مرآة صادقة تعكس المستوى الفكري لأية جماعة، وتعتبر خير مقياس لتمذنها، وحضارتها، وأفكارها ونفسياتها، تماماً كما تحكي اللوحات الفنية عن حياة عائلة، أو منظر طبيعي جميل، أو اجتماعات صاخبة، أو مشاهد قتالية.

إن القصائد والأمثال العربية التي كانت رائجة آنذاك تستطيع - قبل كل شيء - أن تكشف عن الوجه الحقيقي لتاريخهم ونمط حياتهم وسلوكهم، ولهذا السبب لا يجوز لأي مؤرخ واقعي يسعى الى الحصول على صورة كاملة عن تاريخ شعب من الشعوب أن يتجاهل التركة الفكرية والأدبية والثقافية لذلك الشعب سواء أكان شعراً أم نثراً، أمثالاً أم حكماً، قصصاً أم أساطير. ومن حسن الحظ أن مؤرخي الإسلام اثبتوا وسجلوا باتقان ما أثر من العرب مما يرتبط بآدابهم في العصر الجاهلي بقدر ما أتيح لهم ذلك.

وقد كان ابوتمام «حبيب بن اويس» (المتوفى عام ٢٣١ هجرية) والذي يُعتبر من كبار أدباء الشيعة، وله قصائد رائعة في مدح آل الرسول، ممن اعتنى عناية بالغة بهذه الناحية، حيث جمع في كتاب واحد طائفة كبيرة جداً من الشعر الجاهلي مفصلة في عشرة ابواب هي:

١ - الحماسة.

٢ - المراثي.

٣ - الادب.

٤ - النسب.

٥ - المهجاء.

۶ - الاضافات.

۷ - الصفات.

۸ - السير.

۹ - المُلح.

۱۰ - مذمة النساء.

وقد تناولَ هذا الديوان التاريخيُّ القيمُ عددٌ كبيرٌ من أدباء المسلمين وعلمائهم بشرح ابياته، وتفسير غوامضها، وبيان اغراضها، ومقاصدها. كما ترجم أصلُ الديوان إلى لغات اجنبية عديدة جاء ذكر طائفة منها في كتاب «معجم المطبوعات»^(۱).

مكانة المرأة عند العرب الجاهلية:

إن الباب العاشر من هذا الديوان خير وسيلة لمعرفة ما كانت عليه المرأة في العصر الجاهلي من الحرمان، وأقوى دليلٍ على أنها كانت تعيش - في ظل ذلك العهد - في أسوأ الحالات وأشد الظروف واتعسها. هذا مضافاً إلى أن الآيات القرآنية التي تنزلت وهي تشجب بعنف معاملة الجاهليين للعنصر النسائي، وقسوتهم على الأنثى، هي الأخرى افضل شاهد على مدى الانحطاط الاخلاقي والتدهور السلوكي الذي انحدروا اليه في هذا المجال. إن القرآن الكريم يصف عادة وأد البنات بقوله: «وإذا الموؤدة سئلت»^(۲) أي ليسئل يوم القيامة عن البنات اللاتي وُثدن وهن أحياء. إن القرآن الكريم بهذه العبارة الموحية إنما يتحدث - في الحقيقة - عن عادة وأد البنات بمرارة، ويشجبها بشدة حتى أنه يعتبرها جريمة نكراء لا تمر - في الآخرة - بدون حساب شديد، وسؤال خاص.

(۱) معجم المطبوعات: ص ۲۹۷، وقد اشتهر هذا الديوان ببابه الأول: «الحماسة» فسمي ديوان

(۲) التكوير: ۸.

حقاً انه لأمرٌ يكشف عن مدى القسوة التي كان عليها قلوبُ تلك الجماعة. إنها قسوةٌ تغشى كل عواطف المرء فلا يعود يسمع معها نداء الضمير، ولا يحسُّ معها بوخز الوجدان، انه لا يعود يسمع معها حتى صراخ بنته الجميلة البريئة، واستغاثاتها المؤلمة وهي ترى بأُم عينها حفيرتها، وتحس بيدي والدها القاسي، وهو يدفعها إلى تلك الحفرة ويدفنها حية! إنها قسوةٌ تكشف عن أسوأ وأحظ درجات الانحطاط الخلقي، والتقهقر الإنساني.

وبنو تميم هي أول قبيلة أقدمت على هذه الجريمة النكراء، وكان السبب أن «بني تميم» أمتنعوا من دفع ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم إلى الملك، فجرد اليهم النعمان بن المنذر حاكم العراق آنذاك جيشاً كبيراً لضرب هذا التمرد، وانتصر على «بني تميم» في المال وغنم منهم الغنائم وسبى منهم الفتيات والنساء، فوفدت وفود «بني تميم» على النعمان بن المنذر وكلموه في الذراري والنساء، فحكم النعمان بان يجعل الخيار في ذلك الى للنساء، فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه، فاختلفن في الخيار، فاخترت بعضهن العودة الى الاهل والاباء، واختارت بنتٌ لقيس بن عاصم سابياها على زوجها مما أثار هذا الموقف والاختيار غيظ والدها العجوز «قيس بن عاصم» فنذر من ذلك الحين أن يدس كل بنتٍ تُولد له. وهكذا سنَّ لقومه الوأد، واخذت بقية القبائل بهذه العادة البغيضة الوحشية إرضاء لغيرتهم وظلّوا يمارسونها اعواماً متتالية^(١).

واليك واحدة من القصص المأساوية في هذا المجال:

قيل لما وفد «قيس بن عاصم» على رسول الله صلى الله عليه وآله سأل بعض الانصار عما يتحدث به في المؤودات، فأخبر انه ماولدت له بنت إلا وأدها، قال: كنتُ اخاف العار ومارحمتُ منهن إلا بُنيّة كانت ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها الى أخواتها، وقدمت أنا من سفري فسألتها عن الحمل، فأخبرت أنها

(١) بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣ ص ٤٢ و ٤٣.

وَلَدْتُ وَلِداً مَيْتاً، وَكُتِمْتُ حَالِهَا، حَتَّى مَضَتْ عَلَيَّ ذَلِكَ سَنَوْنِ، وَكَبُرَتِ الصَّبِيَّةُ، وَيَنْبَعْتُ، فَزَارَتْ أُمُّهَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَدَخَلَتْ فَرَأَيْتَهَا وَقَدْ ضَفَرَتْ شَعْرَهَا وَجَعَلَتْ فِي قَرُونِهَا جَدَاداً وَنَظَّمَتْ عَلَيْهَا وَدَعَاً، وَالْبَسْتَهَا قِلَادَةً مِنْ جَزَعٍ فَقُلْتُ لَهَا: مِنْ هَذِهِ الصَّبِيَّةِ؟ وَقَدْ اعْجَبَنِي جَمَالُهَا فَبَكَتْ أُمُّهَا، وَقَالَتْ: هَذِهِ ابْنَتُكَ، فَامْسَكْتُ عَنْهَا حَتَّى غَفَلْتُ لُحْمَهَا ثُمَّ أَخْرَجْتُهَا يَوْمًا فَحَفَرْتُ لَهَا حَفْرَةً وَجَعَلْتُهَا فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: يَا بَتُّ مَا تَصْنَعُ؟ أَخْبِرْنِي بِحَقِّكَ!! وَجَعَلْتُ أُقَلِّبُ عَلَيْهَا التُّرَابَ، وَهِيَ تَقُولُ: أَنْتِ مَغْطُ عَلَيَّ بِهَذَا التُّرَابِ، أَنْتِ تَارِكِي وَحْدِي، وَمَنْصَرِفِي عَنِّي، وَجَعَلْتُ أَقْدِفُ عَلَيْهَا خَتِي وَارِيَّتَهَا، وَانْقَطَعَ صَوْتُهَا، فَتَلَّكَ حَسْرَتَهَا فِي قَلْبِي، فَدَمَعْتُ عَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ لَقَسْوَةٌ، وَمَنْ لَا يُرْحَمَ لَا يُرْحَمُ»^(١).

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي كِتَابِهِ «أَسَدُ الْغَابَةِ» فِي مَادَّةٍ: قَيْسٌ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سَأَلَ قَيْسًا عَنْ عَدَدِ الْبَنَاتِ اللَّاتِي وَأَدَهَنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: فَاجَابَ قَيْسٌ بَانَهُ وَأَدَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ بِنْتًا لَهُ^(٢).

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتِ الْحَامِلُ إِذَا قَرِبَتْ وَلادَتْهَا حَفَرَتْ حَفْرَةً فَمَخَضَتْ عَلَى رَأْسِ تِلْكَ الْحَفْرَةِ، فَإِذَا وَلَدَتْ بِنْتًا رَمَتْ بِهَا فِي الْحَفْرَةِ وَإِذَا وَلَدَتْ وَلِداً حَبَسَتْهُ^(٣).

المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب:

كَانَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَهُمْ تَبَاعٌ وَتُشْتَرَى كَالْمَتَاعِ، وَكَانَتِ مَحْرُومَةً مِنْ جَمِيعِ الْحَقُوقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ، حَتَّى حَقُّ الْإِرْثِ.

وَقَدْ كَانَ الْمُثَقَّفُونَ مِنَ الْعَرَبِ يُعَدُّونَ النِّسَاءَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، وَلِهَذَا كَانُوا يَعْتَبِرُونَهُنَّ جِزَاءً مِنْ أَثَاثِ الْبَيْتِ وَيَعَامِلُونَهُنَّ مَعَامِلَةَ الرِّيشِ وَالْفَرَاشِ حَتَّى سَارَ

(١) حياة محمد: تأليف محمد علي سالمين، ص ٢٤ و ٢٥.

(٢) راجع أسد الغابة: ج ٤ ص ٢٢٠، وجاء في بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج ٣ ص ٤٣ أنه

وأد بضع عشرة بنتاً. (٣) بلوغ الأرب: ج ٣ ص ٤٣.

فيهم المثلُ المعروفُ: «وانما امهات الناس اوعية».

كما أنهم غالباً ما كانوا يقتلون بناتهم في اليوم الاول من ميلادهن خشية الفقر تارة، ودفعاً للعار والشنآن تارة أخرى.

وقد كان هذا القتل يتمُّ إما بذبحهن أو إلقاءهن من شاهق، أو إغراقهن في الماء، أو الدفن وهن أحياء كما سبق.

وقد تعرض القرآن الكريم -الذي يعدّ من وجهة نظر المستشرقين الكتاب والمصدر التاريخي العلمي الوحيد الذي لم تنله يد التحريف- تعرّض لذكر قصة من هذا النوع ضمن آيات من سورة النحل حيث قال: «وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسَوِّدًا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون»^(١).

هذا والمؤسف أكثر هو ما كان عليه وضع الزواج في الجاهلية، حيث لم يكن يستند الى اي قانون، ولم يخضع لأيّ واحد من النظم المعقولة، بل كان وضعاً عديم النظر في ذلك الزمان، فلم يكن لعدد الزوجات -مثلاً- حدّ معلوم، او قاعدة ثابتة.

كما انهم كلما أرادوا التخلص من مهر الزوجة عمدوا إلى ايداءها بقسوة، حتى تتخلى هي بنفسها عن حقها، وكان اقرارها لأيّ عمل مناف للعفة هو الآخر سبباً لسقوط حقها في المهر بالمرّة.

ولطالما استغلَّ بعض الاشخاص هذا القانون الجائر للتخلص من مهور زوجاتهم فاتهموهن بالخيانة الزوجية!!

و من قبيح ما كانوا يفعلون ان يتزوج الرجل بزوجة أبيه بعد تطليقها، أو وفاته وربما تناوب الأبناء على امرأة أبيهم واحداً بعد واحد، فقد كان الرجل من العرب الجاهلية إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه، فان كان يحبُّ أن يتزوجها طرح ثوبه عليها، وإن لم يكن يريد التزوج بها تزوّج بها بعضُ اخوته بمهر

جديد^(١).

وقد ابطال الإسلام هذه العادة الفاسدة حيث قال الله تعالى: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً»^(٢).

وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة طائفة ممن فعلوا هذا نعرض عن ذكر أسماءهم.

كما ذكرت تلك الكتب انواعاً أخرى من المناكح الفاسدة الشنيعة التي أبطها الإسلام^(٣).

ثم إن المطلقة لم يكن لها الحق - في زمن الجاهلية - في ان تتزوج برجل آخر بعد انقضاء عدتها إلا إذا اذن لها الزوج الأول الذي كان غالباً ما يأخذ مهرها في الزواج الثاني في قبال الاذن.

وربما منعت اولياؤها من أن تتزوج بزوجها الأول الذي طلقها، ثم خطبها بعد انقضاء العدة إذا رضيت به ورغبت فيه، أو أن تتزوج بمن أرادت واحبت - بعد انقضاء العدة - أصلاً، حمية جاهلية.

وكان الرجل يرث امرأة ذي قرابته إذا مات عنها، تماماً كما يرث ما خلف من أمتعة المنزل، زاعماً بأنه أحقُّ بها من غيره، فيعضلها (يمنعها من الزواج) أو تردُّ إليه صداقها، وفي رواية؛ إن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيريثها، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، وأبطل تلك العادات إذ قال تعالى: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(٤).

(١) المحبر: ص ٣٢٦ و ٣٢٧.

(٢) النساء: ٢٢، و كانوا يُسمون من يتزوج زوجة أبيه الضيزن، وكان هذا الزواج يسمى في

الجاهلية «نكاح المقت» ويُسمى الولد منه: مقتي. (راجع بلوغ الارب: ج ٢ ص ٥٣ وجمع

البيان للطبرسي: ج ٣ ص ٢٦). (٣) المحبر: ٣٣٧ - ٣٤٠. (٤) البقرة: ٢٣٢.

وقال سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن»^(١).

وقال تعالى: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِيَتَّعِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ»^(٢).

و خلاصة القول؛ إن المرأة كانت في العهد الجاهلي بشر حال، ويكفي لتلخيص ما قلناه انه لما خطب احدهم الى رجل ابنته، وذكر له المهر والصداق قال: إني وإن سيق إلي المهر ألف وعبدان (اي عبيد وممالك) وذود (وهو من الابل من الثلاث الى العشر) عشر، أحب أضحاري إلي القبر وقال شاعرهم، في ذلك.

لِكُلِّ أَبِي بِنْتٍ يُرَاعِي شُؤْنَهَا ثلاثة أصهار إذا حمد الصهر
فَبَعْلٌ يِرَاعِيهَا وَخَدْرِيكُنْهَا وقبر يُوارِها وأفضلها القبر^(٣)
كما ان العرب كانت مصفقة ومتفقة على توريث البنين دون البنات^(٤).

مقارنة بسيطة:

ولولا حظت أيها القارئ الكريم الحقوق التي قررها الإسلام في مجال (المرأة) لاذعنت -حقا- بأن هذه الاحكام والمقررات وهذه الخطوات المؤثرة التي خطاها النبي الاكرم صلى الله عليه وآله في سبيل اصلاح حقوق المرأة، وتحسين اوضاعها، هي بذاتها شاهد حق، ودليل صدق على حقانيته، وصدق ارتباطه بعالم الوحي.

فاية رعاية ولطف بالمرأة وحقوقها وأي اهتمام بشأنها وكرامتها أعلى واكثر من ان يوصي النبي الاكرم صلى الله عليه وآله مضافاً الى مجاء في آيات واحاديث كثيرة تؤكد على حقوق المرأة وتوصي أتباع هذا الدين بالرحمة بهن واحترامهن في

(١) النساء: ١٩. (٢) البقرة: ٢٣١. (٣) بلوغ الارب: ج ٢ ص ٩. (٤) المحرر: ص ٢٣٦.

خطبته الشهيرة في (حجة الوداع) بالمرأة، ويؤكد على ذلك اشد تأكيد اذ يقول صلى الله عليه وآله:

«إيها النَّاسُ إِنَّ لِنِسَاءِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، ولكم عليهنَّ حقاً... فاتقوا الله في النِّسَاءِ وَأَسْتَوْصُوا بهنَّ خيراً، فانهنَّ عندكم عباؤنَّ... أظعموهنَّ ممَّا تاكلون، وألبسوهنَّ ممَّا تلبسون»^(١).

العربُ والرُّوح القتالية:

من الناحية النفسية يمكن القول بان عرب الجاهلية كانوا النموذج الكامل للإنسان الحريص، الموصوف بالطمع الشديد، القويّ التعلق بالماديات. لقد كانوا ينظرون الى كل شيء من زاوية منفعه ومردوداته المادية، كما أنهم كانوا دائماً يرون لأنفسهم فضيلة وميزة على الآخرين. كانوا يحبون الحرية حباً شديداً، ولذلك كانوا يكرهون كل شيء يقيد حريتهم.

يقول ابن خلدون عنهم: «إنهم (اي العرب الجاهلية) بطبيعة التوحش الذي فيهم اهلُ انتهاب وغيث، ينتهبون ماقدروا عليه... وكان ذلك عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربيعة الحكم، وعدم الإنقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافيةٌ للعمران ومناقضة له».

ويضيف قائلاً: «فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ اموال الناس حدٌ ينتهون اليه، بل كلما امتدت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه»^(٢).

لقد كانت الاغارة وكان النهب والقتال من العادات المستحكمة عند القوم، ومن الطبائع الثانوية في نفوسهم، وقد بلغ ولعهم وشغفهم بكل ذلك ونروعهم

(١) وردت هذه العبارات في مصادر مختلفة مع شيء طفيف من الاختلاف، راجع تحف العقول:

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ١٤٩.

الشديد اليه، أن أحدهم - كما يقال - سأل النبي صلى الله عليه وآله بعد أن سمع منه وصف الجنة وما فيها من نعيم: وهل فيها قتال؟

ولما سمع الجواب بالنفي قال: اذن لاخير فيها!!

اجل لقد سجل التاريخ للعرب مايقرب من (١٧٠٠) وقعة وحرباً، امتد أمد بعضها الى مائة سنة أو اكثر، يعني أن أجيالاً كثيرة كانت تتوارث الحرب، وتستمر في قتال الخصم، وربّ حرب دامية طويلة الأمد إندلعت بسبب قضية تافهة^(١).

لقد كان العربي في العهد الجاهلي يعتقد بأن الدم لا يغسله الا الدم، وقضية «الشنفري» التي هي اشبه بالأساطير لغرابتها يمكن أن تعكس مدى «العصبية الجاهلية» التي كانت سائدة آنذاك.

فالشنفري يُهان على يد رجل من «بني سلامان» فيعزم على الانتقام منه، وذلك بأن يقتل مائة من تلك القبيلة، وبعد التربُّص الطويل يغتال تسعاً وتسعين، ويبقى مشرّداً حتى تغتاله جماعة من اللصوص عند برّ فتفعل جمجمته - بعد مقتله - فعلتها، اذ تتسبّب بعد مرور سنين - في قتل رجل من قبيلة - «بني سلامان» وبذلك يكتمل العدد الذي حلف على قتلهم من تلك القبيلة، وذلك عند ما يمر رجل من «بني سلامان» على تلك المنطقه فيهب طوفان شديد يلقي بجمجمة «شنفرة» على ذلك الرجل فتصيبه في رجله بشدة، فيموتُ بالحقه من ألم وجراحة^(٢).

(١) العرب قبل الإسلام: ص ٣١٩ و ٣٢٠، هذا وتعتبر حرب داحس والغبراء من أيام العرب التاريخية قبل الإسلام، وقد نشأت بسبب سباق بين فرسين هما داحس والغبراء (وهو فرسين لقيس بن زهير من بني عبس) وفرسين آخرين (لخديفة الغدر) انتهى الى التنازع في السباق وازداد التنافر بين المتسابقين وانجرّ الى طعن أحدهما الآخر، وأن تهباً على اثر ذلك مقدمات حرب طويلة بين قبيلتي الرجلين وحلفائهما استمرت من عام ٥٦٨م الى عام ٦٠٨م وموت كثيرين.
(راجع تاريخ العرب و آدابهم ص ٤٧ والكامل لابن الأثير: ج ١ ص ٢٠٤).

(٢) تاريخ العرب: ج ١ ص ١١١، وراجع أيضاً بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٢

ولقد بلغ أنس العرب الجاهلية بالقتال وسفك الدماء أن جعلوا القتل
والسفك للدماء من مفاخر الرجال!!

ويبدو ذلك جلياً لمن يقرأ قصائدهم الملحمية التي تفوح منها رائحة الدم،
ويحتم عليها شبح الموت، تلك القصائد التي يمدح فيها الشاعر نفسه او قبيلته بما
أراقوه من دماء!!، وما ازهقوه من ارواح وماسبوه من نساء!!، وأيتموه من
أطفال!!

ونجد في البيت الشعري التالي مدى انزعاج الشاعر العربي الجاهلي لما
اصاب قبيلته من نكسةٍ وذل وهزيمة في ميدان القتال، اذ يقول:
فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكَبُوا شَتُّوا الإِغَارَةَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانَا
ويصف القرآن الكريم هذه الحالة بقوله: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا»^(١).

الاخلاق العامة في المجتمع الجاهلي العربي:

ومهما يكن من امر فان عوامل مختلفة كالجهل وضيق ذات اليد، وجشوبة
العيش، وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياة الاجتماعية، وحالة البداوة
الموجبة للتوحش، والكسل والبطالة وغير ذلك من الرذائل الاخلاقية كانت قد
حوَلَّتْ جَوَّ الجزيرة العربية إلى جَوْ فاسدٍ قاتمٍ، حتى أن أموراً يندى لها الجبين قد
اخذت طريقها الى حياة تلك الجماعة وراحت تتخذ شيئاً فشيئاً صفة العادات
المتعارفة!!

لقد كانت الغارات وعمليات النهب، والقمار، والربا، والاسر، والسبي من
الأعمال والممارسات الرائجة في حياة العرب الجاهلية، وكان شرب الخمر
ومعاقرتها بلا حدود هو الآخر من الأعمال القبيحة الشائعة لديهم، ولقد ترسخت
هذه العادة القبيحة في حياتهم الى درجة انها صارت جزء من طبيعتهم، وحتى أن

شعراءهم خضصوا مساحات كبيرة في قصائدهم لامتداح الخمرة ووصفها وكانت الحانات مفتوحة في وجه الناس طيلة الوقت تستقبل الزبائن، وقد نُصِبَتْ عليها رايات.

فها هو شاعرهم يقول:

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمِي تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقَهَا
وَلَا تَدْفِنَنِي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَامِتُ أَنْ لَا أُذَوِّقَهَا^(١)

لَقَدْ بَلَغَتْ مَعَاقِرُ الْخَمْرِ مِنَ الرَّوَجِ فِي الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ بَحَيْثُ أَصْبَحَتْ لَفْظَةً «التجارة» تعادل في عرفهم بيع الخمر، والاتجار بها.

ولقد كانت الأخلاق تفسر عند العرب الجاهلية بنحو آخر عجيب، فانهم مثلاً كانوا يمدحون الشجاعة والمروءة والغيرة، ولكنهم كانوا يقصدون من «الشجاعة» القدرة على الإغارة وسفك الدماء، وكثرة عدد القتلى في الحروب!! كما أن الغيرة كانت تعني عندهم وأد البنات حتى أن هذا العمل الوحشي كان يُعدّ عندهم من أعلى مظاهر الغيرة، وكانوا يرون الوفاء والوحدة في نصرة الحليف حقاً أو باطلاً، وهكذا فإن أكثر القصص التي نُقِلَتْ عن شجاعتهم وشغفهم بالحرية كانت الشجاعة والشغف بالحرية فيها تتلخص وتتجسد في الإغارة والانتقام.

انهم كانوا يعشقون - في حياتهم - المرأة والخمرة والحرب ليس غير.

النزوع الى الخرافة والاساطير في المجتمع الجاهلي:

ولقد بيّن القرآن الكريم أهداف البعثة المحمدية المقدسة بعبارات موجزة، ومما يلفت النظر - أكثر من أي شيء - ما ذكره تعالى في الكتاب العزيز حول أهم هذه الاهداف والغايات العليا إذ قال: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»^(٢).

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ج ٢ ص ٢٦٢ طبعة مصر ١٣٠٥.

فلا بدّ أن نعرفَ ماذا كانت تلك الأغلال والسلاسل التي كانت عرَبُ الجاهلية ترزحُ تحتها حتى قبيل بزوغ فجر الإسلام؟
 لاربّ أنها لم تكن من جنس الأغلال والسلاسل الحديدية، ولم يكن المقصودُ منها ذلك أبداً، فإذا كانت إذنٌ ياترى؟
 أجلُ إنّ المقصودَ من هذه الاغلال هي الأوهام والخرافات التي كانت تقيّد العقلَ العربي عن الحركة، وتعيقه عن النمو والتقدم، ولاشك أن مثل هذه السلاسل والأغلال التي تقيّد الفكر البشري وتمنعه من التحليق والتسامي، أثقل بكثير من الأغلال والقيود الحديدية واضرّ على الإنسان منها بدرجات ومراتب، لأنّ الأغلالَ الحديدية توضع عن الأيدي والأرجل بعد مضي زمان، ويتحرر الإنسان منها، بعد حين، ليدخل معترك الحياة بعقلية سليمة مبرّأة من الأوهام والخرافات، وقد زالتْ عنه ماتركته تلك الحداثد من جروح وآلام.

أما السلاسل والأغلال الفكرية (و نعني بها الأوهام والاباطيل والخرافات) التي قد تهيمن على عقل الإنسان وتكبّلُ شعوره فإنها طالما رافقت الإنسان الى لحظة وفاته، واعاقته عن المسير والانطلاق، دون ان يستطيع التحرر منها، والتخلص من آثارها، وتبعاتها، اللهم اذا استعان على ذلك بالتفكير السليم، والهداية الصحيحة.

فبالتفكير السليم وفي ضوء العقل البعيد عن أيّ وهم وخيال يمكنه التخلصُ من تلك الاغلال والقيود الثقيلة، وأما بدون ذلك فإن أيّ سعي للإنسان في هذا السبيل سيبوء بالفشل.

إن من أكبر مفاخر نبي الإسلام أنه كافح الخرافات، وأعلن حرباً شعواء على الأساطير، ودعا إلى تطهير العقل من أدران الأوهام والتخيلات، وقال: لقد جئت لاخذ بساعد العقل البشري، وأشدّ عضده، وأحارب الخرافة مهما كان مصدرها. وكيفما كان لونها وأيا كانت غايتها، حتى لو ختمت أهداني، وساعدتْ علي تحقيق مقاصدي المقدسة.

إنّ ساسة العالم الذين لاتهمهم إلا إرساء قواعد حكمهم وسلطانهم على

الشعوب لا يتورعون عن التوسل بأية وسيلة، والاستفادة من اية واقعة في سبيل تحقيق مآربهم حتى أنهم لا يتأخرون عن التذرع بترويج الخرافات والأساطير القديمة بين الشعوب للوصول إلى سدة الحكم، أو البقاء فيها ما أمكنهم ذلك. ولو اتفق أن كانوا رجالاً موضوعيين ومنطقيين فانهم في هذه الحالة دافعوا عن تلك الخرافات والأوهام والاساطير التي لا تنسجم مع اي مقياس عقلي بحجة الحفاظ على التراث القومي، أو احترام رأي اكثرية الشعب، أو ماشابه ذلك من الحجج المرفوضة.

ولكنَّ رسولَ الإسلام لم يكتف بإبطال المعتقدات الخرافية التي كانت تلحق الضرر به، وبمجتّمعه، بل كان يكافح ويحارب بجميع قواه كل أسطورة أو خرافة شعبية أو فكرة فاسدة باطلة، تخدم غرضه، وتساعد على تحقيق التقدم في دعوته ويسعى إلى أن يجعلَ الناسَ يعشقون الحقيقة لان يعبدوا الخرافات، ويكونوا صحايا الاساطير والأوهام، واليك واحداً من هذه المواقف العظيمة على سبيل المثال لا الحصر.

لمامات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابنه الوحيد، حزن عليه النبي حزناً شديداً فكانت تنحدر الدموع منه على غير اختيار، واتفق ان انكسفت الشمس في ذلك اليوم أيضاً، فذهب المولعون بالخرافة في ذلك المجتمع (العربي) على عادتهم إلى ربط تلك الظاهرة بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلاً على عظمة المصاب به فقالوا: انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله، فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر وقال: «أيُّها الناس انَّ الشمسَ والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره، ومطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا انكسفا، أو أحدهما صلّوا».

ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف وهي ما تسمى بصلاة الايات^(١).

(١) بحار الأنوار: ج ٩١ ص ١٥٥.

ان فكرة انكساف الشمس لموت ابن صاحب الرسالة وان كان من شأنها ان تقوي من موقع النبي في قلوب الناس، وتخدم بالتالي غرضه، وتساعد على انتشار دعوته، وتقدمها، إلا أنه صلى الله عليه وآله رفض أن يحصل على المزيد من النفوذ في قلوب الناس من هذا الطريق.

على أن محاربة النبي صلى الله عليه وآله للخرافات والاساطير التي كانت نموذجاً بارزاً من محاربتة للوثنية، وتأليه المخلوقات وعبادتها، لم تكن من سيرته في عهد الرسالة بل كان ذلك دأبه في جميع أدوار حياته، حتى يوم كان صبياً يدرج، فانه كان يحارب الاوهام والخرافات، ويعارضها في ذلك السن أيضاً. تقول حليلة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لما تم له (اي لمحمد) ثلاث سنين قال لي يوماً: «يا أمأه مالي لا أرى أخوي بالنهار»؟ قلت له: يا بني إنهما يرعيان غنيمات، قال: «فمالي لا أخرج معهما»؟ قلت له: تحب ذلك؟ قال: نعم.

فلما أصبح دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانية (وهي من التائم الباطلة كانت تعلق على الشخص في أيام الجاهلية لدفع الآفات عنه)، فنزعها، وقال لي: «مهلاً يا أمأه فإن معي من يحفظني»^(١).

الخرافات في عقائد العرب الجاهلية:

كانت عقائد جميع الامم والشعوب العالمية يوم بزوغ شمس الإسلام ممزوجة بألوان من الخرافات والاساطير.

فالاساطير اليونانية والساسانية كانت تخيم على افكار الشعوب التي كانت تعد في ذلك اليوم من أرق الشعوب والمجتمعات.

على انه لا تزال خرافات كثيرة تسود والى الآن في المجتمعات الشرقية المتقدمة، ولم تستطع الحضارة الراهنة أن تزيلها من حياة الناس ومعتقداتهم.

إن تنامي الخرافة «يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمي والثقافي في كل مجتمع، فبقدر ما يكون المجتمع متخلفاً من الناحية الثقافية والعلمية تزداد نسبة وجود الخرافة ومقدار نفوذها في عقول الناس ونفوسهم.

لقد سجل التاريخ عن سُكَّان شبه الجزيرة العربية طائفة هائلة وكبيرة من الاوهام والخرافات، وقد جمع السيد محمود الالوسي اكثرها في كتابه «بلوغ الارب في معرفة احوال العرب»، مُرفقاً كل ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعرية وغيرها^(١).

و من يتصفح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات التي كانت تملأ العقل العربي الجاهلي آنذاك وتتشعش في نفوسهم، وقد كانت هذه السلسلة الرهيبة من الأوهام هي السبب في تخلف هذا الشعب عن بقية الشعوب والأمم الاخرى.

ولقد كانت هذه الخرافات من أكبر السدود في طريق تقدم الدعوة الإسلامية، ولهذا اجتهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بكل طاقاته في محو وازالة آثار الجاهلية التي لم تكن سوى تلك الأوهام والاساطير والخرافات.

فعندما وجّه «معاذ بن جبل» الى اليمن اوصاه بقوله:
«وَامِيتْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا مَا سَنَّهُ الْإِسْلَامُ وَأَظْهِرْ أَمْرَ الْإِسْلَامِ كُلَّهُ صَغِيرُهُ
وَكَبِيرُهُ»^(٢).

لقد وقف رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمام جماهير كبيرة من العرب الذين كانت عقولهم ترزح تحت الافكار والمعتقدات الخرافية ردحاً طويلاً من الزمن يعلن عن نهاية عهد الافكار والاهام الجاهلية اذ قال: «كُلُّ ماثرة في الجاهلية تحت قدمي»^(٣).

(١) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب: ج ٢ ص ٢٨٦ - ٣٦٩.

(٢) تحف العقول: ص ٢٥.

(٣) السيرة النبوية: ج ٣ ص ٤١٢.

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي:

وللوقوف على مدى أهمية التعاليم الإسلامية وقيمتها نلفت نظر القارئ

الكريم الى نماذج من هذه الخرافات، ومن أراد التوسع راجع المصدر المذكور.

١ - الاستسقاء باشعال النيران:

كانت العرب إذا أجدبت، وأمسكت السماء عنهم، وأرادوا أن يستمطروا

عَمَدُوا الى السلع والعشر (وهما أشجار سريعة الاشتعال) فحزموهما، وعقدوهما

في أذنان البقر، وأضرموا فيها النيران وأصعدوها في جبل وَعَر، واتبعوها يدعون

الله تعالى، ويستسقونه، وانما يضرمون النيران في أذنان البقر تفاقلاً للبرق

بالنار... وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات الاخرى، وكانت هذه

الثيران والابقار اذا صاحت من وجع الاحتراق ظنّت العرب بان ذلك هو الرعد!!!

وقد قال شاعرهم في ذلك:

يا (كحل) قَدَأَثَقَلْتَ أَذْنَابَ الْبَقَرِ بَسَلْعٍ يُعَقِّدُ فِيهَا وَعُشْرُ

فَهَلْ تَجُودِينَ بِبَرَقٍ أَوْ مَطَرٍ؟

٢ - ضرب الثور اذا عافت البقر:

كانوا إذا أوردوا البقر فتمتنع من شرب الماء، ضربوا الثور ليقتحم الماء،

بعده ويقولون: إن الجن تصد البقر عن الماء، وأن الشيطان يركب قرني الثور،

ولا يدع البقر تشرب الماء، ولذلك كانوا يضربون وجه الثور.

وقد قال في هذا شاعرهم:

كَذَاكَ الثَّورُ يَضْرِبُ بِالْهَرَاوِي إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقَرُ الظِّمَاءُ

وقال آخر:

فإني إذا كالثور يضرب جنبه إذا لم يعف شرباً وعافت صواحيبه^(١)

(١) عافت أي كرهت شرب الماء.

وقال ثالث:

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها
وما ذنبه إن لم ترد بقراته
يُكسّر ضرباً وهو للورد طائغ
وقد فاجأتها عند ذلك الشرائع

٣ - كي صحيح الإبل ليبراً السقيم:

إذا كان يصيب الإبل مرض او قرح في مشافرها واطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكوؤا مشفرة وعضده وفخذه يرون أن ذلك إن فعلوه ذهب العرّ والقرح والمرض عن إبلهم السقيمة، ولا يعرف سبب ذلك .
وقد احتمل البعض أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك وقاية للصحاح من الإصابة بالعرّ الذي أصاب غيرها، أو أنه نوع من المعالجة العلمية، ولكن لماذا ترى كانوا يعمدون إلى بعير واحد من بين كل تلك الإبل، فلا بد من القول بأن هذا الفعل كان ضرباً من الاعمال الخرافية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع الجاهلي قبل الإسلام.

وقد قال شاعرهم عن ذلك :

و كلفتنى ذنب امرئ وتركته
كدي العريكوى غيره وهو راتع
وقال آخر:

كمن يكوي الصحيح يروم بُرءاً
به من كل جرباء الإهاب
وقال ثالث:

فالنمّني ذنباً وغيري جرّه
حنانيل لا تكو الصّحيح بأجرها

٤ - حبس ناقة عند القبر اذا مات كريم:

إذا مات منهم كريم عقلوا ناقته او بعيره عند القبر الذي دُفِنَ فيه ذلك الكريم، فعكسوا عنقها، وأداروا رأسها الى مؤخرها وتركوها في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها وربما سُلِخَتْ ومُلئُ جِلْدُها تماماً، وكانوا يزعمون أن من مات ولم يُبَلَّ عليه (اي لم تعقل ناقة عند قبره هكذا)

حشر ماشياً، ومن كانت له بلية (اي ناقة عقلت هكذا) حُشِرَ راکباً على بليته.
وقد قال أحدهم في هذا الصدد:

إذا ميتٌ فادفنيّ بحراءِ ما بها سوى الأصرخين أو يفوز راکبُ
فإن أنت لم تُعقرْ عليّ مطيّي فلاقام في مال لك الدهر حالبُ
وقال آخر وهو يوصي ولده بان يفعلوا له ذلك :
أبنيّ لا تنسَ البليّةَ إنْها لأبيك يومَ نُشوره مركوبُ

٥ - عقر الإبل على القُبور:

كانوا إذا مات أحدُهم ضربوا قوائم بعير بالسيف عند قبره، وقيل انهم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت المضيف على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للاضياف.

وقد ابطلت الشريعة المقدسة هذه العادة الباطلة في ما ابطلته فقد جاء في الحديث «لا عقر في الإسلام».

وقد قال أحدُهم حول العقر هذا:

قُلْ للمقاول والغزاة اذا غزوا والباكرين وللمجدّ الرائح
إنّ الشجاعة والسّماحة ضمّنا قبراً يمرّو على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقره كَوْمَ الجلاّد وكل طرف سابع
وأنضح جَوانبَ قبره بدمائها فلقد يكونُ آخادم وذبائح

٦ - نهيق الرجل إذا اراد دخول القرية (التعشير):

و من خرافاتهم أن الرجل منهم كان إذا اراد دخول قرية فخاف وباءها او جنّتها وقف على بابها قبل ان يدخلها فتَهقّ نهيقَ الحمار، ثم علق عليه كعب ارنب كأن ذلك عوذة له، ورقية من الرباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير.

قال شاعرهم:

ولا يَنْفَعُ التعشيرُ أن حُمَّ واقع ولا زعزغٌ يُغني ولا كعبُ ارنب

وقال الآخر:

لعمري إن عشتُ من خيفة الردى نهاق حمير أني لجزوعُ

٧ - تصفيق الضالّ في الصحراء ليتهدي:

فقد كان الرجلُ منهم اذا ضلّ في فلاة قلب قيصه وصفق بيديه، كأنه
يوميئُ بهما الى انسان مهتدي.

قال أعرابي في ذلك:

قلبتُ ثيابي والظنونُ تجولُ بي ورمي برجلي نحو كلّ سبيل
فلأياً بلائي ما عرفت حليلتي وأبصرتُ قصداً لم يُصَبْ بدليل

٨ - الرتم:

و ذلك أن الرجل منهم كان اذا سافر عمّد الى خيط فعقده في غصن شجرة
او في ساقها فاذا عاد نظر الى ذلك الخيط فإن وجده بحاله علم ان زوجته لم تخنه
وان لم يجده أو وجدّه محلولاً قال: قد خانتني. وذلك العقد يسمى «الرتم».

قال شاعرهم في ذلك:

خانتته لما رأته شيباً بمفرقه وغره جلفها والعقدُ للرتم
وقال الآخر:

لا تحسبن رثاماً عقدها تنبيك عنها باليقين الصادق
وقال ثالث:

يعلل عمرو بالرتام قلبه وفي الحي ظبي قد أحلت محارقه
فما نفعت تلك الوصايا ولا جنت عليه سوى ما لا يحب رثامه

٩ - وطئ المرأة القليل الشريف لبقاء ولدها:

فقد كانت العرب تقول: ان المرأة المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد، اذا
وطئت القليل الشريف عاش ولدها.

قال احدهم:

تَظَلَّ مَقَالِيَتِ النَّسَاءِ يَطَّأَنَهُ يَقْلُنَ أَلَا يَلْقَى عَلَى الْمَرْءِ مَثْرَر

١٠ - طَرُحُ السِّينِ نَحْوَ الشَّمْسِ إِذَا سَقَطَتْ:

ومن تخیلات العرب وخرافاتهم أن الغلام منهم اذا سَقَطَتْ له سنُّ أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس اذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس ابدليني بسن احسن منها ولتجر في ظلمها آياتك ، او تقول أياؤك ، وهما جميعاً شعاع الشمس.

قال احدهم وهو يصف ثغر معشوقته:

سَقَّتْهُ آيَاةُ الشَّمْسِ إِلا لثَاتِهِ أَسْفَّ وَلَمْ تَكْرَمْ عَلَيْهِ بِأَثْمِدِ

أي كأن شعاع الشمس اعارته ضوءها.

هذا وقد أشار شاعرهم الى هذا الخيال (او قل الخرافة المذكورة) اذ قال:

شَادِنٌ يَحْلُو إِذَا مَا ابْتَسَمَتْ عَنْ أَقَاحِ كَأَقَاحِ الرَّمْلِ غَر

بدلته الشمس من منبته بَرْدًا أبيض مصقول الاثر

١١ - تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون:

ومن تخیلات العرب أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون، وتعرض الارواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الاقدار كخرقة الحيض وعظام الموتى قالوا: وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامت عظام موتي ثم لا يراها يومه ذلك. وانشدوا في ذلك:

فلو أن عندي جارتين وراقياً وَعَلَّقَ أَنْجَاساً عَلَيَّ المَعْلِقُ

وقالت امرأة وقد نجست ولدها فلم ينفعه ذلك ومات:

نَجَسْتُهُ لا يَنْفَعُ التَّنْجِيسُ والموتُ لا تفوته النفوسُ

١٢ - دم الرئيس يشفي:

فقد كانت العرب تعتقد أن دم الرئيس يشفي من عضه الكلب الكلب.

قال الشاعر:

بِناةٍ مكارمٍ وأساءةٍ جُرحٍ دِماؤُهُمُ من الكَلْبِ الشفاءُ

وقال آخر:

أحلامُكُمْ لِسِقامِ الجهلِ شافيةٌ كما دِماؤُكُمْ تشفي من الكَلْبِ

١٣ - شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل:

ومن أوهامهم و تخيلاتهم أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا احب امرأة
واحبتة فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام، فان لم يفعلا ذلك فسَد
حبهما، قال في ذلك احدهم:

وكم شَقَقْنَا من رداء محبِّرٍ وَ مِنْ بُرُقِعٍ عَن طفلة غير عانس
إذا شُق بُرْدٌ شُق بالبرد بُرُقِعٌ دواليك حتى كلُّنا غير لابسٍ
نروم بهذا الفعل بُقياً على الهوى والى الهوى يُغوى بهذي الوسوس

١٤ - معالجة المرضى بالأموال العجيبة:

ومن مذاهبهم الخرافية في معالجة المرضى إذا بثر شفة الصبي حمل منخلاً
على رأسه ونادى بين بيوت الحيّ: الحلاً الحلاً، الطعام الطعام، فتلقي له النساءُ
كيسر الخبز، واقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يلقي ذلك للكلاب فتأكله، فيبرأ
مِنَ المرض فان أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلابِ تمرة او
لقمة أو لحمه بثر شفته.

فقد رويت عن امرأة أنها انشدت:

ألا حلاً في شفة مشقوقه فقد قضى منخلنا حقوقه

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم، وظنوا أن به مساً من
الجن لانه قتل حية، أو يربوعاً، أو قنفذاً، عملوا جِمالاً من طين وجعلوا عليها
جوالق وملاؤها حنطة وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة
المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فاذا اصبحوا نظروا إلى تلك

الجمال الطين فاذا رأوا انها بجالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وان رأوها قد تساقطت وتبدد ماعليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدف.

قال بعضهم:

قَالُوا وَقَدْ طَالَ عَنَائِي وَالسَّقْمُ
فَقَدْ فَعَلْتَ وَالسَّقَامُ لَمْ يَرَمْ

إِحْمِلْ إِلَى الْجِنِّ جَمَالَاتٍ وَضَمَّ
فَبِالَّذِي يَمْلِكُ بَرِّي اعْتَصَمْ

وقال آخر:

فِيَالَيْتَ أَنْ الْجِنِّ جَاؤُوا حَمَائِي
أَعْلَلُ قَلْبِي بِالَّذِي يَزْعُمُونَهُ

وَمِنْ مَذَاهِبِهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ إِذَا ظَهَرَ فِيهِ الْقُوبَاءُ (وهو مرض جلدي) عَالَجَهَا بِالرَبِيقِ.

وَزُحِرَخَ عَنِي مَاعْنَانِي مِنَ السَّقْمِ
فِيَالَيْتَنِي عُوفِيَتْ فِي ذَلِكَ الزَّعْمِ

قال احدهم:

يَاعَجَباً لِهَذِهِ الْفَلِيقَةِ
هَلْ تُذْهِبَنَّ الْقُوبَاءَ الرِّيْقَةَ

١٥ - خرافات في مجال الغائب:

كانوا إذا غمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يعرفوا له خبراً جاؤوا إلى بئر عادية (أي مظلمة بعيدة القعر) أو جاؤوا إلى حصن قديم ونادوا فيه: يافلان أو ياأبافلان (ثلاث مرات)، ويزعمون انه إن كان ميتاً لم يسمَعوا صوتاً، وإن كان حياً سمَعوا صوتاً ربّما توهموه وهماً، أو سمعوه من الصدى فبَنَوْا عليه عقيدتهم، قال بعضهم في ذلك:

دَعَوْتُ أَبَا الْمِغْوَارِ فِي الْحَفْرِ دَعْوَةً
فَمَا آصَرَ صَوْتِي بِالَّذِي كُنْتُ دَاعِيَا^(١)

أُظِنُّ أَبَا الْمِغْوَارِ فِي قَصْرِ مَظْلَمٍ
تَجَرُّ عَلَيْهِ الذَّارِيَاتُ السَّوَابِيَا

وقال آخر:

وَكَمْ نَادَيْتُهُ وَاللَّيْلُ سَاجٍ
بِعَادِي الْبِئَارِ فَمَا أَجَابَا

(١) آصَرَ أي عاد ورجع.

ومن ذلك أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: (أرى من أحبه)
فإن كان غائباً توقع قدومه، وإن كان بعيداً توقع قربه، وقال أحدهم:
إذا اختلجت عيني أقول لعلها فتاة بني عمرو بها العين تلمع
وقال آخر:

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وإن كان المزار بعيداً
و كانوا إذا لا يجيبون لمسافر أن يعود إليهم أو قدوا ناراً خلفه ويقولون في
دعائهم «أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً إثره» قال بعضهم:
صحوت وأوقدت ليلجهل ناراً ورد عليك الصباما استعاراً

١٦ - عقائدهم العجيبة في الجن وتأثيره:

كانت العرب في الجاهلية تعتقد في الجن وتأثير هذا الكائن في شتى مجالات
حياتهم اعتقادات عجيبة وفي غاية الغرابة.

فتارة تستعيد بالجن، وقد استعاذ رجل منهم ومعه ولد فأكله الأسد فقال:
قد استعذنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعداء

فلم يجرنا من هزبر عادي

وعن الاستعاذة بالجن قال الله سبحانه في القرآن: «وأنه كان رجالاً من
الإنس يعودون برجال من الجن فزادوهم رهقاً»^(١).

ومن ذلك اعتقادهم بهتاف الجن. ولهم في هذا المجال أساطير خرافية
مذكورة في محلها.

ومن هذا القبيل اعتقادهم بالفول، فقد كانت تزعم العرب في الجاهلية أن
الغيلان في الفلوات (وهي من جنس الشياطين) تتراءى للناس، وتقول تغولاً
أي تلتون تلوناً فتصلهم عن الطريق، وتهلكهم، ومن هذا القبيل أيضاً اعتقادهم
بالسعال!!

(١) الجن: ٦.

وقد قال أحدُهم في ذلك :

وساحرةٌ عيني لو أن عينيها
رأت ما ألقىه من الهول جنت
أبيتُ وسعلاةٌ وغولٌ بقفرة
إذا الليلُ وأرى الجن فيه أرنت

۱۷ - تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والاشياء:

ومن مذاهبهم الخرافية تشاؤمهم بأشياء كثيرة وحالات عديدة:
فن ذلك ؛ تشاؤمهم بالعطاس.

وتشاؤمهم بالغراب حتى قالوا: فلان أشام من غراب البين، وهم في هذا
المجال أبياتٌ شعرية كثيرة منها قول حدهم:

ليت الغرابُ غداً ينعبُ دائماً كان الغرابُ مقطّع الأوداج
وكذا تشاؤمهم وتطيّرهم بالثور المكسور القرن والثعلب. إلى غير ذلك من
التخيلات والأوهام والخرافات والاساطير، والاعتقادات العجيبة، والتصورات
الغريبة التي تزخر بها كتبُ التاريخ المخصصة لبيان أحوال العرب قبل الإسلام
وحتى ابان قيام الحضارة الإسلامية.

مكافحة الإسلام لهذه الخرافات:

ولقد كافح الإسلام جميع هذه الخرافات بطرق مختلفة، واساليب متنوعة.
أما بالنسبة إلى ما كانوا يفعلونه بالحيوانات فمضافاً إلى أن أي شيء من هذه
الأعمال لا ينسجم مع العقل والمنطق والعلم لأن المطر والغيث لا ينزل من السماء
باشعال النيران، وضرب الثيران لا يؤثر في البقر، كما لا ينفع كيُّ البعير الصحيح
في شفاء الإبل السقيمة، وتعتبر هذه الاعمال نوعاً من تعذيب الحيوانات وقد
نهى الإسلام بشدة عن تعذيب الحيوانات وايدائها، بأي شكل كان.

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لِلدَّابَّةِ عَلَى

صاحبها ستُّ خصال:

۱ - يبدأ بعلفها إذا نزل.

- ٢ - ويُعرضُ عليها الماء إذا مرَّ به .
- ٣ - ولا يضرب وجهها فإنها تسبِّحُ بحمدِ ربِّها .
- ٤ - ولا يقف على ظهرها إلا في سبيل الله عزوجل .
- ٥ - ولا يحتملها فوق طاقتها .
- ٦ - ولا يكلفها من المشي إلا ما تطيق^(١) .
- كما رُوي أنه نهى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَنْ تَوْسَمَ الْبَهَائِمُ فِي وَجْهِهَا، وَأَنْ تَضْرَبَ فِي وَجْهِهَا فَانْهَا تَسْبِحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا .
- ومن هنا ندركُ ان التعاليم في مجال الرفق بالحيوان، وحمایته، على النقيض من العادات الجاهلية السائدة في البيئة العربية آنذاك .
- واما بالنسبة الى التمايم والأشياء التي كانت تعلقها العربُ على أعناق وصدور رجالها، وأولادها، من الأحجار والخرز، وعظام الموتى، ومعالجة المرضى والمصابين وغيرهم بها أحياناً فقد حاربها الإسلام، بعد أن أبطلها كما أبطل الافاعيل التي سبق أن ذكرناها قبل هذا .
- فلما جاءت جماعات من الأعراب إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسألوه عن الرقى والقلائد التي كانوا يتداوون بها أو يسترقونها بدلاً عن التداوي بالعقاقير والأدوية قائلين يا رسول الله: انتداوي؟
- قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «تداووا فإنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً»^(٢) .
- بل نجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يأمر سعد بن أبي وقاص عندما أُصيب بمرض في فؤاده أن يعالج نفسه عند طبيب إذ قال له لما عادَه وعرف بحاله: «إِنَّكَ رَجُلٌ مَفُودٌ، إِثَّتِ الْحَارِثُ بْنُ كَلْدَةَ أَخَاثِقِيفٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَتَطَبَّبُ»^(٣) .

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٢٨٦، وراجع للوقوف على أحاديث حقوق الحيوان كتاب النوون الاقتصادية: ص ١٣٠-١٥٩ أيضاً .

(٢) التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ١٧٩ .

(٣) التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ١٧٨ .

هذا مضافاً إلى أنه وردت أحاديث كثيرة تصرّح ببطلان التمام السحرية التي لا تنفع ولا تضرّ أبداً، وهانحنُ نشير في مايلي إلى نموذجين من هذه الأحاديث:

١ - يقول أحدهم: دخلتُ على النبيّ صلى الله عليه وآله بابن لي قد اعلمت عليه من العُدرة (وهي قلادة سحرية جاهلية) فقال: علام تدغرن أولادكَنَ بهذا العِلاق، عليكنَّ بهذا العُود الهِنديّ» وكان صلى الله عليه وآله يقصد عصارة هذا العود^(١).

٢ - رُوي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام أنه قال: «إنَّ كثيراً من التمامِ شِرْكٌ»^(٢).

هذا مضافاً إلى أن النبيّ صلى الله عليه وآله وأوصيائه الكرام - بارشادهم الناس إلى ماينبغي أن يتداووا به من العقاقير والأدوية وما أعطوه من تعاليم قيمة كثيرة في هذا المجال ممّا جمعه المحدثون الكبار تحت عنوان: «طبّ النبي» و «طبّ الرضا» و... وقد وجهوا ضربة قوية أخرى إلى تلك الأوهام والتخيّلات، والحرفات والاساطير التي كان يعاني منها المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام^(٣).

وأما الغول، والطيرة، والتشاؤم، والهامة والنوء فقد حاربها النبي بصراحة إذ قال: صلى الله عليه وآله وسلّم «لاهامّة ولانوء ولاطيرة، ولاغول»^(٤). وقال (ص) «العيافةُ والطيرةُ والطرقُ من الجبّت»^(٥).

(١) التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ١٨٤. (٢) سفينة البحار: ج ١ مادة رقي.

(٣) وقد فتح المحدثون من الفريقين أبواباً خاصاً لأحاديث الطبّ النبوي في كتب الحديث أيضاً.

(٤) التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ١٩٦ و ١٩٧ الفصل الرابع باب نفي مزاعم الجاهلية، قال مؤلف التاج: الهامة طائر أو البوم إذا سقط في مكان تشاءم أهله، أو دابة تخرج من رأس القتل أو من دمه فلا تزال تصيح حتى يؤخذ بشاره، والنوء نجم يأتي بالمطر وآخر يأتي بالريح (حسب عقيدة الجاهلية)!!

(٥) التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ٢٠١. قال مؤلف التاج العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها كالتفاؤل بالفقاب على العقاب، وبالغراب على الغربة، وبالهدهد على الهدى، وكذا بأفعالها، وكيفية طيرانها فكانت العرب تزجر الطير وتشيره فما اخذ منها ذات اليمين تبركوا به

وعن النبي صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «إنَّ الرقى والتائم والتوله شركٌ»^(١).

وعن أحدهم قال: قلتُ يارسولَ الله اموراً كُنَّا نصنعها في الجاهلية، كُنَّا نأتي الكهَّان، قال: فلا تأتوا الكهَّان، قلت: كُنَّا نتطيرُ قال: ذاك شيءٌ يجدهُ أحدُكم في نفسه فلا يصدنكم».

إن وجودَ النهي الشديد والمكرَّر في الاحاديث الكثيرة عن الطيرة والتشاؤم، والزجر والعيافة والتائم والتولة والهامة والنوء والغول، والكهانة، وايداء الحيوانات وكهين، وتعذيبهن، وماشابه ذلك يدل بوضوح وقوة على مدى رسوخ هذه العادات الباطلة في الحياة العربية الجاهلية، يكشف عن مبلغ اعتقادهم بها، ونزوعهم اليها وهو بالتالي يكشف عن مغزى قوله تعالى: «ويضغُ عنهمُ إضرهمُ والأغلال التي كانت عليهم»^(٢) فأية سلاسل وأغلال أثقل وأساء عاقبة وأشدَّ وطئة، من هذه الأغلال... أغلال الخرافة والوهم، وسلاسل التخيلات والاساطير؟! !!

أوضاع العرب الاجتماعية قبل ظهور الإسلام:

إن أولى خطوة خطاها البشر باتجاه النمط الاجتماعي كانت عند ما أقبل على تأسيس وإقامة الحياة القبليَّة، فالقبيلة تتكون من اجتماع عدة عوائل وأسر مترابطة فيما بينها بوشائج القربى والنسب تحت زعامة شيخ القبيلة، وهذا يتحقق

وتيمَّنا وماتياسرمنها تشاء موابه (كما في بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣ ص ٢١٢ تحت عنوان كيفية الزجر عند العرب).

و«الطرق»: الضرب بالحصى (للاستدلال على أمور غيبية باعتقاد الجاهلين). والجبث هو الباطل.

(١) التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ٢٠٣. قال مؤلف الجامع: «التولة»: نوع من السحر يجتَب الرجلُ إلى زوجته، وهو من عمل المشركين (أي في الجاهلية).

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

أبسط نمط من أنماط الحياة الاجتماعية.

وقد كانت الحياة العربية - آنذاك - من هذا القبيل، فكل مجموعة من العوائل المترابطة نسبياً تتجمع في شكل قبيلة، وتشكل بذلك مجتمعاً صغيراً يخضع فيه الجميع لأوامر رئيس القبيلة وزعيمها، ولقد كان الجامع بين افراد القبيلة هو الرابطة القومية، والشيجة النسبية، وكانت هذه القبائل تختلف في عاداتها ورسومها، وتقاليدها وأعرافها، اختلافاً كبيراً، وإذا كانت كل قبيلة تعتبر القبائل الأخرى غريبة عنها لذلك كانت لا تقيم للآخرين وزناً ولا قيمة، ولا تعترف لهم باي حق أو حرمة.

ولهذا كانت ترى الإغارة على الآخرين وقتلهم، ونهب أموالهم، وسلب ممتلكاتهم وسبي نسائهم من حقوقها القانونية المشروعة، اللهم إلا أن يكون بين القبيلة، والقبيلة الأخرى حلف أو معاهدة.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت القبيلة التي تتعرض للإغارة من جانب قبيلة أخرى ترى من حقها أن تردّ الصاع صاعين، فتقتل كل أفراد القبيلة المغيرة، لأن الدم - في نظرهم - لا يفصله إلا الدم!!!

ولقد تبدلت أخلاقية العرب هذه بعد انصوائهم تحت لواء الإسلام الحنيف، بل تحوّلوا من نمط الحكومة القبلية المتخلفة والنظام العشائري الضيق هذا، إلى حكومة عالمية، واستطاع رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ان يؤلف من القبائل العربية المتفرقة أمة واحدة.

ولاشك أن تأليف أمة واحدة من قبائل وجماعات اعتادت طوال سنين مديدة من التاريخ على التناحر والتنازع، والتخاصم والتقاتل، والتهاجم والإغارة في ما بينها، واستمرأت سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وذلك في مدة قصيرة، عملٌ عظيمٌ جداً، ومعجزة اجتماعية لانظير لها، لأن مثل هذا التحول العظيم إذا أُريدَ له أن يتمّ عبر التحولات والتطورات العادية لاحتاج الى تربية طويلة الامد، ووسائل لا تحصى كثرة.

يقول «توماس كارليل» في هذا الصدد: لقد اخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحى به منهامة خاملة لا يُسمع لها صوت ولا يُحسُّ فيها حركة، حتى صار الخمولُ شهرة والغموض نباهة والضعف رفعة والضعف قوة، والشرارة حريقاً، وشمل نوره الأنحاء وعمَّ ضوؤه الأرجاء ما هو إلا قرنٌ بعد إعلان هذا الدين حتى أصبح للعرب (المسلمين) قدمٌ في الهند وأخرى في الاندلس^(١).

والى هذه الحقيقة يشير أيضاً مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير «رينان» قائلاً: «لامكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الحارق للعادة الذي صار به العربُ أمةً فاتحةً مُبدعة ولم يكن لجزيرة العرب شأنٌ في القرون الأولى من الميلاد، حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ»^(٢).

أجل إن هذه القبائل العربية الجاهلية المختلفة المتناحرة لم تكن تعيش أية حضارة، ولم تمتلك أية تعاليم وقوانين، وأنظمة وآداب قبل مجيء الإسلام، لقد كانت محرومة من جميع المقومات الاجتماعية التي توجبُ التقدم والرقي، ولهذا لم يكن من المتوقع ابداً ان تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة الى عالم الانسانية الواسع، وأفق الحضارة الرحيب بمثل هذه السرعة التي وصلت اليه، والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

إنَّ مَثَل الشعوب والأمم البشرية مثل المباني والعمارات تماماً.

فكما أن البناء القوي الراسخ يحتاج الى موادَّ إنشائية قوية معدة باتقان ومحضرة باحكام حتى يستطيع البناء المصنوع من هذه المواد، والمؤسس بعناية وهندسة متقنة من الوقوف في وجه الأعاصير، والأمطار الغزيرة كذلك يحتاج كيانُ كل أمة رشيدة من الأمم إلى أسس وقواعد محكمة (وهي الأصول والآداب الكاملة، والأخلاق الإنسانية العالية) لتستطيع من البقاء والتقدم.

(١) الخطط الاستعمارية لمكافحة الإسلام: ص ٣٨، والإسلام العلم والحديث: ص ٣٣.

(٢) حضارة العرب: ص ٨٧.

ولهذا السبب لا بد من التأمل في أمر وسر هذه الظاهرة العجيبة ولا بد أن نتساءل:

كيف تحقق ذلك التطور العظيم، وذلك التحول العميق للعرب الجاهلية، ومن اين نشأ؟؟؟

كيف امكن ان تتحول جماعة متشتتة، متعادية، متناحرة، متباغضة، في مابينها، بعيدة عن النظم الاجتماعية، بمثل هذا السرعة الى أمة متآلفة متاخية متعاونة متسالمة متحابية، وتشكل دولة قوية كياناً سياسياً شامخاً أوجب أن تخضع لها دول العالم وشعوبه، وتطيعها، وتحترم مبادئها واخلاقها وآدابها آنذاك .

حقاً لو كان في مقدور العرب أن يحرزوا ذلك التقدم الهائل بفعل عامل ذاتي فلماذا لم تستطع عربُ اليمن الذين كانوا يمتلكون شيئاً كبيراً من الثقافة والحضارة، والذين عاشوا الانظمة الملكية سنيماً عديدة، بل وريّت في احضانها ملوكاً وقادة كباراً، أن تصل الى مثل هذه النهضة العظيمة الشاملة، وتقيم مثل هذه الحضارة العريضة الخالدة.

لماذا لم تستطع العربُ الفساسة الذين كانوا يجاورون بلاد الشام المتحضرة،

ويعيشون تحت ظلّ حضارة «الروم» أن يصلوا الى هذه الدرجة من الرشد؟

لماذا لم تستطع عربُ الحيرة الذين كانوا -والى الامس القريب- يعيشون في

ظلّ الامبراطورية الفارسية أن ينالوا مثل هذا الرقي والتقدم؟ وحتى لو وصلوا الى

هذه الدرجة من التقدم وحققوا هذه القفزة فانه لم يكن أمراً يثير العجب لأنهم

كانوا يعيشون في أحضان مدنّيات كبرى، ويتغذون منها، ولكن الذي يثير

الدهشة، والعجب هو أن تستطيع عرب الحجاز من تحقيق هذه النهضة الباهرة،

ويرثوا الحضارة الإسلامية العظيمة وهم الذين كانوا بفتقرون إلى أبسط

مقومات الحضارة الذاتية، ولم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاريّ مشرق، بل

كانوا كما عرفت يرزحون تحت أغلال الوهم والتخيّل، ويسيرون في ظلمات

الخرافات والأساطير.

دُول الحيرة وغمسان:

على العموم كانت المناطق ذات المناخ الجيد من الجزيرة العربية حتى آخر قرن قبل الإسلام تحت سيطرة ثلاث دول كبرى هي: «ايران»، «الروم»، «الحبشة».

فالشرق والشمال الشرقي من هذه المنطقة كانت تحت حماية «ايران».

والشمال الغربي كان تابعاً للروم.

والمناطق المركزية والجنوب كانت تحت نفوذ «الحبشة».

وعلى أثر مجاورة هذه المناطق للدول المتحضرة المذكورة، وما كان بينها من نزاع وتنافس دائمين ظهرت في المناطق الحدودية للجزيرة العربية دول شبه متحضرة، وشبه مستقلة كان كل واحد منها تابعة في حضاراتها لدولة متمدنة عظمى تجاورها.

وقد كانت دول «غمسان»، و«الحيرة» «وكنده» من هذه الدول شبه

المستقلة وشبه المتمدنة، وكانت كل واحد منها تابعة لاحدى الدول العظمى آنذاك: «ايران»، «الروم»، «الحبشة».

الحيرة: يتبين من الآثار والأخبار أنه هاجرت - في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد - بعض الطوائف العربية، وذلك في نهايات الحكم الأشكنازي، إلى الأراضي المجاورة للفرات، وسيطروا على قسم من أراضي العراق، وقد أوجدت هذه الجماعة المهاجرة القرى والقلاع هناك، شيئاً فشيئاً، وأحدثت المدن التي من أهمها: «الحيرة» التي كانت تقع على حافة صحراء بالقرب من مدينة الكوفة الحالية.

وقد كانت هذه المدينة - وكما يظهر من اسمها - في بداية أمرها قلعة (لأن

الحيرة تعني في اللغة السريانية: الدير وما يشبهه) يسكنها العرب ثم تطورت شيئاً فشيئاً الى مدينة.

وقد ساعد مناخها الجميل، والمياه الوفيرة التي تأتي إليها من الفرات، وجودة

الأحوال الطبيعية الأخرى إلى أن تجتذب إليها أصحاب الصحراء، وسكان البوادي، والقفار، كما واستطاعت هذه المدينة وبفضل مجاورتها للحضارة الفارسية إن تكتسب من ثقافتها ومدنيتها ما أفاض عليها لوناً من الحضارة والمدنية، وقد بُنيت بالقرب من «الحيرة» قصوراً مثل «الخورنق» الذي أضاف إلى هذه المدينة جمالاً وبهاء خاصين، وقد تعرّف العرب الساكنون في هذه المنطقة على الخط والكتابة، ويمكن ان تكون الكتابة والقراءة قد سرتا منها الى بقية مناطق الحجاز ومُدُنِها^(١).

ولقد كان ملوك «الحيرة» وأمراؤها من اللخمين العرب يؤيدون من قبل الدولة الإيرانية بقوة، وسبب هذا التأيد، والحماية الإيرانية لأمراء الحيرة وملوكها كان يكمن في أن ملوك إيران - آنذاك - كانوا يُريدون أن تكون الحيرة سداً، وحاجزاً بينهم وبين عرب البادية، يدفعون بهم خطر الغزاة من أهل الصحارى على الحدود الإيرانية.

ولقد سجّل التاريخُ أسماء هؤلاء الأمراء، وقد نظم «حمزة الاصفهاني» فهرستاً بأسمائهم، وجدولاً بأعمارهم ومُدَد حكوماتهم، ومن كان يعاصرهم من ملوك بني ساسان الإيرانيين^(٢).

ومهما يكن الأمر فإن دولة اللخمين العرب كانت من أكبر الحكومات العربية شبه المتحضرة في منطقة الحيرة، وكان آخر ملوك هذه السلسلة هو «النعمان بن المنذر» صاحب القصة التاريخية التي تتضمن خلعته من الحكم، وقتله بواسطة الملك الإيراني: «خسرو برويز»^(٣).

غَسَّان: في أوائل القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الميلادي هبط جماعة من المهاجرين اليمنيين في الشمال الغربي - أقصى نقاط الجزيرة العربية - وفي جوار الإمبراطورية الروميّة، وأسسوا دولة الغساسنة، وقد كانت هذه الدولة

(١) فتوح البلدان للبلاذري: ص ٤٥٧.

(٢) سينيّ ملوك الأرض: ص ٧٣ - ٧٦.

(٣) الأخبار الطوال: ص ١٠٩.

تحت حماية الروم، وكان مُلوّكها يُنصبون من جانب إمبراطوريات «قسطنطينية» مباشرة، تماماً كما كان مُلوّك «الحيرة» يُنصبون من جانب ملوك ايران. ولقد كانت دولة الفساسنة متحضرة نوعاماً، وحيث إن مراكز حكمها كانت قريبة من ناحية إلى «دمشق» ومجاورة لـ: «بُصرى» مركز القسم الرومي من الجزيرة العربية من ناحية أخرى، لذلك تأثرت بحضارة الروم تأثراً كبيراً وبالغاً.

ولقد كان الفساسنة متحالفين مع الروميين بسبب ما كان بينهم وبين ملوك الحيرة اللخمين العرب والايرائين من الاختلاف والنزاع، ولقد حكم في دولة الفساسنة تسعة أو عشرة من الأمراء والملوك تبعاً.

الدين في أرض الحجاز:

لقد كان الدينُ الرائج في الحجاز هو الوثنية، وعبادة الاصنام. نعم كانت هناك أقليات دينية يهودية تقطن في يثرب (المدينة فيما بعد) وخيبر، كما انه كان هناك من يتبع المسيحية وهم سكان نجران، البلد الحدودي لليمن والحجاز.

وكان الدين الرائج في المناطق الشمالية من الحجاز (أي الشام حالياً) هو المسيحية بسبب مجاورة هذه المناطق للروم وخضوعها للسيادة الرومية. ولو أننا استثنينا من الحجاز هذه المناطق الحساسة الثلاث لما وجدنا في بقية مناطق الحجاز إلا الوثنية في أشكال مختلفة، واعتقادات متنوعة، اللهم إلا بضع افراد كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد ممن يُسمّون بالاحناف كانوا على دين التوحيد، وكان عددهم بالنسبة إلى الاكثية الساحقة من العرب الوثنيين قليلاً جداً^(١).

فمن زمن النبي «إبراهيم» الخليل وابنه «اسماعيل» عليهما السلام دخل

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٢٢ و ١٢٣.

التوحيد، ودخلت بعض التعاليم الأخلاقية والدينية إلى أرض الحجاز، وكان الحج وأداء مناسكه إحتراماً للكعبة الشريفة هو أحد هذه التعاليم والسنن التي دخلت مع «الخليل» إلى هذه المنطقة، ثم إن رجلاً من قبيلة «خزاعة» يسمى «عمرو بن لحي» الذي كانت زعامة مكة قد عهدت إليه، أدخل عبادة الاوثان في مكة في مابعد، وذلك عندما سافر هذا الخزاعي إلى بلاد الشام فوجد قوماً من العمالقة يعكفون على تماثيل جميلة النقش والمنظر يعبدونها، ويؤلهونها، فقال لهم: ماهذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فاسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟؟ فأعطوه صنماً، وهكذا استحب عملهم، وجلب معه إلى مكة صنماً جميل النقش والنحت يدعى «هُبَل» فنصبه ودعا الناس إلى عبادته، وتعظيمه.

وهكذا دخلت الوثنية إلى «مكة» المكرمة، واصبحت عبادة الاوثان والاصنام عبادة رائجة في تلك الديار^(١).

واشهر اصنام العرب هي:

- ١ - هبل و كانت أعظم اصنام العرب التي في جوف الكعبة.
- ٢ - اساف.
- ٣ - نائلة وكانت هي وأساف على موضع زمزم ينحرون عندهما.
- ٤ - اللات وكانت لثيف بالطائف.
- ٥ - العزى وكانت بنخلة الشامية، وكانت لقريش وبني كنانة.
- ٦ - منات وكانت للاوس والخزرج ومن ذهب مذهبهم من أهل يثرب.
- ٧ - عميانس وكان بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم.
- ٨ - سعد.

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٧٨ - ٨١، والعمالقة هم طائفة من العرب عاشوا وسادوا ثم بادوا قبل الإسلام.

٩ - ذوالخلصة وكانت لدوس وخثعم وبجيلة.

١٠ - مناف^(١).

ولقد كانت هذه هي أشهر أصنام العرب علاوة على الأصنام الأخرى غير المعروفة التي كانت تختص بطائفة دون أخرى، أو بعائلة دون عائلة.

العلم والثقافة في الحجاز:

كان أهل الحجاز يوصفون بالأميين، والأمي هو من لم يتعلم القراءة والكتابة فهو كمن ولدته أمه، أو هو باق في عدم العلم بالقراءة والكتابة على الحالة التي ولد فيها من أمه.

ولأجل أن نعرف مدى ما كان عليه العلم والثقافة عند العرب من القيمة يكفي أن نعلم بأن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين قريش الى ما قبل ظهور الإسلام لم يكن يتجاوز (١٧) شخصاً في مكة و(١١) نفر فقط من بين الأوس والخزرج في المدينة^(٢).

إذا لاحظنا هذا التخلف والانحطاط في مجال العلم والثقافة في البيئة العربية الجاهلية يتضح لنا مدى تأثير الإسلام، وادركنا عظمة التعاليم الإسلامية في جميع الحقول الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية، ولا بد في تقييم الحضارات أن نطالع وندرس الحلقة السابقة، ثم نقيم الحلقة التالية في ضوء ذلك، وفي هذه الصورة نقف على عظمة تلك الحضارة الحقيقية^(٣).

(١) راجع الأصنام للكليبي، والمجبر: ص ٣١٥-٣١٩. (٢) فتوح البلدان: ص ٤٥٧ - ٤٥٩.

(٣) للوقوف على معلومات أوسع وأكثر حول عقائد مختلفة طوائف المجتمع العربي الجاهلي، وثقافتها وتقاليدها راجع الكتابين التاليين:

ألف: «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» تأليف السيد محمود الآلوسي المتوفى عام ١٢٧٠ هجري قري.

باء: «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» تأليف الأستاذ جواد علي، وهذا الكتاب أخرج في (١٠) مجلدات، وقد بحث فيها كل ما يرتبط بحياة العرب في العهد الجاهلي.

الإمام عليّ يصف العهد الجاهليّ:

وقد وصف الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام تلك الحالة في خطبه،
وحيث أنه عاصر ذروة ذلك الوضع المأساوي ووصفه وصفاً دقيقاً لذلك ينبغي
أن نقف عند كلامه قليلاً ليتبين لنا جيداً ما كان عليه العربُ إبان عهد الرسالة
الإسلامية المباركة:

قال عليه السّلام في الخطبة (الثانية) من نهج البلاغة:

«... وأشهدُ أنّ مُحمّداً عبدهُ وَرَسُولَهُ أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعِلْمِ الْمَأْثُورِ
وَالكِتَابِ الْمَسْطُورِ وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ إِزَاحَةً
لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيرَ بِالْآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالْمَثَلَاتِ^(١) وَالنَّاسُ
فِي فِتْنٍ أَنْجَذَمَ^(٢) فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي^(٣) الْيَقِينِ وَأُخْتَلَفَ
التَّجْرُ^(٤)، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْمَخْرَجُ، وَعَيِيَ الْمَصْدَرُ فَالْهُدَى حَامِلٌ،
وَالعَمَى شَامِلٌ، عُصِيَ الرَّحْمَانُ وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ وَخُذِلَ الْإِيمَانُ فَانْهَارَتْ
دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ^(٥) سُبُلُهُ وَعَفَّتْ شُرَكَهُ^(٦) أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ
فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ^(٧) بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وَقَامَ لِوَاوُهُ فِي فِتْنٍ
دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا^(٨) وَوَطَّئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا^(٩) وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا^(١٠) فَهَمُّ فِيهَا
تَهْوَنُ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ نُومُهُمْ سُهْوٌ وَكُخْلُهُمْ
دُمُوعٌ بِأَرْضِ عَالِمِهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلِهَا مُكْرَمٌ.

وقال في الخطبة (التاسعة والثمانين) أيضاً:

«أَرْسَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَطُولِ هَجْرَةٍ مِنَ
الْأُمَّمِ وَاعْتِزَامِ^(١١) مِنَ الْفِتَنِ وَأَنْتِشَارِ مِنَ الْأُمُورِ وَتَلَطُّ^(١٢) مِنَ الْحُرُوبِ وَالذُّنْيَا

(١) المثلات: العقوبات. (٢) انجذم: انقطع. (٣) السواري: الدعائم. (٤) النجر: الأصل.

(٥) درست: انطمست. (٦) الشرك: الطرق. (٧) المنهل: مورد النهر.

(٨) الخف: هو للبعير كالقدم للإنسان. (٩) الظلف: للبقرة والشاة كالخف للبعير والقدم للإنسان.

(١٠) السنايك: طرف الحافر. (١١) اعتزم الفرس: اذامرّ جاحماً. (١٢) تلطّ: تلهّب.

كاسِفةُ النُّورِ ظَاهِرَةٌ الغُرُورِ عَلَى حِينِ اصْفِرَارِ مِنَ وَرَقِهَا وَأَيَّاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا
وَإِغْوَارِ^(١) مِنْ مَائِهَا قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى فَهِيَ
مُتَّجِهَةٌ^(٢) لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِيهَا ثَمَرُهَا الْفِئْتَةُ وَطَعَامُهَا الْجِنْفَةُ^(٣)
وَشَعَارُهَا الْخَوْفُ وَدَثَارُهَا السَّيْفُ».

وَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ (السَّادِسَةُ وَالْعِشْرِينَ): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ وَسَلَّمَ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ
وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ^(٤) بَيْنَ حِجَارَةِ خَشِينٍ^(٥) وَحَيَاتِ صُمٍّ^(٦) تَشْرَبُونَ الْكَدِيرَ
وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ^(٧) وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ الْأَصْنَامُ فِيكُمْ
مَنْصُوبَةٌ وَالْآثَامُ بِكُمْ مَفْضُوبَةٌ^(٨)».

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْخُطْبَةِ (الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثِينَ): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَةَ فَسَاقِ النَّاسِ
حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ^(٩) وَبَلَّغَهُمْ مَنَجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ^(١٠) وَأَطْمَأْنَنْتْ صِفَاتُهُمْ».

وَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ (الخَامِسَةُ وَالتَّسْعِينَ) أَيْضًا:

«... بَعَثَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالنَّاسُ ضُلَالًا فِي حَيْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِئْتَةٍ قَدْ
اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ وَاسْتَخَفَّتْهُمْ^(١١) الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ حَيَارَى
فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ فَبَالَغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي
النَّصِيحَةِ وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ».

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْخُطْبَةِ (السَّادِسَةُ وَالتَّسْعِينَ) أَيْضًا:

«... مُسْتَقَرُّهُ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَمَنْبَتُهُ أَشْرَفُ مَنْبَتٍ فِي مَعَادِنِ الْكِرَامَةِ وَ
مَمَاهِدِ^(١٢) السَّلَامَةِ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوُهُ أَفْنَدَةُ الْأَبْرَارِ وَتُنْتَبِتُ إِلَيْهِ أُرْمَةُ الْأَبْصَارِ دَفَنَ

(١) اغورار الماء: ذهابه. (٢) تجهمه: استقبله بوجه كربه.

(٣) إشارة إلى أكل العرب للميتة من شدة الاضطرار. (٤) منيخون: مقيمون.

(٥) الحُشْنُ: جمع خشناء من الخشونة. (٦) الصُّمُّ: التي لا تسمع لعدم انزجارها بالاصوات.

(٧) الجشيب: الطعام الغليظ. (٨) معصوبة: مشدودة. (٩) بؤاهم محللهم: أنزلهم منزلتهم.

(١٠) القنائة: العود كناية عن القوة. (١١) استخفتهم: طيشتهم. (١٢) المهد: ما يبسط فيه الفراش

اللَّهُ بِهِ الضَّغَائِنِ وَأَطْفَابِهِ الثَّوَاتِرِ^(١) أَلْفَ بِهِ إِخْوَاناً وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً أَعَزَّ بِهِ الدَّلَّةَ وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ كَلَامُهُ بَيَانٌ وَصَمْتُهُ لِسَانٌ».

وقال عليه السَّلام في الخطبة (١٥١) أيضاً:

«... أضاءت به صلى الله عليه وآله البلاد بعد الضلالة المظلمة والجهالة الغالبة والجفوة الجافية والناس يستحلون الحريم ويستذلون الحكيم يخيون على فطرة^(٢) ويموتون على كفر».

وقال في الخطبة (١٩٨): «... ثم إن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق حين دنا من الدنيا الإنقطاع وأقبل من الآخرة الإطلاع^(٣) وأظلمت بهجتها بعد إشراق وقامت بأهلها على ساقٍ وخشن منها مهاد^(٤) وأزف^(٥) منها قياد في انقطاع من مدتها واقتراب من أشراتها^(٦) وتصرم^(٧) من أهلها وانفصام^(٨) من حلقها وانتشار^(٩) من سببها وعفاء^(١٠) من أعلامها وتكشيف من عوراتها وقصر من طولها».

وقال عليه السَّلام في الخطبة (٢١٣): «أرسله بالضياء وقدمه في الإضطفاء فرقق^(١١) به المفاتيح^(١٢) وساور^(١٣) به المغالب وذلَّل به الصعوبة وسهَّل به الحزونة^(١٤) حتى سرح الضلال عن يمين وشمال».

وقال في الخطبة (١٩١): «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ابتغينه والناس يضربون في غمرة^(١٥) ويموجون في حيرة قدقادتهم أزمة الحين^(١٦) وأستغلفت على أفئدتهم أقفال الرين^(١٧)».

-
- | | |
|---|---|
| (١) الثائرة: العداوة. | (٢) على فترة: على خلوص الشرائع. |
| (٣) الاطلاع: الإتيان. | (٤) خشونة المهاد: كناية عن شدة آلام الدنيا. |
| (٥) ازف: قرب. | (٦) الشرط: العلامة. |
| (٧) التصرم: التقطع. | (٨) الانفصام: الانقطاع. |
| (٩) انتشار الأسباب: تبددها حتى لا تضبط. | (١٠) عفاء الأعلام: اندراسها. |
| (١١) رقق: سد به الفتق. | (١٢) المفاتيح: مواضع الفتق. |
| (١٣) ساور: ثاوب. | (١٤) الحزونة: غلظ في الأرض. |
| (١٥) الغمرة: الماء الكثير. | (١٦) الحين: الهلاك. |
| (١٧) الرين: التغطية. | |

فاطمة الزهراء تصف الوضع الجاهلي:

وقد وصفت السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العهد الجاهلي بمثل ذلك اذ قالت في خطبتها أمام أبي بكر والمسلمين^(١):

«فَبَلَّغَ (اي رسولُ الله) بِالرَّسَالَةِ صَادِعاً بِالتَّنَادِرَةِ^(٢) مَائِلاً عَلَى مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ ضَارِباً تَبَجَّهْمُ^(٣) آخِذاً بِأَكْظَامِهِمْ دَاعِياً إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ يَكْسِرُ الْأَصْنَامَ وَيَنْكُثُ الْهَامَ^(٤) حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلُّوا الدُّبُرَ حَتَّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَن صُبْحِهِ وَاسْفَرَ الْحَقُّ عَن مَخْطِهِ^(٥) وَنَطَقَ زَعِيمُ الدِّينِ وَخَرَسَتْ شَقَاشِقُ^(٦) الشَّيَاطِينِ وَأَطَاحَ وَشَيْطُ^(٧) التَّفَاقِقِ وَانْحَلَّتْ عُقْدُ الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ وَفُهِتُمْ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ فِي نَفَرٍ مِنَ الْبَيْضِ الْخِمَاصِ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ مُذَقَّةً^(٨) الشَّارِبِ وَنُهُزَةً^(٩) الطَّامِعِ وَقَبْسَةَ الْعِجْلَانِ^(١٠) وَمَوْطِئَ الْأَقْدَامِ تَشْرَبُونَ الطَّرِيقَ^(١١) وَتَقْتَاتُونَ الْقِدَّ^(١٢) وَالْوَرَقَ أُذِلَّةً خَاسِئِينَ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ فَأَنْقَذَكُمْ اللهُ تَعَالَى بِمُحَمَّدٍ بَعْدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي بَعْدَ أَنْ مُنِيَ بِهِمْ^(١٣) الرِّجَالُ وَذُوبَانِ الْعَرَبِ وَمَرْدَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ^(١٤) كَلَّمَا أَوْ قَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ؛ أَوْ نَجَمَ^(١٥) قَرْنُ الشَّيْطَانِ أَوْ فَغَرَّتْ^(١٦) فَاغِرَّةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قَدَفَ أَخَاهُ فِي لَهْوَاتِهَا^(١٧) فَلَا يَنْكِفِي^(١٨) حَتَّى يَطَأَ صِمَاخَهَا بِأَخْمِصِهِ».

- (١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وبلاغات النساء وغيرهما.
 (٢) النذار: الأنداز.
 (٣) الشجج: الكاهل.
 (٤) الهامة: الرأس.
 (٥) المحض: الخالص.
 (٦) الشقشقة: شيء يشبه الرئة يخرج من فم البعير إذا هاج.
 (٧) الوشيظ: الأتباع والخدم.
 (٨) المذقة: شربة من اللبن المزوج بالماء.
 (٩) النهزة: الفرصة.
 (١٠) قبسة العجلان: الشعلة من النار التي يأخذها الرجل العاجل.
 (١١) الطرق: الماء الذي خوضته الابل وبولت فيه.
 (١٢) القد: قطعة جلد غير مدبوغ.
 (١٣) البهمة: الشجاع الذي لا يهتدي من أن يؤتى.
 (١٤) المارد: العاتي.
 (١٥) نجم: طلع.
 (١٦) فغرت: فتحت.
 (١٧) اللهاة: اللحم المشرفة على الحلق في أقصى الفم.
 (١٨) ينكفي: يرجع.

جعفر بن ابی طالب یصف العهد الجاهلي:

ويشهد بذلك أيضاً ما قاله جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ملك الحبشة عندما أراد مبعوثاً قريش استعادتها إلى مكة:

أيتها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قالت: فعدد عليه أمور الإسلام حتى قال: وصدقناه، وأمتابه واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم عليّنا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث^(١).

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٣٥ و ٣٣٦. والحديث عن أم سلمة.

إمبراطوريتنا الروم وإيران

إبان عهد الرسالة

للقوف على أهمية النهضة الإسلامية المباركة التي تحققت على يدي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بعد ارساله من جانب الله تعالى وقيمتها، تكتسب دراسة بيئتين اجتماعيتين أهمية قصوى، وتانيك البيئتان هما:

١ - بيئة نزول القرآن الكريم، أي البيئة التي ظهر فيها الإسلام، وترعرع

ونمى.

٢ - البيئة العالمية (خارج الجزيرة العربية)، ويعرف ذلك بدراسة عقائد الناس وأفكارهم في أكثر مناطق العالم -يومذاك - مدنية وحضاره، ومطالعة آدابهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وأعرافهم، ومدنيتهم التي كانت تعتبر أفضل لأفكار والمدنيت، وأرق الحضارات، والأوضاع آنذاك .

و لقد كانت بيئتا: الامبراطورية الرومانية، والامبراطورية الإيرانية ألمع نقطة في ذلك اليوم - كما يدلنا التاريخ على ذلك . ولا بد استكمالاً لهذا البحث من دراسة الأوضاع في هاتين الإمبراطوريتين، في مناطقها، ومن نواحيها المختلفة، لنقف من هذا الطريق على قيمة الحضارة التي اتى بها الإسلام، ونعرف ذلك بوجه أفضل.

أوضاع الروم ابان عهد الرسالة:

ان أوضاع الروم لم تكن بأقل سوء من أوضاع منافستها «ايران» فالحروب الداخلية من جانب والمعارك الخارجية المستمرة مع «ايران» وصراعها الدائم المستمر مع الاخيرة على منطقة «ارمينية» وغيرها كل ذلك كان يهيء الناس في تلك البلاد للقبول بثورة جديدة يضع حداً لمآسيهم ومحنهم.

ولقد كان للاختلافات والمنازعات الطائفية والمذهبية نصيب الاكبر والأوفر في توسيع رقعة هذه الاختلافات، والمنازعات.

فالحرب لم تتوقف أبداً بين الوثنيين والمسيحيين ولم تنطفئ شرارتها يوماً أبداً. فكان إذا غلب رجال الكنيسة على دست الحكم وأخذوا بمقاليدهم مارسوا أشد أنواع الضغط والاضطهاد بحق خصومهم ومنافسيهم الأمر الذي كان يساعد على إيجاد أقلية ناقمة من جهة، كما ويمكن اعتبار ذلك عاملاً مساعداً من جهة أخرى على تهيئة الشعب الروماني لاحتضان الدعوة الإسلامية، وتقبلها. لقد كان حرمان طوائف كثيرة ومختلفة ناشئاً من ممارسات رجال الكنيسة الخشنة ومواقفهم المتزمتة.

هذا مضافاً إلى أن اختلاف القساوسة والرهبان النصراني فيما بينهم من جهة، وتعدد المذاهب من جهة أخرى كان يعمل على التقليل من هيبة الامبراطورية الرومانية وجرها إلى الضعف والوهن المتزايد يوماً بعد يوم.

هذا بغض النظر عن أن البيض والصفر من سكان الشمال والمشرق كانوا يفكرون في السيطرة على المناطق الغنية من أوربة، وربما ألحق أحدهما بالآخر خسائر فادحة وباهضة في الصراعات والمصادمات التي كانت تقع بينها. وكان هذا هو نفسه السبب في أن تنقسم الامبراطورية الرومية الى معسكرين: المعسكر (او القسم الشرقي) والمعسكر (او القسم الغربي).

ويعتقد المؤرخون أن أوضاع الروم السياسية، والاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس كانت مضطربة، ومتدهورة جداً، حتى أنهم لا يرون في غلبة

الروم وتفوقها على إيران شاهداً على قدرتها العسكرية، وتفوقها النظامي، بل يرون أن هزيمة إيران كانت بسبب الفوضى التي كان سائدة انذاك في جهاز الحكم الايراني.

إن هاتين الدولتين اللتين كانتا تتربّعان على عرش السيادة والسياسة العالمية في مطلع ظهور الإسلام كانتا تعيشان حالة سيئة من الفوضى، والهرج والمرج، ومن البديهي أنّ مثل هذه الأوضاع كان من شأنها أن توجد حالة من التهيؤ الكبير و الظماً الشديد إلى دين صحيح يضع حدّاً ونهاية لتلك الحالة، ويعيد تنظيم حياتهم.

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي:

المتعارف أن يعمد جماعة من البطالين والفسقة إلى طرح سلسلة من القضايا والمسائل الخاوية والنقاش حولها بهدف التوصل إلى أغراض فاسدة، فيستهلكون بذلك أوقات الناس، وهدرون أعمارهم على منحرج الجدل العقيم. وهي حالة لها مصاديق كثيرة وشواهد عديدة في كثير من بلاد المشرق، ولسنا بصدد التوسع فيه فعلاً.

وقد كانت «الروم» تعاني يومئذ من مثل هذه الحالة أكثر من أي مكان آخر.

فقد كان ملوك الروم ورجال الحكم والسياسة تبعاً لمذاهب دينية كنسية -يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعتين ومشيتين، ولكن طائفة أخرى من النصارى وهم «اليعقوبية» كانوا يقولون بانه: ذو طبيعة ومشية واحدة.

وقد وجهت هذه المسألة الباطلة نفسها، والجدل الواهي حولها ضربة شديدة إلى وحدة الروم ومن ثم استقلالها، وحدثت في صفوفها انشقاقاً عميقاً حيث كانت السلطات الحاكمة تضطر إلى الدفاع عن معتقداتها، ولذلك كانت تضطهد معارضيها، وتلاحقهم وهذا الاضطهاد والضغط الروحي سبب في لجوء البعض إلى الدولة الايرانية، كما كان هؤلاء هم الذين تركوا المقاومة عند

مواجهة الجيش الإسلامي، والقوا السلاح، واستقبلوا جنود الإسلام بالاحضان. كانت الرومُ تمرُّ آنذاك بظروف اشبه ماتكون بظروف القرون الأوربية الوسطى التي ينقل عنها «فلاماريون» الفلكي الشهير القضايا التالية التي تدل على المستوى الفكري والثقافي لأوربة في القرون الوسطى:

لقد كان كتاب «المجموعة اللاهوتية» المظهر الكامل للفلسفة المدرسية في القرون الوسطى، وقد بقي هذا الكتاب يُدرّس في أوربة خلال أربعمئة سنة ككتاب رسمي ومعترف به.

وقد كان من الأبحاث المطروحة في هذا الكتاب البحث حول عدد الملائكة التي يمكنها ان تستقر على رأس إبرة؟! أو عدد الفراسخ بين العين اليسرى والعين اليمنى للاب الخالد؟! الى غير ذلك من القضايا التافهة!!

إن الامبراطورية الرومية السية الحظ فيما كانت تعاني من الحروب الخارجية الكثيرة، كانت تعاني كذلك من النزاعات والاختلافات الداخلية التي كانت على الاغلب- تتصف بالصبغة المذهبية والطائفية، وكانت تدفع بالبلاد إلى حافة الهاوية، وتزيدها قربا إليها يوماً بعد يوم.

ولما رأى اليهود (وهي الزمرة الشريرة المتآمرة على الشعوب دائماً) تصاعد الاضطهاد والضغط الذي يمارسه الامبراطور المسيحي الرومي خطت لاسقاط ذلك النظام، فاحتلت مدينة انطاكية ذات مرة، ومثلت بأسقف أنطاكية الاكبر فصلموا أذنه، وجدعوا أنفه، فانتقمت حكومة الروم لهذه الجناية بعد مدة، وقتلت اليهود في انطاكية في مذبحة عامة.

وقد تكرّرت هذه الجرائم الفضيعة وهذه المذابح، والمذابح الانتقامية المضادة بين اليهود والنصارى عدة مرات، وربما سرت موجة الروح الانتقامية أحياناً الى خارج البلاد، فمثلا اشترى اليهود من ايران ذات مرة ثمانين الف مسيحي ثم حزوا رؤوسهم انتقاماً وتشفيماً.

من هذا يستطيع القارئ الكريم أن يقف على الصورة القاتمة للوضع السيء والمتردّي الذي كان عليه العالم إبان بزوغ شمس الإسلام، ويدعن -مع

المذعنين- بأن التعاليم الإسلامية الرفيعة التي انقذت العالم من ذلك الوضع المأساوي لم تكن أبداً وليدة الفكر البشري وان نسيم الوحدة الناعشة، ونعمة السلام التي يهدف اليه الإسلام ويسعى إلى تحقيقه واقاراه في الحياة البشرية ليس لها من مصدر إلا الغيب، اذ كيف يمكن القول بأن الإسلام الذي يعترف حتى للحيوانات بحق العيش والحياة نابع من تلك البيئة المفرقة في القسوة والوحشية، وناشئ من ذلك المحيط المفحم بروح الانتقام والتشفي.

لقد أبطل الإسلامُ جميع تلك المجادلات العقيمة والمناقشات التافهة حول مشيئة عيسى وشخصيته، وقال في نعتة ووصفه:

«ما المَسِيحُ بنُ مَرِيَمَ إِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ»^(١).

إن هذه الآية انتهت الكثير من أبحاث رجال الكنيسة الباطلة الخاوية حول «الروح» و«المسيح» ودمه، وشخصيته، وحقيقته، كما ان الإسلام بفضل التعاليم الرفيعة، واحياء السجايا والملكات الفاضلة انقذ البشرية من المنازعات، الفارغة، والمذابح الفضيعة.

أوضاع إيران إبان عهد الرسالة:

إن ما دفعنا إلى دراسة أوضاع الإمبراطورية الرومية هونفسه يحتم علينا أيضا دراسة اوضاع إيران يومذاك .

لقد صادف ظهور الإسلام وبعثة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٦١١ ميلادية) عهد السلطان الإيراني خسرو برويز (٥٩٠-٦٢٨ م)، و في عهد «خسرو برويز» هذا هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة الى المدينة (الجمعة ١٦ جولاى ٦٢٢)، وصارت هذه الواقعة مبدءاً للتاريخ الإسلامى. في هذه الأيام كانت الدولتان العظيمتان (الروم الشرقية وايران

الساسانية) تسيطران على معظم مناطق العالم المتحضر، ولم تنزل هاتان الدولتان في نزاع مستمر وصراع دائم على مناطق النفوذ حتى بعد ظهور الإسلام. فقد بدأت حروب ايران والروم الطويلة من عهد السلطان الايراني أنوشيروان (٥٣١-٥٨٩م) واستمرت الى عهد الملك «خسروبروينز» واستغرقت اربعاً وعشرين عاماً من الزمان^(١).

وقد سبب تحمّل «ايران» و «الروم» للخسائر الكبرى، في الارواح والثروات خلال هذه المعارك الطويلة في إضعاف تينك الدولتين، وتعطيل وشلّ قواهما بحيث لم يبق منهما إلا شبح دولتين لا اكثر. ولكي نقف على الوضع العام في ايران آنذاك من جهاته المختلفة، وابعاده المتنوعة وبصورة أفضل، يجب ان نلقي نظرة فاحصة على وضع الحكومات التي توالى على سدة القيادة الايرانية بعد حكم «انوشيروان» وحتى بداية دخول المسلمين في ايران.

البذخ والترف في البلاط الساساني:

كانت حياة الملوك الساسانيين تتسم عموماً بالبذخ والترف، والتشريفات الطويلة العريضة، وكان البلاط الساساني الفخم جداً يجلب ببريقه، ببريق العيون، ويسحر الافئدة والعقول.

وكان للايرانيين في عهد الساسانيين لواء يُعرف بـ: «درفش كاوياني» اي العلم الكاوياني نسبة إلى كاوه وهو بطل قومي إيراني أسطوري، وقد كانوا يحملونه معهم في الحروب، او ينصبونه فوق قصورهم اثناء احتفالات الساسانيين الكبرى، وقد كان هذا اللواء موشحاً ومزيناً بأغلى أنواع المجوهرات بلغت قيمتها التقديرية - حسب قول بعض الكتاب: «١/٢٠٠/١٠٠٠» درهماً (او ما يعادل

(١) تاريخ علوم وادبيات در ايران ص ٣ و ٤ و ايران در زمان ساسانيان ص ٢٦٧ (باللغة الفارسية).

٣٠/١٠٠٠ پوند).

وقد بلغت مجموعة المجوهرات والاشياء الثمينة والتصاوير والرسوم المحيرة للعقول التي كانت تكتضُّ بها قصور الساسانيين من حيث الاهمية والقيمة حداً سحرت العيون وخلبت الالباب.

ولو أننا أردنا أن نقف على عجائب ما في تلك القصور، وما كانت تحتوي عليه من غرائب الاشياء لكفانا أن نلقي نظرة واحدة إلى السجادة البيضاء والكبيرة التي كانت مفروشة في احدى صالات بعض تلك القصور، وهي السجادة التي كانت تدعى بالفارسية بـ «بهارستان كسرى» وهو بساط كانوا يُعدّونه للشتاء إذا ذهب الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب وتعاطي الخمر فرشوه، وشربوا عليه فكأنهم في رياض وكان هذا البساط ستيناً في ستين أرضه بذهب ووشيه بفضوص، وثمره بجوهر وورقه بحرير»^(١)!!

وقيل أيضاً أن هذا البساط كان مئة وخمسين ذراعاً في سبعين ذراعاً وكان منسوجاً من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية جداً!!

وقد كان «خسرو برويز» أكثر الملوك الساسانيين ميلاً إلى الترف، والبذخ، واتخاذ الزينة، وقد بلغت عدد نساته وجواربه عدة آلاف.

يقول حمزة الاصفهاني في كتاب «سني ملوك الارض» واصفاً حالة الترف والبذخ التي كان يعيشها كسرى برويز: ثلاثة آلاف امرأة، واثناعشر.

وجاء في تاريخ الطبري: أن «كسرى»^(٢) برويز» كان قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحدٌ من الملوك، وكان أرغب الناس في الجواهر والأواني^(٣).

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٣٠.

وجاء في تاريخ الطبري: كانت هذه السجادة ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جريب فيه طرق كالصور، وفضوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالأرض المزروعة والأرض المبجلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة!!

(٢) سني ملوك الأرض والأنبياء: ص ٤٢٠.

(٣) تاريخ الطبري: ج ١ ص ٦١٦.

الوضع الاجتماعي في إيران:

لم يكن الوضع الاجتماعي في عهد الساسانيين بأفضل من الوضع السياسي آنذاك أبداً، فقد بلغ الاختلاف الطبقي الذي كان سائداً في إيران منذ زمن بعيد أشدّه وأقوى درجاته، وأسوأ حالاته في العهد الاختلاف الساساني.

فطبقة النبلاء والكهنة كانت تتميز على بقية الطبقات تميزاً كاملاً، فهم يختصون بجميع المناصب الاجتماعية الحساسة والعلوية، بينما حُرِم الكسبة والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعية، ولم يكن لهم من واجب ودور في النظام إلا دفع الضرائب الثقيلة والمشاركة في الحروب.

يكتب أحدُ الكتاب الإيرانيين وهو الاستاذ سعيد نفيسي في هذا الصعيد قائلاً:

ان ما كان يثير روح النفاق بين الإيرانيين أكثره سياسة التمايز الطبقي القاسي جداً الذي كان الساسانيون يتبعونها في التعامل مع الشعب، وكان لها جذورٌ في العهود والحضارات السابقة، ولكنها بلغت ذروتها في العهد الساساني بالذات!!
ففي الدرجة الأولى كان للعائلات السبع من النبلاء، ثم للطبقات الخمس امتيازات خاصة حُرِمَتْ منها عامة أبناء الشعب.

فالملكية كانت محصورة -تقريباً في تلك العائلات السبع مع العلم أن الشعب في العهد الساساني، كان يقاربُ عدد نفوسه مائة وأربعين مليوناً في حين لا يبلغ عددُ كل واحد من تلك العائلات الممتازة والتميّزة في شؤونها مائة ألف شخص، فيكون مجموعها سبع مائة ألف^(١).

وإذا افترضنا أنّ حراسَ الحدود وأمراءهم والمُلاك الذين كانوا يتمتعون هم الآخرون بشيء من حق الملكية كان يبلغ عددهم أيضاً سبع مائة ألف أيضاً فيكون حق التملك والمالكية حينئذٍ خاصاً بليون ونصف من مجموع مائة

(١) تاريخ اجتماعي إيران: ج ٢ ص ٦-٢٤ (باللغة الفارسية).

واربعين مليوناً، فقد كانت تلك الزمرة القليلة هي التي تملك، وأما الآخرون وهم الاكثية الساحقة فقد كانوا محرومين من هذا الحق الطبيعي الموهوب لهم من جانب الله أساساً وأصلاً.

لقد كان الكسبة والفلاحون الذين كانوا محرومين من جميع الحقوق، والإمتيازات ولكنتهم كانوا يتحملون نفقات حياة البذخ والرفاهية التي كان يرفل فيها الثبلاء والأشراف والطبقات العليا، لا يأملون خيراً وراء استمرار هذه الاوضاع، ودوامها، ولهذا كثيراً ما كان المزارعون والفلاحون والطبقات الدنيا من الشعب يغادرون أعمالهم، ومزارعهم ويلجأون إلى الأديرة فراراً من الضرائب الباهضة والاتاوات القاصمة للظهور، المبددة للثروات^(١).

يقول مؤلف كتاب «ايران في عهد الملوك الساسانيين»^(٢).

إن حروب إيران - الروم الطويلة بدأت من عهد حكومة الملك الإيراني انوشيروان (٥٣١-٥٨٩م).

وخلاصة القول أنه كان في الامبراطورية الساسانية يملك أقلية صغيرة تقل نسبتها عن ١/٥ % (واحد و نصف بالمائة) من مجموع الشعب كل شيء بينما كان اكثر من (٨٩%) من الشعب الإيراني محرومين من حق الحياة تماماً كالعبيد.

حق التعلم خاص بالطبقات الممتازة!!:

في العهد الساساني كان ابناء الاغنياء والبيوتات الرفيعة هم وحدهم الذين يتمتعون بحق التعلم، بينما كان عامة جماهير الشعب، والطبقات الوسطى والدنيا محرومين من تحصيل العلوم واكتسابها.

وقد كانت هذه المنقصة بادية وواضحة في عصور ايران التاريخية جداً بحيث ذكرها الشعراء الكبار في ملاحمهم ودواوينهم الملكية المعروفة بالرغم من ان

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٧٠ و ٧١. (٢) إيران في عهد الساسانيين: ص ٤٢٤.

الهدف من تلك الملاحم والدواوين كان هو الحماسة، والتفاخر بالبطولات وتجييش العواطف، بعد مدح الملوك والامراء.

فها هو «الفردوسي»^(١) الشاعر الملحمي الفارسي المعروف، بل اشهر شعراء ايران قد ذكر في شاهنامته (وهي الملحمة الشعرية التي يذكر فيها أمجاد ملوك الفرس في قرابة ستين ألف بيت) قصة في هذا الصدد تعتبر أفضل شاهد على ماقلناه.

وقد وقعت هذه القصة في زمن «أنوشيروان»، أي في الوقت الذي كانت الامبراطورية الساسانية تمرُّ فيه بعهدا ذهبي.

وهذه القصة تشهد بأن اكرية الشعب في عهد هذا الملك أيضاً كانت محرومة من حق التعلم، وممنوعة عن اكتساب الثقافة.

يقول الفردوسي: لقد أبدى حذاء استعداده لتحمل نفقات الجيش الإيراني في حربه مع الروم- بدفع ما يحتاجون إليه من ذهب وفضة.

ومع أن السلطة في عهد «أنوشيروان» كانت بحاجة ماسة إلى مساعدات مالية كبيرة إذ كان يتعين عليها أن تجهز ما يقرب من ثلاثمائة ألف مقاتل قد اصابوا بالمجاعة وقلة العتاد، بحيث أدى ذلك إلى وقوع بعض الاعتراضات، وإلى ظهور الفوضى في الجنود، مما أدى بدوره إلى قلق الملك الإيراني «أنوشيروان». والتخوف من مضاعفات هذه الحالة، وآثاره السيئة في قتاله للروم، ولذلك بادر إلى استدعاء وزيره المحنك «بزرجمهر» للتشاور معه في المخلص من ذلك الوضع المحرج، ثم امره بالتوجه إلى منطقة «مازندران» وجمع الاموال اللازمة من سكانها.

ولكن «بزرجمهر» حذر الملك من مغبة هذا العمل، وأضاف بأن هذا من شأنه أن يضاعف من الخطر ثم اقترح جمع الاموال اللازمة عن طريق القروض الشعبية فاستحسن «أنوشيروان» اقتراحه وأمره باتخاذ الترتيبات اللازمة على

(١) راجع للتعرف السريع على شخصية هذا الشاعر: الموسوعة العربية الميسرة: ص ١٢٨٦.

التوفيرسل الوزير مندوبين له الى المدن الإيرانية ليكلم التجار واصحاب الثروة في الامر.

فيبدى الحذاء المذكور استعداده لتحمل كل نفقات الجيش لوحده الا انه اشترط ذلك بان يسمحوا لولده الوحيد الراغب في تحصيل العلم جداً ان يتعلم. فاستحقر الوزير شرطه ووعده بالانجاز، والسماح لولده بالتعلم وتحصيل العلم، ثم عرض الامر على الملك انوشيروان وهو يأمل في ان يتجاوب الملك مع رغبة الحذاء وطلبه الصغير اذا ما قيس بما سيعطيه من اموال طائلة في تلك الاوضاع الحرجة.

ولكن الملك استشاط غضباً لهذا الطلب، ونهر الوزير قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، ان هذا لا يمكن ان يكون، لان ابن الحذاء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقي المتبع، فينفرط بذلك عقد الدولة، ويكون ضرر هذا المال علينا اكثر من نفعه، وشره اكثر من خيره.

ثم إن الفردوسي يعمد إلى شرح المنطق الميكافيلي حكاية عن لسان انوشيروان اذ يقول ناظماً ذلك في ابيات^(١):

وإذا اصبح ابن الحذاء عالماً كاتباً عارفاً فعندما يجلس ولدنا على مسند الحكم والسلطنة واحتاج الى كاتب، فانه سيضطر إلى الاستعانة بابن ذلك الحذاء -الكاتب- (وهو من عامة الشعب ومن ابناء الطبقة الدنيا وفي حين جرت عادتنا الى الآن على أن نستعين بابناء الاشراف والنبلاء لا أبناء الطبقة الدنيا)!!!

وإذا حصل ابن الحذاء وبائع الاحذية على العلم والمعرفة أعاره العلم والمعرفة حينئذ عيوناً بصيرة، وآذاناً سمیعة فيرى حينئذ ما يجب أن لا يراه،

(١) وإليك هذه الأبيات باللغة الفارسية:

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| هنرمند و با دانش و یادگیر | چوبازارگان بچه گردد دیر |
| دبیرى ببايدش پیروز بخت | چوفرزند ما برنشند به تخت |
| سپارد بدو چشم بینا و گوش | هنر باید از مرد موزه فروش |
| نماند جز از حسرت و سرد باد | بدست خردمند مرد نژاد |

ويسمع ما يجب أن لا يسمعه، وحينئذ لا يبقى لأبناء الملوك إلا الحسرة والتأسف^(١).

وهكذا يعيد الملك دراهم الخدّاء المسكين اليه رافضاً طلبه ويعود الخدّاء خائباً وهو يتوسل بما يتوسل به المستضعفون والمحرومون المظلومون وهو الدعاء والضراعة الى الله في الليل وفي هذا قال الفردوسي: عاد مبعوث الملك بدراهم الخدّاء اليه فاصيب الخدّاء لذلك بغمّ شديد ثم لما جن الليل تضرع الخدّاء الى الله وشكا اليه الملك طالباً عدالته^(٢).

والعجيب هو أن يصف البعض هذا السلطان بالعاقل وهو الذي لم يعالج أسوأ مشكلة في المجتمع الإيراني أيام حكمه وسلطانه وهي المشكلة الثقافية، بل تسبب في أن يصاب الشعب الإيراني بالمزيد من المشاكل الاجتماعية وغيرها.

فقد وأدودفن في القبور احياء ما يقرب من ثمانين الف انسان (اومائة الف كما قيل) في حادثة واحدة، وهي فتنة مزدك، حتى أنه ظنّ أنه قد قضى على جذور تلك الفتنة وهو لا يعلم أنها لم تُستأصل لأن مثل هذه الأساليب القمعية انما تقضي فقط على المسبّب دون السبب، وتكافح المجرم لا الجرم.

لقد كان السبب الحقيقي وراء تلك الفتنة هو الظلم الاجتماعي، والاختلاف الطبقي، واحتكار الثروة، والمنصب على أيدي طبقة خاصة وحرمان الاكثية الساحقة من الشعب وغير ذلك من المفاصد وكان عليه لو أراد الاصلاح أن يعالج هذه الأمور ليأتي على المشكلة من أساسها، ولكنه بدل ذلك كان يريد -بالقهر والقمع وفي ظلّ الحراب والسياسة- أن يظهر الناس انفسهم بمظهر الراضي وعن السلطة، الموافق على تصرفاتها، وأحوالها وأوضاعها السيئة!!!

ومن هنا نعرف بطلان الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) راجع شاهنامه (باللغة الفارسية) وتاريخ اجتماعي ايران: ص ٦١٨.

(٢) فرستاده برگشت وشد بادرم دل كفشگرزان درم پرزغم
شب آمد، غمی شد ز گفتار شاه خروش جرس خواست از بارگاه

الذي قال فيه: «وُلِدْتُ في زمن الملك العادل» ويقصد به انوشيروان^(١).

صفحةً سوداءً من جرائم خسروبرويز:

ومن جرائم الملك خسروبرويز ومظالمه المنكرة ما فعله بوزيره الشهير «بزرجمهر» الذي خدم البلاط الشاهنشاهي الايرانيّ ثلاثة عشر عاماً وكان ذلك موجباً لشهرته في البلاد وحسن صيته بين الناس.

فقد عمّد هذا الملك الى سجن الوزير المذكور، والنكاية به، وقد كتب الى الوزير المسجون رسالة يقول فيها: إِنَّ حَظَّكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ أَنَّهُ عَرَضَكَ لِلْقَتْلِ!!

فاجابه «بزرجمهر» بقوله: «فقد انتفعتُ بعلمي مادام قد حالفني الحظُّ، وحيث عاكسني الآن، فأنني أصبر وأنتفعُ بصبري، فإذا فاتني فعلُ خير كثير فأنني سعيدٌ لأنني لم أرتكب كذلك شراً كثيراً وإذا ماسلبي منصب الوزارة فاني في الوقت نفسه قد استرحت كذلك من غم الحيف بالناس، فلا ابالي بما أنافيه». ولما بلغت هذه الرسالة الى الملك «برويز» استشاط غضباً، وأمر بقطع شفتي الوزير، وجذع أنفه، وعندما عرف الوزيرُ بهذا الأمر الظالم قال: أجل أن شفتي تستحقان أكثر من هذا.

فسأله خسروبرويز: ولماذا؟ فقال: لأنها وصفتك عند العامة والخاصة بما لا تستحق من الأوصاف، واعطتك ما ليس فيك من الخصال، فامالتا اليك القلوب، ورغبتا فيك النفوس، والافئدة، وأشاعتا عنك أمجاداً لم تستحقها، يأسوا الملوك وأظلم الحكام، تقتلني الآن بسوء الظن بعد أن كنت على يقين من وفائي، وصدقي، واخلاصي، وسلامتي، فمن بعد هذا يأمل في عدلك، ومن بعد هذا يثق بقولك؟!!

(١) راجع في هذا المجال: تذكرة الموضوعات لابن الجوزي، اللثالي المصوغة في الاحاديث الموضوعة

للسيوطي، وكذا مجمع الزوائد للهيتمي.

فازداد «خسرو برويز» لسماع هذه الكلمات الساخنة غضباً على غضب، وأمر من فوره بقتل الوزير، فضرب عنقه في التوّ (١).
وتلك هي معاملة ذلك الملك الموصوف زوراً بالعدل مع اقرب مقربيه، واكثر معاونيه إخلاصاً، ووفاء له فكيف كانت تُرى معاملته مع سائر أفراد الرعية وبقية أفراد الشعب؟؟

حكم التاريخ في الملوك الساسانيين:

لقد اتخذ الحكام الساسانيون في عهودهم وحكوماتهم سياسة خشنة قاسية، وقد أخضعوا الناس بسلطانهم بالسيف والعنف.
كانوا يفرضون على الناس ضرائب ثقيلة وأتاوات باهضة قاصمة للظهور، ولهذا السبب كان عامة الشعب الايراني غير راضين على حكمهم وسيرتهم، ولكنهم خوفاً على نفوسهم، ما كانوا يتمكنون من الاعلان عن استيائهم هذا بل لم يكن لأرباب الفكر والرأي، والعارفين بالامور شأن ولاقيمة في البلاط الشاهنشاهي.

لقد بلغ الاستبداد لدى الحكام الساسانيين حداً لم يستطع معه أحد من إظهار رأيه، ولم يجرا احد على إبداء أية ملاحظة في شأن من الشؤون.
لقد بلغت القوة بخسرو برويز حداً عجيباً وصفه الثعالبي بقوله:
قيل لخسرو برويز (كسرى) دعونا فلانا الوالي فتباطأ عن الامتثال، فأمر الملك من فوره قائلاً ان كان يصعب عليه مجيئه ببدنه كله، فاننا يكفيننا شيء منه، فليؤتي براسه فحسب (٢).

(١) يذكر الفردوسي الشاعر الملحمي هذه القصة في شاهنامته المعروفة عند ذكر وقائع انوشيروان اثناء حربه مع الروم (ج ٦، ص ٢٥٧-٢٦٠).

(٢) ايران در عهد ساسانيان: ص ٣١٨.

الفوضى في الحكومة الساسانية:

ومما يجب ان لانغفل عن ذكره هو ما تعرضت له الحكومة الساسانية في اواخر عهدها من الفوضى الادارية، وتفاقم الهرج والمرج في جهازها الحكومي. فقد دب الصراع والنزاع ونشب التنافس الحاد بين الامراء، والاعيان وقادة الجيش في ذلك العهد وذهب كل فريق يختار أميراً من أبناء العائلة المالكة، ويقوم بتصفية الطائفة الأخرى التي اختارت أميراً آخر. وعندما فكّر العرب المسلمون في فتح إيران كانت العائلة الساسانية المالكة قد بلغت ذروة الضعف والانقسام.

ومما يدل على ذلك تعاقب ما يقرب من (١٤) ملكاً على مسند الحكم والسلطان خلال مدة اربعة اعوام من مقتل الملك «خسروبرويز» وجلس شيرويه مجلسه وحتى آخر ملك من ملوك بني ساسان. وهذا يعني أن حكومة إيران انتقلت خلال مدة لا تتجاوز اربعة اعوام من يد الى يد أخرى (١٤ مرة)!! ومن الواضح ما يلحق بباية دولة ومملكة تتعرض لـ (١٤) انقلاب يُقتل فيه ملك، ويحل محله ملك آخر في مثل هذه المدة القصيرة. فقد كان كل حاكم يتسلم زمام الحكم ويستولي على عرش السلطان يعمد إلى قتل واغتيال كل من كان يطمع في العرش، ولا يتورع في سبيل إرساء قواعد حكمه من ارتكاب كل ما يراه ضرورياً، فكان الأب يقتل ابنه، والابن يقتل أباه، وربما يقتل الاخ إخوته، والزوجة زوجها وهكذا...

فقد قتل «شيرويه» أباه^(١) للحصول على مقعد الحكم والسلطان، كما أباد اربعين شخصاً من أبناء الملك «خسروبرويز» اي إخوته!!^(٢).

وكان «شهربراز» يقتل كل من لا يثق به، وقد أدى هذا إلى أن يقضي على كل أبناء سلالة من الامراء الساسانيين ممن كان قد تسّم عرش السلطان

(٢) تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢ ص ١٥ - ١٩.

(١) الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٢٩٦.

والملوكية قبله، رجلاً كان ذلك أم إمرأة، صغيراً كان ام كبيراً، لكيلا يبقى في الوجود من يطمع في السلطان أو يدّعيه!!
وصفوة القول: أن الفوضى السياسية بلغت في أواخر العهد الساساني حداً بحيث كانوا يجلسون فيه الأطفال والصبيان والنساء على اريكه الحكم، ثم يثرون عليهم ويقتلونهم بعد ايام أو أشهر ويحلون محلهم أشخاصاً آخرين!!
وعلى هذا فإن الدولة الساسانية رغم قوتها الظاهرية كانت آخذة في الانحطاط والانحلال وسائرة نحو التمزق والفناء.

الفوضى الدينية في ايران الساسانيين:

لقد كان أهم عامل للفوضى التي كانت تعاني منها الاوضاع في العهد الساساني هو الاختلاف في المعتقدات الدينية التي كانت سائدة آنذاك .
فحيث إن «اردشير بن بابك» مؤسس السلسلة الساسانية كان ابن مؤبد (وهو رجل دين زردشتي) وقيماً على بيت نار وقد تمكن من السلطان بفضل الموابدة فانه اجتهد في الترويج لدين آبائه في ايران.
وفي عهد الساسانيين كان الدين الرسمي والشائع في أوساط الشعب الإيراني هو الدين الزرادشتي، ولما كانت السلالة الساسانية قد توصلت الى الحكم بواسطة الموابدة - كما أسلفنا - لذلك كان الموابدة والقيمون على بيوت النار (ونعني بهم رجال الدين الزرادشتي) يحظون بمكانة كبرى لدى البلاط الساساني إلى درجة أنهم أصبحوا يشكلون في أواخر العهد الساساني أقوى طبقة، وأشد الاجنحة نفوذاً في المجتمع الإيراني آنذاك .

ولقد كان الحكام الساسانيون دائماً ممنّ رشحهم للحكم الموابدة ورجال الدين الزردشتي المجوسي، ولذلك كان الحكام يأتمرون بأوامرهم، ولو أن أحداً منهم خالف الموابدة عارضوه أشدّ المعارضة، وسحبوا عنه تأييدهم ودّعهم، ولهذا اجتهد الملوك الساسانيون في كسب رضا الموابدة، والعناية بهم أكثر من غيرهم من الطبقات، وقد تسببت عناية أولئك الملوك بالموابدة وحميتهم لهم في تزايد

عددهم، يوماً بعد يوم.

وقد كان الساسانيون يستغلون رجال الدين المجوس أكبر استغلال لتثبيت قواعد حكمهم، وتقوية مواقعهم في السلطان ولذلك أقاموا في مختلف مناطق القطر الإيراني العريض بيوت النار، (وهي معابد المجوس) جاعلين في كل واحد من هذه المعابد ثلة كبيرة من الموابد كسدنة.

فقد كتب المؤرخون يقولون: ان «خسروبرويز» شيد بيتاً للنار عظيماً ووكّل به (١٢ الف) هيربد (وهو منصب خاص ورتبة خاصة في نظام القيادة الدينية المجوسية) لينشدوا فيه الاناشيد الدينية، ويؤدوا الطقوس والشعائر المجوسية!!^(١). وعلى هذا الاساس كان الدين المجوس دين البلاط، وكان رجاله في خدمة الملك.

هذا وقد اجتهد الموابد - بكل ما في وسعهم - في إبقاء الطبقات الكادحة والمحرومة من ابناء الشعب الإيراني في حالة من الركود والجمود وحالة عدم الاحساس بالآلام والرضا بالأمر الواقع.

ولقد تسببت الصلاحيات الواسعة والحريات المطلقة المخولة إلى الموابد في ابتعاد الناس عن الدين المجوسي والنفور منه، فجماهير الشعب كانت تبحث لنفسها عن غير مايتدين به الأشراف من عقيدة ودين.

يقول مؤلف كتاب «تاريخ اجتماعي ايران» وقد سعى الشعب الإيراني - في المآل - الى ان يتخلص من ضغوط الاشراف والموابد واضطهادهم، ولهذا ظهر بين الزردشتيين في قبال الدين الرسمي «المزديّة الزردشتية» الذي كان دين البلاط كما عرفنا، وكان يدعى: بهدين (اي الدين الافضل) مذهباً آخران^(٢).

اجل وبسبب ضغوط الاشراف وتشددات الموابد في العهد الساساني ظهرت في ايران مذاهب مختلفة الواحد تلو الآخر، وقد حاول «مزدك» ومن قبله «ماني» ان يوجدوا بأنفسهما تحولاً في الاوضاع الدينية وفي العقائد والمؤسسات،

(١) تاريخ تمدن ساساني: ج ١ ص ١ (بالفارسية). (٢) تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢ ص ٢٠.

الآ أنها منيا بالفشل في هذا السبيل^(١).

فحوالي سنة (٤٩٧ ميلادية) قام «مزدك»، وألغى الملكية الانحصارية (الخاصة)، ونسخ عادة تعدد الزوجات، ونظام الحرم وكان ذلك في مقدمة برامج الإصلاحية، وقد لقيت أفكاره هذه تأييداً قوياً من قبل الطبقات المحرومة المسحوقة التي فجرت بقيادة «مزدك» ثورة كبرى، وانقلاباً هائلاً في المجتمع الإيراني.

ولقد كانت هذه الثورات والانتفاضات الشعبية لأجل أن يتوصل الناس إلى حقوقهم المشروعة، الممنوحة لهم من قبل الله خالقهم وبارئهم.

ولقد قوبل مذهب «مزدك» باعتراض شديد من قبل الموابدة، وامراء الجيش، وجرّ إلى فتنة كبيرة، والى تردي الأوضاع في ايران آنذاك.

كما ان المذهب الزردشتي قد فقد - في أواخر العهد الساساني - حقيقته بصورة كاملة، ووصل الأمر بعبادة النار وتقديسها إلى درجة أنهم كانوا يحرمون الدقّ على حديدة محماة اكتسبت لون النار ولهبها بمجاورتها لها.

وبكلمة واحدة؛ لقد كانت اكثر المعتقدات الزردشتية المجوسية تتألف من الخرافات والأساطير، وقد أعطت حقائق هذا الدين - في هذا العهد - مكانها لحفنة من الشعائر الجوفاء، والطقوس الفارغة، التي أضاف إليها الموابدة سلسلة من التشريفات الطويلة العريضة تثبيتاً لمواقعهم، ودعماً لمكانتهم في المجتمع الإيراني يومئذ.

لقد بلغت سيطرة الخرافات والاساطير البعيدة عن العقل والمنطق على هذه العقيدة، ورسوخها في هذا الدين حداً أقلق حتى رجال الدين الزردشتي انفسهم أيضاً، وقد كان بين الموابدة انفسهم من أدرك منذ البداية تفاهة الطقوس والشعائر الزردشتية الجوفاء، فتخلى عنها.

(١) المذهب المانوي هو المذهب الزردشتي الخليط بالمسيحية، فقد اخترع ماني من مسلك قومي وآخر اجني مذهباً جديداً ثالثاً.

هذا من جانب

ومن جانب آخر كان قد انفتح على الشعب الإيراني منذ أيام الملك «أنوشيروان» فما بعد طريق التفكير، والتأمل، والتحقيق، ومما قد قوى هذا الامر ما حصل من اتصالات بين العقائد الزردشتية والمعتقدات المسيحية وغيرها من العقائد والاديان وما تحقق من تلاقح بينها نتيجة تسلل الثقافة اليونانية والهندية، وغيرها إلى الوسط الإيراني، وتسبب كل ذلك في يقظة الشعب الإيراني، ولذلك اصبح يعاني من هذه الخرافات والاساطير التي كانت الديانة الزردشتية تعج بها اكثر من أي وقت مضى.

وعلى أية حال فإنّ الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزردشت، وتطرق الخرافات والاساطير الواهية الكثيرة الى المعتقدات الزردشتية تسبّب في حصول مزيد من التشتت والاختلاف والتشرذم في آراء الشعب الإيراني وعقيدته.

ومع ظهور هذا الاختلاف وعلى أثر انتشار المذاهب المتنوعة ظهر روح الشك والتردد لدى الطبقة المفكرة والمثقفة، وسرت منهم إلى بقية الاصناف والفئات ممّا أدى ذلك إلى أن يفقد جماهير الشعب ثقّتها وايمانها القطعي، واعتقادها الكامل السابق بتلك المعتقدات.

وهكذا استشرى الهرج والمرج وعمّت الفوضى واللا دينية كل مناطق ايران والمجتمع الإيراني، كما رسم «برزويه» الطبيب الشهير في العهد الساساني حيث صور نموذجاً كاملاً عن الاختلاف الاعتقادي والتشرذم الفكري، وبالتالي اضطراب الأوضاع الإيرانية في العهد الساساني، في مقدمة «كليلة ودمنة».

الحروب الإيرانية الرومية:

لقد انقذ «برزجهر» -الوزير الإيراني الشهير الذي كان يحتل مكان الصدارة في حكومة «أنوشيروان» وكان موصوفاً بالتدبير والكفاءة العالية- ايران من الاخطار التي احدقت بها في اكثر الاحايين، ولكن علاقته بالسلطان

(انوشيروان) كانت تتأثر احياناً بسعاية الساعين ووساية الوشاة الذين كانوا يوغزون صدر الملك ضده فيستصدرون منه قراراً بجبسه وسجنه.

وقد أوغَرَ هؤلاء السعاة والواشون أنفسهم صدرَ «انوشيروان» ضد امبراطور الروم، وألبوه عليه، وشجّعوه على توسيع رقعة نفوذه، وتوسيع حدود بلاده واضعاف سيطرة منافسه الخطير، متجاهلاً وثيقة «الصلح الخالد» التي عقدها مع الروم واتفق فيها الجانبان على عدم التعرض بعضهم لبعض.

وأدى هذا التحريض بأنوشيروان إلى مهاجمة الروم، واشتعلت على اثرها نيران الحرب، واستطاع جنود ايران ان يفتحوا سورية (وقد كانت مستعمرة رومية) في مدة قصيرة تقريباً، وحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى.

وبعد عشرين عاماً من القتال وسفك الدماء، والكرّ والفربين الروم وايران وبعد أن فقد الجانبان قدراتهم وطاقاتهم في تلك المعارك الطاحنة، وبعد الخسائر العظيمة التي تحمّلها الطرفان اضطرّا الى عقد وثيقة الصلح مرة ثانية، وحددوا حدود بلادهما، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه في السابق شريطة أن تدفع دولة الروم كل عام مايعادل (عشرين الف) دينار الى دولة ايران.

ومنّ الواضح الذي لا يخفى ولا يحتاج الى البيان أن حروباً طويلة الأمد تدور رحاها بعيداً عن مركز الدولة من شأنها ان تأتي بالنتائج السيئة والتبعات الثقيلة على اقتصاد الشعب المحارب، وصناعته وتوجه إلى هذه الجوانب ضربات قوية، لا تزول آثارها إلا بعد زمان طويل خاصة مع ملاحظة الوسائل والأدوات في تلك العصور.

ومهما يكن فان هذه الحروب، وهذه الحملات المكلفة هيأت المقدمات الموجبة لسقوط الحكومة الإيرانية الحتمي.

فان آثار هذه المعارك لم تزل بعد إلا وقد نشبت حرب أخرى دامت سبعة اعوام فان «تي باربوس» امبراطور الروم بعد ان تسم عرش السلطان هدد بحملاته الكبيرة استقلال الدولة الإيرانية بدافع الانتقام.

وفي الأثناء -وقبل ان يتضح موقف الطرفين وموقعهما في تلك المعارك من

الهزيمة أو الانتصار. مات «انوشيروان» وخلفه في إدارة البلاد ابنه «خسرو برويز».

وقد حمل هذا الأخير على الروم ايضاً، وذلك عام (٦١٤) بحجج معينة، وفتح في أول حملة من حملاته: بلاد الشام وفلسطين وأفريقية ونهب اورشليم، وأحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح (عليه السلام) وهدم المدن، ودمرها. وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعين الف من النصارى لصالح الإيرانيين.

في مثل هذه المرحلة - التي كان فيها العالم المتحضر آنذاك يحترق في نيران الحروب والظلم - بُعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالرسالة الإسلامية، وبلغ نداؤه المحيي للنفوس والعقول سمع البشرية، وقام يدعو الناس إلى الصلح والسلام، وإلى النظم والامن.

ولقد أدّى انهزام الروميين المتدينين، المؤمنين بالله على أيدي الجوس الكفار، عبدة النار، إلى ان يتفائل اهل مكة الوثنيون بهذا الحدث، ويحدّثوا (ويتمتوا) أنفسهم بالانتصار على المسلمين المؤمنين بالله عما قريب، وانطلقوا يرددون هذه الأمنية أمام المسلمين وهم يحاولون بها إضعاف معنوياتهم، وزعزعة إيمانهم، الامر الذي أقلق المسلمين.

ولم يتخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ موقفاً تجاه هذه الظاهرة انتظاراً لما سينزل به عليه الوحي إلى ان نزلت آيات في هذا المجال هي الآيات الأولى من سورة الروم التي تقول: «الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ بَعْدَ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بَنَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).

وقد تحققت نبوءة القرآن هذه حول الروم في عام (٦٢٧ ميلادية) حيث

استولى «هرقل» على «نينوى» في حملة واحدة.
 وعلى أية حال كانت الدولتان المتنافستان تطويان الدقائق والساعات
 الأخيرة من حياتهما فيما تستعدان من ناحية أخرى لتجميع القوى، والتهيؤ لشن
 حملات جديدة، وخوض حروب ومعارك أخرى ولكن حيث إن الإرادة الإلهية
 كانت قد تعلقت بأن يسطع على تلك المنطقتين نور التوحيد وتنتعش نفوس
 الروميين والفرس الذابلة الميتة بنسائم الإسلام الناعشة، واشعته الهادية، لذلك
 لم يلبث أن قُتل «خسروبرويز» على يدي ابنه «شيرويه» الذي لم يُدم سلطانه
 بعد اغتياله لأبيه أكثر من ثمانية أشهر، ثم سادت إيران بعد «شيرويه» فوضى
 شاملة خلال أربعة أشهر، حيث تناوب على مسند الحكم حكامٌ وأمراء عديدون
 أربعة منهم من النساء، إلى أن أنهى الجيش الإسلامي حملاته الناجحة هذه
 الأوضاع، ووضع نهاية لهذا الصراع السياسي الحاد الذي استمرّ خمسين عاماً
 والذي ساعد بدوره على تقدم الفتوحات الإسلامية.

٤ أسلاف رسول الإسلام (ص)

١ - بطل التوحيد: إبراهيم الخليل عليه السلام

إن الهدف من استعراض حياة النبي العظيم إبراهيم الخليل عليه السلام هو التعريف بأجداد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسلافه، لانتهاه نسبه الشريف إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وحيث ان لهاتين الشخصيتين العظيمتين وبعض أسلاف النبي العظيم نصيب هام في تاريخ العرب والإسلام، لهذا ينبغي الحديث عن أحوالهم بصورة مختصرة، خاصة أن حوادث التاريخ الإسلامي ترتبط ارتباطاً كاملاً - كحلقات سلسلة واحدة - بالحوادث السابقة، او المقارنة لبزوغ الإسلام.

فعلى سبيل المثال تُعتبر كفالة «عبدالمطلب» لرسول الله صلى الله عليه وآله وحمايته له، وجهود «أبي طالب» ودفاعه الطويل عن النبي، وعظمة الهاشميين وسمو مقامهم و اخلافهم، وجذور معاداة الأمويين لهم، الاسس والقواعد الموضوعية لحوادث التاريخ الإسلامي، ولهذا كان لابد من تخصيص فصل كامل في التاريخ الإسلامي لهذه الابحاث.

إن في حياة حامل راية التوحيد النبي «إبراهيم الخليل» عليه السلام نقاطاً مشرقة وبارزة جداً.

فجهاده العظيم في سبيل ارساء قواعد التوحيد واقتلاع جذور الوثنية مما

لا ينسى .

وهكذا حوار اللطيف والزاهر بالمعاني مع عبدة النجوم والكواكب في عصره والذي ذكره القرآن الكريم لمعرفةنا، افضل واسمى درس توحيدى لطلاب الحقيقة وبغاة الحق.

مولد إبراهيم:

لقد وُلد بطلُ التوحيد في بيئةٍ مظلمة كانت تسربلها ظلمات الوثنية، وعبادة البشر... في بيئة كان الإنسان فيها يخضع لأصنام نحتها بيديه، كما يخضع لكواكب ونجوم.

لقد وُلد حامل لواء التوحيد: «إبراهيم الخليل» عليه السلام في «بابل» الذي يعدّها المؤرخون إحدى عجائب الدنيا السبع، ويذكرون حولها قصصاً وأموراً كثيرة تنبئ عن عظمتها وأهميتها حضارتها، فيقول «هيرودتس» المؤرخ المعروف -مثلاً-: لقد كانت بابل بنية بشكل مرتّع طول كل ضلع من اضلاعه الاربعة (١٢٠ فرسخاً) ومحيطه (٤٨٠ فرسخاً)^(١).

إنّ هذا الكلام مهما كان مبالغاً فيه إلا أنه على كل حال يكشف عن حقيقة لا تقبل الإنكار، إذا ما ضُمَّ إلى ما كتبه الآخرون عن تلك المدينة التاريخية.

غير أننا لا نرى من تلك المدينة اليوم ومن مناظرها الجميلة، وقصورها الرائعة، إلا تلاً من التراب في منطقة بين «دجلة» و«الفرات»، فالموت يختم على كل تلك المنطقة، اللهم الا عندما يكسر علماء الآثار بتنقيباتهم جدار الصمت أخياناً، بحثاً عن آثار تلك المدينة، ويستخرجون بقاياها الموقوفة على معالم من حضارة اصحابها وسكانها.

لقد فتح رائد التوحيد و مُرسي اركانه «إبراهيم الخليل» عليه السلام عينيه

(١) قاموس الكتاب المقدس، مادة بابل.

في دولة «نمرود بن كنعان».

وكان نمرود هذا رغم أنه يعبدُ الصنم يدعي الألوهية ويأمر الناس بعبادته. وقد يبدو وهذا الامر عجباً جداً فكيف يمكن ان يكون الشخص عابد صنم ومع ذلك يدعي الألوهية في الوقت نفسه، إلا أن القرآن الكريم يذكر لنا نظير هذه المسألة في شأن «فرعون مصر»، وذلك عندما هزّ النبي موسى بن عمران عليه السلام قواعد العرش الفرعوني بمنطقه القوي، وحجته الصاعقة، فاعترض أنصار فرعون وملاؤه على هذا الأمر، وخاطبوا فرعون بلهجة معترضة قائلين: «أَتَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذْرُكَ وَ آلِهَتِكَ»^(١).

ومن الواضح جداً أن «فرعون» كان يدعي الألوهية فهو الذي كان يقول: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى»^(٢) وهو القائل: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي»^(٣) ولكنه كان في الوقت نفسه عابد صنم ووثنياً.

بيد أن هذه الازدواجية ليست بأمر غريب عند الوثنيين، ولا يمنع مانع في منطقهم أن يكون الشخص نفسه وثنياً يعبد الصنم، ومع ذلك يدعي أنه اله ويدعو الناس إلى عبادته فيكون الهاً معبوداً، يعبد الهاً أعلى منه، لأن المقصود من المعبود والاله ليس هو خالق الكون بل هو من يتفوق على الآخرين بنحو من أنحاء التفوق ويمتلك زمام حياتهم بشكل من الإشكال.

هذا والتاريخ يحدثنا أن العوائد في بلاد الروم كانت تعبد كبارها ومع ذلك كان أولئك الكبار المعبودين انفسهم يتخذون لأنفسهم معبوداً أو معبودات أخرى.

إن أكبر وسيلة توصل بها «نمرود» في هذا السبيل هو استقطاب جماعة من الكهنة والمنجمين الذين كانوا يُعدّون الطبقة العاملة والمثقفة في ذلك العصر. فقد كان خضوع هذه الطبقة يمهّد لاستعمار الطبقة المنحطة وغير الواعية من الناس. هذا مضافاً إلى أنه كان يُناصر «نمرود» بعض من ينتسب إلى «الخليل»

(٣) القصص: ٣٨.

(٢) النازعات: ٢٤.

(١) الأعراف: ١٢٧.

عليه السّلام بوشيجة القرى مثل «آزر» الذي كان يصنع التماثيل، وكان عارفاً بأحوال النجوم والفلك أيضاً، وكان هذا هو الآخر أحد العراقل التي كانت تمنع الخليل من انجاح مهمته، لأنه مضافاً إلى مخالفة الرأي العام له، كان يواجه مخالفة أقاربه أيضاً.

لقد كان نمrod غارقاً في عالم خيالي عندما دق المنجمون فجأة أول ناقوس للخطر وقالوا له: سوف تنهار حكومتك، ويتهاوى عرشك وسلطانك على يد رجل يولد في تلك البيئة، الأمر الذي أيقظ أفكاره النائمة، فتساءل من فوره: وهل وُلد هذا الرجل؟ فقيل له: لا، انه لم يولد بعد. فأمر من فوره بعزل الرجال عن النساء (وذلك في الليلة التي انعقدت فيها نطفة ابراهيم الخليل عليه السّلام عدو نمrod، وهادم ملكه، ومزِيل سلطانه وهي الليلة التي حددها وتكهن بها المنجمون والكهنة من انصار نمrod) ومع ذلك كان جلاوزة «نمrod» يقتلون كل وليد ذكر، وكان على القوابل ان يسجّلن اسماء المواليد في مكتبه الخاص.

ولقد اتفق أن انعقدت نطفة «الخليل» في نفس الليلة التي منع فيها اي لقاء جنسي بين الرجال وازواجهم.

لقد حملت أم إبراهيم به كما حملت أم موسى به، وامتدت فترة حملها في خفاء وتستر، ثم لجأت بعد وضع وليدها العزيز الى غار بجبل على مقربة من المدينة حفاظاً عليه، وراحت تتفقد بين حين وآخر من الليل والنهار، قدر المستطاع.

وقد أرضى هذا الاسلوب الظالم «نمrodاً» وأراح باله بمرور الزمن، اذ أيقن بانه قد قضى به على عدو عرشه، وهادم سلطانه، وتخلص منه.

لقد قضى «إبراهيم» عليه السّلام ثلاثة عشر عاماً في ذلك الغار الذي كان يتصل بالعالم الخارجي عبر باب ضيق، ثم أخرجته أمه من ذلك الغار بعد ثلاثة عشر عاماً، ودخل «إبراهيم» في المجتمع، فاستغرب المجتمع النمرودي وجوده وانكروه^(١).

(١) تفسير البرهان: ج ١ ص ٥٣٥.

لقد خرج «إبراهيم» من الغار، مؤمناً بالله بفطرته، وقوى توحيده الفطري، بمشاهدة الأرض والسماء، والنظر في سطوع الكواكب والنجوم والتأمل في ما يجري في عالم النبات من نمو وحركة إلى غير ذلك مما يجري في عالم الطبيعة العجيب.

لقد واجه إبراهيم عليه السلام بعد خروجه من الغار جماعة من الناس بهرتهم أحوال الكواكب وعظمة أمرها، ففقدوا عقولهم تجاه هذه الظاهرة، كما رأى جماعة أخرى أحطت فكرياً من سابقتها يعبدون اصناماً منحوتة، بل واجه ما هو أسوأ بكثير من أعضاء الطوائف والجماعات الضالة إذ رأى رجلاً يستغل جهل الناس وغباوتهم ويدعي الألوهية ويفرض عليهم عبادته والخضوع له!!

لقد كان إبراهيم عليه السلام يرى أنّ عليه أن يهتئ نفسه لخوض المعركة في هذه الجهات الثلاث المختلفة، وقد نقل القرآن الكريم قصة نضال النبي «إبراهيم» عليه السلام في هذه الأصعدة والجهات الثلاث وسننقل لك في ما يأتي وباختصار ما ذكره القرآن في هذا المجال.

إبراهيم ومكافحته للوثنية:

كانت ظلمات الوثنية قد خيمت على منطقة بابل (موضع ولادة الخليل) برمتها.

فالآلهة المدّعاة، والمعبودات (السماوية والارضية) الباطلة قد سحرت عقول مختلف فئات الشعب، فبعضها في نظرهم هي أرباب القدرة والسلطة، وبعضها الآخر وسيلة الزلفى والتقرب الى الله إلى غير ذلك من التصورات السخيفة في هذا الصعيد.

وحيث إن طريقة الأنبياء في هداية البشرية وارشادهم هي الاستدلال بالبراهين، والاحتجاج بالمنطق، لانهم إنما يتعاملون مع قلوب الناس وعقولهم، ويبتغون ايجاد حكومة تقوم على أساس الإيمان واليقين. ومثل هذه الحكومة لا يمكن اقامتها بالسيف او بالنار والحديد. لهذا يبدأون حركتهم بالتوعية الفكرية.

إن علينا أن نفرق بين الحكومات التي يريد الأنبياء تأسيسها، وحكومة

الفراغة والتماردة.

ان هدف الطائفة الثانية هو: الرئاسة والزعامة، والحفاظ عليها بكل وسيلة ممكنة في حياتهم، وان تلاشت وتهاوت من بعدهم. ولكن الانبياء والرسل يريدون حكومة تبقى قائمة في جميع الحالات ومائلة في جميع الاوقات، في الخلوة والجلوة، في وقت الضعف، وفي وقت القوة، في حياتهم وبعد مماتهم... انهم يريدون أن يحكموا على القلوب لا على الابدان، وهذا الهدف لا يتحقق ابدأ عن طريق القوة واستخدام العنف والقهر!! انما يتحقق عن طريق الحجة والبرهان.

لقد بدأ النبي «إبراهيم» عمله بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه الذين كان في طبيعتهم وعلى رأسهم «آزر» وهو الوثنية وعبادة الاصنام، ولكنه لم ينته من هذه المعركة ولم يحرز إنتصاراً كاملاً في هذه الجبهة بعد إلا وواجه عليه السّلام جبهة أخرى، وكانت هذه الجماعة أعلى مستوى من افراد الجماعة السابقة في الفهم والثقافة. لان هذه الجماعة -على خلاف أقرباء إبراهيم قد نبذت عبادة الأوثان والأصنام^(١)، والمعبودات الارضية الحقيرة، وتوجهت بعبادتها وتقديسها الى الكواكب والنجوم والاجرام السماوية.

ولقد بيّن «الخليل» عليه السّلام في حوارهِ العقائدي مع عبّاد الاجرام السماوية، ومكافحته لمعتقداتهم الفاسدة، سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية التي لم يصل إليها الفكر البشري يومذاك، وذلك ببيان بسيط مدعوم بأدلة لا تزال الى اليوم موضع اعجاب كبار العلماء، ورواد الفلسفة والكلام. والأهم من ذلك - في هذا المجال - أن القرآن الكريم نقل أدلة «إبراهيم الخليل» عليه السّلام باهتمام خاص وعناية بالغة ولهذا ينبغي لنا أن نتوقف عندها قليلاً، وهذا ما سنفعله في هذه الصفحات.

(١) ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره عليه السّلام مع الوثنيين، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبدة الأجرام السماوية.

حوار الخليل مع عبدة الكواكب:

ذات ليلة وقف إبراهيم عليه السّلام عند ابتداء مغيب الشمس يتطلع في السماء -وهو ينوي هداية الناس- وبقي ينظر الى النجوم والكواكب من أول الغروب من تلك الليلة الى الغروب من الليلة التالية، وخلال هذه الساعات الاربع والعشرين حاور وجادل ثلاث فرق، من عبدة النجوم وابطل عقيدة كل فرقة منها بأدلة محكمة، وبراهين متقنة قوية.

فعندما أقبل الليلُ وخيم الظلام على كل مكان وهو يخفي كل مظاهر الوجود ومعاله في عالم الطبيعة ظهر كوكبُ «الزُهرة» من جانب الأفق وهو يتلأأ. فقال إبراهيم لِعَبَاد هذا الكوكب -وهو يتظاهر بموافقتهم جلباً لهم، ومقدمة للدخول معهم في حوار-: «هذا ربي».

وعندما افل ذلك الكوكب وغاب عن الانظار قال: «لا احب الآفلين». وبمثل هذا المنطق الجميل أبطل عقيدة عبدة الزهرة، واطهر خواءها وفسادها.

ثم إنه عليه السّلام نظر الى كوكب القمر المنير الذي يسحر القلوب بنوره وضوئه، فقال -متظاهراً بموافقة عبدة القمر-: «هذا ربي» ثم ردّ بأسلوب منطقي محكم تلك العقيدة أيضاً، عندما امتدت يد القدرة المطلقة ولممت أشعة القمر من عالم الطبيعة، وعندها إتخذ إبراهيم عليه السّلام هيئة الباحث عن الحقيقة ومن دون أن يصدّم تلك الفرق المشركة ويجرح مشاعرهما اذ قال: «لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ»^(١) لأن القمر قد أفل أيضاً كما أفل سابقه فهو كغيره أسير نظام عُلوِّي لا يتخلف، وما كان كذلك لا يمكن ان يُعدَّ رباً يُعبَد، ويتوجه اليه بالتقديس والتضرع.

ولما ولى الليل وأدبر، واكتسحت الشمس الوضاعة باشعتها حجب

(١) الأنعام: ٧٧.

الظلام، وبثت خيوطها الذهبية على الوهاد والسهول، والتفت عبدة الشمس الى معبودهم، تظاهر ابراهيم بالاقرار بربوبيتها اتباعاً لقواعد الجدل والمناظرة ولكن افول الشمس وغروبها اثبت هو الآخر بطلان عبادتها ايضاً بعد أن اثبت خضوعها للنظام الكوني العام، فتبرأ «الخليل» عليه السّلام من عبادتها بصراحة. وعندئذ أعرض عليه السّلام عن تلك الطوائف الثلاث وقال: «إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(١).

لقد كان المخاطبين في كلام إبراهيم عليه السّلام هم الذين يعتقدون بأن تدبير الكائنات الارضية، ومنها الانسان، قد انيطت إلى الاجرام السماوية وفوضت اليها!!

وهذا الكلام يفيد أن الخليل عليه السّلام لم يقصد المطالب الثلاث التالية:

١ - اثبات الصانع (الخالق).

٢ - توحيد الذات وأنه واحد غير متعدد.

٣ - التوحيد في الخالقية، وأنه لاخالق سواه.

بل كان تركيزه عليه السّلام على التوحيد في «الربوبية» و«التدبير» وادارة الكون، وانه لامدبر ولامربي للموجودات الأرضية إلا الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فانه عليه السّلام فور إبطاله لربوبية الاجرام السماوية قال: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...» وهو يعني ان خالق السماوات والأرض هو نفسه مدبرها وربها، وانه لم يفوض أي شيء من تدبير الكون، -لا كله ولا بعضه- الى الاجرام السماوية، فتكون النتيجة: أن الخالق والمدبر واحد لأن الخالق هو الله والمدبر شيء آخر.

ولقد وقع المفسرون، والباحثون في معارف القرآن في خطأ، والتباس عند التعرض لمنطق «إبراهيم» عليه السّلام وشرح حوارته هذا، حيث تصوروا أن الخليل عليه السّلام قصد نفي «ألوهية» هذه الأجرام يعني الألوهية التي تعتقد بها

جميع شعوب الأرض ويكون هذا الكون الصاخب آية وجوده.

بينما تصوّر فريق آخر ان «إبراهيم» كان يقصد نبي «الخالقية» عن هذه الأجرام السماوية، لأنه من الممكن ان يخلق إله العالم كائناً كامل الوجود والصفات ثم يفوض اليه مقام الخالقية في حين أن هذين التفسيرين غير صحيحين، بل كان هدف الخليل عليه السّلام -بعد التسليم بوجود اله واجب الوجود، وتوحيده، ووحداية الخالق- البحث في قسم آخر من التوحيد، الا وهو التوحيد «الربوبي»، وبالتالي اثبات أن خالق الكون هو نفسه مدبر ذلك الكون أيضاً، وعبارة: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ...» أفضل شاهد على هذا النوع من التفسير.

من هنا كان التركيز الأكبر في بحث إبراهيم على مسألة «الرب» و «الربوبية» في صعيد الاجرام كالقمر والزهرة والشمس^(١).

هذا واستكمالاً للبحث الحاضر لا بدّ من توضيح برهان النبي «إبراهيم» عليه السّلام.

لقد استدل «إبراهيم» في جميع المراحل الثلاث بأقول هذه الاجرام على أنها لا تليق بتدبير الظواهر الارضية وبخاصة الإنسان.

وهنا ينطرح سؤال: لماذا يُعتبرُ أقول هذه الاجرام شاهداً على عدم مدبّريتها؟

إن هذا الموضوع يمكن بيانه بصور مختلفة، كل واحدة منها تناسب طائفة معينة من الناس.

ان تفسير منطق «الخليل» عليه السّلام واسلوبه في إبطال مدبّريه الاجرام السماوية وربوبيتها بأشكال وصور مختلفة أفضل شاهد على أن للقرآن الكريم أبعاداً مختلفة وأن كل بُعدٍ منها يناسب طائفة من الناس.

(١) لقد بيّنا مراتب التوحيد من وجهة نظر القرآن الكريم في كتابنا «معالم التوحيد في القرآن الكريم» وأثبتنا هناك أن التوحيد في الذات غير التوحيد في الخالقية، وأن هذين النوعين من التوحيد غير التوحيد في الربوبية، وهي غير المراتب الأخرى للتوحيد، فراجع الكتاب المذكور تقف على هذه الحقيقة.

و اليك في مايلي التفاسير المختلفة لهذا الاستدلال:

الف: إن الهدف من اتخاذ الرب هو أن يستطيع الكائن الضعيف في ظل قدرة ذلك الرب من الوصول الى مرحلة الكمال ولا بد ان يكون لمثل هذا الرب ارتباط قريب مع الموجودات المراد تربيتها بحيث يكون واقفاً على أحوالها، غير منفصل عنها، ولا غريب عليها.

ولكن كيف يستطيع الكائن الذي يغيب ساعات كثيرة عن الفرد المحتاج اليه في التربية ويُحرم ذلك الفرد من فيضه وبركته، ان يكون رباً للموجودات الأرضية ومدبراً لها؟!!

من هنا يكون أقول النجم، وغروبه، الذي هو علامة غرته وانقطاعه عن الموجودات الارضية خير شاهد على أن للموجودات الأرضية رباً آخر، منزهاً عن تلك النقيصة عارياً عن ذلك العيب.

باء: انّ طلوع الأجرام السماوية وغروبها وحركتها المنظمة دليل على أنها جميعاً خاضعة لمشيئة فوقها، وانها في قبضة القوانين الحاكمة عليها، والخضوع لقوانين منظمة هو بذاته دليل على ضعف تلك الموجودات، ومثل هذه الموجودات الضعيفة لا يمكن أن تكون حاكمة على الكون، أو شيء من الظواهر الطبيعيه، وأما استفادة الموجودات الارضية من نور تلك الاجرام وضوئها فلا يدل أبداً على ربوبية تلك الأجرام، بل هو دليل على أن تلك الأجرام تؤدي وظيفة تجاه الموجودات الأرضية بأمر من موجود أعلى.

و بعبارة أخرى: إن هذا الأمر دليل على التناسق الكوني، وارتباط الكائنات بعضها ببعض.

جيم: ما هو الهدف من حركة هذه الموجودات؟ هل الهدف هو أن تسير من النقص إلى الكمال أو بالعكس؟

وحيث إن الصورة الثانية غير معقولة، وعلى فرض تصورهما لا معنى لأن يسير المرتبي والمدبر للكون من مرحلة الكمال الى النقص والفناء، يبقى الفرض الاول وهو بنفسه دليل على وجود مرتب آخر يوصل هذه الموجودات القوية في ظاهرها

من مرحلة الى مرحلة، هو- في الحقيقة- الربُّ الذي يبلغ بهذه الموجودات ومادونها إلى الكمال.

طريقة الأنبياء في الحوار والجدال:

لقد اسلفنا في ماسبق أن «ابراهيم» -بعد خروجه من الغار- واجه صنفين منحرفين عن جادة التوحيدهما:

١ - الوثنيون.

٢ - عبدة الاجرام السماوية.

ولقد سمعنا حوار «ابراهيم» عليه السَّلام وجداله مع الفريق الثاني، وعلمنا الآن أن نعرف كيف حاور الوثنيين وعبدة الاصنام؟

إن تاريخ الانبياء والرسول يكشف لنا عن أنهم كانوا يبدأون دعوتهم من انذار الاقربين ثم يوسعون دائرة الدعوة لتشمل عامة الناس كما فعل رسول الإسلام في بدء دعوته حيث بدأ بانذار عشيرته الاقربين لما امره الله تعالى بذلك اذ قال: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»^(١). وبذلك أسس دعوته على إصلاح اقربائه وعشيرته.

ولقد سلك «الخليل» عليه السَّلام نفس هذا المسلك أيضاً إذ بدأ عمله الاصلاحى باصلاح اقربائه.

ولقد كان لآزربين قومه مكانة اجتماعية عليا فهو-مضافاً إلى معلوماته في الصناعة وغيرها- كان منجماً ماهراً، وذا كلمة مسموعة ورأي مقبول في بلاط «نمرود» في كل ما يجرب به من أخبار النجوم، وكل ما يستخرجه وما يستنبطه من الامور الفلكية ويذكره من تكهنات.

لقد ادرك «ابراهيم» انه بجلبه لآزر (عمه) يستطيع ان يسيطر على اوساط الوثنيين، ويجردهم من ركيزة هامة من كبريات ركائزهم، ولهذا بادر الى منع

(١) الشعراء: ٢١٤.

عمّه آزر - وبافضل الاساليب- عن عبادة الاوثان، بيد أن بعض الأسباب أوجبت أن لا يقبل «آزر» بنصائح «ابراهيم» عليه السلام، والمهم لنا في هذا المجال هو ان نتعرف على كيفية دعوة الخليل وعلى اسلوب حوار مع «آزر». ان الامعان في الآيات التي تنقل حوار «ابراهيم» عليه السلام مع «آزر» توضح لنا أدب الانبياء، واسلوبهم الرائع في الدعوة والارشاد، ولنقف عند حوار ابراهيم ودعوته، ليتضح لنا ذلك.

يقول القرآن الكريم عن ذلك: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جِئْتُكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا».

فاجابه «آزر» قائلاً: «أرأغب أنت عن الهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمتك و أهجرني ملياً».

ولكن «ابراهيم» بسعة صدره وعظمة روحه تجاهل رد «آزر» العنيف ذلك وأجابه قائلاً: «سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي»^(١). وأي جواب أفضل من هذا البيان وأي لغة ألين من هذه اللغة واحب الى القلب، واكثر رحمة ولطفاً.

هل كان آزر والد إبراهيم؟

ان الظاهر من الآيات المذكورة وكذا الآية (١١٥) من سورة «التوبة» والآية (١٤) من سورة الممتحنة هو: أن «آزر» كان والد إبراهيم عليه السلام. وقد كان إبراهيم يسميه أباً في حين كان «آزر» وثنياً، فكيف يصح ذلك وقد اتفقت كلمة علماء الشيعة عامة على كون والد النبي الكريم «محمد»

صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الأنبياء مؤمنين بالله سبحانه موحدين إياه تعالى. ولقد ذكر الشيخ المفيد رضوان الله عليه في كتابه القيم «أوائل المقالات»^(١) ان هذا الامر هو موضع اتفاق علماء الشيعة الامامية كافة بل وافقهم في ذلك كثير من علماء السنة ايضاً.

وفي هذه الصورة ما هو الموقف من ظواهر الآيات المذكورة التي تفيد أبوة «آزر» لإبراهيم، وما هو الحل الصحيح لهذه المشكلة؟؟
يذهب أكثر المفسرين إلى أن لفظة «الأب» وان كانت تُستعمل عادة في لغة العرب في «الوالد»، إلا أن مورد استعمالها لا ينحصر في ذلك. بل ربما استعملت في لغة العرب وكذا في مصطلح القرآن الكريم- في: (العم) أيضاً. كما وقع ذلك في الآية التالية التي استعملت فيها لفظة الأب بمعنى العم اذ يقول سبحانه:

«إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»^(٢)
فإن مما لا ريب فيه أن «اسماعيل» كان عمّاً ليعقوب لا والداً له، فيعقوب هو ابن اسحاق، واسحاق هو أخو اسماعيل.

ومع ذلك سُمي أولاد يعقوب «اسماعيل» الذي كان (عمّهم) أباً. ومع وجود هذين الاستعمالين (استعمال الاب في الوالد تارة، وفي العم تارة أخرى) يصبح احتمال كون المراد بالاب في الآيات المرتبطة بهداية «آزر» هو العم أمراً وارداً، وبخاصة إذا ضَمَمْنَا إلى ذلك قرينة قوية في المقام وهي: اجماع العلماء الذي نقله المفيد رحمه الله على طهارة آباء الانبياء واجدادهم من رجس الشرك والوثنية.

ولعل السبب في تسمية النبي «إبراهيم» عمّه بالأب هو أنه كان الكافل

(١) أوائل المقالات: ص ١٢ باب القول في آباء رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٢) البقرة: ١٣٣.

لابراهيم ردحاً من الزمن، ومن هنا كان «ابراهيم» ينظر اليه بنظر الأب، وينزله منزلة الوالد.

القرآن يني أبوة «آزر» لإبراهيم:

ولكي نعرف رأي القرآن الكريم في مسألة العلاقة بين «آزر» و«ابراهيم» عليه السلام نلفت نظر القارئ الكريم الى توضيح آيتين:

١ - لقد أشرفت منطقة الحجاز بنور الايمان والإسلام بفضل جهود النبي «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم وتضحياته الكبرى، وآمن أكثر الناس به عن رغبة ورضا، وعلموا بأن عاقبة الشرك، وعبادة الاوثان والاضنام هو الجحيم والعذاب الاليم.

إلا أنهم رغم ابتهاجهم وسرورهم بما وُفقوا له من إيمان وهداية، كانت ذكريات آبائهم وأمهاتهم الذين مضوا على الشرك والوثنية تزعج خواطرهم وتثير شفقتهم، واسفهم.

وكان سماع الآيات التي تشرح أحوال المشركين في يوم القيامة يحزنهم ويؤلمهم، وبغية ازالة هذا الالم الروحي المجهد طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يستغفر لابائهم وأمهاتهم كما فعل «إبراهيم» في شأن «آزر» فنزلت الآية في مقام الرد على طلبهم ذلك، اذ قال سبحانه:

«ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم»^(١).

إن تمت قرائن كثيرة تدل على أن محادثة النبي «إبراهيم» وحواره مع «آزر» ووعده بطلب المغفرة له من الله سبحانه قد انتهى إلى قطع العلاقات،

(١) التوبة: ١١٣ و ١١٤.

والتبرّي منه في عهد فتوة «إبراهيم»، وشبابه، أي عندما كان «إبراهيم» لا يزال في مسقط رأسه «بابل» ولم يتوجه بعد الى فلسطين ومصر وأرض الحجاز. إننا نستنتج من هذه الآية أن «إبراهيم» قطع علاقته مع «آزر»- في أيام شبابه- بعد ما أصرَّ «آزر» على كفره، ووثنيته، ولم يعد يذكره الى آخر حياته.

٢ - لقد دعا «إبراهيم» عليه السّلام في أخريات حياته - أي في عهد شيخوخته- وبعد أن فرغ من تنفيذ مهمته الكبرى (تعمير الكعبة) واسكان ذريته في أرض مكة القاحلة، دعا وبكل اخلاص وصدق جماعة منهم والداه، وطلب من الله إجابة دعائه، إذ قال في حين الدعاء:

«رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ»^(١).

إن هذه الآية تفيد بصراحة- أن الدعاء المذكور كان بعد الفراغ من بناء الكعبة المعظمة، وتشيدها، يوم كان إبراهيم يمر بفترة الشيخوخة، فاذا كان مقصوده من الوالد في الدعاء المذكور هو «آزر» وانه المراد له المغفرة الالهية كان معنى ذلك أن «إبراهيم» كان لم يزل على صلة بـ «آزر» حتى أنه كان يستغفر له في حين أن الآية التي نزلت رداً على طلب المشركين أوضحت بأن «إبراهيم» كان قد قطع علاقاته بـ «آزر» في أيام شبابه، وتبرأ منه، ولا ينسجم الاستغفار مع قطع العلاقات.

إن ضمَّ هاتين الآيتين بعضهما الى بعض يكشف عن أنّ الذي تبرأ منه «إبراهيم» في أيام شبابه، وقطع علاقاته معه، واتخذ عدواً هو غير الشخص الذي بقي يذكره، ويستغفر له الى أخريات حياته^(٢).

إبراهيم محظّم الأصنام:

لقد حلَّ موسم العيد، وخرج أهلُ بابل المغفلين الجهلة إلى الصحراء للاستجمام، ولقضاء فترة العيد، وإجراء مراسيمه، وقد أخلوا المدينة.

(٢) مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٢١، والميزان: ج ٧ ص ١٧٠.

(١) إبراهيم: ٤١.

ولقد كانت سوابق «إبراهيم»، وتحامله على الأصنام، واستهزائه بها قد أوحدت قلقاً وشكاً لدى أهل بابل، ولهذا طلبوا منه - وهم الذين يساورهم القلق من موقفه تجاه اصنامهم - الخروج معهم إلى الصحراء، والمشاركة في تلك المراسيم، ولكن اقتراحهم هذا بل إصرارهم واجه رفض إبراهيم الذي رد على طلبهم بحجة المرض اذ قال: «إني سقيم» وهكذا لم يشترك في عيدهم، وخروجهم وبقي في المدينة.

حقاً لقد كان ذلك اليوم يوم ابتهاج وفرح للموحد والمشارك، وأما للمشركين فقد كان عيداً قديماً عريقاً يخرجون للاحتفال به، واقامة مراسيمه وتجديد ما كان عليه الآباء والاسلاف الى الصحراء حيث السفوح الخضراء والمزارع الجميلة.

وكان عيداً لإبراهيم بطل التوحيد كذلك، عيداً لم يسبق له مثيل، عيداً طال انتظاره، وافرح حضوره وحلوله، فها هو إبراهيم يجد المدينة فارغة من الاغيار، والفرصة مناسبة للانقضاض على مظاهر الشرك والوثنية، وحدث هذا فعلاً.

فعندما خرج آخر فريق من اهل بابل من المدينة، إغتم «إبراهيم» تلك الفرصة ودخل وهو ممتلئ ايماناً و يقيناً بالله في معبدهم حيث الأصنام والأوثان المنحوتة الخاوية، وأمامها الأطعمة الكثيرة التي احضرها الوثنيون هناك بقصد التبرك بها، وقد لفتت هذه الأطعمة نظر «الخليل» عليه السلام، فأخذ بيده منها كسرة خبز، وقدمها مستهزء الى تلك الاصنام قائلاً: لماذا لا تأكلون من هذه الاطعمة؟

ومن المعلوم أن معبودات المشركين الجوفاء هذه لم تكن قادرة على فعل اي شيء أو حركة مطلقاً فكيف بالاكل.

لقد كان يخيم على جو ذلك المعبد الكبير سحابة من الصمت القاتل ولكنه سرعان ما اخترقته اصوات المعول الذي اخذ «إبراهيم» يهوي به على رؤوس تلك التماثيل الجامدة الواقفة بلاحراك، وايديها.

لقد حطم «الخليل» عليه السلام جميع الاصنام وتركها ركاماً من الاعواد المهشمة، والمعدن المتحطم، واذا بتلك الاصنام المنصوبة في اطراف ذلك الهيكل

قد تحولت الى تلة في وسط المعبد.

غير ان «ابراهيم» ترك الصنم الأكبر من دون ان يمسه بسوء، ووضع المعول على عاتقه، وهو يريد بذلك ان يظهر للقوم بأن محطّم تلك الأصنام هو ذلك الصنم الكبير، إلا أن هدفه الحقيقي من وراء ذلك كان امراً آخرأ سنبينه في ما بعد.

لقد كان «إبراهيم» عليه السّلام يعلم بأنّ المشركين بعد عودتهم من الصحراء، ومن عيدهم سيزورون المعبد، وسوف يبحثون عن علة هذه الحادثة، وأنهم بالتالي سوف يرون ان وراء هذا الظاهر واقعاً آخر، اذ ليس من المعقول ان يكون صاحب تلك الضربات القاضيه هو هذا الصنم الكبير الذي لا يقدر أساساً على فعل شيء على الاطلاق.

وفي هذه الحالة سوف يستطيع «إبراهيم» عليه السّلام أن يستفيد من هذه الفرصة في عمله التبليغي، ويستغل اعتراضهم بأن هذا الصنم الكبير لا يقدر على شيء أبداً، لتوجيه السؤال التالي اليهم: اذن كيف تعبدونه؟!!

فمنذ أن اخذت الشمس تدنو الى المغيّب ويقترّب موعد غروبها، وتقلص اشعتها وتنكمش من الرّوابي والسهول، أخذ الناس يؤوبون إلى المدينة أفواجاً أفواجاً.

وعند ما آن موعد العبادة، وتوجّهوا إلى حيث اصنامهم، واجهوا منظرأً فضيعاً وامراً عجيباً لم يكونوا ليتوقعونه!!

لقد كان المشهد يحكي عن ذلة الآلهة وحقارتها، وهو أمرٌ لفت نظراً لجميع شيباً وشباناً، كباراً وصغاراً.

ولقد كانت تلك اللحظة لحظة ثقيلة الوطأة على الجميع بلا استثناء.

فقد خيّم سكوتٌ قاتلٌ مصحوبٌ بحنقٍ ومضضٍ على فضاء ذلك المعبد المنكود الحظ.

إلا أن أحدهم خرق ذلك الصمت الرهيب وقال: من الذي ارتكب هذه الجريمة، ومن فعل هذا بالهتنا؟!!

ولقد كانت آراء «إبراهيم» ومواقفه السلبية السابقة ضد الاصنام وتحامله الصريح عليها تبعثهم على اليقين بأن «إبراهيم» وليس سواه هو الذي صنع ما صنع بألهتهم واصنامهم.

ولأجل ذلك تشكلت فوراً محكمة يرأسها «نمرود» نفسه وأخذوا يحاكمون «إبراهيم» وأمه!!

ولم يكن لأمه من ذنب إلا أنها أخفت ابنها، ولم تُعَلِّم السلطات بوجوده ليقضوا عليه، شأنه شأن غيره من المواليد الذين قضت تلك السلطة الظالمة عليهم حفاظاً على نفسها وكيانها.

ولقد أجابت أم إبراهيم على هذا السؤال بقولها: أيها الملك فعلت هذا نظراً مني لرعيّتك، فقد رأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل فقلت: إن كان هذا الذي يطلبه دفعتهُ إليه ليقته ويكف عن قتل أولاد الناس، وإن لم يكن ذلك فبقي لنا ولدنا .

ثم جاء دور مساءلة إبراهيم عليه السّلام فسأله قائلاً: «مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَتْنَا يَا إِبْرَاهِيمَ» فقال إبراهيم: «فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ».

وقد كان «إبراهيم» عليه السّلام يهدف من هذه الاجابة اللامبالية المصحوبة بالسحرية والازدراء هدفاً آخر، وهو ان «إبراهيم» عليه السّلام كان على يقين بأنهم سيقولون في معرض الاجابة على كلامه هذا: إنك تعلم يا إبراهيم ان هذه الأصنام لا تقدر على النطق، وفي هذه الصورة يستطيع «إبراهيم» أن يلفت نظر السلطات التي تحاكمه الى نقطة اساسية.

وقد حدث فعلاً ما كان يتوقعه «إبراهيم» عليه السّلام لما قالوا له وقد نكسوا على رؤوسهم: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» فقال إبراهيم رداً على كلامهم هذا الذي كان يعكس حقارة تلك الاصنام والأوثان وتفاهة شأنها: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ مِنْهُ نِعْمَةٌ أَوْ كَلِمَةٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

إلا أن تلك الزمرة المعاندة التي ران على قلوبها الجهل والتقليد الأعمى لم

يجدوا جواباً لإبراهيم الذي أفحمهم بمنطقه الرصين إلا أن يحكموا باعدامه خرقاً، فأوقدوا ناراً كبيرة وألقوا بإبراهيم عليه السلام فيها إلا أن العناية الالهية شملت إبراهيم الخليل عليه السلام، وحفظته من اذى تلك النار، وحولت ذلك الجحيم الذي اوجده البشر، الى جُنينة خضراء نضرة اذ قال: «يا نارُ كوني برداً وَ سَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ»^(١).

العِبْرَةُ القِيَمَةُ فِي هَذِهِ القِصَّة:

مع ان اليهود يعتبرون أنفسهم في مقدمة الموحّدين، لم ترد هذه القصة في توراتهم الحاضرة رغم كونها معروفة بينهم، بل تفرد القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بذكرها لأهميتها.

من هنا فإننا نذكرُ بعض النقاط المفيدة، والدروس المهمة في هذه القصة التي يَهْدِفُ القرآن من ذكرها وذكر امثالها من قصص الأنبياء والرسول.

(١) وقد ذكر تفاصيل هذه القصة في الآيات ٥١ الى ٧٠ من سورة الانبياء وهانحن ندرج كل هذه الآيات هنا:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَ كَتَّابِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِظِينَ قَالَ بَلْ رِسْمٌ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنْعَالَي ذَلِكَم مِّنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا: فَاتُوا بِهِ عَلَى أَغْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَلُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا الْهَيْتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ».

وللوقوف على تفاصيل وخصوصيات ولادة إبراهيم عليه السلام وتحطيمه للأصنام راجع كتاب

الكامل لابن الأثير: ج ١ ص ٥٣-٦٢، وجمار الأنوار: ج ١٢ ص ١٤-٥٥.

١ - إن هذه القصة خير شاهد على شجاعة «إبراهيم الخليل» عليه السّلام وبطولته الفائقة.

فغزم إبراهيم على تحطيم الاصنام، ومحق وهدم كل مظاهر الشرك والوثنية المقيتة لم يكن امراً خافياً على النمروديين لانه عليه السّلام كان قد أظهر شجبه لها، واعلن عن استنكاره لعبادتها وتقديسها من خلال كلماته القادحة فيها، واستهزائه بها، فقد كان عليه السّلام يقول لهم بكل صراحة بانه سيتخذ من تلك الاصنام موقفاً ما اذا لم يتركوا عبادتها وتقديسها، فقد قال لهم يوم ارادوا ان يخرجوا الى الصحراء لمراسيم العيد: «وَتَا اللّٰهَ لَا كَيْدَنَّا اَصْنَامَكُم بَعْدَ اَنْ تُوَلُّوْا مُدْبِرِيْنَ»^(١).

ولقد كان موقف الخليل عليه السّلام ينم عن شجاعة كبرى فقد قال الإمام الصادق عليه السّلام في هذا الصدد:

«ومنها (اي ومما تحلى به النبي إبراهيم) الشجاعة وقد كشفت (قضية) الاصنام عنه، ومقاومة الرجل الواحد ألوفاً من أعداء الله عزوجل تمام الشجاعة»^(٢).

٢ - ان ضربات «إبراهيم» القاضية وان كانت في ظاهرها حرباً مسلحة، وعنيفة ضد الاصنام إلا أن حقيقة هذه النهضة - كما يُستفاد من ردود «إبراهيم» على أسئلة الذين حاكموه، واستجوبوه- كانت ذات صبغة تبليغية دعائية.

فان «إبراهيم» لم يجد وسيلة لايقاظ عقول قومه الغافية، وتنبيه فطرتهم الغافلة، إلا تحطيم جميع الاصنام، وترك كبيرها وقد علق القدموم على عاتقه ليدفع بقومه إلى التفكير في القضية من اساسها وحيث إن العمل لم يكن اكثر من مسرحية إذ لايمكن أن يصدق أحدهم بأن تلك الضربات القاضية كانت من صنع ذلك الصنم الكبير وفعله حينئذٍ يستطيع إبراهيم أن يستثمر فعله هذا في دعوته، ويقول انّ هذا الصنم الكبير لايقدر- وباعترافكم- على فعل أي شيء

مهما كان صغيراً وحقيراً فكيف تعبدونه اذن؟!!

ولقد استفاد «إبراهيم» من هذه العملية فعلاً، وتوصل الى النتيجة التي كان يتوخاها، فقد ثابوا الى نفوسهم بعد ان سمعوا كلمات «إبراهيم» عليه السلام، واستيقظت ضمائرهم وعقولهم ووصفوا انفسهم بالظلم بعد أن تبين لهم الحق وبطل ما كانوا يعبدون اذ قال تعالى: «فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ»^(١) وهذا بنفسه يفيد بأن سلاح الانبياء القاطع في بدء عملهم الرسالي كان هو: سلاح المنطق والاستدلال ليس إلا، غاية الأمر أن هذا كان يؤدي في كل دورة بما يناسبها من الوسائل، وإلا فما قيمة تحطيم عدد من الأصنام الخشبية بالقياس إلى مخاطرة النبي «إبراهيم الخليل» بنفسه وحياته، وبالقياس الى الاخطار التي كانت تتوجه اليه نتيجة هذا العمل الصارخ.

إذن فلا بد ان يكون وراء هذه العملية الخطيرة هدفٌ كبيرٌ وخدمة عظمى تستحق المخاطرة بالنفس، ويستحق المرء امتداح العقل له اذا عرض حياته للخطر في سبيلها.

٣ - لقد كان إبراهيم يعلم جيداً بأن هذا العمل سيؤدي بحياته، وسيكون فيه حتفه، فكانت القاعدة تقتضي أن يسيطر عليه قلقٌ واضطرابٌ شديدان، فيتوارى عن أعين الناس، أو يترك المزاج، والسخرية بالأصنام على الأقل، ولكنه كان على العكس من ذلك رابط الجأش، مطمئن النفس، ثابت القدم، فهو عندما دخلَ في المعبد الذي كانت فيه الأصنامُ تقدم بقطعة من الخبز الى الاصنام ودعاها ساخرأ بها، الى الاكل، وثم ترك الأصنام بعد اليأس منها تلاً من الخشب المهشم، واعتبر هذا الامر مسألة عادية لا تستأهل الوجَل والخوف، وكأنه لم يفعل ما يستتبع الموت المحقق ويستوجب الاعدام المحتم.

فهو عندما يأخذ مكانه امام هيئة القضاة يقول معرضاً بالاصنام: فعله كبير الاصنام فاسئلوه ولاشك أن هذا التعريض والسخرية بالاصنام إنما هو موقف من

(١) الأنبياء: ٦٤.

لا يوجس خيفة، ولا يشعر بوجع من عمله، بل هو فعل من قد هياً نفسه لكل الاخطار المحتملة، واستعد لكل النتائج مهما كانت خطيرة.

بل الأعجبُ من هذا كله دراسة وضع «إبراهيم» نفسه حينما كان في المنجنيق وقد يتقن أنه سيكون وسط ألسنة اللهب بعد هنيئة، وتلتهمه النار المستعرة تلك النار التي جمع اهل «بابل» لها الخطب الكثير تقريباً الى آلتهم، وكانوا يعتبرون ذلك العمل واجباً مقدساً... تلك النار التي كان لهيها من القوة بحيث ما كانت الطيور تستطيع من التحليق على مقربة منها.

في هذه اللحظة الخطيرة الحساسة جاءه جبرئيل واعلن عن استعداداه لانقاذه وتخليصه من تلك المهلكة الرهيبة قائلاً له: هل لك إليّ من حاجة؟ فقال «إبراهيم»: أما إليك فلا، وأما إلى ربّ العالمين فنعم^(١).

ان هذا الجواب يجسّد ايمان «إبراهيم» العظيم، وروحه الكبرى.

لقد كان «نمرود» الذي جلس يراقب تلك النار من عدة فراسخ، ينتظر بفارغ الصبر لحظة الانتقام، وكان يجب ان يرى كيف تلتهم ألسنة النار «إبراهيم». فما أربّ تلك اللحظات!

لقد اشتغل المنجنيق، وهزة واحدة ألقي بإبراهيم عليه السلام في وسط النار غير أن مشيئة الله، وارانته النافذة تدخلت فوراً لتخلص خليل الله ونبيه العظيم، فحوّلت تلك النار المحرقة التي أوقدتها يد البشر الى روضة خضراء وجنيئة زاهرة ادهشت الجميع حتى أنّ «إبراهيم» التفت إلى «آزر» وقال -من دون ارادته-: «يا آزر ما اكرم إبراهيم على ربه»^(٢).

إن انقلاب تلك النار الهائلة الى روضة خضراء لإبراهيم قد تمّ بأمر الله المسبب للأسباب والمعطل لها متى شاء، المعطي لها آثارها، والسالب عنها ذلك، متى اراد.

(١) عيون أخبار الرضا: ص ١٣٦، وأمالى الصدوق: ص ٢٧٤، وبحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣٥.

(٢) تفسير البرهان: ج ٣ ص ٦٤.

اجل إن الله الذي منح الحرارة للنار والاضاءة للقمر، والاشعاع للشمس لقادر على سلب هذه الآثار وانتزاعها من تلك الاشياء وتجريدها، ولهذا صحَّ وصفه بمسبب الاسباب، ومعطلها.

غير ان جميع هذه الحوادث الخارقة والآيات الباهرة لم تستطع ان توفر لابراهيم الحرية الكاملة في الدعوة والتبليغ، فقد قررت السلطة الحاكمة وبعد مشاورات ومداومات إبعاد «إبراهيم» ونفيه، وقد فتح هذا الأمر صفحة جديدة في حياة ذلك النبي العظيم، وتهيأت بذلك اسباب رحلته الى بلاد الشام وفلسطين ومصر وارض الحجاز.

هجرة الخليل عليه السلام:

لقد حكمت محكمة «بابل» على «إبراهيم» بالنفي والإبعاد من وطنه، ولهذا اضطر عليه السلام ان يغادر مسقط رأسه، ويتوجه صوب فلسطين ومصر، وهناك واجه استقبال العمالقة الذين كانوا يحكمون تلك البقاع وترحيبهم الحار به ونعم هداياهم التي كان من جملتها جارية تدعى «هاجر».

وكانت زوجته «سارة» لم تُرزق بولد الى ذلك الحين، فحركت هذه الحادثة عواطفها ومشاعرها تجاه زوجها الكريم إبراهيم ولذلك حثته على نكاح تلك الجارية عله يُرزقُ منها بولد، تقربه عينه وتزدهر به حياته.

فكان ذلك، وولدت «هاجر» لإبراهيم ولداً ذكراً سمي باسماعيل، ولم يمض شيء من الزمان حتى حبلت سارة هي أيضاً وولدت -بفضل الله ولطفه- ولداً سمي باسحاق^(١).

وبعد مدة من الزمان أمر الله تعالى «إبراهيم» بان يذهب بإسماعيل وأمه «هاجر» إلى جنوب الشام (أي ارض مكة) ويُسكنها هناك في واد غير معروف الى ذلك الحين... واد لم يسكنه أحد بل كانت تنزل فيه القوافل التجارية

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ١١٨ و ١١٩.

الذاهبة من الشام الى اليمن، والعائدة منها الى الشام، بعض الوقت ثم ترحل سريعاً، وأما في بقية أوقات السنة فكانت كغيرها من أراضي الحجاز صحراء شديدة الحرارة، خالية عن أي ساكن مقيم.

لقد كانت الإقامة في مثل تلك الصحراء الموحشه عملية لا تطاق بالنسبة لأمراة عاشت في ديار العمالقة وألفت حياتهم وحضارتهم، وترفهم وبذخهم. فالحرارة اللاهبة والرياح الحارقة في تلك الصحراء كانت تجسد شبح الموت الرهيب امام ابصار المقيمين.

وإبراهيم نفسه قد انتابته كذلك حالة من التفكير والدهشة لهذا الامر، ولهذا فإنه فيما كان عازماً على ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ذلك الواد قال لزوجته «هاجر» وعيناه تدمعان: «إن الذي أمرني أن اضعكم في هذا المكان هو الذي يكفيكم».

ثم قال في ضراعة خاصة: «رَبِّ اجْعِلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»^(١).

وعندما انحدر من ذلك الجانب من الجبل التفت اليها وقال داعياً: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»^(٢).

إن هذا السفر والهجرة وإن كانت في ظاهرها امراً صعباً، وعملية لا تطاق، إلا أن نتائجها الكبرى التي ظهرت في مابعد أوضحت وبيّنت أهمية هذا العمل. لأنّ بناء الكعبة، وتأسيس تلك القاعدة العظمى لأهل التوحيد، ورفع راية التوحيد في تلك الربوع، وخلق نواة نهضة، عميقة، دينية، انبثقت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشعت من تلك الديار إلى أنحاء العالم، كل ذلك كان من ثمار تلك الهجرة.

عن زمرم كيف ظهرت؟

لقد غادر «إبراهيم» عليه السّلام أرض مكة تاركاً زوجته وولده «إسماعيل» بعيون دامعة، وقلب يملأوه الرضا بقضاء الله والامل بلطفه وعنايته. فلم تمض مدة إلا ونفذ ماترك عندهما من طعام وشراب، وجف اللبن في ثديي «هاجر»، وتدهورت أحوال الرضيع «إسماعيل»، وكانت دموع الام الحزينة تنحدر على حجره، وهي تشاهد حال وليدها الذي قد أخذ العطش والجوع منه مأخذاً.

فانطلقت من مكانها فجأة تبحث عن الماء حتى وصلت إلى جبل «الصفاء» فرأت من بعيد منظر ماء عند جبل «مروة»، فاسرعت إليه مهرولة، غيران الذي رآته وظنته ماء لم يكن الآ السراب الخادع، فزادها ذلك جزعاً وحزناً على وليدها ممّا جعلها تكرر الذهاب والاياب الى الصفاء والمروة أملاً في أن تجد الماء ولكن بعد هذا السعي المتكرر، والذهاب والاياب المتعدد بين الصفاء والمروة عادت الى وليدها قانطةً يائسةً.

كانت أنفاس الرضيع الظامئ ودقات قلبه الصغير قد تباطأت بل واشرفت على النهاية، ولم يعد ذلك الرضيع الظامئ قادراً على البكاء ولاحتى على الانين. ولكن في مثل هذه اللحظة الحرجة الصعبة استجاب الله دعاء خليله وحببيه «إبراهيم»، اذ لاحظت هاجر الماء الزلال وهو ينبع من تحت اقدام «اسماعيل».

فسرت تلك الام المضطربة -التي كانت تلاحظ وليدها وهو يقضي اللحظات الاخيرة من حياته، وكانت على يقين بانه سرعان ما يموت عطشاً، وجهداً- سروراً عظيماً بمنظر الماء، وبرق في عينيها بريق الحياة، بعد ان اظلمت الدنيا في عينيها قبل دقائق، فشربت من ذلك الماء العذب، وسقت منه رضيعها الظامئ، وتقشعت بلطف الله وعنايته وبما بعثه من نسيم الرحمة الربانية كل غيوم اليأس، وسحب القنوط التي تلبدت وخيمت على حياتها.

ولقد ادى ظهور هذه العين التي تدعى بزمنم في ان تتجمع الطيور في تلك المنطقة وتحلق فوق تلك البقعة التي لم يُعهد أن حَلَّت عليها الطيور، وارتادتها الحمام، وهذا هو مادفع بجرهم وهي قبيلة كانت تقطن في منطقة بعيدة عن هذه البقعة ان تنبه إلى ظهور ماء فيها لما رأَت تساقط الطيور وتحليقها، فأرسلت واردين ليتقصيا لها الخبر ويعرفا حقيقة الأمر، وبعد بحث طويل وكثير، انتهى الى حيث حلت الرحمة الالهية، وعندما اقتربا إلى «هاجر» وشاهدا بام عينيها «امرأة» و«طفلا» عند عين من الماء الزلال الذي لم يعهداه من قبل عادا من فورهما من حيث أتيا، وأخبرا كبار القبيلة بما شاهدا، فاخذت الجماعة تلو الجماعة من تلك القبيلة الكبيرة تد إلى البقعة المباركة، وتخم عند تلك العين لتطرد عن «هاجر» وولدها مرارة الغربة، ووحشة الوحدة، وقد سبب نمو ذلك الوليد المبارك ورشده في رحاب تلك القبيلة في ان يتزوج إسماعيل هذا من تلك القبيلة، ويصاهرهم، وبذلك يحظى بحمايتهم له، وينعم بدفاعهم ورعايتهم ومحبتهم له.

فانه لم يمض زمانٌ حتى أختار «إسماعيل» زوجة من هذه القبيلة، ولهذا ينتمي ابناء «إسماعيل» الى هذه القبيلة من جهة الأم.

تجديد اللقاء:

كان إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ارض «مكة» بأمر الله، يتردد على ولده بين فينة وأخرى. وفي احدى سفراته ولعلها السفارة الأولى دخل «مكة» فلم يجد ولده «إسماعيل» في بيته، وكان ولده الذي أصبح رجلاً قوياً، قد تزوج بامرأة من جرهم.

فسأل «إبراهيم» زوجته قائلاً: اين زوجك؟ فقالت: خرج يتصيد، فقال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي شيء وما عندي أحد، فقال لها إبراهيم: «اذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: فلْيغيّر عتبة بابيه».

وذهب إبراهيم عليه السّلام منزعجاً من معاملة زوجة ابنه «إسماعيل» له وقد قال لها ما قال.

ولما جاء إسماعيل عليه السّلام وجد ريح ابيه فقال لامرأته: هل جاءك احد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه، قال: فماذا قال لك: قالت: قال لي أقرئي زوجك السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه!! فطلقها وتزوج أخرى، لأن مثل هذه المرأة لا تصلح ان تكون زوجة وشريكة حياة (١)

وقد يتساءل أحد: لماذا لم يمكث إبراهيم عليه السّلام هناك قليلاً ليرى ولده إسماعيل بعد عودته من الصيد، وقد قطع تلك المسافة الطويلة، وكيف سمح لنفسه بان يعود بعد تلك الرحلة الشاقة من دون ان يحظى برؤية ابنه العزيز؟! يجيب ارباب التاريخ على ذلك بان إبراهيم انما استعجل في العودة من حيث اتى لوعده اعطاه لزوجته سارة بأن يعود اليها سريعاً، ففعل ذلك حتى لا يخلف. وهذا من اخلاق الانبياء.

ثم إن «إبراهيم» سافر مرة أخرى إلى أرض مكة بأمر الله، وليسبني الكعبة التي تهدمت في طوفان «نوح»، ليوجه قلوب المؤمنين الموحدين إلى تلك النقطة. إن القرآن الكريم يشهد بأن أرض «مكة» قد تحولت إلى مدينة بعد بناء الكعبة قبيل وفاة إبراهيم عليه السّلام، لأن إبراهيم دعا بُعيد فراغه من بناء الكعبة قائلاً:

«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»^(٢) على حين دعا عند نزوله مع زوجته، وابنه إسماعيل في تلك الأرض قائلاً:

«رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا»^(٣).

وهذا يكشف عن ان مكة تحولت الى مدينة عامرة في حياة الخليل

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ١١٢ نقلاً عن قصص الأنبياء.

(٢) البقرة: ١٢٦.

(٣) إبراهيم: ٣٥.

عليه السّلام، بعد ان كانت صحراء قاحلة، وواد غير ذي زرع.

ولقد كان من المُستحسن استكمالاً لهذا البحث أن نشرح هنا كيفية بناء الكعبة المعظمة، ونستعرض التاريخ الاجمالي لذلك، بيد أننا لكي لا نقصر عن الهدف المرسوم لهذا الكتاب اعرضنا عن ذلك وعمدنا إلى ذكر بعض التفاصيل عن أبرز واشهر أجداد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في التاريخ.

٢ - قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ:

إن أسلاف الرّسول العظيم صلى الله عليه وآله هم على التوالي: عَبْدُ اللَّهِ، عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، هَاشِمٌ، عَبْدُ مَنْفٍ، قُصَيٌّ، كِلَابٌ، مُرَّةٌ، كَعْبٌ، لُؤَيٌّ، غَالِبٌ، وَهْرٌ، مَالِكٌ، النَّضْرُ، كِنَانَةُ، خُزَيْمَةُ، مُدْرِكَةُ، إِيَّاسٌ، مُضَرٌ، نَزَارٌ، مَعَدٌ، عَدْنَانٌ^(١).

من المسلم أنّ نسب النبي الاكرم صلى الله عليه وآله إلى عدنان هو ما ذكر، فلا خلاف فيه، إنما وقع الخلاف في عدد، واسماء من هم بعد عدنان إلى إسماعيل عليه السّلام، ولذلك لم يجز التجاوز عنه لحديث رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله اذ قال: «إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا»^(٢) هذا مضافاً إلى أن النبي نفسه كان اذا عدّ أجداده فبلغ إلى عدنان أمسك، ونهى عن ذكر من بعده الى إسماعيل، وقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: كَذِبَ النَّسَابُونَ.

ولهذا فإننا نكتفي بذكر من أتفق عليه، ونعمد الى الحديث عن حياة كل واحد منهم.

ولقد كان كلُّ من ذكرنا أسماءهم هنا معروفين، ومشهورين في تاريخ

(١) التاريخ الكامل: ج ٢ ص ٢ - ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ١٠٥ عن مناقب ابن شهر آشوب، وكشف الغمّة: ج ١ ص ١٥.

العرب، بيد أن حياة طائفة منهم ترتبط بتاريخ الإسلام، ولهذا فاننا نقف عند حياة «قصي» و من لحقه إلى والد النبي «عبدالله» ونعرض عن ذكر حياة غيرهم من أجداده وأسلافه صلى الله عليه وآله ممن لاعلاقة له بهذه الدراسة^(١).

أما «قُصَيّ» وهو الجد الرابع لرسول الله صلى الله عليه وآله فأُمّه «فاطمة» التي تزوجت برجل من بني كلاب ورزقت منه بولدين هما: «زهرة» و «قصي» إلا أن زوج فاطمة قد توفي، وهذا الأخير لم يزل في المهدي، فتزوجت بزواج آخر يدعى ربيعة، وسافرت معه إلى الشام، وبقي «قصي» يحظى برعاية أبوية من ربيعة حتى وقع خلاف بين قصي وقوم ربيعة، واشتد ذلك الخلاف حتى انتهى إلى طرده من قبيلتهم، مما أحن ذلك أمّه، واضطرت إلى إرجاعه إلى «مكة». وهكذا اتت به يد القدر إلى «مكة»، وسببت قابلياته الكامنة التي برزت في تلك المدينة في تفوقه على أهل مكة وبخاصة قريش.

وسرعان ما احتل قصي هذه المقامات العالية، وشغل المناصب الرفيعة، مثل حكومة «مكة» وزعامة قريش، وسدانة الكعبة المعظمة، وصار رئيس تلك الديار دون منازع.

ولقد ترك (قصي) من بعده آثاراً كثيرة وعديدة منها تشجيع الناس على بناء المساكن والبيوت حول الكعبة المعظمة، وتأسيس مكان للشورى ليجتمع فيه رؤساء القبائل العربية من أجل التداول في الأمور وحل المشاكل يدعى بدارالندوة. وقد توفي «قصي» في القرن الخامس الميلادي وخلف من بعده ولدين هما: «عبدالدار» و «عبدمناف».

٣ - عبدمناف:

وهو الجد الثالث لرسول الله صلى الله عليه وآله واسمه «المغيرة» ولقبه

(١) لقد بحث ابن الأثير في الكامل حول حياتهم فراجع: ج ٢ ص ١٥-٢١.

«قرباطحاء»، وكان أصغر من أخيه «عبدالدار» إلا أنه كان يحظى بمكانة خاصة عند الناس دون أخيه، وكان شعاره التقوى، ودعوة الناس الى حسن السيرة وصلة الرحم، بيد انه مع ما كان له من المكانة القوية لم ينافس اخاه «عبدالدار» في المناصب العالية التي كان يشغلها.

فقد كانت الزعامة لآخيه عبدالدار حسب وصية أبيهما «قصي».

ولكن بعد وفاة هذين الأخوين وقع الخصام والتنازع بين أبنائهما على المناصب، وانتهى ذلك بالصراع الطويل إلى اقتسام المناصب والمقامات، وتقرر ان يتولى ابناء عبدالدار سدانة الكعبة، وزعامة دار الندوة، ويتولى ابناء عبدمناف سقاية الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

وقد بقي هذا التقسيم المتفق عليه ساري المفعول الى زمن ظهور الإسلام^(١).

٤ - هاشم:

وهو الجد الثاني لنبى الإسلام واسمه «عمرو» ولقبه «العلاء» وهو الذي

وُلِدَ مع «عبدشمس» توأمين، وأخواه الآخراَن هما: «المطلب» و «نوفل».

هذا وثمة خلاف بين أرياب السير وكتاب التاريخ في: أن هاشماً وعبد

شمس كانا توأمين، وأن هاشماً ولد واصبغ واحدة من اصابع قدمه ملصقة بجبهة

«عبد شمس» وقد نزعَت بسيلان دم، فتشاءم الناس لذلك^(٢) يقول الحلبي في

سيرته: فكانوا يقولون: سيكون بينهما دم فكان بين ولديهما اي بين بني العباس

(١) لم تكن هناك مناصب للكعبة يوم أسست ورفَع قواعدها بل حدث كل ذلك تدريجاً بحكم

المقتضيات والتطورات، وكانت هذه المناصب التي استمرت الى زمن ظهور الإسلام عبارة عن:

١ - سدانة الكعبة.

٢ - سقايه الحجيج.

٣ - رفاتهم وضيافتهم.

٤ - زعامة المكين وقيادة جيشهم. ولم يكن هذا الأخير منصباً ذا صبغة دينية.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٣.

(وهم من اولاد هاشم) وبين بني امية (وهم من اولاد عبدشمس)^(١).
 وكأنّ كاتب السيرة قد تجاهل الحوادث المحزنة والمؤسفة التي وقعت بين
 بني امية وابناء علي عليه السّلام في حين أن تلك الحوادث الدامية التي تسببها
 بنو امية وأهرقت فيها دماء ذرية رسول الله وعترته الطاهرة، اقوى شاهد على تلك
 العداوة بين هاتين الطائفتين، ولكننا لاندرى لماذا تجاهل ذكرها مؤلف السيرة
 الحلبية ولم يشر اليها مطلقاً؟!!

ثم ان من خصوصيات أبناء «عبد مناف» حسبما يُستفاد من الأدب
 الجاهلي، وما جاء فيه من أشعار، أنهم توفوا في مناطق مختلفة.
 فهاشم -مثلاً- توفي في «غزة» وعبدشمس مات في مكة، ونوفل في ارض
 العراق، والمطلب في ارض اليمن^(٢).

وكان من سجايا هاشم واخلاقه الفاضلة أنه كان كلّما هلّ هلال شهر
 ذي الحجة قام صبيحته، وأسند ظهره الى الكعبة المشرفة، وخطب قائلاً:
 «يامعشر قريش إنكم سادة العرب وأحسنها وجوهاً، وأعظمها احلاماً (اي عقولاً)
 وأوسط العرب (أي أشرفها) أنساباً، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً.
 يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله تعالى اكرمكم الله تعالى بولايته،
 وخصكم بجواره، دون بني إسماعيل، وانه يأتيكم زوّار الله يعظمون بيته فهم
 أضيافه وأحق من اكرم أضياف الله انتم، فأكرموا ضيفه وزوّاره، فانهم يأتون
 شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر كالقذاح، فأكرموا ضيفه وزوّار بيته، فورب
 هذه البنية لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه، وأنا مخرج من طيب مالي
 وحلاله مالم يُقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يُدخل فيه حرام، فمن شاء
 منكم ان يفعل مثل ذلك فعلى، وأسألکم بجرمة هذا البيت أن لا يخرج رجلٌ
 منكم من ماله لكرامة زوّار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع
 فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً»^(٣).

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٤. (٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٥. (٣) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٦.

ولقد كانت زعامه «هاشم» وقيادته نافعة للمكّيين من جميع النواحي، وكان لها تأثير كبير في تحسين أوضاعهم.

ولقد سبّب كرمه ومقام به من إطعام واسع في سنوات الجذب القاسية في تخفيف شدة الوطأة عن أهل مكة، وبالتالي ادى الى عدم احساسهم بالقحط، وآثار الجذب.

كما أنّ من خطواته البارزة واعماله النافعة جداً لتحسين الحالة التجارية للمكّيين هو ما عقده مع أمير «غسان» من المعاهدة، الأمر الذي دفع بأخيه «عبدشمس» إلى أن يعاهد أمير الحبشة، وبأخويه الآخرين «المطلب» و«نوفل» الى ان يعاهدا أمير اليمن وملك ايران تكون القوافل التجارية بموجب تلك المعاهدات للجانبين في أمان، من العدوان والتعرض.

وقد أزالته هذه المعاهدات الكثير من المشاكل، وكانت وراء ازدهار التجارة في «مكة المكرمة» حتى عهد بزوغ شمس الإسلام.

ثم ان من أعمال «هاشم» وخطواته النافعة تأسيسه لرحلتي قريش اللتين يتحدث عنها القرآن الكريم اذ يقول: «رحلة الشتاء والصيف» وهما رحلة إلى الشام، وكانت في الصيف، ورحلة الى اليمن، وكانت في الشتاء، وقد استمرت هذه السيرة حتى ما بعد ظهور الإسلام ايضاً.

أمية بن عبدشمس يحسد هاشماً:

ولقد حسد «أمية بن عبدشمس» ابن أخي هاشم عمّه «هاشماً» على ما حظي به من المكانة و العظمة، والنفوذ الى قلوب الناس وجذبها نحوه بسبب خدماته وأياديه، وما كان يقوم به من بذل وانفاق، وحاول جاهداً ان يقلده ويتشبه بهاشم في سلوكه ولكنه رغم كل ما قام به من جهود ومحاولات لم يستطع أن يتشبه به ويتخذ سيرته، وكما لم يستطع بايقاعه وطعنه به ان يُقلل من شأنه بل زاده رفعة وعظمة.

لقد كان لهيب الحسد في قلب «أمية» يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم، حتى

دفع به الى ان يدعو عمّه «هاشماً» للذهاب إلى كاهن من كهنة العرب للمنافرة عنده فتكون الرياسة والزعامة لمن يمدحه ذلك الكاهن، وكانت عظمة «هاشم» وسمو مقامه تمنع من منافرة ابن اخيه (أمية) إلا أنه رضي بالمنافرة هذه تحت اصرار (أمية) بشرطين:

١ - أن يعطي المغلوب خمسين من النياق سود الحدق تنحر بمكة.

٢ - جلاء المغلوب عن مكة عشر سنين.

ومن حسن الحظ أن ذلك الكاهن نطق بمدح «هاشم» بمجرد أن وقعت عيناه عليه فقال: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر... لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر» الى آخر كلامه. وهكذا قضى هاشم بالغلبة فأخذ الابل فنحرها وأطعمها واضطر أمية الى الجلاء عن مكة والعيش بالشام عشر سنين^(١).

وقد استمرت آثار هذا الحسد التاريخي إلى ١٣٠ عاماً بعد ظهور الإسلام، وتسببت في جرائم وفجائع كبرى عديمة النظير في التاريخ. ثم ان القصة السابقة مضافاً الى انها تبين مبدأ العداوة بين الأمويين والهاشميين تبين أيضاً علل نفوذ الأمويين في البيئة الشامية، ويتبين أن علاقات الأمويين العريقة بأهل هذه المنطقة هي التي مهّدت لقيام الحكومة الأموية في تلك الديار.

هاشم يتزوج...

كانت «سلمى» بنت «عمرو الخزرجي» امرأة شريفة في قومها، قد فارقت زوجها بطلاق، وكانت لا ترضى بالزواج من أحد، ولدى عودة «هاشم» من بعض أسفاره نزل في يثرب أياماً فخطبها إلى والدها، فرغبت سلمى فيه لشرفه في قريش، ولنبله وكرمها، ورضيت بالزواج منه بشرطين: أحدهما أن لا تلد ولدها

(١) الكامل لابن الاثير: ج ٢ ص ١٠، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٤.

إلا في أهلها، وحسب هذا الاتفاق بقيت «سلمى» مع زوجها «هاشم» في مكة بعض الوقت حتى إذا ظهر عليها آثار الحمل رجعت الى: «يثرب» وهناك وضعت ولداً اسمه «شيبه». وقد اشتهر في ما بعد به «عبدالمطلب».

وكتب المؤرخون في علة تسميته بهذا الاسم بأن هاشماً لما أحسن بقرب انصرام حياته قال لآخيه «المطلب»: يا أخي أدرك عبدك شيبه. ولذلك سُمِّيَ شيبه بن هاشم: «عبدالمطلب».

وقيل أن أحد المكيين مرَّ على غلمان يلعبون في زقاق من ازقة يثرب، وينتضلون بالسهام، ولما سبق أحدهم الآخرين في الرمي قال مفتخراً: «أنا ابنُ سيد البطحاء» فسأله الرجل عن نسبه وابيه فقال: أنا شيبه بن هاشم بن عبدمناف، فلما قدم الرجل مكة أخبر «المطلب» أخي «هاشم» بما سمعه ورآه، فاشتاق «المطلب» الى ابن أخيه فذهب الى المدينة، ولما وقعت عيناه على ابن أخيه «شيبه» عرف شبه أخيه هاشم، وتوسَّم فيه ملامحه، ففاضت عيناه بالدموع، وتبادلا قُبَلات الشوق، والمحبة، وأراد أن يأخذه معه الى «مكة» وكانت أمه تمنع من ذلك، ولكن ممانعتها كانت تزيد من عزم العم على أخذه الى «مكة» واخيراً تحققت أمنية العم فقد استطاع «المطلب» أن يحصل على إذن أمه، فأردفه خلفه وتوجه حذب «مكة» تدفعه رغبة طافحة الى إيصاله إلى والده هاشم.

وفعلت شمسُ الحجاز واشعتها الحارقة فعلتها في هذه الرحلة فقد غيّرت لون وجه شيبه وأبليت ثيابه، ولهذا ظنَّ أهل «مكة» عند دخوله مع عمه «مكة» أنه غلام اقتناه «المطلب» فكان يقول بعضهم لبعض: هذا عبدالمطلب، وكان المطلب ينفي هذا الامر، ويقول: إنما هو ابن أخي هاشم وما هو بعبدي، ولكن ذلك الظن هو الآخر فعل فعلته، وعُرف «شيبه» بعبدالمطلب^(١).

وربما يقال: أن سبب شهرته بهذا الإسم هو انه ترى وترعرع في حجر عمه

(١) الكامل لابن الاثير: ج ٢ ص ٦، وتاريخ الطبري: ج ٢ ص ٨ و ٩، السيرة الحلبية: ج ١ ص ٦.

«المطلب» وكانت العربُ تسمي من يترعرع في حجر أحد وينشأ تحت رعايته عبداً لذلك الشخص تقديراً لجهوده وتثميناً لرعايته.

٥ - عبدُ المطلب:

عبدُ المطلب بن هاشم وهو الجدُّ الأول للنبي صلى الله عليه وآله كان رئيس قريش وزعيمها المعروف، وكانت له مواقف بارزة، وأعمال عظيمة في حياته، وحيث إنَّ ما وقع من الحوادث في أيام حكمه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإسلام ولهذا يتعين علينا دراسة بعض تلكم الحوادث والوقائع. لاشك أن المرء مهما تمتع بنفسية قوية فانه سيتأثر- في المآل- ببيئته وعاداتها، وتقاليدها، التي تصبغ فكره، بصبغة خاصة، وتطبع عقله بطابع معين. بيد أن هناك بين الرجال من يقاوم تأثير العوامل البيئية بمنتهى الشجاعة والشجاعة، ويصون نفسه من التلوث بشيء من أدرانها وأقذارها. وبطلٌ حديثنا هنا هو احد النماذج الصادقة لاولئك الرجال العظماء لان في حياته صفحات مشرقة عظيمة، وسطوراً لامعة تنبئ عن نفسيته القوية، وشخصيته الشامخة.

فان الذي يعيش ثمانين عاماً في وسط اجتماعي تسود فيه الوثنية، ومعاقرة الخمر، والربا، وقتل الأنفس البريئة، والفحشاء حتى ان هذه الامور كانت من العادات والتقاليد الشائعة، ولكنه مع ذلك لم يعاقر الخمر طوال حياته، وكان ينهى عن القتل والخمر والفحشاء، ويمنع عن الزواج بالمحارم، والطواف بالبيت المعظم عرياناً، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد، واداء النذر بلغ الامر ما بلغ، هو -حقاً- نموذج صادق من الرجال الذين يندر وجودهم، ويقل نظيرهم في المجتمعات.

أجل إن شخصية اودعت يد المشيئة الربانية بين حناياها نور النبي الاكرم أعظم قائد عالمي، يجب ان يكون إنساناً طاهر السلوك، نقيّ الجيب منزهاً عن أي نوع من أنواع الانحطاط، والفساد.

هذا ويستفاد من بعض قصصه وكلماته القصار أنه كان أحد الرجال المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر في تلك البيئة المظلمة، وكان يردّد دائماً: «لَنْ يخرج من الدنيا ظلومٌ حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة... والله ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسنُ بإحسانه، ويعاقبُ فيها المسيءُ باسائه»^(١) اي ان الظلوم شأنه في الدنيا أن تصيبه عقوبة، فاذا خرج ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة.

ولقد كان «حرب بن أمية» من أقربائه، وكان من اعيان قريش ووجوهها أيضاً، وكان يجاور يهودياً فاتفق أن وقع بينه وبين حرب نزاع في بعض اسواق تهامة، تبودلت بينهما فيه كلمات جارحة، وانتهى ذلك إلى مقتل اليهودي بتحريك من «حرب»، ولما علم «عبدالمطلب» بذلك قطع علاقته بحرب، وسعى في أستحصال دية اليهودي المقتول من «حرب» ودفعها إلى اولياء القتل، وهذه القصة تكشف عن حبّ عبدالمطلب للمستضعفين والمظلومين وحبه للحق والعدل.

حَفْرُ زَمْرَم:

منذ أن ظهرت عين زمزم نزل عندها قبيلة جُرهم التي كانت بيدها رئاسة مكة طوال سنين مديدة، وكانت تستفيد من مياه تلك العين، ولكن مع ازدهار أمر التجارة في «مكة»، واقبال الناس على الشهوات والمفاسد آل الأمر إلى جفاف تلك العين، ونضوب مائها بالمرّة^(٢).

ويقال: أن قبيلة «جُرهم» لما واجهت تهديداً من جانب قبيلة خزاعة

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٤.

(٢) لاريب أن تفشي الذنوب والمعاصي بين الناس من عوامل نزول البلايا والكوارث ولايبعد أن تكون الأعمال المخزية من موجبات الجذب والقحط والمجاعات، وهذه الحقيقة مضافاً الى انطباقها على القواعد الفلسفية مما صرح به القرآن الكريم والسنة الشريفة، راجع سورة الاعراف الآية ٩٦.

واضطرت إلى مغادرة تلك الديار، وايقن زعيمها «مضاض بن عمرو» بانه سرعان ما يفقد زعامته، ويزول حكمه وسلطانه بفعل هجوم العدو، امر بان يُلقى الغزالان الذهبيان، والسيوف الغالية الثمن التي كانت قد أُهديت الى الكعبة، في قعر بئر زمزم، ثم يملأ البئر بالتراب ويعنى اثره إعفاء كاملاً حتى لايهتدي خصومه الى مكانه ابداً، حتى اذا عادت إليه زعامته وعاد الى مكة استخرج ذلك الكنز الدفين، واستفاد منه. ثم نشب القتال بين «جرهم» و«خزاعة» واضطرت «جرهم» وكثير من ابناء اسماعيل الى مغادرة «مكة المكرمة»، والتوجه إلى ارض اليمن، ولم يرجع أحدٌ منهم الى «مكة» ابداً.

ووقعت زعامة مكة منذ هذا التاريخ بيد «خزاعة» حتى بزغ نجم قريش في سماء مكة بوصول قصي بن كلاب (الجذ الرابع لني الإسلام) إلى سدة الزعامة والرئاسة، ثم بعد مدة انتهى امر الزعامة الى «عبدالمطلب» فعزم على أن يحفر بئر «زمزم» من جديد، ولكنه لم يعرف بموقع البئر معرفة كاملة حتى اذا عثر عليه بعد بحث طويل قرر ان يهيء هو وولده «حارث» مقدمات ذلك.

وحيث إنه «يوجد في المجتمع دائماً من يتحجج ويجادل- بسبب سلبيته- لينع من أي عمل ايجابي مفيد، انبرى منافسوا «عبدالمطلب» إلى الاعتراض على قراره هذا وبالتالي التفرد باعادة حفر بئر زمزم، لكيلا يذهب بفخر هذا العمل العظيم، وقالوا له: «إنها بئر أبينا اسماعيل، وان لنا فيها حقاً فاشركنا معك» ولكن «عبدالمطلب» رفض هذا الطلب لبعض الاسباب، فقد كان «عبدالمطلب» يريد ان يتفرد بحفر زمزم، ويسبل ماءها ليسيقي منها جميع الحجيج دون مانع ولا منازع، ويحول بذلك دون المتاجرة به ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا إذا قام بحفر زمزم بوحده دون مشاركة من قريش.

وقد آل هذا الأمر الى النزاع الشديد فتقرر أن يتحاكموا الى كاهن من كهنة العرب وعقلائهم والقبول بما يقضي به، فتوجه «عبدالمطلب» ومنافسوه الى ذلك الكاهن وقطعوا الصحارى القاحلة بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق أصابهم جهدٌ وعطش شديدان، ولما تيقنوا بالهلاك، وقرب الوفاة اخذوا

يفكرون في كيفية الدفن اذا هلكوا وماتوا، فاقترح «عبدالمطلب» ان يبادر كل واحد إلى حفر حفرة حتى إذا أدركه الموت دفنه الآخرون فيها، فاذا استمر بهم العطش وهلكوا يكون الجميع (ماعدا من بقي منهم على قيد الحياة) قد أقبروا، ولم تغد أبدانهم طعمة للوحوش والطيور فأيد الجميع هذا الاقتراح^(١)، واحتفر كل واحد منهم حفيرة لنفسه، وجلسوا ينتظرون الموت بوجوه واجهة، وعيون ذابلة، وفجأة صاح عبدالمطلب: «والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنا لعجزاً» وحثهم على البحث عن الماء في تلك الصحراء بصورة جماعية عسى ان يجدوا ماينقذهم من الموت، فركب عبدالمطلب وركب مرافقوه، واخذوا يبحثون عن الماء يائسين غير مصدقين، ولم يمض شيء حتى ظهرت لهم عين ماء عذبة انقذتهم من الموت المحتم، وعادوا من حيث جاؤوا وهم يقولون لعبدالمطلب: «قد والله قضى لك علينا يا عبدالمطلب، والله لانخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً وتنازلوا له لينفرد بحفر زمزم ويكون إليه أمره دون منازع، ولا شريك»^(٢).

فعمد «عبدالمطلب» وولده الوحيد الحارث الى حفر البئر، ونشأ من ذلك تل هائل من التراب حول البئر، وفجأة عثر «عبدالمطلب» على الغزالين المصاغين من الذهب، والسيوف المرصعة المهداة الى الكعبة، فشبّ نزاع آخريين «قريش» وبين «عبدالمطلب» على هذه الاشياء، واعتبرت «قريش» نفسها شريكة في هذا الكنز، وتقرر ان يلجأوا إلى القرعة لحل هذا المشكلة، فخرجت القرعة باسم «عبدالمطلب»، وصار جميع ذلك الكنز اليه دون «قريش»، ولكن عبدالمطلب خصّ بتلك الاشياء الكعبة فصنع من السيوف باباً للكعبة، وعلق الغزالين الذهبيين فيها.

(١) ولعلّ احجام الآخريين من الإدلاء بالاقتراح وهو اليأس المطلق من تحصيل الماء.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج ١ ص ٢٠٦، والسيرة النبوية: ج ١ ص ١٤٢-١٤٧.

التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر:

رغم ان العرب الجاهليين كانوا غارقين في الفساد الأخلاقي فانهم كانوا يتحلون ببعض الصفات الحسنة، والخصال المحببة.

وللمثال كان نقض العهود من أقبح الافعال في نظرهم، فاذا عقدوا عهداً مع القبائل العربية أوثقوها بالأيمان، المغلظة المؤكدة، والتزموا بها إلى الاخير، وربما نذروا النذور الثقيلة واجتهدوا في اداها مهما كلف ذلك من مشقة وثمان.

ولقد أحسَّ «عبدالمطلب» عند حفر بئر زمزم بالضعف في قريش لقلة اولاده، ولهذا نذر اذا رزقه الله تعالى عشرة بنين أن يقدم أحدهم قرباناً للكعبة ولم يُطْلِعَ احداً على نذره هذا.

ولم يمض زمان الآ وبلغ عددُ ابنائه عشرة، وبذلك حان أوان وفائه بنذره الذي نذر، وهو ان يذبح احدهم قرباناً للكعبة.

ولاشك ان تصور مسألة كهذه فضلاً عن تنفيذه كان امراً في غاية الصعوبة على عبدالمطلب، ولكنه كان في نفس الوقت يخشى ان يعجز عن تحقيق هذا الامر فيكون من الناقضين للعهد، التاركين لاداء النذر، ومن هنا قرر أن يشاور أبناءه في هذا الامر، وبعد ان يكسب رضاهم وموافقهم يختار احدهم للذبح بالقرعة^(١).

وتمت عملية القرعة، فاصابت «عبدالله» والد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاخذ عبدالمطلب بيد ابنه، وتوجّه من فوره إلى حيث يذبحه فيه.

ولما علمت قريش رجالها ونساؤها بقصة النذر المذكور وما آلت إليه عملية القرعة حزنَ الناس والشباب خاصة لذلك حزناً شديداً وبكوا وضجوا، وقال أحدهم ليتني ذبحت مكان هذا الشاب.

(١) هذه القضية ذكرها كثير من المؤرخين وكتاب السيرة، وهذه القصة إنما هي جديرة بالاهتمام من جهة أنها تجسد مدى إيمان «عبدالمطلب» وقوة عزمه، وصلابة إرادته، وتبين جيداً كم كان مصراً على الوفاء بعهوده والتزاماته.

فاقترحت قريشٌ على عبدالمطلب بان يفدي «عبدالله»، واظهروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز ذلك، فتحير «عبدالمطلب» تجاه تلك المشاعر الساخنة، والاعتراضات القوية، وراح يفكر في عدم الوفاء بنذره، ويفكر في نفس الوقت في الحصول على مخلص معقول من هذه المشكلة، فقال له أحدهم: لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً.

فوافق «عبدالمطلب» واكابر قريش على هذا الاقتراح، وتوجهوا بآجمعهم نحو «يثرب» قاصدين ذلك الكاهن، ولما قدموا عليه سألوه في ذلك فاستمهلهم يوماً واحداً، ولما كان اليوم الثاني دخلوا عليه فقال لهم: كم دية المرء عندهم؟ قالوا: عشرٌ من الإبل.

فقال: إرجعوا إلى بلادكم، وقربوا عشرًا من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم «أي عبدالله» القداح فان خرجت القرعة على صاحبكم فزيدوا عشرًا، حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداء.

فهذا اقتراح الكاهن لهيب المشاعر الملتهبة لدى الناس، لأن نحر مئات الإبل كان أسهل عليهم من أن يشاهدوا شاباً مثل «عبدالله» يتشحط في دمه. ولهذا فانهم فور عودتهم إلى «مكة» بادروا إلى اجراء القرعة في مجمع كبير من الناس وزادوا عشرًا عشرًا حتى اذا بلغ عدد الإبل مائة خرجت القداح على الإبل، ونجا «عبدالله» من الذبح، فأحدث ذلك فرحة كبيرة لدى الناس، بيد أن «عبدالمطلب» طلب أن تُعاد عملية القرعة قائلاً: «لا والله حتى أضرب ثلاثاً»، وأما أراد ذلك ليستيقن ان ربه قد رضي عنه، ولكن في كل مرة كانت القداح تخرج على الإبل المائة فنحرت الإبل ثم تركت لا يمنع عنها انسانٌ ولا سبع^(١).

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٥٣، وبحار الانوار: ج ١٦ ص ٧٤، وقد نُقلَ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يقصدُ بالأول جدّه إسماعيل عليه السّلام والثاني أباه «عبدالله» الذي كاد أن ينحر ولكنه نجا من الذبح كما نجا جدّه إسماعيل عليه السّلام.

حادثة عام الفيل:

عند ما يحدث أمرٌ عظيم في أمة من الأمم وخاصة إذا كان ذا جذور دينية أو ذا مدلولات قومية أو سياسية فإنه سرعان ما يتحول - بفعل إعجاب الناس عامة به - إلى مبدأ للتاريخ.

فقيام النبي موسى يعتبر مبدأ للتاريخ عند اليهود، ومولد السيد المسيح يعتبر مبدأ للتاريخ عند النصارى، والهجرة النبوية الشريفة تعتبر مبدأ للتاريخ عند المسلمين.

وهذا يعني أن كل أمة من الأمم تقيس حوادثها من حيث الزمان بذلك الحدث الذي تعتبره بداية تاريخها.

وأحياناً تتخذ الأمم والشعوب بعض الحوادث مبدأ للتاريخ مع أنها تملك مبدأ سياسياً للتاريخ، كما نلاحظ ذلك في بلاد الغرب وشعوبه، فقد اتخذت الثورة الفرنسية، وثورة أكتوبر الشيوعية مبدأ للتاريخ في فرنسا، والاتحاد السوفياتي، بحيث أصبح يقاس بهما كل ما وقع من الحوادث بعدهما.

ولكن الشعوب غير المتحضرة التي لم تمتلك مثل تلك الثورات والحركات السياسية والدينية كان من الطبيعي أن تتخذ الحوادث الخارقة للعادة مبدأ لتاريخها بدلاً من الثورات والتحويلات الاجتماعية، وهذا ما حدث عند العرب وقبل الإسلام.

فانهم - بسبب حرمانهم من حضارة صحيحة - اتخذوا من بعض الوقائع المفجعة والمرة - كالحرب والزلازل، والمجاعة والقحط أو الحوادث غير الطبيعية، الخارقة للعادة مبدأ لتاريخهم.

ولهذا نجد مبادئ متعددة للتاريخ عند العرب، آخرها: ضجة عام الفيل وهجوم «أبرهة» على «مكة» بهدف الكعبة المشرفة، التي صارت في ما بعد مبدأ للتاريخ تؤرخ - بقية الحوادث والوقائع اللاحقة.

ونظراً لأهمية هذا الحدث التاريخي العظيم الذي وقع عام ٥٧٠ واتفقت فيه

ولادة النبي الكريم صلى الله عليه وآله فاننا نتناول هذه القصة بالعرض والتحليل:

ماهي عوامل هذه الحادثة؟

لقد ذكرت قصة أصحاب الفيل في القرآن بصورة مختصرة، وسوف ننقل هنا- الآيات التي نزلت حول هذه القصة بعد حوادثها.

يكتب المؤرخون عن علة هذه الحادثة ان ملك اليمن «تبان أسعد» والد ذي نواس بعد ان أرسى قواعد حكمه مر في احدى رحلاته على يثرب (المدينة)، وقد كانت لـ«يثرب» في ذلك الوقت مكانةً دينيةً مرموقةً فقد قطنها جماعة من اليهود^(١)، وبنوا فيها عدداً من المعابد والهياكل، فأكرم اليهودُ مقدم ملك اليمن، ودعوه إلى دينهم ليستطيعوا في ظل حكمه حماية أنفسهم من أذى المسيحيين الروميين، والمشركين العرب.

ولقد تركت دعوتهم ومارافقها من اساليب مؤثرة اثرها في نفس ذلك الامير واختار اليهودية، واجتهد في بثها ونشرها. ثم ملك من بعده ابنه «ذونواس» الذي جدّ في بث اليهودية والتحق به جماعة خوفاً.

بيد أن اهل نجران الذين كانوا قد دانوا بالمسيحية قبل ذلك امتنعوا من تغيير دينهم وترك المسيحية واعتناق اليهودية، وقاوموا «ذي نواس» مقاومة شديدة، فشق ذلك على ملك اليمن، واغضبه فتوجه احد قادته الى نجران على رأس جيش كبير لتأديب المتمردين من أهلها فعسكر هذا الجيش على مشارف نجران، واحتفر قائده خندقاً كبيراً، واوقد فيه ناراً عظيمة، وهدد المتمردين بالاحراق بالنار. ولكن أهل نجران الذين احبوا المسيحية واعتنقوها برغبة كبيرة اظهروا شجاعة كبرى، واستقبلوا الموت حرقاً، وغدوا طعمة للنيران.

يقول المؤرخ الإسلامي «ابن الأثير الجزري» بعد ذكر هذه القصة: لما قتل

(١) وفاء الوفا : ج ١ ص ١٥٧، والسيرة النبوية: ج ١ ص ٢١ و ٢٢.

«ذونواس» من قتل في الأخدود لاجل العود عن النصرانية أفلت منهم رجلٌ يقال له «دوس» فقدم على «قيصر» فاستنصره على «ذي نواس» وجنوده واخبره بما فعل بهم، فقال له قيصر: بعدت بلادك عنا، ولكن ساكتبُ الى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم، فكتب قيصر الى ملك الحبشة يأمره بنصره، فارسل معه ملكُ الحبشة سبعين ألفاً، وأمر عليهم رجلاً يقال له «أرباط» وفي جنوده «ابرهة الأشرم» فساروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمن، وجمع «ذونواس» جنوده فاجتمعوا وكتب الى زعماء قومه من اهل اليمن يدعوهم الى الاجتماع لمقاتلة عدوهم، فلم يجيبوه، فانهارت حكومته أمام حملة جيش الحبشة، وسيطر الاحباش على ارض اليمن، وجُعِلَ «أبرهة» اميراً عليها من قبَل «النجاشي» بعد مقتل «أرباط» على يد «أبرهة» في صراع على السلطة^(١).

وهذه القصة هي التي تعرف في القرآن الكريم بقصة «اصحاب الأخدود» وقد جاء ذكرها في سورة البروج اذ يقول الله تعالى: «قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ. إِذْهُمْ عَلَيْهَا قُوعُودٌ. وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»^(٢).

وقد ذكر المفسرون هذه القصة في شأن نزول هذه الآيات بصورة مختلفة^(٣). ثم ان «ابرهة» الذي اسكره الانتصار والغلبة على منافسه، وتمادى في الشهوات بنى في صنعاء كنيسة عظيمة تقرباً الى ملك الحبشة، وارضاه له ثم كتب كتاباً الى «النجاشي» ملك الحبشة يقول فيه: «إني قد بنيتُ لك ايها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمُنته حتى أصرف اليها حج العرب».

(١) الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٢٦٠-٢٦٣، والسيرة النبوية: ج ١ ص ٣١-٣٧.

(٢) البروج: ٤ - ٩. (٣) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

وقد أدى معرفة العرب بما جاء في هذا الكتاب إلى ردّة فعل شديدة لديهم، إلى درجة أن امرأة من قبيلة «بني اقم» تسللت ذات ليلة إلى تلك الكنيسة وحدثت فيها، فأثار هذا العمل الذي كان يدل على مدى ازدياد العرب بكنيسة «أبرهة» واحتقارهم لها، غضب «أبرهة»، هذا من جانب ومن جانب آخر كان «أبرهة» كلما زاد في تزيين تلك الكنيسة زاد ذلك من حقد العرب، وحنقهم عليه، واحتقارهم لكنيسته، فتسبب كل ذلك في أن يحلف أبرهة على السير إلى الكعبة وهدمها، فسير لذلك جيشاً عظيماً، وقدم أمامه الفيّلة المقاتلة، وخرج متوجهاً صوب مكة وهو يعتزم هدم الكعبة بيت الله الحرام!!

فلما عرف زعماء العرب بغايته، وادركوا خطورة ذلك العمل وابقنوا بان استقلال العرب وسيادتهم تتعرض لخطر السقوط، لم يمنعهم ماعهدوه من قوة «أبرهة» وانتصاراته بل خرج بعضهم إلى حربه فقاتلوه بكل شجاعة وبسالة مدفوعين بدافع الغيرة والحفاظ على الشرف المهّد بالخطر.

فقد خرج «ذونفر» وهو من أشرف أهل اليمن وملوكهم، ودعا قومته ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب «أبرهة» ولكن سرعان ما تغلب «أبرهة» عليه بجيشه الكبير، ثم خرج له بعد ذلك «نفيل بن حبيب» وبقي يقاتله مدة طويلة فهزمه «أبرهة» وأخذ له اسيراً، فطلب «نفيل» العفو منه فاشترط عليه أن يده على طريق مكة ليعفو عنه، فده نفيل حتى الطائف، واوكل الدلالة على بقية الطريق إلى شخص آخر يدعى «أبورغال» فده أبو رغال على الطريق حتى أرض «المغمس» وهي منطقة قريبة من «مكة» فنزل «أبرهة» وجيشه بالمغمس، فأرسل أبرهة رجلاً من الحبشة على عادته إلى ضواحي «مكة» فاستولى على أموال قرش من الإبل والغنم فساق إليه في جملة ذلك مائتي بعير لعبد المطلب، ثم أمر رجلاً آخر يدعى «حناطة» ليدخل «مكة» ويبلغ أهلها عنه ما جاء من أجله، وهو هدم البيت المحرم الكعبة المعظمة، وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إن الملك يقول لك: «إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي في

دمائكم» فإن هو لم يرد حرني فأتني به.
فدخل «حُناطة» مكة ولما سأل عن سيد قريش وشريفها، وقد كانت قبائل قريش المختلفة قد تجمعت في اطراف البلد جماعات جماعات تتذاكر في امر «ابرهة» وما يجب اتخاذه من موقف تجاهه.

فدلّوه على بيت «عبدالمطلب»، ولما دخل على «عبدالمطلب» أبلغه مقالة «أبرهة» فقال له عبدالمطلب: «والله ما نريدُ حرته، ومألنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السّلام، فان يمنع منه فهو بيته وحرمه، وان يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه»؟

فسرّ «حناطة» رسول ابرهة بمنطق عبدالمطلب ومقالته التي كانت تحكي عن قوة ايمانه، وعن روحه المسالمة فطلب منه أن يصحبه الى «أبرهة»، قائلاً: فانطلق معي اليه، فانه قد امرني أن آتية بك.

عبدالمطلب يذهب الى معسكر أبرهة:

فتوجه عبدالمطلب هو وجماعة من ولده إلى معسكر ابرهة، فاعجب «أبرهة» بوقار رئيس قريش وهيبته إعجاباً شديداً، وهربه حتى أنه نزل له من تحتة اجلالاً، واخذ بيده، واجلسه الى جنبه، فسأله عن طريق مترجمه متأدياً: ما الذي اتى به وماذا يريد؟ فاجابه عبدالمطلب قائلاً: حاجتي أن يرّد الملكُ عليّ مائتي بعير أصابها لي.

فقال «أبرهة» لترجمانه: قل له: قد كنت اعجبتي حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبْتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟!!

فقال له عبدالمطلب: إني أنارُبُ الإبل، وان للبيت رياً سيمنعه، فقال «أبرهة» مغتراً بنفسه: ما كان ليمتنع مني.
ثم أمر بان ترد الابل إلى أصحابها.

انتظار قريش:

ولقد انتظرت قريش عودة «عبدالمطلب» من معسكر «أبرهة» بفارغ الصبر لتعرف نتيجة ما دار بينه وبين أبرهة، وعندما عاد «عبدالمطلب» اخبرهم الخبر، وامرهم بالخروج معه من مكة، والتحرز في رؤوس الجبال من معرة الجيش فخرجوا الى الشعاب، والجبال، ثم لما كان الليل نزل عبدالمطلب مع جماعة من قريش الى الكعبة واخذ بحلقة بتابها يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال «عبدالمطلب» مناجياً الله سبحانه: «اللَّهُمَّ أَنْتَ أَنْيَسُ الْمَسْتَوْحِشِينَ وَلَا وَحْشَةَ مَعَكَ فَالْبَيْتِ، بَيْتِكَ وَالْحَرَمُ حَرَمِكَ وَالِدَارُ دَارُكَ وَنَحْنُ جِيرَانُكَ تَمْنَعُ عَنْهُ مَا تَشَاءُ وَرَبُّ الدَّارِ أَوْلَىٰ بِالدَّارِ» ثم قال:

(١) لَاهِمَ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْمَةً
لَهُ فَا مَنَعَ جِلَالِكَ (٢)
لَا يَغْلِبُنَّ صَلِيبُهُمْ
وَمَحَالُهُمْ عَدَاؤُا مِحَالِكَ (٣)
وَقَالَ أَيْضاً:

يَارَبِّ لَا أَرْجُوهُمْ سِوَاكَ
يَارَبِّ فَا مَنَعَ مِنْهُمْ جِمَاكَ
إِنْ عَدَاؤَ الْبَيْتِ مَنَ عَادَاكَ
إِمْنَعُهُمْ أَنْ يَخْرُتُوا فِينَاكَ

ثم انه ترك حلقة الباب، ولجأ الى الجبل لينظروا ماسيجري.

وفي الصباح وعندما كان «أبرهة» وجنده يستعدون للتوجه الى «مكة»، واذا بأسراب من الطيور تظهر من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة احجار، حجر في منقاره، وحجرين في رجليه، فاظلم سماء الجيش بتحليق تلك الطيور فوق رؤوس الجند، وتركت تلك الاحجار الصغيرة الحقيرة في ظاهرها اثرها العجيب فقد رجمت تلك الطيور جنود «ابرهة» بتلك الاحجار بامر الله، فكانت لا تصيب منهم أحداً إلا تحطم رأسه، وتمزق لحم بدنه، وهوى صريعاً،

(١) لاهم أصلها: اللهم والعرب تحذف الالف واللام وتكتفي بما بقي.

(٢) الحلال جمع حلة وهي جماعة البيوت. (٣) المحال: القوة والشدة

وهلك من توه، فاصابت واحدةً من تلك الاحجار رأس «ابرهة» نفسه فارتعدت فرائصه وايقن بغضب الله وسخطه عليه، فنظر الى جنوده وهم أشلاء مبعوثون هنا وهناك على الأرض كورق الشجر في فصل الخريف، فصاح بمن لم يزل على قيد الحياة من جنده بامرهم بأن يتهياً والعودة الى اليمن، من حيث أتوا، فاخذ بقية الجند طريق اليمن هارين، غير أن هذه البقية قد هلكت شيئاً فشيئاً في أثناء الطريق حتى أن أبرهة نفسه بعد أن لم يصل الى صنعاء إلا بعد ان تفرق لحمُ بدنه، وسقطت اعضاؤه وجوارحه ومات بصورة عجيبة.

وقد دَوَّى صوتُ هذه الواقعة العجيبة والرهيبة في العالم آنذاك ، وقد ذكرها القرآن التكريمُ في سورة الفيل اذ يقول تعالى: «الْم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ».

وما ذكرناه هنا- في هذه الصفحات- ليس هو في الحقيقة إلا خلاصة ما ورد في كتب التاريخ الإسلامي، وصرح به القرآن الكريم^(١).

واستكمالاً لهذا البحث نعمد هنا إلى دراسة نظرية المفسر المصري الكبير الشيخ «محمد عبده» والعلامة المعروف الدكتور «هيكل» وزير الثقافة المصري السابق في هذا المجال.

كلمة حول المعجزة:

لقد أوجد التقدم العلمي الأخير في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والفضائية، وما استلزم ذلك من تهافت طائفة كثيرة من الفرضيات، ضجة عجيبة في الغرب، فمع أن جميع تلك التطورات كانت مجرد تطورات علمية تجري في مجال المسائل الطبيعية أو الفلكية، ولم يكن لها أية صلة بالمعتقدات الدينية

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٣ - ٦٢، والكامل في التاريخ: ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦٢، وبحار الأنوار: ج ٥

فإنّ هذا التحول والتطور وتلك الكشوف أوجدت شكاً عجيباً لدى بعض الناس انسحب على جميع المعارف والمعتقدات الدينية الموروثة على وجه الاطلاق! والسرّ في ذلك هو أن العلماء رأوا بأن الفرضيات القديمة، التي بقيت تسيطر على الأوساط العلمية لمدة طويلة من الزمان، قد اصبحت اليوم عرضةً للبطلان والسقوط تحت مطارق التجربة وبواسطة الاختبارات العلميّة، والتحقيقات المخبرية، فلم يُعد -بعد هذا- مجالاً للقول بفرضية الافلاك التسعة التي ظلع بها «بطلميوس»، ولا بفرضية مركزية الارض، ولا غيرها من عشرات الفرضيات، فقالوا في أنفسهم: ومن أين ترى لا تكون بقية المعلومات والمعارف الدينية من هذا القبيل؟!!

وقد تفاقم هذا النوع من الشك في قلوب جماعة من العلماء بالنسبة الى جميع المعتقدات والمعارف الدينية ونمى بشكل قويّ في فترة قصيرة، وعمّ الاوساط العلمية كأَيّ مرض!!

هذا مضافاً إلى أنّ محاكم التفتيش وتشدّد الكنيسة وأربابها كان لها النصيب الاكبر في ظهور هذه الحالة بل في نموّها، واطرادها، لأن الكنيسة كانت تقضي على العلماء الذين نجحوا في اكتشاف القوانين العلمية تحت التعذيب والاضطهاد القاسي بحجة أنها تخالف الكتاب المقدس، وتعارض مقرّرات الكنيسة!!

ومما لا يخفى أنّ مثل هذه الضُغوط، وهذا الاضطهاد والتعجرف ما كان ليبراً من دون حدوث ردة فعل، وقد كان من المتوقّع منذ البداية أن العلماء في الغرب لو اتاحت لهم الفرصة لانتقموا من الدين، بسبب سوء تصرف الكنيسة، وسوء معاملتهم لهم خاصة، وللناس عامة.

وقد حدث هذا فعلاً فكلّما تقدم العلمُ خطوةً، واطلع العلماء على العلاقات السائدة بين الكائنات الطبيعية، واكتشفوا المزيد من الحقائق الكونية، والعلل الطبيعية لكثير من الحوادث والظواهر المادية، وكذا علل الامراض، قلّ اعتناؤهم بالقضايا الميتافيزيقية، وما يدور حول المبدأ والمعاد والافعال الخارقة للعادة

كمعاجز الانبياء، وازداد عدد المنكرين لها والشاكن فيها، والمترددین في قبولها يوماً بعد يوم!!

لقد تسبب الغرور العلمي الذي أصيب به العلماء في الغرب في أن ينظر بعض أولئك العلماء الى جميع القضايا الدينية بعين الازدراء والتحقير، وأن يمتنعوا حتى عن التحدث في المعاجز التي يخبر بها التوراة والانجيل، ويعتبروا عصي موسى عليه السلام، ويده البيضاء، ونبغة المسيح عليه السلام التي كانت تشفي المرضى وتحيي الموتى من الأساطير، وراحوا يتسائلون - في عجب واستنكار -: وهل يمكن أن تتحول قطعة من الخشب اليابس إلى أفعى، أو ثعبان، أو هل يمكن ان تعود الحياة إلى ميتٍ بكلمات من الدعاء؟

لقد تصور العلماء الذين أسكرتهم فتوحاتهم العلمية، أنهم ملكوا مفاتيح جميع العلوم، ووقفوا على جميع العلاقات بين الكائنات الطبيعية والظواهر الكونية، ومن هنا تصوّروا أنه لا توجد أية علاقة بين قطعة الخشب والثعبان، أو بين جملة من الدعاء والتفاتة من بشر وعودة الروح الى الموتى، ولهذا أخذوا ينظرون الى هذه الامور بعين الشك والترديد، وربما بعين الانكار والرفض المطلق!!

وقد سرى هذا النوع من التفكير الى اوساط بعض العلماء المصريين الذين تأثروا بهذا الاتجاه اكثر من غيرهم، مع بعض التعديل في ذلك الموقف، وشيء من الاختلاف في النظرة المذكورة، ولهذا اتبعوا تلك السيرة في تحليل الوقائع والحوادث التاريخية والعلمية من هذا النوع، والسير في تأثر بعض علماء مصر بهذه النظرة قبل واكثر من غيرهم هو احتكاك هذه الجماعة بالأفكار الواردة من الغرب قبل غيرهم، ومن هذه المنطقة سرت بعض النظريات والآراء الغربية إلى البلاد الإسلامية الأخرى.

لقد اختار هؤلاء طريقاً خاصاً قصّدوا به الحفاظ على حرمة الكتاب العزيز، والاحاديث القطعية ومكانتها من جهة، وكسب نظر العلماء الماديين الطبيعيين الى انفسهم من جهة أخرى، أو ارادوا ان لا يختاروا ما لا يمكن التوفيق بينه وبين القوانين العلمية الطبيعية وتطبيقه عليها.

لقد وجد هؤلاء من جهة أن القرآن الكريم يخبر عن سلسلة من المعجزات والخوارق التي لا يمكن تفسيرها بالعلوم العادية المتعارفة، لأن العلم لا يستطيع أن يدرك العلاقة بين العصا الخشبية اليابسة والشعبان، ومن جهة أخرى كان القبول بالنظريات التي لا يمكن إثباتها بالحس والتجربة أمراً في غاية الصعوبة لهم.

ولهذا السبب، وفي خضم الصراع بين هذين العاملين: العلم والعقيدة، اختار هؤلاء الكتاب والعلماء نهجاً يستطيعون به وضع نهاية لهذا الصراع، والتنازع، فيحافظون على ظواهر القرآن والاحاديث من جانب، ويتجنبون القول بما يخالف منطق العلم من جانب آخر، ويتلخص هذا النهج في تفسير جميع المعاجز وجميع خوارق العادة التي جرت على أيدي الأنبياء بالموازين العلمية الحاضرة الرائجة في هذا العصر بصورة تبدو وكأنها أمور طبيعية، وهذا يكون قد حافظوا على مكانة القرآن الكريم والاحاديث القطعية المسلمة، ولم يتفوهوا بما يخالف العلم الحديث ويتعارض مع معطياته.

و نحن هنا نذكر من باب النموذج والمثال: التفسير الذي ذكره العلامة المصري المعروف «محمد عبده» لقصة اصحاب الفيل وما جرى لهم: فهو يقول عند تفسيره لسورة الفيل:

«فيجوز لك ان تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بارجل هذه الحيوانات، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه فاثار فيه تلك القروح التي تنتهي بافساد الجسم وتساقط لحمه، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدّ من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير -الذي يسمونه الآن بالميكروب- لا يخرج عنها»^(١).

(١) راجع تفسير في ظلال القرآن: ج ٣٠ ص ٢٥١.

وقال أحد الكتاب مؤيداً هذا الاتجاه بقوله: «إن الطير المستعمل في الكتاب العزيز يراد منه مطلق مايطير، ويشمل الذباب والبعوض ايضاً»
ولابدّ - قبل دراسة هذه الأقوال - أن نستعرض مرة أخرى الآيات النازلة في اصحاب «الفيل».

يقول الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ».

إن ظاهر هذه الآيات يفيد أن جيش أبرهة أصيب بالغضب والسخط الالهي، وان هلاكه وفناءه كان بهذه الأحجار التي حملتها تلك الطيور، وألقت بها على رؤوس الجند وأبدانهم.

إن الإمعان في مفاد هذه الآيات يعطي أن موتهم كان بسبب هذه الاسلحة غير الطبيعية (الصغيرة الحقيرة في ظاهرها، القوية الهدامة بفعلها وأثرها).
وعلى هذا فإن أي تفسير يخالف ظاهر هذه الآيات لا يمكن الذهاب اليه وحمل الآيات عليه مالم يقيم على صحته دليل قطعي.

نقاط تقتضي التأمل في التفسير المذكور:

١ - إنَّ التفسير المذكور لا يستطيع كذلك أن يجعل كل تفاصيل هذه الحادثة أمراً طبيعياً، بل هناك جوانب في تلك الواقعة التاريخية العجيبة لا بد من تفسيرها بالعوامل والاسباب الغيبية، لأنه مع فرض أن هلاك الجند وتلاشي أجسادهم تم بواسطة ميكروب: «الحصبة» و«الجدري»، ولكن من الذي ارشد تلك الطيور الى تلك الاحجار الصغيرة الملوثة بميكروب الحصبة والجدري، فتوجهت بصورة مجتمعة الى تلك الاحجار الخاصة بدل التوجه إلى الحَبِّ والطعام، ثم كيف بعد حمل تلك الأحجار بمناقيرها وأرجلها حلقت فوق معسكر «أبرهة» ورجمت جنده كما لو أنها جيش منظم موجه؟؟
هل يمكن إعتبار كل ذلك أمراً عادياً، وحدثاً طبيعياً؟

ترى لو أننا فسّرنا طرفاً من هذه الحادثة العظيمة والعجيبة بالعوامل الغيبية، وبارادة الله النافذة فهل تبقى مع ذلك أية حاجة الى أن نفسّر جانباً من هذه الحادثة بتفسير طبيعي مألوف، ونركض وراء التوجيهات الباردة، لنجعلها امراً مقبولاً.

٢ - إنّ الكائنات الدقيقة، او مايسمى الآن بـ«الميكروب» لاشك انها عدوة لمطلق الإنسان، وليست بصديقة لهذا أو ذاك، ومع ذلك كيف توجهت الى جنود «ابرهة» وقتلتهم دون غيرهم، وكيف نسيت المكّين بالمرّة؟! إنّ التاريخ المدوّن يثبت لنا أن جميع الضحايا في هذه الواقعة العظيمة كانوا من جند «ابرهة» ولم يلحق فيها: أيّ أذى -إطلاقاً- بقريش، وغيرهم من سُكان الجزيرة العربية، في حين أن الحصبة والجُدريّ من الأمراض المعدية، التي تنقلها العوامل الطبيعية كالرياح وغيرها من منطقة إلى أخرى، ورُبّما تُهلك اهل قطر باجمعهم.

فهل مع هذا يمكن أن نعدّ هذه الحادثة حدثاً طبيعياً عادياً؟!!

٣ - ان اختلاف هذا الفريق في تحديد نوعية الميكروب، يضني على هذا الادعاء مزيداً من الإبهام، ويجعله أقرب الى البطلان. فتارة يقولون: انه ميكروب الوباء وتارة أخرى يقولون: انه داء الحصبة والجُدري، في حين اننا لم نجد مستنداً صحيحاً لهذا الخلاف، ومبرراً وجيهاً لهذا الاختلاف، اللهمّ إلا مااحتمله «عكرمة» من بين المفسرين، وعكرمة هو نفسه موضع نقاش بين العلماء والآلما ذهب «ابن الاثير». من بين المؤرخين وارباب السير الى ذكر هذا الرأي في صورة الاحتمال الضعيف، والقييل، ثم عاد فردّ هذا القول فوراً^(١).

والأعجب من الجميع ماأعطاه مؤلف كتاب «حياة محمّد» الدكتور هيكل وزير المعارف المصري السابق من تفسير، عند ذكر قصة القيل.

فهو بعد ذكر تلك القصة سرد آيات سورة الفيل، ومع أنه أتى بقول الله تعالى «وأرسل عليهم طيراً أبابيل» قال عن هلاك جنود أبرهة: «ولعلّ جرائم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدو أبرهة نفسه»^(١) فإذا كان الذي جاء بهذا الميكروب هو الريح، فلماذا حلقت طيورُ الأبابيل على رؤوس جيش أبرهة، وألقت بالأحجار الصغيرة على رؤوسهم ودون غيرهم، وأي أثر كان لهذه الأحجار في هلاك أولئك الجنود وموتهم؟

فالحق هو: أن لا يُتبع هذا النمط من التفكير، وأن لا نسعى لتفسير معجزات الأنبياء -الكبرى- بمثل هذه التأويلات والتفسيرات، بل إن طريق المعجزات والإعجاز أساساً يختلف عن طريق العلوم الطبيعية التي تتحدد دائرتها بمعرفة العلاقات العادية بين الظواهر الطبيعية، ولهذا يجب علينا أن لا نعلمد -ارضاء لهوى جماعة ممن لا يمتلكون أية معلومات دينية، وليست لديهم أية معرفة بهذا النوع من القضايا - إلى التنازل عن أسسنا الدينية المسلّمة، في حين لا توجد أية حاجة مُلزمة إلى مثل ذلك التنازل والاعتذار!

نقطتان هامتان:

وهنا لا بد من أن نذكر بنقطتين هنا:

الأولى: يجب ان لا يظن أحدٌ -خطأً- أننا بما قلناه هنا نريد تصحيح كل ماتلوكة ألسنُ الناس، وتنسبه إلى الانبياء العظام، أو إلى عباد الله الكرام، من دون أن يكون له أي سند صحيح أو وجه معقول بل وربما اتّسم بطابع الخرافة في بعض الاحيان والموارد.

بل مقصودنا هو: أن نثبت -وطبقاً للمصادر الصحيحة والقطعية المتوفرة- أن الأنبياء كانوا يقومون -لأثبتات ارتباطهم بما وراء هذه الطبيعة- بأعمال خارقة للعادة، خارجة عن الناموس الطبيعيّ المألوف، تعجز العلوم الطبيعية الراجحة عن

(١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل: ص ١٠٢ و ١٠٣.

إدراك عللها، وأسبابها.

فهذهنا هو الدفاع عن هذه الطائفة من المعاجز.

الثانية: إننا لانقول مطلقاً: أنَّ وجود المعجزة هو تخصيص لقانون العلية العام، بل اننا في الوقت الذي نحترم فيه هذا القانون المسلم نعتقد بأن لجميع حوادث هذا العالم عللاً خاصة واسباباً معينة، وأنه من المستحيل أن يوجد شيء بعد عدمه من دون علة، بيد أننا نقول ان هذه الطائفة من الظواهر والوقائع (أي المعاجز) عللاً غير طبيعية، وان هذه العلل ميسرة ومتاحة لأنبياء الله ورسله والرجال الإلهيين خاصة، وليس في مقدور أحد - لم يستطع لاعن طريق الحس ولاعن طريق التجربة أن يكتشف هذه العلل - أن يتنكر لها، وينكرها، بل ان جميع الاعمال الخارقة التي يقوم بها أنبياء الله ناشئة عن علل لايمكن تفسيرها بالعلل الطبيعية المألوفة، ولو أنها خضعت للتفسير والتوجيه لخرجت عن كونها معجزة، ولم يصدق في حقها عنوان الاعجاز.

ولكي نقف على حقيقة هذا الامر، ونعرف مدى بطلان المذهب المذكور (مذهب تفسير الخوارق والمعاجز بالتفسير المادي والمألوف المحض) ينبغي أن نتبسط قليلاً في شرح مسألة الاعجاز ونبحث في مدى علاقتها بقانون العلية العام.

بحث علمي حول المعجزة في خمس نقاط:

إن الحديث العلمي عن المعجزة لابد أن يتركز على عدة نقاط أساسية هي:

١ - ماهي المعجزة وماهو تعريفها؟

٢ - هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟

٣ - هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير عادية فقط؟

٤ - كيف تدل المعجزة على صدق ادعاء النبوة؟

٥ - كيف وبماذا نميز المعجزة عن الخوارق الأخرى؟

إنَّ الاجابة على هذه الأسئلة كفيلة بتوضيح حقيقة المعجزة، وبيان مدى

بطلان الاتجاه المذكور نعي: تفسير المعاجز بالتفسير المادي الطبيعي.

على أننا - نظراً لضيق المجال - سنختصر الجواب على هذه الأسئلة، وعلى من أراد التوسع أن يرجع إلى كتب الكلام والعقيدة.

١ - ماهي المعجزة وما هو تعريفها؟

لقد عرّف علماء العقيدة المعجزة بتعاريف مختلفة أتقنها وأكملها هو: إن المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالدعوى، والتحدّي، مع عدم المعارضة، ومطابقة الدعوى^(١).

ويعني الشرطُ الأوّلُ (أي كون المعجزة أمراً خارقاً للعادة) أن كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية الحادثة مرتبطة بعلة حتماً، فلا يمكن صدورها من دون علة، وهذا الكون مشحون بالعلل التي يكتشفها البشر شيئاً فشيئاً وتدرجاً عبر وسائله العادية أو العلميّة، ولكنّ المعجزة مع كونها ظاهرة واقعية ولهذا فهي كغيرها مرتبطة بعلة، بيد أنها تختلف عن غيرها من الظواهر في أنّ من غير الممكن كشف عللها من الطريق العادية أو بواسطة التجارب والتحقيقات العلميّة، ولا يمكن تفسيرها وتبريرها بالعلل العادية أو بما يكتشفه العلم من العلل لمثل هذه الحوادث، والمقصود من خرق العادة هو أنّ تقع المعجزة على خلاف ما عهدناه وتعودنا عليه في الظواهر الأخرى وعللها، مثل إشفاء المرضى من دون علاج ودواء كما هو المعهود، وإخراج الماء من صخرة صماء من دون حفر أو تنقيب كما هو المألوف، وتحويل العصا إلى أفعى من دون تبييض وتفريخ وتوالد وتناسل، بل بمسح من يد، أو بعبارة من لسان، أو بضرب من عصا!!

من هنا نكتشف أنّ كل ظاهرة يقف الناس العاديون بالطرق العادية أو العلماء خاصة بالطرق العلمية على عللها وأسبابها لا تكون معجزة لأنّه في هذه

(١) راجع للوقوف على هذا التعريف: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلّي شرحاً والمحقق نصيرالدين الطوسي متناً: ص ٢١٨، وأيضاً شرح تجريد الاعتقاد للعلامة القوشجي:

الصورة لم يقع أي شيء على خلاف العادة، والمألوف ليدل على مزية في الانبياء.

فان مثل هذه الظاهرة التي يكون لها علةٌ عاديةٌ يعرفها جميعُ الناس، أو سببٌ علمي خاص يعرفها علماء ومتخصصوا ذلك العلم يمكن أن يقوم بايجاد أمثالها جميعُ الناس، فلا يكون حينئذٍ معجزة.

ولا يعني هذا -وكما اسلفنا- أنَّ المعجزة لا تنتهي الى أية علة، أصلاً، بل هي تستند إلى علة غير متعارفة وغير عادية، ولزيد التوضيح سنبحث في هذا المجال عندالاجابة على السؤال الثالث.

و يُقصد من الشرط الثاني (أي كون الاعجاز مقروناً بالدعوى) أن يدعي صاحبُ المعجزة النبوة والسفارة من جانب الله تعالى، ويأتي بالمعجزة دليلاً على صحة دعواه هذه، إذ في غير هذه الصورة لا يكون الأمرُ الخارق للعادة معجزةً بل يُطلق عليه في الاصطلاح الديني لفظ «الكرامة» كما كان لمريم بنت عمران التي كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً فاذا سأها من أين لها ذلك؟ قالت: هو من عندالله^(١).

و يعني الشرط الثالث أن يكون الاعجاز مقروناً بدعوة الناس الى الإتيان بمثله، وعجز الناس عن هذه المعارضة، وعدم قدرتهم على الاتيان بمثله مطلقاً إذ في هذه الصورة يتضح أنَّ النبي يعتمد على قوة الهية غير متناهية، قوة خارجة عن حوزة البشر العادي.

واما الشرط الرابع فيعني أن الامر الخارق للعادة إنما يكون عملاً إعجازياً، ويستحق وصف المعجزة الدالة على ارتباط الآتي بها بالمقام الالهي، إذا وافق الامرُ الواقع ما يدعي أنه قادر على الأتيان به.

فلو قال: سأجعلُ هذا البئر الجاف الفارغ من الماء، يفيض بالماء باشارة اعجازية، ثم يقع ماقاله كان هذا الأمر معجزة حقاً، وأما إذا قال: سأجعل هذا

(١) راجع سورة آل عمران: ٣٧.

الماء القليل الموجود في البئر يفيض ماء، بالإعجاز، ولكن جف ذلك البئر على عكس ما قال، لم يكن ذلك إعجازاً، بل كان تكذيباً لمدعيها.
هذا هو خلاصة ما يمكن أن يُقال حول تعريف المعجزة والاعجاز وهو يساعد على فهم طبيعة العمل الإعجازي.

٢ - هل الاعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟

و بهذا يتضح جواب السؤال المطروح في هذا المجال وهو أن يقال: إن قانون العلية (أي: ارتباط كل معلول حادث بعلة) مما ارتكز عليه الذهن البشري وقبله العلم والفلسفة، ولذلك فإننا نلاحظ: كلما وقف الإنسان على ظاهرة مهما كانت - بحثاً عن علتها فوراً فإذا رأى حية - مثلاً - عرف بان علتها الطبيعية هي أن تبيض حية، ثم خروج حية من البيض بعد سلسلة من التفاعلات فكيف يمكن القبول بالمعاجز مع أنها لا تنشأ عن مثل هذا العلل ولا تمر بمثل هذه المقدمات والمراحل والتفاعلات الطبيعية، مثل انقلاب العصا إلى ثعبان، أو نبوع الماء من الصخر من دون حفر أو تنقيب.

أليس هذا هدم، أو تخصيصٌ لذلك القانون العقلي المسلم العام؟
فان الجواب على هذا السؤال هو ان مثل هذا السؤال لا يطرحه إلا الذين يحدون العلل والعلاقات بين الاشياء في العلل والعلاقات المادية الطبيعية.
ولكن الحق هو أن أية ظاهرة مادية يمكن أن يكون لها نوعان من العلل:
١ - العلة العادية التي تخضع للتجربة.
٢ - العلة غير العادية التي لا يعرفها الناس ولم تكن متعارفة ولا تخضع للتجربة العلمية.

وهذا يعني أنه لا توجد أية ظاهرة في هذا العالم بدون علة.
وتوضيح هذا أن أصل وجود الحية ونبوع الماء من الصخرة وتكلم الطفل - مثلاً - أمرٌ ممكن، ولا يُعد من المحالات، لأنها لو كانت من المحالات لما تحقق وجودها أبداً.

نعم أنها بحاجة إلى علة لكي تتحقق، والعلة -سواء في المعاجز أو غيرها- يمكن أن تكون إحدى الامور التالية:

أ- العلة الطبيعية العادية وهي ما ألفناها وأعتدنا عليها مثل ظهور شجرة من نواة بعد سلسلة من التفاعلات.

ب- العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة وهذا يعني أنه قد يكون لظاهرة معينة نوعان من العلل، وطريقتان للتحقق والوجود أحدهما معروف ومعلوم، والآخر مجهول وغير معلوم، والانبيااء بحكم اتصاالم بالعلم والقدرة الالهية، يمكن أن يقفوا على هذا النوع من العلل -عن طريق الوحي- ويوجدوا الظاهرة.

ج- تأثير النفوس والارواح:

فإن بعض الظواهر يمكن أن تكون ناشئة من تأثير أرواح الأنبياء ونفوسهم القوية، كما نلاحظ ذلك في مجال المرتاضين الهنود الذين يبلغون درجة يستطيعون معها أن يقوموا بما يعجز عنه الأفراد العاديون، وذلك بفضل الرياضات النفسية التي يخضعون لها. وهو ما يسمى باليوجا أحياناً، وقد كتبت حوله كتب ودراسات^(١).

وقد أشار الى هذا جملة من علماء الإسلام وفلاسفته منهم الفيلسوف الإسلامي الشهير صدرالدين الشيرازي حيث يقول:

«لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوةً الهيةً تكون بقوتها كأنها نفسُ العالم فيطيعها العنصرُ طاعةً بدنها لها، فكلمًا ازدادت النفسُ -تجرداً وتشبهاً بالمبادئ القصوى ازدادت قوةً وتأثيراً في مادونها.

وإذا صار مجردُ التصوّر والتوهم سبباً لحدوث هذه التغيرات في هيوليّ البدن لأجل علاقة طبيعّية، وتعلّق جبليّ لها إليه، لكان ينبغي أن تؤثر في بدن الغير وفي هيوليّ العالم مثل هذا التأثير، لأجل مزيد قوة شوقية، واهتزاز علوي للنفس

(١) راجع كتاب الطاقة الانسانية لأحمد حسين.

ومحبة الهية لها، فيؤثر نفسه في إصلاحها، وإهلاك ما يضرها ويفسدها»^(١).

د- العللُ المجردة عن المادة:

فيمكن ان تكون للظواهر عللٌ مجردة عن المادة كالملائكة، بان تقوم الملائكة بأمر من الله سبحانه بتدمير قرية، او تقوم بمعجزة بعد طلب النبي منها ذلك .
والملائكة مظاهرُ القدرة الالهية في الكون، وهي التي تدبّر أمور الكون بأمر الله تعالى كما يقول القرآن الكريم: «فالمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا»^(٢) وهي بالتالي جنود الله في السماوات والأرض «ولله جُنُودُ السَّمَاوَاتِ»^(٣).

فلا بد من ارجاع الظواهر الطبيعية الواقعة الى أحد هذه العوامل الاربعة، ولا يمكن أبداً حصر العلة في العلة الطبيعية العادية المعروفة كما تصور منكروا الاعجاز، بل يمكن أن تكون كلٌ واحدة من هذه العلل سبباً لحدوث الظاهرة الطبيعية، فاذا لم نشاهد علة ظاهرة من الظواهر لم يجز لنا أن نُبادر فوراً- إلى تصوّر أنها ناشئة من غير علة.

ويجب ارجاع معاجز الأنبياء الى إحدى الطرق الاخيرة، والقول بأن الانبياء استخدموا- في ايقاع الخوارق والمعاجز- إما العلل المادية غير المعروفة للعرف، والعلم، وأما نفوسهم القوية التي حصلت لهم بفعل الجهاد الروحي العظيم والرياضات النفسية الشديدة فهي علة تلك الأفعال الخارقة للعادة.

كما ويمكن ان تكون جميع تلك الافعال العجيبة ناشئة عن جملة من العلل والعوامل الغيبية المدبّرة للكون بامر الله ومشيثته.
إذن فلا تتحقق المعجزة بدون علة كما يُتصوّر، ولا يهدم الاعجاز القوانين العقلية المسلمة.

(١) راجع المبدأ والمعاد: ص ٣٥٥ و ٣٥٦ لصدر المتألمين المشهور بصدرالدين الشيرازي، وشرح

المنظومة للحكيم السبزواري: ص ٣٢٧ قال السبزواري ناظماً:

يطيعه العنصرُ طاعة الجسد للنفس فالكلُّ كجسمه يُعَدُّ

(٣) الفتح: ٤.

(٢) النزاعات: ٥.

٣- هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط؟

قد يتصور البعض أن المعاجز تصدر عن علل مجردة عن المادة فقط نافين أن تكون لها أية علل مادية معروفة او غير معروفة، في حين لا يصح هذا السلب الكلي، اذ ما اكثر الخوارق التي تنشأ عن أمور عادية وعبر سلسلة من التفاعلات الطبيعية.

فعند ما يرقد مرتاض هندي ليمرّ عليه تراكاتور من دون ان تحدث في جسمه أية جراحات أو اصابات فان هناك أموراً مادية كثيرة دخلت في هذا الامر الخارق مثل: وقوع هذا الحدث في اطار الزمان الخاص، والمكان الخاص، ومثل جسم المرتاض، وماكنة الحراثة.

فان جميع هذه الاشياء المادية اثرت في ظهور هذا العمل الخارق. وهكذا عندما تنقلب عصا الكليم عليه السلام إلى حية على نحو الاعجاز فان العصا شيء مادي وهكذا الحال في غيره من الموارد.

ولهذا لا يمكن ان نتجاهل تأثير العوامل والامور المادية في ظهور الأمور غير العادية، وننكر دخالتها بمثل هذا الإنكار.

وهذه هي اكثر النظريات اعتدالاً في هذا المجال. وفي مقابل ذلك التفريط^(١) أفرط آخرون اذ قالوا: ان جميع المعاجز والخوارق ناشئة من علل مادية غير معروفة.

وحتى ما يقوم به المرتاضون يعود الى هذه العوامل الطبيعية التي لا يعرفها ولا يقف عليها حتى النوابع من الناس فضلاً عن العاديين، لأن العوامل الطبيعية على نوعين: المعروفة وغير المعروفة، والناس يستفيدون في حياتهم اليومية - في الأغلب - من القسم الاول، بينما يستخدم الانبياء والمرتاضون تلك العوامل الطبيعية غير المعروفة التي وقفوا عليها وادركوها دون غيرهم.

(١) أي حصر علل الخوارق والمعاجز في العوامل المجردة ونفي تأثير العلل المادية على نحو الاطلاق.

والسبب في وصفنا هذه النظرية بالافراط والتطرف هو عدم وجود دليل لاثباته، بل يمكن ان يقال ان مثل هذا الموقف ناشئ عن الانهزامية تجاه العالم المادي، أو انه لارضاء الماديين، والنافين للملايدخل في إطار العالم المادي فان الماديين يرفضون أي عالم آخر غير الطبيعة وآثارها وعلاقاتها وخواصها، وحيث أن ارجاع المعجزات إلى العلل المجردة عن المادة يخالف منطق الماديين، ويضاد اتجاههم وتصورهم لهذا عمد أصحاب هذه النظرية (نظرية إرجاع المعجز والخوارق إلى علل طبيعية غير معروفة وغير عادية) إلى مثل هذا التفسير إقناعاً للماديين، وارضاء لهم فقالوا: ان جميع الخوارق والمعجزات ناشئة من علل طبيعية ومادية على الإطلاق، غاية ما في الأمر أنها علل غير معروفة، شأنها شأن كثير من العوامل الطبيعية المجهولة.

و نحن بدورنا نترك هذه النظرية في دائرة الاجمال وبقعة الإمكان، لعدم الدليل لاعلى طبقها ولاعلى خلافها.

٤ - كيف تدلّ المعجزة على صحة ادعاء النبوة؟

إن صفحات التاريخ مليئة بذكر من ادعوا النبوة خداعاً وكذباً، واستثماراً للناس، مستغلّين سذاجة الاغلبية الساحقة من جانب، وانجذابهم الفطري إلى قضايا التوحيد والايان من جانب آخر.

فكيف وبماذا يُميّز النبيّ الصادق عن مدعي النبوة؟؟

إن المعجزة هي إحدى الطرق التي تدل على صحة ادعاء النبوة.

وإنما تدلّ المعجزة على صدق ادعاء النبوة، وارتباط النبيّ بالمقام الربوبي لأن الله الحكيم لا يمكن أن يزوّد الكاذب في دعوى النبوة بالمعجزة، لأن في تزويد الكاذب تغريراً للناس الذين يعتبرون العمل الخارق دليلاً على ارتباط الآتي بها بالمقام الربوبي.

و الى هذا أشار الامام جعفر الصادق عليه السّلام بقوله في جواب من سأله

عن علة اعطاء الله المعجزة لانبيائه ورسله:

«لَيْكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ، وَالْمُعْجِزَةُ عِلَامَةٌ لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءُهِ وَرَسُولُهُ، وَحُجَجُهُ، لِيَعْرِفَ بِهِ صِدْقَ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ»^(١).

٥ - بماذا نميز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟

لاشكَّ في أنَّ السَّحْرَةَ والمرْتَاضِينَ يقومون بأفعال خارقة للعادة مثيرة للمعجب والدهشة حتى ان البسطاء ربما يذهب بهم الاندهاش إلى حدِّ الاعتقاد بأنَّ القائمين بهذه الخوارق مزوِّدون بقوى غامضة غيبية لا يتوصلُ إليها البشر. فكيف يمكن اذن أن نُميِّزَ بَيْنَ المعاجز وتلك الخوارق والعجائب؟ إن التمييز بين هذه وتلك يمكن أن يتم إذا لاحظنا العلامات الفارقة بين المعجزة وغير المعجزة من الاعمال الخارقة للعادة، كاعمال السحرة والمرتاضين (اصحاب اليوجا) ونظائرهم.

وهذه الفوارق هي عبارة عن الامور التالية:

١ - إن القوة الغامضة الحاصلة لدى المرتاضين والسحرة ناشئة بصورة مباشرة من التعلم والتحصيل عند اساتذة تلك العلوم، وذلك طيلة سنين عديدة من الزمان.

بينما لا يرتبط الاعجاز بالتعلم والتلمذ أبداً، والتاريخ خير شاهد على هذا الكلام.

٢ - إن أفعال السحرة والمرتاضين العجيبة قابلة للمعارضة والمقابلة بأمثالها، وربما بما هو اقوى منها، على عكس الإعجاز، فالمعجزات غير قابلة لأن تعارض وتقابل بمثلها أبداً.

٣ - المرتاضون والسحرة لا يتحدون أحداً بأفعالهم ولا يطلبون معارضة أحد لهم وإلا لا فتضحوا وكُبتوا.

بينما يتحدى الانبياء والرسول بمعجزتهم جميع الناس ويدعونهم لمعارضتهم

(١) علل الشرائع: ج ١ ص ١٢٢.

والإتيان بمثل معاجزهم لوقدروا، واستطاعوا.

فهذا هو القرآن الكريم ينادي بأعلى صوته على مرالعصور: «قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»^(١).

وذلك لأن أفعال السحرة الخارقة مهما كانت فانها تستند الى الطاقة البشرية المحدودة، ولا تتجاوزها بينما يعتمد الانبياء والرسل العنصر الغيبي، والإرادة الإلهية .

٤ - إن أفعال السحرة والمرتاظين الخارقة للعادة أمورٌ محدودة ومقتصرة على ما تعلموها وتمرنوا عليها، بينما لا تكون معاجز الأنبياء والرسل مقتصرة على أمور خاصة، فهم لا يعجزون عن الإتيان بكل ما يطلبه الناس منهم، طبعاً حسب شرائط خاصة مذكورة في محلها في أبحاث الإعجاز^(٢).

فتلك معاجز موسى المتعددة الابتدائية، والمقترحة، ومعاجز المسيح عليه السلام المتنوعة خير مثال على هذا الأمر.

٥ - إن اصحاب المعاجز يقصدون من معاجزهم دائماً دعوة الناس إلى أهداف إنسانية عالية وغايات الهية سامية وبالتالي هداية المجتمع البشري إلى المبدأ والمعاد، والأخلاق الفاضلة فيما لا يهدف المرتاظون والسحرة إلا تحقيق مآرب دنيوية حقيرة، ونيل مكاسب مادية رخيصة.

هذا مضافاً إلى أن الأنبياء والرسل أنفسهم يختلفون عن السحرة والمرتاظين

(١) الاسراء: ٨٨.

(٢) مثل أن لا يكون ما يطلبه الناس محالاً عقلياً كرؤية الله، ومثل أن لا يكون ماسياً لهم به دليلاً على ارتباطه بالمقام الربوبي، كما لو طلبوا منه أن تكون له جنة من تخيل وأعناب وبيت من ذهب، لأن هذه الأمور لا تكون دليلاً على النبوة إذ نلاحظ أن كثيراً من الناس يملكون هذه وليسوا مع ذلك بأنبياء.

وأن لا يكون المقترحون من ذوي اللجاج والعناد الذين لا يقصدون من طلب المعاجز إلا الهزل والاستهزاء والتنزه. وأن لا تكون نتيجة المعجزة هلاكهم كما لو طلبوا ان يُنزل عليهم ناراً من السماء تحرقهم لأن في ذلك نقضاً للغرض.

في نفسيتهم العالية، وأخلاقهم الفاضلة وتاريخهم المشرق، وصفاتهم النبيلة على العكس من السحرة والمرتااضين.

هذه هي أهمُّ العلامات الفارقة بين المعاجز التي تدل على نبوة الانبياء، والخوارق التي يقوم بها المرتاضون والسحرة.

وبعد أن تبين كل هذا اتضح أنَّ الخوارق الالهية التي هي من مقولة المعاجز أيضاً تختلف عن الأمور العادية في أن عللها لا تنحصر في العلل المادية غير المعروفة فضلاً عن الأمور المادية المعروفة، بل ربما تكون مستندة الى العلل المجردة، فليس من الصحيح ان نسعى لتفسير الخوارق الالهية مثل: «قصة الفيل» التي أهلك الله تعالى فيها جيش «أبرهة» العظيم بأحجار صغيرة من سجل رمتها طيور الأبايل بالعلل المادية المعروفة كما فعل من أشرنا إلى أسمائهم في مطلع هذا البحث^(١).

ولهذا عدل «سيد قطب» عن رأيه الذي كان قد أبداه في ماسبق في أمثال هذه الأمور، اذ قال:

ان الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره أن ينفُض الانسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصوُّرية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلها حسباً بصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفى شيئاً يشبهه القرآن ولا يُؤوِّله، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه اليه عقله وتجربته.

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن... وهم مع ذلك يؤوِّلون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود^(٢).

(١) أي الاستاذ الشيخ محمد عبده والاستاذ محمد حسين هيكل.

(٢) وهنا قال سيد قطب في هامش هذا الكلام مانصه «وما أبرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي

فاما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل الى شيء منها فهم مضحكون حقاً! فالعلم لا يعلم اسرار الموجودات الظاهرة بين يديه والتي يستخدمها في تجاربه، وهذا لا ينفي وجودها طبعاً! فضلاً عن أن العلماء الحقيقيين اخذت جماعة كبيرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون، لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم - عن طريق العلم ذاته - أمام مجاهيل فيما بين ايديهم مما كانوا يحسبون انهم فرغوا من الاحاطة بعلمه فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليس فيه سمة الادعاء، ولا طابع التطاول على المجهول كما يتطاول مدعو العلم، ومدعو التفكير العلمي، ممن يُنكرون حقائق الديانات وحقائق المجهول^(١).

ثم يقول في موضع آخر من تفسيره ناقداً لموقف الاستاذ عبده من قصة الفيل التي هي احدى الخوارق حيث حفظ الله تعالى بيته المعظم على نحو خارق للعادة:

ويرى الذين يميلون الى تضيق نطاق الخوارق والغيبيات، والى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة اقرب واولى، وان الطير تكون هي: الذباب والبعوض تحمل الميكروبات فالطير هو كل ما يطير.

ثم ينقلُ كلام الاستاذ «عبده» الذي ذكرناه بنصه مع قوله: هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته، ومما تعظم به القدرة ان يُؤخذ من استعز بالفيل - وهو اضخم حيوان من ذوات الاربع جسماً - ويُهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدرُ لارب عند العاقل أن هذا اكبر واعجب وأبهر .

وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت الى شيء من هذا وارجو أن أتداركه في الطبعة التالية اذا وفق الله.

(١) في ظلال القرآن: ج ٢٩ ص ١٥١ - ١٥٣ .

ثم يقول: ونحن لانرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذ الامام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أدلّ على قدرة، ولا اولى بتفسير الحادث، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلالة على قدرة الله، وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس، المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت، فأهلكت قوماً أراد الله اهلاكهم، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم فحققت قدره ذلك .

ثم يقول: لقد كان الله سبحانه يريد بهذا البيت^(١) أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمناً وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة ترحف منه حرة طليقة في ارض حرة طليقة لاييمن عليها احدٌ من خارجها ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضها، ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الانظار في جميع الأجيال، ليضرها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها .
فما يتناسق مع جو هذه الملابس كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود بكل مقوماته وبكل اجزائه، ولاداعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفردٌ فذٌ .

وبخاصة ان المألوف في الجدري والحصبة لايتفق مع ماروي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده فإن الجدري أو الحصبة لايسقط الجسم عضواً عضواً، وأتملة أتملة، ولايشق الصدر عن القلب!!

ثم ان «سيد قطب» يشير إلى علل تفسير هذه الحادثة الخارقة للعادة بالتفسير المادي العادي الطبيعي، والمدرسة العقلية التي كان الاستاذ «عبده» على رأسها، وضغط الفتنة بالعلم التي تركت آثارها في تلك المدرسة، ونحن نكتفي بهذا القدر بالمناسبة، وإشعاراً بما يمكن أن يجنيه مثل هذا الاتجاه على مقولات الدين ومفاهيمه ومقرراته عن الأحداث الكونية والتاريخية والانسانية

(١) أي الكعبة المشرفة.

والغيبية^(١).

هذا و يجد ربنا ان ننقل هنا ماقاله صاحب تفسير مجمع البيان في هذا الصدد في شأن حادثة الفيل استكمالاً لهذا البحث وتأكيداً لمعجزته هذا الحدث.

قال صاحب المجمع: و كان هذا من اعظم المعجزات القاهرة، والآيات الباهرات في ذلك الزمان، اظهره الله تعالى ليدل على وجوب معرفته، وفيه ارهاص لنبوة نبينا صلى الله عليه وآله لأنه ولد في ذلك العام، وفيه حجة لائحة قاصمة لظهور الفلاسفة والملحددين المنكرين للآيات الخارقة للعادات فانه لا يمكن نسبة شيء مما ذكره الله تعالى من أمر اصحاب الفيل إلى طبع وغيره كما نسبوا الصيحة والريح العقيم والخسف وغيرهما مما أهلك الله تعالى به الامم الخالية، إذ لا يمكنهم أن يروا في اسرار الطبيعة ارسال جماعات من الطير معها احجارٌ معدة مهياة لهلاك أقوام معينين قاصدات إياهم دون من سواهم فترميهم بها حتى تهلكهم، وتدمر عليهم، لا يتعدى ذلك إلى غيرهم ولا يشك من له مسكة عن عقل ولب ان هذا لا يكون الا من فعل الله تعالى مسبب الاسباب ومذلل الصعاب، وليس لأحد أن ينكر هذا لأن نبينا صلى الله عليه وآله لما قرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك بل اقروابه وصدقوه مع شدة حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالردّ عليه وكانوا قريبي عهد بأصحاب الفيل، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقة وأصل لانكروه، وجحدوه، وأنهم قد أرخوا بذلك كما أرخوا ببناء الكعبة، وموت قصي بن كعب وغير ذلك.

وقد اكثر الشعراء ذكر الفيل ونظموه ونقلته الرواة عنهم فمن ذلك ماقاله

(أمية) بن ابي الصلت:

إن آيات ربنا بيّنات ما يُماري فيهنّ إلا الكفورُ
حبس الفيل بالمغمس حتى ظلّ يحبو كأنه مغمورُ

(١) في ظلال القرآن: ج ٣٠ ص ٢٥١ - ٢٥٥.

وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم:

أنت حبّست الفيل بالمغمّس

أنت الجليل ربّنا لم تُدنس

حبّسته في هيئة المكرّس^(١)

من بعد ما همّ بشيء مبلّس

وقال ابن قيس الرقيات في قصيدة:

لجنّدلِ حَتَّى كَأَنَّهُ مَرْجُومٌ^(٢)

وَاسْتَهَلَّتْ عَلَيْهِمُ الظَّيْرُ بَا

ماذا بعد هزيمة الأحباش؟

لقد استوجب مقتل أبرهة وتحطم جيشه وهلاكهم، وبالتالي هزيمة أعداء الكعبة المشرفة، وأعداء قريش، أن يتعاضم شأن المكّين، وشأن الكعبة الشريفة في نظر العرب، فلا يجراً أحدٌ - بعد ذلك - في أن يحدث نفسه بغزو مكة، والإغارة على قريش، أو أن يفكر في التناول على الكعبة المعظمة صرح التوحيد الشامخ، فقد اخذ الناس يقولون في انفسهم: إنّ الله أهلك أعداء بيته المعظم بمثل ذلك الاهلاك إحتراماً لبيته وتعظيماً لشأن قريش، وقلّما كان يتصور أحد أن ما وقع كان لاجل المحافظة على الكعبة فقط، اي من دون أن يكون لمكانة قريش ومنزلتهم وشأنهم دخل في ذلك، ويشهد بذلك أن قريشاً تعرضت مراراً لحملات متكررة من غزاة ذلك العصر دون أن يُصابوا بمثل ما أصيب به جنّد «أبرهة» الذي قصد الكعبة بالذات ويواجهوا ماواجهه، من الردع والكبت.

إنّ هذا الفتح والظفر الذي نالته قريش من دون تعب ونصب، ومن دون إراقة أية دماء من أبنائها، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة، فقد زادت من غرورهم وحميتهم، وعنجهيتهم، واعتزازهم بعنصرهم، فأخذوا يفكرون في تحديد شؤون الآخرين، والتقليل من وزنهم، اعتقاداً منهم بانهم الطبقة الممتازة من العرب دون سواهم. كما أنها دفعتهم الى أن يتصوّروا أنهم وحدهم موضع عناية الأصنام (الثلاثمائة والستين) فهم وحدهم الذين تحبّبهم

(٢) تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج ١٠ ص ٥٤٣ في تفسير سورة الفيل.

(١) المنكس.

تلك الاصنام، وتحميمهم وتدافع عنهم!!
 ولأجل هذا تمادوا في لهوهم، ولعبهم، وتوسعوا في ممارسة اللذة والترف حتى
 أنهم أظهروا ولعاً شديداً بالخمير، فكانوا يحتسونها في كل مناسبة، وربما مدّوا
 موائد الخمر في فناء الكعبة، وأقاموا مجالس سمرهم وأنسهم إلى جانب أصنامهم
 الخشبية، والحجرية، التي كان لكل قبيلة من العرب بينها صنمٌ أو أكثر،
 ويقضون فيها اسعدَ لحظات حياتهم -حسب تصوّرهم، وهم يتناقلون فيها كل
 ماسمعه من أخبار وقصص حول «مناذرة» الحيرة و«غساسنة» الشام وقبائل
 اليمن، وهم يتصورون أن هذه الحياة الحلوة اللذيذة هي من بركة تلك الاصنام
 والاوثنان، فهي التي جعلت عامة العرب تخضع لقريش، وجعلت قريشاً افضل
 من جميع العرب!!

أوهام قريش تتفاقم!!

إنَّ أخطرَ ما يمرُّ به إنسانٌ في حياته هو أن يصفو عيشه من المشاكل، رداً
 من الزمن ويحس لنفسه بنوع من الحصانة الوهمية، فعندها تجده يخص الحياة
 بنفسه ويستأثر بكل شيء في الوجود ولا يرى لغيره من أبناء نوعه وجنسه من
 البشر اي حق في الحياة، ولأَيِّ شأنٍ وقيمة تذكر، وذلك هو ما يصطلح عليه
 بالاستكبار والاستعلاء، والاحساس بالتفوق، والغطرسة.

وهذا هو بعينه ما حصل لقريش بعد اندحار جيش «ابرهة» وهلاكه،
 وهلاك جنده بذلك الشكل العجيب الرهيب.

فقد عازمت قريش منذ ذلك اليوم -وبهدف إثبات تفوقها وعظمتها
 للآخرين-، على أن تلغي أي احترام لأهل الحلّ لانهم كانوا يقولون: ان جميع
 العرب محتاجون الى معبدنا، وقد رأى العرب عامة كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة،
 خاصة، وكيف حمتنا من الاعداء!!

ومن هنا بدأت قريش تضيّق على كل من يدخل مكة من أهل الحل
 للعمرة او الحج، وتعامل معهم بخشونة بالغة، وديكتاتورية شديدة فرضت على

كل من يريد دخول مكة للحج أو العمرة أن لا يصطحب معه طعاماً من خارج الحرم، ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتني من طعام أهل الحرم، ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكة التقليدية القومية، أو يطوف عرباناً بالكعبة إن لم يكن في مقدوره شراؤها واقتناؤها، ومن كان يرفُض الخضوع لهذا الأمر، من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه - بعد انتهائه من الطواف - ويلقيها جانباً، ولا يحق لأحد ان يمسها أبداً لأصحابها ولا غيرها^(١).

اما النساء فكان يجب عليهن اذا أردنَ الطواف أن يُطفنَ عراة على كل حال، وان يضعن خرقة على رؤوسهن وَيُرَدَدْنَ البيت التالي في اثناء الطواف: اليوم يبدو بعضه أو كُله وبعد هذا اليوم لا أُجلُّه

ثم إنه لم يكن يحق لأي يهودي أو مسيحي - بعد هزيمة «ابرهة» الذي كان هو أيضاً مسيحياً - أن يدخل مكة إلا أن يكون أجيراً لمكيٍّ، وحتى في هذه الصورة كان يجب عليه أن لا يتحدث في شيء من أمر دينه ومن أمر كتابه.

لقد بلغت النخوة والعصبية بقريش حداً جعلتهم يتركون بعض مناسك الحج التي كان يجب الإتيان بها خارج الحرم!!

لقد أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفة^(٢) كما يفعل بقية الناس فتركوا الوقوف بعرفة، والافاضة منها مع أن آباءهم (من ولد إسماعيل) كانوا يُقرون أنها من المشاعر والحج، وكانت هيبة قريش وعظمتها الظاهرية رهنً -برمتها- بوجود الكعبة بين ظهرانيتها، وبوظائف الحج ومناسكه هذه، اذ كان يجب على الناس في كل عام أن يأتوا إلى هذا الوادي الخالي عن الزرع وهذه الصحراء اليابسة لأداء المناسك، إذ لو لم يكن في هذه النقطة من الأرض أي مطاف أو مشعر لما رغب احد حتى في العبور بها فضلاً عن المكث فيها عدة ايام وليال.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٢٦٦.

(١) وكانت تسمى عندهم «اللقى».

لقد كان ظهورُ مثل هذا الفساد الاخلاقي وهذا الموقف المتعصّب من الآخرين أمراً لا بدّ منه بحسب المحاسبات الاجتماعية.

فالبينة المكيّة لا بد أن تغرق في الفساد والانحراف حتى يتها العالم لانقلاب أساسيّ ونهضة جذرية.

إن كل ذلك الانفلات الاخلاقي والترف والانحراف كان يهيء الارضية ويعدها لظهور مصلح عالمي، أكثر فاكثر.

ولهذا لم يكن غريباً أن يغضب «أبوسفيان» فرعون مكة وطاقيتها على «ورقة بن نوفل» حكيم العرب الذي تنصر في أخريات حياته واطلع على مافي الانجيل، كلما تحدّث عن الله والانبياء ويقول له: «لا حاجة الى مثل هذا الاله وهذا النبي، تكفينا عناية اصنامنا»!!

عبدُ الله والدُ النبي:

يوم فدى «عبدُ المطلب» ولده «عبدُ الله» بمائة من الابل نحرها، وأطعم الناس في سبيل الله، لم يكن يمض من عمر «عبدُ الله» اكثر من اربعة عشر ربيعاً، وقد تسببت هذه الواقعة في أن يكتسب «عبدُ الله» شهرة خاصة بين عشيرته مضافاً الى شهرته الكبرى بين قريش، وأن يحظى بمكانة كبيرة عند أبيه: «عبدُ المطلب» بنحو خاص، لأن ما يُكلّف الانسان غالياً، ويتحمل في سبيله عناء اكثر لا بدّ أن يحظى لديه بمكانة اكبر، ومحبة محبة تفوق المتعارف.

ومن هنا كان «عبدُ الله» يتمتع باحترام يفوق الوصف بين أبناء عشيرته وأفراد عائلته وأقربائه.

ثم إن «عبدُ الله» يوم كان يتوجه برفقة والده الى المذبح كان يعاني من مشاعر وأحاسيس متناقضة ومتضادة، فهو من جانب كان يُكنّ لوالده احتراماً كبيراً وحباً شديداً، ولهذا لم يكن يجدُ بدأ من طاعته، والانصياع لمطلبه، بينما كان من جانب آخر يعاني من قلق، واضطراب شديدين على حياته التي كان يرى كيف تعبت بها يدُ القدر، وتكادُ تقضي عليها كما يقضي الخريفُ على

أوراق الشجر.

كما أن «عبدالمطلب» نفسه كان هو الآخر تتجاذبه قوتان متضادتان: قوة الإيمان والعقيدة من جانب، وقوة العاطفة والمحبة الأبوية من جانب آخر، وقد أوجدت هذه الواقعة في نفسي هاتين الشخصيتين آثاراً مرة يصعب زوالها، بيد أن تلك المشكلة حيث عولجت بالطريقة التي ذكرناها ونجا «عبدالله» من الموت المحقق فكر «عبدالمطلب» فوراً في أن يغسل عن قلب «عبدالله» تلك المرارة القاسية بزواج «عبدالله» بآمنة، وبذلك يقوي من عرى حياته التي بلغت درجة الانصرام، بأقوى السُّبُل، وأمتن الوسائل.

ومن هنا توجه «عبدالمطلب» الى بيت «وهب بن عبدمناف» - فور رجوعه من المذبح آخذاً بيد ولده عبدالله - وعقد لولده علي «آمنة بنت وهب» التي كانت تُعرفُ بالعِفَّة، والطَّهر، والنَّجَابَة، والكمال.

كما أنه عقد لنفسه - في ذات المجلس - علي «دلالة» ابنة عم آمنة، ورُزِقَ منها «حمزة» عم رسول الله صلى الله عليه وآله والمشابه له في السن^(١).

غير أن الاستاذ المؤرخ «عبدالوهاب النجار» المدرس بقسم التخصص في الازهر الذي صحح «التاريخ الكامل» لابن الاثير، وعلّق عليه بملاحظات وهوامش مفيدة شكك في صحة هذه الرواية، واستغربها، وقال: لا أظنُّ أنه يصح شيء في هذه الرواية، إذ المعقول أن يترث «عبدالمطلب» بعد ذلك المجهود المضني حتى يريح نفسه ثم يذهب ليخطب لابنه^(٢).

ولكننا نعتقد بأن المؤرخ المذكور لو نظر إلى المسألة من غير هذه الزاوية لسهّل عليه التصديق بهذه الرواية.

ثم إن «عبدالمطلب» عيّن موعداً للزفاف، وعند حلول ذلك الموعد تمت مراسم الزفاف في بيت «آمنة» طبقاً لما كان متعارفاً عليه في قريش، ولبث

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٧ والمذكور في هذا المصدر «هالة».

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤ قسم الهامش.

«عبدالله» مع «آمنة» ردها من الزمن حتى سافر الى الشام للتجارة، وعند عودته توفي اثناء الطريق كما ستعرف.

دور الأبيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام:

لاشك أن التاريخ سجّل في صفحاته كل ما يتعلق بالشعوب والاقوام من نقاط مضيئة أو مظلمة، كقصص للعبرة والعظة.

ولكن الحب والبغض تارة والتساهل والبدعة تارة أخرى وحب اظهار المقدرة وابرار القوة الأدبية تارة ثالثة وغير ذلك من العوامل والاسباب عملت عملها فتدخلت - في جميع الأدوار والعصور - في صياغة التاريخ، وخلطت الغث بالسمن والحقيقة بالخرافة، وتلك هي مشكلة كبرى تقع في طريق المؤرخ الذي يريد عرض حوادث التاريخ في أمانة وإستقامة، ولذلك يجب عليه أن يميز الحق عن الباطل، والصدق عن الكذب من خلال الأخذ بالموازن العلمية، والممارسة الكاملة للتاريخ. ولقد كان للعوامل المذكورة تأثير أيضاً في تدوين التاريخ الإسلامي، فالأبيادي المريبة المشبوهة عملت على تحريف الحقائق في هذا المجال، بل وربما عمد بعض الاصدقاء - بهدف تعظيم شأن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله - الى نسبة بعض الأمور التي يظهر عليها آثار الاختلاق والإفتعال إليه صلى الله عليه وآله وسلم وهو منها بُراء.

فقد جاء في التاريخ أن نور النبوة كان يسطع في جبين «عبدالله» والد النبي صلى الله عليه وآله دائماً^(١)، كما نقرأ أن «عبدالمطلب» كان يأخذ بيد ولده «عبدالله» في سنين الجذب والقحط، ويصعد الجبل ويستسقي متوسلاً الى الله بالنور الذي كان بيناً في جبين «عبدالله»^(٢) فهذا هو ما كتبه وسجله كثير من علماء الشيعة والسنة في مؤلفاتهم، ونحن لانملك أي دليل على عدم صحته.

ولكن هذه القصة وقعت أساساً لبعض الاساطير التي لا يمكن ان نقبل بها مطلقاً

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤.

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٩.

واليك فيما يأتي ما الحِجَقَ بهذه القضية التاريخية الثابتة.

قِصَّةُ فَاطِمَةَ الْخَثْعَمِيَّةِ:

و «فاطمة» هذه هي أختُ «ورقة بن نوفل» الذي كان من حكماء العرب وكُفَّاهم، وكان له معرفة كبيرة بالإنجيل. وقد ضبط التاريخ حديثه مع خديجة في بدء بعثة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسوف نشير إليه في محله من هذا الكتاب.

و كانت «فاطمة» اخت «ورقة» قد سمعت من أخيها عن نبوة رجل من احفاد «اسماعيل»، ولهذا ظلت تنتظر، وتبحث.

وذات يوم وعندما كان «عبدالمطلب» متوجهاً الى بيت آمنة بنت وهب بعد قفوله ومنصرفه من المذبح وهو آخذ بيد «عبدالله»، شاهدت «فاطمة الخثعمية» -التي كانت تقف على مقربة من منزلها- النور الساطع من جبين «عبدالله»، والذي كانت تنتظره مدة طويلة وتبحث عنه بشوق، فقالت: اين تذهب يا عبدالله؟ لك مثلُ الإبل التي نَجِرت عنك، وقع عليَّ الآن. فقال: أنا مع أبي ولا استطيع خلفه وفراقه!!^(١).

ثم تزوج «عبدالله» بآمنة في نفس ذلك اليوم، وقضى معها ليلة واحدة. ثم في الغد من ذلك اليوم أتى المرأة «الخثعمية» التي عرضت نفسها عليه، وأبدى استعدادة لتنفيذ رغبتها، ولكن «الخثعمية» قالت له: ليس لي بك اليوم حاجة، فلقد فارقك النور الذي كان معك أمس!!^(٢).

وقيل: إنه لما عرضت تلك المرأة «الخثعمية» على «عبدالله» ما عرضت أجاها «عبدالله» بالبداهة بيتين من الشعرهما:

أما الحرامُ فالمماتُ دُونَهُ وَالجِلُّ لاجلٍ فاستبينهُ
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريمُ عرضه ودينهُ

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٥. (٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٥٦ النص والهامش.

ولكن لم تمر ثلاثة من زواجه بأمنة، واقامته عندها حتى دعتة نفسه إلى ان يأتي الخثعمية، وعرض نفسه عليها قائلاً: هل لك فيما كنت اردت؟ فقالت: لقد رأيت في وجهك نوراً فاردت ان يكون لي فأبى الله إلا أن يجعله حيث اراد فما صنعت بعدي؟
قال: زوّجني أبي «آمنة بنت وهب»!!^(١).

علام الإختلاق في هذه القصة!

لقد غفل مَخْتَلِقُ هذه القصة عن أمور كثيرة عند صياغته لها، ولم يستطع اخفاء آثار الإختلاق عنها.

فلو كان يكتفي بالقول -مثلاً- بان «فاطمة» صادفت «عبدالله» ذات يوم في زقاق من الأزقة، أو سوق من الاسواق، وشاهدت نور النبي ساطعاً من طلعتة ففكرت في الزواج به رغبة في ذلك النور لكان من الممكن التصديق بهذه القصة، بيد أن نصّ القصة جاء بصورة لا يمكن القبول بها للأسباب التالية:

١ - إن هذه القصة تفيد أنّ المرأة «الخثعمية» عند معارضة نفسها على «عبدالله»، كان يد «عبدالله» في يد والده «عبدالمطلب»، فكيف يمكن ان تعرض تلك الفتاة نفسها عليه وتبين مطلوها له ويدور بينهما ما يدور، ولا يحس عليهما عبدالمطلب؟!!

ثم الم تستج من عظيم قریش «عبدالمطلب» الذي لم يشنه عن طاعة الله تعالى شيء حتى مقتل ولده وذبحه.

ولو قلنا أن مطلبها كان حلالاً مشروعاً فان ذلك لا ينسجم مع البيتين من الشعر اللذين ردّ بهما «عبدالله» طلبها.

٢ - والأصعب من ذلك قصة عبدالله نفسه. فان ولداً مثل «عبدالله» يحترم والده الى درجة الاستعداد لأن يُذَبَحَ وفاءً لنذر والده، كيف يمكن أن يتفوه في

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٧، والكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤.

حضرة والده بما نُقِلَ عنه؟!!

ترى أيمن لشاب نجا لتوّه من السيف والذبح، ولا يزال يعاني من آثار الصدمة الروحية أن يستجيب لرغبات امرأة، أو يبدي استعداده ورضاه القلبيّ لذلك لولا وجود والده معه؟!!

ترى هل كانت تلك المرأة جاهلة بالظروف، لا تقدر الاحوال، ولا تعرف الوقت المناسب لطرح مطلبها، أو أنّ مَخْتَلَق هذه القصة غفل عن نقاط الضعف البارزة هذه؟!!

ثم إن ممّا يفضح هذه القصة ويُظهر بطلانها ما جاء في الصورة الثانية لها، فان عبدالله - كما لاحظنا جابه طلب تلك المرأة بيتين من الشعر وقال ما حاصله بأن الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الذي يأتي على دين الرجل وشرفه، فكيف يجوز لمثل هذا الشاب الطاهر الغيور أن يقع فريسة لتلك الأهواء، والرغبات الرخيصة الفاسدة، والحال انه لم ينقض من زواجه أكثر من ثلاث ليال، وتدفعه غريزته الجنسية إلى أن يبادر الى بيت المرأة الخثعمية.

إنّ ما جابه به «عبدالله» دعوة تلك المرأة، وما جاء في ذينك البيتين من الشعر اللذين يطفحان بالغيرة، والإباء، لخير دليل على طهارة «عبدالله» وعفته، وتقواه، وترفعه عن الآثام والادران، وابتعاده عن الانجاس والادناس.

وقد علق الاستاذ العلامة «النجار» على هذه الاسطورة بقوله: «ليس من المعقول أن يذهب عبدالله يبغى الزنا في الساعة التي تزوج فيها، ودخل فيها على امرأته».

و لكن الاستاذ «النجار» أخطأ في تشكيكه في النور النبويّ الساطع في جبين «عبدالله» حيث قال معقّباً على كلامه السابق: «ولكنها مسألة النور في وجهه يريدون إثباتها ورسول الله غني عن هذا كله»^(١).

فان ذلك ممّا رواه جميع المؤرخين بلا استثناء، فلا داعي ولا وجه للتشكيك فيه!

(١) هامش الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤.

طهارة النبي من دنس الآباء وعهر الأمهات:

وينبغي هنا - وبالمناسبة - ان نشير الى مسألة مهمة في تاريخ النبي الكريم صلى الله عليه وآله ألا وهي طهارة النسب النبوي من دنس الآباء ودناءتهم وعهر الامهات وفسادهن فلا يكون في اجداده وجدّاته سفاح، وزنا.

وهذا ممّا اتفق عليه المسلمون، بعد ان دلّ عليه العقل اذ لو لم يكن النبي منزها عن دناءة الآباء وعهر الامهات لتنفر عنه الطباع ولم يرغب احد في متابعتها، والانقياد لاوامره ونواهيها.

ولقد صرح رسول الإسلام صلى الله عليه وآله بذلك في احاديث رواها السنة والشيعة.

فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال:

«نقلت من الاصلاب الطاهرة الى الارحام الطاهرة نكاحاً لاسفاحاً»^(١).

و جاء ايضاً انه صلى الله عليه وآله قال:

«لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسبية الى الأرحام الطاهرة»^(٢).

وقال الإمام اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام:

«وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله وسيّد عباده كلما نسخ الله الخلق فرقتين

جعله في خيرهما لم يسهم فيه عاهرٌ، ولا ضرب فيه فاجرٌ»^(٣)

وقال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد عند تفسير قول الله تعالى:

«وتقلّبك في السّاجدين»^(٤):

«في أصلاب النبيّين، نبي بعد نبي، حتى اخرجه من صلب ابيه عن نكاح

غير سفاح من لدن آدم»^(٥).

وقد صرح علماء الإسلام من الفريقين بهذا الأمر، واشتراطوه في النبيّ.

(٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٤٣.

(٤) الشعراء: ٢١٩.

(١) كز الفوائد: ج ١ ص ١٦٤.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢١٥ طبعة عبده.

(٥) تفسير مجمع البيان عند تفسير الآية.

قال المحقق نصيرالدين الطوسي في تجريد الاعتقاد: ويجب في النبيّ العصمة... وعدم السهو، وكل ماينفرُّ عنه من دناءة الآباء وعهر الامتهات...^(١).

وقد وافقه على هذا العلامة القوشجي الاشعري في شرح التجريد^(٢).
وقال العلامة المتكلم المقداد السيوري في اللوامع الالهية: ويجب أن لا يكون مولوداً من الزنا ولا في آبائه دنيّ ولا عاهر^(٣).

وفاة عَبْدِ اللَّهِ فِي «يَثْرَب»:

لقد بدأ «عبدالله» بالزواج فصلاً جديداً في حياته، وأضاء ربوعها بوجود شريكة للحياة في غاية العفة والكمال هي زوجته الطاهرة «آمنة» وبعد مدة من هذا الزواج المبارك توجه في رحلة تجارية -وبصحبة قافلة- الى الشام بهدف التجارة.

دقت أجراسُ الرحيل، وتحركت القافلة التجارية وفيها عبدالله، وبدأت رحلتها من «مكة» صوب الشام، وهي مشدودة بمئات القلوب والافئدة.
وكانت «آمنة» تمر في هذه الايام بفترة الحمل، فقد حملت من زوجها «عبدالله».

وبعد مُضيّ بضعة أشهر طلعت على مشارف مكة بوادر القافلة التجارية وهي عائدة من رحلتها، وخرج جمع كبير من أهل مكة لاستقبال ذوهم المسافرين العائدين.

ها هو والد «عبدالله» ينتظر- في المنتظرين- ابنه «عبدالله»، كما ان عيون عروسة ولده «آمنة» هي الأخرى تدور هنا وهناك تتصفح الوجوه وتبحث عن زوجها الحبيب «عبدالله» في شوق لا يوصف.

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٣٤٩ تحقيق الشيخ حسن زاده الآملي.

(٢) راجع: شرح القوشجي لتجريد الاعتقاد: ص ٣٥٩. (٣) اللوامع الالهية: ص ٣١١.

ولكن ومع الأسف لا يجدان أثراً من «عبدالله» بين رجال القافلة!! وبعد التحقيق يتبين أن «عبدالله» قد تمرّض أثناء عودته في يثرب، فتوقف هناك بين احواله لكي يستريح قليلاً، فاذا تماثل للشفاء عاد إلى أهله في «مكة».

و كان من الطبيعي أن يغتم هذان المنتظران «عبدالمطلب وأمنة» لهذا النبأ، وتعلو وجهيهما آثار الحزن، والقلق وتنحدر من عيونهما دموع الأسى والاسف. فأمر «عبدالمطلب» اكبر ولده: «الحارث» إلى أن يتوجّه الى «يثرب»، ويصطحب معه «عبدالله» الى مكة.

ولكنه عندما دخل يثرب عرف بأن أخاه: «عبدالله» قد توفي بعد مفارقة القافلة له بشهر واحد، فعاد الحارث الى مكة، فاخبر والده «عبدالمطلب»، وكذا زوجته العزيزة «أمنة» بذلك، ولم يخلف «عبدالله» من المال سوى خمسة من الابل، وقطيع من الغنم، وجارية تدعى «أم أيمن» صارت فيما بعد مربية النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلّم^(١).

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٧ و ٨، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٥٠.

قَوْلُهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

كانت سُحْبُ الجاهلية الداكنة تُغْطِي سماء الجزيرة العربية، وتمحي الاعمال القبيحة والممارسات الظالمة، والحروب الدامية، والنهب والسلب، وأد البنات، وقتل الاولاد، كل فضيلة أخلاقية. في البيئة العربية وكان المجتمع العربي قد اصبح في منحدر عجيب من الشقاء، ليس بينهم وبين الموت الآ غشاء رقيق ومسافة قصيرة!!

في هذا الوقت بالذات طلع عليهم شمس السعادة والحياة فاضاءت محيط الجزيرة الغارق في الظلام الدامس، وذلك عندما اشرفت بيئة الحجاز بمولد النبي المبارك «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا تهيأت المقدمات اللازمة لهضة قوم متخلف طال رزوحه تحت ظلام الجهل، والتخلف، وطالت معاناته لمرارة الشقاء. فانه لم يمض زمن طويل الآ وملا نور هذا الوليد المبارك ارجاء العالم واسس حضارة انسانية عظمى في كل المعمورة.

فترة الطفولة في حياة العُطاء:

ان جميع الفصول في حياة العطاء جديرة بالتأمل، وقينة بالمطالعة، فرما تبلغ العظمة في شخصية احدهم من السعة، والسمو بحث تشمل جميع فصول حياته

بدء من الطفولة، بل وفترة الرضاع فتكون حياته وشخصيته برمتها سلسلة متواصلة من حلقات العظمة.

إن جميع الأدوار، والفترات في حياة العظماء، والنوابغ وقادة المجتمعات البشرية، ورواد الحضارات الانسانية وبناتها تنطوي في الأغلب على نقاط مثيرة وحساسة وعلى مواطن توجب الاعجاب.

إن صفحات تاريخهم وحياتهم منذ اللحظة التي تنعقد فيها نطفهم في أرحام الأمهات، وحتى آخر لحظة من أعمارهم مليئة بالاسرار، زاخرة بالعجائب. فنحن كثيراً ما نقرأ عن أولئك العظماء في أدوار طفولتهم أنها كانت تقارن سلسلة من الامور العجيبة، والمعجزة.

ولو سهل علينا التصديق بهذا الامر في شأن الرجال العاديين من عظماء العالم لكان تصديقنا بأمثالها في شأن الانبياء والرسل اسهل من ذلك بكثير، وكثير. إن القرآن الكريم ذكر فترة الطفولة في حياة النبي موسى عليه السلام في صورة محفوفة بكثير من الأسرار، فهو يقول ما خلاصته: ان مآت من الاطفال قُتِلوا ودُجِحوا بامرٍ من فرعون ذلك العصر منعاً من ولادة موسى ونشوئه. ولكن ارادة الله شاءت ان يُولد الكليم، وظلت هذه المشيئة تحفظه من كيد الكائدين ولهذا لم يعجز اعداؤه عن القضاء عليه او إلحاق الاذى به فحسب، بل تربي في بيت فرعون أعدى اعدائه.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ. إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْد فِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاذْفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي».

ثم يقول: «إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ»^(١).

ثم إن القرآن الكريم يذكر قصة ولادة المسيح، ويصور طفولته ونشأته بشكل أعجب اذ يقول:

«وَ أذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا. فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»^(١).

فإذا كان أتباع القرآن والتوراة والانجيل يشهدون بصحة هذه المطالب حول ولادة هذين النبيين العظمين من اولى العزم لموسى وعيسى عليهما السلام، ويقرون بصدقها، فلا يصح في هذه الصورة أن نستغرب وقوع أمثالها في شأن رسول الإسلام، ونتعجب من الحوادث العجيبة التي سبقت أو رافقت ميلاده المبارك، ونعتبرها أموراً سطحية لا تدل على شيء.

فنحن نقرأ في الكتب التاريخية وفي كتب الحديث عن وقوع حوادث عجيبة

يوم ولادة النبي الكريم صلى الله عليه وآله مثل: ارتجاس أيوان كسرى، وسقوط اربع عشرة شرفة منه، وانخمد نار فارس التي كانت تُعبد، وانجفاف بحيرة ساوة، وتساقط الاصنام المنصوبة في الكعبة على وجوها، وخروج نور معه صلى الله عليه وآله وسلم أضواء مساحة واسعة من الجزيرة، والرؤيا المخيفة التي رآها انوشيروان ومؤبدوه، وولادة النبي صلى الله عليه وآله مختوناً مقطوع السرة، وهو يقول: «الله اكبر، والحمد لله كثيراً، سبحان الله بكرة وأصيلاً».

وقد وردت جميع هذه الامور في المصادر التاريخية الأولى، والجوامع الحديثية المعتمدة^(١).

ومع ملاحظة ماورد في حق موسى وعيسى ونقلنا بعضه هنا، لايبقى أي مجال للشك في صحة هذه الحوادث.

نعم ينبغي أن نسأل هنا: ماذا كانت تهدف هذه الحوادث غير العادية؟

وفي الاجابة على هذا السؤال يجب ان نقول:

إن هذه الحوادث الخارقة والعجيبة كانت تهدف إلى أمرين:

الأول - أن تدفع بالجبابة، والوثنيين وعبدة الاصنام إلى التفكير فيما هم فيه

فيسألوا أنفسهم: لماذا انطفأت نيرانهم التي طالما بقيت مشتعلة تحرسها اعيان

السدنة والكهنة؟

لماذا سببت هزة خفيفة في ارتجاس ايوان كسرى العظيم المحكم البنيان، ولم

يحدث لبيت عجوز في نفس ذلك البلد شيء؟

لماذا تهاوت الاصنام المنصوبة في الكعبة وحولها، وانكبت على وجوها بينما

بقيت غيرها من الاشياء على حالها لم يصبها شيء ابدأ؟

لو كانوا يفكرون في تلك الحوادث لعرفوا أن تلك الحوادث كانت تبشر

بعصر جديد... عصر انتهاء فترة الوثنية وزوال مظاهر السلطة الشيطانية

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٥، بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٢٤٨ - ٣٣١، السيرة الحلبية: ج ١ ص ٦٧ -

واندحارها؟

الثاني: ان هذه الحوادث جاءت لتبرهن على شأن الوليد العظيم، وانه ليس وليداً عادياً، فهو كغيره من الانبياء العظام الذين رافقت مواليدهم أمثال تلك الحوادث العجيبة، والوقائع الغريبة، كما يخبر بذلك القرآن الكريم فيما يحدثه عن حياة الانبياء - كما عرفت- وتخبر بها تواريخ الشعوب والملل المسيحية واليهودية.

واساساً لا يلزم ان تكون تلك الحوادث سبباً للعبارة ووسيلة للاتعاظ يوم وقوعها، بل يكفي ان تقع حادثة في احدى السنين، ثم يعتبرُ بها الناس بعد أعوام عديدة، وقد كانت حوادثُ الميلاد النبوي من هذه المقولة، لأن الهدف منها كان هو ايجاد هزة في ضمائر أولئك الناس الذين كانوا قد غرقوا في احوال الوثنية، والظلم، والانحراف الاخلاقي حتى قمة رؤوسهم، وعشعشت الجهالة والغفلة في اعماقهم حتى النخاع.

إن الذين عاشوا في عصر الرسالة، أو من اتي من بعدهم عندما يسمعون نداء رجل نهض - بكل قواه- ضد الوثنية، والظلم، ثم يطالعون سوابقه، ويلاحظون الى جانب ذلك ما وقع ليلة ميلاده من الحوادث العظيمة التي تتلاءم مع دعوته، فانهم ولاشك سيعتبرون تقارن هذين النوعين من الحوادث دليلاً على صحة دعواه، وصدق مقاله فيصدقونه، وينضوون تحت لوائه.

إن وقوع أمثال هذه الحوادث الخوارق عند ميلاد الانبياء مثل «إبراهيم» و«موسى» و«المسيح» و«محمد» صلى الله عليه وعليهم اجمعين لا يقل اهمية عن وقوعها في عصر رسالتهم ونبوتهم، فهي جميعاً تنبع من اللطف الآلهي، وتتحقق لهداية البشرية، وجذبها إلى دعوة سفرائه ورسله.

في أي يوم وُلد رسولُ الله صلى الله عليه وآله؟

لقد اتفقَ عامةُ كُتّاب السيرة على أن ولادة النبيِّ الكريم كانت في عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية.

لأنه صلى الله عليه وآله وسلم رحل الى ربه عام (٦٣٢) ميلادية هـ (٦٢)

أو (٦٣) عاماً، وعلى هذا الأساس تكون ولادته المباركة قد وقعت في سنة (٥٧٠) ميلادية تقريباً.

كما أنّ أكثر المحدثين والمؤرخين يتفقون، على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَدِهِ فِي شهر ربيع الأول.

انما وقع الخلاف في يوم ميلاده، والمشهور بين محدثي الشيعة أنه كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر. والمشهور بين أهل السنة أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَدِهِ فِي يوم الاثنين الثاني عشر من ذلك الشهر^(١).

أَيُّ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ هُوَ الصَّحِيحُ؟

ان من المؤسف جداً أن يعاني التقويم الدقيق لميلاد رسول الإسلام العظيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَوَلَدِهِ فِي أكثر قاداتنا وائمتنا لمثل هذا الارتباك، وان لا تكون اوقاتها وتواريخها محددة معلومة على وجه التحقيق واليقين!. ولقد تسبب هذا الارتباك في أن لا تستند أكثر احتفالاتنا ومآتمنا إلى تاريخ قطعي، في حين نجد أن علماء الإسلام كانوا يهتمون- عادة- بتسجيل الوقائع التي حدثت على مدار القرون الإسلامية في نظم خاص وعناية كبيرة، ولكننا لاندرى ما الذي منع من تسجيل مواليد هذه الشخصيات العظيمة ووفياتهم على نحو دقيق، وصورة قطعية؟!!

على أن مثل هذه المشكلة يمكن حلها بدرجة كبيرة بالرجوع إلى أهل البيت عليهم السّلام، فان اي مؤرخ لو أراد أن يكتب عن حياة شخصيّة من الشخصيات وأراد أن يُلتم بكل تفاصيلها ودقائقها لم يسمح لنفسه بان يفعل ذلك من دون ان يراجع ابناء واقرباء تلك الشخصية التي يزعم ترجمتها والكتابة عنها.

(١) وقد ذكر المقرئبي في «الامتاع» ص ٣ جميع الاقوال المذكورة في يوم ميلاد النبي وشهره وعامه، فراجع.

ولقد مضى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وخَلَفَ من بعده ذرية وقربى وهم الذين يطلق عليهم اهل البيت.

واهل بيته يقولون: لو كان صحيحاً وحقا ان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ابونا وجدنا، وقد نشأنا في بيته وترعرعنا في حجره فاننا نقول انه قد ولد يوم كذا وتوفي يوم كذا فهل يبقى بعد ذلك مجال لأن نتجاهل قولهم ورأيهم، ونختار مايقوله الآخرون من الأبعدين، وقديماً قالوا: أهل البيت ادري بما في البيت؟^(١).

فَتْرَةُ الْحَمَلِ:

المعروفُ أن النورَ النبويَّ الشريف استقر في رحم آمنة - الطاهر في أيام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة^(٢)، ولكن هذا الامر لا ينسجم مع الرأي المشهور بين عامة المؤرخين من كون ولادة النبي الاكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في شهر ربيع الأول، اذ في هذه الصورة يجب ان نعتبر مدة حمل «آمنة» به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إما ثلاثة أشهر واما سنة وثلاثة اشهر، وكلا الامرين خارجان عن الموازين العادية في الحمل، كما أنه لم يعدّه احدٌ من خصائص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ^(٣).

ولقد عالَجَ المحققُ الكبيرُ الشهيد الثاني (٩١١ - ٩٦٦ هـ) هذا الإشكال

بالنحو التالي إذ قال:

إِنَّ ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلَى النَّسْبِ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَقَالَ: «إِنَّمَا النَّسْبُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ».

و توضيح هذا هو أن أبناء «إسماعيل» كانوا تبعاً لاسلافهم يؤدون مناسك الحج في شهر ذي الحجة، ولكنهم رأوا - في مابعد - أن يحجوا في كل شهر عامين

(١) ومن هنا لا بد من الاعتراف بان ما ينقله ويكتبه الامامية من تفاصيل تتعلق بحياة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هي اقرب من غيرها الى الحقيقة لأنها مأخوذة عن اقربائه وابنائهم عليهم السلام.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٤٣٩ أبواب التاريخ باب مولد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ووفاته.

(٣) قد ذكر الطريحي فقط في مجمع البحرين في مادة شرق قولاً بهذا الم يُسم قائله.

يعنى ان يحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم عامين وفي صفر عامين وهكذا.
وهذا يعنى أن الحج يعود كل اربعة وعشرين سنة في موضعه الطبيعي (اي شهر ذي الحجة).

وقد جرى العربُ المشركونُ على هذه الطريقة حتى صادفت أيامُ الحج شهر ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة النبوية فحج النبي صلى الله عليه وآله في تلك السنة حجة الوداع، فنهى في خطبة له عن هذه الفعلة (التي تسمى بالنسيء بمعنى تأخير الحج عن موضعه وموعده) فقال: «ألا وإنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيْئتهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةَ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ: ثَلَاثٌ مَتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ، وَمَحْرَمٌ، وَرَجَبٌ الَّذِي بَيْنَ جُمَادِي وَشَعْبَانَ»^(١).

وقد أراد صلى الله عليه وآله وسلم بذلك أن الأشهر الحرم رجعت الى مواضعها، وعاد الحجُ الى ذي الحجة وبطل النسيء.
ونزل في هذه المناسبة قولُ الله تعالى: «إِنَّمَا النِّسْيَاءُ إِزْيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهَ الذِّينَ كَفَرُوا يُحَلِّوْنَهُ عَامًا وَيَحْرَمُونَهُ عَامًا»^(٢).

من هنا تنتقل أيامُ التشريقِ كلَّ سنتين من مواضعها، على ما عرفت، وحينئذٍ لا منافاة بين القول بأن نور النبي انتقل إلى رحم أمه «آمنة بنت وهب» في أيام التشريق، وبين ما اجمع عليه عامة المؤرخين من أنه وُلِدَ في شهر ربيع الأول. وإنما تكون المنافاة بين هذين الأمرين إذا كان المراد من أيام التشريق هو اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من شهر ذي الحجة خاصة، ولكن قلنا أن أيام التشريق كانت تنتقل من شهر الى آخر باستمرار، فيلزم أن يكون عام حمل أمه به، وعام ولادته أيام الحج الواقعة في شهر جمادى الأولى، وحيث أنه صلى الله عليه وآله وُلِدَ في شهر ربيع الأول فتكون مدة حمل «آمنة» به عشرة أشهر تقريباً.

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٩.

(٢) التوبة: ٣٧.

مُؤَاخَذَاتُ وَإِشْكَالَاتُ عَلَى هَذَا الْبَيَانِ:

إن النتيجة التي توصل إليها المرحوم «الشهيد الثاني» ليست صحيحة، كما أن المعنى الذي ذكره للنسيء لم يقل به من بين المفسرين إلا مجاهد، وأما الآخرون فقد فسروه بنحو آخر فلا يكون التفسير الذي مرّ قوياً، وذلك:

أولاً: لأن «مكة» كانت مركزاً لجميع الاجتماعات كما كانت معبداً للعرب جميعاً، ولا يخفى أنّ تغيير الحج في كل سنتين مرةً واحدةً من شأنه أن يسبب الالتباس لدى الناس ويوقعهم في الخطأ والاشتباه، وبالتالي يتعرّض ذلك الاجتماع العظيم، وتلك العبادة الجماعية الى خطر الزوال.

ولهذا يُستبعد ان ترضى قريش والمكيون بان يخضع ما هو وسيلة لعزتهم وافتخارهم للتغيير والتبدل الذي من عواقبه ان يتعرض وقته وموعده للنسيان، فيذهب ذلك الاجتماع، ويزول من الاساس.

ثانياً: إذا أخضعنا ماقاله «الشهيد الثاني» لمحاسبة دقيقة فان كلامه يستلزم ان تكون ايام التشريق والحج في السنة التاسعة من الهجرة واقعة في شهر ذي القعدة لاجمادي الاولى في حين أن اميرالمؤمنين علياً عليه السلام كُلف في هذه السنة بالذات بأن يقرأ سورة البراءة على المشركين في ايام الحج، والمفسرون والمحدثون متفقون على أنه عليه السلام تلاها عليهم في العاشر من شهر ذي الحجة ثم امهلهم اربعة اشهر ابتداء من شهر ذي الحجة لا ذي القعدة^(١).

ثالثاً: ان النسيء يعني أنّ العرب حيث لم يكن لديهم مصدر صحيح للرزق بل كانوا يعيشون في الاغلب، على النهب والغارة لهذا كان من الصعب عليهم ترك الحرب، في الاشهر الحرم الثلاث (وهي ذوالقعدة وذوالحجة، والمحرم) لهذا ربما طلبوا من سدنة الكعبة بأن يسمحوا لهم بالقتال في شهر المحرم، ثم يتركون

(١) ولقد قام العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٢٥٣ بهذه المحاسبة، وان لم يشر الى الإشكال الذي أوردناه فليراجع.

الحرب في شهر صفر، وهذا هو معنى النسيء فلم يكن نسيء وتأخير للشهر الحرام في غير شهر محرّم، وفي الآية نفسها إشارة الى هذا المطلب: «يُحِلُّوْهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُوْهُ عَامًا».

والذي نراه في حل هذه المشكلة هو: أن العرب كانوا يحجّون في وقتين: أحدهما شهر ذي الحجة، والثاني شهر رجب، وقد كانوا يؤدّون كل مناسك الحج في هذين الوقتين على السواء، فيمكن أن يكون المقصود من حمل «آمنة» برسول الله صلى الله عليه وآله في أيام التشريق هو شهر رجب فإذا اعتبرنا يوم ولادته هو السابع عشر من شهر ربيع الاول كانت مدة حمل «آمنة» به ثمانية أشهر وإياماً.

الاحتفال بذكرى المولد النبوي:

وينبغي ان يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ويقىموا المهرجانات الكبرى في هذه المناسبة الشريفة التي كانت مبدأ الخير والبركة، ومنشأ السعادة والكرامة للبشرية جمعاء، وأية مناسبة اخرى بالاحتفال والاحتفاء من هذه المناسبة؟

على ان اقامة مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تكريم رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أمر مطلوب ومحبوب في الشريعة المقدسة.

فقد قال الله تعالى:

«فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوْهُ وَ نَصَرُوْهُ وَ اتَّبَعُوا النُّوْرَ الَّذِي اُنزِلَ مَعَهُ اُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١).

وعزّر بمعنى كرم وبجل كما في اللغة^(٢) وهو لا يختص بزمان دون زمان، فعلى المسلمين في كل وقت و زمان ان يعظّموا شأن رسول الله صلى الله عليه وآله، ويكرّمونه، سواء في حياته أو بعد مماته، لما له من فضل عظيم على الناس، ولما

(٢) راجع مفردات الراغب: مادة عزر.

(١) الأعراف: ١٥٧.

له من منزلة عند الله تعالى.

كيف لا والاحتفال بميلاده لا يعني سوى ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والاشادة بشرفه وفضله وهي أمور مدحه القرآن الكريم بها اذ قال سبحانه: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»^(١) وقال تعالى أيضاً: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»^(٢) وغير ذلك من الآيات المادحة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

فان الاحتفال بميلاد رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يتحقق بذكر صفاته وأخلاقه والاشادة به خير مصداق لرفع ذكره، الذي فعله الله بنحو ما. ولو كان رفع ذكر النبي صلى الله عليه وآله، أمراً غير جائز ولا صحيح، بل فعلاً قبيحاً لمافعل الله، فيكفي في حسنه وصحته بل ومشروعيته ومطلوبيته ان الله تعالى فعله بالنسبة لنبيه صلى الله عليه وآله.

و هل يكون الاحتفال بمولد رسول الله صلى الله عليه وآله، واظهار السرور والشكر لله تعالى بمقدم نبيه المبارك عبادة للنبي كما يزعم البعض اذ يقول:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم»^(٣).

والحال ان العبادة في مفهومها الاصطلاحي الموجب للشرك والكفر ليس إلا الخضوع لمن يُعْتَقَدُ بالوهيته وتعظيمه بهذه النية^(٤) واين هذا من ذكر فضائل النبي في يوم مولده والابتهاج بمقدمه والشكر لله على ولادته.

ثم ان تعظيم رسول الله صلى الله عليه وآله ينطلق من كونه عبداً مطيعاً لله تعالى، ادى رسالته بصدق واخلاص، وجسد بسلوكه وسيرته كل مكارم الاخلاق اصدق تجسيد فالاحتفال بمولده الكريم احتفال بالقيم السامية، وشكر لله على منته، واظهار للحب الكامن في النفوس ليس إلا.

والزعم بانه محرّم لكونه بدعة، او لأنه لا يخلو عن اشتماله على منكرات

(١) القلم: ٤. (٢) الانشراح: ٤.

(٣) فتح المجيد: ص ١٥٤، ثم نقل عن كتاب قرّة العيون ما يشابه هذا المضمون.

(٤) راجع مفاهيم القرآن في معالم التوحيد: ص ٤٠٤ - ٤٤٠.

ومحرمات كالرقص والغناء فهو مرفوض، مردود لان الكلام انما هو حول اصل الاحتفال مجرداً عن المحرمات والمنكرات.

ان الاحتفاء والاحتفال بمولد خاتم النبيين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انما هو تكريم لمن كرمه الله تعالى، وامر بتكريمه، وحث على احترامه وحبه، ومودته، وانه بالتالي اداء شكر لله تعالى على تلك الموهبة العظيمة، وتلك العطية المباركة حيث منّ سبحانه على البشرية عامة وعلى المسلمين خاصة بأن شرف الارض بمولود عظيم نعمت الارض ببركة شخصيته وخلقه، واشرقت بنور رسالته ودعوته، فاية نعمة ترى اولى بالشكر من هذه، واي شكر اجمل وافضل من الاحتفاء بمولد هذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله، وذكر فضائله، ومناقبه، للتعرف عليها، والاقتران بها، وتشديد الحب له بسببها، والابتهاج الى الله في يوم ميلاده، وطلب التوفيق الالهي لمتابعته، والسير على نهجه، والدفاع عن رسالته، والذبّ دون دينه، بعد الشكر لله تعالى على موهبته هذه؟؟

هذا ولقد درج المسلمون في العصور الإسلامية الاولى على الاحتفال بذكرى المولد النبوي وأنشأوا القصائد الرائعة في مدحه، وذكر خصاله ومكارم اخلاقه، واطهروا السرور بمولده والشكر لله تعالى بلطفه، وتفضله به صلى الله عليه وآله على البشرية.

قال الإمام الديار بكري في تاريخ الخميس في هذا الصدد:

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام ويعملون الولائم، ويتصدقون في ليلته بانواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم^(١).

أجل ينبغي على المسلمين ان يحتفلوا بمقدم نبيهم الكريم ولا يعبأوا بما قاله البعض حيث قال: «الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من

(١) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ج ١ ص ٢٢٣ نقلاً عن المواهب اللدنية: ج ١ ص ٢٧ للقسطاني.

العبادة لهم وتعظيمهم»^(١).

فهذا القول مغالطة صريحة، ان لم يكن نابعاً عن الغفلة والجهل بعد ان تبين حقيقة الاحتفال واقامة الذكريات احتفاءً بالمولد النبوي^(٢).

مَرَّاسِمُ تَسْمِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

حلَّ اليومُ السابعُ من الميلادِ المباركِ ، فعقَّ عبدالمطلب عن النبي بكبشٍ شكرياً لله تعالى ودعا جماعة ليشاركوا في الاحتفال الذي حضره عامة قريش لتسمية النبي، وسمّاه «محمّداً»، وعند ما سألوه عما حمّله على أن يسمي هذا الوليد المبارك «محمّداً» وهو اسم لم يعرفه العرب الا نادراً أجاب قائلاً: أردتُ أن يحمّد في السماء والأرض^(٣).

والى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله:

فَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجَلَّهُ فَدَفَاءً وَالْعَرْشَ مَحْمُودٌ وَ هَذَا مُحَمَّدٌ^(٤)

و من المسلم أن هذا الإختيار لم يكن ليتم من دون دخالة للإلهام الإلهي، لأن اسم «محمّد» وإن كان موجوداً عند العرب إلا أنه قلّ من كان قد تسمّى بهذا الإسم، فحسب ما استقصاه بعض المؤرخين لم يتسم به الى ذلك اليوم من العرب الا ستة عشر شخصاً كما يقول شاعرهم:

إِنَّ الَّذِينَ سُمُوا بِاسْمِ مُحَمَّدٍ مِنْ قَبْلِ خَيْرِ الْخَلْقِ ضِعْفُ ثَمَانٍ^(٥)

ولا يخفى أن ندرة المصاديق لأي لفظ من الالفاظ أو اسم من الأسماء من شأنها أن تقلّل فرص الاشتباه فيه، وحيث أن الكتب السماوية كانت قد أخبرت عن إسم النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وصفاته، وعلامته الروحية والجسمية، لذلك يجب أن تكون علامته صلى الله عليه وآله واضحة جداً جداً

(١) هوامش الفتح المجيد. (٢) راجع للتوسع: معالم التوحيد في القرآن الكريم.

(٣) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٧٨ و ٧٩.

(٤) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ١٢٠، والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٧٨ و ٧٩.

(٥) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٨٢ ثم يذكر صاحب السيرة اولئك الأشخاص في بيتين آخرين.

حتى لا يتطرق إليها التباس أو اشتباه، وقد كان من علامته صلى الله عليه وآله اسمه الشريف، فيجب أن تكون مصاديقها قليلة جداً حتى يزيل ذلك أي عروض للشك والترديد في تشخيص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خاصة إذا ضُمَّت إليه بقية أوصافه وعلائمه، وخصوصياته.

خَطَأُ الْمُسْتَشْرِقِينَ:

لقد ذكر القرآن الكريم اسمين او عدة أسماء للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ففي سورة آل عمران و محمد و الأحزاب والفتح في الآيات ١٤٤ و ٢ و ٤٠ و ٢٩^(١) سماه «محمدًا»^(٢).

و في سورة الصف الآية ٦^(٣) دعاه «أحمد».

و العلة في تسميته بهذين الإسمين أن أمه «آمنة» سمته «أحمدًا» قبل أن يسميه جده، كما هو مذكور في التاريخ.

و على هذا فإن ما ذكره بعض المستشرقين - في معرض الاعتراض - بأن الإنجيل - حسب تصريح القرآن الكريم في سورة الصف الآية ٦ - بشر بني اسمه «أحمد» لا «محمد» كلام لا أساس له ولا مبرر، لأن القرآن الكريم الذي سمي نبينا بـ: «أحمد» سماه في عدة مواضع بـ: «محمد» فإذا كان المصدر في تعيين اسم النبي هو: القرآن الكريم، فإن القرآن سماه بكلا الاسمين، في موضع باسم

(١) يعتقد البعض أن هذا ليس اسماً للنبي صلى الله عليه وآله بل هو من الحروف المقطعة في القرآن.

(٢) قال تعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ».

وقال تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ».

وقال سبحانه: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ».

وقال عز وجل: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ».

(٣) اذ قال سبحانه: «وَمُبَشَّرًا بِرَسُولٍ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ».

«محمَّد»، وفي موضع آخر باسم «أحمد».

«أحمد» كان من أسماء النبي المشهورة:

كلُّ من كان له ادنى إمام بتاريخ النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم علم أنه صلى الله عليه وآله كان يُدعى بإسمين في الناس منذ صغره أحدهما: «محمَّد» الذي سمّاه به جدُّه «عبدالمطلب»، والآخر «أحمد» الذي سمته به أمه «آمنة».

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الإسلامي، وقد روى المؤرخون هذا الأمر، ويمكن للقارئ الكريم أن يقرأه في السيرة الحلبية^(١).

ولقد أنشأ عمُّه «أبوطالب» - الذي أنيطت إليه كفالاته بعد وفاة عبدالمطلب، فبقي يقوم بهذه المهمة طوال اثنين وأربعين عاماً بكل حرص ورغبة، ولم يمتنع في هذا السبيل عن بذل كل ما استطاع من غال ورخيص انشأ في ابن أخيه أبياتاً سمّاه في بعضها «محمَّد» وفي بعضها الآخر «أحمد»، وهذا يكشف عن انه صلى الله عليه وآله كان معروفاً آنذاك بكلا الاسمين.

واليك فيما يأتي بعض هذه الأبيات التي سمى فيها «أبوطالب» النبي باسم احمد:

- ١ - إن يكن مأتى به أحمد اليوم
 - ٢ - وقوله لأحمد أنت أمرء
 - ٣ - وإن كان أحمد قد جاءهم
 - ٤ - أرادوا قتل أحمد ظالموه
 - ٥ - ألا إن خير الناس نفساً ووالداً
 - ٦ - فلنسنا وبيت الله نسلم أحمداً
- سَنَاءً وَكَانَ فِي الْحَشْرِ دِيناً
خَلُوفُ الْحَدِيثِ ضَعِيفُ النُّسْبِ
بِحَقِّ وَلَمْ يَأْتِهِمْ بِالْكَذِبِ
وَلَيْسَ بِقَتْلِهِمْ فِيهِمْ زَعِيمُ
إِذَا عُدَّ سَادَاتُ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدُ
لِعِزَاءِ مَنْ عَضَ الزَّمَانَ وَلَا كَرْبِ^(٢)

وقد سمى «أبوطالب» النبي صلى الله عليه وآله في أبيات اخرى بأحمد

(٢) ديوان أبي طالب عليه السلام.

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٨٢ و ٨٣.

أيضاً قد ذكرها كبار المحققين من المؤرخين والمحدثين ونسبوها الى أبي طالب ولكنها غير موجودة في ديوانه^(١).

كما وأنه قد سَمَّاه غيرُ أبي طالب في أبياته بأحمد ممَّا يدل على أنه كان مشتهراً بهذا الاسم في ذلك الزمان، وتلك الابيات كثيرة تفوق حدَّ الحصر والاحصاء لكننا ننقل نماذج منها هنا:

قال حسان بن ثابت في رثائه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:
مفجعةٌ قد شفها فقدُ أحمدُ فظلتُ لآلاءِ الرسولِ تُعدُّ
أطالت وقوفاً تذرِفَ العينَ جُهدُها على ظلِّ القبرِ الذي فيه أحمدُ^(٢)
وقال في رثائه أيضاً:

صَلَّى الألهُ وَمَنْ يُحِيقُ بعرشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى المَبَارِكِ أَحْمَدِ^(٣)
وقال في رثاء جعفر بن أبي طالب الطيَّار:

فمن كان أو يكون كأحمد نظام الحق أو نكال للمحد^(٤)
وقال حسان وهو يذكر معجزة من معاجز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:
ففي كَفِّ أَحْمَدَ قَدْ سَبَّحْتُ عُيُونٌ مِنَ المَاءِ يَوْمَ الظَّمَا^(٥)
وقال كعبُ بن مالك:

فهذا نَبِيُّ اللهُ أَحْمَدُ سَبَّحْتُ صِغَارُ الحِصَى فِي كَفِّهِ بِالتَّرْنَمِ^(٦)
وقال «ورقة بن نوفل» يومَ أخبرتهُ خديجةُ ينزول الوحي على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

(١) مثل قوله:

لعمري لقد كلفتُ وَجْداً بأحمد وَأَحْبَبْتُهُ حُبِ الحَبِيبِ المِوَاصلِ
زعمتُ قريشُ أن أحمد سَاحِرٌ كَذِبَتْ وَرَبَّ الرَاقِصَاتِ إِلَى الحَرَمِ

راجع ديوان أبي طالب، وسيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٧٢، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٧٩ وغيرها.

(٢) و (٣) ابن هشام في سيرته: ج ٢ ص ٦٦٧ و ٦٦٦، وابن سعد في طبقاته: ج ٢ ص ٣٢٣.

(٤) شاعر عهد الرسالة: تحقيق محمد عزت نصرالله.

(٥) و (٦) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٤١٣ و ٤١٥.

فَإِنَّ يَكُ حَقًّا يَا خَدِيجَةُ فاعلمي حَدِيثُكَ إِيَّانَا فَاحْمَدُ مُرْسَلٌ^(١)
 وقالت عاتكة بنت عبدالمطلب ترثي النبي صلى الله عليه وآله:
 يا عينُ جُودي مابقيتِ بعبرة سَحًّا على خير البرية أحمد^(٢)
 وقال العباسُ في مناسبة تزويج النبي صلى الله عليه وآله بخديجة:
 أحمدُ سَيِّدُ الْوَرَى خَيْرُ مَاشٍ وَ رَاكِب^(٣)

فِتْرَةُ الرِّضَاعِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

لم يرتضع وليدُ قریش المبارك «محمد» من أمه سوى ثلاثة أيام، ثم حظيت بفخر إرضاعه - بعد ذلك - امرأتان هما:

١ - «ثوية» مولاة «أبي لهب»، وقد أرضعته أربعة أشهر فقط، وكان النبي صلى الله عليه وآله وزوجته الوفية: «خديجة بنت خويلد» يقدران هذا العمل لها حتى آخر لحظات حياتها^(٤).

و «ثوية» هذه كانت قد أرضعت قبل ذلك «حمزة» عم النبي صلى الله عليه وآله و «أباسلمة بن عبدالله المخزومي» أيضاً فكانوا إخوة من الرضاعة^(٥).
 وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بعد مبعثه، من يشتريها من «أبي لهب» ليعتقها فابى^(٦).

وكان النبي صلى الله عليه وآله يكرمها كلما دخلت عليه، وكان يبعث إليها بالصلة إلى أن بلغه خبر وفاتها عند منصرفه من وقعة «خبر» فسأل عن ابنها فقيل: مات قبلها، فسأل عن قرابتها، فقيل: لم يبق منهم أحد^(٧).

٢ - «حليمة السعدية» بنت ابي ذؤيب التي كانت من قبيلة سعد بن بكر بن هوازن، وكان أولادها عبارة عن: «عبدالله»، «أنيسة»، «شياء»، وقد

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٩٥. (٢) الطبقات الكبرى: ج ٢ ص ٣٢٦.
 (٣) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٧٢. (٤) تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس: ج ١ ص ٢٢٢.
 (٥) السيرة النبوية: ج ٣ ص ٩٦. (٦) الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٢٧١.
 (٧) تاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٥ نقلاً عن سيرة مغلطاي وغيره.

قامت آخر أولادها وهي «الشيء» بحضارة النبي صلى الله عليه وآله أيضاً: وقد كان من عادة العرب يومذاك هو أن يدفعوا أولادهم الرضعاء إلى المراضع اللاتي كُنَّ يَعِشْنَ في البوادي لينشأوا في تلك البيئات المعروفة بطيب هوائها، وقلة رطوبتها، وعدوبة مائها ببنية قوية، هذا مضافاً إلى صيانتهم عن خطر الوباء الذي كان يهدد الأطفال في «مكة»، ولأن ذلك كان له مدخلٌ عظيمٌ، وتأثيرٌ بليغٌ في فصاحة المولود لسلامة لغة أهل القبائل الساكنة في البوادي آنذاك .

و كانت مراضعُ بني سعد من المشهورات بهذا الأمر بين العرب، فقد كانت نساء هذه القبيلة التي كانت تسكن حوالي «مكة» ونواحي الحرم يأتين «مكة» في كل عام في موسم خاص يلتمسن الرضعاء ويذهبنَ بهم إلى بلادهنَّ حتى تتم الرضاعة.

وكان النبي صلى الله عليه وآله قد تجاوز شهره الرابع لما قدمت نساء من بني سعد «مكة» يلتمسن الرضعاء في سنة جدب وقحط، ولهذا كُنَّ بحاجة شديدة إلى مساعدة أشرف «مكة» واعيانها.

ويقول بعض المؤرخين: أنه لم تقبل أية واحدة من تلك المراضع أن تأخذ «محمداً» بسببِ يتمه، وقد كان اغلبهن يُرَدْنَ أن تأخذن من يكون له أبٌ حيٌّ حتى يُغدقَ عَلَيْنَهُنَّ بالمساعدات والصلوات، وحتى «حليمة» هي الأخرى أبت أخذهُ، ولكنها أيضاً لم تحصل على طفلٍ لهزال جسمها، فاضطرت الى أن تأخذ حفيد «عبدالمطلب» وقالت لزوجها: والله لأذهبنَّ الى ذلك اليتيم فلاخذنَّهُ، فقال لها زوجها: لا عليك ان تفعلي، عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة.

ولقد اصاب الزوجان في ظنهما هذا، فنذ أن أبدت «حليمة» استعدادها لخدمة ذلك اليتيم شملت اللطاف الالهية كل مجالات حياتها.^(١)

إن القسم الأول من هذه القصة ليس سوى اسطورة، لأن مكانة البيت

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣.

المهاشمي الرفيعة، وشخصية رجل عُرفَ بِكَمال الجود والاحسان، وبعون المحتاجين والمحرومين كانت سبباً في أن لا تعرض المرضعات عن اخذ «محمد» فحسب، بل يتنازعن على اخذه ولهذا لا يكون هذا القسم من التاريخ سوى اسطورة تكذبها الحقائق.

واما علة عدم اعطائه صلى الله عليه وآله وسلم الى غير «حليمة» من المرضعات فهي: أن وليد قريش لم يقبل أيّ ثدي من أئداء تِلْكم المرضعات، ولم يزل كذلك حتى قبلَ ثدي «حليمة السعدية»، فسَرَّ بذلك «عبدالمطلب» وأهله سروراً عظيماً، بعد أن حزنهم امتناعه عنهنَّ قبل ذلك^(١).

قالت «حليمة»: استقبلني عبدالمطلب فقال: من انت، فقلت: أنا امرأة من بني سعد، قال: ما اسمك؟ قلتُ: حليمة، فتبسّم «عبدالمطلب» وقال: بَخْ بَخْ سَعْدٌ وحلْمٌ، خصلتان فيها خيرُ الدهر، وعز الأبد^(٢).

نظرة الإسلام في تأثير الرضاع:

وهنا ينبغي بالمناسبة أن نشير الى نظرة الإسلام في تأثير الرضاع في شخصية الإنسان.

فقد سبق الإسلام العلم الحديث في الكشف عن آثار اللبن في تكوين الإنسان الخُلقي والنفسي والعضوي سلباً وإيجاباً.

ولهذا حثَّ الإسلام على استرضاع الام، كما حث على اختيار المرضعات الصالحات ونهى عن استرضاع اليهودية والمجوسية والنصرانية والمجنونة منعاً من انتقال طباعهنَّ إلى الطفل عن طريق الوليد.

واستكمالاً لهذا البحث نورد جملة من الأحاديث التي تصرح بهذه الحقيقة

العلمية الهامة:

١ - قال امير المؤمنين علي عليه السلام:

(٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٥٩.

(١) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٣٤٢ و ٣٤٣.

«تَخَيَّرُوا لِلرَّضَاعِ كَمَا تَخَيَّرُونَ لِلنِّكَاحِ فَإِنَّ الرَّضَاعَ يُغَيِّرُ الطَّبَاعَ»^(١).

٢ - و عنه عليه السَّلام ايضاً:

«أَنْظَرُوا مَنْ يُرَضَعُ أَوْلَادَكُمْ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَشُبُّ عَلَيْهِ»^(٢).

٣ - عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السَّلام انه قال:

«لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُعَدِي، وَإِنَّ الْغُلَامَ يَنْزِعُ إِلَى

اللَّبَنِ...»^(٣).

٤ - و عنه عليه السَّلام ايضاً:

«اسْتَرْضِعْ لَوْلَدِكَ بِلَبَنِ الْحِسَانِ وَ إِيَّاكَ وَ الْقِبَاحُ فَإِنَّ اللَّبْنَ قَدْ يُعَدِي»^(٤).

٥ - و عن علي عليه السَّلام انه قال:

«مَا مِنْ لَبَنٍ يَرْضَعُ بِهِ الصَّبِيُّ أَعْظَمُ بَرَكَتَةً عَلَيْهِ مِنْ لَبَنِ أُمِّهِ»^(٥).

(١) قرب الأسناد: ص ٤٥.

(٢) فروع الكافي: ج ٢ ص ٩٣.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٨٨.

(٤) التهذيب: ج ٢ ص ٢٨٠.

(٥) روضة المتقين: ج ٨ ص ٥٥٤.

فَترَةُ الطُّفُولَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

إن صفحات التاريخ تشهد بأن حياة رسول الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من بداية طفولته وأوان صباه وإلى يوم بعثه بالرسالة كانت مشحونة بسلسلة من الحوادث العجيبة التي تعدُّ بأجمعها من كراماته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وتدل على أن حياة النبي لم تكن حياة عادية.

وينقسم المؤلفون في تفسير هذه الحوادث إلى طائفتين:

١- الماديون، وجماعة من المستشرقين: فإن العلماء الماديين الذين يمحسون الوجود في نطاق المادة، ويعتبرون جميع الظواهر ظواهر مادية، وينحتون لكل واحدة منها علة طبيعية، لا يهتمون بهذه الحوادث ولا يُعبرونها أية أهمية، لامتناع واستحالة وقوع أمثال هذه الظواهر حسب النظرة المادية، ولهذا فكل ما يصادفونه في ثنايا التاريخ من هذا الباب يعتبرونه من ولائد الخيال، ومما نسجته أوهام التابعين لذلك الدين، أو الطريقة.

وقد تبعهم في هذا الموقف جماعة من المستشرقين فرغم أنهم يعتبرون أنفسهم - حسب الظاهر- في عداد الموحدين، والمؤمنين بالله، وبما بعد الطبيعة من عوالم الغيب، إلا أنهم - لضعف إيمانهم وبسبب غرورهم العلمي، وغلبة النزعة المادية على أفكارهم وأذهانهم - اتبعوا - لدى تحليلهم لهذه الحوادث - المنهج المادي، فنحن

نقرأ في كتاباتهم مراراً وتكراراً زعمهم بأن النبوة ماهي إلا نبوغ بشري، وأن النبي مجرد نابغة اجتماعية استطاع تغيير مسار الحياة البشرية بافكاره النيّرة!! ولاشك أن مثل هذا التصور ينبع من طريقة التفكير المادي الذي يعتبر جميع الأديان من ولائد الفكر البشري وافرازات الذهن الانساني، في حين ان علماء العقيدة اثبتوا في: مباحث «النبوة العامة» أنّ النبوة عطية الهية، رموهبة ربانية هي في الحقيقة منشأ جميع الالهامات والارتباطات المعنوية، ومصدر لمناهج الانبياء وبرامجهم، ليست أبداً وليدة نبوغهم الإنساني، ولانسجة فكرهم البشري، وليس لها مصدر إلا الإلهام من الغيب، ولكن عندما ينظر المستشرق المسيحي الى هذه القضايا من زاوية الفكر المادي ويريد تفسير جميع هذه الظواهر بالأسس العلمية التي كشف عنها التجربة ينتقد مثل هذه الحوادث ذات الطابع الاعجازي، وربما انكرها من الاساس.

٢ - المؤمنون بالله: الذين يعتقدون بأن العالم المادي بجميع خصوصياته وخواصه يخضع لتدبير عالم آخر، وأن ذلك العالم (اي عالم التجرد وماوراء الطبيعة) هو المنظم لهذه الطبيعة، وهو المدير لهذا الكون المادي. وبعبارة أخرى إن عالم المادة ليس عالماً مسيَّباً، مستقلاً عن غيره، وان جميع الانظمة والقوانين الطبيعية والعلمية مسببة عن تأثيرات موجودات عليا، وبخاصة ناشئة عن إرادة الله الخالق، الذي اعطى للمادة وجودها، وأوجد القوانين والعلاقات الصحيحة بين أجزائها، وبنى بقاءها على سلسلة من النواميس الطبيعية.

إن هذا الفريق من الناس مع احترامهم للقوانين العلمية، واذعانهم الصادق بماقاله العلماء في صعيد العلاقات، والروابط القائمة بين القوانين مما أثبتته العلم واكده، يعتقدون بأن مثل هذه القوانين الطبيعية ليست أموراً لا تقبل التغيير، والتبدل.

فهم يعتقدون بأن العالم الاعلى يمكنه -إذا أراد- أن يُغيّر تلك القوانين لغايات خاصة، وليس في مقدوره ذلك فقط، بل فعل ذلك في جملة من الموارد

لأهداف عليا.

وبعبارة أخرى: إنَّ الافعال الخارقة للعادة ليست ظواهر عارضة عن العلل، بل إنَّ علتها غير طبيعِيَّة، وافتقاد العلة الطبيعية (وخاصة العلة الطبيعية غير المعروفة) ليس دليلاً على افتقاد مطلق العلة.

والخلاصة؛ إن قوانين الحلقة ليست بحيث لا يمكن تبديلها، وتغيُّرها بارادة بارئها وخالقها.

إنهم يقولون: إنَّ جميع خوارق العادة، وجميع أفعال الأنبياء العجيبة التي تتصف بصفة الاعجاز، والخارجة عن اطار القوانين الطبيعية، تتحقق من هذه الزاوية.

إنَّ هذا الفريق من الناس لا يسمِّحون لأنفسهم بان يرفضوا الأعمال الخارقة للعادة، والكرامات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، والاحاديث، أو وردت في المصادر التاريخية الصحيحة المعتبرة، أو يشكِّون فيها بحجة أنها لا توافي الموازين الطبيعية، والقوانين العلمية.

وها نحن نشير إلى قضيتين عجيبتين وقعتا في فترة الطفولة من حياة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ومع اخذ ماقلناه بنظر الاعتبار لايبقى أي مجال للترديد، أو الاستبعاد:

١ - لقد نقلَ المؤرخون عن «حليمة السعدية» قولها بأنها لما تكفَّلت إرضاع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فأخذت أن ترضعه في محضر أمِّها، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، وأخذت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حجرها، ووضعت ثديها في فمه، فترك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى ثديها الأيمن، فأخذت «حليمة» ثديها الأيمن من يد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ووضعت ثديها الأيسر في فمه وذلك أنَّ ثديها الأيمن كان جهاماً (أي خالياً من اللبن ولم يكن يدرُّبه)، وخافت «حليمة» أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اذا مصَّ الثدي ولم يجد فيه شيئاً لا يأخذ - بعده - الأيسر. ولكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اذا مصَّ الثدي الأيمن، فلما مصَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الأيمن امتلأ فانفتح حتى ما يشد فيه

فادهش الجميع ذلك^(١).

٢ - وتقول «حليمة» أيضاً: إن البوادي أجذبت وحملنا الجُهد على دخول البلد، فدخلت مكة مع نساء بني سعد فأخذت رسول الله صلى الله عليه وآله فعرفنا به البركة والزيادة في معاشنا ورياشنا حتى أثرينا، وكثرت مواشينا، وأموالنا^(٢).

إنَّ مَنْ المسلم أنَّ حكم الماديين، او من يحدو حدوهم ويتبع منهجهم في هذه المسائل يختلف عن حكم المؤمنين بالله.

فإن أتباع المنهج المادي اذ عجزوا عن تفسير هذا النوع من القضايا من زاوية العلوم الطبيعية، نجدهم يبادرون الى اعتبار هذه الحوادث من نسج الخيال، ومن ولائد الاوهام، واما اذا كانوا اكثر تأدباً لقالوا: إن رسول الإسلام ليس بحاجة إلى أمثال هذه المعاجز.

ونحن نقول: لانقاش في أن النبي صلى الله عليه وآله غني عن هذه المعاجز إلا أن عدم الحاجة شيء، والحكم بصحة هذه الأمور او بطلانها شيء آخر. وأما المؤمن بالله الذي يردُّ النظام الطبيعي، إلى مشيئة الله خالق الكون وارادته العليا، ويعتقد بأن كل الحركات والظواهر في العالم الطبيعي من اصغر اجزائه (الذرة) الى اكبر موجوداته (المجرة) يجري تحت تدبيره، ونظارته، فانه بعد التحقق من مصادر هذه الحوادث والتأكد من وقوعها ينظر إليها بنظر الاحترام، وأما إذا لم يطمئن إليها لم يرفضها رفضاً قاطعاً.

ولقد ورد في القرآن الكريم نظائر عديدة لهذه القصة حول «مريم» أم عيسى فالقرآن يخبرنا عن تساقط الرطب الجنّي من جذع النخلة اليابسة كرامة لوالدة المسيح عندما لجأت إليه مريم عند المخاض إذ يقول:

«... أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ بِجُذُعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا»^(٣).

(١) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٣٤٥ و ٣٤٦. (٢) المناقب لابن شهر آشوب: ج ١ ص ٢٤. (٣) مريم: ٢٤ و ٢٥.

إنه وإن كان الفرق بين «مريم» و «حليمة» شاسعاً وكبيراً من حيث الملكات الفاضلة والمكانة، والمنزلة، إلا أن منزلة «مريم» عليها السلام لو استوجبت مثل هذا اللطف الالهي، ففي المقام استوجب نفس مقام الوليد العظيم، ومكانته عند الله تعالى أن تشمل العناية الالهية.

كما انه قد جاء في القرآن الكريم حول مريم عليها السلام امور أخرى مشابهة. ان عصمة هذه المرأة الطاهرة، وتقائها وطهرها البالغ كانت بحيث أن «زكريا» كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فاذا سأها: من أين لك هذا قالت: هو من عند الله؟^(١).

وَعَلَىٰ هَذَا الْأَسَاسِ يَجِبُ أَنْ لَا تَرُدَّهُ وَلَا تَسْمَحَ لِأَنْفُسِنَا بِأَنْ نَشْكُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْكِرَامَاتِ، أَوْ نَسْتَبْعِدَهَا.

خَمْسَةُ أَعْوَامٍ فِي الصَّخْرَاءِ:

أمضى وليد «عبدالمطلب» في قبيلة «بني سعد» مدة خمسة أعوام، بلغ فيها أشده.

وخلال هذه المدة اخذته «حليمة» إلى أمه مرتين أو ثلاث، وقد سلّمته إلى أمه في آخر مرة.

وكانت المرة الأولى من تلك المرات عند فطامه، ولهذا السبب أتت به صلى الله عليه وآله «حليمة» الى مكة ولكنها عادت به إلى الصحراء باصرار منها، وكان السبب وراء هذا الاصرار على اصطحابها معها إلى البادية هو أن هذا الوليد قد أصبح مبعث خير ورخاء، وبركة في منطقتها، وقد دفع شيوع مرض الوباء في «مكة» إلى ان تقبل أمه الكريمة بهذا الطلب^(٢).

وأما المرة الثانية من تلك المرات فكانت عندما قدم جماعة من نصارى

(١) «... وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». (آل عمران: ٣٧). (٢) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٤٠١.

الحبشة الى الحجاز، فوقع نظرهم على محمد صلى الله عليه وآله في «بني سعد»، ووجدوا فيه جميع العلام المذكورة في الكتب السماوية للنبي الذي سيأتي بعد عيسى المسيح عليه السلام، ولهذا عزموا على أخذه غيلة الى بلادهم لماعرفوا ان له شأنًا عظيمًا، لينالوا شرف احتضانه ويذهبوا بفخره^(١).

ولاجمال لاستبعاد هذه القضية لأن علام النبي صلى الله عليه وآله ذكرت في الانجيل حسب تصريح القرآن الكريم، فلا يبعد أن علماء النصارى قد تعرفوا في ذلك الوقت على النبي من العلام التي قرأوها ودرسوها في كتبهم. يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

«وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ بَنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ»^(٢).

ثم ان في هذا الصعيد آيات أخر صرحت بجلاء بأن علام رسول الإسلام في الكتب السماوية الماضية في وضوح، ومن غير إبهام، وأن الامم السابقة كانت على علم بهذا الأمر^(٣).

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٦٧.

(٢) الصف: ٦.

(٣) «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل».

(الأعراف: ١٥٧).

العُودَة

إلى أحضان العائلة

لقد خَلَقَتْ يَدُ القُدْرَةِ الإلهية كلَّ فردٍ من أفراد النوع الإنساني لأمر معين، فهناك من خلق لاكتساب العلم والمعرفة، وهناك من خُلِقَ للاختراع والاكتشاف، وثالثٌ خلق للسعي والعمل، وبعضٌ للتدبير والسياسة وفريقٌ للتدريس والتربية وهكذا.

وإن المرثين المخلصين الذين يهتمهم تقدم الأفراد أو رقي مجتمعاتهم لا يعمدون إلى نصب أحدٍ في عملٍ من الأعمال ولا يعهدون إليه مسؤولية من المسؤوليات إلا بعد اختبار سليقته ومواهبه، بغية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، إذ في غير هذه الحالة يتعرض المجتمع لضررين كبيرين: أحدهما: أن لا يوكل إلى الفرد ما يستطيع القيام به، والثاني: أن يبقى العمل الذي قام به ناقصاً، مبتوراً. وقد قيل في المثل: لكل إنسان موهبة، والسعيد هو من اكتشف تلك الموهب، وأصابها.

وقد ذكروا أن استاذاً كان ينصح تلميذاً له كسولاً، ويعدّد له مضارّ الكسل والتواني، ويصف له حال من ترك الاشتغال بالعلم، وضيع ربيع حياته في البطالة والغفلة.

وبينا الاستاذ ينصح تلميذه -وهو يسمع مواعظ أستاذه- رأى تلميذه يرسم

بقطعة من الجص صورة على المنضدة، فادرك من فوره أن هذا الصبي لم يُخلق للدرس وتحصيل العلم، بل خلقت يد القدرة للرسم، فطلب منه أن يصطحب أباه الى المدرسة في اليوم القادم، ثم قال لوالد الصبي: إذا كان ولدك هذا كسولاً في التعلم، والتحصيل فانه يمتلك ذوقاً رفيعاً في الرسم، ورغبة كبيرة في التصوير.

وقبل الوالد نصيحة المعلم هذه ولم يمض زمانٌ طويلٌ إلا وبرع الصبي وغدى قمة في هذا الفن، بعد أن تابع هوايته بشغف وأكثر من ممارستها. إن فترة الطفولة والصبا في حياة الأشخاص خير فرصة لأولياء الأطفال بأن يختبروا مواهب أبنائهم، ويتعرفوا عليها من خلال تصرفاتهم، وأفكارهم وردودهم، لأن حركات الطفل وأقواله الجميلة والحلوة خير مرآة لما ينطوي عليه من مواهب وقابليات وصفات لتوفرت لها ظروف التربية الصحيحة لأمكن الاستفادة منها على أفضل صورة، وأحسن وجه.

إن مطالعة فاحصة لحياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأقواله وأفعاله الى وقت البعثة المباركة تُوقفنا على صورة كاملة لشخصيته صلى الله عليه وآله وتوضح لنا أهدافه العليا، على أن مطالعة صفحات الطفولة في حياته صلى الله عليه وآله فقط لا تكشف لنا عن مستقبله المشرق، بل ان دراسة الصورة الاجمالية لحياته وتاريخه إلى يوم مبعثه الشريف، وإعلانه عن نبوته وقيادته للمجتمع، تخبرنا عن ذلك المستقبل العظيم، وبالتالي عن هذه الحقيقة وهي أن هذه الشخصية خُلقت لأبي عمل، وأن إدعاء الرسالة والقيادة له هل ينسجم مع سوابقه التاريخية أم لا؟؟؟

هل تُؤيد تفاصيل حياته خلال أربعين سنة قبل الرسالة، وهل تُؤيد أفعاله وأقواله، وبالتالي: سلوكه مع الناس ومعاشرته الطويلة مع الآخرين رسالته أم لا؟؟؟

من هنا نعمدُ الى عرض بعض الصفحات من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في أيامها وسنواتها الاولى.

لقد حافظت مرضعةُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيْهِ خَمْسَ سِنَوَاتٍ، وَقَامَتْ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ بِرِعَايَةِ شُؤُونِهِ خَيْرَ قِيَامٍ، وَبَالِغَتْ فِي كِفَالَتِهِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ، وَفِي خِلَالِ هَذِهِ الْمُدَّةِ تَعَلَّمَ النَّبِيُّ لُغَةَ الْعَرَبِ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ، حَتَّى أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَفْتَخِرُ بِذَلِكَ فِي مَا بَعْدَ إِذْ كَانَ يَقُولُ:

أَنَا أُعْرِبُكُمْ (أي أفصحكم)... وارضعت في بني سعد»^(١).

ثم إن «حليمة» جاءت به إلى «مكة»، وبقي عند أمه الحنون ردهاً من الزمن، وفي كفالة جده العظيم: «عبدالمطلب» ردهاً آخر منه، وكان هو السلوة الوحيدة لأقاربه والبقية الباقية من أبيه: «عبدالله»^(٢).

سَفْرَةٌ إِلَى يَثْرِبَ:

منذ أن فقدت كَتَّةُ «عبدالمطلب» وعروس ابنها: «آمنة» زوجها الشاب الكريم: «عبدالله» باتت تترقب الفرص لتذهب إلى «يثرب» وتزور قبر زوجها الحبيب الفقيد عن كثب، وتزور أقاربها في يثرب في نفس الوقت. وذات مرة فكَّرت بأن تلك الفرصة قد سنحت، وأن ولدها «محمدًا» قد كَبُرَ، ويمكنه أن يشاركها في حزنها، فتهيأت هي وأمّ أيمن للسفر، واتجهت نحو يثرب برفقة «محمد»، ولبثت هناك شهراً.

ولقد انطوت (وبالاحرى حملت) هذه السفرة على بعض الآلام الروحية لوليد قريش «محمد» لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَى فِيهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ الْبَيْتَ الَّذِي تُوْفِيَ فِيهِ وَالِدُهُ الْعَزِيزُ، وَدَفِنَ^(٣) وَكَانَتْ وَالِدَتُهُ قَدْ حَدَّثَتْهُ بِأُمُورٍ عَنِ وَالِدِهِ إِلَى ذَلِكَ الْحِينِ.

وكانت لاتزال سحابةُ الحزن تخيم على روحه الشريفه إذ فوجئ بمحادثه مقرحة أخرى، وغشيه موج آخر من الحزن لأنه عند عودته من مكة فقد أمه

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٨٩.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٦٧.

(٣) كان البيت الذي يضم قبر «عبدالله» عليه السلام لا يزال موجوداً حتى قبيل توسعة الدائرة حول المسجد النبوي الطاهر، ولكنه أزيل بحجة إجماع تلك التوسعة.

العزيزة في اثناء الطريق في منطقته تدعى بـ «الابواء»^(١).

إن هذه الحادثة قد عززت مكانة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في عشيرته أكثر فأكثر، وجعلته يتمتع بمحبة أزيد منهم، فهو الزهرة الوحيدة من تلك الجنيحة المباركة، كما انه صار منذ ذلك الحين يتمتع بعناية أكبر من قبل جده «عبدالمطلب» ولهذا كان يحبه أكثر من أبنائه، بل ويؤثره عليهم جميعاً.

ومن ذلك أنه كان يُمدد في فناء الكعبة المعظمة بساط لزعيم قريش «عبدالمطلب» فيجلس هو عليه ويتحلق حوله وجوه قريش وسادتها وأولاده فإذا وقعت عيناه على بقية عبدالله «محمد» أمر بأن يُفرج له حتى يتقدم نحوه ثم يُجلسه الى جنبه على ذلك البساط المخصوص به^(٢).

ان القرآن الكريم يُذكر النبي صلى الله عليه وآله بفترة يتمه ويقول: «ألم يجدك يتيماً فأوى».

إن الحكمة وراء يتم وليد قريش ليست واضحة لنا تمام الوضوح، ولكننا نعلم إجمالاً بأن سيل هذه الحوادث المؤلمة أحياناً، والمزعجة أحياناً أخرى لم يك خالياً عن حكمة معقولة ومصلحة رشيدة، بيد أننا مع كل هذا يمكن لنا الحدس بأن الله تعالى أراد أن يذوق قائد العالم البشرى ومعلمه، وإمام الانسانية وهادياها -وقبل ان يتسلم مهامه، ويزاول مسؤولياته العظمى وابدأ قيادته- حلو الحياة ومرها، ويجرب سراء العيش وضراءه، حتى تتهيأ لديه تلك الروح الكبرى الصبورة الصامدة، ويدخر من تلك الحوادث الصعبة تجارب ودروساً، ويعد نفسه لمواجهة مسلسل الشدائد والمصاعب، والمشاق والمتاعب التي كانت تنتظره في المستقبل.

وربما أراد الله تعالى أن لا تكون في عنق نبيه طاعة لأحد، ولهذا أنشأه حراً خلياً من كل قيد، منذ الايام الأولى من حياته، يصنع نفسه بنفسه ويقيظ لها موجبات الرشد، واسباب الرقي ليتضح أن نبوغه ليس نبوغاً بشرياً عادياً ومألوفاً

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٦٨.

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٠٥.

وانه لم يكن لوالديه اي دخل فيه وفي مصيره، وبالتالي فان عظمتها الباهرة نابعة من مصدر الوحي، وليست من العوامل العادية والاسباب المألوسة المتعارفة.

وفاة عبدالمطلب:

لقد جرت عادة الحياة ان تتعرض للمرء باستمرار، وتستهدف سفينة حياته كالأمواج المتلاحقة مُوجَّهة ضرباتها القوية لروحه، ونفسه. أجل هذه هي طبيعة الحياة وسنتها مع أفراد النوع الانساني من دون استثناء.

ولم يكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِمَعزَلٍ عن هذه السنة المعروفة وهذه القاعدة الحياتية العامة.

فلم تكن أمواج الحزن تفارق قلب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لوفاته والديه بعد حتى فاجأته مصيبة كبرى.

إنه لم يكن يمض من عمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أكثر من ثمان سنوات إلا وفقد جدّه العظيم «عبدالمطلب»، وقد اعتصرت وفاة «عبدالمطلب» قلب رسول الله أماً وحزناً، وكان لها وقعٌ شديدٌ على نفسه المباركة، حتى أنه بكى لفقدته بكاءً شديداً وظلّت دموعه تجري من أجله إلى أن وري في لحده، ولم ينس ذكره ابداً!!^(١).

كفالة أبي طالب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

سيكون لنا حديثٌ مفصّلٌ حول شخصيّة أبي طالب في فصل خاص^(٢) وسنثبت هناك إيمانه برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بالوثائق والأدلة القاطعة، ولكن من المناسب الآن أن نستعرض بعض الحوادث المرتبطة بفترة كفالته للنبي

(١) كتب اليعقوبي في تاريخه: ج ٢ ص ١٠ و ١١ من تاريخه حول سيرة عبدالمطلب، وأنه كان موثقاً لاوثياً، وذكر أن الإسلام أمضى الكثير من سنته. (٢) في حوادث السنة العاشرة.

صلى الله عليه وآله.

لقد تكفل أبوطالب - ولأسباب خاصة - رسول الله صلى الله عليه وآله، وتقبل تحمّل هذه المسؤولية بفخر واعتزاز، ولأنّ أباطالب - مضافاً الى العلل المشار إليها - كان أخاً لوالد النبي من أمّ واحدة أيضاً^(١) كما أنّه كان معروفاً بجوده وكرمه، ومن هنا أوكل «عبدالمطلب» أمر كفالة النبي صلى الله عليه وآله حفيده، إليه، وسوف نقص عليك تدريجاً سطوراً ذهبية من تاريخه، تمثل شاهد صدق على خدماته القيمة، وأياديه الجليلة.

يقولون: إن النبي شارك وهو في العاشرة من عمره جنباً إلى جنب مع عمّه في حرب من الحروب^(٢) وحيث إن هذه الحرب وقعت في الأشهر الحرم لذلك سُميت بحرب «الفجار» وقد وردت تفاصيل حروب «الفجار» في التاريخ بشكل مسهب.

سفرة إلى الشام:

لقد جرت العادة ان يسافر تجار قريش الى الشام كل سنة مرة واحدة. فعزم «ابوطالب» على أن يشارك في رحلة قريش السنوية هذه ذات مرة، وعالج مشكلة ابن اخيه «محمد» الذي ما كان يقدر على مفارقتة بأنه قرر أن يتركه في مكة في حراسة جماعة من الرجال، ولكنه ساعة الرحيل واجه من ابن اخيه العزيز ماغيّر بسببه قراره المذكور فقد شاهد «محمد» وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفراق كفيله الحميم «أبي طالب»، فحدثت ملامح «محمد» الكشيبة طوفاناً من المساعر العاطفية في قلب «أبي طالب» بحيث اضطرته إلى أن يرضى

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٧٩، وامها هي فاطمة الخزومية.

(٢) لقد كتب اليعقوبي في تاريخه: ج ١ ص ١٥ طبعة النجف أن أباطالب لم يشترك في هذه الحرب قط، كما لم يسمع لبني هاشم بالمشاركة فيها أيضاً، لأنه كان ظلماً وعدواناً، وقطيعة رحم واستحلالاً للشهر للحرام.

بمشقة اصطحاب «محمّد» في تلك الرحلة^(١).

لقد كانت سفرة النبي صلى الله عليه وآله هذه التي قام بها بصحبة عمّه وكافله «أبي طالب» في الثانية عشرة من عمره، من أجل وأطرف أسفاره صلى الله عليه وآله وسلّم لأنه صلى الله عليه وآله عبر فيها على: «مدّين» و«وادي القرى» و«ديار ثمود» واطلع على مشاهد الشام الطبيعية الجميلة.

ولم تكن قافلة قريش التجارية قد وصلت إلى مقصدها حتى حدثت في منطقة تدعى «بصرى» قضية غيرت برنامج «أبي طالب» وتسببت في عدوله عن المضي به في تلك الرحلة والقفول الى مكة.

واليك فيما يلي مجمل هذه القضية:

كان يسكن في «بصرى» من نواحي الشام راهبٌ مسيحي يدعى «بجيرا» يتعبّد في صومعته، يحترمه النصارى في تلك الديار.

وكانت القوافل التجارية إذا مرت على صومعته توقفت عندها بعض الوقت وتبركت بالحضور عنده.

وقد اتفق أن التقى هذا الراهبُ قافلة قريش التي كان فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، فلفت نظره شخصية «محمّد»، وراح يحدّق في ملامحه، وكانت نظراته هذه تحمل سرّاً عميقاً ينطوي عليه قلبه منذ زمن بعيد وبعد دقائق من

(١) ويذكر «أبو طالب» في أبيات له قصّة هذه السفرة وما جرى فيها من البدء إلى الختام نقتطف منها بعض الأبيات:

| | |
|--|---|
| عِنْدِي يَفُوقُ مَنَازِلَ الأَوْلَادِ | إِنَّ ابْنَ آيِنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا |
| وَالعَيْسُ قَدْ قَلَّضَنَ بِالْأَزْوَادِ | لَمَّا تَعَلَّقَ بِالزَّمَامِ رَحْمَتُهُ |
| مِثْلَ الجِمَانِ مُفْرَقِ الأَفْرَادِ | فَارْفَضَ مِنْ عَيْنِي دَمْعَ ذَارِفٍ |
| وَحَفَظْتُ فِيهِ وَصِيَةَ الأَجْدَادِ | رَاعِيَتُ فِيهِ قَرَابَةَ مَوْصُولَةٍ |
| بِإِضِّ الوَجُوهِ مَصَالَتِ أَنْجَادِ | وَأَمْرَتُهُ بِالسَّيْرِ بَيْنَ عَمُومَةٍ |
| لَاقُوا عَلَيَّ شَرِكَ مِنَ المَرْصَادِ | حَتَّى إِذَا مَا القَوْمُ بُصْرَى عَايَنُوا |
| عَنهُ وَرَدَ مَعَاشِرَ الحُسَادِ | حَبْرًا فَاخْبَرَهُمْ حَدِيثًا صَادِقًا |

(تاريخ ابن عساکر: ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٢ و ديوان أبي طالب: ص ٣٣ - ٣٥).

النظرات الفاحصة، والتحديق في وجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَرَجَ عَنْ صَمْتِهِ وَانْبَرَى سَائِلاً: أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟

فأشار جماعة منهم الى «أبي طالب» وقالوا: هذا وليه.

فقال «أبو طالب»: إنه ابن أخي، سلمي عما بدالك.

فقال «بجيرا»: إنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ، نجده في كتبنا

وماروينا عن آبائنا، هذا سيّد العالمين، هذا رسولُ رب العالمين، يبعثه رحمة للعالمين. إحدَرَ عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا منه ما عرف ليقتصدنَّ قتله (١).

هذا وقد اتفق أكثر المؤرخين على أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يتعدَّ تلك

المنطقة، وليس من الواضح أن عمه «أبأطالب» بعثه الى مكة مع أحد،

(ويُستبعد أن يكون عمه قد رضي بمفارقتة منذ أن سمع تلك التحذيرات من

الراهب بجيرا)، أم أنه اصطحبه بنفسه إلى مكة، وانثنى عن مواصلة سفره الى

الشام (٢).

وربما قيل إنه تابع -بجذر شديد- سفره الى الشام مع ابن أخيه «محمد».

أَكْذُوبَةُ الْمُسْتَشْرِقِينَ:

لقد آلينا على أنفسنا في هذا الكتاب ان نشير إلى أخطاء المستشرقين

وغلطاتهم بل وربما أكاذيبهم، واتهاماتهم الباطلة، وشبههم الواهية ليتضح للقراء

الكرام الى أي مدى يحاول هذا الفريق إرباك أذهان البسطاء من الناس،

وبلبلة عقولهم حول قضايا الإسلام!!

إن قضية اللقاء الذي تم -في بصرى- بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والراهب

«بجيرا» لم تكن سوى قضية بسيطة، وحادثة عابرة وقصيرة، إلا أنها وقعت في

مابعد ذريعة بأيدي هذه الزمرة (المستشرقون) فراحوا يصرون أشدَّ اصرار على أن

(١) روى تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٢ و ٣٣، والسيرة النبوية: ج ١ ص ١٨٠ - ١٨٣ هذه القصة

بتفصيل أكبر وقد اختصرناها هنا تمثيلاً مع حجم هذا الكتاب.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٨٢ و ١٨٣.

مأظهره رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ تَعَالِيمِ رَفِيعَةِ سَامِيَةِ بَعْدَ ٢٨ عَامًا، وَاسْتَطَاعَ بِهَا أَنْ يُحْيِيَ بِهَا تِلْكَ الْأُمَّةَ الْمَيِّتَةَ قَدْ تَلَقَّاهَا مِنَ الرَّاهِبِ «بَجِيرَا» فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ «مُحَمَّدًا» بِمَا تَمَتَّعَ بِهِ مِنْ قُوَّةِ ذَاكِرَةِ، وَصَفَاءِ نَفْسٍ وَدَقَّةِ فِكْرٍ، وَعِظْمَةِ رُوحٍ وَهَيْبَةِ آيَاهَا يَدِ الْقَدْرِ، أَخَذَ مِنَ الرَّاهِبِ «بَجِيرِي» فِي لِقَائِهِ بِهِ، قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ السَّالِفِينَ وَالْأَقْوَامِ الْبَائِثَةِ مِثْلَ عَادَ وَثَمُودَ، وَكَثِيرًا مِنْ تَعَالِيمِهِ الْحَيَوِيَّةِ.

وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَيْسَ سِوَى تَصَوُّرٍ خَيَالِيٍّ لَا يَتَلَاءَمُ وَلَا يَنْسَجَمُ مَعَ حَيَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بَلْ وَتَكْذِبُهُ الْمَوَازِينُ الْعَقْلِيَّةُ، وَالْيَكُ بَعْضُ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذَا:

١ - لَقَدْ كَانَ «مُحَمَّدًا» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِاجْمَاعِ الْمُؤَرِّخِينَ أُمِّيًّا، لَمْ يَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَكَانَ عِنْدَ سَفَرِهِ إِلَى الشَّامِ، وَلِقَائِهِ بِ«بَجِيرَا» لَمْ يَتَجَاوَزْ رَبِيعَهُ الثَّانِي عَشَرَ بَعْدَ، فَهَلْ يَصَدِّقُ الْعَقْلُ - وَالْحَالُ هُنَا - أَنْ يَسْتَطِيعَ صَبِيٌّ لَمْ يَدْرُسْ وَلَمْ يَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ رَبِيعَهُ الثَّانِي عَشَرَ أَنْ يَسْتَوْعِبَ تِلْكَ الْحَقَائِقَ مِنَ «التَّوْرَةِ» وَ«الْإِنْجِيلِ»، ثُمَّ يَعْرِضُهَا - فِي سِنِّ الْارْبَعِينَ - عَلَى النَّاسِ بِعَنْوَانِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ وَالشَّرِيعَةِ السَّمَاوِيَّةِ؟!

إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ خَارِجٌ عَنِ الْمَوَازِينِ الْعَادِيَّةِ، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَحِيلَةِ لَوْ أَخَذْنَا بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ حِجْمَ الْإِسْتِعْدَادِ الْبَشَرِيِّ.

٢ - إِنَّ مَدَّةَ هَذَا اللَّقَاءِ كَانَ أَقَلَّ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ يَسْتَطِيعَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ الْقَصِيرَةِ أَنْ يَسْتَوْعِبَ «التَّوْرَةَ» وَ«الْإِنْجِيلَ»، لِأَنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ كَانَتْ رَحْلَةً تِجَارِيَّةً وَلَمْ يَسْتَفْرِقْ الذَّهَابَ وَالْأَيَابَ وَالْإِقَامَةَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، لِأَنَّ قَرِيشًا كَانَتْ تَقُومُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِرَحْلَتَيْنِ، فِي الصَّيْفِ إِلَى «الْيَمَنِ»، وَفِي الشِّتَاءِ إِلَى «الشَّامِ»، وَمَعَ هَذَا لَا يُظَنُّ أَنَّ تَكُونَ الرَّحْلَةَ بِرِمَتِهَا قَدْ اسْتَفْرَقَتْ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَكْبَرُ عُلَمَاءِ الْعَالَمِ وَإِذْكَاهُمْ مِنْ أَنْ يَسْتَوْعِبَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ جَدًّا مَحْتَوِيَّاتِ دِينِكَ الْكِتَابَيْنِ، فَضْلًا عَنْ صَبِيٍّ لَمْ يَدْرُسْ، وَلَمْ يَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ مِنْ أَحَدٍ.

هذا مضافاً إلى أنه لم يكن يصاحب صلى الله عليه وآله ذلك الراهب كل تلك الأشهر الأربعة بل إن اللقاء الذي وقع إتفاقاً في أحد منازل الطريق لم يستغرق سوى عدة ساعات لا أكثر.

٣ - إن النص التاريخي يشهد بأن «اباطالب» كان ينوي اصطحاب النبي صلى الله عليه وآله إلى الشام، ولم يكن مقصده الأصلي «بصرى» بل إن «بصرى» كان منزلاً في أثناء الطريق تستريح عنده القوافل التجارية أحياناً، ولفترة جداً قصيرة.

فكيف يمكن في مثل هذه الصورة أن يمكث رسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المنطقة، ويشتغل بتحصيل علوم «التوراة» و«الانجيل» ومعارفهما؟ سواء قلنا بأن «اباطالب» أخذه معه إلى الشام، أو عاد به من تلك المنطقة إلى مكة أو أعاده بصحبة أحدٍ إلى مكة؟!!

وعلى كل حال فإن مقصد القافلة ومقصد «أبي طالب» لم يكن «بصرى» ليقال: إن القافلة اشتغلت فيها بتجارتهما، بينما اغتم «محمد» الفرصة واشتغل بتحصيل معارف العهدين.

٤ - إذا كان محمد صلى الله عليه وآله قد تلقى أموراً ومعارف من الراهب المذكور اذن لاشتهر ذلك بين قريش حتماً، ولتناقل الجميع خبر ذلك بعد العودة إلى مكة.

هذا مضافاً إلى أن النبي صلى الله عليه وآله نفسه ما كان يستطيع أن يدعي أمام قومه في مابعد بأنه أميٌ لم يدرس كتاباً، ولا تلمذ على أحد، في حين أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله افتتح رسالته بهذا العنوان، ولم يقل أحدٌ، يا محمد كيف تدعي بأنك لم تقرأ ولم تدرس عند أحد وقد درست عند راهب «بصرى» وتلقيت منه هذه الحقائق الناصعة وانت في الثانية عشرة من عمرك؟ لقد وجّه مشركو مكة جميع أنواع الإتهام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالغوا في البحث عن أية نقطة ضعف في قرآنه يمكن أن يتذرعوها بها لتفنيد دعوته، حتى أنهم عندما شاهدوا النبي صلى الله عليه وآله ذات مرة عند

«مروة» يجالس غلاماً نصرانياً استغلوا تلك الفرصة وقالوا: لقد أخذ «محمد» كلامه من هذا الغلام، ويروي القرآن الكريم مزعمتهم هذه بقوله: «وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَيَوَدَّ أَنَّ يُعَلِّمَهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»^(١).

ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لذكر هذه الفرية قط كما أن قريشاً المجادلين المعاندين لم يتذرعوا بها أبداً، وهذا هو بعينه دليل قاطع وقوي على أن هذه الفرية من افتراءات المستشرقين في عصرنا هذا، ومن نسج خيالهم!!
٥ - إن قصص الانبياء والرسل التي جاءت في القرآن الكريم على وجه التفصيل تتعارض وتتناقى مع ما جاء في التوراة والانجيل.

فقد ذُكرت قصصُ الأنبياء واحوالهم في هذين الكتابين بصورة مشينة جداً، وطُرحت بشكل لا يتفق مع المعايير العلمية والعقلية مطلقاً، وان مقايسة عاجلة بين هذين الكتابين من جانب وبين القرآن الكريم من جانب آخر تثبت بأن قضايا القرآن الكريم ومعارفه لم تتخذ من ذينك الكتابين مجال، ولو أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله قد اكتسب معارفه ومعلوماته حول الانبياء والرسل من العهدين لجاء كلامه مزيجاً بالخرافات والأوهام^(٢).

٦ - إذا كان راهب «بُصرى» يمتلك كل هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها رسولُ الله صلى الله عليه وآله، فلماذا لم يحض هو بأي شيء من الشهرة، ولماذا ترى لم يُربَّ غير «محمد» في حين أن معبده كان مزار الناس ومقصد القوافل!؟

٧ - يعتبرُ الكتابُ المسيحيون «محمداً» صلى الله عليه وآله رجلاً أميناً صادقاً، والآيات القرآنية تصرح بأنه صلى الله عليه وآله لم يكن على علم مسبق

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) تتجلى هذه الحقيقة أكثر فاكثراً إذا ما قارنا بين مواضيع القرآن الكريم، وبين ما جاء في نصوص العهدين (التوراة والانجيل) وقد تصدى بعض الكتاب الإسلاميين لمثل هذه المقارنة، وقد تعرضنا لها أيضاً في بعض دراساتنا.

أصلاً بقصص الأنبياء والأمم السابقين، وأن معلوماته في هذا الصعيد لم تحصل لديه إلا عن طريق الوحي.

فقد جاء في سورة «القصص» الآية (٤٤) هكذا: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

وجاء في سورة «هود» الآية (٤٩) بعد نقل قصة نوح: «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا».

إن هذه الآيات توضح أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن على علم أبداً بهذه الحوادث، والوقائع.

وهكذا جاء في الآية (٤٤) من سورة «آل عمران»: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْتَمًا، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ».

إن هذه الآية وغيرها من الآيات العديدة تصرح بأن هذه الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي صلى الله عليه وآله عن طريق الوحي فقط، وهو لم يكن على علم بها مطلقاً.

نظرة إجمالية إلى التوراة الحاضرة:

إن هذا الكتاب السماوي تورط في تناقضات عجيبة في بيان قصص الأنبياء والمرسلين لا يمكن نسبتها إلى الوحي مطلقاً، وها نحن نأتي هنا بنماذج في هذا المجال من التوراة ليتضح لنا أن النبي صلى الله عليه وآله لو كان قد أخذ قضايا القرآن الكريم من ذلك الراهب فلماذا لا يحتوي هذا الكتاب العظيم على تلك الأضاليل التي انطوى عليها «التوراة» و«الانجيل».

و اليك بعض ما جاء حول الأنبياء والمرسلين في «التوراة» و«الانجيل» ونقارن ذلك بما جاء في القرآن الكريم ليتضح مدى الفرق بين الكتابين (العهدين، والقرآن).

١ - داود عليه السّلام:

جاء في التوراة: «إن داود رأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: إنها امرأة أوريا فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت اليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت الى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حُبلي، فأرسل داود إلى يواب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة^(١)، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت... فلما سمعت امرأة أوريا أنه قدمات أوريا رجلاً نذبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضّمها إلى بيته وصارت له امرأة، وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عينيّ الرب»!!^(٢).

هكذا تصف التوراة النبيّ الكريم داود، وترميه بالزنا، واكراه امرأة محصنة على خيانة زوجها!!

بينما يصف القرآن الكريم النبيّ داود عليه السّلام بأفضل الاوصاف اذ يقول (في الآية ١٥ و ١٦ من سورة النمل):

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ... وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسَ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

٢ - النبيّ سليمان عليه السّلام:

تقول «التوراة» عن النبيّ العظيم سليمان عليه السّلام:

١ - «وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا»!!^(٣).

أي ان سليمان النبيّ الكريم -والعياذ بالله- هو ابن زنا!!

(١) أي في مقدمة الجيش المحارب.

(٢) العهد القديم (التوراة): صموئيل، الثاني الاصحاح الحادي عشر ٣ إلى ٢٧.

(٣) إنجيل متى: الاصحاح الأول ٦.

٢ - وَ أَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانَ نِسَاءً غَرِيبَةً... مِنْ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ لِأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ، فَالْتَصِقْ سَلِيمَانُ بِهَؤُلَاءِ بِالْمَحَبَّةِ، وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلَاثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَّالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةٍ سَلِيمَانَ أَنْ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ، فَذَهَبَ سَلِيمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَتِ إِلهَةِ الصَّيْدِ وَنِينَ، وَمَلَكَكُمْ رَجَسَ الْعَمُونِيِّينَ، وَعَمَلَ سَلِيمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ، وَلَمْ يَتَّبِعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ، فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سَلِيمَانَ لِأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ»!!!^(١).

إن سليمان - حسب هذه التعابير التوراتية - يعشق النساء الاجنبيات، ويتقرب اليهن بصنع أصنام لهنّ، ويعبدها معهن، ويرتكب الشرور التي أغضبت الرب!!

بينما يقول القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام «ولقد آتينا داودَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا» (النمل: ١٦).

ويقول: «وَإِسْلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ» (الأنبياء: ٨١).
إنه نبي عظيم اختاره الله تعالى لوحيه، واصطفاه لأداء رسالاته.

٣ - يعقوب عليه السلام:

إنّ «التوراة» تصف النبي العظيم يعقوب عليه السلام بأنه رجل كذاب مخادع، أخذ النبوة من أبيه بالمكر والخداع، «فَإِذَا مَا شَاخَ إِسْحَاقُ وَكَانَتْ عَيْنَاهُ عَنْ النَّظَرِ دَعَا عَيْسُو ابْنَ الْكَبِيرِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَصْطَادِلَهُ صَيْدًا، وَيَصْنَعُ لَهُ طَعَامًا جَيِّدًا حَتَّى يَبَارِكَهُ، وَيُعْطِيَهُ النُّبُوَّةَ، وَلَكِنْ يَعْقُوبُ (ابن إِسْحَاقَ مِنْ رَفْقَةٍ

(١) التوراة: الملوك الأول الاصحاح ١١ العبارات ١: ١١.

زوجته الأخرى) بادر إلى صنع طعام لذيذ لأبيه وتظاهر بأنه عيسو، لابساً ثياب عيسو، وقطعاً من جلود جَدِّي المعزى على عنقه لأن عيسو كان مشعراً وكان يعقوب املس الجسد، فبارك اسحاق ابنه يعقوب ومنحه النبوة، وبعد ذلك قدم عيسو من الصيد، فعرف اسحاق بأنه خُدع، وأن يعقوب أخذ منه النبوة بالمكر، فارتعد اسحاق ارتعاداً عظيماً جداً وقال لعيسو متأسفاً: قد جاء أخوك بمكر، وأخذ بركتك!!^(١).

هذا هو حال يعقوب في لسان «التوراة» المحرفة!!

وأما القرآن الكريم فانه يقول عن هذا النبي الطاهر:

«وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»
(الأنعام: ٨٤).

ويقول تعالى أيضاً:

«وَإِذْ ذُكِّرُوا بِعِبَادِنَا إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرِي الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ» (ص: ٤٥ - ٤٧).

٤ - إبراهيم عليه السلام:

تقول «التوراة» عن إبراهيم عليه السلام إنه لما أراد أن يدخل مصر قال لزوجته سارة: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني، ويستبقونك، قولي إنك أختي، ليكون لي خيراً بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

وكذلك فعلت سارة و أخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى إبرام خيراً

(١) سفر التكوين: الاصحاح السابع والعشرون: ١ الى ٤٦، وقد ذكرنا هذه القصة من التوراة بتلخيص.

بسببها، وصار له غم، وبقر، وحمير، وعبيد، وإماء، وأتن، وجمال، ولما عرف فرعون - في مابعد - ان سارة زوجة ابراهيم، وليس أخته عاتبه قائلاً: لماذا لم تخبرني إنها امرأتك، لماذا قلت: هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي والآن هوذا امرأتك، خذها واذهب»^(١).

إن ابراهيم الخليل عليه السلام في وصف التوراة رجلٌ كذابٌ، يكذب ويحتال.

أما القرآن الكريم فيصف هذا النبي الجليل بأعظم الأوصاف، ويعتبره أعظم الأنبياء اذ يقول عنه انه:

- ١ - خنيف مؤحّد لله: «ولكنّ كانّ حنيفاً» (آل عمران: ٦٧).
- ٢ - إمام الناس: «إني جاعلُك للنّاس إماماً» (البقرة: ١٣٤).
- ٣ - مُسليماً: «ولكنّ كانّ حنيفاً مُسليماً» (آل عمران: ٦٧).
- ٤ - حليمٌ: «إنّ إبراهيم لأواه حليمٌ» (التوبة: ٨٤).
- ٥ - امة كاملة بمفرده: «إنّ إبراهيم كانّ أمةً» (النحل: ١٢٠).
- ٦ - أواهٌ يخشى الله: «إنّ إبراهيم لأواه» (التوبة: ٨٤).
- ٧ - مصطفى: «لمنّ المصطفى الأخيّار» (ص: ٤٨).
- ٨ - ذو قلبٍ سليم: «إذ جاء ربّه بقلبٍ سليمٍ» (الصفّات: ٤٨).

٥ - المسيح عليه السلام:

إن عيسى - حسب رواية الإنجيل - يحقر أمه، ويزدري بها، فذات يوم جاء إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وأرسلوا يدعونه، وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له «هوذا أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك، فأجابهم قائلاً: من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي، لأنّ من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي»!!^(٢)

(١) سفر التكوين: الاصحاح الثاني عشر ١-٢٠. (٢) إنجيل مرقس: الاصحاح الثالث ٣١ - ٣٥.

إنه يقول هذا الكلام عن أمه التي وصفها القرآن الكريم بأن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين^(١).

إنه يفضّل تلاميذه الذين لم يؤمنوا به في قلوبهم ذرة من خردل، والذين خذلوه ليلة الهجوم عليه من جانب اليهود^(٢) - كما يقول الانجيل - على أمه الصديقة.

كما إن الانجيل يقول: إن المسيح حوّل الماء الى الخمر في عرس^(٣) بل يقول إنه عليه السّلام: شرب الخمر^(٤)، والحال أن الإنجيل يصرّح بجرمة الخمر في مواضع عديدة.

هذا هو «عيسى» النبي الطاهر وحواريوه حسب رواية الانجيل!!^(٥).
أما القرآن الكريم فيقول عنه غير ما يقوله «الانجيل» و إليك بعض ما جاء في الكتاب العزيز حول «المسيح» عليه السّلام.
قال الله تعالى: «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» (البقرة: ٧٨).

و قال تعالى أيضاً: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ» (النساء: ١٧١)

ويكفي في عظمة المسيح عليه السّلام وعلو شأنه انه عليه السّلام كلّم الناس في المهد صبياً وقال: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلَنِي

(١) آل عمران: ٤٢.

(٢) انجيل متى: الاصحاح السابع والعشرون ١ - ٦ انظر كيف وافق يهوذا الاسخريوطي وهو أحد الحوارين مع المتآمرين ضد المسيح، وأيضاً راجع نفس السفر: الاصحاح السادس والعشرين، وراجع انجيل متى: الاصحاح العاشر ايضاً.

(٣) إنجيل يوحنا: الاصحاح الثاني ١ - ١١. (٤) إنجيل لوقا: الاصحاح الأول ١٥ وغيره.

(٥) على أن خرافات التوراة و الانجيل لا تنحصر في ما ذكرناه هنا، وللتوسع راجع: أنيس الأعلام تأليف فخر الإسلام، والهدى الى دين المصطفى للعلامة البلاغي.

جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْثَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» (مریم: ۳۰-۳۴).

هذه هي مواقف القرآن الكريم من الأنبياء الكرام، والرسل العظام، وتلك هي مواقف «التوراة» و«الانجيل» المشينة، المسيئة الى شخصية سفراء الله مبلغى رسالاته، فكيف يُعقل ان يكون القرآن الكريم مقتبساً من تلك الكتب وبينها بُعد المشرقين؟!!

ثم لو أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان قد اطلع على هذه القضايا والقصص قبل إخباره بنبوته فلماذا لم يرشح منها شيء في أحاديثه قبل الرسالة وقد عاش بين قومه طويلاً.

قال الله سبحانه في معرض الردّ والجواب على اقتراح المشركين على النبيّ صلى الله عليه وآله بأن يأتي لهم بقرآن غير الذي جاء به:

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»^(۱).

فالآية تؤكد على أن النبيّ صلى الله عليه وآله كان لا يثأ في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آياً من آياته، فكل ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد ان بعثه بالرسالة^(۲).

(۱) يونس: ۱۶.

(۲) للتوسع راجع مفاهيم القرآن: ج ۳ ص ۳۲۱ - ۳۲۳.

فَترَةُ الشَّبَابِ

في حياة النبي الأكرم

يجب ان يكون قادة المجتمع أقوياء شجعان، لا يرهبون أحداً، ولا يخافون شيئاً، يمتلكون قوة روحية كبرى، ويتمتعون بصبر عظيم، وإرادة قوية، صلبة.

فكيف يستطيع الضعفاء والجبناء والمترددون، وضعاف النفوس قيادة المجتمع، والخروج به من المآزق والمشاكل، وكيف يستطيعون أن يقاوموا اعداءهم ويحفظوا كياناتهم وشخصيتهم من عدوان هذا او ذاك؟!؟

إن لعظمة القائد الروحية، ولقواه البدنية والنفسية تأثيراً عظيماً وعجيباً في أتباعه وأنصاره، فعندما اختار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أحد أصحابه المخلصين لولاية «مصر» كتب إلى أهل «مصر» المظلومين الذين ذاقوا الأمرين على أيدي ولائهم السابقين كتاباً ذكر فيه شجاعة هذا الوالي الجديد، الروحية وقدرته النفسية الفائقة، وإليك فيما يلي بعض الفقرات من ذلك الكتاب الذي يعكس الشروط والمواصفات الواقعية في القائد:

«أما بعدُ فقد بعثتُ اليكم عبداً من عباد الله لا ينامُ أيام الخوف، ولا ينكلُ عن الأعداء ساعات الروع، أشدَّ على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابَقَ الحق، فإنه سيفٌ من

سُيُوفِ اللَّهِ، لِأَكْلِ الْظَّبَّةِ، وَلِإِنَابِي الضَّرْبَةَ»^(١).

رسولُ الله وقدرتهُ الروحيةُ:

لقد كانت آثار الشجاعة، والقوة باديةً في جبين عزيز قريش منذ طفولته وصباه، ففي الخامسة عشرة من عمره الشريف شارك في حرب هاجت بين قريش من جهة، وقبيلة هوازن من جهة أخرى، وتدعى «حرب الفجار»، وقد كان في هذه الحرب يناول أعمامه النبل.

فها هو «ابن هشام» ينقل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ أَنْبَلُ عَلَى أَعْمَامِي»^(٢).

إن مشاركته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في العمليات الحربية في مثل هذه السن تكشف عن شجاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وقدرته الروحية الكبرى، وتساعدنا على أن ندرك مغزى مقاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في حق النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْبَأْسُ إِتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»^(٣).

وسوف نشير - وبعون الله عند ذكر جهاد المسلمين للكفار والمشركين - إلى نظام العسكرية الإسلامية، وكيفية جهاد المسلمين وقتالهم لأعدائهم التي تمت بأجمعها بتوجيه من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وهو في نفسه من الابحاث الشيقة في تاريخ الإسلام.

حُرُوبُ الْفِجَارِ:

إِنَّ الْحَدِيثَ بِتَفْصِيلٍ عَنْ هَذِهِ الْوَقَائِعِ وَعَنْ تَكْتِيكَاتِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ التَّارِيخِيَّةِ

(١) نهج البلاغة: قسم الرسائل، الرقم ٣٨.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٨٦، وقد قال ابن الأثير في النهاية بعد نقل هذا الحديث وضبط الكلمة «أنبل» مشددة «أنبل»: «إذاناولته النبل يرمي» راجع مادة نبل.

(٣) نهج البلاغة: فصل في غريب كلامه الرقم ٩.

خارج عن إطار هذه الدراسة، بيد أننا - مع ذلك - نعلم إلى بيان أسباب هذه الحروب التي شارك في إحداها رسول الله صلى الله عليه وآله بناء على رواية بعض المؤرخين وحوادثها على نحو الاجمال بغية اطلاع القارئ الكريم.

كانت العرب تقضي عامها كله بالقتال والاغارة، وقد تسبب هذا الوضع في اختلال حياتهم، واضطراب أمورهم، ولأجل هذا كانوا يحرمون القتال ويتوقفون عنه في أربعة أشهر من كل عام (هي شهر رجب، ذوالقعدة، ذوالحجة، محرم) ليتسنى لهم - في هذه المدة - أن يقيموا أسواقهم، ويستغلّوها بالكسب والتجارة والبيع والشراء^(١).

ولهذا كانت أسواق «عكاظ» و «مجنة» و «ذوالمجاز» تشهد طوال هذه الأشهر الحرام اجتماعات كبرى وتجمعات حافلة وحاشدة، كان يلتقي فيها العدو والصدیق جنباً إلى جنب، يتبايعون، ويتفاخرون.

فقد كان شعراء العرب المشهورون يلقون قصائدهم في هذه الاجتماعات الكبرى، كما يلقي كبارُ خطباء العرب وفصحائهم خطباً قوية، وأحاديث في غاية الفصاحة والبلاغة، وكان اليهود والنصارى والوثنيون يعرضون معتقداتهم في هذه المناسبات من دون خوف أو وجل.

ولكن هذه الحرمة قد هُتكت أربع مرات في تاريخ العرب، وتقاتلت القبائل العربية فيما بينها في هذه الأشهر الحرم، ولهذا سُميت تلك الحروب بحروب «الفجار»، وفي مايلي نشير إليها على نحو الاجمال:

الفجارُ الأوّل:

و وقعت الحربُ فيها بينَ قبيلتي «كنانة» و «هوازن» وجاء في سبب نشوب

(١) يُستفاد من قوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة التوبة: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» أن تحرم القتال في هذه الأشهر الأربعة كان ذا جذور دينية، وكانت العرب الجاهلية تحترم هذه الأشهر اتباعاً لسنة «إبراهيم الخليل» عليه السلام.

هذه الحرب أن رجلاً يدعى «بدر بن معشر» كان قد أعدّ لنفسه مكاناً في سوق «عكاظ» يحضر فيه، ويذكر للناس مفاخره فوقف ذات مرة شاهراً سيفه يقول: أنا والله أعزُّ العرب فمن زعم أنه أعزّ منّي فليضربها بالسيف.

فقام رجلٌ من قبيلة أخرى فضرب بالسيف ساقه فقطعها، فاختصم الناس وتنازعت القبيلتان، ولكنها اصطلحتا من دون أن يُقتل أحدٌ (١).

الفجارُ الثاني:

و كان سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من «بني عامر» وهي جميلة، عليها برقع، فقالوا لها: إسفري لننظر إلى وجهك، فلم تفعل، فقام غلامٌ منهم، فجمع ذيل ثوبها إلى مافوقه بشوكة فلما قامت انكشف جسمُها، فضحكوا، فصاحت المرأة قومها، فأتاها الناس، واشتجروا حتى كادان يكون قتالٌ، ثم اصطلحوا، وانفضوا بسلام.

الفجارُ الثالث:

وسببه أن رجلاً من «كنانة» كان عليه دَيْنٌ لرجل من «بني عامر»، وكان الكناني يماطل، فوقع شجاراً بين الرجل، واستعدى كل واحد منها قبيلته، فاجتمع الناس، وتحاوروا حتى كاد يكون بينهم القتالُ، ثم اصطلحوا.

الفجارُ الرابع:

وهي الحرب التي - قيل إنه - شارك فيها النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله. ولقد ادّعى البعض أنه صلى الله عليه وآله كان يومذاك في الخامسة عشرة، أو الرابعة عشرة من عمره.

(١) ولقد كان ممّا أزاله الإسلام ومحاه هذا التفاخر الجاهلي المقيت، وستعرف هذا في الابحاث القادمة.

وقال بعضٌ: انه كان في العشرين من عمره وحيث إن هذه الحرب قد استمرت أربع سنوات لهذا يمكن أن تكون جميع هذه الأقوال صحيحة^(١).

وقيل في سببه: أن «النعمان بن المنذر» ملك الحيرة كان يبعث الى سوق «عكاظ» في كل عام بضاعة في جوار رجل شريف من أشرف العرب، يُجيرها له حتى تباع هناك، ويشترى بثمنها من أقشة «الطائف» الجميلة المرز كشة ممّا يحتاج إليه، فأجارها «عروة الرجال الهوازي» في تلك السنة، ولكن «البراض بن قيس الكناني» انزعج لمبادرة «عروة» الى ذلك، فشكاه عند «النعمان بن المنذر» ولم يجد اعتراضه وشكواه، فحسد على «عروة» حسداً شديداً، فترتّب به حتى غدر به في أثناء الطريق، وبذلك لطح يده بدم هوازي.

وكانت قريش يومذاك حليف كنانة، وقد اتفق وقوع هذا الأمر يوم كانت العرب مشغولة بالكسب والتجارة في سوق عكاظ، فأخبر رجل قريشاً بمقتل الهوازي على يد الكناني، ولهذا عرفت قريش وحليفتها بنو كنانة بالأمر قبل هوازن، وأسرعوا في الخروج من «عكاظ» وتوجهوا نحو الحرم (والحرم هو اربعة فراسخ من كل جانب من مكة، وكانت العرب تحرم القتال في هذه المنطقة) ولكن هوازن علمت بذلك فلاحقت قريشاً وحليفتها فوراً، وادركتهم قبل الدخول في الحرم فوقع بينهم قتال، ولما جنّ الليل كفوا عن الحرب فاغتتمت «قريش» وحليفتها فرصة الليل، وواصلت حركتها باتجاه الحرم المكي وبذلك نجت من خطر العدو.

ومنذ ذلك اليوم كانت تخرج قريش وحليفتها من الحرم بين الفينة والاخرى وتقاتل هوازن، وقد شارك النبي -صلى الله عليه وآله في بعض تلك الأيام مع أعمامه على النحو الذي مرّ بيانه.

وقد استمر الامر على هذه الحال مدة أربع سنوات، حتى ان وُضعت نهاية

(١) التاريخ الكامل: ج ١ ص ٣٥٨ و ٣٥٩، السيرة النبوية: ج ١ ص ١٨٤ الهامش، تاريخ الخميس:

لهذه الحرب الطويلة بدفع قريش لهوازن دية القتلى الذين كانوا يزيدون على قتلى قريش على يد هوازن^(١).

وقد أسلفنا أن تحريم القتال في الأشهر الحرم كانت له جذورٌ دينية، وحيث إن حرب «الفجار» استمرت أربع سنوات فيمكن أن يكون لمشاركة النبي صلى الله عليه وآله فيها وجهاً وجيباً وهو الدفاع، خاصة انه لما سئل صلى الله عليه وآله عن مشهده يومئذ فقال: «ماسرني أني أشهده، إنهم تعدوا على قومي عرضوا (اي قريش) عليهم (اي على هوازن) أن يدفعوا إليهم البراض صاحبهم (اي الذي قتل عروة) فأبوا»^(٢).

ويحتمل أن تكون مشاركته صلى الله عليه وآله في غير الأشهر الحرم بناء على استمرار هذه الحروب مدة أربعة اعوام، وإنما سميت مع ذلك بالفجار لأن بدايتها وافقت الأشهر الحرم لأنها وقعت بتمامها في الأشهر الحرم. وبذلك لا يبقى مجال لأن تستبعد مشاركة النبي صلى الله عليه وآله في بعض أيام تلك الحرب.

حِلْفُ الْفُضُولِ:

لقد كان في ما مضى ميثاقٌ وحلفٌ بين الجرهميين يدعى بـ«حلف الفضول»، وكان هذا الحلف يهدف إلى الدفاع عن حقوق المظلومين، وكان المؤسسون لهذا الحلف هم جماعة كانت اسماؤهم برمته مشتقة من لفظة الفضل، واسماؤهم - كما نقلها المؤرخ المعروف «عماد الدين ابن كثير» - هي عبارة عن: «فضل بن فضالة»، و«فضل بن الحارث»، و«فضل بن وداعة»^(٣)، وحيث إن الحلف الذي عقده جماعة من قريش فيما بينها كان متحداً في الهدف (وهو الدفاع عن حقوق المظلومين) مع حلف «الفضول» لذلك سمي هذا الاتفاق

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٧، الأغاني: ج ٢٢ ص ٥٦ - ٧٥.

(٢) الأغاني: ج ٢٢ ص ٧٣.

(٣) البداية والنهاية: ج ١ ص ٢٩٠.

وهذا الحلف بـ «حلف الفضول» أيضاً.

فقبل البعثة النبوية الشريفة بعشرين عاماً دخل رجلٌ من «زبيد» في مكة في شهر ذي القعدة، وعرض بضاعة له للبيع فاشتراها منه «العاص بن وائل»، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي قريشاً، وطلب منهم أن ينصروه على العاص، وقريش آنذاك في أندية حول الكعبة، فنادى بأعلى صوته:

يا آلِ فِهرٍ لمظلومٍ بضاعتهُ يبطن مكة نائي الدار والتفر
ومُحرّمٍ أشعثٌ لم يقض عُمرتهُ ياللرجالِ وبين الحجر والحجر
إن الحرامَ لِمَن تَمَّت كرامتهُ ولا حرامَ لِثوبِ الفاجر القدر

فأثارت هذه الأبيات العاطفية مشاعر رجال من قريش، وهيجت غيرتهم، فقام «الزبير بن عبدالمطلب» وعزم على نصرته، وأيده في ذلك آخرون، فاجتمعوا في دار «عبدالله بن جدعان» وتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكونَ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما أمكنهم ذلك ثم مشوا إلى «العاص بن وائل» فانزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

وقد أنشد الزبير بن عبدالمطلب في ذلك شعراً فقال:

إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا أَلَا يَقِيمَ بِيَطْنِ مَكَّةَ ظالِمُ
أمرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاتَقُوا فالجارُ والمُعترِفُ فيهم سالمُ
وقال أيضاً:

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنَّ حِلْفاً عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعاً أَهْلَ دَارِ
نَسَمِيهِ «الْفُضُولَ» إِذَا عَقَدْنَا يَعْزُبُهُ الْغَرِيبُ لِذِي الْجَوَارِ
وَيَعْلَمُ مِنْ حَوَالِي الْبَيْتِ أَنَا أَبَا الضَّمِيمِ نَمْتَعُ كُلَّ عَارٍ^(١)

وقد شارك رسول الله صلى الله عليه وآله، في هذا الحلف الذي ضمن حقوق المظلومين وحياتهم، وقد نُقلت عنه صلى الله عليه وآله عبارات كثيرة يشيد فيها بذلك الحلف ويعترف فيها بمشاركته فيه وهانحن ننقل حديثين منها في

(١) البداية والنهاية: ج ١ ص ٢٩٠.

هذا المقام.

قال صلى الله عليه وآله:

«لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً لودعيتُ به في الإسلام لأجبتُ».

كما أن ابن هشام نقل في سيرته أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في مابعد عن هذا الحلف: «ما أحبُّ أن لي به حُمْرَ النِعم».

ولقد بقي هذا الحلف يحظى بمكانة واحترام قويتين في المجتمع العربي والإسلامي حتى أن الأجيال القادمة كانت ترى من واجبها الحفاظ عليه والعمل بموجبه، ويدل على هذا قضية وقعت في عهد إمارة «الوليد بن عتبة» الأموي^(١) على المدينة.

فقد وقعت بين الإمام الحسين بن علي عليه السَّلام وبين أمير المدينة هذا منازعة في مال متعلق بالحسين عليه السَّلام، ويبدو أن «الوليد» تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له الإمام السبط الذي لم يرضخ لحيف قط، ولم يسكت على ظلم أبداً:

«أَحْلِفُ بِاللَّهِ لَتَنْصِفَنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَأُخَذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لِأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ لِأَدْعُونَ بِحَلْفِ الْفُضُولِ»^(٢).

فاستجاب للحسين فريقٌ من الناس منهم «عبدالله بن الزبير»، وكرّر هذه العبارة وأضاف قائلاً: وأنا أخلفُ بالله لئن دعابه لَأُخَذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لِأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ نَمُوتَ جَمِيعاً.

وبلغت كلمة الحسين السبط عليه السَّلام هذه إلى رجال آخرين ك«المسورة» بن مخزومة بن نوفل الزُّهري» و«عبدالرحمان بن عثمان» فقالا مثل ما قال «ابن الزبير»، فلما بلغ ذلك «الوليد بن عتبة» أنصف الحسين عليه السَّلام من حقه حتى رضي^(٣).

(١) من قبل عمه معاوية. (٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣٢. (٣) البداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٩٣.

من فترة الشباب

الى مزاولة التجارة

يجمل القادة الالهيون العظماء وأصحاب الرسالات السماوية على كواهلهم مسؤوليات كبرى، ومهام عظيمة تلازم - في الأغلب - التعرض للمتاعب والمصاعب، والعذاب، وتحمل الأذى، بل وربما التعرض للقتل والاعتقال، وكلما كبرت الاهداف، عظمت المشاكل، والمتاعب.

وعلى هذا الاساس، فان نجاح القادة الرساليين يتوقف على مدى صبرهم واستقامتهم في وجه الاتهامات والمضايقات، وفي وجه الأذى والعذاب، لأن الصبر والتحمل في جميع مراحل الجهاد والعمل هو الشرط الاساسي للوصول الى المقصود، والى تحقيق الهدف المنشود والغاية المطلوبة.

من هنا ليس لقائد حقيقي أن يخشى كثرة العدو، وليس له ان ينسحب، أو يضعف لقلّة الاتباع والمؤيدين وبالتالي ليس له أن يقلق للنوائب فيخور عزيمته، او ترخو إرادته، مهما عظمت حلق البلاء واشتدت، ومهما تزايدت، أو تواترت. إننا نقرأ في تاريخ الأنبياء وقصصهم أموراً يعسر على الانسان العادي هضمها، ويصعب تصوُّرها.

فعن نوح النبي عليه السلام نقرأ أنه دعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، ولم تنتج هذه الدعوة الطويلة المضيئة سوى قلة من المؤمنين والمؤيدين الذين لم

يتجاوز عددهم الواحد والثمانين، وهذا يعني أنه لم يوفق في كل اثني عشر عاماً
الاهداية شخص واحد.

إنَّ إرادة الصبر، وقوَّة التحمُّل، والتصبر تظهر لدى الإنسان شيئاً فشيئاً،
فلا بدَّ أن تتلاحق حوادثٌ صعبةٌ، ولا بد أن يمرَّ المرء بنوائب مزعجة حتى تأنس
روحُه بالأمور الثقيلة، والقضايا الصعبة.

لقد قضى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شرطاً من حياته قبل البعثة
في رعي الغنم في الصحاري والقفار، ليكون بذلك صبوراً في تربية الناس الذين
سيكلِّف بقيادتهم وهدايتهم، وليستسهل كل صعب في هذا المجال.

إن إدارة المجتمع البشري من أصعب الأمور التي تواجه القادة، ورجال
الاصلاح. والمقدرة على الإدارة هذه لا تسنح ولا تهياً لأحد إلا بعد مزاولة الأمور
الصعبة، وممارسة الأعمال الشاقة، وربما يكون قيام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
برعي الغنم من هذا الباب، ولهذا جاء في الحديث.

«مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ حَتَّى يَسْتَرِعِيهِ الْغَنَمُ لِيُعَلِّمَهُ بِذَلِكَ رَعِيَةَ النَّاسِ»^(١).

لقد قضى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شرطاً من عمره الشريف في هذا
المجال، وينقل كثيرٌ من أرباب السير والمؤرخين هذه العبارة عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ:

«مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدَّ رَعَى الْغَنَمَ» قِيلَ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَقَالَ: «أَنَا رَعَيْتُهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالْقَرَارِيطِ»^(٢).

إن شخصية عظيمة يُفترضُ فيها أن تواجه - في المستقبل - أشخاصاً عنودين
كأبي جهل وأبي لهب، وأن تصنع من انحطت أفكارهم حتى أنهم سجدوا لكل
حجر ومدر، أفراداً لا يخضعون لأي شيء سوى ارادة الحق ومشيتته، لا بد أن
تسلح قبل ذلك بسلاح الصبر، وتجهز بأداة التحمل، وتتزود مسبقاً بقدرة
الاستقامة على طريق الهدف، وهذا لا يكون إلا بتعويد النفس على هذه

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ١٦٦.

(١) سفينة البحار: مادة نبأ.

الصفات، وحملها على مشاق الاعمال:

سبب آخر لرعي الغنم:

ويمكن أن نذكر هنا سبباً آخر أيضاً وهو ان رجلاً حرّ النفس والعقل كرسول الله صلّى الله عليه وآله تجرّي في شرايينه وعروقه دماء الغيرة والشجاعة كان يشق عليه ان يشاهد كل ذلك الظلم والحيف الذي كان يمارسه طغاة مكة، وعتاة قريش وزعماءؤها الظالمون القساة بحق الضعفاء، والمحرومين، وكذا كان يشق عليه ان يرى تظاهرهم بالعصيان والفسوق في حرم الله، وعند بيته المعظم.

إن اعراض سُكّان مكة عن عبادة الله الواحد الحق، وطوافهم حول تلك الأصنام الخاوية هي - بلاريب - أسوأ واقبح ما يكون في نظر الرجل الفاهم، والعاقل العالم، واثقل ما يكون عليه.

من هنا رأى النبيّ صلّى الله عليه وآله أن يقضي رداً من الزمن في الصحاري والقفار وعند سفوح الجبال التي كانت يومئذ بعيدة بطبيعة الحال عن تلك المجتمعات الفاسدة وأحوالها وأوضاعها، ليستريح (أو يتخلص) بعض الشيء من آلامه الروحية الناشئة من رؤية تلك الأوضاع المزرية، والأحوال المشينة.

على أنّ هذا الأمر لا يعني أن للرجل المتقي أن يسكت على الفساد والظلم، ويقرّ عليها.

ويفرّق بين حياته وحياة الآخرين ويعتزل عنهم ويتخذ موقف اللامبالاة تجاه الأوضاع المنحرفة، والاحوال الشاذة، بل ان النبيّ صلّى الله عليه وآله لما كان مأموراً من جانب الله سبحانه بالسكوت والانتظار، لانه لم تكن ظروف «البعثة» والهداية قد توفرت وتهيأت بعد لذلك اتخذ صلّى الله عليه وآله مثل هذا الموقف.

سبب ثالث:

ولقد كان هذا العمل (أي الاشتغال برعي الاغنام في البراري والقفار وعند السهول وسفوح الجبال) فرصة جيدة لأن يتمكن النبي صلى الله عليه وآله من النظر في خلق السماوات والتطلع في النجوم والكواكب وأحوالها وأوضاعها، وبالتالي الامعان في الآيات الأنفسية والآفاقية التي هي جميعاً من آيات وجود الله تعالى، ومن مظاهر قدرته وحكمته وعلمه وإرادته.

ان قلوب الأنبياء والمرسلين مع أنها منورة بمصابيح المعرفة المشرقة ومضاءة بأنوار الايمان والتوحيد منذ بدء فطرتها، وخلقتها، ولكنهم مع ذلك لا يرون أنفسهم في غنى عن النظر في عالم الخلق، والتفكر في الآيات الالهية، اذ من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الايمان، ويبلغون اسمى درجات اليقين، وبالتالي يتمكنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

إقتراح أبي طالب:

لقد دفع وضع (محمد) المعيشي الصعب «أباطالب» سيد قریش وزعيمها الذي كان معروفاً بالسخاء وموصوفاً بالشهامة، وعلو الطبع، وإباء النفس إلى ان يفكر في عمل لابن أخيه، كما يخفف عنه وطأة ذلك الوضع.

ومن هنا اقترح على ابن أخيه «محمد» العمل والتجارة بأموال «خديجة بنت خويلد» التي كانت امرأة تاجرة، ذات شرف عظيم، ومال كثير، تستأجر الرجال في مالها أو تضارهم اياه بشيء تجعله لهم منه.

فقد قال أبوطالب للنبي صلى الله عليه وآله: يا ابن أخي هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بما لها اكثر الناس وهي تبحث عن رجل أمين، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك، وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك.

ولكن إباء رسول الله صلى الله عليه وآله وعلو طبعه، منعه من الإقدام

بنفسه على هذا الأمر من دون سابق عهد، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم لعمه: فلعلها أن ترسل إليّ في ذلك، لأنّها تعرف بأنه المعروف بالأمين بين الناس. فبلغ «خديجة» بنت خويلد، مادار بين النبي وعمه «أبي طالب»، فبعثت إليه فوراً تقول له: إنّي دعاني الى البعثة اليك ما بغني من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا اعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك وابعث معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر. فاخبر رسول الله صلى الله عليه وآله عمه بذلك فقال له ابوطالب: «إنّ هذا رزق ساقه الله إليك»^(١).

هل عمل النبي أجيراً لخديجة؟

وهنا لابد من التذكير بنقطة في هذا المجال وهي:

هل عمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجيراً في أموال خديجة، أم أنه قد عمل في تجارتها بصورة أخرى كالمضاربة، وذلك بأن تعاقد النبي مع خديجة على أن يتاجر بأموالها على أن يشاركها في ارباح تلك التجارة؟

إن مكانة البيت الهاشمي، وإباء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومناعة طبعه، كل تلك الأمور والخصال توجب أن يكون عمل النبي في أموال خديجة قد تمّ بالصورة الثانية (أي العمل في تجارتها على نحو المضاربة لا الإجارة)، وتؤيد هذا المطلب امور هي:

أولاً: انه لا يوجد في اقتراح أبي طالب أية اشارة ولا أي كلام عن الإجارة، بل قد تحاور ابوطالب مع إخوته (أعمام النبي) في هذه المسألة من قبل وقال: «امضوا بنا إلى دار خديجة بنت خويلد حتى نسألها ان تعطي محمداً مالاً يتجره»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢٢، السيرة الحلبية ج ١ ص ١٣٢ و ١٣٣، الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢٢.

ثانياً: ان المؤرخ الأقدم المعروف باليعقوبي كتب في تاريخه: ان النبي ما كان أجيراً لأحد قط^(١).

ثالثاً: ان الجنابذي صرح في كتابه «معالم العترة» بأن «خديجة» كانت تضاربُ الرجال في مالها، بشيء تجعله لهم منه (اي من ذلك المال او من ربحه)^(٢).

تهيأت قافلة قريش التجارية للسفر الى الشام، وفيها أموال «خديجة» أيضاً، في هذا الاثناء جعلت «خديجة» بغيراً قوياً وشيئاً من البضاعة الثمينة تحت تصرف وكيلها (أي النبي صلى الله عليه وآله) وامرت غلامها (ميسرة وناصح) اللذين قررت ان يرافقاها صلى الله عليه وآله، بان يمثلا أوامراه، ويطيعاه، ويتعاملوا معه بأدب طوال تلك الرحلة، ولا يخالفاه في شيء^(٣).

وأخيراً وصلت القافلة إلى مقصدها واستفاد الجميع في هذه الرحلة التجارية أرباحاً، إلا أن النبي صلى الله عليه وآله ربح أكثر من الجميع، كما أنه ابتاع أشياء من الشام لبيعها في سوق «تهامة».

ثم عادت تلك القافلة التجارية إلى «مكة» بعد ذلك المكسب الكبير، والحصول على الريح الوفير.

ولقد تسنى لفتى قريش «محمد» أن يمرّ للمرة الثانية في هذه السفارة على ديار عاد وثمود.

وقد حمله الصمتُ الكبير الذي كان يخيم على ديار واطلال تلك الجماعة العاصية المتمردة في نقلة روحانية الى العوالم الأخرى أكثر فاكثراً، هذا مضافاً إلى أن هذه الرحلة جدّدت خواطره وذكرياته في السفارة الأولى، فقد تذكّر يوم طوى مع عمه «أبي طالب» هذه الصحاري نفسها وهذه القفار ذاتها، وما كان يحظى

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢١. (٢) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٩ نقلاً عن معالم العترة.

(٣) قالت خديجة لها: إعلمنا أنني قد أرسلتُ اليكما أميناً على أموالي وأنه أمير قريش وسيدها، فلا يدُ على يده، فإن باع لا يُمنع وإن ترك لا يؤمر وليكنْ كلامكما له بلطف وأدب ولا يعلو كلامكما على كلامه بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢٩.

فيها من عمه من الحذب والعناية.

وعند ما اقتربت قافلة قريش إلى «مكة»، وصارت عند مشارفها، التفت «ميسرة» غلامٌ خديجة، الى النبي صلى الله عليه وآله وقال: «يا محمد لقد ربنا في هذه السفرة ببركتك ما لم نربح في اربعين سنة، فاستقبل بخديجة وأبشرها بربنا» فأخذ النبي باقتراح ميسرة، وسبق القافلة العائدة في الدخول الى مكة، وتوجه نحو بيت «خديجة» بينما كانت خديجة جالسة في غرفتها، فلما رأت النبي مقبلاً عليها، نزلت من منظرها وركضت نحوه واستقبلته، وأدخلته في غرفتها، فخبّرها رسول الله صلى الله عليه وآله بما رجوا، ببيان جميل، وكلام بليغ، فسرت «خديجة» بذلك سروراً عظيماً، ثم قدم «ميسرة» في الأثر، ودخل عليها، وأخبرها بكل ما رآه وشاهده من النبي صلى الله عليه وآله في تلك السفرة من الكرامة والخير، والخلق العظيم، والخصال الكريمة، ومن الأمور التي كانت برمتها تدل على عظمة شخصيته صلى الله عليه وآله، وسمو خصاله^(١)، ومن جملة ما حدثه به ميسرة هو أنه لما وقع بين النبي صلى الله عليه وآله وبين رجل تلاح وجدال في بيع قال له ذلك الرجل: إحلف بالللات والعزى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما حلفتُ بهما قط، وإني لأمرٌ فاعرضُ عنها^(٢).

وحدثها أيضاً بأنه لما مرّ ببصرى نزلا في ظل شجرة ليسترحاً فقال راهبٌ كان يعيش هناك لما رأى النبي يسترح في ظل تلك الشجرة:- «مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي» سأل عن اسمه، فأخبره ميسرة باسمه فقال: «هو نبي وهو آخر الأنبياء، إنه هو هو ومُنزَلِ الانجيل، وقد قرأت عنه بشائر كثيرة»^(٣).

(١) الخرايج: ص ١٨٦، بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٥.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٣٠ وفي بحار الأنوار: ج ١٦ ص ١٨: انه صلى الله عليه وآله قال: إليك عني ثكلتك أمك فا تكلمت العرب بكلمة اثقل علي من هذه الكلمة.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ١٨، الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٣٠، الكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٢٤ و

خديجة زوجة الرسول الأولى:

حتى قبل ذلك اليوم لم تكن حالة النبي صلى الله عليه وآله الاقتصادية ووضعه المالي يُحسدُ عليه، فقد كان بحاجة إلى مساعدة عمه «أبي طالب» المالية، ولم يكن شغله على النحو الذي يكفي لضمان نفقاته، من جانب، وتمكينه من اختيار زوجة وشريكة حياة و تكوين عائلة، من جانب آخر. ولكن هذه السفارة إلى الشام وبخاصة على نحو الوكالة والمضاربة في أموال امرأة جلييلة، معروفة في قريش (أعني خديجة) ساعدت والى حد كبير على تثبيت وضعه الاقتصادي وتقوية بنيته المالية.

ولقد اعجبت «خديجة» بعظمة فتى قريش وسمو أخلاقه، ومقدرته التجارية حتى أنها أرادت أن تعطيه زيادة على ماتعاقدا عليه، تقديراً له، واعجاباً به، ولكنه اكتفى بأخذ ماتقرر في البداية ثم توجه إلى بيت عمه «أبي طالب» وقدم كل ماأخذه من «خديجة» الى عمه «أبي طالب» ليوسع به على أهله. ففرح «أبو طالب» بما عاين من ابن اخيه، وبقية أبيه «عبدالمطلب»، وأخيه «عبدالله» واغرورقت عيناه بالدموع، وسرّ بما حقق من نجاح وماحصل عليه من ربح من تلك التجارة سروراً كبيراً، واستعد أن يعطيه بعيرين يسافر عليهما ويتاجر، وراحلتين يُصلح بهما شأنه، ليتسنى له بأن يحصل على ثروة ومال يعطيه لعمه ليختار له زوجة.

في مثل هذه الظروف بالذات عزم رسول الله صلى الله عليه وآله عزمًا قاطعاً على أن يتخذ لنفسه شريكة حياة ويكون أسرة، ولكن كيف وقع الاختيار على «خديجة» التي سبق لها أن رفضت كل طلبات الزواج التي تقدم بها كبار الاثرياء والشخصيات القرشية مثل «عقبة بن أبي معيط»، و«أبو جهل» و«أبوسفيان» للزواج بها؟!، وماذا كانت العجل التي جمعت هذين الشخصين غير المشابهين، من حيث مستوى الحياة، والشراء؟ وكيف ظهرت تلك الرابطة القوية، وتلك العلاقة المعنوية العميقة، والألفة والمحبة بينهما إلى درجة أن

«خديجة» سلام الله عليها وهبت كل ثروتها للنبي صلى الله عليه وآله لينفقتها في نشر الإسلام، وإعلاء كلمة الحق، وإرساء قواعد التوحيد، وبث الدين الجديد، وأصبحت تلك الدار المفخمة التي كانت تزينها الكراسي المرصعة، والستر المطرزة، المصنوعة من أغلى الأقمشة الهندية، والإيرانية، ملجأ للمسلمين، وملقى لانصار الرسالة!!؟

لابدّ من البحث عن جذور هذه الحوادث في تاريخ حياة «خديجة» نفسها، فان من المسلمّ والبدهيّ أن هذا النوع من الفداء، و التفاني والإيثار لم يكن ثابتاً ليتحقق ما لم يكن لها جذور معنوية و طاهرة.

إن صفحات التاريخ لتشهد بأنّ هذا الزواج كان ناشئاً من إيمان «خديجة» بتقوى عزيز قريش وفتاها الامين «محمد» وطهره، وحبها الشديد لعفته وكرم أخلاقه، ولهذا قال النبي الاكرم صلى الله عليه وآله في حقها:

«أفضل نساء الجنة أربع: خديجة...»^(١).

إنها أول امرأة آمنّت برسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: في خطبته التي يشير فيها إلى غربة الإسلام في مبدأ البعثة النبوية الشريفة:

«لَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ وَ خَدِجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا»^(٢).

ويكتب «ابن الأثير» قائلاً: إنّ عفيف الكندي كان إمرأً تاجراً قدم مكة أيام الحج فرأى رجلاً قام تجاه الكعبة يصلي ثم خرجت امرأة تصلي معه، ثم خرج غلامٌ فقام يصلي معه، ففضى يسأل العباس عمّ النبي عن هؤلاء، وعن هذا الدين، فقال العباس:

(١) خصال الصدوق: ج ١ ص ٩٦ وغيره.

(٢) الكامل: ج ٢ ص ٣٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي: ج ١٣

هذا محمد بن عبد الله ابن أخي زعم أن الله ارسله، وهذه امرأته خديجة أمّنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة^(١).

وينبغي هنا أن نعطي لمحة عن مكانة خديجة في الإسلام تكميلاً لهذه الدراسة.

خديجة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله:

لقد اكتسبت «خديجة» بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمدية، وتفانيها في سبيل الاسلام، وبسبب حرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة وسلامته، وعملها المخلص على انجاح مهمته، ومشاركتها الفعالة، في دفع عجلة الدعوة الى الامام، ومشاطرتها للنبي في اكثر ماتحملة من محن واذى بصبر واستقامة وحب ورغبة.

لقد اكتسبت خديجة بفضل كل هذا وغيره مكانة سامية في الإسلام، حتى ان النبي ذكرها في أحاديث كثيرة وأشاد بفضلها، ومكانتها وشرفها على غيرها من النساء المسلمات المؤمنات، وذلك ولاشك ينطوي على اكثر من هدف.

فن جملة الأهداف التي ربما توخاها النبي صلى الله عليه وآله من الاشادة بخديجة سلام الله عليها الفات نظر المرأة المسلمة الى القدوة التي ينبغي أن تقتدي بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والأبعاد، والظروف، والحالات.

هذا مضافاً إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة وهي نصف المجتمع (إن لم تكن اكثره أحياناً) من دعم جدي للرسالة، مادياً كان أو معنوياً.

وفما يلي نأتي ببعض الأحاديث الشريفة التي تعكس مكانة خديجة، ومقامها، ومدى إسهامها في نصرة الإسلام ودعم دعوته، وإرساء قواعده.

١ - عن أبي زرعة عن أبي هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه [وآله]:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢٢٥ و ٢٢٦.

«أتاني جبرئيل عليه السّلام فقال: يارسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها آنية فيها ادم أو طعام أو شراب، فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السّلام من ربّها ومنّي، وبشّرها بيتي في الجنة من قصب لاصخبّ فيه ولا نصّب»^(١).

٢ - عن عائشه قالت: ماغرتُ على امرأة ماغرتُ على خديجة، ولقد هلكتُ قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنتُ اسمعه يذكرها، ولقد أمره ربّه عزوجل ان يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها الى خلائلها (اي خليلاتها وصديقاتها)^(٢).

٣ - وعن عائشه أيضاً قالت ماغرت على نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلا على خديجة، واني لم أدركها، (قالت): وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذبح الشاة فيقول: أرسلوا بها الى اصدقاء خديجة قالت: «أي عائشة» فاغضبته يوماً فقلت: خديجة!! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اني قد رزقت حبّها»^(٣).

٤ - ومن هذا القبيل ما كان يقوم به رسول الله صلى الله عليه وآله مع صاحبات خديجة من الاحترام لهن والاحتفال بهنّ: فقد وقف صلى الله عليه وآله وسلم على عجوز فجعل يسألها، ويتحفها، وقال:

«ان حسن العهد من الايمان، انها كانت تأتينا أيام خديجة»^(٤)

٥ - وروي عن انس قال كان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا أتى بهدية قال: «إذهبوا بها إلى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة»^(٥)

(١) صحيح مسلم: ج ٧ ص ١٣٣، مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٨٤ و ١٨٥ بطرق متعددة صحيحة على شرط الشيخين.

(٢) و (٣) صحيح مسلم: ج ٧ ص ١٣٤، ومثلها في صحيح البخاري: ج ٥ ص ٣٨ و ٣٩.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٨، ص ١٠٨.

(٥) سفينة البحار: ج ١ ص ٣٨٠ (خدج).

٦ - روى مجاهد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله [وآله] وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الايام فادركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبتني الناس وواستني في مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء» قالت عائشة فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً^(١).

٧ - عن يعلى بن المغيرة عن ابن ابي رواد قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله [وآله] وسلم على خديجة في مرضها الذي ماتت فيه، فقال لها: «يا خديجة أتكرهين ما أرى منك، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً، أما علمت أن الله تعالى زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون...»^(٢).

٨ - عن عكرمة عن ابن عباس قال خط رسول الله صلى الله عليه وآله أربع خطط في الأرض وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل نساء الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»^(٣).

٩ - عن أنس جاء جبرئيل الى النبي صلى الله عليه وآله [وآله] وعنده خديجة فقال: إن الله يقرئ خديجة السلام فقالت: إن الله هو السلام، وعليك السلام، ورحمة الله وبركاته^(٤).

١٠ - عن أبي الحسن الأول (الكاظم) عليه السلام قال قال رسول الله صلى

(١) اسد الغابة: ج ٥ ص ٤٣٨، ورواها مسلم أيضاً: ج ٧ ص ١٣٤، وكذا البخاري: ج ٥ ص ٣٩ وقد حذفها من: فغضب حتى... الى آخر الرواية.

(٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٤٧، وأسد الغابة: ج ٥ ص ٤٣٩.

(٣) الخصال للصدوق: ج ١ ص ٩٦، كما في بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢.

(٤) المستدرک على الصحيحين: ج ٣ ص ١٨١٦.

الله عليه وآله: «إن الله اختار من النساء اربعاً: مريم وآسية وخديجة وفاطمة»^(١).

١١ - عن ابي اليقظان عمران بن عبدالله عن ربيعة السعدي قال أتيت خديجة بن اليمان وهو في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعتُه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«خديجة بنتُ خويلد سابقةُ نساء العالمين إلى الايمان بالله وبمحمد (صلى الله عليه وآله)»^(٢).

١٢ - عن عروة قال قالت عائشة لفاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله [وآله] وسلم: ألا ابشرك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«سيدات نساء أهل الجنة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخديجة بنت خويلد وآسية»^(٣).

١٣ - عن أبي عبدالله (الصادق) عليه السلام قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منزله، فاذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول: والله يا بنت خديجة، ماترين إلا أن لأُمكِ علينا فضلاً، وأيُّ فضل كان لها علينا؟! ماهي إلا كبعضنا، فسمع صلى الله عليه وآله مقالتها لفاطمة، فلما رأت فاطمة رسول الله صلى الله عليه وآله بكت، فقال: ما يبكيك يا بنت محمد؟! قالت: ذكرتُ أُمِّي فتنقصتها فبكيْتُ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم قال:

«مَـة يا حميراء، فان الله تبارك و تعالى بارك في الودود الولود، وأن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهراً، وهو عبدُ الله وهو المطهر و ولدت مني القاسم، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وزينب، وأنت ممن أعقم الله رُحمه فلم تلدي

(١) الخصال: ج ١ ص ٩٦، كما في البحار: ج ١٦ ص ٢.

(٢) و (٣) المستدرک علی الصحیحین - ٣ ص ١٨٤ - ١٨٦ ووردت روايات بمضمون ذيل الحديث

في صحيح مسلم: ج ٧ ص ١٣٣.

شيئاً»^(١).

أجل هذه هي «خديجة بنت خويلد» شرفٌ وعقلٌ، وحبٌ عميقٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله، ووفاء وإخلاص، وتضحية بالغالي والرخيص في سبيل الإسلام الحنيف.

هذه هي «خديجة» أول من آمنت بالله ورسوله، وصدقت محمداً فيما جاء به عن ربه، من النساء، وآزره، فكان صلى الله عليه وآله لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من ردّ عليه، وتكذيب له إلا فرّج الله عنه بخديجة التي كانت تحفف عنه^(٢)، وتهون عليه ما يلقى من قومه، بما تمنحه من لطفها، وعطفها، وعنايتها به صلى الله عليه وآله، في غاية الاخلاص والودّ والتفاني.

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبها حباً شديداً ويجلها ويقدرها حق قدرها^(٣)، ولم يفتأ يذكرها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى رحلت وفاء لها، واحتراماً لشخصها ومشاعرها، وكان يغضب إذا ذكرها احداً بسوء، كيف وهي التي آمنت به اذ كفر به الناس، وصدقته اذ كذبه الناس، وواسته في مالها اذ حرمة الناس.

ولهذا أيضاً كان وفاتها مصيبة عظيمة أحرزت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفعته إلى أن يسمي ذلك العام الذي توفي فيه ناصراه وحامياه، ورفيقا آلامه (زوجته هذه: خديجة بنت خويلد وعمه المؤمن الصامد الصابر ابوطالب عليهما السلام) بعام الحداد، او عام الحزن^(٤) وان يلزم بيته ويقلّ الخروج^(٥)،

(١) الخصال: ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨، كما في بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٣.

(٢) اعلام النساء لعمر رضا كحالة: ج ١ ص ٣٢٨. (٣) اعلام النساء: ج ١ ص ٣٣٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٥، وقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال بهذه المناسبة: «اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان لأدري بأيهما أنا أشدّ جزعاً» المصدر نفسه، وراجع تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٠١ نقلاً عن سيرة مغلطاي.

(٥) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٤٧، المواهب اللدنية حسب نقل تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٠٢ وفيه إضافة: ونالت قرش منه ما لم تكن تنال.

وأن ينزل صلى الله عليه وآله عند دفنها في حفرتها، ويدخلها القبر بيده، في الحجون^(١).

عن ابن عباس في حديث طويل في زواج فاطمة الزهراء عليها السلام بعلي عليه السلام اجتمعت نساء رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يومئذ في بيت عائشة ليسأله أن يدخل الزهراء على (علي) عليه السلام فاحدقن به وقلت: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله قد اجتمعنا لأمر لو أن «خديجة» في الأحياء لقرت بذلك عينها.

قالت أم سلمة: فلما ذكرنا «خديجة» بكى رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: «خديجة واين مثل خديجة، صدقتني حين كذّبي الناس ووازرتني على دين الله وأعانتني عليه بما لها، إن الله عزّوجلّ أمرني أن ابشر خديجة ببيت في الجنة من قصب (الزمرّد) لاصخبّ فيه ولا نصب»^(٢).

لقد كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً، واكثرهنّ مالاً، واحسنهنّ جمالاً وأقواهنّ عقلاً وفهماً وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفافها وصيانتها^(٣) ويقال لها: سيدة قريش^(٤)، وكان لها من المكاينة والمنزلة بحيث كان كل قومها وسراة أبناء جلدتها حريصين على الاقتران بها^(٥)، وقد خطبها - كما يحدثنا التاريخ - عظماء قريش وبذلوا لها الأموال، ومن خطبها «عقبة بن ابي معيط» و«الصلت بن ابي يهاب» و«ابوجهل» و«ابوسفیان» فرفضتهم جميعاً، وأختارت رسول الله - وهي في سن الأربعين وهو صلى الله عليه وآله في الخامسة والعشرين - وهي تمتلك تلکم الثروة الطائلة، وهو صلى الله عليه وآله لا يمتلك من حطام الدنيا إلا الشيء اليسير اليسير، رغبة في الاقتران به ولما عرفت فيه من كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمة والصفات العالية، وهي ما كانت تبحث عنه في حياتها وتتعشقه واذا بتلك المرأة الغنية الثرية العائشة في

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٤٦. (٢) بحار الأنوار: ج ٤٣ ص ١٣١ نقلاً عن كشف اليقين.

(٣) و (٤) و (٥) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣٧.

أفضل عيش تصبح في بيت زوجها الرسول صلى الله عليه وآله تلك الزوجة المطيعة الخاضعة، الوفية المخلصة، وتسارع الى قبول دعوته، واعتناق دينه بوعي وبصيرة وارادة منها واختيار، وهي تعلم ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر ومتاعب، وتجعل كل ثروتها في خدمة العقيدة والمبدأ، وتشاطر زوجها آلامه، ومتاعبه، وترضى بأن تذوق مرارة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات وفي سنّ الرابعة أو الخامسة والستين. وهي مع ذلك تواجه كل ذلك بصبر وثبات^(١)، ودون أن يذكر عنها تبرّم او توجع.

هذا مضافاً إلى أنها كانت تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله بأدب تامّ يليق بمقام الرسالة والنبوة، على العكس من غيرها من بعض نساء النبيّ اللائي كن ربما يثرن سخطه وغضبه، ويؤذينه في نفسه وأهله.

واليك فيما يأتي بعض ما قاله عنها كبار الشخصيات، والمؤرخين ممّا يكشف عن عظيم مكانتها عند المسلمين أيضاً، قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السّلام:

«كنتُ أولَ من أسلم، فكُنّا بِذلكَ ثلاثَ حجَجٍ وما على الأرض خَلقٌ يُصلي ويشهدُ لرسول الله صلى الله عليه وآله بما أتاهُ غيري، وغير ابنة خويلد رحما الله وقد فعل»^(٢).

وقال محمد بن اسحاق: كانت خديجة أولَ من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء من الله، ووازرته على أمره فخفف الله بذلك عن رسول الله، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله بها إذا رجع إليها تثبّته، وتحفّف عنه، وتهون

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٥٩ قال: خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله صلى الله عليه وآله محاصرة في الشعب.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢ ومثله في روايات متعددة في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٤

عليه امر الناس حتى ماتت رحمها الله^(١).

وعنه أيضاً: أن «خديجة بنت خويلد» و «اباطالب» ماتا في عام واحد، فتتابع على رسول الله صلى الله عليه وآله هلاك خديجة وابي طالب وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، وكان رسول الله يسكن اليها^(٢).
وقال أبوامامة ابن النقاش: ان سبق خديجة وتأثيرها في اول الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها لله بما لها ونفسها لم يشركها فيه احدٌ لاعائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين^(٣).

وقد جاء في المنتقى: ان رسول الله صلى الله عليه وآله عند ما أمر بأن يصدع بالرسالة صعد على الصفا، وأخبر الناس بما أمره الله به فرماه أبوجهل قبحه الله بحجر فشج بين عينيه، وتبعه المشركون بالحجارة فهرب حتى أتى الجبل، فسمع عليٌّ وخديجةُ بذلك فراحا يلتمسانه صلى الله عليه وآله وهو جائع عطشان مرهق، ومضت خديجة تبحث عنه في كل مكان في الوادي وهي تناديه بحرقه وألم، وتبكي وتنحب، فنظر جبرئيل إلى خديجة تجول في الوادي فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى خديجة فقد أبكت لبكائها ملائكة السماء؟ أدعها اليك فاقراها مني السلام وقل لها: إن الله يقرئك السلام، ويبشركها أن لها في الجنة بيتاً من قصب لانصب فيه ولاصخب فدعاها النبي صلى الله عليه وآله والدماء تسيل من وجهه على الارض وهو يمسحها ويردها، وبقي رسول الله وصلى الله عليه وآله، وعلي وخديجة هناك حتى جنَّ الليلُ فانصرفوا جميعاً ودخلت به خديجةُ منزلها، فأقعدهته على الموضع الذي فيه الصخرة واطلته بصخرة من فوق رأسه، وقامت في وجهه تستره ببردها وأقبل المشركون يرمونه بالحجارة، فاذا جاءت من فوق راسه صخرة وقته الصخرة، واذا رموه من تحته وقته الجدران الحيط، واذا رمي من بين يديه وقته خديجة رضى الله عنها بنفسها، وجعلت تنادي يامعشر قرش ترمي الحرة

(٢) نفس المصدر.

(١) بحارالانوار: ج١٦، ص ١٠ - ١٢.

(٣) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ج ١ ص ٢٦٦.

في منزلها؟ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ انصرفوا عنه، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ،
وَعَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ يُصَلِّي (١).

و لَقَدْ بَلَغَ مِنْ خُضُوعِهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَحُبِّهَا لَهُ أَنَّهَا بَعْدَ أَنْ
تَمَّ عَقْدُ زَوَاجِهَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَتْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِلَى
بَيْتِكَ، فَبَيْتِي بَيْتِكَ، وَأَنَا جَارِيَتُكَ» (٢).

و جَاءَ فِي السِّيْرَةِ الدَّحْلَانِيَّةِ بِهَامِشِ السِّيْرَةِ الْحَلْبِيَّةِ: وَلَسَبَقَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ
وَحَسَنَ الْمَعْرُوفِ جَزَاؤُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَبَعَثَ جَبْرَائِيلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَهُوَ بَغَارُ حِرَاءَ وَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمَنِي، وَبَشَّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ
مِنْ قِصْبٍ لِأَصْخَبٍ فِيهِ وَلَا نَصَبَ، فَقَالَتْ: هُوَ السَّلَامُ وَمِنْهُ السَّلَامُ وَعَلَى جَبْرَائِيلَ
السَّلَامَ، وَعَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ السَّلَامَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَهَذَا مِنْ وَفُورِ فَهْمِهَا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَيْثُ جَعَلَتْ مَكَانَ رَدِّ السَّلَامِ عَلَى اللَّهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ثُمَّ غَايَرَتْ بَيْنَ
مَا يَلِيقُ بِهِ وَمَا يَلِيقُ بغيرِهِ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ وَالْقِصْبُ هُنَا اللَّوْلُؤُ الْمَجُوفُ، وَابْدَى
السَّهِيلِي لِنَفِي النَّصَبِ لَطِيفَةٌ هِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا دَعَاهَا إِلَى الْإِيمَانِ
أَجَابَتْ طَوْعاً وَلَمْ تَحُوجْهُ لِرَفْعِ صَوْتٍ وَلَا مَنَازَعَةٍ وَلَا نَصَبٍ بَلْ أزالَتْ عَنْهُ كُلَّ
تَعَبٍ، وَأَنَسَتْهُ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ، وَهَوَّنَتْ عَلَيْهِ كُلَّ عَسِيرٍ فَنَاسَبَ أَنْ تَكُونَ مَنزِلَتُهَا
الَّتِي بَشَّرَهَا بِهَا رَبُّهَا بِالصَّفَةِ الْمُقَابِلَةِ لِفَعْلِهَا وَصُورَةَ حَالِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَاقْرَأَ
السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا خُصُوصِيَّةً لَمْ تَكُنْ لِسِوَاهَا، وَتَمَيَّزَتْ أَيْضاً بِأَنَّهَا لَمْ تَسُوْهُ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلِّمْ وَلَمْ تَغَاضِبْهُ قَطُّ، وَقَدْ جَازَاهَا فَلِمَ يَتَزَوَّجُ عَلَيْهَا مَدَّةَ حَيَاتِهَا وَبَلَغَتْ
مِنْهُ مَا لَمْ تَبْلُغْهُ امْرَأَةٌ قَطُّ مِنْ زَوْجَاتِهِ (٣).

افتخار اهل البيت بخديجة عليها السلام:

و ما يدل على سمو مقامها وعلو منزلتها أن اهل البيت عليهم السلام طالما

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٤٣

(٢) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٤ نقلاً عن الخرائج والجرايح ص ١٨٦ و ١٨٧.

(٣) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٦٩ الهامش.

افتخروا بأن خديجة منهم، وانهم من خديجة وقد كانوا يعتزون بها، ويشيدون بمكانتها:

فقد خطب معاوية بالكوفة حين دخلها والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر فذكر علياً عليه السلام فقال منه ثم نال من الحسن فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه فأخذه الحسن بيده وأجلسه ثم قام فقال: «أيها الذاكِرُ عَلِيّاً أنا الحسن وأبي عليّ وأنت معاوية وأبوك صخرٌ وأمي فاطمة وأمك هند وجدتي رسول الله وجدك عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ وجدتي خديجة وجدتك قتيلة فلن الله أحمَلْنَا ذكراً والأُمْنَا حَسَباً وشرْنَا قديماً وحديثاً. فقال طوائفٌ من أهل المسجد: آمين^(١).

وقيل: ان «الحسين» عليه السلام ساير «أنس بن مالك» فاتي قبر خديجة فبكى ثم قال: إِذْهَبْ عَنِّي قَالَ «أنس»؛ فاستخفيتُ عنه فلما طال وقوفه في الصلاة سمعته يقول:

يَا رَبِّ يَا رَبِّ أَنْتَ مَوْلَاهُ فَأَرْحَمَ عُبَيْدًا إِلَيْكَ مَلْجَاهُ
يَا ذَا الْمَعَالِي عَلَيْكَ مُعْتَمِدِي طُوبَى لِمَنْ كُنْتَ أَنْتَ مَوْلَاهُ
طُوبَى لِمَنْ كَانَ خَادِمًا أَرْقَا يَشْكُو إِلَى ذِي الْجَلَالِ بَلْوَاهُ
الى آخر الايات^(٢).

هكذا كان اهل البيت النبوي - اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله يحترمون خديجة ويكرمونها لما كان لها من شخصية عظيمة ولما اسدته الى الإسلام والى رسول الإسلام من خدمات لا تنسى على مرّ الدهور.

ان بيان و نقل الاحاديث والروايات، وكذا الاقوال التي وردت في شأن خديجة والحديث عن شخصيتها ومكانتها ومدى إسهامها في انجاح ونصرة الدعوة المحمدية خارج عن امكانية هذه الدراسة، ونطاقها، لذلك نكتفي بهذه الاماعة

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١٦، ص ٤٦ و ٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ١٩٣ نقلًا عن عيون المحاسن.

العابرة تاركين الكلام بأسهاب حولها إلى مجال آخر.
ولتعدّ إلى تبين الأسباب الظاهرية والباطنية لزواجها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

العللُ الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي صلى الله عليه وآله:
إن الإنسان المادي الذي ينظر إلى كل ما يحيط به من خلال المنظار المادي، ويفسره تفسيراً مادياً قد يتصور (وبالاحرى يظن) أن «خديجة» كانت امرأة تاجرة تهتمُّ تجارتها، وتنمية ثروتها، ولأنها كانت بحاجة ماسة إلى رجل أمين قبل أي شيء، لذلك وجدت ضالتها في محمد الصادق الأمين صلى الله عليه وآله فتزوجت منه، بعد أن عرضت نفسها عليه ومحمد صلى الله عليه وآله هو الآخر حيث انه كان يعلم بغناها وثروتها، قبل بهذا العرض رغم ما كان بينه وبينها من فارق في السن كبير.

ولكن التاريخ يثبت أن ثمة أسباباً وعللاً معنوية لامادية هي التي دفعت بخديجة للزواج بأمين قريش وفتاها الصادق الطاهر.
واليك في ما يأتي شواهدنا على هذا الامر:

١ - عند ما سألت «خديجة» ميسرة عما رآه في رحلته من فتى قريش «محمد» فخبّرها ميسرة بما شاهد ورأى من «محمد» في تلك السفرة، وبما سمعه من راهب الشام حوله أحسّت «خديجة» في نفسها بشوق عظيم ورغبة شديدة نحوه كانت نابعة من اعجابها بمعنوية محمد صلى الله عليه وآله وكرم خصاله، وعظيم أخلاقه، فقالت من دون إرادتها: «حسبك يا ميسرة؛ لقد زدني شوقاً إلى محمد صلى الله عليه وآله، إذ هبّ فانت حرّ لوجه الله، وزوجتك وأولادك ولك عندي مائتا درهم وراحتان» ثم خلعت عليه خلعة سنية^(١).

ثم إنها ذكرت ماسمعه من «ميسرة» لورقة بن نوفل وكان من حكماء

(١) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٥٢.

العرب: فقال ورقة: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة»^(١).

٢ - مرّ النبي صلى الله عليه وآله يوماً بمنزل «خديجة بنت خويلد» وهي جالسة في ملامن نساؤها وجوارها وخدمها وكان عندها حبرٌ من أحبار اليهود، فلما مرّ النبي صلى الله عليه وآله نظر إليه ذلك الحبر وقال: يا خديجة مري من يأتي بهذا الشاب، فأرسلت إليه من أتى به، ودخل منزل «خديجة»، فقال له الحبر: إكشف عن ظهرك فلما كشف له قال الحبر: هذا والله خاتم النبوة فقالت له خديجة: لو رأك عمه وأنت تفتشه لحلت عليك منه نازلة البلاء وان أعمامه ليحذرون عليه من أحبار اليهود.

فقال الحبر: ومن يقدر على «محمّد» هذا بسوء، هذا وحق الكليم رسول الملك العظيم في آخر الزمان، فطوبى لمن يكون له بعلاً، وتكون له زوجة وأهلاً فقد حازت شرف الدنيا والآخرة.

فتعجبت «خديجة»، وانصرف «محمّد» وقد اشتغل قلب «خديجة» بنت خويلد بحبه فقالت: أيها الحبر بم عرفت محمداً انه نبي؟ قال: وجدت صفاته في الثورة انه المبعوث آخر الزمان يموت أبوه وامه، ويكفله جده وعمه، وسوف يتزوج بامرأة من قريش سيدة قومها وأميرة عشيرتها، وأشار بيده الى خديجة فلما سمعت «خديجة» مانطق به الحبر تعلق قلبها بالنبي صلى الله عليه وآله فلما خرج من عندها قال: إجهدي ان لا يفوتك «محمّد» فهو الشرف في الدنيا والآخرة^(٢).

٣ - لقد كان ورقة بن نوفل (وهو عم خديجة وكان من كهّان قريش وقد قرأ صحف «شيث») عليه السلام وصحف «إبراهيم» عليه السلام وقرأ التوراة والانجيل وزبور «داود» عليه السلام) يقول دائماً: سيُبَعَثُ رجلٌ من قريش في آخر

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٩١، السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٠ و ٢١ نقلاً عن كتاب الأنوار لأبي الحسن البكري.

الزمان يتزوج بامرأة من قريش تسود قومها (أو تكون سيدة قومها، وأميرة عشيرتها)، ولهذا كان يقول لها: «يا خديجة سوف تتصلين برجل يكون أشرف أهل الأرض والسماء»^(١).

هذه قضايا ذكرها بعض المؤرخين، وهي منقولة ومثبتة في طائفة كبيرة من الكتب التاريخية، وهي بمجموعها تدل على العلل الحقيقية والباطنية لرغبة خديجة في الزواج برسول الله صلى الله عليه وآله، وإن هذه الرغبة كانت ناشئة من اعجاب «خديجة» بأخلاق فتى قريش الأمين، ونبله، وطهارته، وعظيم سجاياه وخصاله، وحبها لهذه الأمور، وليس هناك أي أثر في علل هذا الزواج لآمانة «محمد» وكونه أصلح من غيره لهذا لسبب للقيام بتجارة «خديجة».

كيف تمت خطبة خديجة؟

من المسلم به أن اقتراح الزواج جاء من جانب «خديجة» نفسها أولاً، حتى أن ابن هشام^(٢) نقل في سيرته: ان «خديجة» لما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت له: «يا ابن عم إني قد رغبتُ فيك لقربتك وسطتك [أي شرفك ومكانتك] في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك» ثم اقترحت عليه أن تتزوج به.

ويعتقد أكثر المؤرخين أن «نفيسة بنت عليّة» بلغت رسالة «خديجة» إلى النبي صلى الله عليه وآله على النحو التالي:

قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج... ولودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فمن هي؟

فقالت: خديجة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وكيف لي بذلك،

فقالت: عليّ، فذهبت إلى خديجة فأخبرتها، فأرسلت خديجة إلى رسول الله صلى

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٠.

(١) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١.

الله عليه وآله بوكيلها «عمرو بن اسد»^(١) لتحديد ساعة من اجل مراسم الخطبة في محضر من الاقارب^(٢).

فشاور النبي صلى الله عليه وآله أعمامه وفي مقدمتهم «أبوطالب»، ثم عقدوا مجلساً فخماً حضره كبار وجوه قريش، ورؤساؤها فخطب «أبوطالب»، وبعد ان حمد الله واثني عليه وصف ابن أخيه محمداً بقوله:

«ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونُبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال فإن المال ظل زائل، وأمر حائل وعارية مُسترجعة، ولهُ في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، والصّداق ما سألتم عاجله وآجله من مالي، ومحمد من قد عرفتم قرابته».

وحيث أن «أباطالب» تعرّض في خطبته لذكر قريش، وبني هاشم وفضيلتهم، ومنزلتهم بين العرب، لذلك تكلم «ورقة بن نوفل بن اسد» الذي كان من أقارب خديجة^(٣) وقال في خطبة له: «لا تنكروا العشيرة فضلكم، ولا يرُدُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبتنا في الإتصال بجلبكم وشرفكم»^(٤). ثم أُجري عقد النكاح ومهرها النبي صلى الله عليه وآله أربعمئة دينار وقيل أصدقها عشرين بكرة^(٥).

(١) المعروف أن والد خديجة توفي في حرب الفجار ولهذا قام بالايجاب من قبلها عمها عمرو بن اسد ولهذا لا يصح ما ذكره بعض المؤرخين من أن خويلد (والد خديجة) امتنع من تزويجها لرسول الله صلى الله عليه وآله في بداية الأمر، ثم رضي بذلك نزولاً عند رغبة خديجة.

(٢) تاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٦٤.

(٣) المعروف أن ورقة كان عمّاً لخديجة ولكن هذا موضع نقاش لأن «خديجة بنت خويلد بن اسد» وورقة بن نوفل بن اسد فيكونان اولاد عمومة أي أنه ابن عم خديجة وهي بنت عمه. ولذلك جاء في بعض المصادر وصفه بـ «ابن عمها» (تاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٨٢) وراجع قبله السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٢٠٣.

(٤) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ١٦، مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ٣٠، السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣٩، تاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٦٤.

(٥) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣٩.

عمر خديجة عند زواجها بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:
المعروف المشهور أن خديجة عليها السَّلَام تزوجت من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ وَهِيَ فِي سَنَةِ الْأَرْبَعِينَ وَأَنَّهَا وُلِدَتْ قَبْلَ عَامِ الْفِيلِ بِخَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا.
وَذَكَرَ الْبَعْضُ أَقْلًا مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا.
وَذَكَرَ أَنَّهَا تَزَوَّجَتْ قَبْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِرَجُلَيْنِ أَوْلَاهُمَا «عَتِيقُ بْنُ
عَائِدَةَ» ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبُو هَالَةَ التَّمِيمِيَّ الَّذِي تَوَفَّى كُلٌّ مِنْهُمَا بُعِيدَ زَوَاجُهُ بِخَدِيجَةَ^(١).

(١) رُبَّمَا يُشَكَّكَ فِي أَنَّ تَكُونَ خَدِيجَةَ عَلَيْهَا السَّلَام قَدْ تَزَوَّجَتْ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَحَدٍ
وَهِيَ الَّتِي امْتَنَعَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ خَطَبَهَا وَرَامَ تَزْوِيجَهَا مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ وَأَشْرَافِهَا. رَاجِعِ
الاسْتِغَاثَةَ: ج ١، ص ٧٠.

من الزواج

الى البعثة

تُعتبر فترة الشباب من أهم وأخطر الفترات في حياة الإنسان في هذه الفترة تبلغ الغريزة الجنسية نضجها وكماها، وتصبح النفس البشرية لعبة في أيدي الأهواء ويغلب طوفان الشهوة على فضاء العقل، ويغطي الظلام سماء التفكير، وتشتد حاكمية الغرائز المادية، وتتضاءل شعلة العقل، وتترأى أمام عيون الشباب بين الحين والآخر، وصباح مساء صروح عظيمة من الآمال الخيالية.

ولو ملك الإنسان - في مثل هذه الفترة - شيئاً من الثروة، لتحوّلت حياته إلى مسألة في غاية الخطورة فالغرائز الحيوانية، وصحة المزاج من جهة والامكانيات المادية والمالية من جهة أخرى تتعاضدان وتغرقان المرء في بحر من الشهوات، والنزوات، وتهيّئان له عالماً بعيداً عن التفكير في المستقبل.

ومن هنا يصف المرتون العلماء تلك الفترة الحساسة بأنها الحدّ الفاصل بين الشقاء والسعادة، والفترة التي قلما يستطيع شاب أن يرسم لنفسه فيها مساراً معقولاً، ويختار لنفسه طريقاً واضحاً على أمل الحصول على الملكات الفاضلة، والنفسية الرفيعة الطاهرة التي تحفظه عن أي خطر متوقّع^(١). حقاً إن كبح جماح

(١) والى هذه الحقيقة اشار الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله:

إن الفراغ والشباب والجمدة مفسدة للمرء أي مفسدة

النفس، وزمَّها وحفظها من الإنزلاق في مهاوي الشهوات، والنزوات في مثل هذه الفترة هو أمر جدّ عسير، ولو أن الانسان حُرِّمَ من تربية عائلية صحيحة مستقيمة كان عليه أن ينتظر مصيراً سيئاً، ومستقبلاً في غاية البؤس والشقاء.

فَترَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

ليس من شك في ان فتى قريش «محمد» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان يتمتع في أيام شبابه بصحة جيدة، وقوة بدنية عالية، وكان شجاعاً قوياً، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد تربي في بيئة حرة بعيدة عن ضوضاء الحياة، وفتح عينيه في عائلة اتصف جميع أفرادها وعضائها بالشجاعة والفروسية، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان يمتلك ثروة «خديجة» الطائلة فكانت ظروف الترف، والعيش الشهواني متوفرة له بشكل كامل، ولكن كيف ترى استفاد من هذه الامكانيات المادية. هل مدَّ موائد العيش واللذة وشارك في مجالس السهر والسمر واللهو واللعب. واطلق العنان لشهوته، وفكر في إشباع غرائزه الجنسية كغيره من شباب ذلك العصر، وتلك البيئة الفاسدة.

أم أنَّه اختار لنفسه منهجاً آخر في حياته، واستفاد من كل تلك الإمكانيات في سبيل تحقيق حياة زاخرة بالمعنوية، الأمر الذي تبدو ملامحه بجلاء لمن تتبع تلك الفترة الحساسة من تاريخه.

ان التاريخ ليشهد بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان يعيش كما يعيش أي رجل رجل عاقلٍ لبيبٍ وفاضلٍ رشيدٍ، وأنه طوى تلك السنوات الحساسة من حياته كأحسن ما يكون، بعيداً عن العبث والترف والضياع والانزلاق إلى الشهوات والانسياق وراء التوافه.

بل ان التاريخ ليشهد بأنه كان اشد ما يكون نفوراً من اللهو، والعبث، والترف والمجون فقد كانت تلوح على محيائه دائماً آثار التفكير والتأمل، وكثيراً ما كان يلجأ الى سفوح الجبال او الكهوف والمغارات للابتعاد عن الجوّ الإجتماعي الموبوء في مكة، يلبث هناك أياماً يتأمل فيها في آثار القدرة الإلهية،

وفي عظمة الصنع الالهي، الرائع البديع.

احاسيسه ومشاعره الإنسانية في فترة الشباب:

ولقد وقعت في احدى أسواق مكة ذات يوم حادثة هيّجت مشاعره الانسانية وحركت عواطفه واحاسيسه، فقد رأى مقامراً قد خسر بعيره وبيته، بل بلغ الأمر به أن استرقه منافسه عشرة أعوام.

وقد آلمت هذه القصة المأساوية فتى قريش «محمد» بشدة، الى درجة أنه لم يَعدّ يحتمل البقاء في «مكة» ذلك اليوم فغادرها من فوره وذهب الى الجبال المحيطة بمكة ثم عاد بعد هزيع من الليل.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينزعج بشدة لهذه المشاهد المحزنة والاضاع المأساوية، وكان يتعجب من ضعف عقول قومه، وانحطاط مداركهم.

ولقد كان بيت «خديجة» قبل زواج النبي صلى الله عليه وآله بها ملاذاً للفقراء وكعبة لآمال المساكين والمحرومين، وبعد أن تزوج النبي صلى الله عليه وآله بها لم يطرأ على وضع ذلك البيت أيّ تغيير من جهة الانفاق والبذل.

ففي سنين الجذب والقحط التي كانت تضرب مكة وضواحيها بين الحين والآخر ربما قدمت «حليمة السعدية» مكة لتزور ولدها الرضاعي «محمد» فكان النبي صلى الله عليه وآله يكرمها ويحترمها، ويفرش رداءه تحت أقدامها، ويصفي لكلامها بعناية ولطف، وفاء لجميلها، وعرفاناً لعواطفها وأمومتها.

فقد روي أن «حليمة» قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله مكة بعد تزوجه خديجة، فشكت إليه جذب البلاد وهلاك المواشي فكلم رسول الله صلى الله عليه وآله «خديجة» فأعطتها بغيراً وأربعين شاة، وانصرفت الى أهلها موفورة، مسرورة. وروي أيضاً انه استأذنت «حليمة» عليه ذات مرة فلما دخلت عليه قال: «أمي أمي» وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه^(١).

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٠٣.

أولادُ خديجة:

لاريب في أنَّ وجودَ الأولاد في الحياة العائلية ممَّا يقوي أواصر الوشيجة الزوجية، ويعمق جذورها، ويمنح الجوَّ العائلي بهاءً، ورؤنقاً، وجمالاً خاصاً. ولقد أنجبت «خديجة» لرسول الله صلى الله عليه وآله ستة من الأولاد اثنين من الذكور، أكبرهما «القاسم» ثم «عبدالله» اللذان كانا يُدعيان بـ: «الطاهر» و«الطيب» واربعة من الإناث.

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد: أكبر بناته رقية ثم زينب ثم أم كلثوم، ثم فاطمة.

فأما الذكور من أولاده صلى الله عليه وآله فماتوا قبل البعثة، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام^(١).

ورغم أن النبي صلى الله عليه وآله قد عُرف بصبره وجلده في الحوادث والنوائب فربما انعكست احزانه القلبية في قطرات دموعه الساخنة المنحدرة على خديه الشريفتين في موت أولاده.

ولقد بلغ به الحزنُ والغمُّ لموت ولده «إبراهيم» من زوجته مارية القبطية حدًّا لم يحدث لغيره من أولاده، إلا أنه رغم ذلك الحزن الآخذ من قلبه مأخذاً لم يفتّر لسانه عن حمد الله وشكره حتى أن اعرابياً اعترض عليه صلى الله عليه وآله لما وجده يبكي على ولده قائلاً: او لم تكن نهيت عن البكاء اجابه بقوله: «انما هذا رحمة، ومن لا يرحم لا يرحم»^(٢).

حدسٌ لا أساس له من الواقع!!

لقد كتب الدكتور هيكل في كتابه: «حياة محمد» يقول: «لاريب أن

(١) مناقب ابن شهر آشوب: ج ١ ص ١٤٠، قرب الأسناد: ٦ و ٧، الخصال: ج ٢ ص ٣٧، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٥ - ١٥٢. وقد ذكر البعض للنبي صلى الله عليه وآله أكثر من ولدين، يراجع تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٣٥، بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٦٦. (٢) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٥١.

خديجة عند موت كل واحد منها (اي ولدي النبي: القاسم وعبدالله) في الجاهلية توجّهت إلى آلهتها الاصنام تسألها ما بالهالم تشملها برحمتها وبرها»^(١).

إنّ هذا الكلام لا يستند إلى أي دليل تاريخي، وليس هو بالتالي إلا حدّس باطل، وإدعاء فارغ ليس له من منشأ إلا ان أغلبية أهل ذلك العصر كانوا عبدة أوثان، فلا بُدّ ان خديجة كانت على منوالهم!!

في حين ان رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يبغض الأصنام والأوثان من بداية شبابه، وقد اتضح موقفه منها أكثر في سفرته الى الشام في أموال خديجة يوم قال لمن استحلّفه بالللات والعزى: «اليك عني، فإ تكلمت العرب بكلمة أثقل عليّ من هذه».

مع ذلك كيف يمكن القول بأن امرأة لبيبة عاقلة لم يكن شدّة حبها وشغفها بزوجها موضع شك، أن تتوجّه عند موت ولديها إلى الاصنام التي كانت ابغض الأشياء عند زوجها، وخاصة أن حبها لزوجها «محمد» وبل إقدامها على الزواج منه انما كان بسبب ما كان يتحلّى به من ايمان ومعنوية، وصفات فاضلة، وملكات اخلاقية عالية، فهي قد سمعت عنه بأنه آخر نبيّ، وأنه خاتم المرسلين، فكيف والحال هذه يمكن ان يحتمل احدانها مع هذا الاعتقاد - بثت شكواها و حزنها الى الاوثان والاصنام؟؟!

دَعِيَ رَسُولُ اللَّهِ: زيد بن حارثة:

عند الحجر الاسود أعلن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن تبنيه له... ذلك هو زيد بن حارثة.

و كان «زيد» ممّن سباه العرب من حدود الشام، وباعوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد أقرباء «خديجة» يُدعى «حكيم بن حزام»، ولكن لا يُعرف كيف انتقل إلى «خديجة» في مابعد؟

(١) حياة محمد: ص ١٢٨.

يقول هيكل في كتابه «حياة محمد» في هذا الصدد «لقد ترك موتٌ ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله في نفس النبي أثراً عميقاً حتى إذا جيء بزويد بن حارثة يُباعُ طلب الى «خديجة» أن تباعه ففعلت ثم اعتقه وتبناه»^(١).

ولكن اكثر المؤرخين يقولون: ان «حكيم بن حزام» قد اشتراه لعمته «خديجة بنت خويلد»، وقد أحبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لذكائه وطهره، فوهبته «خديجة» له عند زواجه صلى الله عليه وآله منها.

ففتش عنه والده «حارثة» حتى عرف بمكانه في مكة، فقدمها، ودخل على النبي صلى الله عليه وآله، فطلب منه صلى الله عليه وآله أن يأذن لزيد ليرحل معه إلى موطنه، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وخيره بين المقام معه صلى الله عليه وآله والرحيل الى موطنه مع أبيه، فاختر المقام مع رسول الله صلى الله عليه وآله لما وجد من خلقه، وحنانه، ولطفه العظيم فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك اخرجته الى الحجر واعتقه ثم تبناه على مرأى من الناس ومسمع قائلًا: «يامن حضر اشهدوا أن زيدا ابني»^(٢).

بداية الخلاف بين الوثنيين:

لقد أوجدت البعثة النبوية خلافاً واختلافاً كبيراً في أوساط قريش وفرقت صفوفهم، غير أن هذا الاختلاف قد وُجدت أسبابه وعوامله، وظهرت بوادره وعلائمه قبل البعثة المباركة.

فقد أبدى جماعة من الناس في الجزيرة العربية استياءهم من دين العرب وانكروا عقائدهم الباطلة، وطالما كانوا يتحدثون عن قرب ظهور النبي العربي الذي يتم على يديه إحياء التوحيد.

وكان اليهود يتوعدون أهل الاصنام بالنبي صلى الله عليه وآله ويقولون:

(١) حياة محمد: ص ١٢٨.

(٢) الإصابة: ج ١ ص ٥٤٥ و ٥٤٦، أسد الغابة: ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦.

ليخرجنَّ نبيُّ فليكسرن أصنامكم (١).

وكتب ابن هشام يقول: كان اليهود يقولون للعرب: إنه قد تقارب زمان نبيِّ يُبعث الآن نقتلكم معه قتلَ عاد وادم.

وكتب يقول أيضاً: وكانت الاحبار من اليهود، والرهبان من النصارى والكهّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله قبل مبعثه.

هذه الكلمات تُصوّر انقضاء عهد الوثنية في نظرهم إلى درجة أن بعض القبائل أجابت النبي صلى الله عليه وآله لما بُعث، ودعاهم الله، بينما احجمت اليهود عن الايمان به وبرسالته وبقيت على كفرها وجحودها لنبوته التي طالما بشرت بها.

وقد نزل فيهم قوله تعالى:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (٢) (٣).

أعمدة الوثنية تهتزُّ:

ولقد شهد أحدُ أعياد قريش حادثاً غريباً كان في نظر العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب منهم بمثابة جرس إنذار اذن باقتراب سقوط دولة الوثنيين، وإنهيار صروح الوثنية وعبادة الأصنام، وانقراضها.

فقد اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، فتتخى أربعةٌ ممن عُرفوا بالعلم ناحية، وأخذوا يتحدّثون سراً، وأخذوا ينتقدون عبادة الأوثان والأصنام، وما عليه قومهم من فساد العقيدة.

فقال بعضهم لبعض: والله ما قومكم على شيء، لقد اخطأوا دين أبيهم

(١) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٢٣١. (٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٢١. (٣) البقرة: ٨٩.

إبراهيم!! ما حَجْرٌ نُطِيفُ به لا يسمعُ ولا يبصرُ، ولا يضرُّ ولا ينفعُ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً...

وكان هؤلاء الأربعة هم:

١ - «ورقة بن نوفل» الذي اختار النصرانية بعد أن طالعَ كُتُبَهَا، واتصل بأهلها.

٢ - «عبيد الله بن جحش» الذي أسلمَ عند ظهور الإسلام، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة.

٣ - «عثمان بن الحويرث» الذي قدم على قيصر ملك الروم، فتنصَّر.

٤ - «زيد بن عمرو بن نفيل» الذي اعتزل الأوثان، وقال: اعبدُ رب إبراهيم^(١).

إن ظهور مثل هذا الاستنكار والجحد للأوثان والوثنية لا يعني أبداً أنَّ دعوة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَتْ تعقيباً لدعوة هذه الجماعة، واستمراراً لها!! كيف يمكن أن نعتبر دعوة رسول الله العالمية مع ما انطوت عليه من أهداف كبرى، واستندت إليه من معارف وأحكام لا تُحصى، ردة فعل لمثل هذا الحادث الصغير وتعبيراً عن مثل هذا الاستنكار المحدود؟

إن الحنيفية وهي سُنَّة إبراهيم ودينه لم تكن قد مُجِيت كلياً في الحجاز بعد أيام بعثة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بل كان هناك لا يزال بعض الأحناف (وهم الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السَّلام) منتشرين في أنحاء الجزيرة العربية، إلا أن ذلك لا يعني أنهم كانوا قادرين على التظاهر بعقيدتهم بين الناس، أو قيادة حركة، أو تربية أفراد على نهجهم، أو أن توجُّهاتهم التوحيدية كانت من القوة بحيث تستطيع أن تكون مصدر إلهام لقيم ومعارف وتعاليم وأحكام لشخصية مثل رسول الإسلام «محمد» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فلم يُنقل عن هؤلاء سوى بعض الاعتقادات المحدودة المحدودة مثل الاعتقاد

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٢٥.

بالمعاد واليوم الآخر، وشيء بسيط من البرامج الأخلاقية، وحتى ما نقل عنهم من أبيات توحيدية لا يمكن تأكيد انتسابها إليهم، وأن لم يمكن نفي ذلك أيضاً^(١). فهل يمكن والحال هذه أن نعتبر الثقافة الإسلامية العظيمة، والمعارف العقلية العالية، والقوانين والتشريعات المفصلة، والانظمة الأخلاقية والسياسية والإقتصادية الإسلامية، الشاملة الكاملة، كنتيجة لمتابعة أولئك نفر المعداد من «الأحناف» الموحدين المنتشرين في انحاء مختلفة من بلاد الحجاز الذين كانت جل عقائدهم تتألف من مجرد الاعتقاد بوجود الله، واليوم الآخر وقضية أو قضيتين من قضايا الأخلاق؟!

نموذج آخر عن ضعف قريش:

لم يكن يمض على عُمر فتى قريش أكثر من خمس وثلاثين عاماً يوماً واجه إختلافاً كبيراً بين قريش، فأزال بحكمته ذلك التخاصم، ولقد كشفت هذه الحادثة عن مدى الإحترام الذي كان فتى قريش «محمد» يحظى به لدى قريش، كما وتكشف عن قوة اعتقادهم بصدقه وأمانته.

واليك تفصيل هذه الحادثة:

إنحدر سيلٌ رهيب من جبال مكة المرتفعة نحو بيت الله المعظمة «الكعبة المقدسة» فلم يسلم من هذا السيل بيت في مكة حتى الكعبة المعظمة، التي تصدعت جدرانها تصدعاً كبيراً بفعل ذلك السيل.

فعمزت قريش على تجديد تلك البنية المعظمة، ولكنها تهيبت ذلك، وترددت في هدم الكعبة، فأقدم «الوليد بن المغيرة» وهدم ركنين منها على شيء من الخوف، فانتظر أهل مكة أن يحل به أمرٌ، ولكنهم لما رأوا «الوليد» لم يصبه

(١) ولقد نقل ابن هشام في كتابه: السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٣٢ طائفة من الأبيات

والقصائد التوحيدية هذه؛ والتي جاء في مطلع إحداها ما أنشده زيد بن عمرو بن نفيل:

أزيتاً واجداً أم ألف ربّ أديس إذا تُقيمت الأمور؟

عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك بفعل العَلْد الصبور (البصير)

غضب من الآلهة، اطمأنوا إلى أنه لم يرتكب قبيحاً، وأنه عمل ما فيه رضى آلهتهم، فاقدّموا جميعاً على هدم ماتبقى من الكعبة، واتفق أن تحطمت سفينة قادمة من «مصر» في تجارة لروميّ عند ميناء «جدة» بفعل الرياح والعواصف، فعلمت بذلك قريش، وأرسلت رجالاً يبتاعون أخشابها ليستخدموها في بناء الكعبة المعظمة، وأوكلوا أمر تجارتها إلى نجار قبطيّ محترف كان يقطن «مكة». و لما ارتفعت جدران الكعبة إلى قامة الرجل، وأن الأوان لوضع الحجر الأسود في محله من الركن وقع الاختلاف بين زعماء قريش، وتنازعوا في من يتولّى وضع الحجر الاسود في مكانه.

وتحالفت قبيلة «بني عبدالدار» مع «بني عدّي» على أن يمنعوا من أن ينال هذا الفخار غيرهم، وعمدوا إلى اناء مملوء بالدم فوضعوا أيديهم فيه تأكيداً لذلك الميثاق.

من هنا تأخرت عملية البناء وتوقفت خمسة أيام بلياليها، وكاد أن تنشب بينهم حربٌ دامية، وربما طويلة، فقد اجتمعت طوائف مختلفة من قريش في المسجد الحرام وهي تنتظر حادثة خطيرة، فعمد -في الأخير- شيخ من شيوخ قريش يدعى «أبو أمية بن مغيرة المخزومي» من زعماء قريش وقال: يا معشر قريش، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد^(١) يقضي بينكم فيه، فقبلوا برأيه اجمع، فكان اول داخل عليه فتى قريش «محمد» صلى الله عليه وآله فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فقال صلى الله عليه وآله: هلم اليّ ثوباً، فأخذ الحجر ووضع فيه ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً»

ففعّلوا حتى إذا بلغوا به موضعه من الركن وضعه صلى الله عليه وآله هو بيده مكانه، وهذا حال دون وقوع حوادث دامية كادت أن تقع بسبب تنازع قريش، واختلافها، وحلّ الوفاق محل الشقاق بعد أن رضى الكل بحكمه.

(١) وفي رواية: أول من يدخل باب الصفا.

و إلى قضية التحكيم هذه يشير «هبيرة بن أبي وهب» في أبيات صوّرت هذه الحادثة التاريخية الكبرى، اذ قال:

تشاجرت الأحياء في فصل خطّة
تلاقواها بالبغض بعد مودة
فلما رأينا الأمر قد جدّ جدّه
رضينا وقلنا العدل أول طالع
ففاجأنا هذا الأمين محمّد
بخير قرش كليها أمس شيمة
فجاء بأمر لم ير الناس مثله
وتلك يد منه علينا عظيمة
جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
وأوقد ناراً بينهم شرّموقد
ولم يبق شيء غير سلّ المهند
يجيء من البطحاء من غير موعد
فقلنا رضينا بالأمين محمّد
وفي اليوم مع ما يحدث الله في غد
أعم وأرضى في العواقب والبدي
يروب لها هذا الزمان ويعتدي^(١)

أمين قرش يكفل علياً:

أجدبت مكة وضواحيها سنة من السنين، وقل فيها الماء، وأصابت الناس أزمة شديدة، وكان أبوطالب عليه السلام كثير العيال، فعزم رسول الله صلى الله عليه وآله على أن يساعد عمه أباطالب، ويخفف عنه عبء العيال، فانطلق الى عمه العباس وقال له: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً».

فكفل العباس جعفرأ، وكفل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام.

يقول أبو الفرج الاصفهاني المؤرخ المعروف في هذا الصدد:

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٩ وفروع الكافي: ج ٤ ص ٢١٧ و ٢١٨، والجدير بالذكر أنهم قالوا عند تجديد بناء الكعبة: «يامعشر قرش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بنتي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد للناس» (البداية والنهاية: ج ٢ ص ٣٠١) ولا شك أن هذه من بقايا تعاليم الأنبياء التي بقيت بينهم ولم تمح بالمرّة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ «علياً» من أبيه وهو صغير في سنة
اصابت قريشاً وقحط ناهم، وأخذ حمزة جعفرأ وأخذ العباس طالباً ليكفوا أباهم
مؤنثهم ويخففوا عنهم ثقلهم، وأخذ هو (أي ابوطالب) عقيلأ لميله كان اليه فقال
رسول الله صلى الله عليه وآله:

«اخترتُ مَنْ اختار الله لي عليكم: علياً»^(١).

إن هذه الحادثة وإن كانت في ظاهرها تعني ان رسول الله صلى الله عليه
وآله أقدم على هذا الأمر ليساعد عمه أباطالب في تلك الازمة، لكن الهدف
الأعلى والأخير كان أمراً آخر وهو أن: يترتب علي عليه السّلام في حجر النبي،
ويغتذي من مكارم اخلاقه ويتبعه في كرم افعاله.

ولقد اشار الإمام عليّ عليه السّلام نفسه الى هذا الموضوع بقوله:

«وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَ
الْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضْمُنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفِي فِي
فِرَاشِهِ... وَ لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثْرَامَهُ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ
أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَيَأْمُرُنِي بِالِإِقْتِدَاءِ بِهِ»^(٢).

إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام:

تدلُّ الدلائل التاريخية، القوية، فضلاً عن الأدلة العقلية والمنطقية على أن
النبي الاكرم صلى الله عليه وآله لم يعبد غير الله تعالى منذ وُلد من أمه، والى أن
رحل الى ربه، بل وكان كفلاؤه مثل عبدالمطلب وأبي طالب مؤمنون موحدون هم أيضاً.

إيمان جده عبدالمطلب:

وأما عبدالمطلب كفيل النبي الاوّل فلاننسى أنه عندما قصد «أبرهة» هدم

(١) مقاتل الطالبين: ص ٢٦، الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٣٧، السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٤٥.

٢٤٧ باب (ذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه اول ذكر أسلم).

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

الكعبة في جيش الفيل، نزل في جوف الليل الى الكعبة وأخذ بحلقة بابها
يَدْعُو الله ويقول مناجياً الله سبحانه.

«اللَّهُمَّ أَنْيَسَ الْمُسْتَوْحِشِينَ، وَلَا وَحْشَةَ مَعَكَ فَالْبَيْتُ بَيْتُكَ، وَالْحَرَمُ حَرَمُكَ
وَالدَّارُ دَارُكَ، وَنَحْنُ جَيْرَانُكَ، أَنْكَ تَمْنَعُ عَنْهُ مَا تَشَاءُ، وَرَبِّ الدَّارِ أَوْلَى
بِالدَّارِ».

ثم أنشأ يقول:

يَارَبِّ لَا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ يَارَبِّ فَامْتَنِعْ مِنْهُمْو جِمَاكَ
إِنْ عَدُوُّ الْبَيْتِ مَنْ عَادَاكَ إِمْتَنِعْهُمْو إِنْ يُخْرِبُوا فَنَاكَ^(١)

وهذا يكشف بوضوح عن ايمان عبدالمطلب بالله تعالى، وتوكله عليه سبحانه،
وانه كان الرجل الموحد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير كهف الله،
ولا يعرف الآباب الله على عكس ما كانت الوثنية عليه فان قومه كانوا يستغيثون
بالاصنام المنصوبة حول الكعبة.

ومما يدل على ايمانه ايضاً توسله لكشف غمته بالله سبحانه فقد تتابعت على
قريش سنون جذب ذهبت بالأموال، واشرفت الانفس واجتمعت قريش
لعبدالمطلب، وعَلَّوْا جِبْلَ ابِي قَبِيْسٍ وَمَعَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُحَمَّدٌ وَهُوَ
غَلَامٌ فَتَقَدَّمَ عَبْدَ الْمَطْلِبِ وَقَالَ: لَاهِم (اي اللّهم) هَوْلَاءُ عَيْدِكَ وَأَمَاؤُكَ وَبَنُو
أَمَاثِكَ، وَقَدْ نَزَلَ بِنَامَاتِرِي، وَتَتَابَعْتَ عَلَيْنَا هَذِهِ السَّنُونَ فَذَهَبْتَ بِالظَّلْفِ وَالْحَنْفِ
وَالْحَاغِرِ، فَاشْرَفْتَ عَلَى الْانْفُسِ فَأَذْهَبْنَا عِنَا الْجَدْبِ، وَائْتَنَّا بِالْحِيَاءِ وَالْخَصْبِ،
فَابْرَحُوا حَتَّى سَالَتِ الْأُودِيَّةُ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَقُولُ رَقِيقَةً:

بشِيبَةِ الْحَمْدِ اسْقَى اللهُ بِلَدَّتِنَا وَقَدْ عَدَمْنَا الْحَيَا وَأَجْلُوذَ الْمَطَرِ
إِلَى أَنْ تَقُولَ:

مِبَارِكُ الْأُمِّ يَسْتَسْقِي الْغَمَامَ بِهِ مَا فِي الْإِنَامِ لَهُ عَدْلٌ وَلَا خَطَرَ

(١) راجع القصة ومصادرها في ص ١٦١ من هذا الكتاب، ولعبدالمطلب مواقف أخرى مشابهة،
وعديدة. راجع بصدها مفاهيم القرآن: ج ٥ ص ١٣٦-١٤٠.

والى هذه الواقعة يشير ابوطالب في قصيدة أولها:

ابونا شفيح الناس حين سقوابه من الغيث رجاس العشير بكور
ونحن - سنين المحل - قام شفيعنا بمكة يدعو والمياه تغور^(١)

وقد نقل الشهرستاني هذه الواقعة في كتابه «الملل والنحل» قال: ومما يدل على معرفته (أي عبدالمطلب) بحال الرسالة وشرف النبوة ان اهل مكة لما أصابهم ذلك الجذب العظيم، وامسك السحاب عنهم سنتين أمر اباطالب ابنه، ان يُحضر المصطفى محمد صلى الله عليه وآله فاحضره ابوطالب، وهو رضيع في قاط، فوضعه على يديه واستقبل الكعبة، ورماه الى السماء، وقال: يارب بحق هذا الغلام، ورماه ثانياً وثالثاً وكان يقول: بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً، فلم يلبث ساعة أن طبق السماء وجه السماء وأمطر، حتى خافوا على المسجد، وقال ايضاً: وببركة ذلك النور كان عبدالمطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، وبحثهم على مكارم الاخلاق، وبينهاهم عن دنياات الأمور.

وكان يقول في وصاياه: «انه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة»، الى ان هلك رجل ظلوم حتف انفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبدالمطلب في ذلك، ففكر وقال: ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ويعاقب فيها المسيء باساءته^(٢).

ان توسل عبدالمطلب بالله سبحانه وتوليه عن الاصنام والاثان، والتجاءه إلى رب الارباب آية توحيدة الخالص، وايمانه بالله وعرفانه بالرسالة الخاتمة، وقداسة صاحبها، فلو لم يكن له الا هذه الوقائع لكفت في البرهنة على ايمانه بالله، وتوحيدة له.

وقد اعترف المؤرخون لعبدالمطلب بهذا فقد قال اليعقوبي: «ورفض عبدالمطلب عبادة الاوثان والاصنام، ووحد الله عزوجل ووفى بالنذر، وسن سنناً نزل القرآن باكثرها، وجاءت السنة الشريفة من رسول الله صلى الله عليه وآله

(٢) الملل والنحل: ج ٢ ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣١ - ١١٢.

بها، وهي الوفاء بالنذر، ومائة من الابل في الدية، وان لا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، والحدّ عليه، والقرعة، وان لا يطوف احد بالبيت عرياناً، وازافة الضيف وان لا ينفقوا اذا حجوا الا من طيب اموالهم، وتعظيم الاشهر الحُرْم، ونفي ذوات الرايات^(١).

هذا و عن أم أيمن «رضي الله عنها» قالت: كنت أحضن النبي صلى الله عليه وآله (اي اقوم بتربيته وحفظه)، فغفلت عنه يوماً فلم ادر الا بعبدالمطلب قائماً على رأسي يقول «يا بركة».

قلت: لبيك .

قال: أتدرين اين وجدتُ إبني؟

قلت: لا ادري .

قال: وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، لا تغفلي عن ابني، فان أهل الكتاب يزعمون انه نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم^(٢). وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً الا يقول عليّ بابني (اي احضروه) ويجلسه بجنبه، وربما اقعده على فخذه، ويؤثره بأطيب طعامه.

ثم انه لما بلغ أجله اوصى إلى ابني طالب برسول الله وقال له: قد خلفت في ايديكم الشرف العظيم الذي تطؤون، به رقاب الناس وقال له أيضاً:

أوصيك يا عبد منافٍ بعدي بمفرد بعد ابيه فرد

فارقهُ وهو ضجيع المهد فكنت كالأُم له في الوجد

تدنيه من أحشائها والكبد فانت من أرجى بني بعدي

لدفع ضمٍ أو لشدّ عقدٍ^(٣)

هذا هو عبدالمطلب، وتعوده ببيت الله الحرام، ومواقفه بين قومه، وكلماته في

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٩ في بعض ماعده المؤرخ المذكور نظر.

(٢) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ٦٤.

(٣) تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ١٠.

المبدأ والمعاد وعطفه وحنانه على رسول الإسلام، واهتمامه برسالة خاتم النبيين، وهي بمجموعها من أقوى الشواهد على توحيده، وإيمانه بالله، واعترافه برسالة الرسول الكريم.

إيمان كفيله وعمه أبي طالب:

وهكذا كان حال كفيل النبي صلى الله عليه وآله الثاني ابوطالب عليه السلام، فإن له مواقف بارزة وكثيرة قبل البعثة النبوية، وبعدها تكشف عن عمق إيمان شيخ الأباطح، وتوحيده.

ومن تلك المواقف استسقاؤه برسول الله صلى الله عليه وآله في صباه:

فقد اصاب مكة قحط شديد في سنة من السنين فطلبت قريش من «أبي طالب» إن يستقي لها فخرج ومعه غلام - وهو رسول الله صلى الله عليه وآله - كأنه شمس دجن تجلت عنها سحابة قماء وحوله أغيلمة، فأخذه «أبوطالب» فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام باصبعه (أي أشارها إلى السماء) وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، واغدودق وانفجر له الوادي، واخصب البادي والنادي.

ففي ذلك يقول ابوطالب - في مدح رسول الله -:

وابيضُّ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عِصْمَةٌ لِلْأرَامِلِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ
وَمِيزَانٌ عَدْلٌ لَا يَخِيْسُ شَعِيرَةٌ وَوَزَانٌ صِدْقٌ وَزَنُهُ غَيْرُ هَائِلٍ^(١)

وكل هذا يعرب عن توحيد كفيلي رسول الله صلى الله عليه وآله الخالص، وإيمانها بالله تعالى، ولو لم يكن لها إلا هذين الموقفين لكفياهما دليلاً وبرهاناً على كونها مؤمنين موحدتين.

(١) شرح البخاري للقسطلاني: ج ٢ ص ٢٢٧، المواهب اللدنية: ج ١ ص ٤٨، السيرة الخلية: ج ١ ص ١٢٥، وللتوسع راجع الغدير: ج ٧ ص ٣٤٥ و ٣٤٦، وقد ذكرنا مواقف أبي طالب الإيمانية عند البحث عن شخصيته فراجع.

كما ان ذلك يدل ايضاً على أن رسول الله صلى الله عليه وآله نشأ وترعرع ونما في بيتٍ كانت الديانة السائدة فيه هي توحيد الله، وعبادته وحده ورفض الاصنام والوثان.

إيمان والدي النبي الاكرم:

لقد نقلت عن عبدالله والد رسول الله صلى الله عليه وآله كلمات وإبيات تدل على إيمانه ومن ذلك ما نقله اهل السير عندما عرضت فاطمة الخثعمية نفسها عليه فقال رداً عليها:

أما الحرامُ فالمماتُ دونهُ والجِلّ لِجِلِّ فاستبيهُ
يحمي الكريمُ عرضه ودينهُ فكيف بالأمر الذي تبغينه^(١)

وقد روي عن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله انه قال: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات» ولعل فيه ايعازاً إلى طهارة آباءه وامهاته من كل دنس وشرك^(٢).

واما الوالدة فيكفي في اثبات ايمانها مارواه الحفاظ عنها عند وفاتها فانها (رضي الله عنها) خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وهو ابن خمس أوست سنين ونزلت بالمدينة تزور أخوال جده وهم بنو عدي بن النجار ومعها ام ايمن «بركة» الحبشية، فاقامت عندهم، وكان الرسول بعد الهجرة يذكر اموراً حدثت في مقامه ويقول: «ان أُمِّي نزلت في تلك الدار، وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إليّ فنظر إليّ رجلٌ من اليهود فقال: يا غلام ما اسمك؟ فقلت: أحمد، فنظر الى ظهري، وسمعتة يقول: هذا نبي هذه الأمة، ثم راح الى اخوانه فاخبرهم فخافت أُمِّي عليّ فخرجنا من المدينة، فلما كانت بالابواء توفيت ودُفنت فيها».

وروى ابونعيم في دلائل النبوة عن اساء بنت رهم قالت: شهدت آمنة أُم النبي صلى الله عليه وآله في علتها التي ماتت بها، ومحمد عليه السلام غلام يقع

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٤٦. (٢) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ٥٨.

(اي يافع) له خمس سنين عند رأسها فنظرتُ الى وجهه وخاطبته بقولها:
 إن صحَّ ما أبصرتُ في المنام فانت مبعوثُ الى الانام
 فالله انهاك عن الاصنام ان لاتواليها مع الاقوام
 ثم قالت: كل حي ميت وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وانا ميتة
 وذكري باق وولدتُ طهراً.

وقال الزرقاني في شرح المواهب نقلاً عن جلال الدين السيوطي تعليقاً على
 قولها: وهذا القول منها صريح في انها كانت موحّدة اذ ذكرت دين ابراهيم
 عليه السّلام، وبشرت ابنها بالاسلام من عندالله، وهل التوحيد شيء غير هذا،
 فان التوحيد هو الاعتراف بالله وانه لا شريك له، والبراءة من عبادة الاصنام^(١).
 ونلفت نظر القارئ الكريم هنا إلى مقاله المرحوم الشيخ المفيد في كتابه
 «اوائل المقالات» في هذا الصدد:

اتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبدالله بن
 عبدالمطلب مؤمنون بالله عزوجلّ موحّدون له، واحتجوا في ذلك بالقرآن والايخبار
 قال الله عزوجلّ: «الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين»^(٢).
 ثم إن هنا سؤالين هما:

- ١ - هل كان صلى الله عليه وآله قبل البعثة موحّداً؟
- ٢ - بماذا وبأيّ دين كان يتعبّد صلى الله عليه وآله قبل البعثة؟
 واليك الحديث في هاتين الجهتين:

إيمان النبي بلله وتوحيده قبل البعثة:

إنّ الدلائل التاريخية -بالإضافة إلى البراهين العقلية والكلامية- تدل على انه
 -صلى الله عليه وآله- كان قبل ان يبعثه الله بالإسلام، مؤمناً بالله، موحّداً إياه،
 لم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنم أبداً، وان ذلك من المسلمات.

(١) الاتحاف للشبراوي: ص ١٤٤ سيرة زيني دحلان يهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ٥٧.

(٢) اوائل المقالات: ص ١٢ و١٣.

وهذا الامر وان كان أمراً مسلماً وواضحاً كوضوح الشمس إلا اننا نذكر بعض ماجاء في التاريخ الثابت الصحيح ليقترن ذلك الاتفاق بأصح الدلائل التاريخية:

اما بغضه للأصنام وتجنبه للاوثان ومايكون من هذا القبيل فإليك بعض ماذكره التاريخ الصحيح في هذا المجال:

١ - جاء في حديث طويل: ان النبي صلى الله عليه وآله لما تم له ثلاث سنين قال يوماً لوالدته (لمرضعته) حليلة السعدية: مالي لأرى أخويّ بالنهار، قالت له: يا بنيّ انهما يرعيان غنيمات.

قال: فإلي لا أخرج معهما، قالت له: أتحبّ ذلك؟ قال: نعم، فلما أصبح محمد دهنته (تقول حليلة) وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانيّ، فنزعه ثم قال لأمه:

«مهلاً يا أمّاه فإنّ معي من يحفظي»^(١).

٢ - روي ان «بجيرا» الراهب قال للنبي صلى الله عليه وآله في سفرته الاولى مع عمّه أبي طالب الى الشام: يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما اسألك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لا تسألني باللات والعزى فوالله ما ابغضت شيئاً بغضهما» قال الراهب: بالله الا أخبرتني عما أسألك عنه، قال صلى الله عليه وآله: سألني عما بدالك^(٢).

٣ - روي أنه قد وقع بين النبي صلى الله عليه وآله وبين رجل تلاح في سفرته الثانية الى الشام للتجارة بأموال خديجة مع غلامها «ميسرة» بعد أن باع صلى الله عليه وآله سلعته، فقال له الرجل: إحلِف باللات والعزى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(١) المنتقى، الباب الثاني من القسم الثاني - للكارزوني كما في البحار: ج ١٥، ص ٣٩٢.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٥٤، السيرة النبوية: ج ١ ص ١٨٢.

«ما حلفتُ بهما قطُّ، وإني لأمرُّ فأعرضُ عنهما».

وفي رواية أخرى:

«إليك عني ثكلتك أمك فأتكلمت العرب بكلمة أثقل علي من هذه الكلمة».

فقال الرجل: القول قولك. ثم قال لميسرة: هذا والله نبي^(١).

وأما عبادته لله تعالى فقد أجمع المؤرخون على أنه صلى الله عليه وآله كان يخلو

بجاء كل عام شهراً يعبد فيه الله تعالى.

وقد قال الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في هذا المجال:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِجِزْرِاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي»^(٢).

حتى أن جبرئيل وافاه بالرسالة في ذلك المكان، وفي تلك الحال.

وقد صرَّح بهذا أصحابُ الصحاح الستة أيضاً اذ قالوا:

«وَكَانَ يَخْلُو بِجِزْرِاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعْبُدُ فِي اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ»^(٣).

كما ان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وصف هذا المقطع من حياة النبي

صلى الله عليه وآله بقوله:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ

مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ»^(٤).

وجاء في الأخبار ان رسول الله صلى الله عليه وآله حج قبل البعثة حجاً

عديدة وكان يأتي بمناسكها على وجه صحيح بعيداً عن عين قريش.

قال الإمام الصادق عليه السلام: في حديث ابن ابي يعفور:

«حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَشْرَ حَجَّاتٍ مُسْتَتِراً فِي كُلِّهَا»^(٥).

وفي رواية: عشرين حجة^(٦).

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٥٦، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٨.

(٢) نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة ١٩٢.

(٣) صحيح البخاري: ج ١ ص ٢، صحيح مسلم باب الايمان: مسند أحمد: ج ٦، الحديث ٢٣٣.

(٤) نهج البلاغة: قسم الخطب الخطبة رقم ١٩٢.

(٥) و (٦) وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٨٨ أبواب وجوب الحج.

والسبب في هذا الاستتار هو أن قريش كانت قد اسقطت بعض مناسك الحج، والعمرة، فكانت تؤذي الحج بصورة غير صحيحة وربما غيرت أشهر الحج أحياناً لبعض الاعتبارات السياسية والمادية، وهو ماسمي بالنسيء، وقد مرّ بيانه^(١).

ان هذه الوقائع وغيرها - وهي ليست بقليلة اصدق دليل على إيمانه صلى الله عليه وآله، وتوحيده، اذ كيف يمكن أن يتنكّب مثل هذه الشخصية التي نشأت وترعرعت في ذلك البيت الطاهر، وقرن الله به ملكاً يتولاه بالتربية والهداية عن جادة التوحيد.

ثم إن ممّا لا ريب فيه أن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله هو أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين بنص القرآن الكريم. وقد صرح القرآن بان بعض الانبياء بلغوا درجة النبوة في الصغر، أو الصبا، ونزلت عليهم الكتب في تلك الفترات.

فمثلاً يقول القرآن الكريم عن يحيى بن زكريا: «يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحُكْمَ صَبِيًّا»^(٢).

ثم يقول عن «عيسى بن مريم» عند ما كان في المهد وكان وجوه القوم من بني اسرائيل قد استنكروا ولادته من غير أب، وطلبوا من «مريم البتول» ان توضح لهم الامر، وتبين لهم كيف حملت بعيسى؟! فأشارت الى المسيح عليه السلام أن كلموه وهو آنذاك في المهد لم يمض على ولادته سوى أيام معدودات؛ فنطق المسيح بفصاحة كبيرة وقال:

«إني عبدُ الله آتاني الكتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا»^(٣).

لقد بيّن وليد «مريم» للناس أصرل دينه وفُروع: في فترة الطفولة والرضاعة، وأعلن لهم عن توحيده وإيمانه بالله سبحانه.

(١) راجع الصفحة ٨٣ و٨٤ من هذا الكتاب. (٢) مريم: ١٢. (٣) مريم: ٣٠ و ٣١.

فهل يرضى ضميرك أيها القارئ الكريم أن يكون «يحيى» و «المسيح» عليهما السّلام مؤمنين معلنين عن توحيدهما، وإيمانها منذ طفولتهما، وصباهما، ويكون أفضل الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين إلى سِنِّ الأربعين على غير إيمان، وتوحيد، مع أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ مُشْتَغَلًا بِالتَّعْبَدِ فِي جَبَلِ «حِراء» عند نزول ملاك الوحي عليه لأول مرة؟

واليك بعض ما قاله المؤرخون، والعلماء في هذا المجال استكمالاً لهذا المبحث: قال ابن هشام: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوفُ به سبعاً أو ماشاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى «حِراء» كما كان يخرج لجواره ومعه اهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرم الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبرئيل عليه السّلام بأمر الله تعالى^(١).

وقال العلامة المجلسي: قد ورد أخبار كثيرة أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يَطُوفُ، وأنه كان يعبد الله في حِراء، وأنه كان يراعي الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الأكل وغيره، وكيف يجوز ذومسكة من العقل على الله تعالى أن يهمل أفضل أنبيائه أربعين سنة بغير عبادة؟ والمكابرة في ذلك سفسطة^(٢).

فإيمان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتوحيده قبل البعثة، اذن، أمرٌ مسلمٌ لا شبهة فيه، ولا غبار عليه.

ولكن بعض الكتاب من المسيحيين ومن تبعهم، من المستشرقين وغيرهم، أبوا إلا أن ينتقصوا النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَادَّعَوْا ضَلَالَهُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ،

(٢) بحار الأنوار: ج ١٨، ص: ٢٨.

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٣٦.

وإنه كان على غير إيمان، أو توحيد، واستدلوا لزعمهم الباطل هذا بما توهموا أنه يدل على دعواهم من الآيات القرآنية، وأبرزها الآيات التالية:

- ١ - «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى»^(١).
 - ٢ - «وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرَ»^(٢).
 - ٣ - «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٣).
 - ٤ - «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»^(٤).
 - ٥ - «وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ»^(٥).
- لقد استدل المستشرقون ومن لفق لفهمهم ومن سبقهم أو لحقهم من المخطئة بهذه الآيات على ضلال النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة، وسلب الإيمان عنه، ولكنها لا تدل على ما يريدون، ولاجل تسليط الضوء على مقاصدهم نبحت عنها واحدة واحدة.

الآية الأولى: الهداية بعد الضلالة

ذكر المفسرون لقوله تعالى: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» الذي يشعر بهداية النبي صلى الله عليه وآله بعد الضلالة احتمالات عديدة، في معرض الاجابة على استدلال من استدل به لاثبات ضلال النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة ولكن الحق ان يقال: إن الضال يُستعمل في عرف اللغة في موارد:

- ١ - الضال: من الضلالة ضد الهداية والرشاد.
- ٢ - الضال: من ضلّ البعير اذا لم يعرف مكانه.

(٣) الشورى: ٥٢.

(٢) المدثر: ٤ و ٥.

(١) الضحى: ٦ و ٧.

(٥) القصص: ٨٦.

(٤) يونس: ١٦.

٣ - الضالّ: من ضلّ الشيء اذا ضؤل وخفي ذكره.

وتفسير الآية بأيّ واحدة من هذه المعاني لا يثبت ما يدعيه الذين يتمسكون بها لاثبات ضلال النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة.

أما المعنى الأول فهو المقصود في كثير من الآيات قال سبحانه: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»^(١).

لكن الضلالة على نوعين:

النوع الأول ماتكون الضلالة فيه أمراً وجودياً في النفس يوجب ظلمة النفس ومنقصتها، مثل الكفر والشرك والنفاق، والضلالة بهذا المعنى قابلة للزيادة والنقصان قال سبحانه: «إِنَّمَا التَّيْسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ»^(٢).

النوع الثاني ماتكون الضلالة فيه أمراً عديمياً، وذلك عندما تكون النفس فاقدة للرشاد، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنه غير واجد للهداية من عند نفسه، وذلك كالطفل الذي أشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخير والشر، ويميز بين الصلاح والفساد فهو آنذاك ضالٌّ بمعنى أنه غير واجد للنور الذي يهتدي به في سبل الحياة لا بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسق في نفسه وروحه.

والمراد من الضالّ في قوله تعالى «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» لو كان ما يصادد الهداية فهو يهدف الى النوع الثاني، فيكون المعنى انك في ابان عمرك كنت غير واجد للهداية من عند نفسك فهذا الله إلى اسباب السعادة وعرفك عوامل الشقاء، وهو اشارة إلى قانون الهي عام في حياة البشر انبياء واناساً ماديين، وهو ان هداية كل إنسان بل كل ممكن مكتسبة من الله قال سبحانه: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»^(٣).

وعلى هذا الاساس فالآية تهدف إلى ذكر النعم التي انعم الله بها على نبيه الحبيب منذ أن استعد لها فأواه بعد ما صار يتيماً، وأفاض عليه الهداية بعد ما كان

(٢) التوبة: ٣٧.

(١) الفاتحة: ٧.

(٣) طه: ٥٠، وراجع الآيات: ٢ و ٣ من سورة الأعلى و ٤٣ من سورة الأعراف و ٧٨ من سورة

الشعراء وغيرها.

فاقداً لها بحسب ذاته، وبحكم طبيعته، ويعود زمن هذه العناية الربانية بنبيه إلى مطلع حياته، وأوليات عمره وإيام صباه بقرينة ذكر ذلك بعد الإيواء الذي تحقق باليتم، وتمّ بجده عبدالمطلب فوقع في كفالته إلى ثمانية سنين، ويؤيد ذلك قولُ امام المتقين علي بن ابي طالب عليه السّلام: «ولقد قرّن الله به صلّى الله عليه وآله من لدنّ أن كان فطيماً أعظمَ ملكٍ من ملائكته يسلكُ به طريقَ المكارم، ومحاسنَ أخلاق العالم ليله ونهاره»^(١).

وصفوة القول أن المراد بكونه ضالاً هو أن لازم كون النبي ممكناً بالذات هو كونه فاقداً في ذاته لكل كمال وجمال، مفاضاً عليه كل جميل من جانب الله تعالى وهذا هو إشارة إلى مقتضى التوحيد الافعالي واين هذا من الضلالة المساوقة للكفر أو الشرك أو الفسق والعصيان؟!

ثم ان من المحتمل ان تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضلّ الشيء اذا لم يُعرف مكانه» وفي الحديث «الحكمة ضالة المؤمن» اي مفقوده، لاضدّ الهداية والرشاد، فيكون الضالّ بهذا المعنى منطبقاً على ما نقله أهل السير والتواريخ عن ماجرى للنبي صلّى الله عليه وآله في ايام صباه يوم ضلّ في شعاب مكة، وهو صغير فنّ الله عليه اذ رده الى جدّه، وقصته معروفة في كتب السير والتاريخ^(٢) ولو لارحمة الله سبحانه لادركه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً فشملته العناية الالهية. أو أن تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضلّ الشيء اذا خفي وغاب عن الأعين» فالانسان الضال هو الإنسان المخفي ذكره، المنسيّ اسبهُ لايعرفه إلا القليل من الناس، ولايهتدي كثير منهم إليه. ولو كان هذا هو المقصود، كان معناه حينئذٍ انه سبحانه رفع ذكره، وعرفه

(١) نهج البلاغة: من الخطبة ١٧٨ و السّماة بالقاصعة ص ١٨٢.

(٢) لاحظ السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٣١ وغيره، وفي هذه القصة يروي عن حيدة بن معاوية العامري

سمعت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول:

ياربّ ردّ راكبي محمّداً
أردده رتي واصطنع عندي يداً

للناس بعدما كان خاملاً ذكره منسياً اسمه.

ويؤيد هذا الاحتمال قوله سبحانه في سورة الانشراح التي نزلت لتحليل ماورد في سورة الضحى قائلاً:

«أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»^(١).

فرفع ذكره في العالم عبارة عن هداية الناس اليه، ورفع الحواجز بينه، وبينهم. وعلى هذا فالمقصود من «الهداية» هو هداية الناس اليه لاهدائه بعد ضلال، فكأنه قال: فوجدك ضالاً، أي خاملاً ذكرك، باهتاً اسمك، فهدى الناس اليك، وسير ذكرك في البلاد.

والى ذلك يشير الإمام الرضا عليه السلام على ما في خبر ابن الجهم بقوله: «قال الله عزوجل لنبيه محمد صلى الله عليه وآله: «ألم يجدك يتيماً فأوى» يقول: «ألم يجدك» وحيداً فأوى إليك الناس «ووجدك ضالاً» يعني عند قومك «فهدى» أي هداهم إلى معرفتك»^(٢). قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في هذا المجال:

لقد بُغِضْتُ إليه (أي الى رسول الله صلى الله عليه وآله) الوثنية من مبدأ عمره فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسنُ الخليفة، وما جاء في الكتاب من قوله: «ووجدك ضالاً فهدى» لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم حاش لله، إن ذلك هو الإفك المبين^(٣).

الآية الثانية: الامر بهجر الرجز

استدلوا بقول الله تعالى «والرُّجْزَ فَاهْجُرْ» على وجود ارضية لعبادة الصنم

(١) الإنشراح: ١-٤. (٢) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ١٤٢.

(٣) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده: ص ١٣٥ و ١٣٦.

والوثن في شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك بتفسير الرجز بالصنم، والوثن، ويتضح بطلان هذا الادعاء والاستنباط اذا أمعنا في معاني واستعمالات هذه اللفظة في الكتاب العزيز.

ان الرجز استعمل في القرآن الكريم في معان ثلاثة: العذاب، القذارة، الصنم.

وقد استعمل الرجز (بكسر الراء) في تسع موارد في القرآن الكريم، وقد أريد منه في جميعها العذاب إلا في مورد واحد: وهي: البقرة - ٥٩، والاعراف ١٣٤ (وجاءت اللفظة فيها مرتين) و ١٣٥ و ١٦٢ والانفال - ١١ وسبأ - ٥ والجمانية - ١١ والعنكبوت - ٣٤.

وجاء الرجز - بضم الراء - مرة واحدة وهي الآية التي نحن بصدددها هنا^(١). وهذه الآية لا تدل على ما ذهب إليه الذين يزعمون بان رسول الله صلى الله عليه وآله كان على غير التوحيد قبل البعثة.

و اليك بيان هذا الموضوع مفصلاً:

١ - ان الرُّجْز لو كان بمعنى «العذاب» دلّت الآية على هجر ما يستلزم العذاب، فيكون الخطابُ حينئذٍ مسوقاً من باب التعليم، ومن باب «اياك أعني واسمعي يا جاره»، فيكون ظاهر الأمر هو مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله ونبيه عما يستلزم العذاب، واردة تعليم الأمة مثل قول الله تعالى في خطابه للنبي «فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين»^(٢). وقوله تعالى: «لئن أشركت ليحبطنّ عملك»^(٣) فكما لا تدلّ الآية على وجود أرضية الشرك في شخصية النبي صلى الله عليه وآله، كذلك لا تدلّ الآية على وجود أرضية التعرض للعذاب في شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ - إن الرُّجْز لو كان بمعنى (القذارة) وهي تنقسم الى مادية ومعنوية فيحتمل ان يكون المراد بناء على المعنى الأول اشارة إلى ماورد في الروايات من

(٣) الزمر: ٦٥.

(٢) القصص: ٨٦.

(١) المدثر: ٥.

أنّ ابا جهل جاء بشيءٍ قدر، وأمر رجلاً من قريش بالقائه على النبيّ، ففعل، فأمر الله نبيه بتطهير ثوبه من الدنس.

ويحتمل ان تكون الآية دعوة إلى اجتناب الصفات الذميمة بناء على ارادة المعنى الثاني للفظه الرُّجَز فتكون الآية تعليماً للناس على النمط السابق، فلا تدل على اتصاف النبي الاكرم صلى الله عليه وآله بها.

٣ - الرُّجَز بمعنى الصنم، لنفترض أن المقصود منه في الآية هو الصنم، لكن لا بمعنى أنه وضعَ لذلك المعنى، وإنما وضعَ اللفظُ لمعنى جامعٍ يعمُّ الصنم والخمر والازلام لاشتراك الجميع في كونها رجزاً، ولأجل ذلك وصيف الجميع في مورد آخر بالرجس فقال تعالى: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ»^(١).

ولكن يجاب عن هذا أيضاً بأن النبيّ يوم نزلت الآية لم يكن عابداً للوثن بل كان مشمراً عن ساعد الجدّ لتحطيم الاصنام ومكافحة عبديتها، فلا يصح أن يخاطب من هذا شأنه بهجر الاصنام إلا على السبيل الذي أشرنا اليه، وهو توجيه الخطاب إلى النبيّ وإرادة الأمة به لكون هذا النوع من الخطاب أبلغ في التأثير، لأنه سبحانه اذا خاطب أعزّ الناس اليه بهذا الخطاب فغيره أولى به.

الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والايان

قوله سبحانه: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَ لَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٢).

زعم جماعة دلالة هذه الآية - والعياذ بالله - على أن النبي صلى الله عليه وآله كان فاقداً للإيمان قبل الايماء اليه.

لكن حياته الشريفة المشرقة بالإيمان، والتوحيد، تفند تلك المقالة، فالتاريخ

يشهد على انه صلى الله عليه وآله كان منذ بداية عمره إلى أن لاقى ربه مؤمناً موحداً وذلك امرٌ لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه، وقد اجمع على ذلك أهل السير والتاريخ، وحتى أن الاحبار والرهبان كانوا معترفين بانه نبي هذا الأمة، وخاتم النبيين، وكان يسمع تلك الشهادات منهم في فترات خاصة في «مكة» و«يثرب» و«بصرى» و«الشام»^(١) وغيرها، فكيف والحال هذه يمكن ان يكون غافلاً عن الكتاب الذي ينزل اليه، أو يكون مجاناً للإيمان بوجوده سبحانه، وتوحيده، والتاريخ المسلم الصحيح يؤكد على عدم صدق ذلك الاستظهار من الآية الحاضرة.

فلا بد إذن من الإمعان في مفاد الآية كما لا بد - في تفسيرها - من الاستعانة بالآيات الواردة في ذلك المساق.

بعث النبي الاكرم صلى الله عليه وآله هداية قومه أولاً، وهداية جميع الناس ثانياً، بالآيات والبيّنات، ونخصّ بالذكر منها: القرآن الكريم (معجزته الكبرى الخالدة) الذي بفصاحته أحرس فرسان الفصاحة، وقادة الخطابة، وبيلاغته قهر ارباب البلاغة وملوك البيان، وخب عقولهم، وقد دعاهم الى التحدي والمقابلة، فلم يكن الجواب منهم إلا اثاره الشكوك والتهم حوله، وحول ماجاء به، وعدم المعارضة بمثل القرآن قط.

فتارة قالوا: بانه يعلمه بشر، وأخرى بأنه إفك افتراه، واعانه عليه قوم آخرون وثالثة: بأنه أساطير الاولين، قد اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، قال سبحانه رداً على هذه التهم التي أشرنا إليها: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ. وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»^(٢).

وقال سبحانه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ

(٢) النحل: ١٠٢ و ١٠٣.

(١) راجع السيرة النبوية والسيرة الحلبية وبحار الأنوار.

قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا»^(١).

والآية المبحوثة بصدد بيان هذا الأمر، وانه وحي سماوي لا افك افتراه، ولهذا بدأ كلامه بلفظة: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أي كما أنه سبحانه أوحى إلى سائر الانبياء باحدى الطرق الثلاثة التي بينها في الآية المتقدمة، أوحى إليك أيضاً روحاً من امره، وليس هذا كلامك وصنيعك، بل كلام ربك وصنيعه. هذا مجمل الكلام في الآية ولاجل رفع النقاب عن مرماها نقدم اموراً تسلط الضوء على الآية:

الأول: ان المراد من الروح في الآية هو القرآن وسمي روحاً لانه قوام الحياة الأخروية، كما ان الروح في الإنسان قوام الحياة الدنيوية، ويؤيد ذلك امور:

أ - ان محور البحث الأصلي في سورة الشورى هو: الوحي والآيات الواردة فيها البالغ عددها (٥٣) آية تبحث عن ذلك المعنى بالمباشرة او بغيرها.

ب - الآية التي تقدمت على تلك، تبحث عن الطرق التي يكلم بها سبحانه انبياءه ويقول: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(٢).

ج - انه سبحانه بدأ كلامه في هذه الآية بلفظة: «وكذلك» اي كما أوحينا إلى من تقدم من الانبياء كذلك أوحينا إليك باحدى تلك الطرق «روحاً من أمرنا» ووجه الاشتراك بينه وبين النبيين هو الوحي المتجلي في نبينا بالقرآن وفي غيره بوجه آخر.

كل ذلك يؤيد ان المراد من الروح في الآية المبحوثة هو القرآن الملقى اليه. نعم وردت في بعض الروايات ان المراد منه هو روح القدس، ولكنه لا ينطبق على ظاهر الآية، لان الروح بحكم كونه مفعولاً لـ: «أوحينا» يجب ان

يكون شيئاً قابلاً للوحي حتى يكون موحى، وروح القدس ليس موحى بل هو الموحى (بالكسر) فكيف يمكن أن يكون مفعولاً لـ: «أوحينا»، ولأجله يجب تأويل الروايات إن صحّت اسنادها.

الثاني: إن هيئة «ما كنت» أو «ما كان» تُستعمل في نفي الإمكان والشأن قال سبحانه: «وما كانَ لَنفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(١) وقال عزّاسمه: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً»^(٢).

و على ضوء هذا الاصل يكون مفاد قوله «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان» أنه لولا الوحي ما كان من شأنك أن تدري الكتاب ولا الايمان، فان وقفت عليها فانما هو بفضل الوحي وكرامته.

الثالث: أن ظاهر الآية هو أن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله كان فاقداً للعلم بالكتاب، والدراية بالكتاب، وانما حصلت الدراية بهما في ظل الوحي وفضله فيجب إمعان النظر في الدراية التي كان النبي فاقداً لها قبل الوحي وصار واجداً لها بعده، فما تلك الدراية وذاك العلم؟

فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب اليه اجمالاً والايان بوجوده وتوحيده سبحانه، او المراد العلم بتفاصيل ما في الكتاب، والاذعان بها كذلك؟

لاشك انه لا سبيل الى الأول لأنّ علمه - اجمالاً - بانه ينزل إليه الكتاب، أو ايمانه بوجود الله سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحي اليه، ولم يكن العلم بهما ممّا يتوقف على الوحي، فان الأخبار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب اليه في المستقبل إجمالاً، وقد سمع منهم النبي صلى الله عليه وآله في فترات مختلفة: أنه النبي الموعود في الكتب السماوية، وانه خاتم الرسالات والشرائع، فهل يصح أن يقال إن علمه صلى الله عليه وآله بنزول كتاب عليه إجمالاً كان بعد بعثته وبعد نزول الوحي، أو انه كان متقدماً عليه و على بعثته، ومثله الإيمان بالله سبحانه، وتوحيده، اذ لم يكن الإيمان بالله امرأ

(٢) التوبة: ١٢٢.

(١) آل عمران: ١٤٥.

مشكلاً متوقفاً على الوحي، وقد كان الاحناف في الجزيرة العربية ومن جملتهم رجال البيت الهاشمي موحدين مؤمنين مع عدم نزول الوحي اليهم. فيتعين الاحتمال الثاني وهو أن العلم التفصيلي بمضامين الكتاب وما فيه من الاصول والتعاليم ثم الايمان والاذعان بتلك التفاصيل كانا متوقفين على نزول الوحي، ولولاه لما كان هناك علمٌ بها، ولا ايمان. وبعبارة أخرى: إن العلم والايمان بالامور السمعية التي لا سبيل للعقل إليها -مثل المعارف والاحكام والقصص ومجادلات الانبياء مع المشركين والكفار، وما نزل بساحة أعدائهم من إهلاك وتدمير- لا يحصلان إلا من طريق الوحي حتى قصص الامم السالفة وحكاياتهم لتطرق الوضع والدس الى كتب القصصين، والصحف السماوية النازلة قبل القرآن.

تفسير الآية بآية أخرى:

إن الرجوع إلى ماورد في هذا المضمار من الآيات يوضح المراد من عدم درايته بالكتاب أولاً، والايمان ثانياً. أما الأول: فيقول سبحانه: «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»^(١) فالآية صريحة في أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن عالماً بتفاصيل الأنبياء، وقد وقف عليها من جانب الوحي، فعبر عن عدم وقوفه عليها في هذه الآية بقوله: «مَا كُنْتُ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ» وفي تلك الآية بقوله: «مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ» والفرق هو ان «الكتاب» أعم من «أنبياء النبي» والأول يشتمل على الانبياء وغيرها، وأما «الانبياء» فانها مختصة بالقصص، والكل مشتركان في عدم العلم بها قبل الوحي والعلم بهما بعده.

واما الثاني فقولهُ سبحانه: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانْفِرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»^(١) فقولهُ: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ» صريحٌ في أنّ متعلّق الإيمانِ الحاصل بعد الوحي، هو الإيمان «بما أُنزِلَ إِلَيْهِ» أعني تفاصيل الكتاب في المجالات المختلفة، لا الإيمان بالله وتوحيده وعندئذ يرتفع الابهام في الآية التي تمسكت بها المخطئة ومن ينسبون عدم الإيمان بالله وتوحيده إلى النبي قبل البعثة، ويتبيّن أن متعلّق الإيمان المنفي في قوله: «ولا الإيمان» هو «ما أنزل». لا الايمان بالمبدأ وتوحيده.

والحاصل إن هُنا شيئاً واحداً هو: «الايمان بما أنزل من المعارف والاحكام والانبياء» فقد نفي عنه في الآية المبحوث عنها لكونها ناظرةً الى فترة ما قبل البعثة، واثبت له في الآية الأخرى لكونها ناظرةً إلى ما بعد البعثة. قال الطبرسي: «ما كنت تدري ما الكتاب» ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الايمان^(٢).

وقال الفخر الرازي: المراد من الايمان هو الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وانه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفاً بالله... ثم قال: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا يمكن معرفته الا بالدلائل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة^(٣).

وقال العلامة الطباطبائي في الميزان: ان الآية مسوقة لبيان ان ما عنده صلى الله عليه وآله الذي يدعو إليه انما هو من عند الله سبحانه لا من قبيل نفسه، وإنما أُوتي ما أُوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة، فالمراد بعدم درايته بالكتاب هو عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية، فان ذلك هو الذي أُوتي العلمُ به بعد النبوة والوحي، والمراد من عدم درايته الإيمان عدم تلبسه

(١) البقرة: ٢٨٥. (٢) مجمع البيان: ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩. (٣) مفاتيح الغيب: ج ٧ ص ٤١٠.

بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقّة والأعمال الصالحة، وقد سمي العمل ايماناً في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ»^(١) والمراد الصلوات التي اتى بها المؤمنون إلى بيت المقدس قبل النسخ وتحويل القبلة، والمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح علم الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً به بما انت متلبس به بعد الوحي من الالتزام التفصيلي والاعتقادي وهذا لا ينافي كونه مؤمناً بالله، موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله، فان الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً، لانني العلم والالتزام الاجماليين بالايان بالله، والخضوع للحق^(٢).

الآية الرابعة: عدم رجائه إلقاء الكتاب اليه

قال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ»^(٣).

استدلوا بأن ظاهر الآية نفى علمه بإلقاء الكتاب إليه، فلم يكن النبي راجياً لذلك واقفاً عليه.

أقول: ان توضيح مفاد هذه الآية يتوقف على إمعان النظر في الجملة الاستثنائية اعني قوله: «إلا رحمة من ربك» حتى يتضح المقصود، وقد ذكر المفسرون في توضيحها وجوهاً ثلاثة تأتي بها:

١ - إن «إلا» استدراكية، وليست استثنائية فهي بمعنى «لكن» لاستدراك ما بقي من المقصود، وحاصل معنى الآية: «ما كنت يا محمد ترجو فيما مضى أن يوحى الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك، إلا أن ربك رحمك، وانعم به عليك واراد بك الخير» نظير قوله سبحانه: «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا و لكن رحمة من ربك»^(٤) اي ولكن رحمة من ربك خصصك به وهذا هو المنقول

(٢) الميزان: ج ١٨ ص ٨٠.

(١) البقرة: ١٤٣.

(٤) القصص: ٤٦.

(٣) القصص: ٨٦.

عن الفراء^(١).

و على هذا لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله اي رجاء لالقاء الكتاب إليه، وانما فاجأه الالقاء لأجل رحمة ربه.

ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلا اذا امتنع كون الاستثناء متصلاً لكون الانقطاع على خلاف الظاهر.

٢ - ان يكون «إلا» للاستثناء لا للاستدراك وهو متصل لامنقطع، ولكن المستثنى منه جملة محذوفة معلومة من سياق الكلام، وهو كما في الكشف: «وما التى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك»^(٢) اي لم يكن لالقاؤه عليك وجه إلا رحمة ربك، وعلى هذا الوجه أيضاً لا يُعلم انه كان للنبي صلى الله عليه وآله رجاء لالقاء الكتاب عليه وان كان الاستثناء متصلاً.

وهذا الوجه بعيد أيضاً لكون المستثنى منه، محذوفاً مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر وانما يصار إليه اذا لم يصح ارجاعه إلى نفس الجملة الواردة في نفس الآية كما سيبيّن في الوجه الثالث.

٣ - أن يكون «إلا» استثناء من الجملة السابقة عليه اعني قوله: «وما كنت ترجو» ويكون معناه: ما كنت ترجو القاء الكتاب عليك إلا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك، فتكون النتيجة: ما كنت ترجو إلا على هذا^(٣).

فيكون هنا رجاء منفيماً، ورجاء مثبتاً، أما الأول فهو رجاءه بحادثة نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية، فلم يكن ذاك الرجاء موجوداً. واما رجاءه به عن طريق الرحمة الالهية فكان موجوداً فنفي أحد الرجائين لا يستلزم نفي الآخر، بل المنفي هو الأول، والثابت هو الثاني وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية.

وقد سبق منا أن جملة «ما كنت» وما اشبهه تستعمل في نفي الامكان،

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٦٩، مفاتيح الغيب: ج ٦ ص ٤٠٨.

(٢) الكشف: ج ٢ ص ٤٨٧ و ٤٨٨. (٣) مفاتيح الغيب: ج ٦ ص ٤٩٨.

والشأن، وعلى ذلك يكون معنى الجملة: لم تكن راجياً لأن يلقى اليك الكتاب، وتكون طرفاً للوحي، والخطاب الآ من جهة خاصة، وهي أن تقع في مظلة رحمته وموضع عنايته، فيختارك طرفاً لوحيه، ومخاطباً لكلامه، فالنبي بما هو انسان عادي لم يكن راجياً لأن ينزل اليه الوحي، ويلقى اليه الكتاب، وبما انه صار مشمولاً لرحمته وعنايته، وصار انساناً مثالياً، قابلاً لتحمل المسؤولية، وتربية الأمة، كان راجياً به، وعلى ذلك فالنبي والاثبات غير واردين على موضع واحد. وهذا خرجنا بفضل هذا البحث الضافي أنه صلى الله عليه وآله كان انساناً مؤمناً موحداً عابداً لله ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية مجتنباً عن المحرمات عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً وراجياً لنزوله إليه إلى أن بعث لانقاذ البشرية عن الجهل، وسوقها إلى الكمال.

الآية الخامسة: لو لم يشأ ما تلوته

قال سبحانه: «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»^(١)، والآية تؤكد أن النبي صلى الله عليه وآله كان لابثاً في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آية من آياته وليس هذا شيء ينكره القائلون بالعصمة، فقد اتفقت كلمتهم على أن النبي صلى الله عليه وآله وقف على ما وقف عليه من آي الذكر الحكيم من جانب الوحي، ولم يكن قبله عالماً به وابن هذا من قول المخطئة من نفي الايمان منه قبلها.

وان اردت الاسهاب في تفسيرنا فلاحظ الآية المتقدمة، فترى فيها اقتراحين للمشركين وقد اجاب القرآن عن أحدهما في الآية المتقدمة وعن الآخر في نفس هذه الآية واليك نصها: «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّْي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»^(٢).

(٢) يونس: ١٥.

(١) يونس: ١٦.

اقترح المشركون على النبي أحد الأمرين:

- ١ - الإتيان بقرآن غير هذا مع التحفظ على فصاحته وبلاغته.
 - ٢ - تبديل بعض آياته مما فيه سبٌ لآلهتهم وتنديدٌ بعبادتهم للاوثان والاصنام.
- فأجاب عن الثاني في نفس الآية بان التبديل عصيان لله، وانه يخاف من مخالفة ربه، ولا يحصى له إلا إتباع الوحي من دون أن يزيد فيه او ينقص عنه.
- و اجاب عن الأول في الآية المبحوث عنها بان ذلك أمر غير ممكن لأن القرآن ليس من صنعى وكلامى حتى أذهب به وآتى بآخر، بل هو كلام الله سبحانه وقد تعلقت مشيئته بتلاوتي، ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا ادراككم به، والدليل على ذلك أنى كنت لابثاً فيكم عُمرأ من قبل فما تكلمت بسورة أو بآية من آياته، ولو كان القرآن كلامى لبادرت إلى التكلم به، أيام معاشرتي السابقة معكم في المدة الطويلة، المديدة.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية: إن الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيئتي، فانما أنا رسول ولو شاء الله ان ينزل قرآناً غير هذا لأنزل، أو لم يشأ تلاوة هذا القرآن ماتلوته عليكم، ولا أدراكم به فاني مكثت عُمرأ من قبل نزوله، ولو كان ذلك اليّ وبيدي لبادرتُ اليه قبل ذلك وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه^(١).

فكيف يمكنُ والحال هذه أن يكون بجانب الإيمان بالله وتوحيده، لاهياً عن عبادته وتقديسه.

هذا وفي هذا المجال حديث واسع اكتفينا منه بهذا القدر، ومن أراد التوسع أن يراجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن ص ١٢٥ - ١٩١.

و أما الكلام في الجهة الثانية وهي: أنه بماذا وبأى دين كان يتعبدُ رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة، فقد وقع ذلك محطاً للبحث بين العلماء، وحيث انه لا ينطوي على فائدة كبرى، بعد أن تبين أنه كان قبل البعثة

(١) الميزان: ج ١٠ ص ٢٦، ولاحظ المنار: ج ١١ ص ٣٢٠.

مؤمناً، موحداً، يعبد الله، فإنه يكفي أن نعرف أنه كان صلى الله عليه وآله يلتزم بمأثبات له أنه شرع الله تعالى... وبما يؤدي إليه عقله الفطري السليم، وأنه بالتالي كان مؤيداً مستدداً، وأنه كان أفضل الخلق واكملهم خلقاً، وخلقاً، وعقلاً، وأنه كان يعمل حسب ما يُلهم سواء اكان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً وأن هاديه وقائده منذ صباه إلى ان بعث هو نفس هاديه بعد البعثة^(۱).

(۱) وللتوسع والوقوف على الآراء المختلفة في هذا المجال راجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن:

بدء الوحي

إنَّ التاريخَ الإسلاميَّ يبدأ في الحقيقة من يوم بعثة الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله بالرسالة، والتي وقعت على أثره حوادث خاصة. و يوم بُعثِ النبيِّ الأكرم صَلَّى اللهُ عليه وآله لهداية الناس، ودَوَى في سمعه الشريف نداء «إِنَّكَ لِرَسُولِ اللهِ» الصادر عن ملاك الوحي أَلْقَيْتَ على كاهله مسؤولية كبرى وثقيلة جداً، على نمط الوظيفة الهامة التي أَلْقَيْتَ على كاهل من سبقه من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين. منذ ذلك اليوم اتضح هدف أمين قریش، أكثر فأكثر، وتجلت خطته أكثر فأكثر.

و نحن نرى من اللازم قبل شرح الحوادث الأولى الواقعة عند البعثة ان نعطي بعض الايضاحات حول مسألتين:

١ - وجوبُ بعثِ الأنبياء.

٢ - دورُ الأنبياء في اصلاح المجتمع.

لقد أودعَ اللهُ تعالى في كيان كُلِّ كائن من الكائنات أدوات تكامله، وجهزه - لسلوك هذا الطريق - بالوسائل المتنوعة، والأجهزة المختلفة اللازمة.

ولنأخذ مثلاً: نبتة صغيرة، فان ثمة عوامل كثيرة تتفاعل في ما بينها وتعمل

لتحقيق التكامل فيها.

ان جذور كل نبتة تعمل اكبر قدر ممكن لامتصاص العناصر الغذائية، وتلبية احتياجات النبتة، وتوصل العروق والقنوات المختلفة، عصارة ماتأخذه من الارض إلى جميع الاغصان والاوراق.

إننا لو درسنا جهاز (وردة) لرأيناها اكثر مدعاة للاعجاب وأشد اثاره للتعجب من تركيب بقية النباتات.

فللكأس وظيفة توفير الغطاء اللازم للاوراق الناعمة اللطيفة في الوردة. وهكذا الحال بالنسبة الى بقية الأجهزة في (الوردة) مما أنيط إليها مسؤولية الحفاظ على كائن حي، وضمان رشده ونموه، فإنها جميعاً تقوم بوظائفها المخلوقة لها بأحسن شكل، وأفضل صورة.

ولو أننا خطونا خطوات اكثر وتقدمنا بعض الشيء لدراسة الأجهزة العجيبة في عالم الأحياء، لرأينا أنها جميعاً وبدون استثناء مُزودة بما يضمن بلوغها الى مرحلة الكمال المطلوب لها.

وإذا أردنا أن نصب هذا الموضوع في قالب علمي لوجب أن نقول: ان الهداية التكوينية، التي هي النعمة المتجلية في عالم الطبيعة، تشمل كل موجودات هذا العالم من نبات، وحيوان وانسان.

ويبين القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية الشاملة بقوله:

«رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»^(١).

فانه يصرح بأن كل شيء في هذا الكون من الذرة إلى المجرة ينعم بهذا الفيض العام، وان الله تعالى بعد أن قَدَّرَ كل موجود وكائن، بين له طريق تكامله، ورُقيته، وهياً لكل كائن من تلك الكائنات ما يحتاج إليه في تربيته ونموه، وهذه هي (الهداية التكوينية العامة) السائدة على كل ارجاء الخليقة دونما استثناء.

و لكن هل تكفي هذه الهداية الفطرية، التكوينية لكائن مثل الإنسان، اشرف الموجودات، وفضل ما في هذه الخليقة؟! بكل تأكيد: لا.

لأن للإنسان حياة أخرى غير الحياة المادية، تشكل اساس حياته الواقعية، ولو كان للإنسان حياة مادية جافة فقط مثلها لعالم النباتات، والحيوانات، لكفت العوامل والعناصر المادية في تكامله، والحال أن للإنسان نوعين من الحياة، يكمن في تكاملها معاً رمز سعادة الإنسان ورقته.

ان الإنسان الأول، ونعني به انسان الكهوف والحياة البسيطة والفطرة السليمة التي لم يطرأ على جبلته اي إعوجاج لم يكن بحاجة إلى ما يحتاج اليه الإنسان الإجتماعي من التربية والهداية.

ولكن عند ما خطى الإنسان خطوات أبعد من ذلك، وبدأ الحياة الاجتماعية، وسادت على حياته فكرة التعاون والعمل الجماعي برزت في روحه ونفسيته سلسلة من الانحرافات نتيجة للاحتكاك الاجتماعي، وغيّرت الخصال القبيحة والافكار الخاطئة صفاته الفطرية، وبالتالي اخرج المجتمع من حالة التوازن!

إن هذه الانحرافات حملت خالق الكون على أن يرسل إلى البشرية رجالاً أفذاذاً صالحين يتولون تربية البشر، وليقوموا بتنظيم برنامج المجتمع، والتخفيف من المفسد الناشئة - بصورة مباشرة - عن النزعة الاجتماعية لدى الإنسان، وليضيئوا - بمشاعل الوحي المشعة المنيرة - طريق السعادة والخير للانسانية في جميع المجالات والابعاد.

إذ لانقاش في أن الحياة الاجتماعية والعيش بصورة جماعية مع كونه مفيداً، ينطوي على مفسد لا تُنكر، ويجرّ إلى انحرافات كثيرة لا تقبل التردد.

ولهذا بعث الله سبحانه رجالاً مصلحين، وهداة مرشدين يعملون - قدر الامكان - على الحد من الانحرافات والمفسد، ويضعون عجلة المجتمع - بتنظيم القوانين الواضحة والانظمة الحكيمة - على الطريق الصحيح، ويضمنون دورانها

وحركتها في المسار المستقيم.

وقد يُستفاد هذا الامر - بوضوح - من قوله تعالى:

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»^(١).

دور الانبياء في اصلاح المجتمع:

ان الذي يتصوره الناس عادة هو أنّ الانبياء مجرد معلمين إلهيين، يُعْثُوا لتعليم البشرية.

فكما يتعلم الطفل خلال حركته التعليمية ابتداء من الابتدائية ومروراً بالمتوسطة وانتهاء بالجامعة دروساً معينة ومواضيع خاصة على ايدي الاساتذة والمعلمين، كذلك يتعلم الناس في مدرسة الانبياء أموراً خاصة، ويكتسبون معارف معينة، وتتكامل أخلاقهم وصفاتهم وخصالهم الاجتماعية جنباً الى جنب مع اكتسابهم المعرفة والعلم على أيدي الانبياء والمرسلين.

ولكننا نتصور ان مهمة الانبياء ووظيفتهم الأساسية هي (تربية) المجتمعات البشرية لا تعليمها، وان اساس شريعتهم لا ينطوي على كلام جديد، وانه مالم تنحرف الفطرة البشرية عن مسارها الصحيح، ومالم تلفها غشاوات الجهل والغفلة لعرفت وادركت خلاصة الدين الإلهي، وعصارتها، في غير ايهام، ولاخفاء.

على أن هذه الحقيقة قد أشار اليها قادة الإسلام العظماء.

فقد قال اميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة عن هدف الانبياء:

«أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ... لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ زَيْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمُ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دِفَائِنَ الْعُقُولِ»^(٢).

(٢) نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة رقم ١.

(١) البقرة: ٢١٣.

مثال واضح في المقام:

إذا قلنا: ان وظيفة الانبياء في تربية الناس واصلاح نفوسهم هي وظيفة البستاني في تربية شجيرة من الشجرات، أو قلنا: إن مثل الأنبياء في قيادة التوجّهات الفطرية البشرية وهدايتها، مثل المهندس الذي يستخرج المعادن الثمينة من بطون الاودية والجبال، لم نكن في هذا القول مبالغين.

وتوضيح ذلك ان النبتة، أو الشجيرة الصغيرة تحمل من بداية انعقاد حبها الأولى كل قابليات النمو، والرشد، فاذا توفّر لها الجو المناسب للنمو، دبّت الحياة والحركة في كل أجزائها، واستطاعت بفعل جذورها القوية واجهزتها المتنوعة وفي الهواء الطلق، والضوء اللازم، من أن تقطع أشواطاً كبيرة من التكامل، والنمو. فمسؤولية البستاني في هذه الحالة تتركز في امرين:

١ - توفير الظروف اللازمة لتقوية جذور تلك النبتة لكي تظهر القوى المودعة في تلك النبتة أو الشجيرة، وتخرج من حيز القوة إلى مرحلة الفعلية، والتحقق.

٢ - الحيلولة دون تعرض تلك الشجرة أو النبتة للانحرافات والآفات، وذلك عندما تتجه القوى الباطنية صوب الوجهة المخالفة لسعادتها، وتسلك طريقاً ينافي تكاملها.

ومن هنا فان مسؤولية البستاني ووظيفته ليست هي (الإنماء) بل هي (المراقبة) وتوفير الظروف اللازمة ليتها لتلك الشجرة والنبتة أن تبرز كمالها الباطني.

لقد خلق الله سبحانه البشر وأودع في كيانه طاقات متنوعة، وغرائز كثيرة، وعجن فطرته وجبلته بالتوحيد، وحب معرفة الله، وحب الحق والخير، والعدل والانصاف، كما وأودع فيه غريزة السعي والعمل.

وعندما تبدأ خمائر هذه الامور وبذورها الصالحة المودوعة بالعمل والتفاعل في كيان الإنسان تتعرض في الجو الاجتماعي لبعض الانحرافات بصورة قهرية،

فغريزة العمل والسعي تتخذ شيئاً فشيئاً صفة الحرص والطمع، وغريزة حب السعادة والبقاء تتخذ صورة الانانية، وحب الجاه والمنصب، ويتجلى نور التوحيد والإيمان في لباس الوثنية وعبادة الأصنام.

في هذه الحالة يعمل سفراء الله الى البشرية: (الانبياء والرسل) على توفير ظروف الرشد والنمو الصحيح لتلك الغرائز وتلك القوى والطاقات في ضوء الوحي، والبرامج الصحيحة المستلهمة من ذلك المنبع الالهي الهادي، ويقومون بالتالي بتعديل انحرافات الغرائز، والوقوف دون تجاوزها حدودها المعقولة المطلوبة.

ولقد قال اميرالمؤمنين في مامر من كلامه: إن الله أخذ - في مبدأ الخلق - ميثاقاً يدعى «ميثاق الفطرة».

فما هو ترى المقصود من ميثاق الفطرة هذا؟

إن المقصود من هذا الميثاق هو: أن الله تعالى بخلقه وايداعه الغرائز المفيدة في الكيان الإنساني، وبمزج الفطرة البشرية بعشرات الأخلاق الطيبة والسجايا الصالحة يكون قد أخذ من الإنسان ميثاقاً فطرياً بأن يتبع خصال الخير، ويأخذ بالغرائز الطيبة الصالحة.

فاذا كان منح جهاز البصر (العين) للإنسان هو نوع من اخذ الميثاق من الإنسان بان يتجنب المزالق، ولايقع في البئر، فكذلك ايداع حسّ التدين، وغريزة الانجذاب الى الله، وحبّ العدل، في كيانه هو الآخر نوع من اخذ الميثاق منه بأن يظل مؤمناً بالله، موحداً إياه، عادلاً، منصفاً، محباً للخير والحق.

وإن وظيفة الأنبياء هي أن يحملوا الناس على العمل بمقتضي ميثاق الفطرة، وبالتالي فإنّ مهمّتهم الأساسية الحقيقة هو تمزيق اغشية الجهل وتبديده. سحب الغفلة التي قد ترين على جوهرة الفطرة المطعمة بنور الايمان، فتمنعها من الاشراق على وجود الإنسان، وتحرم الإنسان من هدايتها.

ومن هنا قالوا: إن أساس الشرائع الالهية يتألف من الامور الفطرية، التي

فطر الإنسان عليها.

و كأن صرح الكيان الإنساني (جَبَلٌ) اختفت بين ثنايا صخوره وفي بطونه احجار كريمة كثيرة ومعادن ذهبية ثمينة، فالوجود الإنساني هو الآخر قد أودعت فيه فضائل وعلوم، ومعارف وخصال، واخلاق متنوعة.

فعندما يغورُ الانبياء والمهندسون الروحانيون في أعماق نفوسنا وذواتنا وهم يعلمون جيداً أن نفوسنا معجونة بطائفة من الصفات والسجايا النبيلة والمشاعر والاحاسيس الطيبة، ويعملون على اعادة نفوسنا -بتعاليم الدين وبراجمه- الى جادة الفطرة المستقيمة السليمة فانهم في الحقيقة يذكروننا بأحكام فطرتنا، ويُسمعوننا نداء ضمائرنا، ويلفتونها إلى الصفات، والى الشخصية المودوعة فيها. تلك هي رسالة الانبياء، وذلك هو عملهم الاساسي، وهذا هو دورهم في اصلاح النوع الإنساني، أفراداً وجماعات.

أمين قرش في غار حراء:

يقع جبل «حِراء» في شمال «مكة» ويستغرق الصعود إلى غار حراء مدة نصف ساعة من الزمان. ويتألف ظاهر هذا الجبل من قطع صخرية سوداء، لا يُرى فيها أي أثر للحياة أبداً.

و يوجد في النقطة الشمالية من هذا الجبل غار يمكن للمرء أن يصل اليه ولكن عبر تلك الصخور، ويرتفع سقف هذا الغار قامة رجل، وبينما تضيء الشمس قسماً منه، تفرق نواح أخرى منه في ظلمة دائمة. ولكن هذا الغار يحمل في رحابه ذكريات كثيرة عن صاحب له طالما تردّد عليه، وقضى ساعات بل وأياماً وأشهرات في رحابه... ذكريات يتشوق الناس -وحتى هذا الساعة- الى سماءها من ذلك الغار، ولذلك تجدهم يسارعون إلى لقائه كلما زاروا تلك الديار، متحمّلين في هذا السبيل كل عناء، للوصول إلى رحابه، لكي يستفسرونه عما جرى فيها عند وقوع حادثة: «الوحي» العظيمة وليسألونه عن ما تحتفظ به ذاكرته من تاريخ رسول الإنسانية الاكبر ممّا جرت

حوادثه في ذلك المكان التاريخي، العجيب.

ويتحدث ذلك الغار هو الآخر اليهم بلسان الحال ويقول: هاهنا المكان الذي كان يتعبد فيه عزيز قريش وفتاها الصادق الامين.

وهاهنا قضى ليالي و أياماً عديدة و طويلة قبل ان يبلغ مرتبة الرسالة، في عبادة الله، والتأمل في الكون، وفي آثار قدرة الله وعظمته.

أجل، لقد اختار محمد صلى الله عليه وآله ذلك المكان البعيد عن ضحيج الحياة، للعبادة والتحنث، فكان يمضي جميع الايام من شهر رمضان فيه، وربما لجأ إليه في غير هذا الشهر أحياناً أخرى، إلى درجة أن زوجته الوفية كانت إذا لم يرجع إلى منزلها، تعرف أنه قد ذهب إلى «غار حراء» وأنه هناك مشغول بالعبادة والتحنث والاعتكاف. وكانت كلما أرسلت إليه أحداً وجده في ذلك المكان مستغرقاً في التأمل والتفكير، او مشغولاً بالعبادة والتحنث.

لقد كان صلى الله عليه وآله قبل أن يبلغ مقام النبوة، ويُبْعَث بالرسالة يفكر - اكثر شيء - في أمرين:

١ - كان يفكر في ملكوت السماوات والارض، ويرى في ملامح كل واحد من الكائنات التي يشاهدها نور الخالق العظيم، وقدرته، وعظمته وعلمه، وقد كانت تفتح عليه من هذا السبيل نوافذ من الغيب تحمل الى قلبه وعقله النور الالهي المقدس.

٢ - كان يفكر في المسؤولية الثقيلة التي ستوضع على كاهله.

إن اصلاح المجتمع في ذلك اليوم على ما كان عليه من فساد عريق وانحطاط عريض، لم يكن في نظره وتقديره بالامر المحال الممتنع. ولكن تطبيق مثل هذا البرنامج الاصلاحى لم يكن في نفس الوقت أمراً خالياً من العناء والمشاكل، من هنا كان يفكر طويلاً في الفساد في حياة المجتمع المكّي وما يراه من ترف قريش، وكيفية رفع كل ذلك واصلاحه.

لقد كان صلى الله عليه وآله حزيناً لما يرى من قومه من فساد العقيدة المتمثل في الخضوع للأوثان الميتة، والعبادة للأصنام الخاوية الباطلة، ولطالما

شوهدت آثار ذلك الحزن على عيَّاه، وملامح وجهه الشريف، ولكن لما لم يكن مأذوناً بالافصاح بالحقائق، لذلك كان يتجنب ردع الناس عن تلك المفسد، ومنعهم عن تلك الانحرافات.

بدء الوحي:

لقد امر الله ملكاً من ملائكته بأن ينزل على امين قريش وهو في غار حراء ويتلو على مسمعه بضع آيات كبداية لكتاب الهداية والسعادة، معلناً بذلك تتويجه بالنبوة، ونصبه لمقام الرسالة.

كان ذلك المَلَك «جبرئيل»، وكان ذلك اليوم هو يوم المبعث النبوي الشريف الذي سنتحدث عن تاريخه في المستقبل.

ولا ريب أن ملاقة المَلَك ومواجهته أمر كان يحتاج إلى تهيؤ خاص، ومالم يكن محمد صلى الله عليه وآله يمتلك روحاً عظيمة، ونفسية قوية لم يكن قادراً قط على تحمّل ثقل النبوة، وملاقة ذلك الملك العظيم.

أجل لقد كان «أمين قريش» يمتلك تلك الروح الكبرى، وتلك النفس العظيمة وقد اكتسبها عن طريق العبادات الطويلة، والتأمل العميق الدائم، الى جانب العناية الالهية.

ولقد روى أصحاب السير والتاريخ انه رأى رؤى عديدة قبل البعثة كانت تكشف عن واقع بين واضح وضوح النهار^(١).

ولقد كانت الذّالساعات وأحبها عنده بعد كل فترة، تلك الساعات التي يخلو فيها بنفسه، ويتعبّد فيها بعيداً عن الناس.

ولقد قضى على هذا الحال مدة طويلة حتى أتاه - في يوم معين - ملك عظيم بلوح نصبه أمامه وقال له: «إقرأ»، وحيث إنه صلى الله عليه وآله كان أمياً لم يدرس أجاب المَلَك بقوله: «ما أنا بقارئ».

(١) صحيح البخاري: ج ١ كتاب العلم ص ٢٢، بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٩٤.

فاحتضنه ذلك المَلِكُ ، وعصره عَصْرَةً شديدة، ثم طلب منه أن يقرأ فأجابه بالجواب الأول.

فعصره المَلِكُ ثانية عصرة شديدة وتكرّر هذا العمل مرات ثلاث احس بعدها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى قِرَاءَةِ مَا فِي ذَلِكَ اللُّوحِ، فَقَرَأَ سَاعَتَهَا تِلْكَ الآيَاتِ الَّتِي تُشَكِّلُ - فِي الْحَقِيقَةِ - دِيبَاجَةَ كِتَابِ السَّعَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَاسَاسَ رَقِيهَا.

لقد قرأ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى:
«إِقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»^(١).

و بعد أن انتهى جبرئيل من أداء مُهِمَّتِهِ الَّتِي كُتِّفَ بِهَا مِنْ جَانِبِ اللهِ تَعَالَى، وَبَلَغَ إِلَى النَّبِيِّ تِلْكَ الآيَاتِ الْخَمْسَ، انْحَدَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ جَبَلِ حِرَاءَ، وَتَوَجَّهَ نَحْوَ مَنْزِلِ خَدِيجَةَ^(٢).

و لقد أوضحت الآيات المذكورة برنامج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَجْمَالاً، وَبَيَّنَّتْ وَبَشَكَلَ وَاضِحاً أَنَّ اسَاسَ الدِّينِ يَقُومُ عَلَى الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَاسْتِخْدَامِ الْقَلَمِ.

ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديتين:

لقد تسبب التقدم العظيم والمتزايد الذي تحقق في ميدان العلوم الطبيعية في سلب الكثير من العلماء القدرة على فهم وإدراك القضايا المعنوية والخارجة عن إطار العلوم الطبيعية وبالتالي أدى إلى تحديد وتضييق آفاق الفكر عندهم.

فاذا بهم أصبحوا يتصورون أن الوجود يتلخص في هذا الكون المادي، وأنه ليس في الوجود من شيء سوى المادة وإن كل ما لا يمكن تفسيره وتبريره بالقوانين والقواعد المادية فهو أمر باطل، ومن نسج الخيال!!

إن هذا الفريق - لتسرع في اصدار الحكم في الأمور المتعلقة - بالغيب وقضايا ماوراء الطبيعة، وحصر أدوات المعرفة بالحس والتجربة - انكروا عالم الوحي، بحجة أن الحسّ والتجربة لايقودانهم إلى ذلك العالم، ولايخبرانهم عن مثل تلك الموجودات، فلكونها بالتالي لا تخضع لمبضع التشريح، ومجهر الإختبار أنكروها بالمرّة، وكانت النتيجة أن أدوات المعرفة المعروفة (الحسّ والتجربة) حيث انها لا تهدي إلى عالم ماوراء المادة فاذن لا وجود خارجي لذلك العالم ولحقائقه أبداً!

إنّ هذا النمط من التفكير نمط جدّ ضيق ومحدود، مضافاً الى انه يتسم بالغرور والغطرسة، فهو من باب «استنتاج عدم الوجود من عدم الوجدان» في خطوة متعجلة فجّة!!

فادامت هذه الحقائق التي يعتقد بها الالهيون المؤمنون بالله لا يمكن التوصل اليها عن طريق الادوات الفعلية المتعارفة بينهم للادراك والمعرفة فهي اذن لا اساس لها من الواقع!!

ان الذي لاشك فيه هو: ان الماديين لم يدركوا مقالة العلماء الالهيين حتى في مسألة اثبات الصانع الخالق فكيف بالعوالم الأخرى لما فوق الطبيعة، ولو أنّ الفريقين تحاورا في جو علمي مناسب، بعيداً عن الأغراض والعصبيّات، لكان من المتوقع ان تزول الفواصل بين الماديين والالهيين في أقرب وقت، وأين يرتفع هذا الاختلاف الذي قسّم العلماء إلى فريقين على طرفي نقيض.

لقد اقام المؤمنون الموحّدون عشرات الأدلة والبراهين القاطعة على وجود الله تعالى، واثبتوا بأنّ هذه العلوم الطبيعية هي نفسها تقودنا إلى الخالق العالم القادر، وان هذا النظام العجيب السائد في ظواهر الكائنات الطبيعيّة وبواطنها لدليل قاطع، وبرهان ساطع على وجود مبدع هذا النظام، وأن جميع أجزاء هذا الكون المادي، من ذراته الى مجراته، يسير وفق قوانين دقيقة متقنة، ولا تستطيع الطبيعة الصماء العمياء ابداً أن تكون مبتكرة لهذا النظام البديع، ومبدعة لهذا الترتيب الدقيق.

وهذا هو بنفسه برهان «نظام الوجود» أو (برهان النظم) الذي آلف العلماء الالهيون الموحدون حوله عشرات الكتب والدراسات.

وحيث ان (برهان النظم) هذا مما يفهمه جميع الناس على مختلف مراتبهم ومداركهم، لذلك ركزت عليها الكتب الاعتقادية دون سواها، وسلك كل واحد من العلماء طريقاً معيناً وخصوصاً لتقريره، وبيانه، كما ودرست الأدلة والبراهين الأخرى التي لا تتسم بمثل هذه الشمولية، في الكتب، والمؤلفات الفلسفية والكلامية بصورة مفصلة ومبسوطة.

إن للعلماء الالهيين بيانات وأدلة في مجال (الروح المجردة)، وعوالم ما وراء الطبيعة (المتافيزيقيا) نشير إلى بعضها هنا:

الروح المجردة:

إن الاعتقاد بالروح من القضايا الشائكة الطبيعة التي استقطبت اهتمام العلماء وشغلت باهم بشدة.

فهناك فريق -ممن اعتاد أن يُخضع كل شيء لمبضع التشريح- ينكر وجود (الروح)، ويكتفي بالاعتقاد بالنفس ذات الطابع المادي، والعاملة ضمن نطاق القوانين الطبيعية فقط.

ووجود «الروح» والنفس غير المادية (اي المجردة المستقلة عن المادة) من القضايا التي عُولجت ودُورست من قِبَل المؤمنين بالله، والمعتقدين بالعالم الروحاني، بصورة دقيقة، وعميقة.

فهم أقاموا شواهد عديدة على وجود هذا الكائن (غير المادي) وهي أدلة وبراهين لو تمّ التعرف عليها والنقاش حولها في جو علمي هادئ مع الأخذ بنظر الاعتبار مايقوم عليه منطق الالهيين - في هذا المجال - من قواعد وأسس، لأدّى ذلك إلى التصديق الكامل بها.

على أن ما يقوله الالهيون في مجالات أخرى مشابهة مثل (الملائكة) و (الوحي) و (الإلهام) يقوم هو الآخر على الأساس الذي شيده ومهدوه وبرهنوا

عليه قبل ذلك بالأدلة المحكمة، المتقنة^(١).

ظاهرة الوحي عند الماديين:

يُعتبر الاعتقاد بالوحي أساساً لجميع الرسالات، والأديان السماوية، وتقوم هذه الظاهرة (ظاهرة الوحي) على أن الذي يوحى إليه يمتلك روحاً قوية تقدر على تلقي المعارف الإلهية من دون واسطة، أو بواسطة ملك من الملائكة. و يلخصُ العلماء المختصون تعريفهم للوحي على النحو التالي: «الوحيُ تعليمُهُ تعالى مَنْ اضطفاهُ مِنْ عِبَادِهِ كُلِّ مَا أَرَادَ اِطْلَاعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَلْوَانِ الْهُدَايَةِ وَالْعِلْمِ وَلَكِنْ بِطَرِيقَةٍ خَفِيَّةٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ لِلْبَشَرِ».

ولكن الماديين - كما قلنا - لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقة، وادراك هذه الظاهرة على حالها، وصورتها الغيبية بسبب ما ذكرناه من منهجهم ونظرتهم إلى الأمور والكائنات فذهبوا في تفسير ظاهرة الوحي - التي هي كما اسلفنا من قضايا الغيب ومن عوالم مافوق الطبيعة - مذاهب مختلفة ترجع برمتها إلى الرؤية المادية للوجود.

واليك أبرز هذه التفاسير المادية لظاهرة الوحي الغيبية:

أبرز النظريات المادية لظاهرة الوحي:

١ - قالوا: الوحي هي القدرة الفكرية، والنفسية والعقلية التي تحصل للإنسان بسبب التمرينات والرياضات الروحية التي على اثرها تفتح عليه أبواب من الغيب، فيخبر عن أمور طالما تتفق مع الواقع على نحو ما يحصل للمرتاضين الهنود^(٢).

فالانبياء بسبب اعتزالهم للمجتمع - على غرار مايفعل المرتاضون - وإقبالهم

(١) ولقد جاء تفصيل هذه البراهين والأدلة في الكتب الفلسفية مثل: «الإشارات» و«الأسفار».

ولقد اشرنا إلى بعض هذه الأدلة في كتاب (الله خالق الكون) فراجع.

(٢) وهم الذي يمارسون عملية اليوجا.

على الرياضة الروحية يحصل لهم المقدرة على الإخبار بالغائبات، والكائنات الخفية على غيرهم.

والجواب على هذه النظرية هو: أن دراسة حالات المرتاضين تكشف لنا عن أنهم طالما يخطأون في إخباراتهم أخطاء فاضحة، بينما لم يُعهد من نبيٍّ أنه أخطأ في إخباراته، وإنباءاته.

هذا أولاً

وثانياً: ان مايفعله المرتاضون لاينطوي على أية أهداف اصلاحية عليا للمجتمع البشري، بل غاية همهم هو: عرض الافعال العجيبة على الناس وربما تسلية المتفرجين، بينما يهدف الأنبياء إلى إصلاح المجتمعات البشرية وقيادتها إلى ذرى الكمال والتقدم.

وثالثاً: ان المرتاضين لايشقون بما يخبرون به، كما لم يُعرف إلى الآن أن أحداً منهم طلع على المجتمع البشري ببرنامج كامل وشامل للحياة البشرية الفردية والاجتماعية، بينما نجد الأنبياء يخبرون الناس بما أمروا به وهم على إيمان كامل، ويقين ثابت منه، هذا الى جانب أنهم يحملون الى البشرية برامج اجتماعية وحيوية جامعة الاطراف، كاملة الأبعاد، رفيعة الأهداف، عميقة الغايات، ترجع اليها كلُّ فضيلة وكل خير تعرفه المجتمعات الى الآن.

ورابعاً: ان أعمال المرتاضين وما تحصلُ لهم من قوى وينفتح عليهم من آفاق، محدودة، بينما لا تقف طاقات الانبياء وآفاق علومهم، وأبعاد أعمالهم عند حد.

فلا يمكن أبداً تفسير وتعليل ظاهرة (الوحي) وما يحصل للرسل والانبياء على اثره من أمور تتخطى حدود العالم المادي المحدود، بالرياضة الروحية التي يمارسها المرتاضون وما يحصل لهم على أثرها من امور.

٢ - قالوا: ان (الوحي) نوعٌ من النبوغ، او أنه ناشئ من النبوغ، وأن

الانبياء هم نوابغ اجتماعيون لا اكثر.

وقد شرحوا نظريتهم هذه قائلين: بأن نظام الخليقة قد ربي في أحضانه نوابغ

صالحين، اهتمدوا بفعل نبوغهم الفكري الرفيع الى أفكار وقيم رفيعة ودعوا مجتمعاتهم إلى الأخذ بها، والسير على هديها، لتحقيق الخير والعدالة، فكان لهم بذلك اكبر نصيب في إرشاد البشرية الى سعادتها، فكل ما طرحوه من أفكار، وكل ما عرضوه على تلك المجتمعات باسم الدين او القانون ليست - في الحقيقة - سوى نتيجة ماتمتعوا به من نبوغ، وفكر خارق، ولا علاقة له بعالم آخر غير هذا العالم المادي المألوف.

وقالوا: وان مما يساعد على تقوية هذا النبوغ أمور ابرزها:

الحب، التعرض للظلم الطويل، الطفولة ومايكتنفها من ضعف وعجز، الوحدة، السكوت، التربية الأولى، والعيش في صورة الأقلية ومايرافقها من ظروف إجتماعية غير مؤاتية.

فان جميع هذه الأمور أو بعضها تدفع بالشخص الى الانطوائية، والتفكير والتأمل، للاهتمام الى مخرج من المشاكل والصعوبات، ومخلص من الظروف الصعبة، والأحوال الشاقة.

ويُجاب على هذه النظرية بأن أصحاب هذه النظرية حكموا على هذه القضية على أساس موقف اتخذوه سلفاً فهم حَصَرُوا الأشياء في المادة والامور المادية ثم فسروا مايرتبط بعالم الغيب بذلك، فجاء تفسيرهم لهذه الظاهرة الغيبية تفسيراً مادياً، غفلة منهم عن ان مثل هذا التفسير والتعليل لايليق بظاهرة (الوحي) التي تجسد أعلى قضية في سلم الحقائق العلمية والفلسفية، ويرجع اليها أعظم القوانين والبرامج للسعادة البشرية.

نحن لاننكر أن لماذكروه من العوامل تأثيراً في تقوية عملية «التفكير» لدى الانسان إلى درجة ايجاد مايسمى بظاهرة النبوغ لديه، إلا أنه لايمكن أن يوجد مثل هذا الامر نبياً خضعت جميع النوابع البشرية لعظمة تعاليمه التي أتى بها طوال أربعة عشر قرناً.

نبياً لم تنزل ما جاء به من معارف عقلية وفلسفية، وقوانين ترتبط بعالم الطبيعة وبالنظام الاجتماعي وآداب السلوك تحافظ على قوتها، وعمقها وأصالتها ولمعناها

كل المحافظة رغم كل ماحرزه البشر في ضوء نشاطه الفكري والعقلي من تقدم، في المعارف والعلوم.

هذا مضافاً الى أن نسبة هؤلاء الأنبياء جميع ماعرضوه على المجتمعات البشرية إلى العالم الآخر واصرارهم على أنها من جانب الله تعالى وليست من نسيج افكارهم يناقض نظرية هذه الطائفة، التي تفسر النبوة بالنبوغ.

لنقرأ معاً الآية التي يقول الله تعالى فيها حاكياً عن رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله:

«إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ»^(١).

أو يقول سبحانه:

«إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»^(٢).

٣ - يقولون: إن الوحي هو ظهور الشخصية الكامنة في النبي وإجاؤها لماينفعه وينفع قومه المعاصرين له، اليه.

وربما قالوا: إن معلومات «محمد» وأفكاره وآماله ولدت لديه إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية على مخيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له وهو يتلو على سمعه ماحدث به بعد ذلك.

و توضيح هذه النظرية هو: ان لكل إنسان شخصيتين:

١ - الشخصية الظاهرة العادية وهي التي تخضع للحواس الخمس وتعمل بها.

٢ - الشخصية الباطنية وهي التي تعمل عندما تتعطل الحواس، ويتعطل

الشعور الظاهري:

وهذه الشخصية هي التي تحرك جميع أعضاء الجسم الانساني التي لا تخضع لارادته كالكبد والقلب، والمعدة وغيرها، كما انها هي مصدر الكثير من الإلهامات الطيبة في الظروف الحرجة.

ثم قالوا: وهذه الشخصية الباطنية قد اصبحت مدركة بالحس، فان المنوم

مغناطيسياً يظهر بمظهر من العقل الراجح، والفكر الثاقب والنظر البعيد، ويقوم بما لا يقوم به في حالته العادية.

وقد انتهى هؤلاء المادّيون من خلال تحقيقاتهم وتجاربهم إلى: ان شخصية الإنسان الباطنية ارقى من شخصيته العادية، وإن ما يتوصّل اليه الإنسان من أفكار عالية رفيعة جداً، وما قد يتمتع به من روح قوية هو من مظاهر هذه الشخصية وفعاليتها.

فقالوا: وان هذه الشخصية هي التي تنفث في روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونهما من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء!!! فالوحي عند هؤلاء الباحثين في الروح على الاسلوب التجريبي لا يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاماً عن الله بل يكون في تجلي روح الإنسان عليه بواسطة شخصيته الباطنة فتعلمه مالم يكن يعلم، وتهديه الى خير الطرق لهداية نفسه وترقية أمته^(١).

و لكن هذه النظرية هي الأخرى تنبع من الغرور العلمي الذي أصاب هذا النمط من العلماء الذين يحاولون تفسير كل ظواهر هذا العالم بالتفسير المادي، وهو لاشك ينشأ من علمهم المحدود القاصر عن إدراك حقائق الوجود.

إننا لانشك في وجود ما يسمى بالشخصية الباطنية لدى الإنسان فهو ممّا سبق الى كشفه و التنويه به الفلاسفة الإسلاميون من قبل ولكن كيف وعلى أي أساس حقّ هؤلاء ان يفسروا ظاهرة (الوحي الالهي) والنبوة بهذا الامر؟ هذا أولاً

وثانياً: انّ تجلي الشخصية قلماً يحدث في الاشخاص الأصحاء، بل هو يحدث في الاغلب عند المتعبين القلقين، والسكران، والمصابين بالهزيمة والنكسة، لأن نافذة (اللاوعي) عند غيرهم من الاصحاء تنسد بسبب اشتغالهم الشديد بقضايا الحياة اليومية وهمومها، ولا يبقى للشخصية الباطنية مجال للنشاط والفعالية، كما

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي: ج ١٠ مادة وحي.

هو العكس عند المتعبين والسكران والمرضى الذين يقل اهتمامهم بالحياة اليومية فيترك (الوعي) مكانه للاوعي، وتترك الشخصية الظاهرية المعطلة مكانها للشخصية الباطنية.

و لذلك نجد بين آلاف العلماء والمفكرين مفكراً أو عالماً واحد اتفق له في بداية عمره أن اهتدى بصورة لاشعورية إلى فكرة خاصة او نظرية معينة من دون سابق تفكير او استدلال قائم على الشعور.

و خلاصة القول أن تجلّي الشخصية الباطنية في الحياة الانسانية قضية نادرة جداً، وهي لا تحدث إلا في ظروف خاصة مثل: المنامات والاحلام وغيرها من التحولات الحياتية التي تقلل من توجه الانسان الى العالم الخارجي وتصرف التفاته وتوجّهه الى الشخصية الباطنية.

ولكن هذه الحالة وهذه الشرائط (أي الغفلة عن هموم الحياة اليومية الخارجية) لم تحصل للانبياء قط.

فالنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله كان طوال (٢٣ سنة) وهي أعوام الرسالة، مشغولاً كل الاشتغال بقضايا الحياة اليومية، فالنشاطات السياسية والتبليغية وقضايا الدعوة والقيادة كانت تهيمن على كل توجهه واهتمامه وتملاً عقله وعقله وروحه ونفسه .

فالكثير من آيات الجهاد ترتبط بساحات القتال والجهاد، وهذا يعني انه كان مشغولاً بروحه وعقله كله إلى تلك الأمور.

وثالثاً: ان هذه النظرية يمكن أن تصدق على نبوة الانبياء، لو كان هؤلاء الانبياء أفراداً متعبين، منهزمين، منتكسين، مرضى، معتزلين عن الحياة ليقال حينئذ ان هذه الحالات والظروف مهّدت لانقطاعهم -عليهم السلام- عن هموم الحياة، وقضاياها، وبالتالي مهّدت لفعالية الشخصية الباطنية وعملها.

ولكن تاريخ الانبياء يشهد بوضوح لا إيهام فيه، بانهم كانوا -طيلة حياتهم الرسالية- رجالاً مجاهدين، لا يهمهم إلا اصلاح المجتمعات وقيادة الجماعات وحل المشكلات الاجتماعية، ورفع مستويات الناس معنوياً وفكرياً وكانوا

يعملون لتحقيق هذه الأهداف ليل نهار، بلاسأم ولا ملل، ولا تعب ولا نصب.
فكيف يمكن القول والحال هذه بان الشخصية الباطنية تجلّت لديهم واوحت اليهم بحقائق وقيم وافكار؟

إن تفسير (الوحي الالهي) الذي يُلقى الى الانبياء ويكشف لهم عن أدق الحقائق وارفعها، وأعظم المناهج واكملها، بتجلي الشخصية الباطنية، ناشئ من اعتقاد هذا الفريق من العلماء بأصالة المادة، أو بعبارة اخرى: حصر الوجود في المادة، ومن هنا حاولوا إلباس كل شيء حتى الامور المعنوية والغيبية: اللباس المادي، واغلقوا على أنفسهم باب عوالم الغيب، وعمدوا إلى التفتيش عن علة مادية حتى لظاهرة (الوحي) التي لا تُقاس بمقاييس العالم المادي.

هذا مضافاً إلى أن تفسير (الوحي الالهي) عن طريق نظرية تجلي الشخصية الباطنية، وخاصة في شأن رسول الإسلام «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم يواجه اشكالات ومؤاخذات أخرى تجعل هذه النظرية في عداد الاساطير!!
وإن ابرز هذه الاشكالات الواردة على هذه النظرية في مجال رسول الإسلام صلى الله عليه وآله هي: أن هذه النظرية ليست رأياً جديداً وتهمة جديدة توجه إلى نبوة رسول الإسلام.

فان نظرية «الشخصية الباطنية، والوحي النفسي الذاتي» هي نظرية متبلورة ومتقدمة لتهمة (الجنون والصرع) التي كان يرمي بها العرب الجاهليون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!!

فقد كان المشركون في بدء الدعوة يقولون: ان ما يقوله «محمد» وما يتكلم به ليس إلا أفكاره القلقة المضطربة الناشئة عن خياله، وأن القرآن هي تلك الأفكار المضطربة التي تسربت إلى فضاء عقله من دون ارادة منه ولا اختيار!!
لنستمع الى القرآن الكريم وهو ينقل عنهم هذا الاتهام:
«بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ»^(١).

ولكن القرآن الكريم يردّ على هذه المزعمة الواهية بقوله:
 «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ»^(١).

ان القرآن الكريم يشجب في هذه الآيات المنتظمة انتظاماً رائعاً وبديعاً هذه المزعمة (أي مقولة أن القرآن وليد الخيال لدى محمّد)، ويردّ الأمر إلى الوحي الالهي، والتوجيه الرباني العلويّ.

إن نظرية الوحي النفسيّ وتجلّي الشخصية الباطنية التي طلع بها الماديون في عصرنا ماهي في الحقيقة إلا غطاء لمزعمة المشركين وتهمة الجنون، والخيال التي سبق أن رمى بها أعداء الرسالة الاسلاميّة ومعارضوها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم تلك التهمة التي يذكرها القرآن الكريم بقوله:
 «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ»^(٢).

وهي تهمة كان يوجهها المعارضون دائماً إلى المصلحين وأصحاب الرسالات^(٣) وقد اتخذت هذه التهمة صبغة علمية جديدة، وتبلورت في نظرية: «الوحي النفسيّ، وتجلّي الشخصية الباطنية». ان القرآن الكريم يرد على هذه المزاعم والتصورات الباطلة حول عمليّة الوحي ومسألة النبوة ويرد على نسبة الكهانة وماشابه ذلك كالخبر المنقول عن اهل السير بمحاولة القاء النبي نفسه من شاهق في بداية الوحي الذي يشبه نسبة الجنون اليه صلى الله عليه وآله، اذ يقول تعالى:

«إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ

(١) النجم: ١-٥.

(٢) الحجر: ٦، و أيضاً راجع الآيات التالية: سبأ: ٨، الصافات: ٣٦، الدخان: ١٤، الطور: ٢٩،

القلم: ٢، التكويز: ٢٢.

(٣) اذ يقول القرآن في هذا الصدد: «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ» (الذاريات: ٥٢ و ٥٣).

تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ»^(١).

بهذا البيان تبين بطلان هذا التفسير وجميع التفاسير الأخرى التي تحاول إعطاء (الوحي) طابعاً مادياً مألوفاً، شأنه شأن غيره من الظواهر الغيبية، ونحن استكمالاً لهذا البحث نشير إلى ما هو الحق في هذا المجال، مما يؤيد الواقع والعقل والدين:

ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين:

لا شك أن حياة كل فرد من افراد الإنسان تبدأ من «الجهل» ثم يأخذ الإنسان بالدخول في مجال العلم شيئاً فشيئاً، الى ان تفتح عليه بالتدرج نوافذ على الواقع الخارج عن ذهنه.

فيبدأ الإنسان بالتعرف على الحقائق عن طريق الحواس الظاهرية، ثم على أثر التكامل في جهازه العقلي والفكري يهتدي الى الحقائق الخارجة عن مجال الحس واللمس، فيغدو عقلياً استدلالياً، ويقف على طائفة من الحقائق الكلية والقوانين العلمية.

و ربما يظهر بين أفراد النوع الإنساني أصحاب نفوس عالية يقفون عن طريق الالهام ومن خلال بصيرة خاصة على حقائق وأمور لا يهتدي اليها حتى عن طريق الاستدلال والبرهنة!

ومن هنا قسم العلماء ادراك البشر الى ثلاثة أنواع: «إدراك العامة» «إدراك المفكرين وأرباب الاستدلال» «إدراك العرفاء واصحاب البصائر والنفوس الكبرى».

و كأن أصحاب الظاهر يستعينون على اكتشاف الحقيقة بالحس، والمفكرين يستعينون بالاستدلال والبرهنة، وأصحاب البصائر والمعرفة بالالهام والاشراق وبالفيض عليهم من العالم الأعلى.

ان النوايح في مجال الأخلاق، وان عقول العلماء الخلاقة، وأفكار الفلاسفة العظيمة كلها تؤيد وتشهد بأن ما يحصلون عليه، وما يطلعون به على المجتمع البشري مما لم يعرفوه من قبل ما هي الاشارات مضيئة وملهمة تخطر لهم، ثم يعمدون إلى تنميتها وبلورتها بالتجربة، أو بالاستدلال والبرهنة والتأمل.

قنوات المعرفة الثلاث:

من هذا الكلام نستنتج أن أمام بني البشر ثلاث طرق للوصول الى مقاصده؛ فالطريق الأول يستفيد منه جماهير الناس غالباً، بينما يستفيد طائفة خاصة منهم من الطريق الثاني، ولايستفيد من الطريق الثالث إلا أفراد معدودون قلة تكاملت عقولهم، وتسامت أرواحهم. وهي كالتالي:

١ - الطريق التجريبي والحسي، والمقصود منه ذلك القسم من الإدراكات والمعلومات الواردة الى محيط الذهن البشري عن طريق الحواس الظاهرية كالمرئيات، والمشمومات والمطعمات وغيرها مما يستقر في محيط إدراكنا بواسطة الأجهزة المختصة بها.

وقد استطاع البشر اليوم، وبفضل اختراع التلسكوبات والميكروسكوبات واجهزة التلفاز والراديو ان يقدم خدمة كبرى للبشرية في مجال الإدراكات الحسية ويمهّد لمزيد من سيطرتها على البعيد والقريب.

٢ - الطريق التعقلي الاستدلالي: فان المفكرين يتوصلون الى كشف طائفة من القوانين الكلية الخارجة عن الحس عن طريق عملية التفكير والتأمل وتشغيل جهاز العقل، وإقامة سلسلة من المقدمات البديهية الواضحة، وبذلك يمكن الوصول إلى قمم المعرفة والكمال العلمي.

إن انكشاف القوانين العلمية الكلية، والمسائل الفلسفية، والمعارف المرتبطة بصفات الله وأفعاله سبحانه والقضايا المطروحة في علم العقيدة والأديان ناشئ برمته من جهاز العقل، وحركته، وناتج من عملية التفكير، والاستدلال المذكورة.

٣ - طريق الإلهام: وهذا هو الطريق الثالث لمعرفة الحقائق، وهو فوق نطاق

الحس والتعقل.

إنه نوعٌ جديدٌ من المعرفة ونمط متميز من إدراك الحقائق، ليس محالاً من وجهة نظر العلم وإن كان يصعب على أصحاب الاتجاه المادي القبول به لكونه طريقاً غير حسي ولا تعقلي.

وأما من جهة الأصول العلمية فلا مجال لإنكاره، ولا مبرر لعدّه من المحالات.

إن طريق التعرف على حقائق الكون الخارج عن الذهن - في منهج الماديين، وأصحاب النزعة المادية - ينحصر في قناتين لا أكثر، وهما اللذان سبق ذكرهما، في حين أنّ هناك - حسب نظرة الأديان والشرائع الكبرى وحسب نظرة الفلاسفة والعرفاء الالهيّين - قناة ثالثة أيضاً.

بل إنّ هذا الطريق الثالث - كما أسلفنا في مسألة الوحي - أكثر واقعية، وأقوى اسماً، وأوسع آفاقاً عند من يدعون الرسالة، والنبوة من جانب الله سبحانه، وإن نفوس أولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاء وطلاوةً بفضل هذا الطريق، وفي ضوء هذه القناة.

وكلّما حصل إرتباط بين الله، وبين فرد من أفراد النوع الإنساني على نحو خاص أقيت الحقائق في وجوده من دون توسط الحواس الظاهرية، وإعمال الفكر، واستخدام جهاز العقل.

وهذا النوع من الإلقاء يسمّى حيناً بالالهام، وبالاشراق حيناً آخر. ولكن كلّما نتج من إرتباط الإنسان بما وراء الطبيعة سلسلة من التعاليم العامّة والأنظمة والبرامج الشاملة أُطلق على هذا النوع من الإلقاء عنوان (الوحي)، وسمّي الآتي بها (ملك الوحي) والآخذ لها (نبيّاً).

هذا وقد يوجب الإلهام الثقة والاطمئنان للملهم إليه، ولكنّه لا يمكن أن يكون مبعث الإطمئنان والثقة عند الآخرين^(١).

(١) وإما قلنا «قد» أي يمكن أن يوجب الاطمئنان ولم نتلّع بذلك لأنّ مصدر هذه الالهامات

من هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطريقَ المطمئنة الوحيدة الى المعرفة العامة... الوحي الذي ينزل على الانبياء الذين ثبتت نبوتهم بالدلائل القاطعة، من المعجزة وغيرها.

أنواع الوحي واصنافه:

إن في مقدور الروح الانسانية بسبب ما تملك من كمالات أن تتصل بالعوالم الروحانية من الطرق المختلفة، ونحن هنا نشير الى هذه الطرق التي جاء ذكرها في أحاديث قادة الإسلام وائمة، باختصار:

١ - تارة يتلقى الحقائق السماوية العليا على نحو الالهام، فيتخذ ما يتم إلقاءه في النفس عبر هذا الطريق حكم (العلو البديهية) التي لا يتطرق اليها أي ريب وشك .

٢ - وقد يسمع عبارات و كلمات من جسم معين (كالجبل والشجرة) كسمع موسى عليه السلام كلام الله من الشجرة.

٣ - وربما تنكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشف النهار.

٤ - وقد ينزل عليه ملكٌ من جانب الله بكلام خاص.

وقد نزل القرآن الكريم على النبي الاكرم صلى الله عليه وآله من هذا الطريق، وقد صرح القرآن الكريم نفسه بهذا عند قوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»^(١).

أساطير مختلفة:

لقد كتب المؤرخون والكتاب عن حياة كثير من الشخصيات العالمية، وضبطوا كل

ليست معلومة وواضحة، ولا يمكن الاعتماد على مطلق الواردات القلبية والفجائية التي لا تستند الى أصول معلومة.

و بعبارة أخرى: يجب الفصل والتمييز بين الإلهامات الرحمانية واللقاءات الشيطانية بواسطة الموازين العقلية والشرعية.

(١) الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥، وقد أُشير في سورة الشورى الآية ٥١ الى هذه الطرق الأربع جميعها.

ماجل اودق في هذا المجال، وربما تحمّلوا عناء الرحلات الطويلة والأسفار الشاقة لتكميل دراساتهم، وكتاباتهم.

غير أن التاريخ لا يعرف شخصية مثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضبطت تفاصيل سيرته الدقيقة، واهتم أتباعه وأصحابه ومحبهه بكل شاردة وواردة في حياته الشريفة.

إنّ هذا الولع الشديد بتسجيل كل شيء - مهما صغر - من حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسيرته العطرة كما ساعد على ضبط جميع الجزئيات والتفاصيل في هذا المجال، تسبب في بعض الموارد في إلصاق بعض الزوائد بحياة النبي الأكرم وشخصيته العظيمة، الطاهرة.

و مثل هذا لا يبعد عن المحبّين الجهلاء فكيف بالأعداء الألداء العارفين. من هنا يتعيّن على كل مؤلّف يكتب عن سيرة شخصية من الشخصيات أن لا يغفل عن مبدأ (الحذر والإحتياط) في تحليله لحوادثها، وقضاياها، فلا يغفل عن تقييم كل ماجاء حولها من روايات وقصص في ضوء الموازين التاريخية الدقيقة.

واليك بقية ماجرى في واقعة نزول (الوحي) في حراء:

بقية حادثة نزول الوحي:

استنارت نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، وروحه الكبرى بنور «الوحي» المبارك، وتعلّم كل ما ألقى عليه ملك الوحي في ذلك اللقاء العظيم، وانتقشت تلك الآيات الشريفة في صدره حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة.

وقد خاطبه نفس ذلك الملك بعد تلاوة تلكم الآيات بقوله:

يا محمد... أنت رسول الله... وأنا جبرئيل.

وقيل: انه صلى الله عليه وآله سمع هذا النداء عند نزوله من غار حراء وقد اضطرب رسول الله صلى الله عليه وآله، لهذين الحدّثين، اضطرب لعظمة المسؤولية الكبرى التي أقيت على كاهله.

و كان هذا الاضطراب طبيعياً بعض الشيء، وهو لا ينافي بالمرّة يقينه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وإيمانه بصدق ما أنزلَ عليه لأن الروح مهما بلغت من العظمة والسمو والقوة والصلابة، ومهما كانت قوة ارتباطها بعالم الغيب، وبالعالم الروحانية العليا فإنها عند ماتواجه لأول مرّة ملكاً لم تره من قبل، وذلك في مثل المكان الذي التقى النبي (فوق الجبل) لا بُدَّ أن يحصل لها مثل هذا الاضطراب، ولهذا زال ذلك الاضطراب عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في مابعد.

ثم إن الاضطراب والتعب الشديد قد تسببا في أن يتوجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى بيت «خديجة» عليها السّلام، وعندما دخل بيتها ووجدت على ملامحه آثار الاضطراب والتفكير سألته عن ماجرى له، فحدّثها بكل ما سمع ورأى وقصّ عليها ما كان من أمر جبرئيل معها، فعظمت «خديجة» سلام الله عليها، أمره، ودعت له، وقالت: إيشرفوا الله لا يخزيك الله أبداً.

ثم إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الذي كان يشعر بالجهد والتعب قال لزوجته الوفيّة «خديجة»: دثّرني... دثّرني. فدثّرتّه، فنام بعض الشيء.

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل:

لقد تحدّثنا في الصفحات الماضية عن «ورقة» وقلنا أنه كان ممن تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل وكان ابن عم خديجة. فعند ما سمعت «خديجة» زوجة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ما سمعته منه انطلقت إلى «ورقة» لتخبّره بما سمعته من زوجها الكريم، وشرحت له كلّ شيء من ماجرى له مع جبرئيل.

فقال «ورقة» في جواب ابنة عمه: إن ابن عمك لصادق... وإن هذا لبدء النبوة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر (أي الرسالة والنبوة)^(١).

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٩٥.

إن ما ذكرناه الى هنا هو في الحقيقة ملخص الروايات التاريخية المتواترة التي وصلت إلينا، والتي دُوّنت في جميع الكتب. بيداننا نلاحظ بين ثنايا هذه الحادثة أموراً لا تتفق مع مانعرفه من أنبياء الله ورُسُله العظام، كما أنها لا تتفق مع ما قرأناه إلى الآن عن حياة هذا النبي العظيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وما سنذكره الآن من هذه الزوائد إما يجب اعتباره من قبيل الاساطير التاريخية، أو أنّ علينا تأويله بنوع من التأويل. وإنا لنعجب قبل كل شيء من المفكر المصري الدكتور «هيكل» كيف سمح لنفسه وهو الذي تحدث في مقدمة كتابه عن مشكلة تسرب الاساطير الى التاريخ النبوي، وقال: بأنّ هناك من دسّ في السيرة النبوية، عن عداوة أو جهل، بعض الاكاذيب.

ولكنه مع ذلك ينقل هنا أموراً لأساس لها من الصحة أبدأً، في حين اعطى فريقاً من علماء الشيعة - كالمرحوم الطبرسي - ملاحظات مفيدة في هذا الصعيد.

وإليك في مايلي بعض هذه الاساطير والقضايا المختلفة (على أنها لم تكن جديرة بالاشارة أبدأً لولا أن بعض المحبّين الجهلاء، والأعداء الأذكياء ذكروها في كتبهم، وكرروها في دراساتهم.

١ - قالوا: إنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عند ما دخل منزل خديجة، كان يفكر في نفسه: لعلّ بصره خدعته، أو انه كاهن، او فيه جنون!!
ولكن لما قالت له خديجة: «إنّ الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، إنك تصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتصلّ الرحم» اطمأنّ، وزال عنه الشكّ والتردد، وألقى على «خديجة» نظر شكر ومودة، ثم طلب أن يُزَمَّلَ، فزَمِّلَ فنام!!^(١).

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٩٥: حياة محدّد: ص ١٣٤.

٢ - يقول الطبري وغيره من مؤرخي السيرة: ان النبي صلى الله عليه وآله لما سمع نداء يقول: «يا محمد أنت رسول الله» أصابه خوف شديد حتى أنه هَمَّ بأن يطرح نفسه من أعلى الجبل، فتبدى له (ملك الوحي) ومنعه عن ذلك!!!

٣ - ثم إن النبي صلى الله عليه وآله ذهب ليطوف بالكعبة بعد ذلك اليوم، فرأى «ورقة بن نوفل» وشرح لورقة ماجرى له مع جبرئيل، فقال له ورقة: «والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، وقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبتنه، ولتوذيتنه ولتخرجنه ولتقاتلنه» فأحس «محمد» بأن ورقة يصدقه، فاطمأن^(١).

بُطلانُ هذه المزاعم:

إن الذي نتصوره هو أن جميع هذه القصص مختلفة من الاساس، وقد دُست في التاريخ والتفسير عن قصدٍ وهدف، أو دخلت فيها عن غير ذلك. وذلك:

أولاً: لأننا لتقييم هذه المزاعم يجب ان نلقي نظرة فاحصة إلى تاريخ الأنبياء الماضين وسيرهم.

إن القرآن الكريم قصّ علينا قضاياهم، وسيرهم، وقد وردت في هذا المجال روايات وأخبار كثيرة.

وإننا لانجد أي أثر لمثل هذه القصص المشينة في حياة أي واحدٍ منهم. إن القرآن الكريم يقص علينا قصة بدء نزول (الوحي) على «موسى» بشكل كاملٍ وبيّن جميع التفاصيل في قصته عليه السلام ولا يذكر أي شيء من الخوف، والارتعاش، والوحشة والفرع، بحيث يحدث نفسه بالانتحار على أثر سماع الوحي!! مع أن أرضية الخوف والفرع في مجال «موسى» كانت متوفرة

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٣٨.

أكثر، لأنه سمع في ليلة ظلماء وهو في صحراء خالية نداء من الشجرة يخبره بأنه نبي مرسل.

ولكن موسى - كما يصرح القرآن الكريم، بهذه الحقيقة - حافظ على هدوئه، وسكونه، وعندما خاطبه الله تعالى بقوله: «أن ألقِ عصاك» القاها من فوره، وكان خوفه من ناحية العصى التي تبدلت إلى ثعبان مخيف، لا من جهة الإيحاء إليه. فهل يمكن، أو يجوز لنا أن نقول: كان «موسى» لحظة الوحي إليه مطمئناً هادئاً ساكناً، ولكن أفضل الانبياء والمرسلين اضطرب عند سماع كلام الملك، وفزع إلى درجة فُكّر في طرح نفسه من أعلى الجبل؟! هل هذا كلام معقول؟!!

لأرب أن روح محمد صلى الله عليه وآله مالم تكن مهياًة من جميع الجهات وبصورة كاملة لتلقي السرّ الالهيّ (النبوة) لا يمكن أن يمنّ عليه الربّ الحكيمُ بمنصب النبوة، ويختاره لمقام الرسالة، لأن الهدف الجوهريّ من ابتعاث الرُّسل، وإرسال الانبياء هو هداية الناس وإرشادهم.

ومن كان كذلك من حيث ضعف الروح ووهن النفس بهذه المرتبة بحيث يحدث نفسه بالإنتحار خوفاً^(١) وفزعاً كيف يمكن ان ينفذ إلى نفوس الناس ويؤثر فيهم؟!!

ثانياً: كيف يمكن أن يطمئن موسى بمجرد سماعه للنداء الالهيّ إلى أنه صادرٌ من جانب الله، فطلب من ربه من فوره أن يجعل أخاه هارون وزيراً له لأنه أفصح منه قولاً^(٢) بينما لا يطمئن سيد المرسلين وخاتمهم؟!!

ثالثاً: لقد كان «ورقة» مسيحياً حتماً، ولكنه عند ما أراد أن يزيل عن «محمد» الشك والإضطراب ذكر نبوة «موسى» عليه السلام وقال: قد جاءك الناموس الذي جاء موسى^(٣).

(٢) طه: ٢٩.

(١) كما نقل هيكلم في كتابه: «حياة محمد».

(٣) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٣٨ وقد نقل الرحوم المجلسي هذا العبارة عن المنتقى. ولكنه بلفظة

ألا يدلُّ هذا على أن ثمة يداً اسرائيلية وراء هذه الحبكة هي التي صاغت هذه القصة واختلقتها في غفلةٍ عما كان يدين به «ورقة» بطلُ القصة؟! كل هذا بغضّ النظر عن أن مثل هذه الأمور تتنافى والعظمة التي نعهدّها من النبيّ صلّى الله عليه وآله، ولا تنسجم معها أبداً، ويبدو أن كاتب «حياة محمّد» أدرك الى درجة ماخرافية هذه القصة ولذلك نجده ينقل بعض مواضعها بعد جملة: «كما يقولون».

وقد حارب ائمة الشيعة هذه الاساطير بكل قوة، وأبطلوها برمتها. فعندما يسأل زرارة الإمام الصادق عليه السّلام مثلاً: كيف لم يخف رسول الله صلّى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبَل الله ان يكون ممّا ينزغ به الشيطان:

قال الإمام عليه السّلام: «إن الله إذا اتخذ عبداً ورسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبَل الله عزوجلّ مثل الذي يراه بعينه»^(١). ويقول العلامة الشيعي الكبير المرحوم الطبرسي في تفسيره، في هذا الصدد: «إن الله لا يوحى الى رسوله إلا بالبراهين النيرة والآيات البينة الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفرغ، ولا يفرق»^(٢).

«عيسى» أيضاً ولكن لا وجود لذلك في صحيح البخاري وسيرة ابن هشام اللذين هما الأساس لهذه الامور.

(١) بحار الأنوار: ح ١٨ ص ٢٦٢ وفي الكافي: ج ١ ص ٢٧١ نظيره.

(٢) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٨٤.

متى نزل الوحي أولاً؟

لقد تعرّضَ يومُ مبعث رسول الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ للاختلاف من حيث التعيين والتحديد فهو مثل يوم ولادته ويوم وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ غير مقطوع به، من وجهة نظر المؤرخين وكتاب السيرة النبوية.

فلقد اتفق علماء الشيعة على القول بأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بُعث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب، وأن نزول الوحي عليه قد بدأ من ذلك اليوم نفسه.

بينما اشتهر عند علماء السنة أن رسول الإسلام قد أوتي هذا المقام العظيم في شهر رمضان المبارك .

ففي ذلك الشهر الفضيل كُلف «محمد» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من جانب الله تعالى بهداية الناس، وبُعث بالرسالة.

ولما كانت الشيعة تشايح عترة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأهل بيته الصادقين، وتعتقد بصحة ما يروونه ويقولون به اتباعاً لقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيهِمْ، في حديث الثقلين: «إنها لن يفترقا» فانهم اتبعوا- في تحديد يوم المبعث النبوي الشريف- القول المأثور- بنقل صحيح- عن عترة النبي المطهرين في

هذا المجال.

فقد روي عن أبناء الرسول وعترته الطاهرة أن عظيمَ هذا البيت وسيدَه (أي النبي) قد بُعِثَ في السابع والعشرين من شهر رجب، وهم في ذلك حجة. ولهذا لا يمكن الشك والتردد في صحة هذا القول وثبوته^(١).

نعم غاية ما يمكن الاستدلال به على القول الآخر هو تصريح القرآن الكريم نفسه بأن آيات القرآن نزلت في شهر رمضان، وحيث إن يوم بعثة النبي صلى الله عليه وآله كان هو بنفسه يوم بدء نزول الوحي، والقرآن عليه، لهذا يجب القول بان يوم البعثة الشريفة إنما كان في نفس الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم: أي شهر رمضان المبارك.

واليك فيما يأتي الآيات التي تدل على أن القرآن الكريم نزل في شهر رمضان:

١ - «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^(٢).

٢ - «حَمِّمُوا لَكُمْ الْقُرْآنَ وَأَلْمِنُوا بِهِ لَوْ كَانَ بِهِ غُلُبٌ لَّأَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ»^(٣) وتلك الليلة هي ليلة القدر التي قال عنها سبحانه: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»^(٤).

ما أجاب به علماء الشيعة:

و لقد أجاب مُحدِّثو الشيعة ومفسروهم عن هذا الاستدلال بطرق مختلفة نذكر طائفة منها هنا:

الجوابُ الأوَّلُ:

إن الآيات المذكورة إنما تدلُّ على أن القرآن نزل في شهر رمضان وبالذات في ليلة مباركة منه هي «ليلة القدر»، ولكنها لا تتعرض لذكر محل نزول هذه

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٨٩. (٢) البقرة: ١٨٥. (٣) الدخان: ١-٣. (٤) القدر: ١-٣.

الآيات، وأنها أين نزلت؟ وهي بالتالي لا تدل أبداً ومطلقاً على أنها نزلت في تلك الليلة على قلب رسول الله؟
فيحتمل أن يكون للقرآن نزولات متعددة إحداها نزول القرآن على رسول الله تدريجاً.

والآخر نزوله الدفعي من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور^(١).

وعلى هذا فما المانع من ان تكون بعض آيات القرآن (من سورة العلق) قد نزلت على النبي صلى الله عليه وآله في السابع والعشرين من شهر رجب. ثم نزل القرآن بصورته الجمعية الكاملة في شهر رمضان من مكان معين أسماه القرآن باللوح المحفوظ، إلى موضع آخر عُبر عنه في بعض الروايات بالبيت المعمور.

ويؤيد هذا الرأي قولُ الله تعالى في سورة الدخان: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» فإنَّ هذه الآية -بحكم رجوع الضمير فيها الى الكتاب- تصرح بأن الكتاب العزيز بأجمعه نزل في ليلة مباركة (في شهر رمضان)، ولا بدَّ أن يكون هذا النزول غير ذلك النزول الذي تحقق في يوم المبعث الشريف، لأن في يوم المبعث لم تنزل سوى آيات معدودة لا أكثر.

و خلاصة الكلام هي ان الآيات التي تصرح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليلة مباركة (ليلة القدر) لا يمكن أن تدل على أن يوم المبعث الذي نزلت فيه بضعُ آيات أيضاً كان في ذلك الشهر نفسه، لأنَّ الآيات المذكورة تدل على أن مجموع القرآن لا بعضه قد نزل في ذلك الشهر، في حين لم تنزل في يوم المبعث سوى آيات معدودة كما نعلم.

وفي هذه الصورة يحتمل أن يكون المراد من النزول الجمعي للقرآن هو نزول مجموع الكتاب العزيز في ذلك الشهر من «اللوح المحفوظ» إلى «البيت المعمور». وقد روى علماء الشيعة والسنة روايات وأخباراً بهذا المضمون، وبخاصة

(١) للتعرف على معنى اللوح المحفوظ راجع كتب التفسير.

الاستاذ الأزهري محمد عبدالعظيم الزرقاني الذي أورد روايات عديدة في هذا الصدد في كتابه (١).

الجواب الثاني:

وهو أمتن الاجوبة والردود على هذا القول.
فقد بذل الاستاذ الطباطبائي جهداً كبيراً لتوضيحه وبيانه في كتابه القيم؛
واليك خلاصته:

يقول العلامة الطباطبائي: إن قول الله تعالى إننا أنزلناه في شهر رمضان، المقصود منه هو نزول حقيقة القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وآله، لأن للقرآن مضافاً الى وجوده التدريجي، واقعية اطلع الله تعالى نبيه العظيم عليها في ليلة معينة من ليالي شهر رمضان المبارك (٢).

و حيث إن النبي الاكرم صلى الله عليه وآله كان قد عرف من قبل بجميع القرآن الكريم لذلك نزلت الآية تأمره بان لا يعجل بقراءته حتى يصدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً اذ يقول تعالى: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ» (٣).

وخلاصة هذا الجواب هي: أن للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً وهو الذي نزل على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله مرة واحدة في شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبي صلى الله عليه وآله في يوم المبعث، واستمر تنزله الى آخر حياته الشريفة على نحو التدرج.

الجواب الثالث: التفكيك بين نزول القرآن والبعثة

إن للوحي - كما أوضحنا ذلك في مبحث أنواع الوحي اجمالاً - مراتب

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ج ١ ص ٣٧.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) الميزان: ج ٢ ص ١٤ - ١٦.

ومراحل، يتمثل أول مراتبه في الرؤيا الصادقة التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله. والمرتبة الأخرى تمثلت في سماع النداء الغيبي الإلهي من دون وساطة ملك. وآخر تلك المراتب هو إن يسمع النبي كلام الله من ملك يبصره ويراه، ويتعرف عن طريقه على حقائق العوالم الأخرى.

وحيث أن النفس الانسانية لا تستطيع في الوهلة الأولى تحمّل مراتب (الوحي) جميعها دفعة واحدة بل لابد أن يتحملها تدريجاً، لهذا يجب القول بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد سمع يوم المبعث (اليوم السابع والعشرون من شهر رجب) النداء السماوي الذي يخبره بأنه رسول الله، فقط ولم تنزل في مثل هذا اليوم أية آية قط، وقد استمر الأمر على هذا المنوال مدة من الزمان. ثم بعد مدة بدأ نزول القرآن الكريم على نحو التدرج ابتداء من شهر رمضان.

و خلاصة هذا الجواب هي أن ابتعث الرسول صلى الله عليه وآله بالرسالة في شهر رجب لا يلزم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً.

وعلى هذا الأساس ما المانع من أن يُبعث رسول الله صلى الله عليه وآله في شهر رجب، وينزل القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس ذلك العام؟

ان هذه الاجابة وإن كانت لا توافق كثيراً من النصوص التاريخية (لأن كثيراً من المؤرخين صرحوا بأن الآيات الخمس من سورة العلق نزلت في يوم المبعث نفسه) إلا أن هناك - مع ذلك - روايات ذكرت قصة البعثة بسماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للنداء الغيبي، ولم تذكر شيئاً عن نزول قرآن أو آيات، بل هي تشرح الواقعة على النحو التالي إذ تقول:

في ذلك اليوم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله ملكاً يقول له: يا محمد إنك لرسول الله، وجاء في بعض الأخبار أنه سمع هذا النداء، فقط، ولم تذكر شيئاً عن مشاهدة الملك.

وللمزيد من التوضيح، والتوسع يُراجع «البحار» في هذا المجال^(١).

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٨٤ و ١٩٠ و ١٩٣ و ٢٥٣، الكافي: ج ٢ ص ٤٦٠، تفسير العياشي: ج ١،

على أن هذه الاجابة تختلف عن الإجابة الرابعة التي تقول بأن مبعث النبي صلى الله عليه وآله كان في شهر رجب، وكان نزول القرآن الكريم بعد انقضاء الدعوة السرية التي استغرقت ثلاثة أعوام.

الانبياء والبشارة برسول الله:

و ينبغي - استكمالاً لهذا الفصل من التاريخ النبوي - ان نلفت نظر القارئ الكريم الى ان الرسالة المحمدية المباركة، مما بشر به جميع الانبياء المتقدمين زمنياً على خاتم الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله.

ولقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك اذ قال الله تعالى:

«وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمْ إِنْ قَالُوا قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ»^(١).

و هذه الآية وإن كانت تكشف عن أصل عام و كلي وهو: وجوب تصديق اتباع النبي السابق للنبي اللاحق، إلا أن المصداق الأتم لها هو رسول الإسلام الكريم.

فيظهر من هذه الآية أن الله تعالى أخذ الميثاق المؤكد من جميع الانبياء أو من أصحاب الشرائع منهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وآله، ويدعوا أتباعهم إلى تصديقه واتباعه ونصرته.

روى الفخر الرازي عن امير المؤمنين علي عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا بَعَثَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ»^(٢).

ومما يؤيد هذا ان القرآن دعا اهل الكتاب إلى بيان ماقرأوه ووجدوه في

ص ٨٠، وهذا الجواب لا ينسجم فقط مع ما رواه البخاري من أن بعثة النبي رافقت نزول آيات من سورة العلق عليه. (١) آل عمران: ٨١. (٢) مفاتيح الغيب: ج ٢ ص ٥٠٧.

كتبهم حول رسول الإسلام للناس من دون كتمان واليك فيما يأتي طائفة من الآيات المصرحة بهذا الأمر:

١ - قال الله تعالى:

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ»^(١).

٢ - قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(٢).

٣ - وقال تعالى:

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(٣).

٤ - وقال سبحانه:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(٤).

ان القرآن الكريم يصرح بجلاء ان السيد المسيح (عليه السلام) اخبر عن رسول الإسلام ورسالته اذ يقول تعالى:

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ

(٢) البقرة: ١٧٤.

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٤) الاعراف: ١٥٧.

(٣) البقرة: ١٤٦.

بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ»^(١).

كما يتحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين تنكروا لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله عند ما بُعث وقد كانوا من قبل يخبرون عنه ويطلبون النصر به على أعدائهم اذ قال سبحانه:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ»^(٢).

بل و نخبرنا القرآن الكريم بأن إبراهيم عليه السلام يوم أحل زوجته وولده اسماعيل بارض مكة دعا قائلاً:

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»^(٣).

وقد انطبقت هذه الأوصاف على رسول الله صلى الله عليه وآله إذ يصفه القرآن الكريم بقوله:

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»^(٤).

محمد خاتم الانبياء:

واستكمالاً لهذا البحث ينبغي أيضاً أن نشير إلى أبرز ناحية في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله ونبرته وهي مسألة الخاتمية.

فان القرآن الكريم صرح في آيات عديدة بكون رسول الله محمد صلى الله عليه وآله خاتم النبيين، وشريعته خاتمة الشرائع، فلانبيي بعده، ولارسالة بعد رسالته.

(١) الصف: ٦. (٢) البقرة: ٨٩. (٣) البقرة: ١٢٩. (٤) آل عمران: ١٦٤.

وها نحن ندرج ابرز الآيات الواردة في هذا المجال:

١ - قال تعالى:

«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا»^(١).

٢ - قال سبحانه:

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»^(٢).

٣ - وقال سبحانه:

«وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ»^(٣).

٤ - وقال تعالى:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^(٤).

و الآياتُ الثلاثُ الأخيرةُ تفيدُ بأن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله عامة وعالمية وأبدية لأنه في غير هذه الحالة وفي غير هذه الصورة لن يكون نبياً للناس كافة، وللعالمين جميعاً. ولن يكون نذيراً لقومه ولن بلغه نداؤه.

هذا وقد صرح النبي صلى الله عليه وآله نفسه في أحاديث كثيرة بهذا الموضوع وهو الصادق المصدق.

فعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَبِي خُتَمُ النَّبِيِّينَ»^(٥).

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) الفرقان: ١.

(٣) الانعام: ١٩.

(٤) سبأ: ٢٨.

(٥) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٢٨.

١٣ ما سبقني أحد

أول من آمنَ بالنبيِّ من الرجال والنساء:

لقد انتشر الإسلام في العالم بصورة تدريجية، ويوصف الذين بادروا الى الإيمان بالرسالة الإسلامية والمساعدة على نشرها قبل غيرهم بـ«السابقين».

وقد كان السبق الى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله في صدر الإسلام معياراً للفضل ولهذا يجب أن ندرس هذا الموضوع في ضوء المصادر الصحيحة، ونتعرف على من سبق إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية من الرجال، ومن النساء.

من النساء: «خديجة»

إن من المسلم به تاريخياً أن «خديجة» كانت أول امرأة آمنت برسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يخالف في هذا أحد^(١)، ونحن هنا ننقل مستنداً تاريخياً مهماً واحداً ذكره المؤرخون نقلاً عن إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وآله، مكتفين به رعاية للاختصار.

تقول عائشة: ما غرتُ على نساء النبي صلى الله عليه وآله إلا على «خديجة» وإني لم أدركها، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله لا يكاد يخرج

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٤٠.

من البيت حتى يذكر «خديجة» فيحسن الشاء عليها، فذكرها يوماً من الايام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال:

«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني في ما لها إذ حرمني الناس ورزقني الله منا اولاداً إذ حرمني اولاد الناس»^(١).

و مما يدل أيضاً على سبق خديجة في الإيمان برسول الله كل نساء العالم جمعاء ماجرى في قضية بدء الوحي، ونزول القرآن، لأن النبي صلى الله عليه وآله عند ما انحدر من غار «حراء» واخبر زوجته «خديجة» بما جرى له واجهه - رأساً - ايمان زوجته به وقبولها لكلامه، وتصديقها برسالته، تصريحاً وتلويحاً.

هذا مضافاً الى أنها كانت قد سمعت من قبل أخباراً تتعلق بنبوته ومستقبل رسالته من كهنة العرب وأهل الكتاب، وهذه الأخبار وامانة فتى قريش وصدقه الذي اشتهر به هي التي دفعت بها إلى أن تتزوج بالفتى الهاشمي (محمد).

أقدم الرجال اسلاماً: «علي»

إن المشهور المقارب للمتفق عليه بين المؤرخين، سنة وشيعة، هو أن «علياً» كان اول من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله من الرجال. ونرى في مقابل هذا القول المشهور أقوالاً أخر نادرة قد نقل ناقلوها ما يخالفها أيضاً.

فثلاً يقال: إن زيد بن حارثة ربيب رسول الله وابنه بالتبني، أو أبو بكر كان أول من أسلم، ولكن دلائل عديدة (نذكر بعضها هنا على سبيل الاختصار) تشهد على خلاف هذين القولين.

(١) صحيح مسلم، ج ٧ ص ١٣٤، صحيح البخاري: ج ٥ ص ٣٩، اسد الغابة لابن الأثير الجزري: ج ٥ ص ٤٢٨، بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٨.

واليك بعض هذه الدلائل:

١ - عليّ ترقى في حجر النبي

لقد تلقى عليّ عليه السّلام تربيته في حجر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ونشأ وترعرع في بيته منذ طفولته، وكان النبي صلّى الله عليه وآله يجتهد في تربيته والعناية به كالوالد الرحيم.

قال عامّة المؤرخين وكتاب السيرة بالاتفاق: إنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة (قبل بعثة النبي) وكان أبوطالب ذاعياً كثيراً، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله للعباس عمّه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أباطالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفها عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى اتيا أباطالب فقالا له: إننا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه (إلى ان قال:): فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله علياً فضمّه اليه، وأخذ العباس جعفرأ فضمّه إليه فلم يزل عليّ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً فاتبعه علي رضي الله عنه وآمن به وصدقه^(١).

في هذه الصورة يجب أن نقول بأنّ علياً عليه السّلام انتقل إلى بيت النبي وهو دون الثامنة، لأنّ الغرض من أخذ النبي إياه من أبيه «أبي طالب» هو التخفيف عن كاهل زعيم مكة (أبي طالب)، ومن الواضح أنّ صبيّاً في مثل هذا السن (دون الثامنة) مضافاً إلى أنّ فصله عن والديه أمرٌ في غاية الصعوبة، لن يكون لأخذه و تكفّله أيُّ أثر هامّ في وضع أبيه «أبي طالب» المعيشي.

و على هذا يجب أن نفترض له عليه السّلام عمراً يكون لأخذه فيه من قبل النبي تأثيراً معتداً به في وضع أبيه الإقتصادي والمعيشي.

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٤٦، البداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٥.

فكيف يمكن القول - والحال هذه - أن أباعد عن البيت النبوي مثل «زيد بن حارثة» وغيره اطلعوا على أسرار الوحي، بينما جهل ابن عم النبي صلى الله عليه وآله واقرب الناس إليه، والذي كان معه في أكثر الأوقات بما أتى به صلى الله عليه وآله وما نزل عليه.

إن غرض النبي صلى الله عليه وآله من تربية الإمام علي وتكفله إياه كان إلى حد كبير هو أداء ما أسدى إليه أبوطالب من خدمات، ولم يكن ثمة شيء أحب إلى رسول الله من أن يهدي أحداً إلى الصراط المستقيم، فكيف يمكن أن يقال - والحال هذه - أن رسول الله صلى الله عليه وآله حرم ابن عمه الذي كان يتمتع بذكاء باهر وضمير يقظ، من هذه النعمة الكبرى.

إن من الأفضل أن نسمع هذا الأمر من لسان «علي» نفسه، فقد بين عليه السلام في الخطبة القاصعة منزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقربه إليه هكذا:

«وَلَقَدْ عَلِمْتُم مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةَ الْخَصِيصَةَ، وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتَفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيَمْسُنِي جَسَدَهُ، وَيُسْمُنِي عِرْقَهُ (عرقه)... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ إِثْرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً وَيَأْمُرُنِي بِالِإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يَجَاوِرُنِي فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ فَارَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ، وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نَوْرَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَاتِ وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ»^(١).

وجاء في تاريخ الطبري عن ابن اسحاق قال: كان أول ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وصلى معه وصدق بما جاءه من عند الله «علي بن ابي طالب» عليه السلام وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان ممّا انعم الله به على علي بن ابي طالب عليه السلام انه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) نهج البلاغة: ج ٢ ص ١٨٢، وفي هذه الخطبة نفسها يقول: اللهم إني أول من أناب وسمع و أجاب لم يسبقني إلا رسول الله بالصلاة.

قبل الإسلام^(١).

٢ - عليّ وخديجة يقيمان الصلاة مع النبي:

ينقل ابن الاثير في «أسد الغابة»، وابن حجر في «الإصابة» عند ترجمة «عفيف الكندي» وكثير من علماء التاريخ القصة التالية عنه، بأنه قال:
 كنت إمراً تاجراً فقدمتُ «منى» أيام الحج، وكان العباس بن عبدالمطلب امرء تاجراً فأتيته أبتاع منه وأبيعه، قال: فبينما نحن إذ خرج رجلٌ من خباء يصلي فقام تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلي، وخرج غلام يصلي معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين، إن هذا الدين ماندرني به؟ فقال: هذا محمد بن عبدالله يزعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستُفتح عليه، وهذه امرأته «خديجة بنت خويلد» آمنت به وهذا الغلام ابن عمه «علي بن أبي طالب» آمن به قال عفيف: فليتي كنت رابعهم^(٢).

وهذه الواقعة ينقلها ويروها حتى الذين يقصرون في رواية فضائل الإمام عليّ وكتابتها، وفي امكان القارئ الكريم ان يقف على هذه القصة في المصادر التالية على وجه التفصيل.

٣ - أنا الصديق الأكبر:

تلاحظ هذه العبارة ونظائرها كثيراً، في خطب الإمام عليّ عليه السلام وكلماته فهو يكرر العبارات التالية بكثرة:
 «أنا عبْدُالله، وأخو رسول الله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر، ولقد صليتُ مع رسول الله قبل الناسِ بسبعِ سنين، وأنا أول من

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٥٧.

(٢) الإصابة: ج ٢ ص ٤٨٠، تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٥٧. الكامل: ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨، اعلام الوری:

ص ٢٥، اسد الغابة: ج ٣ ص ٤١٤.

صَلَّى مَعَهُ»^(١).

٤ - أَوْلَكُمْ إِسْلَامًا: عَلِيٌّ

و لقد وردت أحاديث متواترة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبِتَعَابِيرٍ مُتَنَوِّعَةٍ قَالَ فِيهَا:

«أَوْلَكُمْ وَارِدًا عَلَيَّ الْحَوْضَ، أَوْلَكُمْ إِسْلَامًا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»^(٢).

و عند ما يدرس المنصف المحايد هذه الأحاديث، يقطع بأسبقية الإمام عليّ إلى الإسلام، وتقدمه على غيره في الإيمان بالدعوة المحمّدية، ولا يختار القولين الآخرين اللذين لا يذهب إليهما إلا الأقلية.

فإن ما يناهز الستين شخصاً من الصحابة والتابعين يؤيدون القول الأول (أي أن عليّاً أول القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً) وحتى الطبري نفسه الذي شكك في هذا القول، واكتفى بنقله دون اختياره وتأكيدده، روى في ج ٢ ص ٦٠ بأن «ابن سعد» سأل أباه قائلاً: أكان أبوبكر أولكم إسلاماً، فقال: لا ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين.

و من غريب الأمر أن مؤرخاً كبيراً كابن كثير يتنكر لهذه الحقيقة الساطعة فقد ذكر في ج ٧ ص ٣٣٤ من كتابه «البداية والنهاية» حديثاً صحيحاً بإسناد الإمام أحمد الترمذي في إسلام أمير المؤمنين وأنه أول من أسلم وصلى ثم أوقفه بقوله: وهذا لا يصح من أي وجه كان روي عنه، وقد ورد في أنه أول من أسلم من هذه الأمة أحاديث كثيرة لا يصح منها شيء... إلخ.

وقد تصدى العلامة المحقق الاميني رحمه الله للرد على هذا المقال بالتفصيل ونظراً لأهمية ما كتبه العلامة الاميني وما احتوى عليه من نصوص تاريخية نسرده هنا مع مافيه من تكرار بسيط لبعض ما ذكرناه.

(١) خصائص النسائي: ص ٣ و سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٥٧، مستدرک الحاکم: ج ١ ص ١١٢،

تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٥٦ وغيرها. (٢) يراجع مصادر هذا الحديث في الفدير: ج ٣ ص ٢٢٠.

يقول العلامة الاميني:

نُسائل هذا الرَّجُل لِمَ لا يصح شيء منها من أي وجه كان؟! والطرق صحيحة، والرَّجال ثقات، والحفاظ حكوا بصحة، وأرباب السير أطبقوا عليه، وكان من المتسالم عليه بين الصَّحابة الأوَّلِين والتابعين لهم بإحسان. ونحن لو نقتصر على كلمتنا هذه يحسبها القارئ دعوى مجردة لدعوى ابن كثير (أعاذنا الله عن مثلها) وتخفى عليه جليَّة الحال فيهمنا ذكر نزر ممَّا يدلُّ على المدعى وإن لم يسعنا إيراد كثير منه روماً للاختصار.

النصوص النبوية:

١ - قال صلى الله عليه وآله: أوَّلُكم وارداً - وروداً - على الحوض أوَّلُكم إسلاماً عليُّ بن أبي طالب.

أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١٣٦ وصححه م - والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ ويوجد في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٧. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

وفي لفظ: أوَّل هذه الأمة وروداً على الحوض أوَّلها إسلاماً عليُّ بن أبي طالب، رضي الله عنه. السيرة الحلبیة ١ ص ٢٨٥. سيرة زيني دحلان ١ ص ١٨٨ هامش الحلبیة.

وفي لفظ: أوَّل الناس وروداً على الحوض أوَّلهم إسلاماً عليُّ بن أبي طالب مناقب الفقيه ابن المغازلي. مناقب الخوارزمي.

٢ - قال صلى الله عليه وآله لفاطمة: زوجتك خير أمتي أعلمهم علماً، وأفضلهم حلاً وأوَّلهم سلماً. راجع مامرّ ص ٩٥.

٣ - قال صلى الله عليه وآله لفاطمة: إنَّه لأوَّل أصحابي إسلاماً. أو: أقدم أمتي سلماً. حديث صحيح راجع ص ٩٥.

٤ - أخذ صلى الله عليه وآله بيد علي، فقال: إنَّ هذا أوَّل من آمن بي، وهذا أوَّل من يُصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر. راجع الجزء الثاني

ص ٣١٣، ٣١٤.

٥ - عن أبي أيوب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لقد صلت الملائكة عليّ وعلى علي سبع سنين لأننا كنا نصليّ وليس معنا أحدٌ يصليّ غيرنا.

مناقب الفقيه ابن المغازلي باسنادين م - أسد الغابة ٤: ١٨ ومناقب الخوارزمي وفيه: ولمّ ذلك يارسول الله؟ قال: لم يكن معي من الرجال غيره. كتاب الفردوس للديلمي. شرح ابن أبي الحديد عن رسالة الاسكافي ٣ ص ٢٥٨. فرائد السمطين الباب ٤٧.

٦ - ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وآله: إنّ أوّل من صلى معي عليّ. فرائد السمطين الباب ٤٧ بأربع طرق.

٧ - معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عليّ! اخصمك بالنبوة ولانبوة بعدي، وتخصم الناس بسبع ولا يُجحدك فيه أحدٌ من قريش، أنت أوّهم ايماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

٨ - أبوسعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ - وضرب بين كتفيه -: يا عليّ لك سبع خصال لا يُجحدك فيهنّ أحدٌ يوم القيامة؛ أنت أوّل المؤمنين بالله ايماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

٩ - من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند الشعبي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعليّ عليه السّلام: هذا أوّل من آمن بي وصدّقني وصلى معي. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

١٠ - إنّ أبا بكر وعمر خطبا فاطمة فردّهما رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: لم أوّمر بذلك. فخطبها عليّ فزوّجه إياها وقال لها: زوّجتك أقدّم الأُمَّة إسلاماً. روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم: أسماء بنت عميس وأمّ أيمن وابن عباس وجابر بن عبد الله. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٧.

كلمات امير المؤمنين عليه السّلام:

١ - قال عليه السّلام: أنا عبد الله، وأخو رسول الله، وأنا الصّديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ مفترى، ولقد صلّيت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه.

إسناده من طريق ابن أبي شيبة والنسائي و ابن ماجة والحاكم والطبري^(١) صحيح رجاله ثقات، راجع الجزء الثاني من كتابنا ٣١٤.

٢ - قال عليه السّلام: أنا أوّل رجل أسلم مع رسول الله صلّى الله عليه وآله.

أخرجه أبو داود بإسناده الصحيح كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

٣ - قال عليه السّلام: أنا أوّل من أسلم مع النبيّ صلّى الله عليه وآله.

أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٤ ص ٢٣٣.

٤ - قال عليه السّلام أنا أوّل من صلّى مع رسول الله صلّى الله عليه وآله.

أخرجه أحمد، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رجاله رجال

الصحيح غير حبة العرني وقد وثق. وأخرجه أبو عمرو في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨.

وابن قتيبة في «المعارف» ص ٧٤ من طريق أبي داود عن شعبة عن سلمة بن

كهيل عن حبة عنه عليه السّلام. والإسناد صحيح رجاله ثقات.

٥ - قال عليه السّلام أسلمت قبل أن يسلم الناس بسبع سنين. الرّياض

النضرة ٢ من ١٥٨.

٦ - قال عليه السّلام: عبادت الله مع رسول الله صلّى الله عليه وآله سبع

سنين قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة. مستدرک الحاكم ٣ ص ١١٢.

٧ - قال عليه السّلام: عن حكيم مولى زاذان قال: سمعت عليّاً يقول:

صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجد ولا نركع، وأوّل صلاة ركعنا فيها

صلاة العصر، شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

(١) في تاريخه ٢ ص ٢١٣.

٨ - قال عليه السّلام: عبدت الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأُمَّة خمس سنين. الإستيعاب ٢ ص ٤٤٨. الرّياض النّضرة ٢ ص ١٥٨. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٨.

٩ - قال عليه السّلام: آمنت قبل الناس سبع سنين. خصائص النسائي ص ٣.

١٠ - قال عليه السّلام: ما عرف أحداً من هذه الأُمَّة عبد الله بعد نبينا غيري، عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأُمَّة تسع سنين. خصائص النسائي ص ٣.

١١ - من خطبة له عليه السّلام يوم صفين: وابن عمّ نبيّكم معكم بين أظهركم يدعوكم إلى طاعة ربّكم، ويعمل بسنة نبيّكم صلى الله عليه، فلا سواء من صلى قبل كلّ ذكركم يسبقني بصلاتي مع رسول الله. كتاب نصر ص ٣٥٥. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٥٠٣.

١٢ - قال عليه السّلام: اللهمّ لا أعرف عبداً من هذا الأُمَّة عبدك قبلي غير نبيّك [قاله ثلاث مرّات] ثمّ قال: لقد صلّيت قبل أن يُصلّي الناس. وفي لفظ: قبل أن يُصلّي أحدٌ. أخرجه أحمد، أبو يعلى، البزار، الطبراني، الهيثمي في المجمع ٩ ص ١٠٢. وقال: إسناده حسن. شيخ الإسلام الجويني في الفرائد الباب ٤٨.

١٣ - من كتاب له عليه السّلام كتبه إلى معاوية: إنّ أولى الناس بأمر هذه الأُمَّة قديماً وحديثاً أقرها من رسول الله، وأعلمها بالكتاب، وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً. كتاب صفين لابن مزاحم ص ١٦٨ ط مصر.

١٤ - في حديث عنه عليه السّلام: لا والله إن كنت أوّل من صدّق به فلا أكون أوّل من كذب عليه. المحاسن والمساوي ١ ص ٣٦. تاريخ القرماني هامش الكامل لابن الأثير ١ ص ٢١٨.

١٥ - قال عليه السّلام: بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء.

مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢. تاريخ القرماني ١ ص ٢١٥. الصواعق ٧٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي ١١٢. إسعاف الراغبين ١٤٨.

١٦ - من كتاب كتبه عليه السّلام إلى معاوية: إنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كنا أهل البيت أوّل من آمن به؟ وصدّق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً مجرّمة (أي كاملة) وما يعبد الله في ربيع ساكن من العرب غيرنا. كتاب صفّين لابن مزاحم ص ١٠٠.

١٧ - قال عليه السّلام يوم صفّين مخاطباً أصحاب معاوية: ويحكم أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله، وأوّل من أجاب إليه. كتاب نصر ٥٦١.

١٨ - قالت معاذة بنت عبد الله العدويّة: سمعت عليّ بن أبي طالب على منبر رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر. راجع الجزء الثاني ص ٣١٤.

١٩ - قال عليه السّلام في خطبة خطبها في معسكر صفّين: أتعلمون أنّ الله فضّل في كتابه السابق على المسبوق، وأنه لم يسبقني الله ورسوله أحدٌ من الأئمّة؟! قالوا: نعم. راجع الجزء الأوّل ص ١٩٥.

٢٠ - قال عليه السّلام صلّيت مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ثلاث سنين قبل أن يُصلّي معي أحدٌ من الناس. أخرجه أحمد باسنادين.

٢١ - قال عليه السّلام يوم الشورى في حديث أسلفناه: أمنكم أحدٌ وحّد الله قبلي؟ قالوا: لا. أمنكم أحدٌ صلّى القبليتين غيري؟ قالوا: لا. راجع ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٣، وهذه الفقرة من الحديث عدّها ابن أبي الحديد ممّا استفاضت به الروايات.

٢٢ - مرّ في الجزء الثاني ص ٢٥ في أبيات له عليه السّلام كتبها إلى معاوية: سبقتكم إلى الإسلام طراً غلاماً ما بلغت أوان حلمي

٢٣ - ذكر ابن طلحة الشافعي في مطالب السئول ص ١١ له عليه السّلام:

أنا أخو المصطفى لاشكّ في نسي به رُبيت و سبطاه هما ولدي صدّفته وجميع الناس في بُهم من الضلالة والإشراك والنكد

قال: قال جابر: سمعت علياً يُنشد بهذا ورسول الله يسمع: فتبسم رسول الله وقال: صدقت يا علي؟

كلمة الإمام السبط الحسن عليه السلام:

٢٤ - من خطبة للإمام الحسن عليه السلام في مجلس معاوية قوله: أنشدكم الله أيها الرهط؟ أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما؟ وأنت يا معاوية بهما كافر، تراها ضلالة، وتعبد البلات والعزى غواية؛ وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما: بيعة الفتح وبيعة الرضوان؟ وأنت يا معاوية بإحدهما كافر، وبأخرى ناكث. وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً؟! وإنك يا معاوية وأباك من المؤلفّة قلوبهم - شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ١٠١.

٢٥ - وفي خطبة له عليه السلام مرّت في ج ١ ص ١٩٨: فلما بعث الله محمّداً للنبيّة، واختاره للرّسالة، وأنزل عليه كتابه ثمّ أمره بالدعاء إلى الله، فكان أبي أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدّق الله ورسوله صلى الله عليه وآله وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيّه المرسل: «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه» فجدي الذي على بينة من ربه، وأبي الذي يتلوه وهو شاهدٌ منه.

رأي الصحابة والتابعين في أوّل من أسلم

١ - أنس بن مالك قال: نبيّ (بُعث) النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الإثنين وأسلم عليّ يوم الثلاثاء. وفي لفظ له: بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الإثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء.

أخرجه الترمذي في جامعه ٢ ص ٢١٤. الطبراني. الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٢. ابن عبد البر في الاستيعاب ٣ ص ٣٢. ابن الأثير في جامع الأصول كما في تلخيصه تيسير الوصول ٣ ص ٢٧١. الجويني في فرائد السمطين الباب

٤٧. وأوعز إليه العراقي في التقريب ١ ص ٨٥. ويوجد في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨. تذكرة السبط ٦٣. السراج المنير شرح الجامع الصغير ٢ ص ٤٢٤. شرح المواهب ١ ص ٢٤١.

٢ - بُريدة الأسلمي قال: أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الإثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء. أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٢ وصححه هو وأقره الذهبي.

٣ - زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله عليّ بن أبي طالب. تاريخ الطبري بإسنادين صحيحين رجالهما ثقات. مسند أحمد ٤ ص ٣٦٨. مستدرک الحاكم ٤ ص ٣٣٦ وصححه هو وأقره الذهبي. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٤ - زيد بن أرقم قال: أوّل من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ.

أخرجه أحمد والطبراني كما في مجمع الهيثمي ٩ ص ١٠٣ وقال: رجال أحمد رجال الصحيحين. أبو عمرو في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٩.

٥ - زيد بن أرقم قال: أوّل من آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب. الاستيعاب ٢ ص ٤٥٩.

٦ - عبد الله بن عباس قال: أوّل من صلى عليّ. جامع الترمذي ٢ ص ٢١٥. تاريخ الطبري ٢ ص ٢٤١ بإسناد صحيح.

الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

٧ - عبد الله بن عباس قال: لعليّ أربع خصال ليست لأحد: هو أوّل عرّتي، وأعجميّ صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله. مستدرک الحاكم ٣ ص ١١١. الاستيعاب ٢ ص ٤٥٧.

٨ - عبد الله بن عباس قال مجاهد: إنّه قال: أوّل من ركع مع النبيّ صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب فنزلت فيه هذه الآية: وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. تذكرة السبط ٨.

٩ - عبدالله بن عباس قال في خطبة له: إن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله وصهره وأول ذكر صلى معه.

كتاب صفين لابن مزاحم ٣٦٠. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٥٠٤. جمهرة الخطب ١ ص ١٧٥.

١٠ - عبدالله بن عباس قال: فرض الله تعالى الإستغفار لعلي في القرآن على كل مسلم بقوله تعالى: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ». فكلُّ من أسلم بعد علي فهو يستغفر لعلي. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

١١ - عبدالله بن عباس قال: أول من أسلم علي بن أبي طالب.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢.

١٢ - عبدالله بن عباس قال: كان علي أول من آمن من الناس بعد خديجة رضي الله عنها.

الإستيعاب ٢ ص ٥٧ وقال: قال أبو عمرو رضي الله عنه: هذا إسنادٌ لامطعن فيه لأحد لصحته وثقة نقلته. وصححه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢.

١٣ - كان ابن عباس بمكة يُحدِّث على شفير زمزم ونحن عنده فلما قضى حديثه قام إليه رجلٌ فقال: يا ابن عباس؟ إنني امرؤ من أهل الشام من أهل حمص إنهم يتبرؤون من علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ويلعنونه. فقال: بل لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً. ألبعد قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وإنه لم يكن أول ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله؟ وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر؟ قال الشامي: إنهم والله ما ينكرون قرابته وسابقتها غير أنهم يزعمون أنه قتل الناس. الحديث. المحاسن والمساوي للبيهقي ١ ص ٣٠.

١٤ - عفيف قال: جئت في الجاهلية إلى مكة وأنا أريد أن ابتاع لأهلي من ثيابها وعطرها فأتيت العباس بن عبدالمطلب وكان رجلاً تاجراً فأنا عنده جالسٌ

حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم قام مستقبل الكعبة ثم لم البث إلا يسيراً حتى جاء غلامٌ فقام على يمينه، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى جاءت امرأةٌ فقامت خلفهما، فركع الشابُ فركع الغلام والمرأة، فرفع الشابُ فرفع الغلام والمرأة، فسجد الشابُ فسجد الغلام والمرأة فقلت: يا عباس؟ أمرٌ عظيمٌ. قال العباس: أمرٌ عظيمٌ، أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا. قال: هذا محمد بن عبد الله ابن أخي. أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي بن أخي. أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته، أن ابن أخي هذا أخبرني أن ربّه رب السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

خصائص النسائي ٣. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١. الرياض النضرة ٢ ص ١٥٨. الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩. عيون الأثر ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٨.

١٥ - سلمان الفارسي قال: أول هذه الأمة وروداً على نبيها الحوض أولها إسلاماً علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢ وقال: رجاله ثقات. وعدّه الإسكافي في رسالته على العثمانيّة. وأبو عمرو في الإستيعاب. والعراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥. والقسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥ ممن روى أن علياً أول من أسلم.

١٦ - أبورافع قال: صلى النبي صلى الله عليه وآله أول يوم الاثنين وصلت خديجة آخره وصلى علي يوم الثلاثاء من الغد.

أخرجه الطبراني كما في شرح المواهب ١ ص ٢٤٠. عيون الأثر ١ ص ٩٢. وتجده وسابقه في الرياض النضرة ٢ ص ١٥٨. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

١٧ - أبو رافع قال: مكث علي يصلي مستخفياً سبع سنين وأشهرات قبل أن يصلي أحد. أخرجه الطبراني. المهيثم في المجمع ٩ ص ١٠٣. الجويني في

الفرائد ب٤٧.

١٨ - أبوذر الغفاري، عدّ ممن روى أنّ عليّ بن أبي طالب أوّل من أسلم.
الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. التقريب و شرحه ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيّة ١
ص ٤٥.

١٩ - خباب بن الأرت قال: رأيت عليّاً يُصليّ قبل الناس مع النبيّ وهو
يومئذ بالغ مستحكم البلوغ. رسالة الإسكافي. وعدّ ممن روى أنّ عليّاً أوّل من
أسلم في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والمواهب اللدنيّة ١ ص ٤٥.

٢٠ - المقداد بن عمرو الكندي، ممن روى أنّ عليّاً أوّل من أسلم كما في
الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والتقريب و شرحه ١ ص ٨٥. والمواهب اللدنيّة ١ ص ٤٥.

٢١ - جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: بُعث النبيّ صلى الله عليه وآله يوم
الإثنين وصلىّ عليّ يوم الثلاثاء. الطبري ٢ ص ٢١١. الكامل لابن الأثير ٢
ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨، وعدّه أبو عمرو والعراقيّ والقسطلاني
ممن روى أنّ عليّاً أوّل من أسلم.

٢٢ - أبوسعيد الخدري روى إنّ عليّ بن أبي طالب أوّل من أسلم.
الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. شرح التقريب ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيّة ١
ص ٤٥.

٢٣ - حذيفة بن اليمان قال: كنّا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعليّ من
أبناء أربع عشرة سنة قائمٌ يصليّ مع النبيّ ليلاً ونهاراً، وقريش يومئذ تسافه
رسول الله صلى الله عليه وآله ما يذبّ عنه إلاّ عليّ. شرح ابن أبي الحديد ٣
ص ٢٦٠.

٢٤ - عمر بن الخطاب قال عبد الله بن عباس: سمعت عمرو عنده جماعة
فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر: أمّا عليّ فسمعت رسول الله: يقول فيه
ثلاث خصال، لوددت أن تكون لي واحدة منهنّ، وكانت أحبّ إليّ ممّا طلعت
عليه الشمس، كنت أنا وأبوعبيدة وأبوبكر وجماعة من أصحابه إذ ضرب النبيّ
صلى الله عليه وآله على منكب عليّ رضي الله عنه فقال له: يا عليّ؟ أنت أوّل

- المؤمنين إيماناً، وأوّل المسلمين إسلاماً، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى .
رسالة الإسكافي . مناقب الخوارزمي . شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨ .
- ٢٥ - عبدالله بن مسعود قال: أوّل حديث علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنني قدمت مكة مع عمومة لي (وذكر مثل حديث عفيف المذكور ص ٢٢٦) رسالة الإسكافي .
- ٢٦ - أبو أيوب الأنصاري، أخرج الطبراني عنه أنّه قال: أوّل الناس إسلاماً عليّ بن أبي طالب . شرح التقريب ١ ص ٨٥ . شرح الزرقاني ١ ص ٢٤٢ .
- ٢٧ - أبو مرزم يعلى بن مرة، عدّه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال: إنّ عليّاً أوّل الناس إسلاماً .
- ٢٨ - هاشم بن عتبة المرقال قال: أنت يا أمير المؤمنين! أقرب الناس من رسول الله رحماً، وأفضل الناس سابقةً وقدماً . كتاب نصره ١٢٥ . جمهرة الخطب ١ ص ١٥١ .
- ٢٩ - في كلام هاشم بن عتبة يوم صفّين: إنّ صاحبنا هو أوّل من صلى مع رسول الله، وأنقذه في دين الله، وأولاه برسول الله .
- كتاب نصره ٤٠٣ . تاريخ الطبري ٦ ص ٢٤ . الكامل لابن الأثير ٣ ص ١٣٥ . وقال هاشم يوم صفّين:
- مع ابن عمّ أحمد المعلّى فيه الرّسول بالهدى استهلا
أوّل من صدّقه وصلّى فجاهد الكفّار حتّى أبلى^(١)
- ٣٠ - مالك بن الحارث الأشتر قال في خطبة له: معنا ابن عم نبيّنا وسيف من سيوف الله عليّ بن أبي طالب، صلى مع رسول الله لم يسبقه إلى الصلاة ذكر، حتّى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة، فقيه في دين الله، عالمٌ بحدود الله .
- كتاب نصره ٢٦٨ . شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٨٤ . جمهرة الخطب ١

(١) كتاب صفين لابن مزاحم: ٣٧١ ط مصر .

ص ١٨٣.

٣١ - عدّي بن حاتم قال في خطبة له مخاطباً معاوية: ندعوك إلى أفضل الأُمَّة سابقه، وأحسنها في الإسلام آثاراً.

كتاب نصر ٢٢١. تاريخ الطبري ٦ ص ٢. شرح ابن أبي الحديد ص ٣٤٤. وفي لفظ ابن الأثير في الكامل ٣ ص ١٢٤: أنّ ابن عمّك سيد المسلمين أفضلها سابقه.

٣٢ - عدّي بن حاتم قال في خطبة أخرى له: إن كان له «لعلّي» عليكم فضلٌ فليس لكم مثله فسلموا وإلا فنازعوا عليه، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة؟ أنه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام؟ إنه لأخونبي الله والرأس في الإسلام. الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣.

٣٣ - محمد بن الحنفية قال سالم بن أبي الجعد قلت له: أبوبكر كان أوّلم إسلاماً؟ قال: لا. الاستيعاب ٢ ص ٤٥٨. إذا ثبت أنّ أبا بكر لم يكن أوّل الناس إسلاماً فعليّ عليه السّلام هو المتعيّن سبق إسلامه.

٣٤ - طارق بن شهاب الأحمسي في كلام له: ثمّ قلت: ادع عليّاً وهو أوّل المؤمنين ايماناً بالله وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه، هذا أعظم، الحديث. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٧٦.

٣٥ - عبدالله بن هاشم المرقال قال في خطبة له: يا أيها الناس! إنّ هاشماً جاهد في طاعة ابن عمّ رسول الله، وأوّل من آمن به؛ وأفقههم في دين الله. كتاب نصر ٤٥٥.

٣٦ - عبدالله بن حجل قال: يا أمير المؤمنين! أنت أوّلنا ايماناً، وآخرنا بنبيّ الله عهداً. الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣، كتاب نصر.

٣٧ - أبو عمرة بشير بن محصن قال في جمع من أصحاب علي ومعاوية: إنّ صاحبي أحق البرية كلّها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقراة من رسول الله. كتاب نصر ٢١٠.

٣٨ - عبدالله بن خباب بن الأرت قال ابن قتيبة: إنّ الخارجة التي خرجت

على عليّ بينما هم يسيرون فإذا هم برجل يسوق إمرأته على حمار له فعبروا إليه الفرات فقالوا له: من أنت؟ قال: أنا رجلٌ مؤمنٌ، قالوا: فأتقول في عليّ بن أبي طالب؟ قال: أقول: إنه أمير المؤمنين وأول المسلمين إيماناً بالله ورسوله. قالوا: فما اسمك؟ قال: وأنا عبدالله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله الإمامة والسياسة ١ ص ١٢٢.

٣٩ - عبدالله بن بُريدة قال: أوّل الرجال إسلاماً عليّ بن أبي طالب ثمّ الرهط الثلاث: أبوذر وبُريدة وابن عمّ لأبي ذرّ. أخرجه محمّد بن إسحق المدني في الجزء الأوّل من المغازي.

٤٠ - محمّد بن أبي بكر كتب إلى معاوية كتاباً منه: فكان أوّل من أجاب وأتاب، وصدّق ووافق، وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه عليّ بن أبي طالب - إلى أن قال - : أوّل الناس إسلاماً، وأصدق الناس نيّة - إلى قوله - يالك الويل! تعدل نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله ووصيّه وأبوولده، وأوّل الناس له اتّباعاً، وآخرهم به عهداً، يُخبره بنسره، ويشركه في أمره. نصر في كتاب صفّين ١٣٣.

٤١ - عمرو بن الحمق قال لعلي: أحببتك لخصال خمس: أنك ابن عمّ رسول الله، وأوّل من آمن به. وفي لفظ: وأسبق النّاس إلى الإسلام، أبوالذريّة التي بقيت فينا من رسول الله، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. كتاب صفّين ١١٥. جمهرة الخطب ١ ص ١٤٩.

٤٢ - سعيد بن قيس الهمداني يرتجز في صفّين بقوله^(١):

هذا عليّ وابن عمّ المصطفى أوّل من أجابه ممّن دعا

هذا الإمام لا يُبالي من غوى

٤٣ - عبدالله بن أبي سفيان قال مجيباً الوليد^(٢)

وإنّ وليّ الأمر بعد محمّد عليّ و في كلّ المواطن صاحبه

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢٣٢ وفيه «أوّل من أجابه فيما روى».

(٢) رسالة الاسكافي، وذكرهما الحافظ الكنجي في الكفاية ص ٤٨ للفضل بن العباس.

- وصيُّ رسول الله حقّاً و صنوه و أوّل من صلّى و من لان جانبه
- ٤٤ - خزيمه بن ثابت الأنصاري عدّه العراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥،
والزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال بأنّ عليّاً أوّل الناس إسلاماً.
وقالا: أنشد المرزبان له في عليّ:
أليس أوّل من صلّى لقبلتكم و أعلم الناس بالقران والسنن؟؟
و ذكر له الإسكافي في رسالته كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩:
وصيُّ رسول الله من دون أهله و فارسه مذكان في سالف الزمن
و أوّل من صلّى من الناس كلّهم سوى خيرة النسوان والله ذوالمنن
و ذكرهما له الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٤، و ذكر قبلهما:
إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا أبو حسن ممّا نخاف من الفتن
وجدناه أولى الناس بالناس أنّه أطبّ قريش بالكتاب وبالسنن^(١)
- ٤٥ - كعب بن زهير، ذكر الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢. من قصيدة
يمدح بها أمير المؤمنين عليه السّلام:
إنّ عليّاً ليمون نقيبته بالصالحات من الأفعال مشهور
صهر النبيّ وخير الناس كلّهم فكلّ من رامه بالفخر مفخور
صلّى الصلاة مع الأمّي أوّلهم قبل العباد وربّ الناس مكفور^(٢)
- ٤٦ - ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب، ذكر جمع من الأعلام له أبيات
وذكرها آخرون لغيره وهي:
ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أوّل من صلّى لقبلتهم؟! و أعلم الناس بالآيات والسنن؟!
و آخر الناس عهداً بالنبيّ؟ ومّن جبريل عون له في الغسل والكفن؟

(١) وهذه الابيات بقية توجد في الفصول المختارة ٢ ص ٦٧.

(٢) في النسخة تصحيف ذكرناها صحيحة.

مَنْ فِيهِ مَا فِيهِمْ مَا تَمْتَرُونَ بِهِ؟! وليس في القوم ما فيه من الحسنِ
 ماذا الذي ردّكم عنه؟! فنعلمه ها إنَّ بيعتكم من أوّل الفتنِ
 و ذكر الإسكافي في رسالته البيتين الأوّلين منها ونسبها إلى أبي سفيان بن
 حرب بن أميّة بن عبدشمس حين بويع أبوبكر. شرح إبن أبي الحديد ٣
 ص ٢٥٩.

٤٧ - الفضل بن أبي لهب قال ردّ أعلى قصيدة الوليد بن عقبة:

ألا إنَّ خير النَّاس بعد محمّدٍ مهيمنه التّاليه في العرف والنكرِ
 وخيرته في خير ورسوله نبذ عهود الشرك فوق أبي بكر
 و أوّل من صلّى صنونبيّه و أوّل من أردى الغواة لدى بدر
 فذاك عليّ الخير من ذا يفوقه؟! أبو حسن حلف القرابة والصهر

٤٨ - مالك بن عبادة الغافقي حليف حمزة بن عبدالمطلب قال:

رأيت عليّاً لا يلبث قرنه إذا ما دعاه حاسراً أو مسربلاً
 فهذا وفي الإسلام أوّل مسلم و أوّل من صلّى وصام وهللاً

٤٩ - أبو الأسود الدؤلي يهدّد طلحة والزبير بقوله:

وإنَّ عليّاً لكم مصحراً يائله الأسود الأسود
 أما أنّه أوّل العابدين بمكّة والله لا يُعبد^(١)

٥٠ - جندب بن زهير كان يرتجز يوم صفين بقوله:

هذا عليّ والهدى حقاً معه يا ربّ فاحفظه و لا تضيّعه
 فإنّه يخشاك ربي فارفعه نحن نصرناه على من نازعه
 صهر النبيّ المصطفى قد طاوعه أوّل من بايعه وتابعه^(٢)

٥١ - زفر بن يزيد^(٣) بن حذيفة الأسدي قال:

فحوطوا عليّاً فانصروه فإنّه وصيّي وفي الإسلام أوّل أوّل

(١) رسالة الاسكافي كما شرح ابن ابي الحديد: ٢ ص ٢٥٩.

(٢) كتاب نصر بن مزاحم: ٤٥٣.

(٣) في بعض المصادر: زفير بن زيد.

وإن تخذلوه و الحوادث جمّة فليس لكم عن أرضكم متحوّل (١)

٥٢ - النجاشي بن الحارث بن كعب قال:

فقل للمضلل من وائل جعل الغنّ يوماً سمينا
جعلت ابن هند و أشياعه نظير عليّ أما تستحونا؟!
إلى أوّل الناس بعد الرسول أجاب النبيّ من العالمينا
وصهر الرّسول و من مثله إذا كان يوم يشيب القرونا؟! (٢)

٥٣ - جرير بن عبدالله البجلي قال:

فصلّى الإله على أحمد رسول الملّيك تمام النعم
و صلّى على الطهر من بعده خليفتنا القائم المدّعّم
عليّاً عنيت وصيّ النبيّ يجالد عنه غواة الأمم
له الفضل والسبق والمكرما ت وبيت النبوة لا المهتمّم

٥٤ - عبدالله بن حكيم التيمي قال:

دعانا الزبير إلى بيعة و طلحة من بعد أن أثقلا
فقلنا: صفقنا بايماننا فإن شئنا فخذنا الأشملا
نكثّم عليّاً على بيعة و إسلامه فيكم أوّلا

٥٥ - عبدالرحمن بن حنبل [جعل] الجمحي حليف بني الجمع قال:

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة على الدين معروف العفاف موفّقاً
عفيفاً عن الفحشاء أبيض ماجداً صدوقاً و للجبّار قدماً مصدّقاً
أباحسن فارضوا به و تبايعوا فليس كمن فيه يرى العيب منطقاً
عليّ وصيّ المصطفى و وزيره و أوّل من صلّى لذي العرش و اتقى (٣)

٥٦ - أبو عمرو عامر الشعبي الكوفي قال: أوّل من أسلم من الرّجال عليّ

ابن أبي طالب وهو ابن تسع سنين. رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي

(١) رسالة الاسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد: ٣ ص ٢٥٩.

(٢) كفاية الطالب الحافظ الكنجي: ٤٨.

(٣) كتاب صفين لنصر بن مزاحم: ٦٦.

الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٥٧ - أبوسعيد الحسن البصري قال: عليُّ أوَّل من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد عن عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عنه. ورواه الإسكافي في رسالته عن عبدالرزاق كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

وقال الحجاج للحسن و عنده جماعة من التابعين و ذكر علي بن أبي طالب: ماتقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول؟ هو: أوَّل من صلَّى إلى القبلة، وأجاب دعوة رسول الله. وأنَّ لعلِّي منزلة من ربِّه وقرابة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردِّها أحدٌ. فغضب الحجاج غضباً شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت.

وقال رجل للحسن: مالنا لانراكَ تثنى على عليٍّ و تقرّظه؟ قال كيف؟! وسيف الحجاج يقطر دماً، أنه أوَّل من أسلم، وحسبكم بذلك. رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

٥٨ - الإمام محمّد بن عليّ الباقر قال: أوَّل من آمن بالله عليُّ بن أبي طالب وهو ابن إحدى عشرة سنة. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

٥٩ - قتادة بن دعامة الأكمة البصري قال: عليُّ أوَّل من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد كما سمعت، والقسطلاني عدّه ممّن قال به في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢.

٦٠ - محمّد بن مسلم المعروف بابن شهاب^(١) عدّه القسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢ من القائلين بأنَّ علياً أوَّل من أسلم.

٦١ - أبو عبد الله محمّد بن المكندر المدني قال: عليُّ أوَّل من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٢ - أبو حازم سلمة بن دينار المدني قال: عليُّ أوَّل من أسلم. تاريخ الطبري ١ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

(١) نسبة إلى جد جده.

٦٣ - أبو عثمان ربيعة بن أبي عبدالرحمن المدني قال: عليُّ أوَّل من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٤ - أبو النضر محمَّد بن السائب الكلبي قال: عليٌّ أوَّل من أسلم، أسلم وهو ابن تسع سنين. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

٦٥ - محمَّد بن اسحاق قال: كان أوَّل ذكر آمن برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ معه وصدَّقه بما جاءه من عند الله عليُّ بن أبي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين^(١) وكان ممَّا أنعم الله به على عليِّ بن أبي طالب أنَّه كان في حجر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ قبل الإسلام.

وقال: و ذكر بعض أهل العلم أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ كان إذا حضرت الصَّلَاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه عليُّ بن أبي طالب، مستخفياً من عمِّه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصَّلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثمَّ إنَّ أباطالب عثر عليها يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ: يا ابن أخي ما هذا الدين؟ الحديث. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. سيرة ابن هشام ١ ص ٢٦٤، ٢٦٥. سيرة ابن سيِّد الناس ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٤ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٧.

٦٦ - جُنيد بن عبدالرحمن قال: أتيت من حوران إلى دمشق لآخذ عطائي فصلَّيت الجمعة ثمَّ خرجت من باب الدرج فإذا عليه شيخٌ يقال له: أبوشيبة القاصُّ يقصُّ على الناس، فرغَّب فرغبنا، وخوَّف فبكينا، فلما انقضى حديثه قال: اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب. فلعنوا أبا تراب عليه السَّلَام فالتفت إليَّ من على يميني فقلت له: فمن أبو تراب؟ فقال: عليُّ بن أبي طالب ابن عمِّ رسول الله، وزوج ابنته، وأوَّل الناس إسلاماً، وأبو الحسن والحسين. فقلت: ما أصاب هذا القاصُّ؟! فقلت إليه وكان ذا وفرة فأخذت وفرته بيدي وجعلت أطم وجهه

(١) في الكامل لابن الأثير: ٢ ص ٣٢. إحدى عشرة سنة. نقلاً عن ابن اسحاق.

وأبطح برأسه الحائط، فصاح فاجتمع أعوان المسجد فوضعوا رداي في رقبتي وساقوني حتى دخلوني على هشام بن عبد الملك وأبوشيبة يقدمني فصاح يا أمير المؤمنين؟ قاصك وقاص آباءك وأجدادك أتى إليه اليوم أمرٌ عظيمٌ. قال: من فعل لك؟ فقال: هذا. فالتفت إليّ هشام وعنده أشرف الناس فقال: يا أبا يحيى؟ متى قدمت؟ فقلت: أمس وأنا على المصير إلى أمير المؤمنين فادركتني صلاة الجمعة فصلّيت وخرجت إلى باب الدرج فإذا هذا الشيخ قائمٌ يقصُّ فجلست إليه فقرأ فسمعنا، فرغّب من رغّب، وخوف من خوف؛ ودعا فأمنا، وقال في آخر كلامه: اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب، فسألت من أبوتراب؟ فقل: عليّ بن أبي طالب، أوّل الناس إسلاماً، وابن عم رسول الله، وأبو الحسن والحسين، وزوج بنت رسول الله. فوالله يا أمير المؤمنين؟ لو ذكر هذا قرابة لك بمثل هذا الذكر ولعنه بمثل هذا اللعن لأحلت به الذي أحلت، فكيف لا أغضب لصهر رسول الله وزوج إبنته؟! فقال هشام: بش ما صنع. تاريخ ابن عساكر ٣ ص ٤٠٧.

هذه جملة من النصوص النبويّة، والكلم الماثورة عن أمير المؤمنين والصحابة والتابعين في أنّ عليّاً أوّل من أسلم: وهي تربو على مائة كلمة، أضف إليها ما مرّج ٢ ص ٢٧٦ من أنّ أمير المؤمنين سباق هذه الأمة. واشفع الجميع بما أسلفناه ج ٢ ص ٣٠٦ من أنّه صلوات الله عليه صديق هذه الأمة، وهو الصديق الأكبر.

فهل تجد عندئذ مساعاً لمكابرة ابن كثير تجاه هذه الحقيقة الراهنة وقوله: وقد ورد في أنّه أوّل من أسلم. إلخ؟!؟!؟! فإذا لا يصحُّ مثل هذه فما الذي يصح؟ وإن كان لا يصح شيء منها فما قيمة تلك الكتب المشحونة بها؟! كلا، إنّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون.

وأنت ترى الرجل يزيف هذه الكلم والنصوص الكثيرة الصحيحة بحكم الحفاظ الأثبات بكلمة واحدة قارصة، ويعتمد في إثبات أيّ أمر يروقه في تاريخه على المراسيل والمقاطيع والآحاد، ونقل المجاهيل وأفناء الناس^(١).

(١) الغدير: ج ٣ ص ٢١٩-٢٣٩.

مناظرة بين المأمون وإسحاق:

و لقد دارت بين المأمون العباسي وإسحاق وهو من العلماء المشهورين حوار طريف في هذا المجال ينقله ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد» نذكر هنا خلاصته:

قال المأمون: يا إسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

ابن إسحاق: الإخلاص بالشهادة.

المأمون: أليس سبق إلى الإسلام؟

ابن إسحاق: نعم.

المأمون: اقرأ ذلك في كتاب الله يقول: «والسابقون السابقون أولئك المقربون» إنما عني من سبق إلى الإسلام، فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟

ابن إسحاق: إن علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

وهنا أمسك المأمون بزمام الكلام وقال:

أخبرني عن إسلام علي حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاماً من الله؟

قال إسحاق: بل دعاه رسول الله إلى الإسلام.

قال المأمون: يا إسحاق هل يخلو رسول الله حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر من الله أو تكلف ذلك من نفسه؟

ثم قال: يا إسحاق لا تنسب رسول الله إلى تكلف فإن الله يقول: «وما أنا مِنَ المتكلفين».

فإذا دعاه بأمر الله وليس من صفة الجبار - جل ذكره - أن يكلف رسلاً دعاء من لا يجوز عليه حكم، أفتراه في قياس قولك يا إسحاق؟ أن علياً أسلم صبيلاً لا يجوز عليه الحكم قد تكلف رسول الله صلى الله عليه وآله من دعاء

الصبيان ما لا يطيقون^(١).

و على هذا الاساس يجب اعتبار ايمان علي عليه السلام ايماناً صحيحاً ثابتاً لم يقل عن إيمان الآخرين أهمية وقيمة بل هو افضل مصداق لقوله تعالى: «والسابقون السابقون أولئك المقربون»، هو الإمام علي بن أبي طالب.

قضية «انقطاع الوحي»:

لقد أضاعت روح النبي صلى الله عليه وآله ونفسه الشريفة واستنارت بنور الوحي، ودفعه ذلك الى التأمل والتفكير في الوظيفة الكبرى والثقيلة التي جعلها الله على كاهله، وخاصة عندما خاطبه الله تعالى بقوله:

«يا أيها المدثر. قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ»^(٢).

و هنا طرح المؤرخون وبخاصة الطبري الذي لا يخلو تاريخه من الاساطير الاسرائيلية قضية باسم «انقطاع الوحي» فقالوا: إن رسول الله بعد أن رأى ذلك الملك وسمع منه الآيات الأولى من القرآن الكريم بقي ينتظر نزول خطاب آخر من جانب الله تعالى، ولكن دون جدوى، فهو لم ير ذلك الملك الجميل بعد ذلك، ولا أنه سمع النداء الغيبي مرة أخرى على غرار ما رأى وسمع في بدء نزول الوحي.

ولو كان لانقطاع الوحي في بداية عهد الرسالة (الذي ادعاه هؤلاء) حقيقة فها هو سوى النزول التدريجي للقرآن ليس إلا.

وقد تعلققت المشيئة الالهية اساساً بأن ينزل الوحي على رسول الله تدريجاً، لادفعة واحدة وذلك لمصالح معينة، وحيث إن الأمر في بدء الوحي كان على أوله وفي بدايته، لذلك لم ينزل الوحي الالهي بعد المرة الأولى فوراً، ولكن حُمل هذا على «انقطاع الوحي» ولم يكن لانقطاع الوحي ولا أية مسألة أخرى من

(١) العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٥٢ طبعة بيروت دارالكتب العلمية وج ٥ ص ٩٤ طبعة لجنة التأليف

(٢) المدثر: ١ - ٣.

القاهرة.

هذا القبيل.

وحيث إن هذه المسألة قد تذرّع بها الكتّابُ المغرضون لذلك ينبغي أن نعطيها بعض الاهتمام ليتضح أن ما أدعي من انقطاع الوحي، قضية فارغة عن الحقيقة ولذلك لاصحة لتطبيق الآيات القرآنية عليها.

ولتوضيح هذا الأمر ننقل هنا نص ما كتبه الطبري ونقله في تاريخه، ثم نعد بعد ذلك الى نقده.

يكتب الطبري في هذه الصدد قائلاً: لما أبعث جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وجزع جزعاً شديداً قالت له خديجة: ما أرى ربك إلا قد قلاك، فانزل الله عز وجل قوله: «والضحى. والليل إذا سجدى. ما ودّعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يُعطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيماً فأوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تقهر. وأما بنعمة ربك فحدث»^(١).

ولقد أوجد نزول هذه الآيات سروراً عظيماً لدى خديجة عليها السلام، وعلمت بأن ماقالته حول رسول الله لا أساس له من الصحة^(٢).

أسطورة وليس تاريخاً!

إن ذاكرة التاريخ تحفظ وتذكر جيداً تاريخ حياة السيدة خديجة. إن خديجة التي كانت أخلاق محمد الفاضلة وخصاله الحميدة، وافعاله الحميدة ماثلة امام عينيها والتي كانت تؤمن بعدل ربها كيف يجوز ان تسيء الظن بالله تعالى وبنبيه الكريم، العظيم الشأن؟

إن مقام النبوة ومنصب الرسالة، والسفارة الالهية لا يُعطى إلا لمن يملك طائفة من الصفات النبيلة والخصال الرفيعة، ومالم يتصف شخص النبي صلى الله عليه وآله. هذه الصفات العليا، ومالم تتوفر فيه مثل هذه الشروط الخاصة

(٢) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٤٨.

(١) الضحى: ١-١١.

والمواصفات المعينة لم يُمنح له ذلك المنصب قط. وتقع العصمة والسكينة القلبية، والاعتماد والتوكل في طبيعة هذه الخصال والمواصفات، ومع هذه الأوصاف والخصال يستحيل أن يدور في خلده مثل تلك التصورات الخاطئة. ولقد قال العلماء: إنَّ المسيرة التكاملية عند الانبياء تبدأ من فترة الطفولة والصبا، فإن الغشاوات والحجب تبدأ تتساقط وتنقشع الواحدة تلو الأخرى منذ ذلك الوقت، ويستمر ذلك حتى تصل الاحاطة العلمية لديهم حدَّ الكمال فلا يشكّون في شيء يرونه أو يسمعونه أبداً، ومن حاز هذه المراتب لا يمكن أن يتطرق الشك والحيرة والتردد الى قلبه وعقله مطلقاً.

إنَّ آيات سورة «الضحى» و خاصة عبارة «ماودَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلَى» تفيد فقط بأن هناك من قال مثل هذه العبارة للنبي الاكرم صلى الله عليه وآله، وأما مَنْ هو قائلها؟ وكم تركت هذه العبارة من تأثير في نفسية النبي صلى الله عليه وآله وروحيته فهي ساكنة عن كل ذلك؟

و ذهب بعضُ المفسرين إلى أن قائلها هم بعضُ المشركين، ولهذا الاحتمال لا تكون جميع الآيات مرتبطة ببدء الوحي، لأنه لا أحد غير «علي» و «خديجة» كان يعرف في بدء البعثة بنزول الوحي، ليتسنى له أن يعترض على رسول الله، ويعيره بانقطاع عنه بعد ذلك، فإن أمر المبعث والرسالة - كما سنقول ذلك فيما بعد- بقي خافياً على أكثر المشركين لمدة ثلاثة اعوام تماماً، فهو لم يكن مكلفاً ببلاغ رسالته إلى عامة الناس، إلى أن نزل قوله تعالى: «فاصدغ بما تؤمر» الذي أمره الله فيه بالجهر بأمر رسالته لعامة الناس بلا استثناء.

إختلاف المؤرخين في مسألة «انقطاع الوحي»:

لم يرد في القرآن الكريم أي ذكر مطلقاً لمسألة (انقطاع الوحي) بل لم ترد به إشارة أيضاً، إنما نلاحظها في كتب السيرة والتفسير فقط، ويختلف كُتاب السيرة والمؤرخون في علة (انقطاع الوحي) هذا، ومدته اختلافاً كبيراً يجعلنا لانعتمد على أي واحد منها، وها نحن نشير اليها بشكل ما:

١ - ان اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن اصحاب الكهف، وعن الروح، وعن قصة ذي القرنين فقال عليه الصلاة والسلام: سأخبركم غداً، ولم يستثن، فاحتبس عنه الوحي^(١).

بناء على هذا لا يمكن ان نربط هذه المسألة ببدء الوحي ومطلع عهد الرسالة لان اتصال علماء اليهود واحبارهم مع النبي صلى الله عليه وآله عن طريق قريش وسؤالهم اياه حول هذه الأمور الثلاثة، وقع في حدود السنة السابعة من البعثة يوم توجه وفد من قريش إلى المدينة ليسألوا علماء اليهود عن صحة ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله، فاقترح اليهود عليهم ان يسألوا النبي عن تلك الأمور الثلاثة^(٢).

٢ - قالت خولة وهي امرأة كانت تخدم رسول الله صلى الله عليه وآله: أن جرواً دخل البيت فدخل تحت السرير فات، فكث نبي الله صلى الله عليه وآله أياماً لا ينزل عليه الوحي، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من البيت كنست خولة تحت السرير فاذا جروٌ ميت فأخذته والقتته خلف الجدار فأنزل الله تعالى هذه السورة ولما نزل جبرئيل سأله النبي صلى الله عليه وآله عن التأخر فقال: «أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»^(٣).

٣ - إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تقصّون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم»؟^(٤) فنزل جبرئيل بهذه السورة.

٤ - اهدى عثمان الى النبي صلى الله عليه وآله عنقود عنب وقيل عذق تمر فجاء سائل فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه اليه صلى الله عليه وآله ثانياً ثم عاد السائل فأعطاه وهكذا ثلاث مرات فقال صلى الله عليه وآله: ملاطفاً لا غضبان: أسائل أنت يا فلان أم تاجر؟ فتأخر الوحي أياماً فاستوحش فنزلت

(١) روح المعاني: ج ٣٠ ص ١٥٧، السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣١٠ و ٣١١.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٠٠ و ٣٠١.

(٣) تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٨٣ و ٧١، السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٤٩.

(٤) نفس المصدر.

السورة^(١).

٥ - إن جرواً لأحد نساء النبي صلى الله عليه وآله أو أحد أقربائه حال دون نزول الوحي عليه^(٢).

٦ - إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما سأل جبرئيل عن تأخر الوحي قال جبرئيل، لا امليك من نفسي شيئاً إنما أنا عبدٌ مأمور^(٣).
ثم ان هناك أقوالاً أخرى يمكن الحصول عليها من مراجعة التفسير^(٤).

ولكن الطبري نقلَ وجهاً آخر تمسك به المغرضون والمرضى من الكتاب واعتبروه دليلاً على طروء الشك على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أن الوحي انقطع عن رسول الله صلى الله عليه وآله بعد حادثة (حراء) فقالت خديجة للنبي صلى الله عليه وآله: ما أرى ربك إلا قد قلاك!!
فنزله الوحي يقول:

«ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلَى»^(٥).

ومما يدلُّ على أهداف هذا النوع من الكتاب، المريضة، أو عدم تتبّعهم واستقصائهم، أنهم تمسكوا من بين جميع الأقوال بهذا الاحتمال، واستندوا إليه للحكم على شخصية كرسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم ير في حياته أي أثر للشك والحيرة مطلقاً.

وإننا مع ملاحظة النقاط التالية يمكننا أن نقف على بطلان هذا الاحتمال وتفاهته:

١ - لقد كانت السيدة خديجة من النساء اللواتي أحبين رسول الله صلى الله عليه وآله حبا صادقاً وعميقاً، فهي التي وفّت لزوجها حتى النفس الأخير،

(١) تفسير روح المعاني: ج ٣٠ ص ١٥٧.

(٢) غرائب القرآن في هامش تفسير الطبري: ج ٣٠ ص ١٠٨.

(٣) تفسير ابوالفتح الرازي: ج ١٢ ص ١٠٨.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠ تفسير سورة والضحى.

(٥) تفسير الطبري: ج ٣٠ ص ١٤٨.

ووقفت ثروتها الطائلة لتحقيق أهدافه، وكانت في عام البعثة قد قضيت خمسة عشر عاماً من حياتها الزوجية، ولم تر خديجة طوال هذه الفترة من زوجها إلا التقوى والطهر ولم تلمس منه إلا كرم الصفات ونبيل الاخلاق فقد كانت من المصدقين له صلى الله عليه وآله من أول يوم وكانت تراعي نهاية الأدب في تكليمها معه وعشرتها اياه صلى الله عليه وآله فكيف تتكلم مثل هذه المرأة المؤمنة الوفية، مع زوجها بغليظ القول، وتوجه له مثل هذه الكلمة غير المهذبة، بل والجارحة؟؟؟!

٢ - إن آية: «ماودعك ربك وما قلبي» لا تدل على أن «خديجة» قالت مثل هذا الكلام لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل غاية ماتفيده هذه الآية هي أن مثل هذا الكلام قد وُجّه الى رسول الله صلى الله عليه وآله، وأما من هو القائل، ولماذا قال هذا الكلام؟ فليس ذلك معلوماً.

٣ - إن ناقل هذه الرواية يصف «خديجة» تارة بأنها طمأنت النبي، وسكنت من روعه إلى درجة أنها منعته عن الإنتحار، ولكنه يصفها تارة أخرى بانها قالت له: بأن الله عاداه وقلاه، ألا ينبغي هنا أن نقول: «كن ذكوراً ثم أكذب»؟؟!

٤ - إذا كان الوحي قد انقطع بعد حادثة جبل (حراء) ونزول بضع آيات من سورة «العلق» إلى أن نزلت سورة «الضحى»، يتوجب - في هذه الصورة - ان تكون سورة «الضحى» ثاني سورة من حيث الترتيب التاريخي لنزول السور في حين أن تاريخ نزول الآيات والسور القرآنية يفيد أنها السورة الحادية عشرة من سور القرآن الكريم. لأن فهرس السور القرآنية حسب نزولها هو كالتالي:

١ - العلق.

٢ - القلم.

٣ - المزمل.

٤ - المدثر.

٥ - تبّت (المسد).

- ٦ - التكوير.
- ٧ - الاعلى.
- ٨ - الانشراح.
- ٩ - والعصر.
- ١٠ - والفجر.
- ١١ - والضحى^(١).

نعم إنفرد اليعقوبي من بين المؤلفين باعتبار سورة الضحى - في تاريخه-^(٢) السورة الثالثة من حيث تاريخ النزول، وحتى هذا الرأي لا ينسجم مع القصة المذكورة (انقطاع الوحي).

الإختلاف في مدة انقطاع الوحي:

لقد تعرّض تحديد مدة انقطاع الوحي بشكله المزعوم لإبهام كبير، فقد ذكر ذلك بصور مختلفة في التفاسير والأقوال التالية هي:

- ٤ أيام.
- ١٢ يوماً.
- ١٥ يوماً.
- ١٩ يوماً.
- ٢٥ يوماً.
- ٤٠ يوماً.

و لكن بعد دراسة فلسفة النزول التدريجي للقرآن الكريم سنرى أنّ انقطاع الوحي وتوقفه لم يكن حدثاً إستثنائياً، لأنّ القرآن الكريم أعلن منذ أول يوم أن المشيئة الالهية تعلقت بأن ينزل القرآن بصورة تدريجية، منجّمة إذ يقول تعالى:

«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ مَكْثٍ»^(٣).

(١) تاريخ القرآن للزنجاني: ص ٥٨. (٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٣٣. (٣) الاسراء: ١٠٦.

و يكشف القرآن النقاب - في موضع آخر - عن سرّ نزول القرآن تدريجاً إذ قال:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»^(١).

و مع ملاحظة طريقة نزول الآيات والسور القرآنية هذه يجب أن لا يتوقع نزول الآيات كل يوم وكل ساعة، وأن ينزل جبرئيل على النبي على الدوام، ويأتي إليه بالآيات دون انقطاع، بل إن الآيات القرآنية كانت تنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في فواصل زمنية مختلفة وفقاً للاحتياجات، وبحسب الأسئلة المطروحة على النبي، ولأسرار أخرى في النزول التدريجي شرحها علماء الإسلام^(٢).

و في الحقيقة لم يكن هناك ما يُسمى بانقطاع الوحي، بل كل ما كان في الأمر هو أنه لم يكن ثمة ما يوجب النزول الفوري، والمتلاحق للوحي.

(١) الفرقان: ٣٢.

(٢) راجع الموقف على هذه المسألة معالم الحكومة الإسلامية: ص ١٢٢-١٢٤.

الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ وَدَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ

إِسْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَدْعُو إِلَى دِينِهِ سِرًّا مَدَّةَ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ. فَهُوَ فِي هَذِهِ السَّنَوَاتِ عَمَدٌ إِلَى بِنَاءِ الْكُوَادِرِ وَاعْدَادِهَا بِدَلِّ تَوْجِيهِ الدَّعْوَةِ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ، فَإِنَّ أَعْتَابَاتٍ مَعِيْنَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ تَوْجِبُ أَنْ لَا يَجْهَرُ بِدَعْوَتِهِ وَلَا يُعْلِنَ عَنْ رِسَالَتِهِ، وَيَكْتَفِي بِالْأَتَصَالَاتِ الْفَرْدِيَّةِ السَّرِّيَّةِ وَيَدْعُو أَشْخَاصًا مَعِيْنِينَ إِلَى دِينِهِ.

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ السَّرِّيَّةُ هِيَ السَّبَبُ فِي أَنْ يَنْجَذِبَ إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ، وَتَوَاجَهَ دَعْوَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْهُمْ بِالْقَبُولِ، وَقَدْ سَجَّلَ التَّارِيخُ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنْ عَهْدِ الرِّسَالَةِ، وَتَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَالِيكَ بَعْضُهُمْ:

١ - السَّيِّدَةُ خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ (زَوْجَةُ النَّبِيِّ).

٢ - عَلِيٌّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣ - زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

٤ - الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ.

٥ - عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ.

٦ - سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ.

- ٧ - طلحة بن عبيدالله.
- ٨ - أبو عبيدة الجراح.
- ٩ - أبوسلمة.
- ١٠ - الأرقم بن أبي الأرقم.
- ١١ - عثمان بن مظعون.
- ١٢ - قدامة بن مظعون.
- ١٣ - عبدالله بن مظعون.
- ١٤ - عبيدة بن الحارث.
- ١٥ - سعيد بن زيد.
- ١٦ - خباب بن الأرت.
- ١٧ - أبوبكر بن أبي قحافة.
- ١٨ - عثمان بن عفان.

وغيرهم من الذين قبلوا دعوة النبي، وآمنوا بنبوته في هذه الفترة^(١). ولقد كان أقطاب قريش وأسيادها منهمكين - طيلة هذه الاعوام الثلاثة - في لهوهم ومجونهم، ومع أنهم كانوا قد عرفوا بعض الشيء عن دعوة النبي السرية إلا أنهم لم يظهروا أية ردة فعل تجاهها، ولم يقوموا بشيء ضدها. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه السنوات التي تعتبر فترة صباغة الفرد يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكة للصلاة فيها بعيداً عن أنظار قريش.

واتفق أن رأهم بعض المشركين في ما كانوا يُصلون في شعب من شعاب مكة، واستنكروا عملهم هذا، وأدّى ذلك إلى منازعة عابرة بينهم وبين المشركين جرح على أثرها أحد المشركين على يدي «سعد بن أبي وقاص» أحد المسلمين، ومن هنا قرّر رسول الله صلى الله عليه وآله اتخاذ بيت «الأرقم بن أبي الأرقم» محلاً

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٤٥ و ٢٦٢.

للعبادة بدل شعاب مكة، ليستطيع القيام فيه بالتبليغ والعبادة بحرية وأمان، بعيداً عن أعين المشركين^(١).

ولقد كان «عمّار بن ياسر» و «صهيب بن سنان» الروميّ ممن آمنوا برسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك البيت^(٢).

دَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ:

يشرع العقلاء من الناس من اصحاب البرامج الواسعة والمشاريع الكبرى اعمالهم الكبرى - عادة - من بدايات صغيرة ونقاط محددة، فإذا حقّقوا نجاحاً في هذه البدايات بادروا الى توسيع نطاق نشاطهم فوراً، وهكذا جنباً الى جنب مع النجاحات التي يحقّقونها في كل خطوة يوسّعون دائرة العمل، ويجتهدون في تحقيق المزيد من النجاح، والتكامل لماهم يصدده.

ولقد سأل أحد الشخصيات زعيماً في دولة كبيرة من الدول الكبرى المعاصرة: ما هو سرّ نجاحكم في الاعمال الإجتماعية وما هو الأمر الذي يساعدكم على النجاح في مشاريعكم؟

فأجابه ذلك الزعيم قائلاً: ان طريقة عملنا نحن الغربيين تختلف عن طريقتكم انتم أهل الشرق، فنحن دائماً نخطّط لمشاريع كبرى ونبدأ من مكان صغير، وبعد إحراز النجاح نعمد إلى توسيع نطاق العمل، واذا اكتشفنا في منتصف الطريق خطأً برنامجنا غيرنا أسلوب عملنا، وعدلنا إلى طريقة أخرى، وبدأنا بعمل آخر.

أما أنتم الشرقيون فتدخلون ساحة العمل في برامجكم الكبرى من مكان كبير، وتبدأون من نقطة واسعة، وتحاولون تطبيق مشروعكم جملة واحدة، فاذا واجهتم في خلال العمل طريقاً مسدودة لم يكن في إمكانكم ان ترجعوا من

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦١.

(٢) هذا البيت كان عند جبل الصفا، وكان معروفاً إلى مدة بـ: «دارالخيزران» أسدالغابة: ج ٤

ص ٤٤، السيرة النجاشية بهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٩٢، السيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٨٣.

منتصف الطريق إلا بتحمل خسائر كبرى فادحة.
 هذا مضافاً إلى أن أنفسكم كأنها قد عُجنت بالعجلة ولذلك توذون قطف
 ثمار جهودكم ونتيجة عملكم في الحال دونما صبر وترقب وانتظار، وهذه هي
 بنفسها طريقة تفكير إجتماعية خاطئة، من شأنها أن تجعل الإنسان أمام طرق
 مسدودة كثيرة وغريبة.

هذا ما قاله ذلك الغربي.

ولكن الذي نتصوره ونعتقده نحن هو: أن هذه الطريقة من التفكير
 لا ترتبط بالشرق ولا بالغرب، بل هي ميزة العقلاء الأذكياء من الناس، فانهم
 يعتمدون هذا الأسلوب لانجاح مهامهم، وتحقيق مقاصدهم.
 ولقد اتبع قائد الإسلام الأكبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هذه
 الطريقة في عمله الرسالي فركز جهده على الدعوة السرية إلى دينه مدة ثلاثة أعوام
 من دون تعجل، وكان يعرض دينه على كل من وجده أهلاً للدعوة، ومستعداً من
 الناحية الفكرية للتبليغ.

فرغم أنه كان يهدف إلى تشكيل دولة عالمية كبرى ينضوي تحت لوائها
 (لواء التوحيد) جميع أفراد البشرية، إلا أنه لم يعمد إلى الدعوة العامة طيلة هذه
 الأعوام الثلاثة، بل لم يوجه الدعوة الخاصة حتى إلى أقاربه، إنما اكتفى بالاتصال
 الشخصي بمن وجده مؤهلاً وصالحاً للدعوة، ومستعداً لقبول الدين، حتى أنه
 استطاع في هذه الأعوام الثلاثة أن يكسب فريقاً من الأتباع من الذين اهتدوا
 إلى دينه وقبلوا دعوته.

وقد كان زعماء قريش - كما أسلفنا - منهمكين طوال هذه الأعوام الثلاثة في
 اللذة والهوى وكان فرعون «مكة» وطاغيتها: «أبوسفيان» وجماعته كلما سمعوا
 بالدعوة اطلقوا ضحكة استهزاء وقالوا لانفسهم: إنها أيام وتنطفئ بعدها شعلة
 الدعوة هذه فوراً تماماً كما انطفأت من قبل دعوة «ورقة» و«امية» (اللذين
 أخذوا يجتذبان إلى العرب التوجه نحو المسيحية ونبذ الوثنية بعد أن قرء الانجيل
 والتوراة) وبالتالي لن يمر زمان حتى ينسى هذا الأمر، ويغدو خيراً بعد أثر، بل

لا شيء يُذكر.

بهذا التصور، وهذه العقلية واجهت زعامة «مكة» دعوة النبي في البداية، ولهذا لم يقم زعماء قريش خلال هذه السنوات الثلاث بأي عملٍ عدائيٍّ ضد رسول الله صلى الله عليه وآله، بل ظلوا ينظرون إليه بنظر الإحترام، ويُراعون معه قواعد الأدب والسلوك، وكان النبي هو أيضاً لا يتعرض لأصنامهم وآلهتهم في هذه الأعوام الثلاثة بسوء ولا يتناولها بالنقد والاعتراض بصورة علنية، بل كان مركزاً جهده على الاتصال الشخصي بذوي البصائر من الأشخاص وهدايتهم إلى دينه الحنيف.

ولكن منذ أن بدأ النبي دعوة الأقربين وأخذ ينتقد وثنيّتهم، ويذكر أوثانهم بسوء ويعترض على تصرفاتهم الإنسانية أصبح حديث الألسن. ومنذ ذلك اليوم أيضاً بدأت يقظة قريش، وعرفوا أمر محمد يختلف عن أمر «ورقة» و«أمية» اختلافاً بيناً وان المبين الدعوتين فرقا كبيراً، ولهذا بدأت المعارضة والمخالفة السرية والعلنية، لدعوة النبي.

وقد بدأ النبي صلى الله عليه وآله بكسر جدار الصمت بدعوة أقربائه إلى دينه ثم شرع بعد ذلك بدعوة الناس أجمعين.

على أنه ما من شك في أن الإصلاحات العميقة التي يراد لها أن تترك أثراً في جميع شؤون الناس وكل مناحي حياتهم، وتغير مسار المجتمع تحتاج قبل أي شيء إلى قوتين:

١ - قوة البيان، بأن يستطيع الداعية والمصلح بيان الحقائق التي جاء بها من أفكاره الخاصة، أو ما تلقاه عن طريق آخر إلى الناس بأسلوب جذاب، يأمر القلوب، ويسحر العقول.

٢ - القوة الدفاعية التي يستطيع تشكيل خط دفاعي منها عند الحاجة لهجوم الأعداء والخصوم، وفي غير هذه الصورة ستنتفض شعلة الدعوة ويفشل المصلح في خطاه الأولى.

ولقد كان البيان لدى رسول الله صلى الله عليه وآله في أعلى مرتبة من

الكمال فكان قادراً كأقوى خطيب على بيان تعاليم دينه للناس في غاية الفصاحة والبلاغة. ولكنه كان يفتقر في الأيام الأولى من دعوته إلى عنصر (القوة الثانية)، أي (القوة الدفاعية)، الرادعة الحامية، لأنه استطاع في السنوات الثلاث الأولى من رسالته أن يضم إلى دعوته قرابة أربعين شخصاً، وذلك في الظروف السرية الشديدة، ولا ريب أن تلك القلة القليلة من الاتباع لم تكن قادرة على أن تتولى مسؤولية الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله، وحماية رسالته.

من هنا عمّد رسول الله صلى الله عليه وآله - وهدف تحصيل القوة الدفاعية المطلوبة وتشكيل النواة المركزية إلى دعوة أقربائه إلى دينه قبل التوجه بالدعوة إلى عامة الناس، ليتمكّن من هذا الطريق أن يزيل النقص من جهة عدم وجود القوة الثانية، ويكون منهم سياجاً قوياً يحفظه، ويحفظ رسالته من الأخطار المحتملة.

على أن فائدة هذه الدعوة كانت على الأقل دفع أبناء عشيرته إلى الدفاع عنه بدافع القربى والرحم على فرض أنهم لم يؤمنوا برسالته، ولم يقبلوا دعوته. هذا مضافاً إلى أنه صلى الله عليه وآله كان يعتقد أن أي إصلاح وتغيير لا بد أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره، فما لم يستطع الإنسان من إصلاح أبنائه وأقربائه وردعهم عن قبائح الأفعال لا يمكن لدعوته أبداً أن تؤثر في الأجانب والأبعدين، لأنّ المناوئين سيعترضون عليه لدعوته في هذه الحالة، ويشيرون إلى أفعال أبنائه وعشيرته.

من هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين إذ خاطبه قائلاً:

«وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»^(١).

كما أنه خاطبه بصدد دعوة الناس عامة بقوله:

«فَاذْعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَ اعْرَضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»^(٢).

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) الحجر: ٩٤ و ٩٥.

كيفية دعوة الأقربين:

كانت طريقة رسول الله صلى الله عليه وآله في دعوة عشيرته الأقربين طريقة جميلة وذكية جداً، فقد تجلّت في ذلك حقيقة أوضحت اسرار هذه الدعوة في ما بعد أكثر فأكثر.

فإن المفسرين كتبوا عند قوله تعالى: «وانذر عشيرتک الاقربین» وكذا الأغلبية القريبة للاجماع من المؤرخين أن الله أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بأن ينذر عشيرته الأقربين ويدعوهم إلى دينه ورسالته فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب الذي كان آنذاك في ربيع الثامن عشر أو الخامس عشر بأن يُعدّ طعاماً ولبناً، ثم دعا صلى الله عليه وآله خمساً وأربعين رجلاً من سراة بني هاشم ووجوههم، وعزم على أن يبوح لضيوفه ويكشف لهم من امر رسالته في خلال تلك الضيافة إلا أنه - وللأسف - ما أن أنهوا من الطعام حتى بادر أبوهب فتكلّم بكلمات سخيّة قبل أن يتحدّث النبيُّ صلى الله عليه وآله ممّا جعل الجوّ غير مناسب لأن يطرح النبيُّ صلى الله عليه وآله موضوع رسالته عليهم، فانفض المجلس دون تحقيق هذا الغرض.

ولما كان من غد أمر النبيُّ علياً عليه السّلام باعداد الطعام واللبن ثانية، وكرّر دعوة تلك الجماعة، إلى ضيافة أخرى، وبعد أن فرغوا من الطعام تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«إنّ الرائد لا يكذبُ أهلهُ والله الَّذي لا إله إلا هو إني رسولُ الله إليكم خاصّة وإلى الناس عامّة والله لتموتنَّ كما تنامونَ ولتبعثنَّ كما تستيقظونَ ولتحاسبنَّ بما تعملونَ وإنها الجنّةُ أبدأ والنارُ أبدأ».

ثم قال:

«يا بني عبدالمطلب اني والله ما أعلمُ شاباً في العربِ جاء قومهُ بأفضل ممّا جئتكم به، اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عزوجل أن ادعوكم إليه فأياكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و

وَصِيِّي وَ خَلِيْفَتِي فِيكُمْ؟

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وآله إلى هذه النقطة -وبينا أمسك القوم وسكتوا عن آخرهم إذ كان كل واحد منهم يفكر في ما يؤول إليه هذا الامر العظيم، وما يكتنفه من أخطار- قام «علي» عليه السلام فجأة، وهو آنذاك في الثالثة أو الخامسة عشرة من عمره، وقال وهو يكسر بكلماته الشجاعة -جدار الصمت والذهول-:

أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إجلس، ثم كرر دعوته ثانية وثالثة وفي كل مرة يحجم القوم عن تلبية مطلبه، ويقوم «علي» ويعلن عن استعداداه لمؤازرة النبي، ويأمره رسول الله بالجلوس حتى إذا كان في المرة الثالثة أخذ رسول الله بيده والتفت الى الحاضرين من عشيرته الاقربين وقال:

«إِنَّ هَذَا أَخِي وَ وَصِيِّي وَ خَلِيْفَتِي فِيكُمْ (أَوْ عَلِيْكُمْ) فَاسْمَعُوا لَهُ، وَ أَطِيعُوا».

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع وجعله عليك أميراً»^(١).

إن ما كتبناه هو- في الحقيقة- خلاصة لحديث مفصل رواه أكثر المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة، ولم يشكك في صحته أحد، بل اعتبروه من مسلمات التاريخ، الا «ابن تيمية» الذي اتخذ موقفاً خاص من أهل بيت النبي صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

خِيَانَةٌ تَارِيخِيَّةٌ وَ جِنَايَةٌ أَدَبِيَّةٌ!!

إن تحريف الحقائق وقلبها، أو إخفاء الوقائع لهو حقاً من أوضح مصاديق

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣، تاريخ الكامل: ج ٢ ص ٤٠ و ٤١، مسند أحمد: ج ١ ص ١١١، و شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢١٠ و ٢١١.

الخيانة والجنابة.

و لقد سلكَ فريقٌ من الكُتّاب المتعصبين عبر التاريخ للاسف مثل هذا الطريق المقبوح، وأسقطوا مؤلفاتهم العلمية والتاريخية بارتكابهم خطيئة التحريف في جملة من الحقائق، من الاعتبار، وهم يخالون ان عملهم قادر على ان يبقي الحقائق في هالة الإهمال والغموض.

إلا أن أمر هؤلاء قد انكشف مع انقضاء الزمن، وتكامل العلم، ودفع بفريق من أهل التحقيق والإنصاف الى أن يمزقوا بأطراف اقلامهم حجب الزيف والتحريف ويُظهروا الوقائع والحقائق على حقيقتها.
و إليك في ما يأتي بعض هذا الخيانات:

١ - لقد ذكر محمد بن جرير الطبري (المتوفى عام ٣١٠هـ) في تاريخه حادثة دعوة الأقربين بشكل مفصل وعلى النحو الذي مرّ على القارئ الكريم.
بيد أنه حرّف في تفسيره^(١) وكتّم، فهو عند تفسير قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» يذكر كل ما ذكره في تاريخه، ولكنه يغيّر ويبدّل في قول رسول الله صلى الله عليه وآله حيث يقول: «على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي»، فهو يكتب في تفسيره هكذا: «على أن يكون كذا وكذا».
ولارب أنّ في تغيير عبارة «أخي ووصيي وخليفتي عليكم (أوفيكم) إلى: «كذا وكذا» غرضاً مريضاً، وهو بالتالي خيانة تاريخية فاضحة.

على أن الطبري لم يكتف بهذا القدر من التغيير في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله، بل غيّر حتى في الجملة التي تعقبها وهي قوله صلى الله عليه وآله بعد أن قام عليّ عليه السلام للمرة الثالثة وأعلن عن استعداده لمؤازرة النبي بعد إحجام القوم وسكوّتهم: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي» حيث أبدلها بعبارة: «إنّ هذا أخي وكذا وكذا»!!!

إن على المؤرخ أن يكون حراً وشهماً في كتابة الحقائق وروايتها، فيثبتها

(١) تفسير الطبري: ج ١٩ ص ٧٤.

ويروها كماهي، بكل شجاعة، وحيدة.

ولاريب ان الذي دفع بالطبري إلى أن يرتكب مثل ذلك التبديل والتغيير هو تعصبه المذهبي، فهو لايعتبر الإمام علياً خليفة رسول الله بلافصل، وحيث أن تينك الكلمتين: «خليفتي ووصيّي» تصرّحان بخلافة «عليّ» للنبي ووصايته بلافصل لذلك يغيّر ويبدّل حتى ينتصر لمذهبه بالتحريف في شأن نزول هذه الآية أيضاً.

٢ - و لقد فعل ابن كثير (المتوفى عام ٧٣٢) نظير هذا في تاريخه^(١) وكذا في تفسيره (ج ٣ ص ٣٥١) وسلك نفس الطريق الذي سلكه - من قبل - سلفه الطبري ضارباً عرض الجدار مبدأ أمانة النقل!!!

و نحن لانعذر ابن كثير في عمله هذا أبداً، لأنه قد اعتمد - في رواياته التاريخية، في تاريخه وتفسيره معاً - تاريخ الطبري، لا تفسيره، ولا شك أنه قد مرّ على هذه القصة في تاريخ الطبري، ولكنه مع ذلك حاد عن الطريق السويّ فأعرض عن نقل رواية التاريخ - في هذه الحادثة - وعمد - بصورة غير متوقعة - الى نقل رواية التفسير!!!

٣ - والأغرب من تينك الخيانتين ما ارتكبه - في عصرنا الحاضر - وزير المعارف المصرية الأسبق الدكتور «هيكل» في كتابه «حياة محمد»، وفتح بعمله باب التحريف في وجه الجيل الحاضر.

والعجب ان «هيكل» هاجم - في مقدمته - جماعة المستشرقين بشدة وانتقدهم بعنف لتحريفهم الحقائق التاريخية، واختلافهم لبعض الوقائع في حين لم يقصر عنهم في هذا السبيل فهو:

أولاً: نقل الواقعة المذكورة (دعوة الاقربين المعروفة بحادثة يوم الدار أو حديث بدء الدعوة) في الطبعة الأولى من كتابه المذكور بصورة مبتورة ومقتضبة جداً واكتفى من الجملتين الحساستين بذكر واحدة منها فقط وهي: قول النبي مخاطباً

(١) البداية والنهاية: ج ٢ ص ٤٠.

الحضور في ذلك اليوم: «مَنْ يُؤَازِرُنِي يَكُونُ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي» بينما حذف بالمرّة الجملة التي قالها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِعَلِيٍّ بَعْدَ أَنْ قَامَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ وَأَعْلَنَ مَوَازِرَتَهُ لِلنَّبِيِّ وَهِيَ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي»!!!

ثانياً: أَنَّهُ خَطَى فِي الطَّبَعَاتِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ وَالرَّابِعَةِ، خَطْوَةً أَبْعَدَ حَيْثُ حَذَفَ كِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ مَعاً وَهَذَا قَدْ وَجَّهَ ضَرْبَةً كَبْرَى إِلَى قِيَمَتِهِ كَكَاتِبٍ وَقِيَمَةَ كِتَابِهِ، كدراصة تاريخية!!

النبوة والإمامة توأمان:

إن الإعلان عن وصاية عليّ عليه السّلام وخلافته في مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوة يفيد- بقوة ووضوح- أنّ هذين المنصبين ليسا بأمرين منفصلين، ففي اليوم الذي يعلن فيه رسول الله عن رسالته ونبوّته، يعين خليفته ووصيّه من بعده، وهذا يشهد- بجلاء- بأن النبوة والإمامة يشكّلان قاعدة واحدة، وأن هذين المنصبين إن هما إلا كحلقتين متصلتين لا يفصل بينهما شيء.

كما أن هذه الحادثة تكشف- من جانب آخر عن مدى الشجاعة الروحية التي كان يتحلّى بها الإمام أمير المؤمنين «عليّ بن أبي طالب» عليه السّلام، حيث قام- في مجلس أحجم فيه الشيوخ الدهاة والسادة المحرّبون عن قبول دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَوْفاً وَتَهَيّباً- وأعلن بكل شجاعة مؤازرته للنبي، واستعداده للتضحية في سبيل دينه ورسالته وهو آنذاك غلامٌ في ربيع الثّالث أو الخامس عشر، وما حابى أعداء الرسالة ولا مشاهم كما فعل المصلحون من الساسة والزعماء المتخوفون على مصالحهم ومراكزهم آنذاك!!!

صحيح ان «عليّاً» عليه السّلام كان في ذلك اليوم أصغر الحاضرين سنّاً إلا أن معاشرته الطويلة للنبي قد هيأت قلبه لتقبّل الحقائق التي تردّد شيوخ القوم في قبولها، بل عجزوا عن دركها وفهمها!!

ولقد اعطى ابو جعفر الإسكافي حق الكلام في هذا المجال اذ قال:

فهل يُكَلِّفُ عملُ الطعام، ودعاء القوم صغيراً غير مميّز، وغير عاقل، وهل يؤتَسَن على سرّ النبوة طفلاً... وهل يُدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب، وهل يضع رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ فِي يَدِهِ، ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصيّة، والخلافة، الا وهو أهل لذلك، بالغ حدّ التكليف، محتمل لولاية الله، وعداوة أعدائه، وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ولم يلصق بأشكاله، ولم يُرْمَع الصبيان في ملاعبهم بعد اسلامه، وهو كأحدهم في طبقتهم كبعضهم في معرفته، وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته بل مارأيناه الاماضياً على اسلامه، مصمماً في أمره، محققاً لقوله بفعله، قد صدق اسلامه بعفاه وزهده، ولصق برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلَهُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ مَنْ حَضَرْتَهُ فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته^(١).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢١٥ و ٢٩٥.

الدعوة العامة

كان قد انقضى ثلاث سنوات على بدء البعثة يوم عمد رسول الله صلى الله عليه وآله الى دعوة الناس عامة بعد دعوة عشيرة الاقرين.

فقد استطاع خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوة أن يهدي -من خلال الاتصالات السرية- مجموعة من الاشخاص إلى الإسلام ولكنه دعا هذه المرة وبصوت عالٍ عامة الناس إلى دين التوحيد.

فقد وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا ونادى بصوت عال: يا صباحاه (وهي كلمة كانت العرب تطلقها كلما أحسّت بخطر، أو بلغها نبأ مُرعب فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الخطر)^(١) فلفت نداء النبي صلى الله عليه وآله هذا نظر الناس فاجتمع حوله جماعة من أبناء القبائل المختلفة وقالوا له: مالك؟

فقال صلى الله عليه وآله: رأيتمكم إن أخبرتكم أنّ العدو مُصبحكم أو مُمسيكم ما كنتم تصدّقونني؟

(١) قال الجزري في النهاية: ج ٢ ص ٢٧١: صعد النبي صلى الله عليه وآله على الصفا وقال: يا صباحاه؛ هذه كلمة يقوها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة لانهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويستنون يوم الغارة يوم الصباح، فكان القائل: يا صباحاه يقول: قد غشينا العدو.

قالوا: بلى.

قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

ثم قال: إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف: واصباحاه^(١).

ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء، قبل هذا ولكنها تملكها الخوفُ هذه المرة، وهي تسمعُ ذلك الانذار القوي فبادر أحد قادة الكفر إلى تبديد تلك المخاوف فوراً إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: تَبَّأ لك، ألهذا دعوتنا؟، وتفرّق على أثرها الناس.

الثباتُ و الإستقامة على طريق الهدف:

إن نجاح أي شخص مرهونٌ بأمرين:

الأول: الايمان بالهدف.

والثاني: الاستقامة والثبات والسعي الدائب لتحقيق ذلك.

إنَّ الإيمان هو المحرِّك الباطني والقوة الخفية التي تجر الإنسان شاء أم لم يشأ نحو الغاية التي يتوخاها، وتسهّل عليه الصعاب، وتدعوه إلى العمل الدائب لتحقيق مقصوده، لأن شخصاً كهذا يعتقد إعتقاداً قوياً بأنَّ سعادته، ومجده يتوقّفان على ذلك.

و بعبارة أخرى: إذا آمن انسان بأن سعادته ومجده يتوقفان على تحقيق هدف معين فانه سيندفع بقوة الإيمان نحو تحقيق ذلك الهدف، متجاوزاً كل الصعاب، ومتحدياً كل المشكلات في ذلك السبيل.

فالمريض الذي يرى شفاءه في شرب دواء مرّ مثلاً سيستسهل شربه. والغواص الذي يعتقد إعتقاداً جازماً بأن ثمة درراً غالية الثمن تحت أمواج البحر سيلقي بنفسه في قلب تلك الأمواج دونما خوف أو وجل، ليخرج منها بعد

(١) السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٩٤.

دقائق ظافراً بأعلى الجواهر.

بينما إذا كان المريض أو الغوّاص يشكُّ في عمله، أو يعتقد بعدم فائدته، فإنّه لن يُقدّم عليه قط وإذا ما أقدم فإن عمله سيكون حينئذٍ مقروناً بالجهد والعناء.

فقوة الإيمان اذن هي التي تذلل كل مُشكل، وتسهّل كلَّ صعب.

غير أنه لا ريب في أنّ الوصولَ إلى الهدف لا يخلو من مشكلات وموانع، فلا بدّ من السعي لرفع تلك الموانع، وإزالة تلك المشكلات.

وقد قيل قديماً: أنّ مع كل وردة أشواك، فكيف يمكن قطف وردة دون أن

تُدْمى أنامل القاطف بالأشواك المحيطة بها؟؟؟

هذا وقد بيّن القرآن الكريم هذه المسألة (وهي ان رمز السعادة هو: الإيمان

بالهدف والثبات في طريق تحقيقه) في جملة قصيرة اذ قال:

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَا تَخَافُوا وَ

لَا تَحْزَنُونَ وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ»^(١).

ثَبَاتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَبْرُهُ:

لقد أدت إتصالاتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْخَاصَّة. قَبْلُ الدَّعْوَةِ الْعَامَّة،

وجهودُهُ الْكَبِيرِي بَعْدَ الْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ، إِلَى ظَهْوَرِ وَتَكْوِينِ صَفِّ مَرْصُوعٍ مِنْ

الْمُسْلِمِينَ فِي وَجْهِ صَفُوفِ الْكُفْرِ، وَالْوَثْنِيَّة.

فَالَّذِينَ دَخَلُوا سِرّاً فِي حُوزَةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانَ قَبْلَ الدَّعْوَةِ الْعَامَّةِ تَعَرَّفُوا عَلَى

الْمُسْلِمِينَ الْجَدِيدِينَ الَّذِينَ لَبُّوا دَاعِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ إِعْلَانِ الرِّسَالَةِ، وَشَكَّلَ الْقِدَامِي

وَالْجَدِيدِ جَمَاعَةً قَوِيَّةً مَتَعَاظِفَةً مَتَحَابِبَةً، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَثَابَةِ إِنْذَارِ الْأَوْسَاطِ الْكُفْرِ

وَالشَّرْكِ وَالْوَثْنِيَّة، أَرِيكَهَا وَجَعَلَهَا تَشْعُرُ بِالْخَطَرِ.

عَلَى أَنْ ضَرَبَ نَهْضَةً نَاشِئَةً وَالْقَضَاءَ عَلَيْهَا كَانَ أَمْرًا سَهْلًا لِقَرِيشٍ، وَلَكِنَ

الَّذِي أَرَعِبَ قَرِيشاً وَمَنَعَهَا مِنْ تَوْجِيهِ مِثْلِ هَذِهِ الضَّرْبَةِ هِيَ أَنَّ أَفْرَادَ هَذِهِ

(١) فُصِّلَتْ: ٣٠.

الجماعة، وعناصر هذه النهضة لم يكونوا من قبيلة واحدة، يمكن دمجها
وضربها بكل قوة، بل إنتمى من كل قبيلة إلى الإسلام، عددٌ من الأفراد. ومن
هنا لم يكن إتخاذ أي قرار حاسم بحقهم أمراً سهلاً وبسيطاً.

من هنا قرّر سادة قريش وكبرائها - بعد تداول الأمر في ما بينهم - أن يبدأوا
بالقضاء على أساس هذه الجماعة، ومحرك هذا الحزب، والداعي إلى هذه
العقيدة بمختلف الوسائل فيحاولوا ثنيه عن دعوته بالاغراء والتطميع تارة ويمنعوا
من انتشار دينه بالتهديد والايذاء تارة أخرى.

وقد كان هذا هو برنامج قريش وموقفها من الدعوة طيلة عشر سنوات وهي
المدة المتبقية من سنوات البعثة من الفترة المكية، إلى أن قررت بالتالي قتله.
ولكنه استطاع أن يبطل مؤامرتهم بالهجرة إلى المدينة قبل أن يتمكنوا من القضاء
عليه.

ولقد كان «أبوطالب» آنذاك زعيم بني هاشم ورئيسها المطلق، وكان رجلاً
طاهر القلب عالمي السمعة، شجاعاً، كريماً، وكان بيتاً ملجأً دافئاً للمحرومين
والمستضعفين، وملاذاً للأسف للفقراء والأيتام، وكان يتمتع في المجتمع العربي
-علاوة على رئاسة مكة وبعض مناصب الكعبة- بمكانة كبرى ومنزلة عظيمة،
وحيث أنه كان كفيلاً لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاة جده
«عبدالمطلب»، لذلك حضر سادة قريش بصورة جماعية^(١) عنده وقالوا له:

«يا أباطالب إن ابن أخيك قدسب آهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا
وضللّ آباءنا، فأما أن تكفّه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه».

ولكن «أباطالب» قال لهم قوداً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً حكماً، فانصرفوا
عنه.

بيد أن نفوذ الإسلام وانتشاره كان يتزايد باستمرار، وكانت جاذبية الدين
المحمّدي، وبيان القرآن البليغ يساعداً على ذلك، فيترك أثره في الناس،

(١) ادرج ابن هشام في سيرته: ج ١ ص ٢ و ٢٦٥ اسماءهم بالتفصيل.

وخاصة في الأشهر الحرم حيث تفد الحجيج على مكة من مختلف أنحاء الجزيرة، وكان النبي صلى الله عليه وآله يعرض دينه عليهم، فكانت أحاديثه الجذابة، وكلماته البليغة، ودينه المحبب تؤثر في قلوب كثير منهم، فيميلون إلى الإسلام ويقبلون دعوة الرسول.

وهنا أدرك طغاة مكة وفراعنتها أن «محمدًا» قد بدأ يفتح له مكاناً في قلوب جميع القبائل، وأصبح له انصاراً وأتباع في كثير منها، مما دفعهم مرة أخرى إلى الحضور عند «أبي طالب» حاميه الوحيد، وتذكيره بالإشارة والتصريح بالاحطار المحدقة باستقلال المكين وعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وانتشاره فقالوا له أجمع: يا أبا طالب، إن لك سنًا، وشرفًا، ومنزلة فينا، وإننا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإننا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

فأدرك حامى الرسول الوحيد - بذكائه وفطنته - أن عليه أن يصبر أمام جماعة ترى وجودها، ومصالحها في خطر، من هنا عمد إلى مسالمتهم وملاطفتهم، ووعد بأن يبلغ ابن أخيه «محمد» كلامهم. وقد كان هذا محاولة من «أبي طالب» لتسكين غضب تلك الجماعة الغاضبة وإطفاء نائرتهم، وتهديئة خواطرهم، ليتم معالجة هذه المشكلة - بعد ذلك - بطريقة أصح، وأفضل.

ولهذا أقبل - بعد خروج تلك الجماعة من عنده - على ابن أخيه، وذكر له مقال له القوم، وهو يريد - بذلك ضمناً - إختبار إيمان «محمد» بهدفة، فكان الرد العظيم، والجواب الخالد الذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الأكبر «محمد» رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قال لعمه بعد أن سمع مقالة قريش:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو اهلك فيه، ما تركته».

ثم اغرو رقت عيناه الشريفتان بدموع الشوق والحب للهدف، وقام وذهب

من عند عمه .

و كان لتلك الكلمات الصادقة النافذة أثرٌ عجيب في نفس زعيم مكة وسيدها الوقور بحيث نادى ابن اخيه، وأظهر له استعداداه الكامل للوقوف الى جانبه، والحدب عليه رغم كل المخاطر، والمتاعب التي كانت تكمن له اذ قال: «إذْهَبْ يَا ابْنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتُ فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا».

قرش تمشي إلى أبي طالب للمرة الثالثة:

لقد أقلق انتشار الإسلام المتزايد قرشاً، و دفعها إلى التفكير في حيلة، فاجتمع أشرافها وسادتها للتشاور مرة أخرى وقالوا: لعل كفالة أبي طالب لمحمد هي التي تدفعه إلى الدفاع عنه وحمایته والوقوف الى جانبه في دعوته، فكيف لو مشوا إليه بأجل فتیان مكة، وطلبوا منه أن يأخذه بدل «محمد» ويسلمه اليهم ليروا فيه رأيهم، ولهذا مشوا الى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له:

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهذفتي في قرش وأجمله، فخذهُ فلك عقلهُ ونصرهُ، واتخذهُ ولداً فهو لك، وأسلمِ إلينا ابن أخيك هذا، الذي فرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فنقتله، فانما هو رجل برجل !!

فأجابهم أبوطالب وهو مستاء من هذه المساومة الظالمة:

«هذا والله لبئس ماتسوموني! أتعطوني إبنكم أغدوه لكم، واعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً».

فقال «المطعم بن عدي بن نوفل»: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، فما

أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فأجابه أبوطالب قائلاً: والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني،

ومظاهرة القوم عليّ فاصنع ما بدالك^(١).

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٧ و ٦٨، السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٢٦٦ و ٢٦٧.

قريش تحاولُ تطبيع رسول الله!

ولما علمت قريش بأنه لا يمكن ارضاء «أبي طالب» بخذلان ابن أخيه «محمد»، فهو وإن كان لا يتظاهر بالإسلام، إلا أنه يكتنُّ لابن أخيه، وُداً عميقاً، ومحبة كبرى من هنا قرّروا بأن يتركوا مفاوضة، إلا أنهم فكّروا في خطة أخرى وهي أن يُحاولوا إثناء النبي عن المضي في دعوته بتطعيه بالمناصب، والهدايا، والأموال والفتيات الجميلات، ولهذا مشوا الى بيت «أبي طالب» ودخلوا عليه ومحمد جالسٌ إلى جنبه فتكلّم متكلّمهم وقال: يا محمد انا بعثنا اليك لِنُكَلِّمَكَ، فانا والله لانعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعيبت الدين، وسببت الآلهة، وسفّهت الاحلام، وفرقت الجماعة ولم يبق امر قبيح إلا أتيته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثر مالاً، وان كنت انما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وان كان هذا الذي ياتيك تابعاً من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طبعك.

فقال ابوطالب لرسول الله صلى الله عليه وآله أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك، يزعمون انك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا عم أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم بها العجم الجزية.

ففرعوا لكلمته، ولقوله فقال القوم كلمة واحدة: نعم وأبيك عشراً.

قالوا: فهاهي، فقال ابوطالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟

قال: «لا اله الا الله».

فكان هذا الرد مفاجئة قوية لذلك الفريق الذي يأمل في صرف النبي صلى الله عليه وآله عن هدفه، ولهذا قاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب»^(١).

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٠٣، تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦.

غاذج من إيذاء قريش وتعذيبها للمسلمين:

يوم صدع رسول الله صلى الله عليه وآله بما أمر، وجهر بدعوته للناس وأيس سادة قريش من قبوله لأي اقتراح من إقتراحاتهم بعد ماسمعه يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك دونه ما تركته» بدأ في الحقيقة واحداً من أشد فصول حياته، وأكثرها متاعب ومصاعب، لأن قريشاً كانت لا تزال إلى ذلك الوقت تراعي حرمة وتحرمة، وتسيطر على أعصابها، ولكنها عندما فشلت في خططها لجره إلى مساومتها اضطرت إلى تغيير نهجها وأسلوبها معه لتقف دون إنتشار دينه مهما كلف من الثمن مستفيدة في هذا السبيل من كل الوسائل الممكنة.

من هنا قرر سادة قريش بالاجماع أن يتوسلوا بسلاح الاستهزاء والسخرية، والإيذاء والتهديد، بهدف صرفه عن المضي في دعوته^(١).

ولا يخفى أن المصلح الذي يفكر في هداية العالم البشري كله يجب ان يتزود بقدر كبير من الصبر والتحمل، أمام جميع المشكلات والمتاعب، والمكاره والشدائد ليتغلب عليها شيئاً فشيئاً، كما كان دأب كل المصلحين الآخرين.

و نحن هنا نورد طرفاً من أذى قريش لرسول الله وأتباعه ليتضح مدى صبر النبي صلى الله عليه وآله وثباته، واستقامته على طريق الدعوة.

و لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتمتع -مضافاً إلى العامل الروحي والمعنوي الباطني الذي كان يساعده من الداخل أعني الإيمان والصبر والإستقامة والثبات- بعامل خارجي تولى حراسته وحمايته وذلك حماية بني هاشم، وعلى رأسهم أبوطالب له صلى الله عليه وآله، لأنه عندما عرف «أبوطالب» بعزم قريش القاطع على إيذاء ابن أخيه (محمد) دعا بني هاشم عامة، وطلب منهم جميعاً حماية النبي صلى الله عليه وآله والقيام دونه، فلبوا نداء سيدهم، وأجابوه

(١) راجع لمعرفة ابرز من كان يؤذي النبي والمسلمين المحبر: ص ١٥٧ و ١٦١.

إلى مادعاهم من حماية رسول الله وحراسته بعضُ بدافع الايمان وآخر بدافع الرّحم، الآ «أبو لهب» ورجلان آخران انضموا الى اعداء النبي صلى الله عليه وآله ولكن هذا السياج الدفاعي لم يقدر - مع ذلك - على صيانتها صلى الله عليه وآله من بعض الحوادث المرّة، لأنّ قريشاً ألحقت به الأذى، وأنزلت به مكروهاً، كلما وجدته وحيداً بعيداً عن أعين حُماته.

وإليك فيما يأتي بعض النماذج من ذلك الأذى:

١ - مرَّ «أبو جهل» برسول الله صلى الله عليه وآله عند الصفا، فأذاه وشتمه ونال منه ببعض ما يُكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وآله ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزة بن عبد المطلب» رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدّث معهم، وكان أعزفتي في قريش، وأشدّ شكيمة.

فلما مرّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة (وتلك هي كنيته) لورأيت مالقي ابن أخيك محمّد أنفأ من أبي الحكم بن هشام (وتعني أبا جهل): وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه، وبلغ منه ما يُكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمّد صلى الله عليه وآله.

فغضب «حمزة» لذلك، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعيداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فاقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجرة منكراً، ثم قال: «أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول. فردّ ذلك عليّ أن استطعت».

فقامت رجالٌ من بني مخزوم إلى «حمزة» لينصروا «أبا جهل» فقال أبو جهل:

دعوا أبا عمارة فاني قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً^(١). وهذا منع «أبوجهل» الذي كان ممن يدرك خطورة مثل هذه المواقف من وقوع شجار وقتال. إن التاريخ الثابت والمسلم يشهد بأن وجودَ رجال ذوي بأس وقوة بين صفوف المسلمين مثل «حمزة» الذي أصبح في مابعد من كبار قادة الإسلام، قد كان له أثرٌ كبيرٌ في حفظ الإسلام، والحفاظ على حياة الرسول صلى الله عليه وآله ودعم جماعة المسلمين، وتقوية جناحهم، فهذا ابن الأثير^(٢) يقول عن حمزة: لما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد عزّ وامتنع فكفوا عما كانوا يتناولون منه. من هنا أخذت قريش تفكرُ في إعداد خطط أخرى لمواجهة قضية الإسلام والمسلمين، سنذكرها في المستقبل.

هذا ويرى بعضُ المؤرخين مثل ابن كثير الشامي^(٣) على أن رُدود فعل إسلام «أبي بكر» و«عمر» وأثرهما لم تكن بأقلّ من تأثير إسلام «حمزة»، وأنّ الدين قوياً جانبه بإسلام هذين الرجلين، وكسبَ المسلمون بذلك القوة والحرية في العمل والتحرك، والحقيقة انه لاشك في انه لكل فرد تأثيره في تقوية ودعم الإسلام، إلّا أنه لا يمكن -القولُ بحال بأن تأثير إسلام الشيخين كان يعدل تأثير إسلام «حمزة»، فإن «حمزة» ما ان سمع بأن قريشاً أساءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله الآ وتوجه، من دون أن يُعرج على أحد، إلى المسيء وانتقم منه في الحال أشدّ انتقام، ولم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه ومنع المسيء منه، ومن غضبه وانتقامه، بينما يكتب ابن هشام في سيرته عن «أبي بكر» امرأ يكشف عن أن «أبابكر» يوم دخل في صفوف المسلمين لم يكن قادراً على حماية نفسه، ولا على الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله. واليك نصُّ الواقعة:

مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم على جملة من قريش وهم جلوس عند الحجر، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول:

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٩١ و ٢٩٢، تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٧٢.

(٢) الكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٥٦.

(٣) البداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٦ و ٣٢.

كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم أنا الذي أقول ذلك، فأخذ رجلٌ منهم بجمع رداثه (وهم يقصدون قتله) فقام «أبوبكر» دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً يقول ربّي الله؟ فانصرفوا عنه (ولم يقتلوه لأمر رأوه)، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى منزله، ورجع «أبوبكر» يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه^(١).

إن هذه الرواية التاريخية إذا دلت على مشاعر الخليفة تجاه النبي صلى الله عليه وآله إلا أنها تدل قبل أي شيء على عجزه وضعفه.

إنه يدلُّ على أنه لم يملك ذلك اليوم لأية مقدرة بدنية وروحية، ولأية مكانة اجتماعية تُرهّب، وحيث أنّ إلحاق الأذى بشخص رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينطوي - في نظر قریش - في نظر عقاب لا تحمد - لذلك تركوا رسول الله، ووجَّهوا ضربتهم إلى رفيقه وصدعوا فرق رأسه.

ولو أنك قارنت بين هاتين الحادثتين وقايست بين موقف «حمزة» الشجاع وموقف الخليفة الأول هذا لاستطعت أن تقضي بسهولة بأن عزة الإسلام وقوة المسلمين، وتعزيز موقفهم، وخوف الكفار كان يعود إلى إسلام أي واحد من ذينك الرجلين؟

هذا وستقرأ في القريب العاجل كيفية إسلام «عمر». وسترى بأن إسلامه - كإسلام صديقه - لم يزد هو الآخر من قدرة المسلمين الدفاعية، وأنهم بالتالي لم يعتزوا بإسلامه.

فيوم أسلم «عمر» كاد أن يُقتل لولا «العاص بن وائل السهمي» لأنه هو الذي خاطب الذين قصدوا قتل «عمر» قائلاً: رجُلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون منه؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا، خلوا عن الرجل^(٢).

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٨٩ و ٢٩٠، وقد ذكر الطبري في تاريخه: ج ٢ ص ٧٢ قصة صدع رأس

أبي بكر بالتفصيل فراجع. (٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٤٩.

إن هذه العبارة التي قالها «العاص» لانقاذ الخليفة الثاني من أيدي الذين اجتمعوا على قتله تفيد -بوضوح- أن الخوف من قبيلة «عمر» هو الذي كان وراء تركهم إياه وعدم قتله، وقد كان دفاع القبائل عن أبنائها سنة فطرية وعادة متعارفة يومذاك وكان يتساوى فيها الكبير والصغير، والشريف والوضيع.

أجل إن بني هاشم هم كانوا -في الواقع- الحصن الحقيقي للمسلمين، وقد كان القسط الأكبر من هذا الأمر يتحمله «أبوطالب» وذووه، وإلا فإن الأشخاص الآخرين الذين كانوا ينضمون إلى صفوف المسلمين لم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم، فكيف بالدفاع عن الإسلام وجماعة المسلمين ليقال: أن المسلمين اعتزوا بهم؟

أبوجهل يكمُنُ لرسول الله:

لقد أغضب تقدم الإسلام المطرد قريشاً بشدة فلم يمر يوم دون أن يبلغهم نبأ عن انضمام واحد من أفراد قريش إلى صفوف المسلمين ولأجل هذا راح مرجل الغضب والحنق على النبي صلى الله عليه وآله يغلي في نفوسهم، فهذا فرعون مكة «أبوجهل» يقول لقريش في مجلس من مجالسهم: يامعشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ماترون من عيب ديننا، وشم آباءنا، وتسفيه أحلامنا، وشم أهتنا، وإني أعاهدُ الله لأجلسنَّ له غداً بججر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه.

فلما كان من غد أخذ «أبوجهل» حجراً كما وصّف ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وآله ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وآله على عادته ووقف للصلاة بين الركن اليماني والحجر الأسود، وغدت تلك الجماعة من قريش فجلست في أنديتها تنتظر ما أبوجهل فاعل، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وآله أحتمل «أبوجهل» الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه، مرعوباً وقذف الحجر من يده، فقامت إليه رجال من قريش وقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال بصوت ضعيف يطفح بالخوف والرعب: قت إليه

لأفعل به ماقلت لكم البارحة فلما دنوتُ منه عرض لي دونه ما لا رأيت مثله حياتي، فتركته!!^(١).

إنه ليس من شك في أن قوة غيبية أدركت رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر الله تعالى في تلك اللحظة، وصورت ذلك المنظر الرهيب وحفظت رسول الله صلى الله عليه وآله كما وعده تعالى وعداً لا خلف فيه إذ قال: «إِنَّا كَفَيْتَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»^(٢).

و هناك نماذج كثيرة من أذى قريش لشخص رسول الله صلى الله عليه وآله سجّلها التاريخ في صفحاته، وقد عقد «ابن الأثير»^(٣) فصلاً خاصاً لهذا الموضوع ذكر فيه أسماء أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله الألداء، في مكة، وبين أنواع ما كانوا يؤذون به النبي صلى الله عليه وآله، وما قد مرّ ذكره في الصفحات السابقة ما هو إلا أمثلة على ذلك، فقد كان صلى الله عليه وآله يواجه في كل يوم نوعاً خاصاً من الأذى، والمضايقة.

فقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله كان يطوف ذات يوم فشمته «عقبة بن أبي معيط» وألقى عمامته في عنقه، وجره من المسجد، فأخذوه من يده، خوفاً من بني هاشم^(٤).

ابو لهب يؤذي رسول الله:

ولقد تعرّض رسول الله صلى الله عليه وآله لأذى لامثيل له من جانب عمه «أبي لهب» وزوجته «أم جميل» وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجاورهم، فلم يألوا جهداً في إزعاجه وإيذائه فكم من مرة ومرة ألقيا الرماد

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٩٨ و ٢٩٩.

(٢) الحجر: ٩٥.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٧٠، كما وعقد المجلسي رحمه الله في البحار: ج ١٨ باباً خاصاً بعنوان: «باب المبعث والنبي» الدعوة: وه. لقي صلى الله عليه وآله من القوم» راجع من صفحة ١٤٨ إلى

(٤) السيرة الخلية: ج ١ ص ٢٩٣ نظيره.

والتراب على رأسه الشريف وتيابه. وكم من مرة نشرت أم جميل الشوك على طرفه، أو جمعت خلف باب بيته لتؤذيه عند الخروج.

ولاشك ان معارضة انساب النبي واقربائه لدعوته المباركة، وايداؤهم اياه كان اكثر ايلاماً لنفسه الشريفة، واشد وقعاً عليها، حتى اننا نجد القرآن يخص أبالهب باللعن ويسميه بصورة خاصة مما يكشف عن هذه الحقيقة اذ يقول:

«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيِّضَلِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ»^(١).

صبر النبي صلى الله عليه وآله واستقامته:

ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يواجه كل ذلك الأذى وماشابهه من التحججات التي سنشير اليها بصبر عظيم، وثبات تتعجب منه الجبال السماء، وذلك اولاً إيماناً منه برسالته.

إيذاء المسلمين وتعذيبهم!

يرجع تقدم الإسلام في مطلع عهد الرسالة إلى عوامل منها: ثبات رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، وثبات أتباعه وأنصاره.

ولقد تعرفنا - في ماسبق - على أمثلة ونماذج من ثبات قائد الإسلام الأكبر وصبره، واستقامته في مآلتي من أذى ومضايقة.

على أن ثبات أنصاره واتباعه الذين آمنوا في مكة (مركز الحكومة الوثنية آنذاك) هو الآخر مما يدعو إلى الإعجاب ويستحق الاحترام. وسندكر صمودهم وثباتهم في حوادث ما بعد الهجرة في محله.

وأما هنا فنسلط الضوء على حياة عدد من أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله القدامى الذين تحملوا أشد أنواع العذاب وكانوا يعيشون في المحيط المكي

حيث لم يكن ملجأ لهم يلجؤون اليه، وهاجروا منه لأغراض الدعوة والتبليغ بعد أن تحملوا شيئاً كثيراً من الإيذاء والتعذيب على أيدي المشركين والوثنيين القساة.

١ - بلال الحبشي:

كان أبواه ممتن أسروا في الجاهلية وجيء بهم من الحبشة إلى جزيرة العرب ثم إلى مكة.

و أما بلال الذي أصبح في مابعد مؤذن النبي صلى الله عليه وآله فقد كان غلاماً لـ «أمية بن خلف» الذي كان من أشد أعداء النبي صلى الله عليه وآله. و حيث أن عشيرة النبي صلى الله عليه وآله تولت الدفاع عنه صلى الله عليه وآله و حمايته ولم يمكن لأمية إلحاق الأذى برسول الله صلى الله عليه وآله عمد إلى تعذيب غلامه بلال الذي أسلم، أمام الناس، بأشد أنواع الأذى والتعذيب إنتقاماً، وتشفيماً.

فقد كان يطرح بلالاً عارياً على الأحجار والصخور الملتهبة في الهاجرة، ويضع صخرة على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد الآلات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء والمحنة الشديدة: أَحَدٌ أَحَدٌ^(١).

ولقد أثار ثبات هذا الغلام الأسود وجلده وصبره على أذى سيده، إعجاب الآخرين، حتى أن «ورقة بن نوفل» مرّ عليه وهو يعذب بذلك وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، أقبل على «أمية» ومن يصنع به ذلك من «بني جمح» فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لا تخذنه حناناً (أي لأجعلن قبره متبركاً ومزاراً)^(٢).

و ربما زاد «أمية» من تعذيبه لبلال فربط حبلاً بعنقه وترك الصبيان يديرون به في الأزقة والسكك^(٣).

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣١٧ و ٣١٨.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣١٨.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٣ ص ٢٣٣.

وقد أسير «أمية» وابنه في معركة «بدر» وكانا أول من أسرا من المشركين، ولم يوافق بعض المسلمين على قتلها ولكن بلالاً قال: «رأس الكفر أمية بن خلف لانجوت إن نجا». وأدى إصرار بلال على قتلها إلى قتل أمية وابنه جزاء أعمالها الظالمة.

٢ - آل ياسر رمز الصمود والمقاومة!

كان «عمار» ووالداه من السابقين الى الإسلام فهم أسلموا يوم كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلتقى بأصحابه ويدعو الى الإسلام في بيت «الارقم بن أبي الارقم»، وعند ما عرف المشركون بانضمامهم إلى صفوف المسلمين عمدوا إلى إيذائهم وتعذيبهم ولم يألوا جهداً في ذلك أبداً.

فقد كان المشركون يخرجون «عماراً» واباه «ياسر» وأمه «سمية» في وقت الظهيرة الى رمضاء مكة ليقضوا ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة، وفوق الرمال الملتهبة والصخور المتقدة كأنها الجمرات.

وقد تكرّر هذا العذاب مرّات عديدة حتى أودى بحياة «ياسر» ففضى نحبّه على تلك الحال.

وقد خاشنت زوجته «سُمَيّة» أبا جهل وكلمته في زوجها بغليظ القول، فطعنها اللعين برمح في قلبها فقضت - هي الأخرى - نحبّها، وكانا أول شهيدين في الإسلام^(١).

وقد ألم رسول الله صلى الله عليه وآله ما شاهده من حالهما وهما يعذبان بأشد أنواع العذاب فقال لهما ولولديهما «عمار» وهو يصبرهم، والدموع تنحدر على خديه:

«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٤١ والسيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة.

(٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١ ص ٢٣٨ و ٢٣٩.

و بعد أن قضى والدا «عمار» نخبهما تحت التعذيب بالغ المشركون القساة في تعذيب «عمار» وإيذائه والتنكيل به. واذوا يعذبونه على نحو ما كانوا يعذبون به بلائاً، وهم يقصدون قتلهم، وإحراقه بأبويه!! أو يتبرأ من دين النبي صلى الله عليه وآله، فاضطروا أن يعطيه ما يريدون. يظهر الرجوع عن الإسلام، إبقاء على نفسه، وتقية منهم فتركوه، وانصرفوا عن قتله، ولكنه سرعان ما ندم على فعله من التظاهر بترك الإسلام وتأثم من ذلك فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يبكي، فقال له النبي: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان قال: إن عادوا فعد، فنزلت الآية التالية في أمم عمار: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (١) (٢).

هذا وروي أن أبا جهل حينما قصد تعذيب «آل ياسر» وكانوا أضعف من بمكة أمر بسوط ونار ثم سحبوا عماراً وأبويه على الأرض، فكان يكوي بطرف السيف والخنجر المحمى بالنار المشتعلة أبدانهم، ويضربهم بالسوط ضرباً شديداً. وقد تكرر هذا العمل القاسي كثيراً حتى استشهد «ياسر» وزوجته «سُمَيَّة» على أثر ذلك التعذيب المرير، ولكن دون أن يفتتا حتى النفس الآخر عن مدح رسول الله صلى الله عليه وآله والاشادة بدينه.

ولقد أثار هذا المنظر المؤلم مشاعر فتيان من قريش فأقدموا - رغم عدائهم للإسلام ومشاركتهم لغيرهم من المشركين في بغض الرسول - على تخليص «عمار» الجريح المنهك عذاباً من براثن «أبي جهل» ليتمكن من مواراة أبويه الشهيدين.

٣ - عبد الله بن مسعود:

تشاور المسلمون في ما بينهم في مقرهم السري في من يجهر بالقرآن على مسامع قريش، في المسجد الحرام لأنها لم تسمع منه شيئاً إذ قالوا: والله ما سمعت قريش

(٢) الدر المنثور: ج ٤ ص ١٣٢ عند تفسير الآيتين المذكورتين.

(١) البخاري: ١٠٥ و ١٠٦.

هذا القرآن يجهر لها قط فمن رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْوه؟

فأدى «ابن مسعود» استعدادَه للقيام بهذه العملية الجريئة، وتلاوة القرآن على مسامع قريش في المسجد الحرام بصوت عالٍ. فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دَعَوني فأنَّ الله سيمنعني.

ثم غدا «ابن مسعود» حتى أتى المقامَ في وقت الضحى وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رافعاً بها صوته، «الرَّحْمَانُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ» وهكذا استمر يقرأ بقية آيات تلك السورة المباركة.

فارعبت عبارات القرآن الفصيحة القوية قلوب سراة قريش، ولكي يمنعوا من تأثير هذا النداء الالهى العظيم قاموا إليه جميعاً وجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل هو يقرأ حتى بلغَ منها ماشاء الله أن يبلغ ثم عادَ إلى اصحابه وقد أذمى وجهه وجسمه، وهو مسرورٌ لإشباع قريش كتاب الله تعالى وآياته المباركة^(١). إنَّ الَّذِينَ صَمَدُوا فِي أَشَدِّ الْأَيَّامِ وَأَصْعَبِهَا فِي مَطْلَعِ عَهْدِ الْبَعْثَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ لَأَشْكُ أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرْنَا أَسْمَاءَهُمْ إِلَّا أَنَّا اِكْتَمِينَا بِهَذَا الْقَدْرِ رِعَايَةً لِلِاخْتِصَارِ.

٤ - أبوذر: أول المجاهدين بالإسلام

كان «أبوذر» رابع أو خامس من أسلم^(٢)، وعلى هذا فهو من الذين أسلموا في الأيام الأولى من بزوغ شمس الإسلام وطلوع فجره، فإذاً هو من السابقين إلى الإسلام.

وقد صرح القرآن الكريم بأنَّ للذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله في بدء

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣١٤.

(٢) أسد الغابة: ج ١ ص ٣٠١، الإصابة: ج ٤ ص ٦٤، الاستيعاب: ج ٤ ص ٦٢.

بعثته وبالتالي فإنَّ للسابقين عند الله تعالى مكانة عظيمة، ومقاماً لا يضاهاى إذ قال تعالى:

«السَابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»^(١).

وقال تعالى فيهم أيضاً.

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»^(٢).

وقال تعالى كذلك في من آمن قبل فتح مكة وفضلهم، ومكانتهم المعنوية المتفوقة على من أسلم بعد إعتزاز الإسلام، واشتداد أمره، وقيام دولته يعني أنهم ليسوا سواء.

«لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا...»^(٣).

أجل هذه هي مكانة السابقين في الإسلام وكان «ابوذر» منهم. هذا مضافاً إلى أنه يُعدُّ أول من نادى بالإسلام على رؤوس الأشهاد وفي الملأ من قريش.

فيوم أسلم «أبوذر» كان رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً، ولم تتهيأ بعد ظروف الجهر بالدعوة إلى هذا الدين، فإن أتباع الإسلام والمؤمنين به لم يتجاوز عددهم في ذلك اليوم عدد الأصابع هم: النبي صلى الله عليه وآله وخمسة ممن آمنوا به، وقبلوا دعوته، ومع ملاحظة هذه الإعتبارات والظروف لم يكن بد - حسب الظاهر - من أن يُخفي «أبوذر» إسلامه، ويعود إلى قبيلته من دون أن يعرف به أحدٌ في مكة.

ولكنَّ روح «أبي ذر» الطافحة بالإيمان والحماس أبت ذلك، وكأنه قد خُلِقَ لينهض في كل زمان و مكان ضدَّ الظلم والطغيان، ويرفع عقيدته في وجه

(١) الواقعة: ١٠ - ١١.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) الحديد: ١٠.

الباطل وأهله، ويكافح الانحراف والاعوجاج أياً كان مصدره، وصاحبه. وأيُّ باطل أكبر من أن يُطأطئ الناسُ أمامَ أصنامٍ مصنوعةٍ من الحجر، ويخضعوا أمام أوثانٍ منحوتةٍ من الخشب لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ويسجدوا لها ويتخذوها آلهة دون الله الخالق الكبير المتعال؟؟

إنه ليس في وسع «أبي ذر» أن يتحمَّل هذا المشهد البغيض المقرِّف!!
 من هنا قال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِعَدَ أَنْ مَكَثَ فِي مَكَّةَ قَلِيلاً وَ
 قَرَأَ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ: يَا نَبِيَّ اللهُ مَا تَأْمُرُنِي؟
 قَالَ: تَرْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ حَتَّى يَبْلُغَكَ أَمْرِي.
 فَقَالَ لَهُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَرْجِعُ حَتَّى أَصْرُخَ بِالْإِسْلَامِ فِي الْمَسْجِدِ.
 قَالَ: أَنِي أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَقْتُلَ.
 قَالَ: لَا بَدَ مِنْهُ وَإِنْ قُتِلْتُ.

ثم دخل المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ^(١).

إن التاريخ الإسلامي يشهد بأن هذا النداء كان أول نداء تحدى جبروت قريش وشركها، وقد اطلقت حنجرته رجل غريب لاحامي له في مكة ولانصير، ولا قوم ولا قريب.

وقد وقع ماتوقعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا أَنْ دَوَى صَوْتِ أَبِي ذَرِّ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى قَامَ إِلَيْهِ رِجَالُ قُرَيْشٍ، وَهَجَمُوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَضَرَبُوهُ بِشِدَّةٍ حَتَّى صَرَخَ فَاتَاهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ فِي مَحَاوَلَةٍ لِانْقَاذِهِ مِنَ الْمَوْتِ -بَطْرِيْقَةٍ لَطِيْفَةٍ- وَقَالَ: قَتَلْتُمُ الرَّجُلَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَنْتُمْ تَجَارُ وَطَرِيْقَكُمْ عَلَى غَفَارٍ، فَتَرِيدُونَ أَنْ يَقْطَعَ الطَّرِيقَ، فَأَمْسِكُوا عَنْهُ.

ونجحت محاولة «العباس» الانقاذية، وكفّت قريش عن أبي ذر.

(١) حلية الأولياء: ج ١ ص ١٥٨ و ١٥٩، الطبقات الكبرى: ج ٤ ص ٢٢٥، الاستيعاب: ج ٤ ص ٦٣، الاصابة: ج ٤ ص ٦٤، الدرجات الرفيعة: ص ٢٢٨.

ولكن أباذر الشاب الشجاع، والطافح بالحوية والحماس عاد اليوم الثاني فصنع مثل ماصنعه في اليوم الاول فضربوه حتى صرع، فأكب عليه العباس، وقال لهم مثل ما قال في أول مرة فأمسكوا عنه.

ولاشك في انه لو لم يكن العباس لما نجي أبوذر من مخالف المشركين في اغلب الظن، ولكن أباذر لم يكن بذلك الرجل الذي يتراجع عن هدفه بسرعة، ولهذا بدأ جهاده من جديد.

ففي يوم رأى امرأة تطوف بالبيت، وتدعو ساف ونائلة (وهما صنمان لقرش) وتسالهما ان يقضيا لها حاجاتها، فانزعج أبوذر من جهل تلك المرأة، ولكي يفهمها بانها تدعو صنمين لا يضران ولا ينفعان بل ولا يشعران قال: أنكحي أحدهما الآخر. فغضبت المرأة لقول ابي ذر في الصنمين، وتعلقت به وقالت: انت صابئ، فجاء فتية من قرش فضربوه، وجاء ناس من بني بكر فانقذوه منهم^(١).

قبيلة غفار تعتق الإسلام:

لقد أدرك رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قابليات تلميذه وناصره الجديد، وصلابته الخارقة في مكافحة الباطل، ولمكن حيث ان الوقت لم يكن يحن بعد للدخول في مواجهة ساخنة مع المشركين لهذا أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بان يلحق بقومه، ويدعوهم إلى الإسلام، قائلاً له: «إلحق بقومك فاذا بلغك ظهوري فأتني».

فعاد أبوذر إلى قومه، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام ويكلمهم عن النبي صلى الله عليه وآله، ويدعوهم إلى نبد الاصنام وعبادة الله الواحد، والتخلق بالاخلاق الرغبية.

فاسلم أبواه، أولاً، ثم اسلم نصف رجال قبيلته «غفار» ثم اختار البقية الإسلام بعد هجرة النبي إلى المدينة، ثم تبعها قبيلة «أسلم» حيث وفدوا على

(١) الطبقات الكبرى: ج ٤ ص ٢٢٣.

رسول الله صلى الله عليه وآله واعتنقوا الإسلام.
ثم التحق ابوذر بعد معركة بدر وأحد برسول الله صلى الله عليه وآله في
المدينة وأقام فيها^(١).

وربما كان إيذاء المشركين للمسلمين المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله
يتخذ طابع التهديد والترهيب وممارسة الضغط النفسي والاقتصادي
والاجتماعي.

فقد كان أبوجهل إذا سمع بالرجل قد اسلم له شرف ومنعة آتبه وأخزاه،
وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لئسْفَهَنَّ حَلَمَكَ، ولنفيْلَنَّ رأْيكَ،
ولنضعَنَّ شرفك.

وإن كان تاجراً قال له: لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك.
وإن كان ضعيفاً ضربته، وأغرى به^(٢).

و روي أيضاً أن «خبّاب بن الارت» صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله
وآله كان قيناً بمكة يعمل السيوف وكان قد باع من «العاص بن وائل» سيوفاً
صنعها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال ياخبّاب: أليس يزعم
«محمد» صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من
ذهب وفضه أو ثياب أو خدم، قال خبّاب: بلى، قال: فأنظرنني الى يوم القيامة
ياخبّاب حتى أرجع الى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقك فوالله لا تكون
وصاحبك ياخبّاب اشراً عند الله مني!!^(٣).

أعداء النبي الألداء:

إن للتعرف على أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وخصومه الألداء،
ومواقفهم دوراً هاماً في تحليل جملة من حوادث التاريخ الإسلامي التي وقعت

(١) الطبقات الكبرى: ج ٤ ص ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٦، الدرجات الرفيعة: ص ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٩ و ٢٣٠.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٧.

(٣) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٢٠.

بعد الهجرة النبوية.

و نحن نكتفي هنا بادراج اسماء طائفة منهم و نذكر شيئاً من خصوصياتهم .
١ - «أبولهب»: عم النبي صلى الله عليه وآله، وقد كان جاراً له صلى الله عليه وآله، وهو الذي لم يفتأ لحظة واحدة عن تكذيب رسول الله صلى الله عليه وآله وايداء المسلمين.

٢ - «الأسود بن عبد يغوث» و كان أحد المستهزئين وكان إذا وجد مسلماً فقيراً لا يحميه أحدٌ قال مستهزئاً: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى!!^(١).

و لم يمهله أجله ليرى بأمر عينيه كيف ورث المسلمون أرض كسرى وقيصر، ووطأوا عرشهما.

٣ - «الوليد بن المغيرة» شيخ قريش و حكيماً الذي كان يملك ثروة هائلة، وسوف نتحدث عنه وعن موقفه من رسول الله صلى الله عليه وآله في الفصل القادم.

٤ - «أمية» و «أبي» ابناخلف، وقد مشى «أبي» هذا بعظم رميم الى رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم ففتته في يده ثم نفخه نحو النبي وقال: أتزعم أن ربك يُحيي هذا بعد ماترى (أو بعد مارم)؟ فنزل قولُ الله تعالى: «قُلْ يُخَيِّئُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ»^(٢).

و قد قتل ابنا خلف هذان في بدر.

٥ - «أبو الحكم بن هشام» الذي سماه المسلمون لعناده وتعصبه الجاهل ضد الإسلام بأبي جهل، وقد قُتل هو الآخر في بدر أيضاً.

٦ - «العاص بن وائل» وهو والد «عمر بن العاص»، وهو الذي وصف رسول الله صلى الله عليه وآله بالأبتر.

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣١٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٨ ص ٢٠٢، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٦١ و ٣٦٢.

٧ - «عقبة بن أبي معيط» الذي كان من ألدّ اعداء النبي صلى الله عليه وآله، وأشدّ خصومه بغضاً له صلى الله عليه وآله، وكان لا يألو جهداً في مضايقة المسلمين ولا يترك فرصة تمرّدون إيذائهم!^(١).

هؤلاء هم بعض أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله المبالغين في معاداته، وهناك غيرهم كأبي سفيان ممن ذكر المؤرخون خصوصياتهم كاملة في مؤلفاتهم، وقد أعرضنا عن إدراجهم بأجمعهم هنا رعاية للاختصار.

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام:

لقد كان إسلام كل واحد من الذين أجابوا دعوة الرسول صلى الله عليه وآله نابعاً من سبب معيّن.

فربّما أدّت حادثة صغيرة إلى أن يعتنق فردٌ أو فريق الإسلام، وينضمّوا إلى صفوف المسلمين.

وقد اتّسم السبب الذي آل إلى إسلام عمر - من بين جميع تلكم الاسباب والعلل - بطرافة تقتضي التوقف عنده في هذه الدراسة التاريخية التحليلية.

على أن التسلسل التاريخي، والتنظيم الوقائعي لإحداث الإسلام وان كان يقتضي منا ان نأتي على ذكر هذه الحادثة بعد هجرة صحابة النبي صلى الله عليه وآله إلى الحبشة، إلا أن الحديث حيث دار هنا حول صحابة النبي وكيفية اسلامهم ومواقفهم ناسب أن نشير هنا إلى كيفية إسلام الخليفة الثاني.

يقول ابن هشام: كان اسلام عمر - في ما بلغني - أن أخته بنت الخطاب وكانت عند «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» وكانت قد أسلمت وأسلمت بعلمها «سعيد بن زيد»، وهما مستخفيان باسلامهما من عمر (وهؤلاء هم كل من اسلم من آل الخطاب) وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤٧ و ٥١، وراجع أيضاً: أسد الغابة، والاصابة والاستيعاب وغيرها.

و كان «عمر» الذي كانت بينه وبين المسلمين علاقات جداً سيئة^(١) قد أزعجه ما أصاب المجتمع المكي من تشتت وفرقة، ومالحق بقريش من المتاعب أثر ظهور الإسلام، من هنا عزم على أن يقضي على علة هذا الأمر باغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله والفتك به.

فخرج يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وآله ورهطاً من أصحابه وقد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله عمه «حمزة» بن عبدالمطلب و«ابوبكر» و«علي بن ابي طالب» في رجال من المسلمين يحفظونه ويحرسونه.

يقول «نعيم بن عبدالله» وقد كان صديقاً حميماً لعمر: لقيت عمراً وهو متوشح سيفاً ويريد مكاناً فقلت له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابي الذي فرّق في أمر قريش، وسفه أحلامها وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أتري بني عبدمناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى اهل بيتك فتميم أمرهم؟

قال: وأي اهل بيتي؟

قال: خنتك وابن عمك «سعيد بن زيد» واختك «فاطمة بنت الخطاب» فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه فعليك بها.

فأغضب هذا النبأ عمر بشدة فانصرف عن الهدف الذي كان يرمي اليه وعاد من توه إلى بيت أخته، فدخل على أخته وختنه وعندهما «خباب بن الأرت» معه صحيفة فيها سورة «طه» يقرئها إياها، فلما سمعوا حس «عمر» تغيب «خباب» في مخدع لهم، أو في بعض البيت، واخفت «فاطمة بنت

(١) راجع السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٦.

الخطاب» الصحيفة، وكان «عمر» قد سمع حين دنا الى البيت قراءة «خَبَاب» عليها، فلما دخل قال: «ما هذه الهينة^(١) التي سمعت؟
قالا له: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى والله، لقد أُخبرتُ أنكما تابعتما محمّداً على دينه.
و بطش بختنه «سعيد بن زيد» فقامت إليه اخته «فاطمة بنت الخطاب» لتكفّه عن زوجها فضرها فشجّها.
فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنه: نعم قد اسلمنا وآمنا بالله ورسوله،
فاصنع ما بدالك.

فلما رأى «عمر» ما بأخته من الدّم ندم على ما صنع، فارعوى ورجع، وقال
لأخته: اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء
به محمّد؟.

فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافي وحلف لها
بآلهته ليردّنها إذا قرأها، اليها.
فلما قال ذلك طمعت في اسلامه، فقالت: يا أخي، إنك نجس على شركك
وأنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام «عمر» فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها آيات من
سورة «طه» هي:

طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزلاً ممن خلق
الأرض و السماوات العلى. الرحمن على العرش استوى. له ما في السماوات و
ما في الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر و
أخفى^(٢).

و لقد تركت هذه الآيات المحكمة الفصيحة البليغة تأثيراً شديداً في نفس عمر
فقال: ما احسن هذا الكلام؟
و قرر الرجل، الذي كان قبل ثوان عدو الإسلام الأول، أن يغير موقفه،

فتوجه من توه إلى البيت الذي ذكر له أنّ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وجماعة من أصحابه وهو متوشح سيفه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو فزع وأخبر النبي صلى الله عليه وآله بما رأى، فقال حمزة: فإذن له، فإن جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إئذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وآله حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته (وهو موضع شد الإزار) أو بجمع ردايه ثم جَبَذَهُ جَبْدَةً شديدة، وقال: ماجاء بك يابن الخطاب فوالله ما أرى تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة؟!!

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لاؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله. وهكذا اسلم «عمر» عند رسول الله وأصحابه وانضوى إلى صفوف المسلمين.

ثم ان ابن هشام روى رواية أخرى في كيفية اسلام عمر من أراد الوقوف عليها راجعها في السيرة النبوية^(١).

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٦.

رأي قرش في القرآن

ان البحث حول حقيقة الاعجاز القرآني أمرٌ خارج عن اطار هدفنا في هذا الكتاب فذلك متروكٌ إلى الكتب الإعتقادية والكلامية.

ولكن الأبحاث التاريخية تهدينا الى أن القرآن الكريم كان من أكبر وأقوى اسلحة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بحيث خضع أمام فصاحته البالغة وحلاوة كلماته وقوة آياته، وعباراته، اساتذة الفصاحة والبلاغة وأمراء البيان والكلام، وعمالقة الكتابة والخطابة. واعترفوا برمتهم، وقضهم وقضيتهم بأنَّ القرآن الذي جاء به محمد يحتل أعلى مكان في الفصاحة والبلاغة، وأنَّ مثل هذا الحديث لم يعرفه البشر ولم يعهد له التاريخ الانساني نظيراً.

فلقد كانت جاذبية «القرآن الكريم» وتأثير حديثه بحيث ترتعد عند استماع آياته فرائص أعدى اعدائه، وربما انهارت قواه، فبقي مدة طويلة، لا يقوى على جراك ، ولا يملك فعل شيء.

وفما يلي نذكر بعض النماذج في هذا المجال:

حُكْمُ الوليد في القرآن:

كان «الوليد بن المغيرة» ممن يرجع اليه العربُ لحل الكثير من مشاكلها،

وكان ذاسنً، وثروة كبيرة فيهم.

وعندما واجهت قريش مشكلة ظهور الإسلام وانتشاره في القبائل مشى فريقٌ منهم إلى الوليد يلتمسون منه حلاً لهذا الأمر الذي بات يهدد كيان الزعامة المكيّة الجاهلية، وطلبوا منه أن يبيّن رأيه في القرآن الكريم وقالوا: هل هو سحر أم كهانة أم حديث قد حاكّه بنفسه.

فاستنظرهم «الوليد» ليعطي رأيه فيه بعد أن يسمع شيئاً من القرآن، فأتى إلى الحجر حيث كان يجلس النبيّ، وابتلى القرآن، فقال: يا عمّمد أنشدني شعرك .

فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث انبياءه ورسله.

فقال: أتُلّ عليّ منه، فقرأ عليه رسول الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم» .

فلما سمع: الرحمان، استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمى بالرحمان؟ قال. لا، ولكنني أدعو إلى الله وهو الرحمان الرحيم ثم افتتح سورة «حم السجدة» فلما بلغ إلى قوله تعالى:

«فان أعرضوا فقلّ أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثور» .

وسمعه الوليد، فاقشعر جلده، وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقال قريش: يا اباالحكم صبا ابو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع إلينا وقد قبل قوله، ومضى إلى منزله.

فاغتمت قريش من ذلك غمّاً شديداً وغدا عليه ابوجهل فقال: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذاك يا ابن أخي؟

قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال: ما صبوتُ واني على دين قومي وآبائي، ولكنني سمعت كلاماً صعباً

تقشعر منه الجلود فقال أبوجهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطبٌ هي؟

قال: لا وان الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، لا يشبه بعضه بعضاً،

له طلاوة.

قال: فكأنه هي؟

قال: لا.

قال: فاهو؟

قال: دعني افكر فيه.

فلما كان من الغد، قالوا: يا ابا عبد شمس ماتقول؟ قال: قولوا: هو سحر فانه

أخذ بقلوب الناس فأنزل الله سبحانه فيه:

«ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا» الى

قوله: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ»^(١)^(٢).

نموذج آخر:

كان «عتبة بن ربيعة» من كبراء قريش واشرافها، ويوم أسلم «حمزة»

وأصبح أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون اغتمت قريش كلها، وخشي زعماء

المشركين ان ينتشر الإسلام اكثر من هذا فقال عتبة وهو جالس في نادي قريش

يوماً، ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد وحده: يامعشر قريش ألا

أقوم الى «محمد» فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء

ويكف عنا؟

(١) المدثر: ١١ - ٣٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢١١ و ٢١٢، إعلام الوري بأعلام الوري: ص ٤١ و ٤٢.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه.

فقام إليه «عتبة» حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا ابن أخي إنك متا حيث ماقد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آهتهم، ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله قل يا أبا الوليد اسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سؤدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً (وهو ما يتراءى للناس من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبدلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه فإنه ربنا غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه، حتى إذا فرغ «عتبة»، ورسول الله صلى الله عليه وآله يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاسمع مني؛ قال: إفعل، قال:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ»^(١).

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يقرأها عليه، فلما سمعها منه «عتبة» أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه وبقي على هذه مدة من الزمن صامتاً وكأنه قد سلب قدرة النطق، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله الى السجدة فسجد ثم قال.

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

فقام «عتبة» الى أصحابه وقد تغيّرت ملامحُه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهبَ به!! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي اني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله هذا الذي سمعتُ منه نبأ عظيمٌ، فان تصبهُ العربُ فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجت قريشٌ من مقالة «عتبة» هذا وسخرت به وقالت: سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه!!

قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم^(١).

هذان نموذجان من رأي كبار فصحاء العرب في العهد الجاهليّ، في القرآن الكريم.

على أن هناك أمثلة ونماذج أخرى كثيرة في هذا المجال.

تحججات قريش العجيبة:

اجتمع «عتبة بن ربيعة»، و «شيبة بن ربيعة» و «أبوسفيان بن حرب»، و «النضر بن الحارث»، و «أبوالبختري»، و «الوليد بن المغيرة»، و «ابوجهل» و «العاص بن وائل» وغيرهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: إبعثوا الى «محمد» فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه؛ فجاءهم رسول الله صلّى الله عليه وآله سريعاً وهو يظن أن قد بداهم فيما كلفهم فيه بداء وانهم قد غيّرُوا مواقفهم، وكان يحبّ رشدهم وهدايتهم حتى جلس إليهم.

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٩٣ و ٢٩٤.

فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وأنا والله مانعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة... ومضوا يعددون أموراً من هذا القبيل ثم اقترحوا عليه أموراً ذكرها الله تعالى بتمامها في الآية ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء حيث يقول حاكياً عن لسانهم:

«وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ

١ - تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا.

٢ - أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا.

٣ - أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا.

٤ - أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا.

٥ - أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ.

٦ - أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ!!

و حيث إنَّ مضمون هذه الآيات هو عدم تلبية النبي لمطالب قريش حيث قال: «قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» قد تذرع به المستشرقون للايقاع بالرسالة المحمدية لذلك نعمد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات والعلل المنطقية لعدم تلبية النبي لمطالب قريش ومقترحاتهم.

الجواب: إنَّ الأنبياء لا يأتون بالمعاجز في كل ظرف وزمان، فإن للاعجاز شروطاً خاصة لم تتوفر في هذه الاقتراحات، وهذه الشروط هي:

أولاً: أن لا تكون المعجزة من الأمور المستحيلة التي لا يمكن تحققها، فإن مثل هذه الأمور خارجة عن إطار القدرة، ولا تتعلق بها مشيئة الله تعالى ولا مشيئة أي صاحب إرادة مطلقاً.

وعلى هذا الأساس إذا طلب الناس من النبي أمراً محالاً، فقبول طلبهم بعدم الاهتمام من قبل النبي لم يكن ذلك دليلاً على إنكار صدور المعجزة على أيدي الأنبياء قط.

و هذا الشرط لم يكن متوفراً في بعض مقترحات المشركين المذكورة (المقترح الرابع) فانهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وآله ان يأتي لهم بالله سبحانه وتعالى ليقابلوه وجهاً لوجه، ويروه جهرة ومن قريب، ورؤية الله تعالى امر محال، لأن رؤيته تستلزم أن يكون سبحانه محدوداً بالزمان والمكان، وأن يكون جسماً وذالون وصورة وهو تعالى منزّه عن المادة ولوازم المادية.

بل حتى مقترحهم الثالث لو كان المقصود منه أن تسقط السماء عليهم (لأن تسقط قطعة من الصخر على رؤوسهم وتقتلهم) فان ذلك هو أيضاً من المحالات إذ أن المشيئة الالهية تعلقت بان يفعل الله هذا في نهاية العالم، والنبي صلى الله عليه وآله كان قد أخبر المشركين بهذا الأمر أيضاً كما يدل عليه قولهم: «كما زعمت».

إن إهدام المنظومة الشمسية وتبعثر النجوم وتساقطها وإن لم يكن في حد ذاته بالأمر المحال، ولكنه - حسب المشيئة الالهية الحكيمة وإرادته النافذة القاضية بأن يستمر النوع البشري، ويصل إلى مرحلة الكمال - يعد محالاً، ولا يمكن أن يفعل حكيمٌ خلاف ما يقتضيه هدفه وغايته.

ثانياً: حيث إن الغاية المنشودة من اقتراح وطلب الإعجاز هو أن يستدل به على صدق دعوى النبي، وصحة انتسابه الى الله، وبالتالي يكون بدافع تحصيل سند على ارتباطه بالعالم مافوق الطبيعة، لذلك فان أي اقتراح ومطالبة بالمعجزة لا تتوفر فيها هذه الصفة يعني على فرض أن يلبي النبي طلبهم ويأتي لهم بالمعجزة لا يكون ذلك دليلاً على ارتباطه بعالم الغيب، فحينئذٍ لا معنى ولا موجب لأن يقوم النبي بما لا يرتبط بشؤونه ولا يخدم هدفه.

وقد كانت بعض مقترحات المشركين المذكورة من هذا النوع، وذلك مثل تفجير ينبوع من الأرض، أو أن تكون له جنة من نخيل وعنب، أو أن يكون له بيت من زخرف وذهب، فان مثل هذه الأمور لا تدل على نبوة من يمتلكها إذ ما أكثر الذين يمتلكون واحدة من هذه الأشياء وليسوا مع ذلك بأنبياء، بل ربما يملكون أكثر من ذلك، ومع ذلك لا يشم فيهم رائحة الايمان فضلاً عن النبوة.

فاذا لم ترتبط هذه الأشياء بمقام النبوة، ولا تكون دليلاً على صدق من يدعيها كان الإتيان بها أمراً لغواً وعبثاً تعالى عنه مقام النبوة، وجلت عنه منزلة الأنبياء.

وقد يقال: إن هذه الأشياء^(١) لا تدل على صدق دعوى النبي إذا حصلت عن طريق الأسباب العادية، ولكنها لو حصلت بصورة غير عادية ولا متعارفة كانت ولا شك من المعاجز الالهية، ودلت على صدق النبي وصحة دعواه. ولكن الظاهر أن هذه فكرة باطلة لأن المشركين كانوا يهدفون من اقتراحاتهم هذه أن يكون النبي صاحب مال وثروة، فقد كانوا يستبعدون أن يكون نبي الله ورسوله فقيراً لا يملك شيئاً من الثروة المال، وكانوا يعتقدون أن الوحي الالهي يجب أن ينزل على رجل غني ذي طول وحول، ولذلك قالوا مستغربين ومستكبرين:

«وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِ عَظِيمٍ»^(٢)!!؟

أي لماذا لم ينزل هذا القرآن على رجل ثري من مكة أو الطائف. ومما يدل على أن الهدف كان هو أن يملك النبي مثل هذه الأمور بأبي طريق كان، ولو بالطريق العادي أنهم كانوا يريدون هذه الأشياء للنبي نفسه إذ قالوا:

«أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ»^(٣).

وبعبارة أخرى: كانوا يقولون إذا أنت لا تمتلك بستاناً أو بيتاً من ذهب فاننا لن نؤمن لك!!

ولو كان الهدف هو أن يحصل هذان الأمران بواسطة القدرة الغيبية لم يكن وجه حينئذٍ لقولهم: ما لم يكن «لَكَ» بيت من زخرف، فاننا نؤمن بك بل كان يكفي أن يقولوا: إذا لم تحدث وتوجد بيتاً وجنة فاننا لن نؤمن لك.

(١) أي الامور الثلاثة المقترحة النبيوع والجنة والبيت من ذهب.

(٢) الزخرف: ٣١.

(٣) الاسراء: ٩٣.

أما قولهم في مطلع اقتراحاتهم: «تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُنبِوعاً» فان مقصودهم لم يكن هو أن يستخرج لهم بالاعجاز ينبوعاً لينتفعوا به، بل يفعل ذلك لكي يؤمنوا به.

ثالثاً: ان المقصود من المعجزة هو الاهتداء في ضوئها إلى صحة دعوى النبي وصدق مقاله، والإيمان بمنصبه، والإعتقاد بمقامه، وعلى هذا إذا كان بين المقترحين للمعجزة من يكون الا تيان له بالإعجاز سبباً لإيمانه بالنبي، فحينئذ كان الا تيان بالمعجزة وتلبية اقتراحه أمراً مستحسناً، وغير مقبوح عقلاً.

أما إذا كان المقترحون. يقترحون عناداً ولجاجاً، أو يطلبون ما يطلبونه لهواً وتسلياً كما يفعل الناس مع السحرة والمرتابين فان منزلة الأنبياء أجل - حينئذ - من أن يلبي مثل هذه المقترحات، ويستجيب لمثل هذه المطالب، وقد كانت بعض إقتراحات المشركين من هذا النمط.

فان مطالبتهم بأن يصعد النبي إلى السماء، أو أن ينزل من السماء كتاباً يقرأونه لم يكن بهدف إكتشاف الحقيقة لأنهم لو كانوا ممن يهدف الوصول إلى الحقيقة فلماذا لم يكتفوا بمجرد صعوده إلى السماء بل كانوا يصرون على أن يضمّ أمراً آخر إلى عروجه وصعوده (وهو أن ينزل معه كتاباً)!!

ثم انه يُستفاد من آيات أخرى، غير هاتين الآيتين ايضاً، أنهم كانوا سيعاندون، ويصرون على كفرهم حتى بعد نزول الكتاب عليهم من السماء كما يصرح بذلك قوله تعالى:

«وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ»^(١).

فن غير المستبعد أن يكون الكتاب المنزل في قرطاس إشارة إلى إقتراح المشركين الذي جاء ضمن آيات سورة الاسراء اي قولهم: «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُوهُ»^(٢) فقال الله سبحانه: حَتَّى لَوْ

(٢) الاسراء: ٩٣.

(١) الانعام: ٧.

فعلنا لهم ذلك لكفروا، واحجموا عن الإيمان.

رابعاً: إنَّ طلبَ المعجزة إنما هو لأجل أن يستتبع الاتيانُ بها الإيمانَ بالرسالة والانضمام الى صفوف المؤمنين، فاذا كانت نتيجة المعجزة هي إباء المقترحين استلزم ذلك نقض الغرض المنشود من المعجزة، وانتفاء فائدتها. فاذا كان المقصود من سقوط السماء عليهم، هو نزول الصخور السماوية لآبادتهم فان هذا الطلب لا يتفق أبداً مع هدف الإعجاز وهو من أوضح مصاديق نقض الغرض.

و بالتالي ينبغي أن نذكر بنقطة وهي: أنَّ النبي صلى الله عليه وآله - على خلاف ماتصور المستدلون بهذه الآية على نبي أية معجزه لرسول الإسلام - لم يصف نفسه بالعجز وعدم القدرة على الاتيان بالمعجزة بل أفاد بقوله: «سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا»^(١) أمرين:

- ١ - تنزيه الله، فهو بقوله: «سُبْحَانَ رَبِّي» نزه الله تعالى عن كل عجز ونقص كما نزهه عن الرؤية ووصفه بالقدرة على كل شيء ممكن.
 - ٢ - محدودية قدرة النبي، إذ بقوله صلى الله عليه وآله: «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أفاد بأنه امرئ مأمور لا أكثر وأنه مطيع لأمر الله وإرادته فهو يأتي بما يريد ربه، والأمر إلى الله كله، وليس للنبي أن يُلَبِّيَ أي طلبٍ واقترحٍ بإرادته.
- و بعبارة أخرى: ان الآية ركزت في مقام الجواب على طلبهم بعد تنزيه الله عن العجز والرؤية على كلمتي: «البشر والرسول» والهدف هو انه: إذا أنتم قد طلبتم هذه الأمور مني من جهة إنني بشر، كان طلبكم هذا طلباً غير صحيح، لأن هذه الأمور تحتاج إلى قدرة الهية.

و إن طلبتموها مني من جهة اني نبيُّ رسولٍ فان النبي والرسول ما هو إلا إمريء مأمورٌ يفعل ما ياذنُ به الله، وليس له ان يفعل ما يشاء هو دون إرادة الله تعالى.

(١) الأسراء: ٩٣.

و بهذا اتضح أن هذه الآيات لا تدلُّ على ما استدل به النافون لمعاجز النبي
الاکرم صلی الله عليه وآله وسلم .

و كان ممَّا تَحَجَّجْتَ بِهِ قَرِشٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُمْ
قَالُوا:

لَوْ كَانَ مُحَمَّدًا نَبِيًّا لَشَغَلْتَهُ النُّبُوَّةُ عَنِ النِّسَاءِ وَلا مَكْنَهُ جَمْعُ الْآيَاتِ (اي
لأنته الآيات دفعة واحدة) وَلا مَكْنَهُ مَنَعُ الْمَوْتِ عَنِ أَقَارِبِهِ وَلا مَاتَ أَبُو طَالِبٍ
وَخَدِجَةُ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كَانَ لِرَسُولٍ
أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ . يَحْوَالُهُ مَا يَشَاءُ وَ يَثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ . وَ إِنْ مَا نَرِيكَ بِعِضِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ
عَلَيْنَا الْحِسَابُ» .

و بذلك ردَّ عليهم (١) (٢) .

الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم:

هذا القسم هو احدى النقاط الجديرة بالدراسة في تاريخ الإسلام، لأن المرء
قد يسائل نفسه: لماذا ترى كانت قريش تعارض رسول الله صلى الله عليه وآله
أشدَّ المعارضة رغم أنها كانت تعتبره الصادق الأمين ولم تعهد منه انحرافاً أو
خطأ قط وكانت تسمع كلامه الفصيح البليغ الذي يأسر القلوب، وربما
شاهدوا حدوث بعض الخوارق للعادة، الخارجة عن حدود القوانين الطبيعية على يديه .
إن لهذا التمرد و المعارضة علة او علل عديدة هي:

١ - حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

لقد عارض رسول الله صلى الله عليه وآله وخالفه فريقٌ ممن عارضه بسبب

حسدہم لہ، فقد كانوا يتمنون أن يكونوا هم صاحب هذا المنصب، وصاحب هذه المنزلة.

فقد قال المفسرون عند قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَتَيْنِ عَظِيمٍ»^(١) إن «الوليد بن المغيرة» قال: أُنزِلَ على مُحَمَّدٍ وأُتْرِكَ وأنا كبير قريش وسيدها ويترك «ابومسعود عمرو بن عمير الثقفي» سيد ثقيف ونحن عظيمي القريتين فأنزل الله تعالى فيه الآية^(٢).

و روى انه قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك لأنني اكبرُ منك، سنأ وأكثر منك مالاً^(٣).

و كان «أمية بن أبي الصلت» من الذين كانوا يقولون هذا الكلام حول رسول الله صلى الله عليه وآله وكان يتمنى كثيراً أن ينال هو هذا المقام ويخطى بهذا المنصب العظيم، ولم يتبع رسول الله صلى الله عليه وآله الى آخر حياته، وكان يؤلب الناس عليه.

وقد سأل «الاحنس بن شريق» - وهو من أعداء رسول الله - أبا جهل يوماً: يا ابا الحكم مارأيك فيما سمعت من «محمد»؟

فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فتى تدرؤ مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه^(٤).

هذه النماذج تُظهرُ الحسد الذي كان يحول بين زعماء قريش وساداتها وبين إتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، وهناك نماذج وأمثلة أخرى سجلتها صفحات التاريخ أعرضنا عن إدراجها هنا.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٦١.

(١) الزخرف: ٣١.

(٤) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣١٥ و ٣١٦.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٣٥.

٢ - معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم:

و كان لهذا العامل الأثر الأكبر في عتوق قريش ومعارضتها لدعوة النبي صلى الله عليه وآله لأنهم كانوا أصحاب لهو ولعب، وفسق ومجون، ومثل هؤلاء الذين أمضوا سنوات عديدة على هذا النحو، دون ان يقيدهم شيء من الحدود والقيود، وجدوا دعوة النبي صلى الله عليه وآله تخالف عاداتهم القديمة، وكان ترك مثل تلك العادة التي تتفق مع أهوائهم ورغباتهم النفسية أمراً يلزم النصب والعناء والجهد.

٣ - الخوف من عقوبات اليوم الآخر:

إن سماع آيات العذاب التي تنذر الفسقة والظالمين وتوعدهم بالعقوبات الثقيلة أربع قلوبهم، وأقلق نفوسهم بشدة. فعندما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتلو الآيات المتعلقة بيوم القيامة وأوضاعه، وقضاياه في الاجتماعات والاماكن العامة، كان يحدث بذلك ضجةً كبرى في أوساطهم، فيهدم مجالس ههنا، وأنسهم. إن العربي الذي كان يسلح نفسه بكل ما استطاع من سلاح ليدفع عن نفسه أي خطر محتمل، ويعمد الى ممارسة القرعة ويتعاطى الانصاب والازلام ليحصل على لقمة عيشه، ويتفأل بالأحجار، ويتطير ويتشاءم بالطيور ويستدل بحالاتها على حوادث وقعت أو تقع، لم يكن على استعداد لأن يهدأ من دون ان يحصل على ضمان بعدم التعرض لما يخبر عنه «محمد» من عذاب وعقاب!! من هنا كانوا يجاربون النبي صلى الله عليه وآله ويخالفونه حتى لا يسمعوا وعده ووعيده.

و اليك بعض الآيات التي كانت تقلق بشدة نفوس المترفين من قريش: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ»^(١).

(١) عبس: ٣٣ - ٣٧.

و بينما كانوا يمدون موائد اللهو والشراب في ظلال الكعبة ويحتسون كؤوس الخمر كانوا فجأة يسمعون هذه الآية:

«كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ»^(١).

فتلقت في نفوسهم رعباً عجيباً، وابتابهم الاضطراب الشديد حتى أنهم كانوا يلقون بكؤوس الخمر جانباً ويتملكهم خوف شديد لم يعرفوا له مثيلاً.

٤ - الخوف من القبائل العربية المشركة:

قال «الحارث بن نوفل بن عبدمناف» لرسول الله صلى الله عليه وآله: انا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (إن تركنا الوثنية التي تدين بها وبعثرونا مدنة لأوثانها) ولا طاقة لنا بها. فنزل قوله تعالى يرد عليهم:

«وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَو لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا»^{(٢)(٣)}.

وهكذا كان تخوف قريش من العرب إن هي تركت ما كان عليه العرب من الوثنية والشرك أحد الأسباب لعتوهم وإعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية.

طائفة من إعتراضات المشركين:

و ربما اعترض المشركون على النبي صلى الله عليه وآله قائلين: إن هذه الأرض ليست بأرض الانبياء، وإنما أرض الأنبياء الشام فأت الشام^(٤).

و كان أكثر المشركين يقولون - وذلك بوحي من اليهود - لماذا لا ينزل القرآن على «محمد» دفعة واحدة كالطورا والانجيل فحكى القرآن الكريم إعتراضهم

(٢) القصص: ٥٧.

(١) النساء: ٥٦.

(٤) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٩٨.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٣٦.

هذا بنصه اذ قال:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً».

ثم قال تعالى ردّاً على إعتراضهم هذا:

«كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»^(١).

إن القرآن يهتم بهذا الإعتراض، ويوضح مسألة «النزول التدريجي» للقرآن الكريم ويقطع الطريق على المستشرقين المغرضين ومن حذى حذوهم، بمنطقه المحكم، وبيانه القوي.

وها نحن نعمد هنا الى إعطاء شيء من التوضيح لهذه المسألة ايضاً:

القرآن والنزول التدريجي:

إن التاريخ القطعي لنزول القرآن وكذا مضامين آيات سوره تشهد بأن آيات القرآن الكريم وسوره نزلت تدريجياً.

فبمراجعة فاحصة لأوضاع مكة، والمدينة يمكن تمييز المكّي من هذه الآيات عن مدنيها.

فالآيات التي تتحدث عن مكافحة الشرك والوثنية ودعوة الناس الى الله الواحد، والإيمان باليوم الآخر مكّيّة، بينما تكون الآيات التي تدور حول الأحكام وتحث على الجهاد والقتال مدنيّة، ذلك لأنّ الخطاب في البيئّة المكّيّة كان موجّهاً الى المشركين عبدة الاوثان الذين كانوا ينكرون توحيد الله، واليوم الآخر، فهنا تكون الآيات التي تتحدث حول هذا الموضوع قد نزلت في هذه البيئّة.

في حين كان الخطاب في المدينة المنورة موجّهاً الى المؤمنين بالله، والى جماعة اليهود والنصارى، وكان الجهاد والقتال في سبيل إعلاء كلمة الله هو الأعمال المهمة التي بدأها رسول الله صلى الله عليه وآله وواصلها في هذه البيئّة، من هنا تكون الآيات التي تتضمن الحديث حول الاحكام والفروع والقوانين، ويدور

الحديث فيها أيضاً حول عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم وتتضمن الحث - كذلك - على الجهاد والقتال والتضحية في سبيل اعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، آيات مدنية.

إن كثيراً من الآيات ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذه الحوادث هي التي تشكل ما يسمّى بشأن أو أسباب النزول التي يكون الوقوف عليها موجباً لفهم مفاد الآية، وإيضاح مفادها، فإن وقوع هذه الحوادث كان سبباً لنزول آيات فيها بالمناسبة. على أن بعض الآيات الأخرى نزلت جواباً على أسئلة الناس، ولرفع حاجاتهم في المجالات المختلفة.

والبعض الآخر منها نزلت لبيان المعارف والأحكام الالهية. ولهذا الاسباب يمكن القول بان القرآن الكريم نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله تدريجاً لتدرج موجبات النزول.

وقد صرح القرآن والكريم بهذا الامر أيضاً في بعض المواضع اذ قال:

«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ»^(١).

وهنا يتطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تنزل آيات القرآن كلها على رسول الله صلى الله عليه وآله جملة واحدة، ودفعة واحدة كما حدث ذلك للتوراة والإنجيل من قبل؟!

إن هذا السؤال لم يكن جديداً بل طرحه أعداء النبي صلى الله عليه وآله ومعارضوه في عصر الرسالة في صورة الاعتراض أيضاً حيث كانوا يقولون:

«لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً»^(٢).

ويمكن تقرير وشرح هذا الاعتراض على نحوين:

١ - إذا كان الإسلام ديناً إلهياً، و كان القرآن كتاباً سماوياً منزلاً من جانب الله على رسوله، فلا بد أن يكون ديناً كاملاً، ومثل هذا الدين الكامل

يجب أن ينزل بواسطة ملائكة الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله جملة واحدة من دون تدرّج ولا توقف في نزول الآيات، إذ لا مبرر ولا داعي لأن ينزل دينٌ كاملٌ من جميع الجهات، مكتمل من حيث الأصول والفروع والتشريعات والواجبات والسنن، على نحو التدرّج في ٢٣ عاماً، ولمناسبات مختلفة.

و حيث إن القرآن نزلَ منجّماً، وبصورة متفرقة متناثرة، وعقيب طائفة من الأسئلة، أو وقوع حوادث وطرء حاجات في أزمنة مختلفة يمكن الحدس بان هذا الدين لم يكن كاملاً من حيث الأصول والفروع، وهو يتدرّج في التكامل ومثل هذا الدين الناقص الذي يسير نحو كماله خطوة خطوة وبالتدرّج لا يصح أن يوصف بالدين الالهيّ.

٢ - إن آيات القرآن و التاريخ القطعي والمسلم للتوراة والإنجيل والزبور تحكي جميعها عن أن هذه الكتب السماوية أعطيت إلى المرسلين بها في ألواح مكتوبة مدوّنة، فلما لم ينزل القرآن الكريم على هذا الغرار، كأن ينزل القرآن على «محمد» في لوح مكتوب كما نزل التوراة في ألواح مكتوبة؟!!

و حيث إن المشركين لم يكونوا يعتقدون بهذه الكتب السماوية قط، ولم يكن لهم على علم مسبق بكيفية نزولها، لذا يمكن القول بان مقصودهم من هذا الاعتراض كان هو الشكل الأول من هذا التوضيح، والذي يتلخص في أنه لماذا لم ينزل ملائكة الوحي آيات القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله جملة واحدة، بل نزلت هذه الآيات عليه صلى الله عليه وآله في فواصل زمنية متفاوتة، وبمناسبات وحسب وقائع مختلفة متدرّجة؟!!

الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن:

ولقد كشف القرآن القناع - في معرض الردّ على إعتراض المشركين هذا - عن حكّم وأسرار النزول التدريجي للقرآن الكريم.

و اليك توضيح هذا القسم الذي اشار اليه الكتاب العزيز بعبارة مقتضبة

قصيرة:

١ - إن الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله يتحمل مسؤوليات كبرى، وان شخصية كهذه من الطبيعي ان يواجه مشاكل ومتاعب باهضة وصعبة، ولاريب أن تلك المشاكل والمتاعب توجب الكلال، وانخفاض مستوى النشاط مهما كانت الروح التي يتمتع بها الشخص عظمة، وقوية، في مثل هذه الحالة يكون تجديد الارتباط بالعالم الأعلى، وتكرّر نزول الملك من جانب الله تعالى باعثاً على تجديد النشاط، وعاملاً قوياً في بثّ القوة والحماس والمعنوية الفاعلة في نفس النبي وروحه، وبالتالي فان العناية والمحبة الالهية الممتدة لنبيه ورسوله إنما تتجدد لتكرّر نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله من جانبه تعالى.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة النفسية الكبرى اذ قال:

«كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» (١).

٢ - ويمكن ان تكون الجملة المذكورة ناظرة الى جهة أخرى وهي: انّ المصالح التربوية والتعليمية تقتضي أن يتنزل القرآن الكريم على نحو التدرج ويُلقي الى الناس على هذا الشكل أيضاً وذلك لان النبي الاكرم صلى الله عليه وآله معلم الأمة، وطبيبها الروحي الذي يُعِث الى الناس بالوصفات الالهية لتعليمهم، وهدايتهم ومعالجة أمراضهم وأدوائهم الاجتماعية والخلقية، والفكرية، وكُلّف بأن يُطبّق هذه الوصفات في حياتهم العملية، ومثل هذا يتطلب التدرج لينفع الدواء - حينئذ - وتنجع المعالجة.

إن أفضل وأنجح أساليب التربية هو أن يمتزج الجانب العملي بالجانب النظري في آية محاولة تربوية، وأن يطبق كل ما يدرسه الاستاذ بصورة عملية تطبيقية، ويعطي لما يلقيه من معلومات، صبغة تحقيقية، ويتجنب بشدة إتصاف أفكاره وآراءه بالطابع النظري البحت.

فلو أن الاستاذ المتخصص في الطب اكتفى بالقاء جملة من المعلومات الكلية والأسس العامة من الطب على طلابه في الصف حرم النتائج المتوخاة والغايات

المطلوبة من تعليم الطب، بشكل كامل.

أما إذا قرّن الاستاذ درسه النظري بالإرشاد العملي وطبق ما ألقاه وبيته من أفكار ومعلومات في هذا المجال على جسم مريض راقد أمام الطلبة فإنه سيحصل على نتائج أحسن، ويساعد الطلبة على فهم أفضل للمواد التي درسوها في هذا المجال.

فلو أنّ الآيات القرآنية الكريمة قد نزلت جملةً واحدة (والحال أن المجتمع الإسلامي لم يكن يحتاج إلى كثير منها) كان القرآن - حينئذٍ - فاقداً لهذه المزية التربوية الهامة التي أشرنا إليها قريباً في مثال تدريس الطب.

إن بيان الآيات التي يشعر الناس في أنفسهم بعدم الحاجة إلى أخذها وتعلّمها، لا يترك التأثير الباهر في القلوب، بينما إذا نزل ملائكة الوحي بآيات القرآن حسب حاجات الناس التي يشعرون فيها بضرورة تعلّمها لتضمّنها الأحكام والأصول والفروع التي يحتاجون إليها فإنه لا شكّ يكون لها في هذه الحالة تأثير أحسن وأقوى في قلوب الناس. كما سيكون لها ترسخ أكبر في نفوسهم، وسيظهر أناس من أنفسهم استعداداً أكبر لأخذ ألفاظها ومعانيها، وفوق كل ذلك سيشعرون بنتائج هذه التعاليم عند تعليم النبي إياها لهم، وعندئذ تتحقق المقولة التربوية التي أشرنا إليها في ماسبق وهي اقتران كلام المربي بالنتيجة لأن النظريات إتخذت طابعاً عملياً، ولم تكن مجرد نظريات لا ترتبط بالواقع.

و لكن يبقى هنا سؤال آخر وهو: إذا كان نزول القرآن قد تحقّق على نحو التدريج وتبعاً للاحتياجات والحوادث المختلفة، فإن ذلك يستلزم انفصام العلاقات والروابط بين الآيات والسور، وهذا ينتج أن لايهم الفكر البشري بتعلّم وحفظ معارفها لتبعثرها، وتباعداً أزمنتها وغياب علاقاتها، ولكن لو نزل القرآن جملةً واحدة وتلاه ملائكة الوحي على رسول الله دفعة واحدة لرُوعيت الروابط والعلاقات بين قضايا الوحي ولتضاعفت رغبة الناس واستعدادهم لأخذها وحفظها؟

و لقد أجاب القرآن الكريم أيضاً على هذا السؤال إذ قال: صحيح أن آيات القرآن الكريم نزلت على نحو التدرج تبعاً لطائفة من المقتضيات والموجبات إلا أن هذا النزول التدريجي لا يمنع ابداً من ترابط مطالبه، وارتباط مواضعه بعضها ببعض، فإن الله تعالى أفاض على هذه الآيات انسجاماً وترابطاً خاصاً يمكن الإنسان من تعلمها وضبطها وحفظها إذا أعطى الموضوع قليلاً من الإهتمام إذ قال تعالى:

«وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»^(١).

أي إننا أعطينا آيات القرآن نظاماً معيناً وترتيباً خاصاً.

أسرارٌ أخرى لِتُرُول القرآن تدرجياً:

٣ - لقد واجه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي فِتْرَةِ رِسَالَتِهِ وَنَبُوَّتِهِ فِئَاتٍ مُخْتَلِفَةً مِنَ النَّاسِ: كَالرُّومِيِّينَ، وَالْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ كَانَ لِكُلِّ فِئَةٍ مِنْهُمْ دِينًا خَاصًّا، وَعُقَائِدَ وَتَصَوُّرَاتٍ خَاصَّةٍ حَوْلَ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْمَعَارِفِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَتْ اللَّقَاءَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ هَذِهِ تَوْجِبُ أَنْ يَعْمَدَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ إِلَى تَوْضِيحِ وَبَيَانِ عِقَائِدِ هَذِهِ الْفِئَاتِ (وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَطْلُوبًا وَمَقْتَرَحًا مِنْ قِبَلِهِمْ) وَيَقِيمَ الْأَدْلَةَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى بَطْلَانِهَا، وَزَيْفِهَا، هَذَا مِنْ جَانِبِ.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ كَانَتْ هَذِهِ اللَّقَاءَاتُ فِي أَرْزَمَةِ مُتَفَاوِتَةٍ، وَأَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، لِهَذَا لَمْ يَكُنْ بَدًّا مِنْ أَنْ يَنْزِلَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ تَدْرِيجًا، وَفِي الْأَوْقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَيَتَّصِدَى لِبَيَانِ بَطْلَانِ تِلْكَ الْعُقَائِدِ وَالتَّصَوُّرَاتِ وَيُجِيبُ عَلَى شِبْهَاتِ الْمُخَالِفِينَ، اعْتِرَاضَاتِهِمْ.

وَرَبْمَا كَانَتْ تَوْجِبُ هَذِهِ الْمَوَاجِهَاتُ الْعُقَائِدِيَّةَ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْضَ الْاسْئَلَةِ إِمْتِحَانًا وَاخْتِبَارًا لَهُ وَكَانَ عَلَى النَّبِيِّ أَنْ

يجيب عليها، وحيث إن هذه الاسئلة كانت تطرح في أوقات مختلفة، لهذا لم يكن مناص من أن ينزل الوحي الالهي في الأوقات والأزمنة المختلفة، وعلى نحو التدرج.

هذا مضافاً الى أن حياة النبي نفسها كان حياة ثورة، ووقائع، وكان النبي يواجه باستمرار أحداثاً وقضايا يجب توضيح حكمها، وبيان المنهج فيها من جانب الوحي الالهي.

وربما كان الناس أنفسهم يواجهون في حياتهم اليومية حوادث وأموراً يرجعون فيها الى النبي صلى الله عليه وآله يطلبون منه الحكم الالهي فيها ويسألونه عما يجب إتخاذه من الموقف الشرعي في تلك الحوادث وما يشابهها. وحيث إن هذه الحوادث، وما يترتب عليها من تساؤلات كانت تقع في اوقات مختلفة، وبمرور الزمن، لذلك لم يكن بد أيضاً من ان ينزل الوحي الالهي بالتدرج ليجيب على هذه الأسئلة أولاً بأول.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقاط، وإلى نقاط أخرى غيرها في قوله تعالى:

«وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»^(١).

٤ - إن للنزول التدريجي للقرآن الكريم وراء كل ذلك سرّاً آخر، وعلّة أخرى غفلوا عنها، ألا وهي: هداية الناس وتوجيه أنظارهم إلى منشأ هذا الكتاب، وأن القرآن ليس الآ كتاباً سماوياً، ووحياً آهياً لا غير، ولا يمكن أن يكون من نسج العقل البشري، لأن القرآن نزل خلال (٢٣ عاماً) عبر طريق طويل من أنواع الحوادث والوقائع المسرة والمخزنة، المقرونة بالنصر والهزيمة، والنجاح والإخفاق، ولا شك أن هذه الحالات المختلفة، والاحاسيس والمشاعر المتنوعة المتباينة، تترك أثراً عميقاً في نفس الإنسان، وروحه وعقله، ولا يمكن لإنسان واحد أن يتكلم بكلام من نوع واحد، وبنبيرة واحدة، في حالتين

(١) الفرقان: ٣٣.

نفسيتين متضادتين، فالكلام الصادر في حال الفرح والابتهاج والمسرة من اللسان او القلم، يختلف من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال اللفظ وعمق المعنى اختلافاً بارزاً عن الكلام الصادر في حال الحزن والتعب، والاختفاق، والهزيمة.

بينما لا يوجد أي شيء من الاختلاف من حيث الألفاظ والمعاني بين آيات القرآن الكريم مع أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يمر بمجالات مختلفة من الحزن والسرور والاختفاق والانتصار والسرّاء والضراء، والعسر والرخاء، والجهد والنشاط، بل نجد تلك الآيات على نمط ونسق واحد من القوة والفصاحة والبلاغة، وجمال اللفظ وعمق المعنى بحيث يستحيل على أي بشر بلّغ ما بلغ أن يعارض آية من آياته أو سورة من سورته، وكأنّ القرآن الكريم كمية من الفضة المائعة خرجت من الأتون جملة واحدة لا يوجد بين آياتها أي شيء من التفاوت والاختلاف، أو كأنه جوهرة واحدة أولها وآخرها كأولها.

ولعلّ الآية التالية التي تنفي أي نوع من أنواع الإختلاف في القرآن اذ تقول: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا»^(١) اشارة الى هذا السرّ. إنّ المفسرين اعتبروا هذه الآية ناظرة إلى نفي الاختلاف والتناقض بين مفاهيم الآيات ومفاداتها، ومقاصدها، في حين لا تنفي هذه الآية مجرد هذا النوع من الاختلاف بل تقدّس القرآن المجيد وتنزهه من جميع انواع الاختلاف والتناقض الذي هو من لوازم العمل والانتاج البشري.

الهجرة الاولى

تُعتَبَر هجرة فريق من المسلمين الى ارض الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم واخلاصهم العميق لدينهم، ولرهم وذلك لأن فريقاً من الرجال والنساء يقررون -وهدف الحفاظ على عقيدتهم والتخلص من أذى قريش ومضايقتها والحصول على مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحرية ويعبدون الله الواحد- مغادرة (مكة)، العربية التي ترزح تحت ظلام الوثنية، فلا يمكن أن يرفعوا نداء التوحيد عالياً في أية نقطة من نقاطها، ولا يمكنهم اقامة احكام الدين الحنيف فيها من دون خوف أو وجل، وبعيداً عن الارهاب، ويفكرون، ويفكرون، وأخيراً يقودهم التفكير إلى أن يفتحوا رسول الله صلى الله عليه وآله بهذه المسألة، ويطلبوا في ذلك رأي النبي الذي يقوم دينه على مبدأ: «إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِذَا يَأْتِي فاعْبُدُون»^(١).

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعرف أوضاع المسلمين المؤلمة جيداً، فقد كان هو يحظى بحماية بني هاشم، وكان الفتيان الهاشميون يحمونه ويحفظونه

من كل اذى، ولكن الذين آمنوا به من الإماء والعبيد، ومن ليست لهم حماية من الأحرار المستضعفين الذي كانوا يشكلون عدداً كبيراً من المسلمين السابقين كان يتعرضون لشتى صنوف العذاب والايذاء والمضايقة من قريش التي لم تأل جهداً، ولم تدخر وسعاً، ولم تفوت فرصة ولا وسيلةً لالحاق العنت والأذى بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله، ولا يستطيع صلى الله عليه وآله منعهم من ذلك.

وقد كان زعماء كل قبيلة يعمدون -للمنع من نشوب أي صدام بين القبائل- الى تعذيب من اسلم من ابناء قبيلتهم، وايذائه والتنكيل به، وقد مرت عليك نماذج وامثلة من أذى قريش وتعذيبها القاسي للمسلمين.

لهذه الأسباب عند ما طلب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله رأيه في الهجرة من مكة قال في جوابهم:

«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٍ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»^(١).

أجل ان مجتمعاً صالحاً يتسلم زمام الأمر فيه رجلٌ صالحٌ عادلٌ نموذج مصغر من جنة عدن بالنسبة الى المسلمين المضطهدين في بلدهم بسبب عقيدتهم، وهو ما كان يريده ويتمناه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ليتمكنوا من القيام بشعائر دينهم فيه في جوٍّ من الطمأنينة والامن.

ولقد كان لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله أثر قوي في نفوسهم تلك الثلة المؤمنة الباحثة عن ارض تعبد فيها الله في أمان، بحيث لم يمض زمان إلا وقد شدت رحالها وغادرت مكة ليلاً في غفلة من الأجانب (المشركين) مشاة وركباناً، متجهةً نحو جدّة، للسفر عبر مينائها الى ارض الحبشة.

وكان هذا الفريق يتألف من عشر أو خمسة عشر شخصاً بينهم أربعة من

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٢١، تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٧٠، وبحار الأنوار: ج ١٨ ص ٤١٢ نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي.

النسوة المسلمات^(١).

والآن يجب أن نرى لماذا لم يذكر رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِلْمُسْلِمِينَ مناطقَ أُخْرَى للهجرة إليها، وإنما ذكر الحبشة فقط.

إن سر هذا الاختيار هذا يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك .

إن الهجرة إلى المناطق العربية التي كان سكانها من المشركين والوثنيين قاطبة كان أمراً محفوفاً بالخطر، فإن المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاءً لقريش أو وفاءً وتعصباً لدين الآباء (الوثنية).

و كذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيون أو اليهود، من الجزيرة العربية لم تكن تصلح لهجرة المسلمين إليها هي الأخرى لأن تينك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراع مذهبي وطائفي، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرف ثالث في حلبة الصراع، هذا مضافاً إلى أن ذينك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربي أساساً، فكيف يمكن الهجرة إلى مناطقهم والتعايش معهم؟!

أما «اليمن» فقد كان تحت سيطرة الحكم الإيراني الملكي، ولم تكن السلطات الإيرانية آنذاك لتسمح بإقامة المسلمين في ربوع «اليمن»، لما عُرف من نقيمتها فيما بعد على الدعوة الإسلامية إلى درجة أنه لما وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وآله إلى «خسروبرويز» كتب إلى عامله على اليمن فوراً «احمل إليّ هذا الذي يذكر أنه نبي، وبدأ اسمه قبل اسمي، ودعاني إلى غير ديني»^(٢)!!

و كذلك كانت «الحيرة» تحت الاستعمار والنفوذ الإيراني كاليمن.

وأما «الشام» فقد كانت بعيدة عن «مكة المكرمة»، هذا مضافاً إلى أن «اليمن» و«الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربط قريش بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقة، فإذا كان المسلمون يلجأون إليها أُخرجوا منها

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٧٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٣٨٢.

بطلب من قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشة مثل هذا الطلب، ولكنه رفض طلبهم.

وقد كانت الرحلة البحرية - في تلك الآونة - وبخاصة برفقة النساء والاطفال رحلة شاقة جداً، من هنا كانت هذه الهجرة، وترك الحياة والمعيشة في الوطن دليلاً قوياً على إخلاص أولئك المهاجرين لدينهم وعمق إيمانهم به، وصدقه.

ولقد كان ميناء «جدة» آنذاك ميناءً تجارياً عامراً كما هو عليه الآن، ومن حسن الاتفاق أن هذه الثلثة المهاجرة قد وصلت إلى هذا الميناء في الوقت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أهبة الإقلاع، والتوجه نحو الحبشة، فبادر المسلمون إلى ركوبها والسفر عليها دون تلكؤ خشية لحاق قريش بهم والقبض عليهم، لقاء نصف دينار عن كل راكب.

وكان ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله (١). ولما عرف المشركون بهجرة بعض المسلمين أمروا جماعةً من رجالهم بملاحقة أولئك المهاجرين واعادتهم إلى مكة فوراً، ولكن المسلمين المهاجرين كانوا قد غادروا شواطئ «جدة» قبل أن يدركهم الطلب (٢).

ومن الواضح أن ملاحقة مثل هذه الثلثة التي لم تلجأ إلى أرض الغير إلا لأجل الحفاظ على عقيدتها والفرار من الفتنة نموذج بارز من عتو قريش وعنادها.

فأولئك المهاجرون مؤمنون تركوا الأهل والوطن، واغمضوا الطرف عن المال، والتجارة، وخرجوا يطلبون أرضاً نائية يمارسون فيها شعائرتهم بحرية، ومع ذلك لا يكف عنهم زعماء مكة وجبابرتها وطغاتها!!
اجل ان رؤساء «دارالندوة» بمكة واقطابها كانوا يعلمون جيداً أسرار هذه

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٤١٢ نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٢١ - ٣٢٣.

الهجرة وآثارها من خلال بعض القرائن، والمؤشرات ولذلك كانوا يرددون فيما بينهم أموراً سنذكرها في مابعد.

هذا والجدير بالذكر أن أعضاء هذا الفريق المهاجر لم يكونوا من قبيلة واحدة بل كان كل واحد من هؤلاء العشرة ينتمي إلى قبيلة خاصة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

ثم إنه وقعت بعد هذه الهجرة هجرة أخرى، وكان في مقدمة المهاجرين هذه المرة «جعفر بن أبي طالب». ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولقد تمت الهجرة الثانية في منتهى الحرية، لأن المسلمين المهاجرين استطاعوا في هذه الهجرة أن يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم، بحيث بلغ عدد المسلمين في أرض الحبشة هذه المرة (٨٣).

هذا إذا لم نحص من وُلد في أرض الحبشة لهم، والآ كان العدد أكثر من هذا الرقم.

ولقد وجد المسلمون المهاجرون أرض الحبشة كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله لهم: منطقة عامرة، وبيئة آمنة حرة، تصلح لأن يُعبد فيها الله تعالى بحرية وأمان.

تقول «أم سلمة» التي تشرفت بالزواج من رسول الله صلى الله عليه وآله في مابعد، عن تلك الأرض: لما نزلنا أرض الحبشة جاؤنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا تؤذي، ولا نسمع شيئاً نكرهه.

كما أنه يُستفاد مما قاله بعض أولئك المهاجرين من الشعر في الحبشة، أنهم أمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً.

ونحن نكتفي هنا بادراج بعض الأبيات من قصيدة مطوّلة أنشأها «عبدالله بن الحارث» في هذا الصدد:

ياراكباً بَلَّغْنِ عَنِّي مُغْلَفَةً^(١) مَنْ كَانَ يَرْجُو بِلَاغَ اللَّهِ وَالَّذِينَ
كُلَّ امْرَأٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مُضْطَهَدٍ بِبَطْنِ مَكَّةَ مَقْهُورٍ وَمُفْتُونٍ
أَنَاوَجَدْنَا بِلَادَ اللَّهِ وَاسِعَةً تُنَجِّي مِنَ الذُّلِّ وَالْمُخْزَاةِ وَالْمُهُونِ
فَلَا تُقِيمُوا عَلَيَّ ذُلَّ الْحَيَاةِ وَخَزْ فِي فِي الْمَمَاتِ وَعَيْبِ غَيْرِ مَأْمُونٍ^(٢)

ويقول ابن الاثير: و كان مسيرهم (الى الحبشة) في رجب سنة خمس من النبوة وهي السنة الثانية من اظهار الدعوة فاقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس من النبوة، وكان سبب قدومهم الى النبي صلى الله عليه وآله انه بلغهم ان قريشاً اسلمت فعاد منهم قومٌ وتختلف قومٌ^(٣).
هذا ويمكن للقارئ الكريم أن يقف على تفاصيل هذا القسم في السيرة النبوية لابن هشام^(٤).

قريش توفد رجالاً لاسترداد المسلمين:

عندما بلغ قريشاً وزعماء «مكة» ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرية، وما حصلوا عليه من حسن الجوار والطمانينة والراحة في أرض الحبشة ثارت ثائرة الحسد والغیظ في قلوبهم، وتوجسوا خيفة من نفوذ المسلمين في الحبشة لأن أرض الحبشة قد أصبحت قاعدة قوية للمسلمين، وكانت الزعامة المكيّة تتخوف من أن يجد أنصار الإسلام واتباعه منفذاً إلى بلاط النجاشي زعيم الاحباش ومليکهم، ويُميلوا قلبه نحو الإسلام، ويكسبوا تاييده للمسلمين، فيؤول الامر إلى أن يعبئ جيشاً كبيراً للقضاء على حكومة المشركين الوثنيين في شبه الجزيرة العربية، وعندها تكون الكارثة.

فاجتمع أقطاب «دار الندوة» مرة أخرى للتشاور في الأمر، فأستقر رأيهم على أن يبعثوا إلى البلاط الحبشي من يقدم إلى النجاشي ووزرائه وقواده هدايا

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥١-٣٥٢.

(٤) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٤-٣٦٢.

(١) المُغْلَفَةُ: الرسالة ترسل من بلد الى بلد.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٥٢ و ٥٣.

مناسبة يستميلونهم بها ليستطيعوا من هذا الطريق التأثير على النجاشي ثم يتسنى لهم بعد ذلك ان يقنعوه بضرورة إخراج المسلمين المهاجرين من أرضه أن يتهمونهم عنده بالسفاهة والجهل، وابتداع دين جديد منكر، والإرتداد عن دين الآباء والاجداد!!

ولكي تتحقق خطتهم هذه على أحسن وجه ويصلوا عن طريقها إلى أفضل النتائج اختاروا من بينهم رجلين ماكرين أصبح احدهما في مابعد من دهاقنة السياسة وهما: «عمرو بن العاص»، و «عبدالله بن ابي ربيعة» وقال لهما كبير المؤتمرين في ذلك الدار: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

فخرج موقدا قریش حتى قدما على النجاشي بعد أن تلقيا هذه التعليمات. وهناك في الحبشة دفعا الى كل بطريق من بطارقة النجاشي وقادة جيشه ووزرائه هديته، وقالوا لكل بطريق منهم:

«إنه قد ضوى^(١) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا انتم، وقد بعثنا إلى الملك لنكلمه في أمرهم أشراف قومهم ليردّهم اليهم فاذا كلّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فان قومهم أبصر بهم، واعلم بما عابوا عليهم».

فابدى أولئك البطارقة والقادة والوزراء الطامعون الجهلة استعدادهم لمساعدة الرجلين في إنجاح مهمتهم.

ولما كان من غد دخلا على النجاشي وقدما هداياهما اليه فقبلها منها ثم كلّماه فقالا له:

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم

(١) ضوى أي لجأ وأتى ليلا.

يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آباؤهم وأعمامهم وعشائريهم لتردّهم اليهم، فهم أبصر بهم واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وما أن انتهى موفدا قريش من الكلام إلا وقالت بطارقتة حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أبصر بهم، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما، فليرداهم الى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي وكان رجلا حكما عادلا وقال: لاها الله، إذن لأسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعّوهم فأسألمهم عما يقول هذان في أمرهم فان كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم الى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منها واحسنت جوارهم ماجاوروني.

ثم ارسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله المهاجرين الى الحبشة فدعاهم من غير أن يعلمهم بما يريد منهم، فحضروا عنده، وكانوا قد قرروا أن يكون متكلّمهم وخطيبهم: «جعفر بن أبي طالب» وقد قلق بعض المسلمين لما قد سيقوله «جعفر» عند الملك، وبماذا سيكلّمه ويحييه، فسألوه عن ذلك فقال لهم جعفر: أقول والله ما علمنا، وما امرنا به نبينا صلى الله عليه وآله كائناً في ذلك ما هو كائن.

فالتفت النجاشي الى «جعفر» وسأله قائلاً:

ما هذا الدين الذي فارقت فيه قومكم، ولم تدخلوا (به) في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الملل؟

فقال جعفر بن ابي طالب:

«أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الارحام، ونسي الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحّدَه ونعبّدَه، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشركُ به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصَدَقناه وآمَنَّا به، واتَّبَعناه على ما جاء به من الله، فَعَبَدنا الله وحده فلمْ نشركْ به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وإن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، وورغبنا في جوارك، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك».

فأثرت كلمات جعفر البليغة، وحديثه العذب تأثيراً عجيباً في نفس النجاشي بحيث اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: لجعفر هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟

فقال جعفر: نعم فقال له النجاشي: فاقراه عليّ، فقرأ عليه جعفر آيات من مطلع سورة مريم، واستمرَّ في قراءته، وبذلك بيّن نظرة الإسلام إلى «مريم» عليها السّلام وطهارة جيبها، وإلى مكانة المسيح عليه السّلام، وعظمة شأنه، وجليل مقامه، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته بالدموع وبكت اساقفته^(١) حتى بلّوا مصاحفهم بها حين ماسمعوها ماتلاه جعفر عليهم حول مريم والمسيح عليهما السّلام.

و بعد صمت قصير ساد ذلك المجلس قال النجاشي:

«إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة» وهو يقصد أن القرآن والإنجيل كلامُ الله وأنها شيء واحد.

ثم التفت إلى موفدي قريش وقال لهما بنبرة قوية: انطلقا فلا والله لأسلمهم إليكما ولا يُكادون، فخرجا من عنده.

(١) الاساقفه؛ جمع اسقف: علماء النصراني.

و عند المساء تكلم «عمرو بن العاص» - و كان إمراً خداعاً ما كراً - مع رفيقه «عبدالله بن ربيعة» في الامر، وقال له: والله لآتيتنه غدأ عنهم بما استأصل به خضراءهم (وهو يعني أنه سيأتي بحيلة تقضي على جذور المهاجرين بالمرّة) ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. (أي على خلاف ما يعتقد النصارى في المسيح).

فناه «عبدالله» عن ذلك وقال: لا تفعل، فإنّ لهم أرحاماً، وان كانوا خالفونا، ولم ينفع نهي عبدالله له.

ولما كان من الغد دخلا على النجاشي مرة أخرى فقال له «عمرو» متظاهراً هذه المرة بالدفاع عن عقيدة النصارى وهي دين الملك واهله، ومنتقداً رأي المسلمين.

أيها الملك، إنهم يقولون في «عيسى بن مريم» قولاً عظيماً. فارسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فارسل النجاشي إليهم ليسألهم عنه، وهو الملك المحنك الذي لا يأخذ الأمور على ظواهرها، ومن غير تحقيق ودراسة، فأدرك المسلمون بفطنتهم أنه سيسألهم هذه المرة عن موقفهم من المسيح عليه السلام فاتفقوا أن يكون «جعفر» متكلمهم وخطيبهم وعند ما سألوه عما سيجيب به الملك قال: أقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا.

فلما دخلوا على النجاشي قال لجعفر بن ابي طالب: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وآله: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول.

فسرّ النجاشي لكلام جعفر ورضي به وقال: هذا والله هو الحق، والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت.

ولكنّ حاشيته لم ترض بهذا الكلام ولم تقبل بما قاله الملك، ولكنّه لم يعبأ بهم، وأيد مقالة المسلمين، ومنحهم الحرية الكاملة، والأمان الكامل قائلاً لهم:

اذهبوا فأنتم آمنون في أرضي من سببكم غُرمَ، من سببكم غُرمَ، ما أحب أن
لي دبراً من ذهب وإني آذيتُ رجلاً منكم.
و ردّ على موفدي قريش هداياهما قائلاً لهما: «ردّوا عليهما هداياهما فلاحاجة
لي بها، فوالله ماأخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ مُلكي فأخذ الرشوة فيه، وما
أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه».
فخرج مبعوثاً قريش مقبوحين مردوداً عليها ماجاء به يجتران اذبال
الخبية^(١).



و ينبغي ان نسجّل هنا موقفاً آخر من مواقف ابي طالب في تأييد المسلمين،
ونصرة الدين الحنيف.

فقد أرسل «ابوطالب» أبياتاً للنجاشي يحثّه على الدفع عن المهاجرين
وحسن جوارهم وتلك الابيات هي:
الأليّت شعري كيف في النأي جعفرٌ
وهل نالت افعال^(٢) النجاشي جعفرأ
تعلّم، أبيت اللعن، انك ماجدٌ
تعلّم بان الله زادك بسطةً
وأنتك فيضٌ ذوسجال غزيرة
وعمرؤ واعداء العدو: الأقاربُ؟
وأصحابه أوعاق ذلك شاغبُ؟
كريمٌ فلايشقى لَدَيْكَ المجانبُ
وأسبابَ خير كلّها بك لازب
يَنالُ الأعداي نفعُها والاقارب^(٣)

العودة من الحبشة:

قلنا في مامضى أنّ المجموعة الأولى من المهاجرين رجعت من الحبشة الى
مكة لأنباء بلغتها عن إسلام قريش عامة وانضوائها تحت راية الإسلام. حتى إذا
دنوا من «مكة» بلغهم أن ماكانوا تحدّثوا به من إسلام اهل مكة كان باطلاً،

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٣٨، إمتاع الاسماع: ص ٢١ بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٤١٤ و ٤١٥.

(٢) إحسان. (٣) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٣٣ و ٣٣٤.

فلم يدخل منهم الى «مكة» إلا قليل دخلوها مستخفين أو في جوار بعض الشخصيات القرشية بينما عاد الأكثرون من حيث جاؤوا.

و كان ممن دخل «مكة» بجوار «عثمان بن مظعون» الذي دخلها بجوار «الوليد بن المغيرة»^(١) ولكنه كان يشاهد مافيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من البلاء، والعذاب وهو يغدو ويروح في امان فتألم لذلك ولم تطق نفسه تحمّل هذا الفرق وقال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي. فشى الى «الوليد بن المغيرة» وردّ عليه جواره ليواسي المسلمين ويشاركهم في آلامهم ومتاعبهم وقال: يا أبا عبد شمس وفّت ذمتك، قد ردّدتُ إليك جوارك .

قال: لِمَ يابن أخي؟ لعلّه آذاك أحد من قومي؟

قال: لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره.

فقال الوليد له: إذن فاردّد عليّ جوارى علانية كما أجرتك علانية.

فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال «الوليد» مخاطباً من حضر من

قريش: هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جوارى.

قال: صدق، قد وجدته وقيّاً كريماً الجوار ولكنّي قد احببتُ أن لا استجير

بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره^(٢).

ثم لم يمض شيء من الوقت حتى دخل المسجد «البيد» وكان شاعراً متكلماً

بارزاً من شعراء العرب ومتكلمياً ووقف في مجلس من قرش ينشدهم

و «عثمان بن مظعون» جالس معهم فقال من جملة ما قال شعراً:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ

فقال عثمان بن مظعون: صدقتُ فقال: لبيد:

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٦٩.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٧٠.

و كلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ

قال عثمان: كذبت، نعيمُ الجنة لا يزول فاستثقل «البيد» تكذيب عثمان وتجديه له في ذلك الجمع فقال: يامعشر قريش والله ما كان يؤذي جلسكم، فتى حدث هذا فيكم؟؟؟

فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدنَّ في نفسك من قوله.

فردَّ عليه «عثمان» حتى تفاقم الأمر بينهما فقام إليه ذلك الرجلُ فلطم عينه فخضرها (واصابها)، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عَمَّا أصابها لغنيّة لقد كنت في ذمة منيعة (وهو يريد أنك لوبقيت في ذمتي وجواري لما أصابك ما أصابك).

فقال عثمان راداً عليه: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرةٌ الى مثل ما أصاب أختها في الله، واني لني جوار من هو أعزُّ منك، وأقدرُ يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلمَّ يا ابنَ أخي إن شئت فعد إلى جوارك، فقال ابنُ مظعون: لا^(١).

و كانت هذه صورةً رائعةً من صور كثيرةٍ لصمود المسلمين، وتفانيهم في سبيل العقيدة، وإصرارهم على النهج الذي اختاروه، ومواساة بعضهم لبعض في أشدَّ فترة من فترات التاريخ الإسلامي.

وفدٌ مسيحيٌّ لتقصي الحقائق يدخل مكة:

قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، مبعوثين من قبيل أساقفتها لتقصي الحقائق بمكة، والتعرف على الإسلام. فوجدوا رسول الله في المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه عن مسائل، ورجالاً من قريش فيهم «أبوجهل» في أنديتهم حول الكعبة.

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٧٠ و ٣٧١.

فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وآله عما أرادوا دعاهم - صلى الله عليه وآله - إلى الله عزوجل وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، فكان لها من التأثير البالغ في نفوسهم بحيث عندما سمعوها فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، بعد ما عرفوا منه ما كان يوصف في كتابهم (الانجيل) من أمره.

فلما قاموا عنه، ورأت قريش ما نتج عنه ذلك اللقاء استثقله «ابوجهل» فقال للنصارى الذين اسلموا معترضاً وموبخاً: خيبتكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحق منكم. فأجابه أولئك بقولهم: سلام عليكم لأنجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً^(١).

وبذلك الكلام الرفيق الجميل ردوا على فرعون مكة الذي كان يبغى - كسحابة داكنة - حجب أشعة الشمس المشرقة، وحالوا دون وقوع صدام.

قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق:

لقد أيقظ وفد نصارى الحبشة إلى مكة وما نجم عن لقائهم برسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً ودفعمهم إلى تكوين وفد يتألف من: «النضر بن الحارث» و«عقبة بن أبي معيط» وغيرهما وإرسالهم إلى أحبار يهود المدينة ليسألونهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله ودينه.

فقال أحبار اليهود لمبعوثي قريش: سلوا محمداً عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم، سلوه:

١ - عن فتية ذهبوا في الدهر الأول (يعنون بهم أصحاب الكهف) ما كان

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٩٠ و ٣٩٣ وقد نزلت في هذا الشأن الآيات ٥٢ إلى ٥٥ من سورة القصص.

من امرهم، فانه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ.

٢ - و عن رجل طَوَّاف (يعنون به ذا القرنين) قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وخبره؟

٣ - و عن الروح ما هي؟

فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فانه نبيّ، وان لم يفعل، فهو رَجُلٌ متقولٌ فاصنعوا في أمره ما ببالكم.

فعاذ وفد قريش الى «مكة» ولما قدموها قالوا لقريش ماسمعه من أحبار اليهود.

فجاءوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَطَرَحُوا عَلَيْهِ الاسئلة الثلاثة السالفة. فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: انتظر في ذلك وحيًا. ثم نزل الوحيُّ يحملُ الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الأجوبة المطلوبة على تلك الاسئلة.

وقد وردَ الجواب عن السؤال عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء. وأجيبَ على السؤالين الآخرين عن أصحاب «الكهف» وذي القرنين بتفصيل في سورة «الكهف» ضمن الآيات ٩-٢٨ والآيات ٧٣-٩٣. وقد وردت تفصيلاتُ هذه الإجابات التي أجاب بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على أسئلتهم في كتب التفسير.

ولابدَّ هنا من أن نذكر القارئ الكريمَ بنقطة مفيدة وهي أن المراد من «الروح» في سؤال القوم ليس هو الروح الإنسانية بل كان المراد هو جبرئيل الأمين، (بقرينة أن المقترحين الاصلين لهذه الأسئلة: هم اليهود وكانوا يكرهون الروح الامين، ويعادونه)، وهو أمرٌ مبحوثٌ في محله من كتب التفسير.

الأسلحةُ الصّديئةُ

والاساليب الفاشلة

نظّم أسياذ قرش صفوفهم لمكافحة عقيدة التوحيد، بعد أن أدركوا عقم المواقف المبعثرة من هذا الدين وأهله.

فقد حاولوا في بداية الأمر أن يُثبِتُوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنِ الْمَضِيِّ فِي مَوَاصِلَةِ دَعْوَتِهِ، وَذَلِكَ بِتَطْمِيعِهِ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَمِثَالِهِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْصُلُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ، فَقَدْ خَيَّبَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْمُجَاهِدُ ظَنُونَهُمْ فِيهِ، وَبَدَّدَ آمَالَهُمْ فِي اثْنَائِهِ عَنْ هَدْفِهِ بِكَلِمَتِهِ الْخَالِدَةِ الْمَدْوِيَّةِ: «وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ لِمَافَعَلْتُ» وَهُوَ يَعْنِي أَنْ تَمْلِكُهُ الْعَالَمُ كُلَّهُ لَا يَثْبِيهِ عَنْ هَدْفِهِ وَلَا يَصْرِفُهُ عَنْ تَحْقِيقِ مَا نَدِبَ إِلَيْهِ، وَارْسَلْ بِهِ.

فعمدوا الى سلاح آخر هو التهديد والأذى، والتنكيل به وباصحابه وانصاره، ولكنهم واجهوا صموده وصمود أنصاره واصحابه، وثباتهم الذي ادى إلى انتصار المؤمنين في هذا الميدان، وخيبة المشركين وهزيمتهم.

وقد بلغ من ثبات المسلمين على الطريق أنهم أقدموا على مغادرة الوطن، وترك الأهل والعيال، والهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم إلى الله، وسعياً وراء نشره وبثه في غير الجزيرة من الآفاق.

ولكن رغم إخفاق أسياذ قرش المشركين في جميع هذه الجهات والميادين

وعجزهم عن استئصال شجرة التوحيد الفتية، وفشل جميع الأسلحة التي استخدموها للقضاء على الدين الجديد وأهله، لم تنته محاولاتهم الإجهاضية بل عمدوا هذه المرة إلى استخدام سلاح جديد حسبوه أمضى من سوابقه.

وهذا السلاح هو سلاحُ الدعاية ضدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، لانه صحيحٌ أن ايداء وتعذيب جماعة المؤمنين في «مكة» تمنع غيرهم من سُكّان «مكة» من الإنضواء إلى الإسلام إلا ان الحجيج الذين كانوا يسافرون الى مكة في الأشهر الحرم وكانوا يلتقون رسول الله صلى الله عليه وآله في جو من الأمن والطمأنينة خلال تلك المواسم كانوا يتأثرون بدعوة النبي صلى الله عليه وآله ويتزعزعُ اعتقادهم بالأوثان على الأقل، إن لم يؤمنوا بدينه، ولم يستجيبوا لدعوته، ثم إنهم كانوا ينقلون رسالة الإسلام وانباء النبي صلى الله عليه وآله إلى مواطنهم، ومناطقهم وكان ينتشر بذلك اسم رسول الله، وانباء دينه في شتى مناطق الجزيرة العربية، وكان هذا هو بنفسه ضربة قوية توجّه إلى صرح الوثنية في مكة، وعاملاً قوياً في انتشار عقيدة التوحيد، وسطوع أمره.

من هنا اتخذ سادة قريش أسلوباً آخر، قاصدين بذلك الحيلولة دون انتشار الإسلام، واتساع رقعته، وقطع علاقة المجتمع العربي به. و اليك فيما ياتي بيان تفاصيل هذا الاسلوب، وهذه الخطة:

١ - الاتهاماتُ الباطلة:

يمكن التعرف على شخصية أي واحد وتقييمها من خلال مايرميه به اعداؤه من شتائم وسباب، وما يكيلون له من اتهامات ونسب، فإن العدو يسعى دائماً الى أن يتهم خصمه بنوع من انواع التهم ليُضِلَّ الناس، ويصرفهم عنه، وليتمكن بمايجوُّه حوله من أراجيف وأباطيل الحط من شأنه في المجتمع واسقاطه من الانظار والأعين.

ان العدو الذكي يسعى دائماً إلى ان ينسب إلى منافسه ما يُصدِّقه ولو فئة خاصة من الناس على الاقل، ويوجبُ شكَّهم في صدقه، ويتجنب تلك النِسب

التي لا تصدق في شأنه، ولا تناسب أخلاقه وأفعاله المعروفة عنه، ولا تمسه بشكلٍ من الأشكال، لأنه سوف لايجني في هذه الحالة إلا عكس مايقصد، وخلاف مايريد.

ومن هنا يستطيع المؤرخ المحقق أن يتعرف على الشخصية الواقعية لمن يدرسه، وعلى مكانته الإجتماعية، وأخلاقه وسجاياه ولو من خلال ماينسبه الأعداء إليه، ومايكيلون له من أكاذيب وإفتراءات، ونسب باطلة واتهامات، لأن العدو الذي لا يخاف أحداً لايقصّر في كيل كل تهمة تنفعه وتخدم غرضه إلى الطرف الآخر، ويستخدم هذا السلاح (أي سلاح الدعاية) ما استطاع، وما ساعدته معرفته بالظروف، ودرأيته بالفرص.

فاذا لم ينسب إليه أي شيء من تلك النسب الباطلة فان ذلك إنما هو لأجل طهارة جيبه، ونقاء صفحته، وتنزه شخصيته عن تلك النسب، ولأن المجتمع لم يكن ليعبأ بها ولم يصدقها في شأنه.

ولو أننا تصفحنا اوراق التاريخ الإسلامي لرأينا أن قریشاً مع ماكانت تكن من عدااء، وتجمّل من حقد على رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت تسعى بكل جهدها أن تهدم صرح الإسلام الجديد الظهور، وأن تحط من شأن مؤسسه وبانيه لم تستطع مع ذلك أن تستفيد من هذا السلاح، وتستخدمه كاملاً.

فقد كانت تفكر في نفسها: ماذا تقول في حق رسول الله؟ وماذا ترى تنسب إليه؟؟

هل تهمه بالخيانة المالية وهاهم جماعة منهم قد ائتمنوه على أموالهم؟! (١) كما أن حياته الشريفة طوال الاربعين سنة الماضية جسدت امانته امام الجميع، فهو الامين بلامنازع؟

هل تهمه بالجري والانسياق وراء الشهوة واللذة؟ وكيف تقول في حقه مثل هذا الكلام مع أنه بدأ حياته الشبابية بالتزويج بزوجة كبيرة السن الى درجة

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٦٢.

ما، وبقي معها حتى لحظة انعقاد هذه الشورى في «دار الندوة» بهدف الدعاية ضده، ولم يُعهد منه زلة قدم في هذا السبيل قط؟! و بالتالي بماذا تتهم محمداً الصادق الأمين، الطاهر العفيف، وأية تهمة ترى يمكن أن تُصدّق في حقه، أو يحتمل الناس صدقها في شأنه ولو بنسبة واحد في المائة؟

لقد تحيّر سادة «دارالندوة» وأقطابها في كيفية استخدام هذا السلاح، سلاح الدعاية ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقرّروا في نهاية الأمر أن يطرحوا هذا الأمر على صنديد من صناديد قريش ويطلبوا رأيه فيه، وهو «الوليد بن المغيرة» وكان ذاسن فيهم، ومكانة، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدّم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فانت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان فاهو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فاهو بخنقه، ولا تخالجه،

ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: ساحر.

فقال: ما هو بساحر لقد رأينا السحّار وسحرهم فاهو بنفثهم ولا عقدهم.

وهكذا تحيّرُوا في ما ينسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأخيراً اتفقوا على أن يقولوا: أنه ساحر جاء بقول هو سحرٌ يفرق به بين المرء

وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته.

ويدلُّ عليه ما أوجده من الخلاف والإنشقاق والتفرُّق بين أهل مكة الذين

كان يضرب بهم المثل في الوحدة والاتفاق^(١).

وقد ذكر المفسرون في تفسير سورة «المدثر» هذه القصة بنحو آخر فقالوا: لما أنزل على رسول الله «حم تنزيل الكتاب...» قام الى المسجد و«الوليد بن المغيرة» قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية، فتركت الآية في نفس الوليد تأثيراً شديداً فانطلق إلى منزله، ولم يخرج منه أياماً، فسخرت منه قريش وقالت: صبا -والله- الوليد ثم مشى رجال من قريش اليه وسألوه رأيه في قرآن محمد، واقترح كل واحد منهم أمراً، ولكنه رد عليها بالنفي جميعاً فقالت قريش إذن ماهو؟ فتفكر «الوليد» في نفسه ثم قال: ماهو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه، فهو ساحر ومايقوله سحر يوثر^(٢).

ويرى المفسرون أن الآيات التالية في شأنه إذ يقول الله تعالى:

«ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهْدتُ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا سِخْرٌ يُوَثَّرُ... (الى قوله:) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرَةِ مُغْرَضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ: فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»^(٣).

الإصرار في نسبة الجنون اليه صلى الله عليه وآله وسلم:

يعتبر إتصاف النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم واشتهاره بين الناس بالصدق والامانة وغيرها من مكارم الأخلاق منذ شبابه من مسلمات التاريخ. وهو بالتالي أمرٌ اعترف به حتى أعداؤه الالذاء، فقد دانوا بفضله، وأقروا

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٧٠.

(٢) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٨٦ و ٣٨٧.

(٣) المدثر: من ١١ - ٥١.

بأخلاقه الكريمة وسجاياه النبيلة، دون تلكؤ، ولا إبطاء.
وقد كان من أوصافه الحسنة البارزة ان جميع الناس كانوا يدعونه
«الصادق» «الامين» وكانوا يثقون بأمانته ثقة كبرى^(١) حتى أن المشركين كانوا
يودعون ماغلي من أموالهم عنده، واستمر هذا الأمر حتى عشرة أعوام بعد دعوته
العلنية.

و حيث إن دعوته صلى الله عليه وآله قد ثقلت على المعاندين فاجتهدوا في
أن يصرفوا عنه الناس بما ينسبون اليه من بعض النسب التي توجب سوء الظن
به، ومن ثم إفشال دعوته، وحيث إنهم كانوا يعلمون أن النِسَبَ الأخرى مما
لا يقيم لها المشركون وزناً، لأنها أمور بسيطة في نظرهم، من هنا رأوا بأن
يتهمونه بالجنون، والزعم بان مايقوله ويقروؤه ماهو إلا من نسج الخيال، ومن أثر
الجنون الذي لايتنافى مع الزهد، والأمانة، وذلك تكديباً لدعوته.
ثم عملت قريش على إشاعة هذه النسبة، واتخذت وسائل عديدة وماكرة
لترويحها وبثها بين الناس.

و من شدة مكرهم ومرآاتهم أنهم كانوا يتخذون موقف المتسائل المحايد
فيطرحون هذه التهمة في قالب الشك، والترديد اذ يقولون:
«أفترى على الله كذباً أم به جنة»^(٢).

و هذه هي بعينها الحيلة الشيطانية التي يتوسل بها ويتستر وراءها أعداء
الحقيقة دائماً عند ما يريدون تكذيب المصلحين العظام، وإسقاط خطواتهم
وأفكارهم من الاعتبار، والحظ من شأنها وأهميتها.
ويشير القرآن أيضاً إلى أن هذا الاسلوب الماكر الذميمة لم يكن مختصاً
بالمعارضين في عهد الرسالة المحمدية، بل كان المعارضون في الأعصر الغابرة أيضاً
يتوسلون بهذا السلاح لتكذيب الرسل، والأنبياء إذ يقول عنهم:

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٦٢ عن عبيد الله بن أبي رافع: كانت قريش تدعو محمد صلى الله عليه وآله
في الجاهلية الامين وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك كل من كان يقدم مكة
من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والامر كذلك. (٢) سبأ: ٨.

«كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ»^(١).

وتحدث الاناجيل الحاضرة هي الأخرى عن ان المسيح عليه السلام عند ما وعظ اليهود قالوا: إن فيه شيطاناً، فهو يهذي فلماذا تسمعون اليه؟!^(٢).

و من المسلم والبيدي أن قريشاً لو كان في مقدورها أن تهم رسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وآله بغير هذا الاتهام وتنسب إليه غير هذه النسبة لما تأخرت عن ذلك، ولكن حياة النبي صلى الله عليه وآله المشرقة خلال الاربعين سنة الماضية، وسوابقه اللامعة في المجتمع المكي وغير المكي كانت تحول دون أن ينسبوا اليه شيئاً من تلك النسب القبيحة، الذميمة.

لقد كانت «قريش» مستعدة لأن تستخدم أي شيء - مهما صغر - ضد رسول الله صلى الله عليه وآله.

فثلاً عند ما وجده أعداء الرسالة يجلس إلى غلام مسيحي يدعى «جبر» عند المروة، انطلقوا يستخدمون هذا الأمر ضده صلى الله عليه وآله فوراً فقالوا: والله ما يعلم محمدٌ كثيراً مما يأتي به الا «جبر» النصراني.

فرد عليهم القرآن الكريم بقوله:

«وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أُعْجَمِي وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»^(٣).

«وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَجْنُونٌ»^(٤).

القرآن يرد على جميع الاتهامات:

و ربما نسبوا اليه صلى الله عليه وآله الكهانة، والكاهن هو من يتصل بعناصر من الجن^(٥) أو الشياطين ويتلقى منهم اخباراً حول الماضي والمستقبل،

(١) الذاريات: ٥٢ و ٥٣. (٢) انجيل يوحنا: الفصل ١٠ الفقرة ٢٠، والفصل ٧ الفقرة ٤٨ و ٥٢.

(٣) النحل: ١٠٣. (٤) الدخان: ١٣ و ١٤.

(٥) الجن كائن من الكائنات ومخلوق من مخلوقات الله تعالى وقد اخبر به القرآن الكريم في مواضع

وكان هذا موجوداً قبل الإسلام كما ترويه كتب السير والتواريخ^(۱).
 وقد رد القرآن الكريم على هذه المقالة وهذا الزعم اذ قال تعالى:
 «وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ»^(۲) كما رد ايضاً تهمة السحر،
 والكذب والافتراء والشعر اذ قال تعالى وهو يصف المتهمين تارة بالكفر وأخرى بالظلم:
 «وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ»^(۳).
 وقال تعالى: «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا»^(۴)
 وقال سبحانه متعجباً منهم: «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»^(۵).
 وقال تعالى: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ»^(۶).
 وقال سبحانه: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ»^(۷).
 وقال عز وجل: «فَذَكَّرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ»^(۸).
 وقال تعالى: «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(۹).
 وقال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ»^(۱۰).
 وقال سبحانه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ
 قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا»^(۱۱).
 وقال سبحانه: «أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ»^(۱۲).
 وقال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبَ الْمَثُونِ»^(۱۳).
 وقال تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقِرَانٌ مُبِينٌ»^(۱۴).
 وربما وصفوا القرآن بانه اضغاث احلام فردهم سبحانه بقوله.
 «بَلْ قَالُوا اضْغَاثٌ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ»^(۱۵).

عديدة كما سميت احدى السور باسم الجن.

(۱) راجع: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ۳ ص ۲۶۹ باب علم الكهانة والعرافة.

- | | | |
|-------------------|---------------|-------------------|
| (۲) الحاقة: ۴۲. | (۳) ص: ۴. | (۴) الفرقان: ۸. |
| (۵) الشعراء: ۱۵۳. | (۶) الحجر: ۶. | (۷) التكوير: ۲۲. |
| (۹) النحل: ۱۰۱. | (۱۰) هود: ۱۳. | (۸) الطور: ۲۹. |
| (۱۳) الطور: ۳۰. | (۱۴) يس: ۶۹. | (۱۱) الفرقان: ۴. |
| | | (۱۲) سبأ: ۸. |
| | | (۱۵) الانبياء: ۵. |

و هكذا نجدهم ذهبوا في استخدام سلاح الاتهام والتشويش على الشخصية المحمّدية والرسالة الإسلامية كل مذهب، فرة وصفوه بانه كاهن وأخرى بانه ساحر وثالثة بانه مسحور، ورابعة بانه مجنون وخامسة بانه معلّم وسادسة بانه كذاب وسابعة بانه مفترى وثامنة بانه مفترى او مجنون على سبيل الترييد وتاسعة بانه شاعر وعاشرة بان مايقوله ماهو الا أضغاث احلام.

٢ - فكرة معارضة القرآن:

لم يُجد استخدام سلاح الاتهام ضد رسول الله صلى الله عليه وآله نفعاً، ولم تأت بالثمار التي كان يتوخاها المشركون منه، لأن الناس كانوا يُدركون بفظنتهم وفسادهم أن للقرآن جاذبية غريبة، وأنهم لم يسمعوا كلاماً حلواً، وحديثاً عذباً مثله.

ان لكلماته من العمق والعدوبة بحيث يتقبلها كل قلب، وتسكن اليها كل نفس.

من هنا لم ينفع اتهام قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله بالجنون وبأن مايقوله إن هو الا من نسج الخيال، ونتائج الجنون، شيئاً، فقررت أن تخطط لتدمير آخر ظناً منهم بأن تنفيذه سيصرف الناس عنه، وعن الاستماع إلى كتابه، الا وهو: معارضة القرآن الكريم.

فعمدت إلى «النضر بن الحارث» وكان من شياطين قريش، وممن كان يؤدي رسول الله صلى الله عليه وآله وينصب له العداوة، وكان قد قضى شطراً من حياته في الحيرة بالعراق وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث «رستم» و«إسفنديار» وقصصهم، وحكاياتهم، وأساطيرهم، وطلبوا منه أن يجمع الناس ويقص عليهم من تلكم الأساطير والحكايات يلهي بها الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ويصرفهم عن الإصغاء إلى القرآن الكريم!!

فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وآله مجلساً فذكر الناس فيه بالله، وحذر قومه ماأصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه «النضر» في مجلسه

اذا قام صلى الله عليه وآله ثم قال: أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه.

ثم يحدثهم عن ملوك الفرس و «رستم» و «اسفنديار» ثم يقول:
بماذا محمد أحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتبها كما
اكتبتُها؟^(١).

وقد كانت هذه الخطة حمقاء جداً إلى درجة أنها لم تدم إلا عدة أيام لا أكثر
حتى أن قريشاً سأمت من أحاديث «النضر» وسرعان ما تفرقت عنه.
وقد نزل في هذا الشأن آيات هي:

«وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَاهُ فَهِيَ تَمْلِي عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ
الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً»^(٢).

* * *

تحججات صبيانية و جاهلية:

و ربما جسّدوا معارضتهم للدعوة المحمدية في صورة تحججات ومجادلات جاهلية
وما أخذ سخيفة اخذوها على رسول الله ورسالته، تم عن تكبر وجهل، وعناد
ولجاج طبعوا عليه.

وها نحن نذكر ابرزها:

أ - لماذا لم ينزل القرآن على ثري من اثرياء مكة أو الطائف؟!

قال تعالى حاكياً قولهم:

«لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»^(٣).

ب - لماذا لم يرسل اليهم ملائكة ولماذا هو بشر؟!

قال تعالى عنهم:

«وَمَا مَتَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٠٠ و ٣٥٨. (٢) الفرقان: ٥ و ٦. (٣) الزخرف: ٣١.

رَسُولًا»^(١).

وقال تعالى حاكياً عنهم أيضاً:

«وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ»^(٢).

ج - أنه يدعو الى خلاف ما كان عليه الآباء، من الدين والعقيدة والسلوك؟

يقول عنهم سبحانه:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ»^(٣).

د - تبديل الآلهة باله واحد.

قال الله عنهم:

«وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إلهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا إِلَّا شَيْءٌ عَجَابٌ»^(٤).

هـ - القول بحشر الاجساد وتجدد الحياة في يوم القيامة.

قال تعالى عنهم:

«وَقَالُوا أءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ءَأِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ»^(٥)

و - لماذا ليس عنده مثل ما كان لدى موسى من المعجزات كالثعبان المنقلب من العصا، وقد توصل المشركون إلى هذا النمط من الاعتراض بسبب اتصا لهم بأحبار اليهود.

يقول الله عنهم:

«فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلُ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ»^(٦).

ز - لماذا ليس معه ملك يُرى ويشاهد ويحضر معه في كل مقام ومشهد.

قال تعالى:

«وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ»^(٧).

(٤) ص: ٤ و ٥.

(٣) الأئمة: ١٠٤.

(٢) الفرقان: ٧.

(١) الاسراء: ٩٤.

(٧) الانعام: ٨.

(٦) القصص: ٤٨.

(٥) السجدة: ١٠.

مقترحات عجيبة و مطالب غريبة:

و كان المشركون اذا نفذت تحججاتهم و اعتراضاتهم الواهية، وقبولوا بردود قوية وقاطعة عليها عمدوا إلى طرح مقترحات سخيفة على رسول الله صلى الله عليه وآله في سياق معارضتهم لدعوته ونورد هنا ابرز تلك الاقتراحات ليعرف القارئ الكريم مدى معاناة النبي الكريم صلى الله عليه وآله من قومه:
لقد اقترحوا عليه:

١ - ان يعبد اصنامهم سنة و يعبدوا إلهه سنة أخرى وجعلوا ذلك شرطاً لايمانهم بدعوته!!

فأنزل الله تعالى في ردهم بسورة «الكافرون»:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

٢ - تبديل القرآن، فقد دفع نقد القرآن الكريم للوثنية، والازواء على الاصنام، دفعهم إلى ان يطلبوا من النبي صلى الله عليه وآله ان يأتي لهم بقرآن آخر لا يحتوي على شجب عبادة الاوثان والازدراء بالاصنام، وابطالها.
قال الله تعالى عن فعلهم هذا:

«وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنِّي بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ»^(١).

فرد الله عليهم بقوله:

«قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»^(٢).

٣ - مطالب مادية عجيبة!!

وقد عمدوا - بسبب عنادهم وعتوهم - الى المطالبة بأمر لا ترتبط بهداية الناس، مثل مطالبته بان يفجر لهم ينابيع، او يسقط السماء على رؤوسهم قطعاً، أو يصعد إلى السماء، أو يأتي بالله سبحانه وتعالى، أو غير ذلك من الاقتراحات والمطالب التي كانت إما مستحيلة في نفسها او تناقض غرض الدعوة!!
قال الله حاكياً عنهم ذلك:

«وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ»^(١).

صبر النبي واستقامته وثباته:

ولقد قابل رسول الله صلى الله عليه وآله كل هذه التحججات الايدائية وما طرح من الاقتراحات المستحيلة بصبر عظيم وثبات هائل، ايماناً منه بدعوته، وحرصاً على ابلاغ رسالته، وبفعل التأيد الالهي من جانب.
يقول الله تعالى في هذا الصدد:

١ - «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ»^(٢).
٢ - «وَآتِبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُكَّمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ»^(٣).

- ٣ - «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»^(٤).
٤ - «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ»^(٥).
٥ - «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ»^(٦).
٦ - «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا»^(٧).



(١) الاسراء: ٩٠ - ٩٣. (٢) الاحقاف: ٣٥. (٣) يونس: ١٠٩. (٤) النحل: ١٢٧.
(٥) الكهف: ٢٨. (٦) القلم: ٤٨. (٧) الزمل: ١٠.

معاجز النبي لم تنحصر في القرآن:

وبالمناسبة لا بد أن نذكر أن المشركين ومن حذى حذوهم من الكفار والمعارضين للرسالة الإسلامية كانوا يطالبون رسول الله صلى الله عليه وآله بمعاجز وآيات لا بدافع الرغبة في الايمان بدعوته بل بدافع اللجاج والعناد، وإلا فإن معاجز النبي لم تنحصر في الكتاب العزيز، فقد أتى رسول الله بآيات ومعاجز كثيرة أخرى غير القرآن، كان كل واحد منها يكفى للاقتناع برسالته، والايمان بصحة دعواه.

فالقرآن نفسه يشير الى أبرز هذه المعاجز وهي:

١ - شق القمر

فقد طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وآله ان يشق لهم القمر نصفين حتى يؤمنوا به، فلما فعل ذلك لهم باذن الله كفروا به وقالوا انه سحر!!
يقول الله تعالى:

«إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ»^(١).

٢ - المعراج

ان العروج برسول الله صلى الله عليه وآله والذي سيأتي مفصلاً هو الآخر معجزة من معاجزه القوية، وقد نطق بها القرآن بقوله:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٢).

(١) القمر: ١ و ٢.

(٢) الاسراء: ١.

٣ - مباهلة أهل الباطل

ان تقدم رسول الله صلى الله عليه وآله مع مَنْ خرج بهم إلى المباهلة، واحجام النصرارى عن مباهلته، معجزة أخرى من معاجزه صلى الله عليه وآله وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه القضية اذ قال:

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ
أَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ
عَلَى الْكَافِرِينَ»^(١).

وستأتي قصّة المباهلة على نحو التفصيل في حوادث السنة العاشرة من الهجرة.

٤ - الاخبار بالمغيبات

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخبر عن أمور غائبة كما يقول الله سبحانه حاكياً عنه:

«وَأَنْبَأَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»^(٢).

هذا وقد أخبرت الاخبار والاحاديث عن معاجز كثيرة لرسول الله غير القرآن الكريم.

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) آل عمران: ٤٩، وقد اشار القرآن الكريم إلى موارد أخرى من هذه القبيل.

فقد اخبر عن غلبة الروم بعد سنين: قال تعالى:

«الْمَغْلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بَعْضِ سِنِينَ. اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنِينَ» (الروم: ١-٤).

واخبر عن هلاك ابي لهب قال تعالى:

«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ... الخ».

واخبر عن هزيمة المشركين في بدر قال سبحانه:

«سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ» (القمر: ٤٥).

و من هذه المعاجز ما ذكره الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب - كما في نهج البلاغة - حول سؤال المشركين من النبي صلى الله عليه وآله قلع شجرة بعروقها وجذورها ولما فعل ذلك وقال: «يا أيها الشجرة ان كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمين اني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي باذن الله. فانقلعت بعروقها ولها دوي عجيب ووقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنهم كذبوا وقالوا ساحر كذاب، علواً واستكباراً».

وقد صرح الامام في كلامه هذا أن النبي صلى الله عليه وآله أخبرهم بانهم لا يؤمنون وان ظهرت لهم المعجزة التي طلبوها، وان فيهم من يطرح في القلب (في معركة بدر) وان منهم من يحزب الأحزاب (لمعركة الخندق)^(١).

اصرار النبي على هداية قريش:

بل كان النبي صلى الله عليه وآله يحرص على هدايتهم وارشادهم وابقاظهم. فقد كان زعيم المسلمين وقائدهم يعلم جيداً بأن اعتقاد أغلبيه الناس بالأوثان ما هو الا أمر نابع من تقليد الآباء، والجدود، أو اتباع أسياد القبيلة وكبرائها، وهو بالتالي لا يستند إلى جذور في أعماق الناس وأسس في عقولهم ونفوسهم.

من هنا فإن أي انقلاب يحصل ويحدث في اوساط السادة والكبراء بان يؤمن أحدهم مثلاً كان كفيلاً بأن يحل الكثير من المشاكل.

من هنا كان ثمة إصرار كبير على جرّ «الوليد بن المغيرة» الذي أصبح ابنه «خالد» في مابعد من قادة الجيش الاسلامي والمشاركين في الفتوح الاسلامية إلى صف المؤمنين بالرسالة المحمدية، لأنه كان أسنّ من في قريش واكثرهم نفوذاً، وأعلاهم مكانة، وأقواهم شخصية، وكان يُدعى حكيم العرب، وكانت العرب تحترم رأيه إذا اختلفت في أمر.

(١) نهج البلاغة: قسم الخطب الرقم ١٩٢.

وقد كلمه رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم في ذلك وقد طمع في اسلامه، فبينما هو في ذلك إذ مرَّ به «ابن أم مكتوم»، فكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وجعل يستقرئه القرآن فشقَّ ذلك منه على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر «الوليد». وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى:

«عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي. أَوْ يَذَّكُرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى. أَمَا مَنْ اسْتَعْنَى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي. وَأَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَهُوَ يَخْشَى. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ»^(١)^(٢).

وقد فند علماء الشيعة ومحققوهم هذه الرواية التاريخية، واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي امتدحه ربُّ العالمين بالخلق العظيم، ووصفه بالرافة بالمؤمنين، وقالوا: ليس في الآيات ما يدل على أن الذي عبس وتولى هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد روي عن الامام الصادق عليه السلام أن المراد رجلٌ من بني أمية، فإنه عبس وتولى عند ما حضر «ابن أم مكتوم» الأعمى عند رسول الله فنزلت هذه الآيات توبيخاً له^(٣).

* * *

٣ - تحريم استماع القرآن

كانت البرامج الواسعة التي دبرها الوثنيون في «مكة» لمكافحة الاسلام، والحيلولة دون انتشاره بين القبائل والجماعات، تُنفذ الواحدة تلو الأخرى، ولكن دون جدوى، ودون ان يكسب اصحابها من ورائها أي نجاح، واية نتائج على

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) عبس: ١ - ١١.

(٣) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٣٧، وقد شرح العلامة الطباطبائي في المجلد ٢٠ من تفسير الميزان عند تفسير سورة عبس شأن نزول هذه الآيات بصورة رائعة، وشكل بديع، واثبت بان فاعل عبس ليس رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا ينافي ذلك توجه الخطاب في «وما يدريك» اليه صلى الله عليه وآله.

المستوى المطلوب، فقد كانت تلك المؤامرات تفشل في كل مرة، ولا يجني المشركون منها سوى الخيبة والفشل، وسوى النتائج المعكوسة في أغلب الأحيان. فقد ما رسوا الدعاية ضد رسول الله فترة من الزمن ولكن لم يحالفهم التوفيق الكامل في ذلك، فقد وجدوا رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر ثباتاً واستقامة في طريقه وأشدّ إصراراً على هدفه، وكانوا يرون بأعينهم بأن عقيدة التوحيد في انتشار مستمر ومتزايد، يوماً بعد يوم.

و لهذا قرّر سادة قريش وزعماء «مكة» المشركون أن يمنعوا الناس عن سماع القرآن. ولكي تتحقق خطتهم هذه وتلبس ثوب الوجود بثوا جواسيسهم في كل انحاء مكة ومدخلها ليمنعوا من يفتد إليها للحج أو التجارة من الاتصال بمحمد، ومنعه بكل صورة ممكنة، عن الاستماع الى القرآن، وأعلن مناديتهم ما ذكره القرآن عند قوله تعالى:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»^(١).

لقد كان القرآن اقوى أسلحة النبي صلى الله عليه وآله، فقد القى رعباً عجباً في نفوس الاعداء واقض مضاجعهم.

و كان اشرف قريش وأسيادها يرون بأعينهم كيف أنّ اعدى اعداء النبي صلى الله عليه وآله (وهو أبو جهل) عندما مشى إليه ليستهزئ به، ويسخر منه، ما ان سمع آيات من القرآن، إلا وفقد السيطرة على نفسه، ولان قلبه، وأصبح من أصحابه ومؤيديه الأقوياء، ولهذا لم يكن أمام أولئك الاسياد إلا أن يمنعوا من سماع القرآن منعاً باتاً، ومحرموا التحدث الى النبي صلى الله عليه وآله تحريماً قاطعاً^(٢).

و لهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله بعض ما يتلوه من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشيّة أذاهم فلم يستمع^(٣).

(٢) و (٣) السيرة النبوية: ح ١ ص ٣١٣ و ٣١٤.

(١) فصلت: ٢٦.

واضعوا القرار ينقضون قرارهم!!

ولكن من الطريف العجيب أن نفس الذين كانوا يمنعون الناس بشدة عن الاستماع إلى القرآن، وكانوا يعدون كل من يتجاهل قرار (تحريم الاستماع إلى القرآن) مخالفاً يتعرض للملاحقة والعقاب، نقضوا بعد أيام من إصدار هذا القرار قرارهم وانضموا إلى صفوف المخالفين له في الخفاء.

فاذا بالذين يمنعون من سماع القرآن في العلن، يستمعون إليه في الخفاء! واليك بعض ما جرى في هذا الصعيد:

خرج «أبوسفيان» و «أبوجهل» و «الخنس» ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا تبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك. ثم تفرقوا^(١).

* * *

٤ - منع الأشخاص من الإيمان برسول الله

بعد خطة (تحريم الاستماع إلى القرآن) بدأوا بتنفيذ خطة أخرى وهو منع كل قريب وبعيد ممن رغبوا في الإسلام وقدموا إلى مكة ليتعرفوا على النبي، وعلى ما أتى به من كتاب ودين، من الاتصال بالنبي صلى الله عليه وآله.

(١) السيرة النبوية: ح ١ ص ٣١٥.

فبثت قريش جواسيسها في الطرق المؤدية إلى مكة ليتصلوا بمن يلقونه من هؤلاء ويبادروا الى منعه من الاتصال برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والايان برسالته، بثتى الحيل والاساليب.
و اليك نموذجين حيين من هذا الامر.

۱ - «الاعشى» :

و كان من شعراء العهد الجاهلي البارزين، وكانت قصائده تتناقلها مجالس السمر القرشية، وتتغنى بها محافل انسهم.
وقد بلغ «الاعشى» في كبره نبأ ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله من التوحيد ومن تعاليم الاسلام العظيمة، وكان يعيش في منطقة نائية عن مكة، حيث لم تصل اليها أشعة الرسالة الاسلامية على وجه التفصيل بعد، ولكن ما قد سمع به من تعاليم الاسلام على نحو الاجمال قد اوجد في نفسه هياجاً خاصاً وحرّك مشاعره فأنشأ قصيدة مطوّلة يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم خرج الى مكة ليهديها اليه صلى الله عليه وآله وهو في نفس الوقت يريد الاسلام.

ورغم ان تلكم القصيدة لا تتجاوز أبياتها ۲۴ بيتاً، ولكنها تعدّ من أفضل وافصح ما قيل من الشعر في الاسلام، وفي رسول الله صلى الله عليه وآله في العهد النبوي ويوجد نصّها الكامل في ديوان «الاعشى» وقد قال فيها وهو يذكر بعض تعاليم الاسلام:

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| أغار لعمري في البلاد وأنجدا | نبيّاً يرى مالايرون وذكره |
| ولا تاخذن سهماً حديداً لتفصدا | فاياك والميتات لا تقربنّها |
| ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا | وذا النصب المنصب لا تُسكّنه |
| عليك حراماً فانكحن اوتأبدا | ولا تقربنّ حُرّة كان سرّها |
| لعاقبة، ولا الاسير المقيّدا | وذا الرحم القربى فلا تقطعنه |
| ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا | وسبّح على حين العشيات والضحي |

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه جواسيس قريش ورجالها فسألوه عن أمره وقصده فباخبرهم بأنه جاء يريد رسول الله صلى الله عليه وآله ليسلم، وحيث إنهم كانوا يعرفون بأن «الاعشى» رجل يحب النساء والخمر حباً كبيراً لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفروه من الاسلام، فقالوا له: يا أبابصير (وهي كنية الاعشى) إنه يحرم الزنا.

فقال الاعشى: والله ذلك لأمر مالي فيه من ارب.

فقالوا له: يا أبابصير فإنه يحرم الخمر.

فقال الأعشى - وقد صدم بهذا الخبر - أما هذه فوالله في النفس منها لعلالات، ولكني منصرف فاتروى منها عامي هذا، ثم آتته فأسلم!! فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله^(١).

٢ - الطفيل بن عمرو الدوسي:

وهو الشاعر العربي الحكيم العذب اللسان، صاحب النفوذ والكلمة المسموعة في قبيلته.

يروى انه قدم «مكة» ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بها، وكانت قريش تخشى ان يتصل بالنبى صلى الله عليه وآله فيسلم.

ومن البديهي أن اسلام رجل مثله كان ممّا يشق على قريش جداً ولهذا مشى إليه رجال منهم وقالوا له - محذرين آياه من رسول الله صلى الله عليه وآله -: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد اعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين ابيه، وبين الرجل وبين اخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمته، ولا تسمعن منه شيئاً.

ففعلت تحذيرات قريش فعلتها في نفس الطفيل وهم يكرّرونها عليه بقوة

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨.

وإصرار، حتى انه قرر ان لا يسمع من النبي صلى الله عليه وآله شيئاً، ولا يكلمه، وحشى أذنه - حين غدى الى المسجد للطواف - قطناً، خوفاً من أن يبلغه شيء من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وهو لا يريد ان يسمعه!!!

يقول الطفيل: فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلي عند الكعبة، فقمْتُ منه قريباً فسمعتُ كلاماً حسناً من غير اختيار مني فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله اني لرجل لبيب شاعرٌ ما يحفى عليّ الحسنُ من القبيح، فما يمنعني أن اسمع من هذا الرجل ما يقول، فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وان كان قبيحاً تركته؟

فكثتُ حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرُك حتى سردت أذني بكرسف لئلا اسمع قولك ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك فسمعتُهُ قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرُك، فعرض عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله الاسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق. ثم قلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاعٌ في قومي وأنا راجع إليهم، وداعيتهم إلى الاسلام.

ثم يكتب ابن هشام قائلاً: إن الطفيل لم يزل بارض «دوس» يدعوهم الى الاسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة ومضى «بدر» و«أحد» و«الخنديق» فقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون او ثمانون بيتاً ورسول الله صلى الله عليه وآله بخير فلحقوا جميعاً برسول الله صلى الله عليه وآله بخير، وبقي مع النبي حتى قبض صلى الله عليه وآله ثم سار مع المسلمين - في زمن الخلفاء إلى «اليمامة» وشارك في معركتها وقُتِلَ فيها^(١).

(١) السيرة النبوية: ح ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٥.

اسطورة الغرائق

قد يكون بين القراء من يودُّ التعرف على اسطورة «الغرائق» التي رواها بعض مؤرّخي السنّة ومعرفة جذورها كما يودُّ التعرف على الأيادي الخفية التي كانت وراء اختلاق هذه الاسطورة، وأمثالها من الأكاذيب، والمفتريات. كان اليهود و بخاصة أحبارهم ولايزالون العدو رقم واحد للإسلام. وقد عمّد فريقٌ منهم -مثل «كعب الاحبار» وغيره- ممّن تظاهروا باعتناق الاسلام إلى تحريف الحقائق باختلاق الأكاذيب وجعل الأخبار المفتراة على لسان الانبياء^(١).

و لقد أدرج بعضُ المؤلفين المسلمين بعض هذه المفتريات في مؤلفاتهم وجعلوها في عداد الحديث والتاريخ الصحيح من دون تمحيصها والتحقيق فيها، ثقة بكل من أظهر الاسلام، وتظاهر بالإيمان، وانضم إلى صفوف المسلمين!! و لكنّ اليوم حيث يجد العلماء فرصة اكبر للتحقيق في هذا النوع من الأحاديث والاخبار، والمنقولات والنصوص وبخاصة بعد أن توفّرت لديهم -بفضل جهود طائفة من المحققين المسلمين القواعد والضوابط الكفيلة بتمييز

(١) وهي التي يُطلق عليها الاسرائيليات وقد ألفت في هذا المجال بعض الكتب.

الحسن عن القبيح، والصحيح عن السقيم، وفرز الحقائق التاريخية عن القصص الخيالية، والروايات الاسطورية.

من هنا لا ينبغي لكاتب مسلم ملتزم أن يعتبر كل ما يراه في مصنف تاريخي أو غير تاريخي متقدّم أمراً صحيحاً مقطوعاً بسلامته، ويرويه في كتابه من دون دراسة وتحقيق، وتمحيص وتقييم.

ماهي أسطورة الغرائق؟!

يقولون: إن «الأسود بن المطلب» و «الوليد بن المغيرة» و «أمية بن خلف» و «العاص بن وائل» وهم من زعماء قريش واسيادها قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله:

يا محمد هلم فلنعبد ماتعبد، وتعبد مانعبد فنشرك نحن وانت في الأمر!!
وقالوا ذلك رفعا للاختلاف، وتضييقاً لشقة الخلاف فأنزل الله سبحانه سورة الكافرين التي امر فيها نبيه أن يقول في جوابهم:
«لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد».

ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يرغب في أن يساوم قريشاً ويجارهم وكان يقول في نفسه: ليت نزل في ذلك أمر يقربنا من قريش.
و ذات يوم و بينا كان صلى الله عليه وآله يتلو القرآن عند الكعبة ويقرأ سورة «النجم» فلما بلغ قوله تعالى:

«أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ»^(١).

أجرى الشيطان على لسانه الجملتين التاليتين:

«تِلْكَ الْغَرَائِيقُ الْعُلَىٰ مِنْهَا الشَّفَاعَةُ تُرْتَجَىٰ».

فقرأهما من دون إختيار، وقرأ ما بعدها من الآيات، ولما بلغ آية السجدة سجد هو ومن حضر في المسجد من المسلمين والمشركين أمام الاصنام، إلا

«الوليد» الذي عاقه كبر سنه عن السجود!!

و فرح المشركون، وارتفعت نداءاتهم يقولون: لقد ذكر «محمد» آهتنا بخير. و انتشر نبأ هذه المصالحة والتقارب بين رسول الله صلى الله عليه وآله والمشركين، المهاجرين الى الحبشة، فعاد على أثرها جماعة منهم إلى مكة، ولكنهم ما أن كانوا على مشارف «مكة» إلا وعرفوا بأن الأمر تغير ثانية، وأن ملك الوحي نزل على النبي وأمره مرة أخرى بمخالفة الاصنام ومجاهدة الكفار والمشركين، وأخبره بأن الشيطان هو الذي أجرى تينك الجملتين على لسانه، وانه لم يقله وأنه ليس من «الوحي» في شيء أبداً.

و عندئذ نزلت الآيات (٥٢ - ٥٤) من سورة «الحج» التي يقول الله تعالى

فيها:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتُ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

هذه هي خلاصة أسطورة «الغرائق» التي أوردتها «الطبري» في تاريخه^(١)

ويذكرها ويرددها المستشرقون المفرضون بشيء كبير من التطويل والتفصيل!!

محاسبة بسيطة لهذه الاسطورة

لنفترض أن «محمداً» لم يكن نبياً مرسلأً ولكن هل يمكن لأحد أن ينكر ذكائه وحنكته، وفطنته وعقله.

فهل لعاقل فطن، محنك لبيب مثله أن يفعل مثل هذا؟

ان الذكي اللبيب الذي يجد انصاره يتكاثرون ويتزايدون يوماً بعد يوم

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٨٥ و ٧٦.

وتقوى صفوفهم اكثر فاكثر بينما تتفرقُ صفوفُ أعدائه ومناوئيه ويتناقص معارضوه وخصومُه، هل يقدم في مثل هذه الحالة على عمل يوجب ان يسيء الجميعُ ظنهم به، ويشك الصديق والعدوُ في أمره؟!!

هل تصدق أنت أيها القارئ الكريم أن رجلاً ترك جميع الأموال والمناصب التي عرضتها قرش عليه، في سبيل دينه الحنيف، وعقيدته التوحيد أن يصبح مرة أخرى من دعاة الشرك، ومروجي الوثنية؟؟!

إننا لن نصدق بمثل هذا الاحتمال في حق مصلح أو سياسي عادي من الساسة والمصلحين فكيف برسول الله ونبيّه العظيم.

رأي العقل في هذه القصة:

١ - إن العقل يحكم بان المرشدين الذين يبعثهم الله تعالى الى البشرية لهدايتها وارشادها، وتزكيتها وتعليمها مصنونون عن أي خطأ وزلل بقوة (العصمة) التي أوتوها، اذ لو تعرض مثل هؤلاء الى الخطأ والزلل في أمور الدين لزال ثقة الناس بهم وبكلامهم.

يجب علينا ان نقارن بين أمثال هذه القصص، وبين هذا الأصل العقائدي المنطقي ونعالج بواسطة معتقداتنا القوية المبرهنة متشابهات التاريخ ومعضلاته. إن من المسلم أن عصمة رسول الله صلى الله عليه وآله كانت تمنعه وتحفظه من أي نوع من هذه الحوادث في تبليغ رسالته السماوية.

٢ - إن هذه الاسطورة تقوم أساساً على أن النبي قد تعب من أداء مهمته التي ألقاها الله سبحانه عليه، وقد شقَّ عليه ابتعاد الوثنيين عنه، فكان يبحث عن مخلص من هذا الوضع المتعب، يكون طريقاً - حسب تصوره - إلى إصلاح وضعهم!!

و لكن العقل يقضي بأن على الانبياء أن يكونوا صابرين حلما أكثر مما يتصور، وأن يكونوا مضرب المثل عند الجميع في ذلك، فلا يُحدّثوا أنفسهم بالتهرب من المسؤولية وترك الساحة مطلقاً، مهما اشتدت الظروف، وتأزمت

الأحوال.

بينما لو صحّت هذه الرواية -الاسطورة لكانت دليلاً على أن بطلَ حديثنا قد فقدَ عنان الصبر وأفلت منه زمام الثبات والاستقامة وانه بالتالي تعب وملّ، وضني وكلّ، وهو أمرٌ لا ينسجم مع ما يحكم به العقل السليم في حق الأنبياء، كما لا يتفق كذلك مع ما عهدناه من سوابق رسول الله صلى الله عليه وآله ومن مستقبه أبداً.

إن مخلق هذه الاسطورة لم يمرّ بخاطره وباله أن القرآن الكريم شهد ببطلان هذه القصة، اذ يعد الله تعالى نبيه الكريم، بأن لا يتسرّب الى القرآن أي شيء من الباطل إذ قال:

«لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»^(١).

كما وعده أيضاً بأن يصونه عبر جميع أدوار البشرية من أي حادث سيء اذ قال سبحانه:

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(٢).

ومع ذلك كيف يستطيع الشيطان الرجيم عدو الله أن ينتصر على رسول الله صلى الله عليه وآله ويسرّب الى القرآن شيئاً باطلاً، ويصبح القرآن الذي تقوم معارفه وتعاليمه على أساس معاداة الوثنية ومحاربتها داعياً الى الوثنية؟؟!!

إنه لأمر عجيبٌ جداً أن يفترى مخلق هذه الاسطورة أمراً ضدّ التوحيد في موضع قد كذبه القرآن قبل هذا المكان بقليل إذ قال الله تعالى:

«وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»^(٣).

فكيف يترك الله نبيه -وقد وعده بهذا الوعد- من دون حفيظ، ويسمح للشيطان بأن يتصرف في قلبه وعقله ولسانه؟؟

إن هذه الأدلة العقلية إنما تفيد من يكون مؤمناً بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله ورسالته.

(٣) النجم: ٣ و ٤.

(٢) الحجر: ٩.

(١) فصلت: ٤٢.

و اما المستشرقون الذين لا يعتقدون بنبوته، ويعمدون الى شرح ونقل وترديد أمثال هذه الأساطير للحظ من شأن دينه ورسالته فلا تكفيهم هذه الدلائل، فلا بد أن ندخل معهم في البحث من باب آخر.

تكذيب القصة من طريق آخر

إن النص التاريخي يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قرأ هذه السورة، وكبار قريش واكثرهم من عمالقة الكلام، وأبطال الفصاحة والبلاغة العربية حضور في المسجد ومنهم «الوليد بن المغيرة، متكلم العرب ومنطيقها المفوه المعروف بينهم بالذكاء وحصافة العقل والنباهة، وقد سمعوا جميعاً هذه السورة إلى ختامها حيث سجد الجميع بسجدها.

فكيف اكتفى هذا الجمع المؤسس للفصاحة والبلاغة الذين كانوا ينقدون كل ما يعرض عليهم نقداً دقيقاً؟

كيف اكتفوا بتينك الجملتين اللتين امتدحتا آلهتهم، وقد تضمنت الآيات السابقة عليهما، واللاحقة لهما على شتم آلهتهم وتفنيدها، والازدراء بها بصورة صارخة وصریحة؟!

كيف تصور مختلف هذه الاكذوبة الفاضحة، تلك الجماعة أصحاب اللغة العربية وآبائها ونقاد الكلام المعدودين عند العرب كآلها من عمالقة الفصاحة والبلاغة بلا منازع، والذين كانوا أعرف من غيرهم بإشارات تلك اللغة، وكناياتها (فضلاً عن تصریحاتها).

كيف اكتفى هؤلاء بتينك العبارتين في امتداح آلهتهم، وغفلوا عما سبقها ولحقها من الذم لها والطن الصارخ فيها؟

إنه لا يمكن قط أن نخدع العاديين من الناس بهاتين الجملتين المحفوفتين بكلام مطول يذم عقائدهم وسلوكهم فكيف بمن عُرف باللب، والحصافة، والحكمة والذكاء؟

وها نحن ندرج هنا الآيات المتعلقة بالمقام ونترك أصفاراً (وفراغاً) في مكان

الجملتين اللتين أُدعي اضافتهما، ثم نترك للقارئ نفسه أن يقيم بنفسه هل لتينك
الجملتين مكانٌ بين هذه الآيات (التي وردت في ذم الاصنام والقدر فيها):
وإليك هذه الآيات:

«أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ...» (١) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ
الأنثى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى. إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» (٢).

ثم هل يسمح إنسانٌ عادي لنفسه أن يكفّر عن معاداة نبيٍّ هاجم عقائده
طيلة عشرة اعوام، وهدر إستقلاله وكيانه، وجرّ عليه الشقاء بتسفيه أحلامه،
وشتم آلهته، لعبارات متناقضة وكلام خليط من الذم الكبير والمدح العابر.

دليلٌ لغويٌّ على تفنيد هذه الاسطورة

يقول العلامةُ الجليلُ الشيخُ محمدُ عبده: لم يُستعمل لفظ الغرائق في الآلهة
أبدأً لافي اللغة ولا في الشعر العربي (٣).

و «غرنوق» و «غرنيق» اللذان جاءا في اللغة استعمالاً في نوع من طيور الماء
أو الشبّ الجميل، ولا ينطبق أيُّ واحد من هذه المعاني على الآلهة
وقد اعتبر احدُ المستشرقين يدعى «السيروليم موير» قصة «الغرائق» هذه
من مسلمّات التاريخ واستدل لها بقوله: لم يكن يمض على هجرة المهاجرين
الاول إلى الحبشة اكثر من ثلاثة أشهر يوم صالح محمّد قريشاً فعادوا إلى مكة.
إن المسلمين الذين هاجروا إلى تلك الأرض وكانوا يعيشون في أمن وطمأنينة
في جوار النجاشي إذا لم يكونوا يبلغهم نبأ مصالحة النبي لقريش لما عادوا إلى
مكة للقاء بذوهم.

فاذن لا بدّ أنّ «محمّداً» قد تذرّع بشيء لمصالحة قريش، والتقرّب إليها،

(١) مكان الجملتين المزعومتين: تلك الغرائق... الى آخرها.

(٢) النجم: ١٩ - ٢٣.

(٣) نقله عنه القاسمي في تفسيره: ج ١٢ ص ٥٥-٥٦.

وهذا الشيء هو قصة الغرائق»!!^(١).

ولكن يجب أن نسأل هذا المستشرق المحترم:

أولاً: لماذا يجب أن تكون عودة المهاجرين ناشئة عن نبأ صحيح حتماً. إن النفعيين وذوي الأهواء والأغراض يسعون دائماً إلى بثّ عشرات بل مئات الأخبار الكاذبة بين جماعتهم لتحقيق مارب خاصة لهم، فما الذي يمنع من أن نحتمل أن هناك من افتعل خبر مصالحة النبي لقريش بهدف إرجاع المهاجرين من الحبشة إلى «مكة». وقد صدق بعض أولئك المهاجرين هذا الخبر الكاذب فعادوا إلى أرض الوطن، بينما لم ينخدع الآخرون بها وبقوا في الحبشة ولم يعودوا إلى مكة؟؟

ثانياً: لنفترض أن النبي صلى الله عليه وآله كان يريد أن يصلح قريشاً، فهل يكون الطريق إلى السلام والمصالحة منحصرأ في افتعال هاتين الجملتين. ألم يكن إعطاء مجرد وعد مناسب أو مجرد السكوت عن عقائدهم كافياً لتهديّة خواطهم، واجتذابهم قلوبهم نحوه؟

و على كلّ حال فإن عودة المهاجرين لا يكون دليلاً على صحّة هذه الأسطورة كما أن المصالحة، والتقارب غير متوقفين على النطق بهاتين الجملتين. و الأعبج من هذا أن البعض تصوّر أن الآيات (٥٢ - ٥٤ من سورة الحج) قد نزلت في قصة الغرائق.

و حيث إن هذه الآيات قد وقعت ذريعة بأيدي المستشرقين و مرتكبي جريمة التحريف في التاريخ، فأننا نعمدُهنّا إلى توضيح مفاد هذه الآيات، ونبين للقارئ بأنها تنظر إلى امر آخر، ولا ترتبط بهذه القصة بتاتاً.

و هاهو نصُّ الآيات المشار إليها:

«و ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

(١) راجع حياة محمد: ص ١٦٥ و ١٦٦.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَ
 إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا
 بِهِ فَتَخِيتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَهُاد الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطِ
 مُسْتَقِيمٍ».

و الآن يجب أن نبين مفاد الآيات ولنبدأ بالآية الأولى:

ان الآية الأولى تذكر بثلاثة أمور هي:

١ - ان الأنبياء والرسل يتمنون.

٢ - ان الشيطان يتدخل في تمنياتهم.

٣ - ان الله يمحي آثار ذلك التدخل.

و بتوضيح هذه النقاط الثلاث يتضح مفاد الآية والمراد منها.

و اليك توضيح تلكم النقاط الثلاث:

١ - ما هو المقصود من تمني الانبياء والرسل

لقد كان الأنبياء والرسل يحبون هداية أممهم، ونشر دينهم وتعاليمهم فيها،
 وكانوا يدبرون أموراً ويخططون خططاً لتحقيق أهدافهم هذه، كما كانوا يتحملون
 في هذا السبيل كل المتاعب والمصاعب، ويثبتون في جميع المشكلات والمحن.
 ولم يكن رسول الاسلام صلى الله عليه وآله مستثنى عن هذه القاعدة، فقد
 كان صلى الله عليه وآله يخطط لتحقيق أهدافه كثيراً، وهيتى مقدمات ويبين
 القرآن هذه الحقيقة بقوله:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى».

فاتضح إلى هنا المراد من لفظ تمنى ولنشرح الآن النقطة الثانية.

٢ - ما هو المقصود من تدخل الشيطان؟

إن تدخل الشيطان يمكن أن يتم على نحوين:

١ - أن يوجد الشك والترديد في عزم الانبياء، ويوحى إليهم بأن هناك

عوائق كثيرة تحول بينهم وبين أهدافهم، ولذلك لن يحرزوا نجاحاً في تحقيق تلك الأهداف.

٢ - بأن الأنبياء كلما مهّدوا لأمر وهيأوا له مقدماته، وظهرت منهم أمارات تدلّ على أنهم مقدمون على تنفيذه فعلاً أقام الشيطان ومن تبعه من شياطين الانس العراقيل والموانع في طريقهم، لينعوهم من الوصول إلى غاياتهم.
أما الاحتمال الأول فلا ينسجم لا مع الآيات القرآنية الأخرى ولا مع الآية اللاحقة.

أما من جهة الآيات الأخرى فلا بُدّ القرآن ينفي بصراحة لا صراحة فوقها أنه لا سلطان للشياطين على أولياء الله وعباده الصالحين (ولو بأن يصوروا لهم بأنهم لن يقدرُوا على تحقيق آمالهم، وأهدافهم) إذ يقول:
«إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ»^(١). ويقول أيضاً:
«إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٢).

إن هذه الآيات، والآيات الأخرى التي تنفي سلطان الشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين، وتأثيره في قلوبهم ونفوسهم خير شاهد وأفضل دليل على أنّ المقصود من تدخّل الشيطان في تمنيات الأنبياء ليس بمعنى إضعاف عزيمتهم، وإرادتهم وتكبير الموانع والعراقيل في نظرهم.

أما من جهة الآيات المبحوثة فإن الآية الثانية والثالثة تفسّر وتشرح علة التدخّل على النحو الآتي:

إننا نختبر بهذا العمل فريقين من الناس: الفريق الأول: الذين في قلوبهم مرض، والفريق الثاني: الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر.
يعني أنّ تدخّل الشيطان في أعمال الأنبياء عن طريق تحريك الناس ضدّهم وضدّ أهدافهم يوجب مخالفة الفريق الأول ومعارضتهم للأنبياء في حين يكون الأمر على العكس من ذلك في الفريق الثاني فإنه يزيد من ثباتهم وصدورهم.

و ان بيان أن لتدخل الشيطان في تمنيات الانبياء، مثل هذين الاثرين المختلفين (أي يحمل فريقا على المخالفة وفريقا آخر على الثبات والصمود) يفيد أن المراد بالتدخل هنا هو المعنى الثاني، يعني ان التدخل يحصل عن طريق تحريك الناس ضدّهم، وإلقاء الوسوس في قلوب أعدائهم، وخلق الموانع والعراقيل في طريقهم لا أنهم يتصرفون في نفوس الأنبياء وقلوبهم ويضعفون ارادتهم وعزمهم. إلى هنا اتضح معنى تدخل الشيطان في تمنيات الانبياء والرسل. و الآن حان الحين لتوضيح المطلب الآخر يعني محو آثار هذا التدخل.

٣- ما هو المقصود من محو آثار التدخل؟

إذا كان معنى تدخل الشيطان هو تحريك الناس وتأليبهم ضد الانبياء ليمنعوا الأنبياء والرسل من التقدم في أهدافهم، فان محو آثار التدخل الشيطاني من قبل الله - حينئذٍ - يكون بمعنى ان الله يدفع عن أنبيائه ورسله كيد الشيطان ليتضح الحق للمؤمنين، ويكون إختباراً لمرضى القلوب كما يقول تعالى في آية أخرى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^(١).

و خلاصة القول: أن القرآن يخبر - في هذه الآيات - عن سنة لله قديمة في مجال الأنبياء وهي:

إن تمنّي التقدم في الأهداف وتمنّي التوفيق في هداية الناس هو فعل الانبياء دائماً.

ثم يأتي الدور لتدخل الشيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجنّ، وذلك بايجاد الموانع والعقبات في طريق الأنبياء والرسل.

ثم يأتي من بعد ذلك حلول المدد الآلهي الغيبي بمحو وفسخ كلّ التدابير الشيطانية المضادة لأهداف الانبياء المعرّقة لتحقيق أمانيتهم.

وهذه هي إحدى السنن الالهية الثابتة التي جرت في جميع الأمم السالفة.

إن تاريخ الأنبياء و الرسل و قصصهم من نوح و إبراهيم و أنبياء بني إسرائيل وبخاصة موسى و عيسى عليهما السّلام، و تاريخ حياة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله خير شاهد على هذا المطلب.

و ينبغي إستكمالاً لهذا البحث أن نقول: ولأجل ماورد على هذه القصة الأسطورية من مؤاخذات رفضها وفتدها بعض المحققين من أهل السنة اذ قال بعد ذكرها على النحو الذي ادرجها الطبري في تاريخه وأرسله ارسال المسلمات:

«و أهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة.

و من صحّحه قال فيه أقوالاً:

منها: ان الشيطان قال ذلك وأذاعه والرسول عليه الصلاة والسّلام لم ينطق

به.

(و ذكر وجوهاً أخرى ثم قال:) والحديث على ماخيّلت غير مقطوع

بصحته^(١).

(١) راجع هوامش السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٦٤.

الحصار الاقتصادي والاجتماعي

إن أبسط وسيلة وأسهلها لضرب الأقليات في أي مجتمع، والقضاء عليها هو مايسمى بالمكافحة السلبية التي تقوم أساساً على اتحاد الأكثرية واتفاقها على مقاطعة الأقلية المتمردة.

إن عكس هذا يحتاج إلى أدوات متعددة مختلفة، لأنه يتطلب مثلاً ان يحمل جماعة من المقاتلين السلاح، وتتوجه نحو الاهداف المطلوبة عبر التضحية بقدر كبير من الأنفس والأموال، وازالة العشرات من الموانع والسواتر، وهو أمر لا يُقدم عليه القادة المحنكون إلا بعد توفر كل مستلزمات المواجهة واتخاذ جميع التدابير اللازمة، والاستعداد الكامل، وبالتالي لا يقدمون على هذه الخطوة مالم تدعو الضرورة إليها، وتنحصر الحيلة في القتال.

و لكنّ المكافحة السلبية لا تتوقف على مثل هذه الأمور، بل تحتاج الى أمر واحد وهو اتفاق الاكثرية.

يعنى أن يتفق من يعينهم الأمر ولهم عقيدة واحدة ويتحالفوا في ما بينهم بصدق على أن يقطعوا كلّ صلاتهم وعلاقاتهم بالأقلية المعارضة، فيحرّموا التعامل التجاريّ معهم ويوقفوا الاتصال العائليّ بهم، ولا يشركونهم في اعمالهم الاجتماعية ولا يتعاونوا معهم في أمورهم الشخصية أيضاً.

في مثل هذه الحالة تضيق الأرض على الأقلية بما رحبت وتغدو الدنيا لهم على سعتها كسجن ضيق وصغير، ويصيرون عُرضة للانهييار والسقوط بأقل قدر ممكن من الضغط عليها.

إن الاقلية المخالفة المتمردة ربما تستسلم - في هذه الحالة - وتؤوب من منتصف الطريق، وتطيع إرادة الأكثرية.

ولكن أقلية كهذه لا بد أن تكون ممن لا تعود مخالفتها للأكثرية إلى أمر عقائدي ولا يكون لانفصالها عن الأكثرية طابع أصولي مبدئي، كما لو كان خلافها مع الأكثرية مثلاً على تحصيل ثروة أو منصب مهم أو ماشاكل ذلك .

فان مثل هذه الاقلية اذا أحست بخطر جدّي، أو واجهت العذاب والسجن والحصار ستتراجع عن مخالفتها وتعود إلى طاعة الاكثرية مؤثرة اللذة العابرة المؤقتة على اللذة الإحتمالية، لأنها لم تنطلق من دوافع ايمانية اصيلة، ولم يكن المحرك لها محرّكاً روحياً معنوياً.

ولكن الجماعة التي يقوم خلافها للأكثرية على أساس الإيمان بهدف مقدس، لن تنصاع أبداً لمثل هذه الضغوط، ولن تنثني أمام هذه الرياح والعواصف، ولا يزيد لها ضغط الحصار إلا صلابة وقوة، وإصراراً وعناداً، وتردُّ جميع ضربات العدو بالصبر والإستقامة.

إن صفحات التاريخ البشريّ تشهد بأن أقوى العوامل لثبات كل أقلية وصمودها في وجه الأكثرية هو: قوة الايمان، وعاملُ الاعتقاد، الذي ربما يؤدي رسالة الثبات والمقاومة ببذل آخر قطرة دم في ساحة المواجهة.

ولنا على هذا عشرات بل و مئات الأمثلة من التاريخ الغابر والحاضر.

قريش تحاصر النبي والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً

لقد شقَّ على قريش انتشار الإسلام المتزايد وأزعجها نفوذه العجيب في القبائل العربية في مدة غير طويلة بالنسبة إلى عمر الدعوة ولهذا كانت تفكر باستمرار في حلّ هذه المشكلة.

فان اسلام شخصيات ذات أهمية ومكانة كبرى مثل حمزة، وكذا رغبة فتية قريش المتفتحين في الاسلام، وحرية العمل والتحرك التي اكتسبها المسلمون على اثر الهجرة إلى أرض الحبشة، كل ذلك زاد من حيرة، واضطراب الزعامة الجاهلية في مكة، التي زادها حيرة، وانزعاجاً، فشل جميع مخططاتها الاجهازية ضد الإسلام والمسلمين، وعدم حصولها على أية نتائج تذكر!!

من هنا فكرت في خطة جديدة، وهي ان تفرض حصاراً اقتصادياً قوياً على النبي والمسلمين تقطع به كل الشرايين الحيوية للمسلمين، وبذلك تحد من سرعة انتشار الاسلام وتقف دون نفوذه، وبالتالي تخنق بين كماشة هذا الحصار مؤسس هذه العقيدة التوحيدية، وأنصاره.

و لهذا اجتمع زعماء قريش في «دارالندوة» ووقعوا ميثاقاً كتبه «منصور بن عكرمة» وعلقوه في جوف الكعبة، وتحالفوا بان تلتزم قريش ببنوده حتى الموت.

ونص هذا العقد على الأمور التالية:

١ - أن لا يبتاعوا من أنصار النبي صلى الله عليه وآله ولا يبيعوهم شيئاً.

٢ - ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم.

٣ - أن لا يؤاكلوهم ولا يكلموهم.

٤ - ان يكونوا يداً واحدة على «محمد» وانصاره.

وقد وقعت على هذه الصحيفة الظالمة القاطعة كل الشخصيات البارزة في

قريش إلا «مطعم بن عدي» وأعلنت عن سريان مفعوله بكل قوة وإصرار.

فلما علم حامي النبي الاكبر أبوطالب عليه السلام بذلك جمع بني هاشم و بني المطلب وحملهم مسؤولية الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله والحفاظ على حياته وسلامته، وأمرهم بالخروج من مكة وبدخول شعب كائن بين جبال مكة كان يعرف بشعب أبي طالب فيه بعض البيوت العادية، والسقائف البسيطة جداً، والسكنى في ذلك الشعب بعيداً عن المجتمع المكّي المشرك .

و عمد الى بث رجال منهم في نقاط مرتفعة للمراقبة والحراسة تحسباً لأي

هجوم مباغت تقوم به قريش^(١).

وقد استمر هذا الحصار ثلاثة أعوام كاملة، وبلغ الجهد بالمحاصرين في الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضر، وبلغت هذه الصرخات مسامع قساة مكة الآ انها لم تؤثر فيهم قط.

كان الشباب والرجال منهم يعيشون على تمرة واحدة طوال اليوم، وربما تناصف اثنان تمرة واحدة، ولم يمكنهم الخروج من الشعب طوال هذه السنوات الثلاث الآ في الاشهر الحرم حيث يسود الأمنُ كل انحاء الجزيرة العربية.

فاذا حلّ الموسمُ كانت بثوهاشم تخرج من الشعب فيشترون ويبيعون ثم يعودون إلى الشعب إلى الموسم الثاني.

و كان النبي صلى الله عليه وآله يستغلّ هو أيضاً تلك المواسم في نشر دينه، والدعوة الى ما أتى به.

و كانت عناصر قريش تحاول مضايقة النبي وأنصاره وتمارس الحصار الاقتصادي عليهم بشكل من الأشكال حتى في هذه المواسم، فكانوا يحضرون عند مواقع البيع والشراء فاذا وجدوا مسلماً يريد أن يبتاع شيئاً اشتروه بثمان أغلى ليمنعوا المسلم منه!!

و كان «أبو لهب» اكثر الناس اصراراً على هذا العمل، فقد كان ينادي في الأسواق: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فانا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع الرجل المسلم إلى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيرتحهم فيما

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٠، وتاريخ الطبري: ج ٢ ص ٧٨، وقد كتبت هذه الصحيفة الظالمة في الليلة الأولى من السنة السابعة للبعثة وعند ما عرف ابوطالب بأمرها أنشد قصيدة في ذمهم مطلعها:

اشتروا من الطعام واللباس!!^(١).

و كان «الوليد بن المغيرة» ينادي: أيها رجل منهم وجدتموه عند طعام يشتره فزيدوا عليه فكانت قريش تباكرهم إلى الاسواق فيشترونها فيغفلونها عليهم.

وضع بني هاشم المأساوي في الشعب

لقد بلغ الجهد والجوع بالمحاصرين في الشعب حدّاً جعلهم يأكلون كل ماتقع عليه ايديهم من الخبث وورق السمر حتى أن «سعد بن أبي وقاص» يقول: لقد جعت حتى أتي وطئتُ ذات ليلة على شيء رطب فوضعتة في فمي وبلعته، وما أدري ما هو الى الآن^(٢).

هذا وقد بثت قريش جواسيسها على الطرق المؤدية إلى الشعب ليمنعوا من إيصال الطعام إلى من فيه فلا يصل إليهم شيء إلا سراً ومستخفى به ممن أراد صلتهم من قريش.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» (ابن اخ خديجة) و«أبو العاص بن الربيع» و«هشام بن عمرو» كانوا يسربون الى «بني هاشم» في الشعب سراً وفي أواسط الليل تحت جنح الظلام، فكان الواحد منهم يحمل قحاً وتمراً على بعير ويأتي به إلى باب الشعب ثم يصيحُ بها فتدخلُ الشعب ويأكله بنوهاشم. وربما صادفهم بعض جواسيس قريش، فهتموا بقتله، أو سببوا له بعض المتاعب.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» خرج يوماً ومعه انسان يحمل طعاماً إلى عمته خديجة بنت خويلد (زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت معه الشعب طيلة أعوام الحصار) إذ لقيه «أبو جهل» فقال له: تذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت ولا طعامك حتى أفضحك عند قريش بمكة.

(١) و(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٣٧ الهوامش.

فقال له أبو البختري - وكان من أعداء الاسلام هو أيضاً- : تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده؟

فأبى «ابوجهل» أن يدعه إلا أن يأخذه إلى قریش، فقام إليه «ابوالبختري» بساق بعير فضربه ووطأه ووطأ شديداً^(١).

و خلاصة القول؛ أن قریشاً بالغت في تضيق الحصار على رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبعه حتى أن من كان يدخل «مكة» من العرب، كان لا يجسر على أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان «أبوجهل»، و«العاص بن وائل» و«النضر بن الحارث بن كلدة»، و«عقبة بن أبي معيط» يخرجون إلى الطرقات التي تدخل «مكة» فن رأوه معه ميرة وطعام نهوه ان يبيع من بني هاشم شيئاً، ويحذرون إن باع شيئاً منهم نهبوا ماله. كما وعدوا على من أسلم فاوثقوهم وأذوهم واشتدّ البلاء عليهم، وأبدت قریش لبني عبدالمطلب الجفاء.

ولكن لم يستطع كل ذلك أن يفتت في عضد النبي صلى الله عليه وآله ويقلل من إصراره وثباته على الطريق، ولا من إصرار أتباعه وثباتهم وإيمانهم. وأخيراً تركت صرخات أطفال بني هاشم في الشعب من الجوع والعري والجهد والضر، وأوضاعهم المأساوية أثرها في نفوس بعض المشركين الموقعين على تلك الصحيفة الظالمة، وذلك الميثاق المشؤوم، فندموا على إضنائهم لتلك المقاطعة بشدة وصاروا يفكرون في نفضها بشكل من الأشكال.

فشى «هشام بن عمرو» الى «زهير بن أبي أمية» (وكان من أحفاد عبدالمطلب من جانب بناته) وقال له وهو يحثه على نقض الصحيفة: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا يئتكحون ولا يئتكح إليهم؟

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٤، هذا ويشكك أحد المحققين في نوايا حكيم بن حزام في هذا العمل، وفي أن يكون قد حصل بدافع الوفاء لوشيجة القربى، بل كان بدافع الربح الاكثر لما ثبت - حسب قوله - من انه كان يحتكر الطعام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم (أي أبي جهل) ثم دعوته
إلى مادعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً؟

فقال زهير: ويحك ياهشام فاذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ والله لو كان معي
رجلٌ آخر لقمْتُ في نقضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً.
قال فمن هو؟ قال: أنا.

قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى «المطعم بن عدي» فقال له:
يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك،
موافقٌ لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم
سراعاً؟

قال: ويحك! فاذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ.

قال: قد وجدت ثانياً.

قال: من هو؟ قال: أنا.

قال: أبغنا ثالثاً.

قال: قد فعلت.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أمية.

قال: أبغنا رابعاً.

فذهب إلى «البخري بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي،

فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: «زهير بن أبي أمية» و«المطعم بن عدي» وأنا معك.

فقال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمنة بن الأسود بن المطلب» فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم

فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال: نعم... ثم سَمِيَ له القوم الذين وعده بالمساعدة على نقض تلك الصحيفة القاطعة الظالمة.

فاتفقوا على أن يحضروا في أندية قرش في المسجد ويُعلِنُوا مخالفتهم لتلك الصحيفة.

فلَمَّا أصبحوا غَدُوا إلى مجلس قرش في المسجد الحرام فأقبل «زهير بن أبي أمية» على الناس وقال:

يا أهل مكة أناكلُ الطعام ونبسُ الثياب، وبنوهاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يُبتاغُ منهم؟ والله لا أقعدُ حتى تشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: كذبتَ والله لا تُشقَّ.

فانتصر زمعة لزهير وردَّ على أبي جهل قائلاً: أنت والله أكذبُ، مارضينا كتابها حيث كتبت.

وقال أبوالبختري من ناحية مؤيداً موقف زميله: صدق زمعةً لانرضى ما كتب فيها، ولانقرَّ به.

وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبراً إلى الله منها، ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فأحسَّ أبو جهل بأنَّ ذلك كان أمراً مبيّناً مدبراً من قبل فقال:

هذا أمرٌ قُضِيَ بليل، تُشور فيه بغير هذا المكان.

وكان أبوطالب - حسب بعض الروايات التاريخية - جالساً ذلك اليوم في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقَّها فوجد (الإرضة)^(١) قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم» التي صُدِّرت بها تلك الصحيفة وهي جملة كانت قرش تبدأ بها عهودها ورسائلها.

فلما رأى «أبوطالب» ذلك رجع إلى الشعب وأخبر رسول الله صلى الله عليه

(١) وهي دودة بيضاء شبه النملة وهي آفة كل شيء من خشب أو نبات راجع لسان العرب مادة: ارض

وآله بما جرى، وعاد المحاصرون في الشعب إلى منازلهم مرة أخرى بعد المشورة مع «أبي طالب».

و يروي طائفة من المؤرخين أن «خديجة» و «أباطالب» أنفقا أموالهما برمتها خلال سنوات المحاصرة.

وفجأة نزل ملك الوحي «جبرئيل» على رسول الله صلى الله عليه وآله في الشعب، وأخبره بان الله قد بعث على صحيفة المشركين القاطعة دابة الأرض فلحست (أو اكلت) جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت جملة «باسمك اللهم» فأخبر رسول الله أباطالب بذلك قائلاً ياعم إن ربّي الله قد سلط «الإرضة» على صحيفة قريش فلم تدع فيها إسماً هو الله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان.

فقال أبوطالب: إذن لا يدخل عليك أحد^(١).

ثم قام و لبس ثيابه، ومشى هو و رسول الله وشخص آخر حتى دخلوا المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه، فلما دنا أبوطالب منهم قاموا إليه وعظّموه، وتباشروا وظنوا أن الحصر والبلاء حمل أباطالب على التخلي عن موقفه، فقالوا له: قد آن لك ان تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم (أو قد آن لك أن تسلّم إلينا ابن أخيك).

فقال أبو طالب: والله ماجئت لهذا، ولكنّ ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم الله، فهلم صحيفتكم فان كان حقاً فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرّحم.

و إن كان باطلاً دفعته إليكم فان شتم قتلتموه، وإن شتم استحيتتموه. فقالوا: رضينا، وتعاقدوا على ذلك.

(١) و إنما اتخذ مثل هذا الاجراء حتى لا يفسحوا ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالوا للصحيفة، ويكذبوا بذلك خبر النبي صلى الله عليه وآله.

ثم بعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة، وعليها أربعون خاتماً.
فلما أتواها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه، ثم فكوها فاذا ليس فيها حرفٌ
واحدٌ إلا «باسمك اللهم»، كما أخبرهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله.
غير أن هذا لم يوجب هدايتهم بل زادهم شراً وعناداً ورجع بنوهاشم مرة
أخرى إلى الشعب وبقوا محاصرين فيه مدة من الزمن ولم يمكنهم الرجوع إلى
منازلهم بمكة إلا بعد أن نقضها هشام.

وقد قال «أبوطالب» في مدح هذا (أي نقض الصحيفة القاطعة والتفر
الذين قاموا بنقضها) قصيدة مطوّلة جاء في مطلعها:

ألا هل أتى بحرئنا^(١) صنع ربنا على نأيهم والله بالناس أروذ^(٢)
فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت وإن كلُّ مالم يرضه الله مُفسد^(٣)

هذه أمثلة ونماذج من ردود الفعل الظالمة والمواقف المناوئة التي اتخذتها
قريش تجاه الدعوة المحمدية.

على أنه لا يمكن الادّعاء القطعي بأن جميع هذه الردود قد وقعت على
الترتيب الذي ذكرناه تماماً، ولكن يمكن بمراجعة النصوص التاريخية تحصيل
مثل هذا الترتيب وخاصة أن مسألة انتهاء المحاصرة الاقتصادية قد وقعت في
منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة الشريفة.

كما أن أذى قريش و ردود فعلها ضدّ الاسلام والمسلمين وضدّ رسول الله
صلى الله عليه وآله خاصة لم تنحصر في ما ذكرناه في هذه الفصول بل كان
هناك أساليب أخرى سلكتها قريش لتحطيم شخصية النبي صلى الله عليه وآله
وأضعاف عزيمته مثل وصفهم للنبي صلى الله عليه وآله بالأبتر.

فقد كان «العاص بن وائل السهمي» إذا ذكر رسول الله قال: دعوه، فإننا
هو رجلٌ أبترٌ لا عقب له، لومات لانقطع ذكره واسترحتم منه.

(١) يقصد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة في البحر.

(٢) أي أرفق.

(٣) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٧٧ - ٣٨٠ وقد أدرج ابن هشام القصيدة بتمامها، فراجع.

فانزل الله تعالى في ذلك سورة الكوثر التي يقول فيها:
 «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ
 هُوَ الْأَبْتَرُ».

وقد أخبر بها الله نبيّه بأنه سيهبه ذرّة كثيرة^(١).
 ولقد كتب العلامة الفخر الرازي في تفسيره لهذه السورة^(٢): المعنى أنه يعطيه
 نسلاً يبقون على مرّ الزمان، فانظروكم قُتِلَ من أهل البيت؟ ثم العالم ممتلئ منهم، ولم
 يبق من بني أمية في الدنيا أحد يُعبأه.

ووجه المناسبة أن الكافر شمت بالنبيّ حين مات أحد أولاده وقال: ان
 محمّداً ابر فان مات مات ذكره، فانزل الله هذه السورة على نبيّه تسليّة له كأنه
 تعالى يقول: ان كان ابنك قد مات فانا اعطيناك فاطمة، وهي وإن كانت
 واحدة وقليلة، ولكن الله سيجعل هذا الواحد كثيراً.

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٩٣ وجميع التفاسير.

(٢) مفاتيح الغيب: الجزء الثلاثون سورة الكوثر.

وفاة أبي طالب

وخديجة الكبرى

في الوقت الذي كتنا نسطر فيه مواضيع هذا الفصل كان سجن «القطيف» يضم بين جدرانه شاباً حر الضمير شجاعاً مقداماً لم يكن له من ذنب إلا أنه ألف كتاباً باسم «أبو طالب مؤمن قريش» يتناول إسلام «أبي طالب» وإيمانه وإخلاصه مثبتاً كل ذلك من مصادر أهل السنة^(١).

فطلبت منه السلطات القضائية في الحجاز-وفي عصر يتسم بحرية التفكير البيان والإعتقاد- بأن يتراجع عن كلامه، وحيث إنه لم يكن ليريد أن ينكر حقيقة اعتقد بها عن قناعة ويقين، حكمت عليه تلك السلطات بالاعدام.

وقد نجا هذا الفتى الشجاع والكاتب الحر من الاعدام اثر جهود اسلامية واسعة وخُفِضت عقوبته الى الحبس المؤبد، الذي خفّض اثر جهود اسلامية مرة أخرى الى عقوبة الجلد ثمانين جلدة!!.

وهو الآن يلبث في أحد السجون بانتظار المصير، المجهول اذ على المسلمين إما أن يهتموا بالأمر ويطلبوا من السلطات القضائية السعودية صرف النظر عن

(١) والكتاب يقع في ٣٤٠ صفحة طبع بحجم الوزيري وطبع في بيروت مراراً وقدم عليه الأديب اللبناني المعروف «بولس سلامة» صاحب ملحمة الفدير وملاحم أخرى.

عقوبته، بل والافراج عنه نهائياً.

و إما أن يفقد هذا الشاب المجاهد الشجاع البريء حياته تحت سياط تلك السلطات الجائرة الحاكمة زوراً وقهراً على أرض الحجار^(١) ^(٢)

لقد سقطت مؤامرة الحصار الاقتصادي ضد النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين بفعل إقدام ثلة من ذوي المروءة وأيضاً بفضل صمود النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه وثباتهم العظيم. وخرج النبي وأنصاره من «شعب أبي طالب» بعد ثلاث سنوات من النفي والعذاب وعادوا إلى منازلهم ظافرين مرفوعي الرؤوس.

وعاد التعامل الاقتصادي مع المسلمين الى ما كان عليه قبل الحصار، وكانت أوضاع المسلمين تسير نحو الانتعاش والانفراج شيئاً فشيئاً، واذا برسول الله صلى الله عليه وآله يُفاجأ بحادث مؤلم مرّ ذلك هو وفاة شخصية كبرى أحدث فقدانها أثراً سيئاً في نفوس المسلمين وبخاصة المستضعفين منهم.

ولقد كان هذا الأثر عظيماً جداً بحيث لا يمكن قياسه بشيءٍ بالنظر الى تلك الظروف الحساسة، وذلك لأن نموأية عقيدة وفكرة إنما يكون في ظل عاملين أساسيين: أحدهما: حرية التعبير، والآخر: القوة الدفاعية التي تحمي أصحاب تلك العقيدة والفكرة ضد حملات الخصوم التي لا ترحم.

ولقد كان المسلمون -آنذاك- يتمتعون بحرية البيان والتعبير، ولكنهم افتقدوا -بسبب الحادث المفاجئ المذكور العامل الجوهري والمصيري الثاني يعني: حامي الاسلام والمدافع الوحيد عنه الذي وافته المنية في تلك الايام الحساسة

(١) لقد سمّيت أراضي «الحجاز» و«نجد» و«تهامة» باسم عائلة واحدة هي آل سعود، واخيراً حملت هذه المنطقة التي كانت تُعرف وحتى إلى مايقرب من قرنين بارض الحجاز اسم المملكة العربية السعودية. ياله من استئثار وجرأة على المقدسات!!

(٢) واخيراً نجا هذا الشاب المؤمن والمجاهد الحرّ بفضل جهود علماء الشيعة ومفكرهم المتضافرة والواسعة النطاق وأخلي سبيله وقد زار- للاعراب عن شكره- مدينة قم المقدسة وقد التقينا به أيضاً كما زار اماكن أخرى لنفس الغرض.

وَحُرْمَ الْمُسْلِمِينَ بِوَفَاتِهِ مِنْ حِمَايَتِهِ وَدِفَاعِهِ، وَوَقَايَتِهِ.

* * *

أجل لقد فَقَدَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حاميهِ العَظِيمَ الَّذِي تولى مهمة كِفَالَتِهِ وَالدِّفَاعَ عَنْهُ، وَالمَحَافِظَةَ عَلَى حَيَاتِهِ بِصِدْقٍ وَاخْلَاصٍ وَجَدَّ وَرَغْبَةً وَكَانَ يَقِيهِ بِنَفْسِهِ وَذَوِيهِ وَيُؤَثِّرُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ وَيَنْفِقُ عَلَيْهِ مِنْ مَالِهِ حَتَّى كَبُرَ وَصَارَ لَهُ مَالٌ وَطَوَّلَ مِنْذُ أَنْ كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ عَمْرِهِ وَحَتَّى يَوْمَ وَفَاةِ ذَلِكَ الحَامِي العَظِيمِ، وَرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي الخَمْسِينَ مِنْ عَمْرِهِ.

لقد فَقَدَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَخْصِيَّةً خَاطِبَهَا عَبْدُالمَطْلَبِ عِنْدَ وَفَاتِهِ بِالشَّعْرِ قَائِلًا:

أَوْصِيكَ يَا عَبْدَ مَنْفٍ بَعْدِي بِمُوحِدٍ بَعْدَ أَبِيهِ فَرْدٍ

فَأَجَابَهُ أَبُو طَالِبٍ قَائِلًا: يَا أَبَتَهُ لَا تُوصِيَنِي بِمُحَمَّدٍ فَانِهِ ابْنِي وَابْنِ أَخِي^(١).

وَلَعَلَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ تَذَكَّرَ فِي اللِّحْظَةِ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا عَلِيٌّ

جَبِينِ ابْنِ طَالِبٍ عَرَقُ المَوْتِ جَمِيعَ الحَوَادِثِ الحَلْوَةِ وَالمَرَّةِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

١ - إِنْ هَذَا الشَّخْصُ المَسْجِيُّ عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ هُوَ عَمَّه الرُّؤُوفُ الَّذِي

ظَلَّ يَحْرُسُهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ طِيلَةَ سَنَوَاتِ الحِصَارِ فِي الشَّعْبِ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قَامَ

عِنْدَ رَأْسِهِ بِالسَّيْفِ يَحْرُسُهُ. وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُضْطَجِعٌ ثُمَّ يَقِيمُهُ مِنْ

فِرَاشِهِ إِذَا مَضَى شَطْرٌ مِنَ اللَّيْلِ وَيَضْجَعُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَيَضْجَعُ مَكَانَهُ وَوَلَدَهُ

«عَلِيٌّ بِنُ أَبِي طَالِبٍ» حَتَّى لَا تَغْتَالَهُ قَرِيْشٌ بَعْدَ أَنْ رَصَدَ وَامَكَانَهُ، وَكَمَنُوا لَهُ،

وَكَانَ يَفْعَلُ أَبُو طَالِبٍ ذَلِكَ طَوَالَ اللَّيْلِ كُلَّهُ فَيَفْدِينِي بِوَلَدِهِ «عَلِيٌّ» وَيَقِينِي بِهِ حَتَّى

إِذَا قَالَ لَهُ «عَلِيٌّ» لَيْلَةً:

«يَا أَبَتَاهُ إِنِّي مُقْتَوْلٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ».

فَأَجَابَهُ أَبُو طَالِبٍ بِنَبْرَةِ المَتَحَمِّسِ الصَّبُورِ:

(١) عمدة الطالب: ص ٦ وفيه بواحد، المناقب: ج ١ ص ٢١.

إصْبِرْ يَا بُنَيَّ فَالصَّبْرُ أَحْسَبُ
قَدْ بَلَوْنَاكَ وَالْبَلَاءُ شَدِيدٌ
كُلُّ حَيٍّ مَصِيرُهُ لِشُعُوبٍ
لِفِدَاءِ النَّجِيبِ وَابْنِ النَّجِيبِ
فأجابه «عليٌّ» بكلام أكثر حلاوة وعمقاً قائلاً:

أَتَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ فِي نَصْرِ أَحْمَدٍ؟
وَلَكِنِّي أَحَبَبْتُ أَنْ تَرَّ نُصْرَتِي
وَإِلَّهِ مَا قُلْتُ الَّذِي قُلْتَ جَازِعاً
وَتَعَلَّمَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ لَكَ طَائِعاً^(١)

٢ - إن هذا الجثمان الذي فارقته الروح هو جثمان عمي العطوف الذي شَرَدَ هو وذووه، وعَرَّضَ نفسه وأهله للبلَاء والمحنة بسبب الحصار لأجلي، وأمر بأن يحرسوني ليلَ نهار، تاركاً زعامته وسيادته، وكلَّ شؤونه للحفاظ عليّ والإبقاء على رسالتي وأرسل إلى قريش رسالةً قويةً أعلن فيها عن وقوفه إلى جانبي وانه لن يسلمني ويخذلني مادام حياً إذ قال:

فَلَا تَحْسَبُونَا خَاذِلِينَ مُحَمَّدًا
سَتَمْنَعُهُ مِنَّا يَدٌ هَاشِمِيَّةٌ
لِذِي غُرْبَةٍ مِنَّا وَلَا مُتَّقَرَّبٍ
وَمَرَكْبُهَا فِي النَّاسِ أَحْسَنُ مَرَكَبٍ^(٢)

بعد أن تحقق موت «أبي طالب» ارتفع الصراخ والنحيب من منازل وبيوته، واجتمع حول بيته العدو والصديق، والقريب والبعيد، واشترك الجميع في مراسم دفنه بقلوب آلتها الفجيعة به، وقرحها الحزن عليه.

وهل ترى تنتهي آثار و ردود فعل وفاة شخصية عظيمة الشأن مثل «أبي طالب» الذي كان زعيم قريش، وسيد عشيرته بمثل هذه السرعة، والبساطة؟ كلا بل سيكون لفقدانه أكبر الأثر على مسيرة الدعوة كما ستعرف ذلك مستقبلاً.

نماذج من مشاعر أبي طالب

ان التاريخ البشري يحتفظ في صفحاته بأمثلة كثيرة عن مشاعر تبادلها

(١) مناقب ابن شهر آشوب: ج ١ ص ٦٤، الحجّة: ص ٧٠، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١-١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٤.

الأشخاص وعواطف ودية قوية أبقاها البعض تجاه بعض تدور أكثرها حول محور الدوافع المادية كالتى تدور حول معيار الجمال أو المال، ولهذا سرعان ما يذهب الحماس وينطفئ شعله الحب، ويتضاءل لهيب العاطفة في كيانهم حتى تزول بالمرّة ولا يبقى منها شيء أبداً لعدم ثبات هذه الدوافع.

ولكنّ المشاعر والعواطف التي تنبع من أواصر الايمان بفضائل شخص ما وكمالاته الروحية والمعنوية لا تنمحي ولا تتلاشى بسرعة.

وقد كانت مودة «أبي طالب» لمحمد صلى الله عليه وآله وحبّه الشديد له تنبع من كلا هذين الدافعين.

فقد كان «أبو طالب» يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله ويرى فيه من جانب الانسان الكامل، بل يعتبره في قمة الكمال الانساني، ومن جانب آخر كان «محمد» ابن أخيه، وقد أحله ذلك من قلبه محلّ الابن والأخ.

لقد كانت لصفات «محمد» وخصاله المعنوية والأخلاقية، وطهره مكانة كبرى في قلب عمّه «أبي طالب» إلى درجة أنه كان يصطحبه معه إلى المصلى، ويستسقي به أي انه يقسم على الله بمقامه أن يدفع عن الناس القحط والجذب وينزل عليهم الغيث، فكانت دعوته تُستجاب من دون تأخير.

فقد نقل كثير من المؤرخين الحادثة التالية:

قحط الناس في «مكة» وحواليها سنة من السنين، ومنعت السماء والأرض بركاتها عنهم بشكل عجيب، فمشت قريش بعيون باكية إلى «أبي طالب» تطلب منه بالحاح أن يستسقي لهم، وان يذهب الى المصلى ويدعوربه لينزل عليهم المطر وينقذهم من تلك المحنة الصعبة.

فخرج «أبو طالب» وقد اخذ بيد غلام كأنه شمس دجن تجلت عنها غمامة فاسند ظهره إلى الكعبة ورفع وجهه نحو السماء وقال: يارب هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً، دائماً هاطلاً.

ويكتب المؤرخون ان السماء كانت صافية لاغيم فيها أبداً ساعة استسقى «أبو طالب» برسول الله صلى الله عليه وآله ولكن ما ان فرغ «أبو طالب» من دعائه

إلا وأقبلت السحاب في الحال، وغطت سماء «مكة» وما حولها من المناطق القريبة إليها، وارعدت السماء وأبرقت ثم جرى غيث عظيم سالت به الأودية، وروّت القريب والبعيد، وسرّبه الجميع ورضوا^(١).

وقد اشار «أبو طالب» في لاميته المعروفة الى هذه الحادثة.

وقد أنشأ «أبو طالب» تلك القصيدة في أحلك الظروف واشدها، يوم زادت قريش من ضغوطها على حامي الرسول صلى الله عليه وآله ليسلم رسول الله صلى الله عليه وآله إليها.

وقد ذكّر فيها «أبو طالب» فريشاً بجاذبة الاستسقاء برسول الله صلى الله عليه وآله قبل الاسلام وكيف أنها أمطرت ببركته، بعد قحط طويل، وجذب مهلك، كاد يبيد الحرث والضرع، وذلك عندما يقول:

وابيض يُستسقى الغمامُ بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل
تلوذُ به الهلاك من آل هاشم فهم عندهُ في نعمة وفواضل

وقد نقل «ابن هشام» في سيرته^(٢) أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيدة، فيما أورد «ابن كثير» الشامي في تاريخه^(٣) إثنين وتسعين بيتاً فقط.

وهي قصيدة في منتهى الروعة والعدوبة، وفي غاية القوة والجمال، وتفوق في هذه الجهات كل المعلقات السبع التي كان عرب الجاهلية يفتخرون بها، ويُعدونها من ارقى ما قيل في مجال الشعر والنظم.

وقد أورد «ابو هفان العبدي» الجامع لديوان «أبي طالب» مائة وواحدة وعشرين بيتاً من هذه القصيدة في ذلك الديوان، ويمكن ان تكون كل تلك القصيدة وتامها.

ونحن نورد هنا أبياتاً متفرقة من هذه القصيدة مما يتصل منها برسول الله صلى الله عليه وآله بصورة صريحة.

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢ و ٣، السيرة الحلبية: ج ١ ص ١١١-١١٦، الملل والنحل المطبوع بهامش

الفصل في الأهواء والملل: ج ٣ ص ٢٢٥.

(٢) البداية والنهاية: ج ٣ ص ٥٢-٥٧.

(٣) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٧٢-٢٨٠.

ولما نطاعين دونه ونناضل^(١)
 ونذهل عن آبنائنا والحلائل
 وإخوته دأب المحب المواصل
 وزيناً لمن والاه ربُّ المشاكل^(٢)
 إذا قاسه الحُكام عند التفاضل
 يُوالي إلهها ليس عنه بغافل
 لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
 تقصّر عنه سورة المنظاول^(٣)
 ودافعتُ عنه بالذُّرا والكلاكل^(٤)
 وأظهر ديناً حقّه غير باطل^(٥)

كذبتُم وبيتِ الله نبزى محمّداً
 ونُسليّمهُ حتّى نُصرعَ دونه
 لعمري لقد كلّفتُ وجداً بأحمِد
 فلا زال في الدنيا جالاً لأهلها
 فمن مثله في الناس أيُّ مؤمّل
 حلِيمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائش
 لقد علموا أنّ ابننا لامكذبُ
 فأصبحَ فينا أحمدٌ في أرومة
 حدبّتُ بنفسي دونه وحميته
 فأيدّه ربُّ العباد بنصره

التغير في برنامج السفر

لم يكن يمض أكثر من إثني عشر ربيعاً من عُمر «محمّد» بعد، عندما أراد «أبو طالب» التوجّه إلى الشام مع قافلة قريش التجارية. وعندما استعدت القافلة لمغادرة مكة ودق جرس الرحيل، أخذ «محمّد» فجأة بزمام الناقة التي كان يركبها عمّه وكافله «أبو طالب» بينما اغرورقت عيناه صلى الله عليه وآله بالدموع وقال:

«يا عمّ إلى من تكلني، لأب لي ولا أم»؟.

هذا المشهد المؤثر وبخاصة عندما رأى «أبو طالب» عيني محمّد وقد اغرورقت بالدموع، فعل فعلته في نفس العم الكافل الخنون، فأنحدرت عبرات العطف من عينيه وقرر من فوره ومن دون سابق تفكير في الموضوع أن يصطحب ابن أخيه «محمّداً» معه في هذه الرحلة، ومع أنه لم يحسب لهذا الأمر - من قبل -

(١) أي تغلب عليه.

(٢) المشاكل: العظومات من الأمور.

(٣) السورة: الشدة والبطش.

(٤) الذرا: جمع ذروة وهي أعلى ظهر البعير.

(٥) راجع السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

أي حساب، فان «أبا طالب» قبل بان يتحمل كل ما يترتب على قراره هذا، فحمله معه على ناقته، وبقي يفكر في أمره، ويدبر شأنه، ويحافظ عليه طوال تلك الرحلة، وشهد منه اثناء الطريق كرامات وخوارق، وقد أنشأ في ذلك قصيدة موجودة في ديوان أبي طالب، ومطلع هذه القصيدة هو:

إن ابن آمنة النبي محمداً
عندي يفوق منازل الأولاد^(١)



الدفاع عن حوزة العقيدة والايان

ليست هناك قوة تساعد على الثبات والمقاومة، والصمود والاستقامة، مثل قوة الايمان، فالايان بالهدف هو العامل القوي وراء تقدم الانسان في ميدان الحياة، فهو الذي يهضم في نفسه كل الالام والمتاعب، ويدفع بالمرء الى المضي قدماً في طريق الوصول إلى أهدافه المقدسة، حتى ولو كلفه ذلك التعرض للموت.

إن الجندي المسلح بقوة الايمان منتصر لا محالة.

إن الجندي الذي يعتقد بأن الموت في طريق العقيدة هو عين السعادة لا بد أن يحرز النصر.

إن على الجندي - قبل أن يسليح نفسه بسلاح العصر - أن يتزود في قلبه من طاقة الايمان بالهدف، ويضيء قلبه بمصباح الاعتقاد بالحقيقة، وحبها، ويجب أن يكون جهاده وصلحه من أجل العقيدة والدفاع عن حوزتها، وكيانها.

إن أفكارنا وعقائدنا نابعة من روحنا، وفي الحقيقة ان فكر الانسان وليد عقله، فكما أن الانسان يحب ولده الجسماني حباً شديداً كذلك يجب أفكاره التي هي ولائد عقله وروحه، بل إن حب الانسان لعقيدته أكثر من حبه

(١). ديوان أبي طالب: ص ٣٣ - ٣٥، تاريخ ابن عساکر: ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٢، الروح والآنف: ج ١

لأولاده الجسمانيين، ولهذا فهو يدافع عن عقائده حتى الموت، ويغضي - في سبيل الدفاع عن حوزة العقيدة والحفاظ عليها - عن كل شيء، بينما هو غير مستعد لأن يضحي بنفسه في سبيل الحفاظ على اولاده.

إنَّ حب المرء للمال والمنصب حبٌّ محدود، فهو ينساق مع هذا الحب مادام لم يهدد حياته خطرُ الموت الحقيقي، ولكنه مستعد لأن يمضي - في سبيل الدفاع عن حياض العقيدة - إلى حدِّ الموت، ويؤثر الموت الشريف في سبيل العقيدة على الحياة، ويرى الحياة الحقيقية والواقعية في وجود الرجال المجاهدين، وهو يردد: «إنما الحياة عقيدة وجهاد»^(١).

ولنلق نظرة فاحصة على حياة بطل حديثنا (ونعني به المدافع الوحيد عن الاسلام وحامي الرسول الاوحد في بدايات عهد الرسالة) فإذا كان دافعه إلى هذا الامر، وما الذي كان يحركه في هذا السبيل؟ وأي شيء كان وراء مضيه في هذا الطريق إلى حافة العدم، والغض عن النفس والنفيس، والمقام، والقبيلة وغير ذلك والتضحية بكل ذلك في سبيل «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم.

إن من المتيقن أن دافعه إلى ذلك لم يكن المحرك المادي، وبالتالي لم يقصد من وراء الدفاع عن ابن اخيه، وحمائته، والحدب عليه، كسب أمر مادي كتحصيل مال وثروة، لأن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن له يومئذ مال، ولا ثروة. وكما أن مقصود «أبي طالب» لم يكن أيضاً تحصيل مقام، وإحراز مكانة اجتماعية لأنه كان يملك في ذلك المجتمع أعلى المناصب واهمها، فقد كانت له رئاسة «مكة» والبطحاء، بل هو فقد منصبه وشخصيته الممتازة ومكانته المنقولة بسبب دفاعه عن «محمد»، وعدم الاستجابة لقومه في تسليمه اليهم، والتخلي عنه لأن دفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قد استوجب سخط زعماء عليه، واستياءهم من موقفه، وخروجهم عن طاعته، ودفعهم إلى التمادي

(١) المراد من العقيدة المقدسة هو بطبيعة الحال مانذوب «الأنا» فيها في التوحيد والايان بالله اذ هنا يصدق قوله:

قف عند رأيك واجتهد إن الحياة عقيدة وجهاد

في معاداة «بني هاشم» و«أبي طالب» والثورة عليهم!!

تصوّر باطل

ربما يتصور بعض ضعفاء البصيرة أن علة حذب «أبي طالب» على رسول الله صلى الله عليه وآله التضحية في سبيله بالنفس والنفيس كانت هي: علاقة القرني، وشيخة الرّحم، أو بتعبير آخر: إن التعصب القبلي، والعصية القومية هو الذي دفع بأبي طالب إلى أن يعرض نفسه لكل ذلك المكروه في سبيل ابن أخيه.

ولكنّ هذا ليس سوى مجرد تصور باطل لاغير، ويتضح بطلانه بدراسة مختصرة لأنه لا تستطيع أية وشيخة قرني على أن تدفع أحداً إلى أن يضحي بنفسه في أحد أقربائه إلى هذه الدرجة من التضحية والمفاداة، بحيث يقي مثلاً ابن أخيه عليه، ويكون مستعداً لأن يتقطع ولده بالسيوف إرباً إرباً دون ابن أخيه.

إن العصبية القبائلية والعائلية وإن كانت تدفع بالإنسان حتى إلى حافة الموت، ولكن لا معنى لأن تختص، هذه الحماية الناشئة عن العصبية العائلية والقبيلية الشديدة بفرد واحد، وشخص خاص معين من أفراد العائلة والقبيلة، في حين نجد «أبا طالب» قد قام بكل هذه التضحية في سبيل شخص واحد، وفرد معين (أي النبي)، ولا يفعل مثل هذه في سبيل غيره من أبناء «عبدالمطلب» و«هاشم» وأحفادهما ومن ينتمي إليهم بوشيخة القرني ورابطة الرحم.

الدافع الحقيقي لأبي طالب

وعلى هذا الأساس فإنّ المحرك والدافع الحقيقي لأبي طالب لم يكن أمراً مادياً ولا الجاه والمنصب، أو التعصب القومي، والعائلي، بل كان أمراً معنوياً وأن ضغوط العدو وقوته كانت تدفعه إلى الاستعداد للقيام بأي نوع من أنواع التضحية وذلك الأمر المعنوي هو اعتقاده الراسخ برسول الله صلى الله عليه وآله يعتبر «محمّداً» مظهراً كاملاً للفضيلة والإنسانية، ويعتبر دينه أفضل برنامج

للسعادة، وحيث إنه كان يجبُ الحقيقة، ويعشق الكمالَ والحقَّ، لذلك كان من الطبيعي أن يدافع عن الحق والحقيقة، وينصرهما بكل وجوده، وبكل قواه.

وهذا المعنى هو المستفاد من قصائد «أبي طالب» وأشعاره، فهو يصرح بأن

«محمداً» رسولٌ كموسى وعيسى إذ يقول:

لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا
أَنَا بِهَدْيِ مِثْلِ مَا أَتِيَابِهِ
وَيَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى:

نَبِيًّا كَمُوسَى وَالْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ
فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَيَعْصِمُ^(١)

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا
نَبِيًّا كَمُوسَى خَطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ^(٢)

هذا وتعتبر آياته التي سبق أن أشرنا إليها والمئات من أمثالها مما جاء ذكره في ديوان أبي طالب، وفي ثنايا التاريخ والتفسير والحديث شواهد حية وقوية على أن محرك «أبي طالب» الواقعي ودافعه الحقيقي إلى الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله كان هو اعتقاده الخالص، وإسلامه الواقعي ولم يكن له أي دافع آخر سوى الإيمان والعقيدة.

ونحن هنا نكشف النقاب عن بعض مواقفه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وحمایته بعد اضطراره بعبء الرسالة، ونترك لك أيها القارئ بأن تدقق في مثل هذه المواقف الفدائية ثم تقضي بنفسك: هل تنبع مثل هذه التضحية، ومثل هذا التفاني، والفداء إلا من الإيمان والاعتقاد؟؟



لمحات من توضيحات أبي طالب

اجتمع أسياد قريش وأشرافها في بيت أبي طالب والنبي صلى الله عليه وآله حاضر، وتبدلت بين الجانبين أحاديث حول رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) مجمع البيان: ج ٧ ص ٣٧، الحجّة: ص ٥٦-٥٧، مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٦٢٣ و ٦٢٤.
(٢) مجمع البيان: ج ٧ ص ٣٦، وقد نقل ابن هشام في السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٢ و ٣٥٣ خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة.

ودينه وما خلق من مشكلات في مكة، وحاول القرشيون اثناء النبي عن دعوته وعمله ولكن دون جدوى فلما يشوا من الحصول على النتيجة التي كانوا يريدونها نهضوا من مكانهم لتركوا بيت «أبي طالب»، قال «عقبة ابن أبي معيط» غاضباً مهدداً: لانهود إليه أبداً، وما خير من أن نقتال محمداً!!

فغضب «أبو طالب» من هذه الكلمة، ولكنه ماذا عساه أن يفعل فهم ضيوفه، وفي بيته. واتفق أن خرج النبي صلى الله عليه وآله من البيت في ذلك اليوم ولم يعد، وجاء «أبو طالب» وعمومته الى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال - وهو يظن ان قريشاً كادت برسول الله صلى الله عليه وآله :- ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم، فليجلس الى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية - يعني أبا جهل - فانه لم يغيب عن شران كان محمداً قد قتل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال فقال: يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا ادخل بيتي أبداً حتى أراه.

فخرج زيد سريعاً حتى اتى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون فاخبره الخبر، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي: اين كنت؟ اكنت في خير؟ قال: نعم، قال: ادخل بيتك، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما اصبح أبو طالب غدياً على رسول الله صلى الله عليه وآله فاخذ بيده فوقف على اندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبون فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممتُ به؟

قالوا: لا، فاخبرهم الخبر، وقال للفتيان اكشفوا عما في ايديكم، فكشفوا، فاذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال: والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتى نتفاني نحن وانتم، فانكسر القوم وكان أشدَّهم انكساراً أبو جهل^(١)

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ١٦٨، الطرائف: ص ٨٥.

للاحظت أيها القارئ الكريم هذه الصفحات وغيرها من تاريخ «أبي طالب»، ودرست حياته لرأيت كيف ان «أبا طالب» ظلّ طوال اثنين وأربعين سنة بأيامها ولياليها يحذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ويدافع عنه، وبخاصة في السنوات العشر الاخيرة من حياته التي صادفت بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله ودعوته، فقد أظهر من الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله والحرص على حياته، وحماية هدفه اكثر مما يُتصور.

ولقد كان العامل الوحيد الذي دفعه الى مثل هذا الموقف الراسخ العظيم في هذا السبيل هو: عمق الايمان برسول الله صلى الله عليه وآله، وقوة الاعتقاد الخالص برسالته.

ولو أننا ضمنا إلى تضحياته الشخصية تضحيات ولده العزيز «عليّ» لأدركنا مغزى البيتين اللذين انشدهما «ابن ابي الحديد» المعتزلي الشافعي إذ قال:

ولولا أبو طالب و ابنه لما مثلَ الدينُ شخصاً وقاماً
فذاك بمكة آوى و حامى وهذا بيثرب جَسَّ الحماما^(١)

قضية ذات بواعث سياسية:

ليس من ريب في أنه لو ثبت عُشر هذا القدر من الشواهد الدالة على اسلام «أبي طالب» وإيمانه بالرسالة المحمدية، لغيره ممن هو بعيد عن قضايا السياسة، وخارج عن دائرة الحمق والبغض لا تفق الجميع سنةً وشيعةً على إسلامه وإيمانه، ولكن كيف ذهب فريقٌ الى تكفير «أبي طالب» مع كل هذه الشواهد القوية القاطعة على إيمانه؟ حتى أن فريقاً من الكتاب ذهب إلى ان بعض الآيات المشعرة بالعذاب نزلت في شأنه.

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٤ ص ٨٤ يقول ابن ابي الحديد: صنف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في اسلام أبي طالب، وبعثه اليّ، وسألني ان اكتب عليه بخطي نظماً او نثراً اشهد فيه بصحة ذلك، وبوثاق الأدلة عليه (إلى ان قال) فكتبت على ظاهر المجلد هذه الايات.

بيننا توقّف في هذا الأمر، وذهب أفراد معدودون من علماء السنة الى الحكم باسلامه وايمانه، ومنهم «زيني دحلان» مفتي مكة المتوفى سنة ١٣٠٤ من الهجرة.

ولكن الانصاف هو ان يقال: إن الهدف من طرح هذه المسألة والتوقف في ايمان «أبي طالب» أو تكفيره لم يكن إلا الطعن في أبنائه، وبخاصة أمير المؤمنين الامام عليّ عليه السلام.

ولقد جرّ بعض كتاب السنّة- لتبرير تكفير أبي طالب- هذه المسألة الى غير ابي طالب ووسع دائرة التكفير هذه حتى شملت آباء النبيّ صلى الله عليه وآله أيضاً حيث ذهب إلى أن أبوي النبيّ صلى الله عليه وآله ماتا كافرين أيضاً. ونحن لا يهمننا هنا أن نعلم بأنّ تكفير والدي النبيّ صلى الله عليه وآله مخالفٌ لاجماع الامامية والزيدية، وكذا جماعة من علماء السنة، ومحققهم، إنما الكلام هو حول من اتهموا ببساطة متناهية حامي النبيّ صلى الله عليه وآله الوحيد والمدافع عنه بلامنازع.

الأدلة على إيمان أبي طالب

إن التعرف على عقيدة أحد، ومعرفة نمط تفكيره، يمكن عن ثلاث طرق هي:

١ - دراسة ماترك من آثار علمية وأدبية.

٢ - أسلوب عمله، وتصرفاته في المجتمع.

٣ - رأي أقربائه، وأصدقائه غير المفرضين فيه.

ونحن نستطيع أن نتعرف على إيمان «أبي طالب» وعقيدته من خلال هذه الطرق.

فإن أشعار «أبي طالب» تدل بجلاء لألبس فيه على ايمانه وإخلاصه، وكذا تكون خدماته القيمة في السنوات العشر الاخيرة من عمره شاهداً قوياً على ايمانه العميق.

كما وأن رأي أقربائه المنصفين متفق على أن «أبا طالب» كان مسلماً مؤمناً ولم يقل أحدٌ من أقربائه، في حقه بغير هذا أبداً.
وإليك إثبات هذا الموضوع عن هذه الطرق الثلاث على وجه التفصيل:

آثار أبي طالب العلمية والأدبية

نحن نختار هنا من بين قصائد «أبي طالب» المطوّلة، بعض الأبيات التي تثبت إيمانه برسول الله صلى الله عليه وآله، واعتقاده بالاسلام، في غير ابهام.

- | | |
|---|---|
| ١ - لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا أَنَا بَهْدِي مِثْلَ مَا أَتِيَابِهِ | نَبِيَّ كَمُوسَى وَالْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمِ فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَتَعْصِمُ ^(١) |
| ٢ - تَمْنِيْتُمْو أَنْ تَقْتُلُوهُ وَإِنَّمَا نَبِيٌّ أَتَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ | أَمَانِيَّتِكُمْ هَذَا كَأَحْلَامِ نَائِمِ وَمَنْ قَالَ لَا يَقْرَعُ بِهَا سِنَّ نَادِمِ ^(٢) |
| ٣ - أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا وَأَنَّ عَلَيَّ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً | رَسُولًا كَمُوسَى خُطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ وَلَا خِيفَ فِي مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ ^(٣) |
| ٤ - وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ فَأَصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ | حَتَّى أَوْسَدَ فِي التَّرَابِ ذَفِينَا وَابْشِرْ بِذَلِكَ وَقَرِّ مِنْكَ عُيُونَا وَلَقَدْ دَعَوْتِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحٌ وَلَقَدْ عَلِمْتُ بَأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ |
| ٥ - أَوْ تُوْمِنُوا بِكِتَابِ مَنْزِلِ عَجَبٍ | مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِّيَّةِ بِنَا ^(٤) |
| ٦ - لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكْذَبُ فَأَيْدُهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ | عَلَى نَبِيِّ كَمُوسَى أَوْ كَذِي النُّونِ ^(٥) لَدَيْنَا وَلَا تَعْنِي بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ وَظَهَرَ دِينًا حَقُّهُ غَيْرُ بَاطِلِ ^(٦) |

(١) مجمع البيان: ج ٧ ص ٣٧، الحجة: ص ٥٧، مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٦٢٣.

(٢) و(٣) ديوان أبي طالب: ص ٣٢، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٥٣.

(٤) تاريخ ابن كثير: ج ٣ ص ٤٢.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٧٤، ديوان أبي طالب: ص ١٧٣.

(٦) السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

إن كل واحدة من هذه المقطوعات الشعرية التي تشكل قسماً صغيراً من قصائد مفصلة لأبي طالب، تشهد بإيمانه بدين ابن أخيه «محمد» صلى الله عليه وآله.

وخلاصة القول: أنّ بيتاً واحداً من هذه الأبيات كاف في إثبات إيمان صاحبها وقائلها، ولو أنّ أحداً قالها وهو خارج عن فلك الصراعات السياسية، وبعيد عن دوائر التعصبات والأغراض لحكم الجميع - بالاتفاق - بإسلام قائلها وإيمانه الخالص العميق.

ولكن لما كان «أبو طالب» هو قائلها، وكانت الأجهزة الدعائية في الحكومات الاموية والعباسية تعمل بكل جهدها ضد آل «أبي طالب» من هنا أبى فريق من الناس أن يثبتوا مثل هذه الفضيلة الكبرى لأبي طالب عليه السلام.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنّ أبا طالب والد «علي» الذي كانت سلطات الخلفاء تعمل ضده على الدوام، وتستغل كل الوسائل للحط من شأنه، كان إسلام أبيه وإيمانه بالرسالة المحمدية يُعدُّ فضيلة بارزة من فضائله عليه السلام في حين أن كفر آباء الخلفاء وشركهم يعدُّ مثلبة توجب الحط من شأنهم، وقيمتهم.

وعلى كل حال قام جماعة بتكفير أبي طالب رغم كلّ هذه الأشعار والأقوال، والمواقف الصادقة، بل لم يكتفوا بذلك، فادعوا نزول آيات من القرآن تدل على كفره، وشركه!!!

الطريق الثاني لإثبات إيمان أبي طالب

إنّ الطريق الثاني للبرهنة والتدليل على إيمان «أبي طالب» هو موافقه من رسول الله صلى الله عليه وآله وكيفية دفاعه وذبّه عنه وحمايته له، وحبّه عليه صلى الله عليه وآله وسلم وما قام به من خدمات جليلة في هذا الطريق.

إن كل واحدة من هذه الخدمات تستطيع بمفردها أن تكون المرآة الصادقة

التي تعكس فكر «أبي طالب» وعقيدته وما كان يحمله بين جوانحه من إيمان بالرسالة والرسول، واخلاص لله تعالى.

لقد كان «أبو طالب» هو ذلكم الشخصية التي لم يرض لنفسه بان ينكسر قلب ابن أخيه لتركه في مكة، واصطحبه معه الى الشام في الرحلة التجارية التي سبق ذكرها، رغم الموانع الكثيرة، وفقدان الوسائل اللازمة، ورغم ما ترتب على اصطحابه معه من متاعب.

إن إيمانه بابن أخيه كان عميقاً إلى درجة أنه أخذه الى المصلّى واستسقى به، مقسماً به على الله تعالى أن يكشف العذاب عن قومه، ويرسل رحمته عليهم، فيستجيب الله دعاءه، وينزل عليهم غيثاً وافراً ممرعاً، بقيت قصته في ذاكرة التاريخ.

إنه ذلك الرجل الذي لم يفتأ عن الحفاظ على حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لحظة واحدة، فهو الذي تحمل في سبيله ثلاثة أعوام عجاف من الحصار الاقتصادي والاجتماعي الصعب، مؤثراً العيش في الشعب وفي شغاف الجبال والوديان القاحلة على زعامة قريش، ورئاسة مكة الى ان أعيته تلك المحن والمتاعب ففقد بذلك صحته، وانحرف بذلك مزاجه، وتوفي متأثراً بتلك المتاعب والمصاعب، والمشاق والمحن بعد نقض الصحيفة، وانتهاء الحصار، والعودة إلى المنازل بأيام معدودة!!

لقد كان إيمان «أبي طالب» برسول الله صلى الله عليه وآله قوياً وراسخاً الى درجة أنه رضى بأن يتعرض كل ابنائه لخطر القتل والاغتيال ليبقى «محمداً» ولا يمسّه من أعدائه أي سوء، فكان يُضجع ولده علياً في موضعه، حتى إذا أرادوا إغتياله لا يصيبه شيء وهذا يعني أنه كان يقيه بنفسه وبأولاده.

وفوق هذا كله استعدّ في يوم من الأيام لأن يقتل كل زعماء قريش وأسيادها انتقاماً لمحمد، وكان من الطبيعي أن يقتل في هذه العملية بنوهاشم كلهم أيضاً^(١).

(١) راجع الصفحة ٥٢٢ من هذا الكتاب.

وصية أبي طالب عند وفاته

وعند وفاته قال لأولاده:

«أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وانكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله لكأني انظر إلى ضعاليك العرب، وأهل البر في الاطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده...».

ثم ختم وصيته هذه بقوله:

يامعشر قريش كونيوا له ولاية، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله الارشد، ولا يأخذ أحد بهديه الأسعد^(١).

نحن لانشك في أن «أبا طالب» كان صادقاً في أمنيته هذه لأن خدماته الكبرى وتضحياته المتواصلة خلال عشر سنوات من بداية عهد الرسالة شاهدة على صدق مقاله، كما كان صادقاً في الوعد الذي قطعه على نفسه لابن أخيه (محمد) في مبدأ البعثة عند ما جمع رسول الله صلى الله عليه وآله أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم إلى الاسلام فقال له أبو طالب:

«أخرج يا ابن أخي فانك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً.
والله لا يسليقك لسان الأسلقة ألسن جداد، واجتذبتة سيوف حداد.
والله لتذكن لك العرب ذلك البهم لحاضنها»^(٢).

* * *

(١) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٥١ و ٣٥٢.

(٢) الطرائف تأليف السيد ابن طاووس: ص ٨٥ نقلاً عن كتاب غاية السؤل في مناقب آل الرسول تأليف ابراهيم بن علي الدينوري.

آخر الطرق لاثبات ايمان أبي طالب

ويحسن بنا أخيراً ان نسأل عن أبي طالب وعن ايمانه واخلاصه، اقراره غير المفرضين لأن «أهل البيت ادرى بما في البيت».

١ - لما مات أبو طالب جاء عليُّ عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وآله فأذنه بموته، فتوجع توجعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، ثم قال له امض فتولّ غسله فاذا رفعتة على سريره فاعلمني، ففعل فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو محمول على رؤوس الرجال: قال: «وصلتك رحم ياعم، وجزيت خيراً فلقد ربّيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً».

ثم تبعه الى حضرته، فوقف عليه فقال:

«أما والله لاستغفرنّ لك، ولاشفعنّ فيك شفاعَةً يعجبُ لها الثقلان»^(١).

٢ - روي ان علي بن الحسين عليهما السلام سئل عن ايمان أبي طالب. فقال:

«واعجباً! ان الله تعالى نهى رسوله ان يقرّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت اسد من السابقات إلى الاسلام، ولم تنزل تحت أبي طالب حتى مات»^(٢).

٣ - روي عن علي بن محمد الباقر عليهما السلام أنه قال:

«لو وُضِعَ إيمان أبي طالب في كفة ميزان، وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه».

ثم قال:

«ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان يأمر أن يُحجَّ عن عبد الله وأبيه»^(٣).

٤ - قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليها السلام:

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٧٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٦٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٦٨.

«إِنَّ مَثَلُ أَبِي طَالِبٍ مَثَلُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أُسْرُوا الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرُوا الشَّرْكَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، وَأَنْ أَبَا طَالِبٍ أُسِرَ الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرَ الشَّرْكَ، فَآتَاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ»^(١).

رأي علماء الشيعة في أبي طالب

ولقد اتفق علماء الإمامية والزيدية تبعاً لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله على: أن «أبا طالب» كان من أبرز المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله ولم يخرج من الدنيا إلا بقلب يفيض إيماناً بالاسلام، وإخلاصاً لله تعالى، وحباً للمسلمين، وقد ألفت في هذا المجال كتب ورسائل، ودراسات عديدة، يمكن الوقوف عليها لمن اراد ولمزيد التوسع في هذا المجال يراجع المجلد ٧ ص ٤٠٢-٤٠٤ من موسوعة الغدير للعلامة الأميني طبعة النجف، أوج ٧ ص ٣٣٠-٤٠٩ طبعة لبنان.

نظرة إلى حديث «الضحاح»

واستكمالاً لهذا الحديث ينبغي أن نلقي نظرة إلى رواية تشكك في إيمان أبي طالب فقد روى بعض الكتاب مثل البخاري^(٢)، ومسلم عن رواية نظير سفيان بن سعيد الثوري، عبد الملك بن عمير، عبد العزيز بن محمد الدراوردي حديثاً نسبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال عن أبي طالب رحمه الله: «وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحاح».

«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحاح من النار يبلغ كعبه، يغلي منه دماغه»^(٣).

إن هذه الرواية وان كانت تكذبها عشرات الأحاديث والروايات الاسلامية،

(١) اصول الكافي: ج ١ ص ٤٤٨.

(٢) صحيح البخاري: ج ١ ص ٣٣ و ٣٤ من ابواب المناقب. (٣) صحيح المسلم: كتاب الايمان.

والدلائل القاطعة الساطعة، وتثبت بطلانها وتفاهتها، ولكننا بهدف الوصول إلى مزيد من التوضيح نعمد إلى دراسة أمرين يرتبطين بهذا الحديث.

١- ضعف أسناد هذه الرواية

إن رواية هذه الرواية - كما اسلفنا - هم عبارة عن سفيان بن سعيد الثوري وعبد الملك بن عمير وعبد العزيز بن محمد الدراوردي الذين سندرس أحوالهم واحداً واحداً - في ضوء أقوال علماء الرجال المعترف بهم عند أهل السنة - عنهم:

الف: سفيان بن سعيد الثوري

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - وهو من علماء الرجال عند أهل السنة - في سفيان الثوري: كان يدلّس عن الضعفاء^(١).

إن هذا الكلام شاهد قوي على وجود التدليس عند الثوري، وعلى روايته عن الضعفاء أو المجهولين، وهو وصف يُسقطه عن درجة الاعتبار.

باء: عبد الملك بن عمير

قال عنه الذهبي المذكور: طال عُمره وساء حفظه قال أبو حاتم: ليس بحافظ، تغيّر حفظه، وقال أحمد: ضعيف يغلط، وقال ابن معين: مخلط وقال ابن خراش: كان شعبة لا يرضاه، وذكر الكوسج عن أحمد بن حنبل: انه ضعيف جداً^(٢) فمن مجموع هذه العبارات نعرف ان عبد الملك كان يتصف بصفات عديدة هي أنه:

١ - سيء الحفظ.

٢ - ضعيف.

٣ - كثير الغلط.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦٠.

(١) ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ١٦٩.

۴ - مخلط .

ومن الواضح ان كل واحدة من الصفات والحالات المذكورة كافية لأن تبطل الاحاديث التي يروها عبدالملك بن عمير، والحال انه قد اجتمعت جميع نقاط الضعف هذه في هذا الرجل .

جيم : عبدالعزيز بن محمد الدراوردي

ولقد وصفه علماء الرجال عند اهل السنة بالنسيان، وقلة الحفظ فلا يمكن الاستناد إلى مروياته .

فقد قال أحمد بن حنبل عنه : إذا حدث من حفظه جاء بأباطيل^(۱) .

وقال أبو حاتم عنه : لا يُحْتَجُّ به^(۲) .

وقال أبو زرعة أيضاً : سيء الحفظ^(۳) . ومن مجموعة هذه العبارات يتضح

بجلاء ان الرواة الاصلين لحديث الضحضاح ضعفاء في غاية الضعف، الى درجة لا يمكن الاعتماد على مروياتهم .

۲ - نص حديث الضحضاح يخالف الكتاب والسنة

لقد نُسب إلى النبي صلى الله عليه وآله في هذه الرواية أنه أخرج أبا طالب من نار جهنم إلى ضحضاح وهذا خففت عنه العذاب، أو أنه صلى الله عليه وآله تمنى أن يشفع له، فيخفف الله عنه العذاب، على حين نفى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفه تخفيف العذاب عن الكفار كما ونفيا شفاعة احد في حقهم .

وعلى هذا الاساس فلو كان ابو طالب كافراً، لم يجز للنبي صلى الله عليه وآله ان يخفف عنه العذاب او يتمنى له الشفاعة في يوم الجزاء .

وهذا يظهر بطلان محتوى حديث الضحضاح .

واليك فيما يأتي ادلة ماقلناه من الكتاب والسنة :

(۲) و(۳) المصدر السابق .

(۱) المصدر السابق ص ۶۳۴ .

الف: القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ»^(١).

ب: السنة النبوية

ان السنة النبوية الطاهرة تنفي أيضاً الشفاعة للكفار، ونذكر من باب النموذج بعض تلك الأحاديث:

١ - روى أبوذر الغفاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال:

«أعطيت الشفاعة وهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئاً»^(٢).

٢ - روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال:

«وشفاعتي لمن شهد أن لا اله الا الله مخلصاً، وأن محمداً رسول الله يصدق لسانه قلبه، وقلبه لسانه»^(٣).

إن الآيات والروايات المذكورة تثبت بوضوح بطلان نص حديث الضحضاح عند من يقول بأن أبا طالب مات كافراً.

ونتيجة البحث أنه تبين مما ذكر ان حديث الضحضاح لا أساس له من الصحة لامن جهة السند والطريق، ولامن جهة المتن والنص، ولا يمكن الاستدلال به.

وهذا ينهار أقوى حصن يتمسك به البعض للخدشة في إيمان أبي طالب الثابت المسلم.

(١) فاطر: ٣٦.

(٢) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٤٣٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٣٧.

المعراج

المعراج في نظر القرآن والسنة والتاريخ

كان الليل يخيم على الافق، ويسود الظلام على كان مكان.
فقد حان الأوان لأن ترقد جميع الاحياء في مساكنها، وتستريح في جحورها
وأعشاشها، وتغمض الأجفان لبعض الساعات عن مظاهر الطبيعة، لتستعيد
نشاطها من أجل العمل في يوم جديد حافل بالنشاط والحركة والسعي.
فذلك قانون الطبيعة في كلِّ ليلٍ ونهارٍ
ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله بمستثنى عن هذا الناموس الطبيعي.
فهو صلى الله عليه وآله مضى ليستريح بعد أن صلى صلاة العتمة أيضاً.
ولكنه فجأةً سمع صوتاً مألوفاً مانوساً له، وكان ذلك هو صوت أمين الوحي
«جبرئيل» وهو يخبره بأن أمامه الليلة سفراً بعيداً ورحلة طويلة، وانه سيرافقه في
هذه الرحلة الى مختلف نقاط الكون، وسيسافر على متن دابة فضائية تدعى
«البراق».

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وآله رحلته الفضائية العظيمة من بيت
اخت علي بن أبي طالب^(١) «أم هاني»، وتوجه على متن تلك الدابة إلى «بيت

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ١٥٣ و٣٩٦، السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٩٦-٤٠٢.

المقدس» في الأردن وفلسطين والذي يسمى «المسجد الأقصى» أيضاً، وهبط في تلك النقطة بعد مدة قصيرة جداً، وزار مواضع عديدة من ذلك المسجد، وتفقد «بيت لحم» مسقط رأس «السيد المسيح» ومنازل الأنبياء وآثارهم ومحاريبهم، وصلى عند كل محراب من بعض تلك المحاريب ركعتين.

ثم بدأ بعد ذلك القسم الثاني من رحلته، حيث عرج من ذلك إلى السماوات العلى، وشاهد النجوم والكواكب، واطلع على نظام العالم العلوي، وتحدث مع ارواح الأنبياء، والملائكة السماويين، واطلع على مراكز الرحمة والعذاب (الجنة والنار)^(١) ورأى درجات أهل الجنة، وأشباح أهل النار عن كثب، وبالتالي تعرف على أسرار الوجود، ورموز الطبيعة، ووقف على سعة الكون، وآثار القدرة الإلهية المطلقة، ثم واصل رحلته حتى بلغ إلى سدرة المنتهى^(٢)، فوجدتها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم وعندها انتهى برنامج رحلته صلى الله عليه وآله، فامر بأن يعود من حيث أتى، فعاد صلى الله عليه وآله ومرّ في عودته على بيت المقدس ثانية، ثم توجه منه الى «مكة»، ومرّ خلال الطريق على قافلة تجارية لقريش وقد ضلّ بعير لهم في البيداء وكانوا يبحثون عنه، ثم وجد في رحلهم قعباً مملوءاً من الماء فشرب منه وصبّ بقيته على الأرض أو غطاه كما كان بناء على رواية. وترجل عن مركبته الفضائية العجيبة في بيت «أم هاني» قبيل طلوع الفجر، وأخبرها بالخبر قبل أي أحد، ثم كشف عن هذا الحادث في أندية قريش صباح نفس تلك الليلة.

فاستبعد السامعون قصة المعراج والحركة السريعة هذه، واعتبروه أمراً محالاً وانكرته، وفشا هذا الخبر في جميع الأوساط وغضب بسببه أشرف قريش وساداتهم أكثر من غيرهم.

وكعادتها بادرت قريش إلى تكذيب هذه القصة وقالوا: هذا والله الامر البين

(١) مجمع البيان: سورة الإسراء ج ٦ ص ٣٩٥.

(٢) لتوضيح معنى سدرة المنتهى راجع كتب التفسير.

(العجيب المنكبر) والله إن العير لتطرد شهراً من مكة الى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفذهب ذلك «محمّد» في ليلة واحدة؟

وقالوا: إن صدقت فصف لنا بيت المقدس، فإن فينا من شاهده.

فلم يصف لهم رسول الله صلى الله عليه وآله بيت المقدس فحسب بل أخبرهم بكل ما مرّ به وفعله ورآه في طريق عودته من بيت المقدس إلى «مكة» وقال: وآية ذلك أنني مررت على بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، وقد ضلّ لهم بعير وقد همّوا في طلبه، وشربت من ماء في آنية لهم مغطاة بغطاء وشم غطيت عليها كما كان، ثم مررت على بعير فلان وقد نفرت لهم ناقة وانكسرت يدها. فقالت قريش: أخبرنا عن عير قريش.

فقال صلى الله عليه وآله: إنها الآن في التنعيم (وهو مبدأ الحرم) يتقدمها جبل أورق (أبيض مائل الى السواد) عليه غرارتان وستدخل الآن مكة. فغضبت قريش من هذه الأخبار القاطعة وقالت: سنعلمن الآن صدقه أو كذبه.

ثم لم تمض لحظات إلا وطلعت العير عليهم، وحدثهم أبو سفيان بكل ما أخبرهم به رسول الله صلى الله عليه وآله من ضياع بعير لهم في الطريق وهمّهم في طلبه، وأنهم وضعوا ماء مملوء ففظوه ولما رجعوا وجدوه مغطى كما غطوه ولكن لم يجدوا فيه ماء.

هذه هي خلاصة ما جاء في كتب التفسير، والتاريخ، والحديث حول المعراج. وإذا أراد القارئ الكريم أن يقف على تفاصيل أكثر في هذا المجال فما عليه إلا أن يراجع بحار الأنوار باب «المعراج»^(١).

هل للمعراج جذور قرآنية؟

لقد جاء ذكر «المعراج» النبوي وسيرة العجيب صلى الله عليه وآله في

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٨٣ - ٤١٠.

العالم العلوي، والفضاء غير المتناهي في سورتين من القرآن الكريم بشكل واضح وصريح كما واشير اليها في سور أخرى أيضاً.

ونحن نكتفي هنا باستعراض الآيات التي ذكرت هذه القضية بصورة واضحة، ونقف عند بعض النقاط الجديدة بالدراسة فيها:

يقول الله تعالى في سورة الأسراء:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(١).

ويستفاد من ظاهر هذه الآية أمور:

١ - لكي نعلم بأنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمْ يَطْوِ تِلْكَ الْمَسَافَاتِ، وَلَمْ يَقْمِ بِرِحْلَتِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَوَالِمِ بِقُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ، بَلْ تَسْنَى لَهُ كُلُّ ذَلِكَ بِقُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ، فَبِهَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَطْوِيَ تِلْكَ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةَ فِي زَمَنِ قَصِيرٍ جَدًّا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَدِيثُهُ عَنِ الْإِسْرَاءِ بِقَوْلِهِ: «سُبْحَانَ الَّذِي» وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنِ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ. وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ بَلْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِوَضُوحٍ بِأَنَّهُ هُوَ تَعَالَى سَبَبُ هَذِهِ الرَّحْلَةِ وَالْمَسِيرِ فِيهَا إِذْ قَالَ: «أَسْرَى» أَيِ إِنْ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي سَرَى بِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَأَخَذَهُ إِلَى تِلْكَ الرَّحْلَةِ.

وهذه العناية لأجل أن لا يتصور الناس بأن هذه الرحلة تحققت بالوسائل العادية، وحسب القوانين الطبيعية ليتسنى لهم إنكارها، إنما تحققت بقدرة الله وعنايته الربوبية الخاصة.

٢ - إن هذه الرحلة تحققت برمتها خلال الليل، ويستفاد هذا المطلب - علاوة على كلمة ليلاً - من كلمة «أسرى» أيضاً لأنَّ العرب كانت تستعمل اللفظة المذكورة في السير ليلاً.

٣ - مع أن هذه الرحلة بدأت من بيت «أم هاني» ابنة أبي طالب، فإن الآية صرحت بأنها تَمَّتْ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَلَعَلَّ هَذَا لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَعْتَبِرُ

كل مكة حرماً إلهياً، ومن هنا كان كل مكان من مكة يتمتع عندهم بحكم الحرم والمسجد الحرام، فيكون المراد بالمسجد الحرام هنا مكة، ومكة والحرم كلها مسجد، فصَحَّ أن يقول: «من المسجد الحرام».

وتذهب بعض الروايات إلى أنَّ المعراج كان من نفس المسجد الحرام. ثم إنَّ هذه الآية وإن كانت تصرِّح بأنَّ المعراج بدأ من «المسجد الحرام» وانتهى بـ: «المسجد الأقصى» إلا أن ذلك لا ينافي أن يكون للنبي صلى الله عليه وآله رحلة أخرى إلى العالم العلوي لأنَّ هذه الآية تبين فقط قسماً من هذه الرحلة، وأما القسم الآخر من برنامج هذه الرحلة فتعرض لذكره آيات في مطلع سورة: «النجم».

٤ - إنَّ النبي صلى الله عليه وآله عرج بجسمه وروحه معاً، لا بالروح فقط. ويدلُّ على ذلك قوله تعالى «بعده» الذي يُستعمل في «الجسم والروح معاً» ولو كان المعراج بالروح فقط لزم أن يقول: «بروحه».

٥ - إنَّ الغرض من هذا السير العظيم وهذه الرحلة العجيبة هو إيقاف النبي صلى الله عليه وآله على مراتب الوجود، وإطلاعه على الكون العظيم، وهذا ما سنشرحه فيما بعد.

وأما السورة الأخرى التي تعرض لبيان حادثة المعراج بوضوح وصراحة هي سورة: «النجم».

والآيات التي سندرجها هنا من هذه السورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله عندما قال لقريش: «رأيت جبرئيلَ أولَ ما أوحى إليَّ على صورته التي خُلِقَ عليها» جادلته قريش في ذلك، فنزلت الآيات التالية تجيب على اعتراضهم:

«أَفْتَمَارُؤُهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزَلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا حَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَنْغَشِي السِّدْرَةَ مَا يَنْغَشِي. مَازَاغَ الْبَصَرِ وَمَا طَفَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»^(١).

أحاديث المعراج:

روى المفسرون والمحدثون أخباراً وروايات كثيرة حول معراج النبي صلى الله عليه وآله وما شاهده في هذه الرحلة العظيمة، ليست برمتها صحيحة مُسَلِّمة مقطوعاً بها.

ولقد قسم المفسر الشيعي الكبير المرحوم «العلامة الطبرسي» هذه الأخبار إلى أصناف أربعة اذ قال:

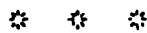
وتنقسم جملتها إلى أربعة اوجه:

أحدها: ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به، واحاطة العلم بصحته مثل أصل المعراج.

وثانيها: ماورد في ذلك مما تجوزه العقول ولا تأباه الاصول مثل طوافه في السماء ورؤيته أرواح الأنبياء وتحديثه معهم ورؤيته للجنة والنار، فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته، دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول، إلا أنه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول فالأولى أن نؤوله على ما يطاق الحق والدليل. مثل أنه رأى أهل الجنة وأهل النار وتحديث معها الذي يجب أن يؤول فيحمل على انه: رأى أشباحهم وصورهم وصفاتهم.

ورابعها: ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله، وهي ما ألصق وألحق بهذه الحادثة من الأساطير والخرافات، مثل ما روي من أنه صلى الله عليه وآله كلم الله سبحانه جهراً وراه وقعد معه على سريره أو سمع صرير قلمه، ونحو ذلك مما مما يوجب ظاهره التشبيه والتجسيم والله سبحانه يتقدس عن ذلك كله، فالأولى أن لانقبله^(١).



متى وَقَعَتْ هذه الحادثة؟

مع ان أهمية هذه الحادثة العجيبة كانت تستوجب أن تكون مضبوطة التفاصيل من جميع الجهات، إلا أنها تعرضت للاختلاف - مع ذلك - من بعض الجهات ومنها تحديد تاريخ وقوعها.

فقد ادعى كاتبها السيرة المعروفان: «إبن اسحاق» و«ابن هشام» أنها وقعت في السنة العاشرة من البعثة الشريفة.

وذهب المؤرخ الكبير «البيهقي» إلى أنها وقعت في السنة الثانية عشرة من البعثة.

وذهب آخرون إلى أنها وقعت في أوائل البعثة، بينما قال فريق رابع: أنها

وقعت في أواسطها.

وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال: أنه كان لرسول الله صَلَّى الله عليه

وآله معارج متعددة.

ولكننا نعتقد أن المعراج الذي فُرِضَتْ فيه الصلاة وَقَعَتْ بعد وفاة أبي طالب

عليه السلام في السنة العاشرة قطعاً.

لأن من مسلمّات الحديث والتاريخ أن الله تعالى أمر نبيّه صَلَّى الله عليه

وآله في ليلة المعراج أن تصلي أمة رسول الله صَلَّى الله عليه وآله كلّ يوم وليلة

خمس صلوات.

كما أنه يُستفاد من ثنايا التاريخ أيضاً أن الصلاة لم تُفرض مادام أبو طالب

عليه السلام على قيد الحياة بل فُرِضَتْ بعد وفاته، لأنه حضر عنده - ساعة وفاته -

سراة قريش وأسيادها، وطلبوا منه أن يبيت لهم في أمر ابن أخيه «محمد» ويمنعه

من فعله، فيعطونه - في قبال ذلك - ما يريد فقال لهم رسول الله صَلَّى الله عليه

وآله في ذلك المجلس: نعم كلمة واحدة تعطونها: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون

ماتعدون من دونه»^(١).

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤١٧.

لقد طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الأمر ولم يطلب منهم شيئاً آخر كالصلاة وغيرها من الفروع أبداً، وهذا هو بنفسه يدل على أنه لم تجب الصلاة حتى ذلك اليوم، وإلا كان الإيمان المجرد عن العمل، والصلاة مفروضة، لافائدة فيه.

وأما أنه لم يذكر شيئاً عن نبوته ورسالته فلأن الإعراف بوحداية الله بأمره وطلبه صلى الله عليه وآله اعتراف ضميني برسالته ونبوته، وفي الحقيقة أن التلفظ بهذه العبارات بأمره يتضمن شهادتين واقرارين: الإقرار بالله الواحد، والإقرار بنبوة رسول الاسلام.

هذا مضافاً إلى أن كتاب السيرة ذكروا كيفية إسلام جماعة مثل «الطفيل بن عمرو الدوسي» الذي أسلم قبل الهجرة^(١) بأعوام اکتفى النبي صلى الله عليه وآله بالشهادتين، ولم يجزاي حديث عن الصلاة ابداً.

ان هذه الامثلة تكشف عن أن هذه الحادثة (المعراج) التي فرضت فيها الصلاة وقعت قبل الهجرة بسنوات.

والذين تصوّروا أن المعراج وقع قبل السنة العاشرة مخطئون خطأ كبيراً لأن النبي صلى الله عليه وآله كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ السنة الثامنة وحتى السنة العاشرة، ولم يكن وضع المسلمين ليسمح بفرض تكليف زائد (مثل الصلاة) عليهم.

وأما سنوات ما قبل الحصار فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين والتي كانت هي بنفسها مانعاً من فرض الصلاة على المسلمين، كان المسلمون قلة معدودين، ولم يكن نور الإيمان، وأصول الاسلام، قد ترسخت في قلوب ذلك العدد القليل بشكل قوي بعد، ولذلك يكون من المستبعد أن يكلفوا بأمر زائد مثل الصلاة في مثل ذلك الظرف.

وأما ماورد في بعض الأخبار والروايات من ان الامام علياً عليه السلام

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٨٣.

صلى مع رسول الله قبل البعثة بثلاث سنوات، واستمر على ذلك بعدها أيضاً فليس المراد منها الصلوات المحدودة المؤقتة بوقت، المشروطة بشروط خاصة، بل كانت تلك الصلوات عبارة عن عبادة خاصة غير محدودة^(١)، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة والعبادات غير الواجبة.

هل كان المعراج جسمانياً؟

لقد وقع النقاش والكلام في كيفية معراج النبي صلى الله عليه وآله وأنه كان روحانياً أو جسمانياً وروحانياً معاً، وقيل في ذلك كلام كثير. ومع أن القرآن الكريم والأحاديث تشهد بجلاء لاغموض فيه بأن معراج النبي صلى الله عليه وآله كان جسمانياً^(٢)، فقد أوردت في المقام بعض الإشكالات والاعتراضات التي منعت البعض عن قبول هذه الحقيقة، وبالتالي دفعتهم إلى ارتكاب التأويل، والزعم بأن معراج النبي صلى الله عليه وآله كان روحانياً، أي بالروح لا بالجسم.

لقد قال هؤلاء: إن روح النبي صلى الله عليه وآله هي التي طافت في تلك العوالم ثم عادت إلى جسد النبي صلى الله عليه وآله مرة أخرى!!
 وذهب جماعة إلى أبعد من ذلك إذ ادّعوا بأن جميع هذه المشاهدات والقضايا تمت لرسول الله صلى الله عليه وآله في عالم الرؤيا، فكل ما رآه النبي صلى الله عليه وآله أو فعله من الطواف واللقاء والصلاة كانت رؤيا ورؤيا الأنبياء صادقة!!

على أن أقوال الفريق الأخير من البعد عن الواقع بحيث لا يمكن ذكره في عداد الأقوال والنظريات أبداً، لأنّ قريش بعد أن سمعت من رسول الله صلى

(١) للمزيد من التحقيق في تاريخ وجوب الوضوء والصلاة والاذان يراجع الكافي: ج ٣ ص ٤٨٢.

(٢) لقد نقل الفقيه الجليل العلامة الشيعي المرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج فراجع: ج ٦ ص ٣٩٥.

الله عليه وآله ادعاه بانه سار كل تلك المسافة الطويلة البعيدة، وطاف على كل تلك الاماكن المتباعدة العديدة في ليلة واحدة انزعجت بشدة وهبت لتكذبه حقيقة، الى درجة أن خبر المعراج أصبح حديث الساعة في نوادي قريش واوساطها آنذاك .

ولو كان كل ذلك تحقق للنبي صلى الله عليه وآله في المنام والرؤيا لما كان لتكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها معنى، اذ لا موجب للنزاع لو كان صلى الله عليه وآله يقول: إنني فعلت تلك الامور، ورأيت كل تلك المشاهد في الرؤيا والمنام، اذ هو على كل حال رؤيا، وكل شيء -حتى الأمور المحالة او المستبعدة جداً- ممكن في عالم الرؤيا.

ومن هنا لقيمة للقول الأخير أصلاً فلا تستحق المتابعة أصلاً.

ولكن مع الأسف استحسن بعض العلماء المصريين (مثل فريد وجدي) هذا الرأي وسعى في تقويته وتبريره، ونحن نحبذ ان نتركه، وان لانناقش فيه^(١).

ما هو المراد من المعراج الروحاني؟

لقد عمد فريق ممن عجز عن دفع وحلّ بعض الاعتراضات والاشكالات الواردة على المعراج الجسماني، إلى تأويل الآيات والأحاديث، واعتبر المعراج النبوي معراجاً روحانياً، لا غير.

والمقصود من المعراج الروحاني هو التدبّر في مخلوقات الله ومصنوعاته، ومشاهدة جلاله وجماله والاستغراق في ذكر الحق، والتفكير فيه، وبالتالي التخلص من القيود والاعلال المادية، والعلائق الدنيوية، والعبور من المراتب الامكانية في المراحل الباطنية والقلبية التي يحصل بعد طيها نوعاً من القرب الخاص الذي لا يمكن وصفه.

فاذا كان المراد من (المعراج الروحاني) هو التفكير في عظمة الحق وسعة

(١) دائرة معارف القرن العشرين: ج ٦ ص ٣٢٩ مادة عرج.

الخلق و..و.. فلاشك أن هذا ليس من مختصات رسول الاسلام صلى الله عليه وآله بل كان أكثر الأنبياء، وكثير من الأولياء من ذوي البصائر القويّة الطاهرة يمتلكون هذه المرتبة، على حين أن القرآن الكريم يعتبر (المعراج) من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله ويذكره على انه نوع من الامتياز الخاص به صلى الله عليه وآله.

هذا مضافاً الى ان مثل هذه الحالة (اعني التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه الى الحق) كانت تتكرر لرسول الله صلى الله عليه وآله في كل ليلة^(١)، والحال ان (المعراج) الذي هو محط الكلام قد وقع في ليلةٍ معيّنة. إن مادفع بهذا الفريق إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من (المعراج)، وآل بهم اختيار هذا الرأي هو فرضية الفلكي اليوناني المعروف «بظلميوس» التي كانت سائدة في الأوساط العلمية في الشرق والغرب طيلة ألفي سنة بالكامل، والتي أُلّف حولها مئات الكتب، وكانت تعدّ حتى حين من المسلّمات في مجال العلوم الطبيعية وهي على نحو الاجمال كالتالي:

إن الاجسام في هذا العالم على نوعين: أجسام عنصرية، واجسام فلكية. والجسم العنصري هي العناصر الأربعة المعروفة: «الماء، والتراب، والهواء، والنار».

وأول كرة تبدو لنا هي كرة التراب وهي مركزُ العالم، ثم تليها كرة الماء ثم كرة الهواء، وتأتي بعد كل هذه الثلاثة كرة النار، وكلٌّ من هذه الكرات محيطة بالأخرى، وهنا (اي وعند كرة النار) تنتهي الكرات، وتبدأ الاجسام الفلكية. والمقصود من الأجسام الفلكية هي الافلاك التسعة التي تقع الواحدة فوق الاخرى وتحيط الواحدة بالأخرى على هيئة قشور البصل، وهي متصلة بعضها ببعض من دون فاصلة بينها وهي غير قابلة للاختراق والالتصام (اي الشق

(١) راجع وسائل الشيعة: ج ٧ كتاب صوم الوصال، ص ٣٨٨ قال صلى الله عليه وآله: «إني لست كأحدكم، أني اظل عند ربّي فيطعمني ويسقيني».

والالتحام) والفصل والوصل ولايستطيع أي شيء من اختراقها والتحرك فيها بصورة مستقيمة لأن ذلك يستلزم انفصام اجزاء الفلك .

من هنا يكون المعراج الجسماني مستلزماً لأن ينطلق النبي صلى الله عليه وآله من مركز العالم ويصعد بصورة مستقيمة إلى الأعلى عابراً الكرات العنصرية الأربع، ومخترباً الأفلاك التسعة الواحد تلو الآخر، بينما يستحيل خرق هذه الأفلاك ثم التحامها حسب نظرية بطلميوس وفرضيته الفلكية.

وعلى هذا لامناص من أن نعتقد بأن المعراج النبوي كان معراجاً روحانياً، اي ان روحه صلى الله عليه وآله هي التي عرجت حتى لا يمنع أي جسم من عبورها وسيرها وصعودها الى النقطة المطلوبة والغاية المرسومة.

الجواب:

ان هذا الكلام كان مقبولاً وذا قيمة عندما كانت هيئة بطلميوس وفرضيته الفلكية لم تكن بعد قد فقدت قيمتها في الاوساط العلمية وكان هناك من يعتقد بها من صميم قواده.

ففي مثل تلك البيئة كان من الممكن التلاعب بالحقائق القرآنية، وتأويل صريح القرآن ونصوص الروايات.

أما الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضيات قيمتها، وظهر للجميع بطلانها، ولم يعد أحد يتحدث عنها، إلا من باب ما يسمى بتاريخ العلوم. فاليوم وبالنظر الى كل هذه الأجهزة الفلكية والآلات الفضائية الدقيقة، والتلسكوبات العملاقة، وهبوط المركبات الفضائية المتعددة على سطح القمر والمريخ، وعملية القيادة الفضائية على سطح القمر لم يعد مجال لهذه الفرضيات الخيالية.

فالיום لايعتبر العلماء المحققون فكرة العناصر الأربعة والفلك المتصل كقشرة البصل إلا جزءاً من الاساطير.

فان العلماء لم يستطيعوا بالآلات العلمية وأجهزة الرصد الدقيقة والعيون

المسلحة من رؤية، تلك العوالم التي حاكها وصنعها بطلميوس بقوة خياله، من هنا فان أية نظرية تقوم على هذا الاساس غير الصحيح تكون عارية عن أية قيمة، واعتبار.

نَعمَةٌ شاذةٌ:

ولقد طلع مؤسس الفرقة الشيخية^(١) «الشيخ احمد الاحسائي» في «الرسالة القطيفية» بنعمة شاذة في هذا الصعيد حيث أراد بابداء طرحه جديدة أن يرضي كلا الطرفين (القائلين بروحانية المعراج النبوي والقائلين بجسمانيته) حيث قال: ان النبي صلى الله عليه وآله عرج ببدنه البرزخي (الهور قليائي)^(٢) ثم استدل لذلك بقوله:

ان الصاعد كلما صعد ألقى في كل رتبة من المراتب المذكورة ما فيها، فثلاً إذا تجاوز كرة الهواء التي ما فيه من الهواء، وإذا تجاوز كرة النار ألقى ما فيها وإذا رجع أخذ ماله من كرة النار، وإذا وصل الى كرة الهواء أخذ ماله من الهواء. ومن هنا فإن النبي صلى الله عليه وآله عندما عرج الى السماء ألقى في كل كرة واحداً من تلك العناصر الأربعة في كرتة، وعرج ببدن فاقد لهذه العناصر. ومثل هذا البدن لا يمكن ان يكون بدنأً عنصرياً، فليس هو الاالبدن البرزخي (الذي أسماه الهور قليائي) لاغير^(٣).

(١) لاشك أن هذه الفرفة وامثالها من الفرق المبتدعة هي من صنائع الاستعمار أو هي مما يؤيده لتنفيذ أغراضه، ومن حسن الحظ أن انتشار الوعي بين أبناء الأمة الإسلامية حدّ من نشاط هذه الفرق حتى انها أصبحت على ابواب الاندثار والانقراض نهائياً.

(٢) وهو البدن البرزخي الذي يشبه البدن الذي يفعل به الانسان الافعال المختلفة في عالم النوم والرؤيا ويقوم بكل نوع من انواع النشاط.

(٣) تقع الرسالة القطيفية ضمن مجموعة تحتوي على ٩٢ رسالة باسم جوامع الكلم التي طبعت عام ١٢٧٣.

ومع هذا التصريح يتعي البعض -للتستر على خطأ الشيخ وزلته هذه- بأن الشيخ يعتمد بأن المعراج كان جسمانياً عنصرياً، وأنه موافق لرأي المشهور في هذا المجال.

وهذا - حسب تصوّره - أرضى من نفسه كلا الطرفين المذكورين، لأنه من جانب اعتقد بالمعاد الجسماني، وفي نفس الوقت تخلّص من اشكال «خرق الافلاك والتحامها» لأن نفوذ الجسم البرزخي لا يستوجب أيّ خرق وانفصال في جدار الفلك .

ولكن هذه النظرية - كما هو واضح لكلّ عالم متحرٍّ للحقيقة، بعيد عن العصبية - واضحة البطلان كسابقتها (نظرية المعراج الروحاني)، فضافاً الى انها مخالفة للقرآن وظاهر الاحاديث، لأنه - كما أسلفنا - لوعرضنا آية المعراج (من سورة الاسراء) على أيّ عارف باللغة، مهما كانت وطلبنا منه رأيه في هذا الصدد لقال: ان مراد القائل هو البدن الدنيوي العنصري الذي عبّر عنه القرآن بلفظ العبد، في قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده»، وليس الهورقليائي الذي لم يكن يعرفه المجتمع العربيّ، ولا يعرف أمثاله في ذلك اليوم اساساً، في حين أنهم كانوا هم المخاطبون في آية المعراج في سورة الاسراء لاغيرهم.

هذا مضافاً الى أنّ مادفع بالشيخ الى ارتكاب هذا التأويل البارد هو الاسطورة اليونانية المذكورة حول الفلك، حيث تصوّرها كحقيقة ثابتة من حقائق اللوح المحفوظ، وقد كذبها وفندها كلُّ فلكييّ العالم اليّوم، وأعلنوا عن سخافتها.

فلا يجوز لنا أن نقلد تلك الفرضية تقليداً أعمى .

واذا ما رأينا بعض القدماء من المشايخ قال بمثل هذا محسناً الظن بتلك الفرضية الفلكية القديمة وأمثالها امكن إعدارهم، لعدم قيام ادلة علمية قوية على خلافها آنذاك .

اما اليوم فلا ينبغي لنا ان نتجاهل الحقائق القرآنية لفرضية ثبت بطلانها في الأوساط العملية

المعراج وقوانين العلم الحديث:

قد يتصور فريقٌ من الناس أن القوانين الطبيعية والعلمية الحاضرة لا تتلاءم

مع معراج النبي صلى الله عليه وآله وذلك لأنه:

١- يقول العلم الحديث: إنَّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلص من جاذبية الأرض، وبعبارة أخرى ابطال مفعولها.

فان (الكرة) التي نقذفها إلى الأعلى تعود مرة ثانية إلى الأرض بفعل الجاذبية ومهما كررنا قذف الكرة إلى الأعلى فانها تعود وترجع إلى الأرض أيضاً.

فاذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبية الأرض ابطالاً كاملاً بحيث لا تعود الكرة المقذوفة إلى الأعلى إلى الأرض ثانية بل تواصل مسيرها إلى الأعلى فإننا نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى جعل سرعة الكرة باتجاه معاكس للأرض تعادل ٢٥/٠٠٠ ميلاً في الساعة.

وعلى هذا فان معنى المعراج هو ان يكون النبي صلى الله عليه وآله قد خرج من محيط جاذبية الأرض، واصبح في حالة انعدام الوزن.

ولكن ينطرح هنا سؤال وهو: كيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله ان يطوي بدون وسائل هذه المسافة بمثل هذه السرعة، وهل البدن الطبيعي يتحمل مثل هذه السرعة مع عدم توفر الغطاء الواقي والوسائل اللازمة، التي تصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الفائقة.

٢- إنَّ الهواء القابل للاستنشاق غير موجود فوق عدد من الكيلومترات بعيداً عن سطح الأرض، بمعنى اننا كلما ذهبنا صعداً إلى الطبقات العليا وابتعدنا عن الأرض أصبح الهواء أرق، حتى يغدو غير قابل للاستنشاق، وربما نصل اذا واصلنا الصعود إلى الأعلى إلى منطقة ينعدم فيها الهواء اللازم للتنفس بالمرّة، فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد طي تلك المسافة الطويلة والبعيدة في أعالي الجو أن يعيش بدون وجود الاوكسجين؟!

٣- إنَّ الأشعة الفضائية، والاحجار السماوية والشهب الكثيرة المتطايرة إذا اصطدمت بأي جسم أرضي أبادته، وأفنته، ولكنها عندما تصطدم بالغلاف الغازي المحيط بالأرض تتلاشى وتصبح كالبودر ولا تصل إلى الأرض، فيكون

الغلاف الغازي في الحقيقة بمثابة درع يقي سُكَّان الأرض من خطر تلك القذائف المهلكة.

ومع هذه الحالة كيف تهباً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَصُونَ نَفْسَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَشْعَةِ الْفَضَائِيَّةِ، وَالْأَحْجَارِ السَّمَاوِيَّةِ؟!!

٤ - إِذَا قَلَّ ضَغْطُ الْهَوَاءِ عَلَى جِسْمِ الْإِنْسَانِ فَزَادَ أَوْ نَقَصَ اخْتَلَّتْ حَيَاتُهُ الطَّبِيعِيَّةُ، فَهُوَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَعِيشَ تَحْتَ ضَغْطِ مَعِينٍ مِنَ الْهَوَاءِ، لَا يَوْجَدُ فِي الطَّبَقَاتِ الْعُلْيَا مِنَ الْجَوِّ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْحَالُ هَذِهِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَى حَيَاتِهِ فِي أَعَالِي الْفَضَاءِ؟!!

٥ - إِنَّ سُرْعَةَ الْحَرَكَةِ الَّتِي سَارَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا رَيْبَ كَانَتْ تَفُوقُ سُرْعَةَ الْحَرَكَةِ الَّتِي يَسِيرُ بِهَا النُّورُ وَمَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ سُرْعَةَ النُّورِ هِيَ ٣٠/٠٠٠ كيلومتراً في الثانية، وَمَعَ الْعِلْمِ أَيْضاً أَنَّهُ ثَبِتَ فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ جِسْمٍ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِسُرْعَةٍ تَفُوقُ سُرْعَةَ النُّورِ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَسِيرَ بِسُرْعَةٍ تَفُوقُ سُرْعَةَ النُّورِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَرْضِ سَالِمَ الْجِسْمِ كَامِلَةً؟!؟!!

جوابنا:

وجوابنا هو: أننا إذا أردنا أن نناقش هذه المسألة على ضوء القوانين العلمية الطبيعية لتجاوز عدد الاعتراضات والاشكالات ما ذكرناه آنفاً.

ولكننا نقول في جواب هذا الفريق متساءلين: ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعية.

هل تريدون القول بأن السير في العوالم العليا أمرٌ غير ممكن، وممتنع ذاتاً وبالتالي أنه أمر محال.

فإننا نقول - حينئذ - في الجواب على ذلك بأن الجهود والتحقيقات العلمية التي بذلها علماء الفضاء في الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر - ولحسن الحظ - أمراً ممكناً، وعادياً، لأن مع إطلاق أول قمر اصطناعي عام (١٩٥٧م) إلى السماء

والذي اسماه علماء الفضاء بـ«اسپوتنيك» اتضح أنه يمكن إبطال مفعول جاذبية الأرض بواسطة الصاروخ، كما أن إرسال السفن الفضائية الحاملة للرواد الفضاء من البشر بواسطة الصاروخ أوضح أنّ ما كان يُعده البشر مانعاً من الصعود الى الأعلى في الفضاء، قد أصبح قابلاً لرفعه وإزالته، والتخلّص منه بيد العلم والتكنولوجيا.

إنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء مثل مشكلة الشهب والنيازك المتطايرة في الجوّ ومشكلة الاشعة الفضائية، ومشكلة إنعدام الغاز اللازم للتنفس .. و.. وهاهو علم ارتياد الفضاء في حال توسع مستمرّ وان العلماء أصبحوا الآن يثقون بأنهم سرعان ما يتمكنون من مدّ بساط الحياة والعيش في إحدى الكرات السماوية والسفر إلى إحدى الكواكب كالقمر والمريخ بسهولة كبرى!^(١)

إنّ هذه الأحداث العلمية وهذا التقدّم التكنولوجي في مجال ارتياد الفضاء شاهدٌ قويٌّ على أنّ هذا العمل أمرٌ ممكنٌ مائة بالمائة، وليس من الأمور المستحيلة. وإذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو انه لا يمكن القيام بمثل هذه الرحلة من دون أجهزة علمية وتكنولوجية، ولم يكن رسول الله صلّى الله عليه وآله يملك في تلك الليلة مثل هذه الأجهزة فكيف طوى تلك المسافات وطاف

(١) بعد اطلاق الاقمار والسفن الاصطناعية لأوّل مرة يوم الأربعاء ابريل عام ١٩٦١ بدأ الضابط الروسي (٢٧ سنة) جاجارين رحلته الفضائية في سفينة فضائية. وكان أوّل إنسان أقدم على هذه الرحلة الفضائية، وابتعدت سفينته ٣٠٢ كيلومتراً عن سطح الأرض، ودارت دورة واحدة حول الكرة الأرضية في ساعة ونصف.

وبعد ذلك أقدمت أمريكا والاتحاد السوفيتي على ارسال السفن الفضائية إلى الفضاء في محاولة لغزو القمر حتى حظّت «أبولو» الحاملة لـ ١١ رائداً فضائياً على سطح القمر لأول مرة، وكان هذا أوّل مرة يحط فيها إنسان قدمه على أرض القمر.

وقد تكررت تجربة هذا البرنامج الفضائي فيما بعد مرات ومرات، وكانت ناجحة على الاغلب. وكل هذه الجهود والنتائج تكشف عن أن هبوط الانسان على سطح الكرات والكواكب أمرٌ ممكن، وما يستطيع البشر فعله عن طريق العلم يقدر الله خالق البشر على فعله بإرادته النافذة.

على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيلة نقلٍ من هذا القبيل؟! فاننا نقول في معرض الاجابة على اعتراضهم هذا بأن جواب هذا الاعتراض يتضح من الابحاث التي سبقت منا حول معاجز الأنبياء وخصوصاً بحثنا المفصل حول حادثة عام الفيل وهلاك جيش أبرهة العظيم بالأحجار الصغيرة، لأنه من المسلّم أنّ ما يستطيع البشر فعله عن طريق الأدوات والآلات العلمية الصناعية يستطيع الأنبياء فعله بعناية الله تعالى، وإقداره وبدون الأسباب الظاهرية والخارجية.

لقد عرج رسول الاسلام صلى الله عليه وآله الى السماء بعناية وباقدار الله الذي خلق الوجود كله، وأقام هذا النظام البديع برمته، فهو الذي أعطى للأرض جاذبيتها، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهواء، وأنواع الغازات في الجو، ومتى أراد أخذها وانتزاعها منها، أو كبح جماحها، وردّ عاديّتها.

فاذا تحقق معراج النبي الاكرم محمد صلى الله عليه وآله في ظلّ العناية الالهية فإنّ من المسلّم ان جميع النواميس تخضع أمام قدرته القاهرة، وارادته الغالية، وهي طوع إرادته، والسموات والأرض مطويات يمينه. والجميع في قبضته ورهن اشارته دائماً وأبداً، وفي كل حين وأوان.

وعلى هذا فإذا يمنع من أن يعمل الله الذي منح للأرض جاذبيتها، وللأجرام السماوية أشعتها، على إخراج عبده المصطفى بقدرته المطلقة ومن دون الاسباب الظاهرية، من مركز الجاذبية الأرضية، ويصونه من أخطار الاشعة الكونية، وأن يعتمد خالق كل هذا القدر الهائل من الاوكسيجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنبته في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء، وهذا هو معنى قولهم: «إِنَّ اللَّهَ مَسْبَبُ الْأَسْبَابِ وَمَعْظَلُّ الْأَسْبَابِ».

ان أمر المعجزة يختلف ويفترق أساساً عن أمر العلل الطبيعية والقدرة البشرية.

ونحن يجب أن لانقيس قدرة الله المطلقة بقدرتنا المحدودة، فاذا كنا لانقدر

على شيء من دون الأسباب لم يصح أن نقول: ان القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الاسباب الطبيعية أيضاً.

إنَّ إحياء الموتى، وقلب العصا إلى ثعبان، وإبقاء يونس حياً في بطن الحوت، في قعر البحار، مما صدقته جميع الكتب السماوية ونقلته إلينا لا تقل إشكالاً ولا تختلف جواباً عن قصة المعراج النبوي.

وخلاصة القول: ان جميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخرة لله تعالى خاضعة لارادته، مطيعة لأمره وارادته يمكن تعلقها بكل شيء إلا بالأمر المحال، وأما غير ذلك أي ما يكون ممكناً بالذات مهما كان، فإنه قابل لأن يتحقق في ظل ارادة الله ومشئته سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أن حديثنا هذا موجّه الى مَنْ آمن بالله، وعرف ربه بصفاته الخاصة به تعالى، وبالتالي آمن بالله الأزلي على أنه القادر على كل شيء.

الهدف من المعراج:

لقد بينت الاحاديث - بعد الآيات - الغرض من المعراج واليك طائفة من هذه الاحاديث.

١ - يقول ثابت بن دينار سألت الامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان فقال: «تعالى الله عن ذلك».

قلت: فلم أسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وآله إلى السماء؟

قال: «لِئْرِيَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ صَنْعِهِ وَبِدَائِعِ خَلْقِهِ».

٢ - وقال يونس بن عبدالرحمان قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه

السلام لأتّي عِلّةَ عرج الله بنبيّه إلى السماء ومنها إلى «سدرة المنتهى»، ومنها إلى «حجب النور» وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟^(١).

فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَكِنَّهُ

(١) علل الشرائع: ص ٥٥، البحار: ج ١٨ ص ٣٤٧ و ٣٤٨، تفسير البرهان: ج ٢ ص ٤٠٠.

عزوجل أرادَ ان يُشْرِفَ به مَلَائِكَتَهُ، وسَكَانَ سَمَاوَاتِهِ، وَيَكْرَمَهُمْ بِمَشَاهِدَتِهِ، وَيُثْرِيَهُ مِنْ عَجَائِبِ عَظَمَتِهِ مَا يَخْبِرُ بِهِ بَعْدَ هُبُوطِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ»^(١).

أجل يجب أن يكون لرسول الاسلام وخاتم الأنبياء مثل هذا المقام العظيم ومثل هذه المنزلة السامقة، ليقول للبشرية العائشة في القرن العشرين، والتي أصبحت تفكر في الهبوط على «المريخ» و«الزهرة» وغيرها من الانجم البعيدة: بانني قد فعلت هذا من دون أية وسيلة، وأن ربي قد منَّ عليّ وعرفني على نظام السماوات والأرض، وأطلعني بقدرته وبعنايته على أسرار الوجود، ورموز الكون.

(١) علل الشرائع: ص ٥٥، البحار: ج ١٨ ص ٣٤٧ و ٣٤٨، تفسير البرهان: ج ٢ ص ٤٠٠.

سفرة إلى الطائف

انقضت السنة العاشرة بكل حوادثها الحلوة والمرّة، فان رسول الله صلى الله عليه وآله فقد في هذا العام حاميه الكبيرين المتفانيين في سبيله، ففي البداية فقد كبير بني عبدالمطلب وسيدهم، والمدافع الوحيد عن حوزة الرسالة الاسلامية، والذات بالاخلاص عن حياض الشريعة المحمدية، والشخصية الاولى في قريش اعني «أبا طالب» عليه السلام.

ولم تمنح آثار هذه المصيبة المرّة عن خاطر النبي صلى الله عليه وآله بعد إلا وفاجاته مصيبة وفاة زوجته الوفية العزيزة، السيدة خديجة الكبرى التي جدت برحيلها عنه أحزان النبي وآلامه الروحية^(١).

لقد حامي أبو طالب ودافع عن النبي صلى الله عليه وآله وحافظ على حياته وسلامته ومكانته، وبينما ساعدت خديجة بثروتها الطائلة في نشر الاسلام وقدمت في هذا السبيل خدمات عظيمة لا تنسى.

من هنا سمى رسول الله صلى الله عليه وآله تلك السنة بعام الحداد، او

(١) جاء في تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٠١ انه قيل بأن «خديجة» توفيت بعد «أبي طالب» بشهر وخمسة أيام، بينما ذهب آخرون مثل ابن الأثير في الكامل ج ٢ ص ٦٣ الى أن السيدة خديجة توفيت قبل أبي طالب، لا بعده.

الحزن (١)

ومنذ أن توفى الله هذين الحاميين العظيمين والمدافعين القويين عن النبي صلى الله عليه وآله واجه رسول الله صلى الله عليه وآله ظروفاً صعبة جداً قلما واجهها من قبل.

فقد واجه رسول الله صلى الله عليه وآله منذ حلول السنة الحادية عشر جواً مفعماً بالعداء له، والحقده عليه، وصارت الاخطار تهدد حياته الشريفة في كل لحظة، وقد فقد كل الفرص لتبليغ الرسالة وكل امكانيات الدعوة الى دينه.

يقول ابن هشام في هذا الصدد: ان «خديجة بنت خويلد» و«أبا طالب» هلكا (اي توفيا) في عام واحد فتابعت على رسول الله صلى الله عليه وآله المصائب بهلك خديجة وكانت له وزيرة صدق على الاسلام... وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً، وحرزاً في أمره، ومنعةً وناصرأ على قومه وذلك قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وآله من الأذى مالم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفية من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

ولما نثر ذلك السفية على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك التراب دخل رسول الله صلى الله عليه وآله بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول لها:

«لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك».

ويقول بين ذلك:

«مانالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»^(٢).

ولأجل تزايد الضغط والكبت هذا قرر النبي صلى الله عليه وآله أن ينتقل

(١) تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٠١، السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤١٥ و ٤١٦، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٥ عن إعلام الوري عن محمد بن

من المحيط المكي إلى محيط آخر يتسنى له تبليغ رسالته.
وحيث أنّ الطائف كانت تعتبر آنذاك مركزاً هاماً، لذلك رأى رسول الله
صلى الله عليه وآله ان يسافر لوحده الى الطائف، ويجري بعض الاتصالات مع
زعماء قبيلة ثقيف وساداتها ويعرض دينه عليهم علّه يحرز نجاحاً ويكسب انصاراً
جدداً لرسالته من هذا الطريق.

ولما انتهى صلى الله عليه وآله الى الطائف عمد الى نفر من قبيلة «ثقيف»
هم يومئذ سادة ثقيف واشرافهم، وجلس صلى الله عليه وآله إليهم، ودعاهم إلى
الله، فلم يؤثر فيهم كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا له: لئن كنت
رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظمُ خطراً من أردّ عليك الكلام، ولئن كنت
تكذب على الله ما ينبغي لي ان اكلمك!!

فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله من زدهم الصبياني أنهم يحاولون
التملص من قبول الدعوة واعتناق الاسلام، فقام صلى الله عليه وآله من عندهم
بعد ان طلب منهم أن يكتبوا ماجرى في هذا اللقاء خشية أن يعرف سفهاء
ثقيف فيتجرأوا عليه ويتخذوا ذلك ذريعة لاستغلال غربته ووحده، ومن ثم
إيذائه، فوعده بالكتمان، ولكنهم -وللاسف- لم يحترموا وعدهم هذا الذي أعطوه
لرسول الله صلى الله عليه وآله وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، وفجأة وجد رسول
الله صلى الله عليه وآله نفسه محاطاً بجمع كبير من اولئك السفهاء يسبونه
ويصيحون به حتى اجتمع الناس، وأجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة
وهما فيه في تلك الساعة، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى
ظلي فجلس فيه وهو يتصبب عرقاً، وقد الحقوا الاذى بمواضع عديدة من بدنه
الشريف ورجلاه تسيلان من الدماء، وابنا ربيعة ينظران اليه، ويريان مآلتي من
سفهاء أهل الطائف، وقد كانا من أثرياء قريش، يومئذ.

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وآله توجه الى ربه وناجاه قائلاً:
«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ،
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلِّمْنِي، إِلَى

بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكَتُهُ أَمْرِي؟

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي.
أَعُوذُ بِثُورِ وَجْهِكَ الَّذِي اشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَجِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ.
لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١).

هذه الكلمات وهذا الدعاء هي استغاثة شخصية عاش خمسين سنة عزيزاً
مكرماً في ظلّ حماية من دافعوا عنه بصدق واخلص ودفعوا عنه كل اذى ولكنه
الآن يضيق عليه رحب الحياة حتى يلجأ الى حائط عدوٍ من اعدائه، ويجلس في
ظل شجرة، مكروباً موجعاً ينتظر مصيره.

فلما رآه ابنا ربيعة «عتبة وشيبة» وكانا من الوثنيين ومن اعداء الاسلام،
وشاهدوا مالتي من الأذى والعذاب، رَقَا لَهُ فَدَعُوا غَلَامًا لَهَا نَصْرَانِيًّا مِنْ أَهْلِ
نَيْنَوَى يُقَالُ لَهُ «عَدَّاسُ» فَقَالَا لَهُ: خَذْ قِطْفًا مِنَ الْعَنْبِ فَضَعَّهُ فِي هَذَا الطَّبَقِ ثُمَّ
اذْهَبْ بِهِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ يَا كَلَّ مِنْهُ، فَفَعَلَ عَدَّاسُ، ثُمَّ أَقْبَلَ بِالْعَنْبِ حَتَّى
وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُلْ، فَلَمَّا وَضَعَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيهِ يَدَهُ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».
فَتَعَجَّبَ عَدَّاسُ مِنْ ذَلِكَ بِشِدَّةٍ وَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ
الْبِلَادِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمِنْ أَهْلِ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ وَمَا دِينُكَ؟
قَالَ: أَنَا نَصْرَانِيٌّ، مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: مِنْ مَدِينَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى.

فَقَالَ لَهُ عَدَّاسُ: وَمَا يَدْرِيكَ مَا (مَنْ) يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ^(٢): ذَلِكَ أَخِي كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ،

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٢٠.

(٢) وفي رواية البحار ج ١٩ ص ٦ جملة اعتراضية هنا: - وكان لا يحقر أحداً أن يبلغه رسالة ربه.-

والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى.

فأكبَّ عداس على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ رَأَى فِي كَلِمَاتِهِ عَلاَئِمَّ الصَّدَقِ وَأَيَّاتِ الْحَقِّ، وَجَعَلَ يَقْبَلُ رَأْسَهُ وَيَدِيَهُ، وَقَدَمِيَهُ، وَهَمَّا تَسِيلَانِ مِنَ الدَّمَاءِ، وَأَمَّنْ بِهِ، ثُمَّ عَادَ بَعْدَ الْإِسْتِئْذَانِ مِنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى صَاحِبِيهِ فِي الْبِسْتَانِ.

فتعجب ابنا ربيعة لهما رأياه في غلامهما عداس من الانقلاب الروحي العجيب، وسألاه قائلين: ويلك يا عداس مالك قبّلت رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه وماذا قال لك؟!!

فاجابها الغلام قائلًا: يَا سَيِّدَيَّ مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا، هَذَا رَجُلٌ صَالِحٌ لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرٍ مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ.

فشقَّ كلامُ عداس على إبنِي ربيعة، وقالوا له بنبرة الناصح له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك هذا الرجلُ عن دينك، فان دينك خير من دينه!!^(١)

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَعُودُ إِلَى مَكَّةَ:

انتهت ملاحقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَلْجُوئُهُ إِلَى حَائِطِ ابْنِي ربيعة، وكان عليه الآن، وبعد أن يئس من خير ثقيف ان يعود إلى مكة، ولكنَّ عودته إلى مكة لم تكن لتخلو عن مشاكل، لأنه قد فقد نصيره وحاميه ومدافعه الأكبر والواحد فكان من المحتمل جداً أن يقبض عليه المشركون ويسفكوا دمه.

فقرر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ان يبقى في منطقة «نخلة» (وهي واد بين الطائف ومكة) بعض الوقت.

لقد كان يريد أن يرسل أحداً إلى شخصية من شخصيات قريش يطلب منها ان تحجيره حتى يدخل مكة بجوار، ولكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يجد من يقوم له بهذه المهمة. فترك «نخلة» إلى حراء، وهناك التقى رجلاً خزاعياً وطلب منه أن

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤١٩-٤٢١، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٦ و ٧ و ٢٢ مع اختلاف يسير.

يأتي «المطعم بن عدي» بمكة، وكان من الشخصيات المكية البارزة ويسأله أن يجيز رسول الله ليدخل مكة في أمان من اذى قريش وكيدها.

فدخل الخزاعي مكة، وأبلغ المطعم ماطلبه منه رسول الله صلى الله عليه وآله فقبل المطعم -رغم كونه وثنياً مشركاً- ان يجيز رسول الله صلى الله عليه وآله فقال للخزاعي: ائته فقل له: إني قد أجرتك فتعال.

فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة ليلاً ونزل في بيت مطعم مباشرة، وبات ليلته هناك، ولما طلعت الشمس من صبيحة غد قال مطعم لرسول الله صلى الله عليه وآله: لتعلمن قريش بانك في جوارنا، فاصحبنا إلى البيت، ليروا جوارنا.

فاستحسن النبي صلى الله عليه وآله رأيه فاخذ المطعم وأهل بيته السلاح ودخلوا مع النبي صلى الله عليه وآله في المسجد الحرام، وكان ورودهم في المسجد بهيئة رائعة.

وكان أبو سفيان قد كمن للنبي صلى الله عليه وآله ليكيدبه، فلما رأى هذا المشهد المهيب غضب غضباً شديداً، وانصرف عن ايداء رسول الله صلى الله عليه وآله، فجلس المطعم وولده وأختانه واخوه، وطاف رسول الله بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله.^(١)

ولم يمض على هذه الحادثة زمان طويل حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٨١، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٧ و ٨. ويستبعد بعض المحققين ان يكون رسول الله صلى الله عليه وآله قد طلب الجوار من مشرك أو دخل في جوار مشرك، على غرار عدم قبوله الهدية من المشرك وذكر لذلك ادلة ووجوها.

ولكن يمكن الاجابة على هذا بأن الاجارة كانت امراً عادياً في ذلك العصر، ولم يكن فيها ما يوجب شيئاً على رسول الله صلى الله عليه وآله ولم تستلزم منه عليه.

ثم ما المانع في مثل هذا الجوار لوترتبت عليه مصالح عليا، كتمكين رسول الله صلى الله عليه وآله من الدخول بسلام الى مكة، وتمكته من القيام بمهامه الرسالية، خاصة ان هذا الجوار لم يستغرق إلا يوماً أو بعض يوم وتستى بعده لرسول الله صلى الله عليه وآله ترتيب اوضاعه في مواجهة الاخطا التي كانت تهدده من جانب المشركين بمكة.

وآله من مكة إلى المدينة، وتوفي المطعم في أوائل الهجرة في مكة، ولما بلغ رسول الله نبأ موته تذكر صلى الله عليه وآله إحسانه وجواره، وانشأ حسان بن ثابت شاعر الاسلام شعراً يمدحُه فيه تقديراً لخدمته.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتذكره كثيراً، حتى انه تذكره في واقعة «بدر» التي انهزمت فيها قريش وعادت منكسرة الى مكة بعد أن خسرت كثيراً من رجالها واسر منها عدد كبير، فتذكر مطعم بن عدي ثمة وقال صلى الله عليه وآله:

«لو كان مطعم بن عدي حياً لوهبت له هؤلاء»^(١).

نقطة هامة:

إن سفر النبي صلى الله عليه وآله الى الطائف يكشف عن اصراره في اداء رسالته واستقامته وصبره صلى الله عليه وآله كما ان تذكره لإحسان مطعم في المواقع المناسبة يقودنا إلى خصاله الحميدة وسجاياه الفاضلة، وخلقه العظيم. ولكن الأهم من هذا وذاك هو أننا نستطيع من خلال هذا تقييم خدمات أبي طالب القيمة، ومعرفة أهميتها الكبرى عند رسول الله صلى الله عليه وآله، بمقايستها مع ما فعله مطعم.

فإن مطعم لم يفعل شيئاً إلا أن اجار رسول الله صلى الله عليه وآله وحماه يوماً او بعض يوم.

بينما حذب أبو طالب على رسول الله صلى الله عليه وآله ودافع عنه وخدمه عمراً كاملاً، ولقى في سبيله من المحن والمتاعب ما لم يلق مطعم منها ولا شيئاً ضئيلاً. فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلن عن استعدادده للافراج عن جميع الاسرى في «بدر» تقديراً لما قام به مطعم من اجارة بسيطة قصيرة، فإذا

(١) المغازي للواقدي: ج ١ ص ١١٠ ثم قال الواقدي: وكانت لمطعم بن عدي عهد النبي صلى الله عليه وآله اجارة حين رجع من الطائف، طبقات ابن سعد: ج ١ ص ٢١٠ و ٢١٢، البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٣٧.

عساهُ أن يقوم به تجاه ما أسداه إليه عمه وحاميه وكافله الاكبر والأوحد أبو طالب من خدمات طوال اكثر من اربعين عاماً؛ أنه يجب ان يكون لمثل هذا الشخص العظيم الذي كفل صاحب الرسالة وقام بشؤونه مدة أربعين عاماً بايامها ولياها ودافع عنه في السنوات العشر الاخيرة وهي جلُّ عمر الرسالة الاسلامية في الفترة المكية إلى درجة ان عرض راحته وسلامته بل حياته وحياة أبنائه لخطر الموت دفاعاً عن حياض الرسالة، وحمايةً لصرح النبوة، مقاماً عظيماً ومنزلة كبرى عند قائد البشرية، ومعلم الانسانية، وهادياً العظيم.

كيف لا؛ والفرق بين هذين الشخصين كبير، والبون شاسع، فطعم رجل وثني مشرك، بينما يعتبر أبو طالب واحداً من كبار الشخصيات الاسلامية العظيمة بلا جدال.

الدعوة في أسواق العرب:

كانت العرب تجتمع - في مواسم الحج - في نقاط مختلفة مثل: «عكاظ» و«المجنة» و«ذي المجاز»، وكان الشعراء والخطباء العرب البارعون يقفون في هذه المناطق على أماكن مرتفعة ويلهون فريقاً من الناس بما يلقونه عليهم من خطب وقصائد تدور في الأغلب حول الحرب والقتال، والتفاخر، والعشق.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله شأن كل الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه يستغل هذه الفرصة - كغيرها - لابلغ رسالة ربه الى الناس، ولم يكن لاحدٍ منعه او الكيد به لحرمة القتال والجدال في الاشهر الحرم.

من هنا كان صلى الله عليه وآله اذا حلّ الموسم وقف على مكان مرتفع وخاطب الناس قائلاً:

«قُولُوا لآلِهَةِ اللَّهِ تَفْلِحُوا وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ وَتَذِلُّ لَكُمْ الْعَجَمُ، وَإِذَا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ»^(١).

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢١٦.

دعوة رؤساء القبائل في مواسم الحج:

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلتقي في مواسم الحج في هذه النقاط برؤساء القبائل العربية واشرافها، ويقف على منازلهم منزلاً منزلاً، ويعرض دينه عليهم، ويدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل^(١).

وربما مشي خلفه عمه «أبو لهب» فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله وما دعا به قال أبو لهب فوراً للناس: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

وقد قدمت جماعة من بني عامر إلى مكة فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الاسلام، وعرض عليهم نفسه، فقبلوا أن يعتنقوا الاسلام إلا أنهم اشترطوا عليه أن يكون إليهم خلافته من بعده إذ قالوا: أرايت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أياكون لنا الأمر من بعدك؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء».

فرفضوا اعتناق الاسلام والإيمان بالله ورسوله.

ثم لما عادوا إلى أوطانهم رجعوا إلى شيخ لهم طاعن في السن لم يقدر أن يجع معهم وكان ذا بصيرة وفهم فحدثوه بما جرى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: جاءنا فتى من قريش من بني عبدالمطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى ان نمنع^(٢) ونقوم معه.

فوضع الشيخ يديه على رأسه ووبخهم على رفضهم لدعوة الرسول وقال:

(١) قال ابن هشام: كان صلى الله عليه وآله لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا

تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.

(٢) أي نحمة.

يا بني عامر والذي نفسُ فلان بيده ماتت قَوْلُهَا اسماعيلُ قَط (١)، وإِنَّهَا لِحَقٌّ، فاين رأيكم كان عنكم؟! (٢)

ان هذه القضية التاريخية تفيد - في ماتفيد - بان مسألة الخلافة والامامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أمر تنصيبي، تعييني، لانتخابي، أي ان تعيين الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يعود إلى الله تعالى، ولا خيار للناس فيه، وإنما عليهم الطاعة والرضا.

(١) أي ما ادعى النبوة كاذباً احدٌ من بني اسماعيل.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٢٤ و ٤٢٥.

بيعة العقبة

كان (وادي القرى) في ماضى من الزمن طريق التجارة من اليمن الى الشام، فكانت القوافل التجارية القادمة من اليمن تدخل وادياً طويلاً يدعى بوادي القرى بعد العبور بالقرب من مكة، وكانت المناطق الواقعة على طول هذا الوادي مناطق خضراء، ومن هذه المناطق مدينة قديمة كانت تدعى بـ: يثرب والتي عرفت فيما بعد بمدينة الرسول.

وقد سكن في هذه المدينة منذ اوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتا: «الايوس والخزرج» اللتان كانتا من مهاجري عرب اليمن (من القحطانيين). وكان يعيش الى جانبهم الطوائف اليهودية الثلاث المعروفة: «بنو قريظة» و«بنو النضير» و«بنو قينقاع» الذين كانوا قد هاجروا اليها من شمال شبه الجزيرة العربية واستوطنوها.

وكان يقدم الى مكة كل عام جماعة من عرب يثرب للاشتراك في مراسم الحج، وكان النبي صلى الله عليه وآله يلتقي بهم في تلك المواسم، ويجري معهم اتصالات.

وقد مهدت بعض هذه اللقاءات للهجرة، وصارت سبباً لتركز قوى الاسلام المتفرقة، في تلك النقطة.

على ان كثيراً من تلك الاتصالات وان لم تثمر ولم تنطو على أية فائدة فعلية إلا أنها تسببت في أن يحمل حجاج يثرب - لدى عودتهم - انباء ظهور النبي الجديد وينشروه في اوساط المدينة كأهم نبأ من انباء الساعة، ويلفتوا نظر الناس في تلك الديار الى مثل هذا الامر المهم والخطير.

ولهذا نقلنا هنا بعض اللقاءات والاتصالات التي تمت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وجماعات من اهل هذه المدينة في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة من البعثة لتتضح بدراسة هذه المطالب علة هجرة النبي الاكرم صلى الله عليه وآله من مكة الى يثرب، وتمركز قوى المسلمين في تلك المنطقة.

١ - كان رسول الله صلى الله عليه وآله كلما سمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف تصدى له، ودعاه الى الاسلام وعرض عليه ما عنده. وقد قدم مرة «سويد بن الصامت» فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وآله حين سمع به فدعاه الى الله والى الاسلام فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: وما الذي معك.
قال: مجلة لقمان يعني حكمة لقمان..

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله إعرضها على فعرضها عليه. فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا. قرآن انزلهُ اللهُ عَلَيَّ هو هدى ونور.

ثم تلا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله القرآن ودعاه الى الاسلام، فقال سويد إن هذا قولٌ حسن وآمن برسول الله صلى الله عليه وآله فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج فيما كان يتلفظ الشهادتين، وكان قتله قبل يوم بعث (١) (٢).

(١) بعث موضع كانت فيه حرب بين الاوس والخزرج. (٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٢٥ - ٤٢٧.

٢ - قدم «انس بن رافع» مكة ومعه فتية من بني عبد الاشهل فيهم «ياس بن معاذ» أيضاً، يلتمسون الحلف والنصرة على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول الله صلى الله عليه وآله فاتاهم وجلس اليهم وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟

فقالوا له: وما ذلك؟

قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب» ثم ذكر لهم الاسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال أياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً شهماً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له. فقد أدرك جيداً أن دين التوحيد يكفل كل حاجاتهم فهو دين شامل مبارك لأنه سيصهر الجميع في بوتقة الأخوة الواحدة فتزول عندئذ أسباب العداة والقتال، وبذلك ينهي كل مظاهر الحرب والتنازع، وكل مظاهر الفساد والتخريب فهو أفضل من طلب المساعدة العسكرية من قريش التي جاؤوا من أجلها إلى مكة، فأمن برسول الله صلى الله عليه وآله من دون ان يكسب رضا رئيس قبيلته «انس بن رافع» واستئذانه، ولهذا غضب أنس وأخذ حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعات بين الأوس والخزرج ولم يلبث إياس ان هلك، وقد سمعه قومٌ حضروا عند وفاته يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويستبجحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً، ولقد استشعر الاسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله ما سمع^(١).

وقعة بُعات:

كانت وقعة بُعات من الحروب التاريخية بين الأوس والخزرج، ففي هذه

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٢٧ و ٤٢٨.

الوقعة انتصر الأوسيون على منافسيهم، وأحرقوا نخيل الخزرجيين، ثم وقعت بعد ذلك حروب ومصالحات بينهم.

ولم يشترك «عبدالله بن أبي» وهو من أشرف الخزرج في هذه الوقعة من هنا كان موضع احترام من القبيلتين، وكاد الطرفان يفقدان مقاومتها بسبب تكرر الحروب، وتحمل الخسائر الثقيلة، ولهذا رغب الطرفان في عقد صلح بينهما يضع حداً لجميع أشكال العمليات العسكرية، والغزو والاقتتال، والثأر والانتقام، وأصرت القبيلتان على «عبدالله بن أبي» بان يقبل بقيادة عملية المصالحة هذه، بل وأعدوا له تاجاً يتوجونه به، حتى يصبح أميراً في وقتٍ معيّن، ولكن هذا المشروع تعرض للانحياز والسقوط وواجهت الفشل على أثر اعتناق جماعة من الخزرج الاسلام، ففي هذا الوقت بالذات التقى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة بستة اشخاص من رجال الخزرج ودعاهم الى الاسلام فأمنوا به، ولَبُوا دَعْوَتَهُ.

تفصيل الحادث:

خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الانصار وكانوا ستة انفار من الخزرج فقال لهم: أمين موالي اليهود؟ وهل لكم حلف معهم.

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلِمكم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزوجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن، فحدثت كلمات النبي صلى الله عليه وآله في نفوسهم أثراً عجيباً، ومما ساعد على ذلك أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غزوه في بلادهم،

فكانوا إذا وقع بينهم نزاع وكان بينهم شيء قال اليهود لهم: إن نبياً مبعوث الآن، قد اظلم (أو اظلم) زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكانت اليهود تخبر بخروج نبي من العرب ينشر التوحيد، وتنتهي على يديه حكومة الوثنية والشرك، قد قرب ظهوره.

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وآله أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض يا قوم: تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه.

فاجابوه فيما دعاهم إليه، بان صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشتم مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك^(١).

بيعة العقبة الأولى:

لقد أثرت دعوة هؤلاء الستة، الجادة في يثرب تأثيراً حسناً حيث سببت في إسلام فريق من اهل يثرب واعتناقهم عقيدة التوحيد.

فلما كان العام المقبل (أي السنة الثانية عشرة من البعثة) قدم مكة اثنا عشر رجلاً من اهل يثرب، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقبة، وانعقدت هناك أول بيعة اسلامية.

وابرز هؤلاء الرجال هم: أسعد بن زرارة، وعبادة بن الصامت، وكان نص هذه البيعة - بعد الاعتراف - بالاسلام والايان بالله ورسوله هو:

بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا ننزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بهتان نفتره من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف.

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٨٦، والسيرة النبوية: ج ١ ص ٤٢٧ و ٤٢٨، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٥.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزوجل إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

وهذه البيعة اصطلاح على تسميتها المؤرخون وكتاب السيرة ببيعة النساء، لأن النبي صلى الله عليه وآله أخذ البيعة من النساء في فتح مكة على هذا النحو^(١).

وعاد هؤلاء النفر إلى يثرب بقلوب مفعمة بالآيمان، مترعة بمحبة رسول الله صلى الله عليه وآله فعمدوا إلى نشر الإسلام، وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبعث لهم من يعلمهم الإسلام والقرآن، فبعث النبي صلى الله عليه وآله لهم «مصعب بن عمير» وأمره بأن يقرأهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة.

واستطاع هذا المبلغ القدير، وهذا الداعية النشيط أن يجمع المسلمين بفضل عمله الدؤوب والحكيم، وتبليغه الصحيح في غياب رسول الله صلى الله عليه وآله، ويؤتمهم، ويصلي بهم^(٢).

بيعة العقبة الثانية:

لقد أحدث تقدم الإسلام في يثرب هيجاناً كبيراً وشوقاً عجباً في نفوس المسلمين من أهلها، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسم الحج، ليقدّموا مكة، ويلتقوا برسول الله صلى الله عليه وآله عن كعب، ويظهروا له عن استعدادهم لتقديم ما يطلب منهم من خدمة وعمل، وليستطيعوا توسيع نطاق البيعة من حيث الكم ومن حيث الكيف.

وأخيراً حل موسم الحج فخرجت قافلة كبيرة من أهل يثرب للحج تضم خمسمائة نفرًا فيهم ثلاث وسبعون من المسلمين من بينهم امرأتان، والباقي إما راغبون في الإسلام، وأما غير مكترث به، حتى قدموا مكة، والتقوا برسول الله

(١) والتي جاء ذكرها في الآية ١٢ من سورة المتحنة.

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٣٤، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٥.

صلى الله عليه وآله فواعدهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقبة للبيعة اذا قال: «موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق».

فلما كانت الليلة الثالثة عشرة من شهر ذي الحجة وهي التي واعدهم رسول الله صلى الله عليه وآله فيها باللقاء، ونام الناس حضر رسول الله صلى الله عليه وآله مع عمه «العباس بن عبدالمطلب» قبل الجميع، وخرج المسلمون من رحالهم يتسللون تسلل القطامستخفين بعد أن ناموا مع قومهم في رحالهم، ومضى ثلث الليل لكيلا يحسوا بخروجهم، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، ولما استقر المجلس بالجميع، كان أول متكلم هو: العباس بن عبدالمطلب فقال واصفاً منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله: يامعشر الخزرج - وكانت العرب تسمى هذا الحي من الانصار الخزرج خزرجها وأوسها- إن محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد متعنأه من قومنا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الإنحياز اليكم، واللحوق بكم، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده.

فقال الحضور: قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله، فخذ لنفسك ولربك ماأحببت.

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الاسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فقام البراء بن معرور وأخذ بيد النبي صلى الله عليه وآله وقال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أئربنا^(١) فبايعنا يارسول الله فنحن والله

(١) الملاحظ في هذه البيعة انها كانت بيعة للدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وليس بيعة للجهاد في سبيل الله، ولهذا فان رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقدم على القتال في بدر إلا بعد ان كسب موافقة الانصار ورضاهم.

ابناء الحروب واهل الحلقة (اي السلاح) ورثناها كابراً عن كابر.
فدب في الحضور حماس وسرور عظيم وتعالّت الاصوات والنداءات من
الخنزرجيين والتي كانت تعبيراً عن شدة حماسهم، وسرورهم لهذا الأمر، فقال
العباس وهو آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي هذا الاثناء نهض «البراء بن معرور» و«أبو الهيثم بن التيهان» و«أسعد
بن زرارة» من مواضعهم وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله ثم بايعه بقية
القوم جميعاً.

وقد قال ابن التيهان عند مبايعته للنبي صلى الله عليه وآله يارسول الله إن
بيننا وبين الرجال (اي اليهود) حبلاً (وعلاقات) وأنا قاطعوها، فهل عسيت
إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: «بل الدّم الدّم، والهدم الهدم
احارب من حاربتم واسالم من سالمتم» يعني أنه سيبقى على العهد، ولا يتركهم
وكانت العرب تقول عند عقد الحلف: دمي دمك، وهدمي هدمك، وهي كناية
عن البقاء على العهد واحترام الميثاق والحلف.

ثم ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اخرجوا إليّ منكم اثني عشر
نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم^(١).

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً فقال صلى الله عليه وآله لاولئك النقباء: «انتم
على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على
قومي (يعني المسلمين) فأبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم
وأبناءكم».

فقالوا: نعم وبايعوه على ذلك .

وكان النقباء الذين اختيروا لذلك تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وقد
ضبطت أسماءهم وخصوصياتهم في التاريخ.

وبعد أن تمت مراسم البيعة وعدهم رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يهاجر إليهم في الوقت المناسب، ثم ارفض الجمع وعاد القوم إلى رحالهم^(١).

أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة:

والآن ينبغي أن نجيب بالتفصيل على السؤال الذي يطرح نفسه هنا وهو: ما الذي دعى أهل يثرب الذين كانوا بعيدين عن مركز ظهور الاسلام إلى ان يستجيبوا لنداء الرسول صلى الله عليه وآله ويأخذوا بتعاليمه اسرع من المكين مع ما كان بين المكين وبين رسول الله صلى الله عليه وآله من القرابة القريبة؟!؟

وكيف تركت تلك اللقاءات الممدودة القصيرة بأهل يثرب آثاراً تفوق الآثار التي تركتها الدعوة المحمدية خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة؟! إن علة هذا التقدم يمكن اختصارها وحصرها في أمرين: أولاً: أن اليثريين جاوروا اليهود سنياً عديدة وطويلة قبل الاسلام، وكثيراً ما كانوا يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم عن النبي العربي الذي يظهر، ويأتي بدين جديد.

حتى أن اليهود كانوا يقولون: للوثنيين إن هذا النبي سيقم دين اليهود وينشره، ويمحي الوثنية ويقضي عليها بالمرّة.

فتركت هذه الكلمات أثراً عجيباً في نفوس أهل يثرب، وهيات قلوبهم لقبول الدين الذي كان يخبر عنه يهودٌ وينتظرونه، بحيث عندما التقى الانفار الستة من أهل المدينة إلى الايمان برسول الله صلى الله عليه وآله لأول مرّة، بادروا إلى

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٥ و ٢٦، السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٤١ - ٤٥٠، الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣.

وفي رواية أخرى في البحار: ج ١٩ ص ٤٧، كما اخذ موسى من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً وقد كان هذا العجل النبوي حكيماً جداً لان عامة الناس لا يمكن التعويل والاتكال على التزاماتهم بل لابد من الاعتماد - ضمناً - على رموز المجتمع ومفاتيحه وهم وجوه القوم وسراتهم.

الايان به من غير ابطال ولا تاخير بعد ان قال بعضهم لبعض: والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه.

ومن هنا فان مما يأخذه القرآن على اليهود هو: أنكم كنتم تهددون الوثنيين بالنبي العربي، وتبشرون الناس بانه سيظهر، وانهم قرأوا أوصافه وعلائمه في التوراة، فلماذا رفضوا الإيمان به لما جاء صلى الله عليه وآله.
يقول تعالى:

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ»^(١).

ثانياً: إن العامل الأخير الذي يمكن اعتباره دخيلاً في التأثير في نفوس الثريين وسرعة إقبالهم على الإسلام وتقبلهم لدعوة النبي صلى الله عليه وآله هو التعب والارهاق الذي كان اهل يثرب قد أصيبوا به من جراء الحروب الطويلة الدامية فيما بينهم والتي استمرت مائة وعشرين عاماً والتي انهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقى من رفقهم، وجعلتهم يملون الحياة، ويفقدون كل أمل في تحسن الأحوال والاضاع.

وإن مظالعة وقعة «بُعث» وهي -حرب وقعت بين الأوس والخزرج- وحدها كفيلة بأن تجسد لنا الوجه الواقعي الذي كان عليه سكان تلك الديار. ففي هذه الوقعة انهزم الاوسيون على يد الخزرجيين، فهربوا الى «نجد»، فعيرهم الخزرجيون بذلك، فغضب «الحضير» سيد الأوس، لذلك غضباً شديداً، فطعن فخذ برمحه لشدة انزعاجه وغضبه، وترجل عن فرسه وصاح بقومه قائلاً: والله لا أقوم من مكاني هذا حتى أقتل!! فأوقد صمود «الحضير» وثباته نار الحمية والغيرة واشعل روح الشهامة والبسالة في قومه، فقررروا الدفاع عن حقهم مهما كلفهم الامر، فقاتلوا أعداءهم مستميتين، والمستمت منتصر لا محالة، فانتصر

الأوسويون المغلوبون، هذه المرة، وهزموا الخزرج هزيمة نكراء واحرقت مزارعهم ونزل بهم منازل على يد الاوسيين!!^(١).

ثم تابعت الجروب والمصالحات بعد ذلك، وكانت القبيلتان تتحلمان في كل مرة خسائر كبرى، جعلتهم يواجهون عشرات المشاكل التي حولت حياتهم الى حياة مضنية متعبة جداً.

من هنا لم تكن كلتا القبيلتين راضيتين على أوضاعهما، وكانتا تبحثان عن مخلص ممامها فيه، من الحالة السيئة، وتفتشان عن نافذة أمل، ومخرج من تلك المشاكل.

ولهذا وجد الخزرجيون الستة ضالتهم المنشودة عندما التقوا -ولاول مرة- رسول الله صلى الله عليه وآله وسمعوا منه ماسمعوا، فتمنوا أن يضعوا به حداً لاوضاعهم المتردية إذ قالوا له: عسى أن يجمعهم الله بك فان جمعهم الله بك فلا رجل أعز منك.

كانت هذه هي بعض الأسباب التي دعت اليثريين إلى تقبل الاسلام بشوقٍ ورغبةٍ وحماس.

ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة:

كانت قريش تغظ في نوم عميق وكانت تتصور بانها قد حدثت من تقدم الاسلام في مكة وانه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والاندحار، وأنه لن ينقضي زمانٌ إلا وتنطفئ جذوة الاسلام وتخمد شعلته، وتنمحي آثاره.

وفجأة استيقظت على دوي بيعة العقبة الثانية التي كانت بمثابة انفجار قلبت كل المعادلات، وأسقطت كل تصورات قريش الساذجة، وذلك عندما عرف زعماء الوثنيين بأن ثلاثاً وسبعين شخصاً من اليثريين عقدوا ليلة أمس وتحت جنح الظلام بيعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله على أن يدافعوا عنه كما

(١) الكامل في التاريخ: ج ١ ص ٤١٧ و٤١٨.

يدافعون عن أبنائهم وأهليهم.

فأحدث هذا النبأ خوفاً عجباً في قلوب قادة قريش وسادة مكة المشركين المتغطرسين، لانهم أخذوا يقولون مع أنفسهم: لقد وجد المسلمون الآن قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية، وانه يُخشى أن يجمع المسلمون كل طاقاتهم المبعثرة فيها، ويعملون معاً على نشر دينهم، وبث عقيدتهم، وحينئذ ستواجه الوثنية في مكة خطراً جدياً، يهددها في الصميم.

ولهذا بادرت قريش إلى الاتصال بالخزرجين صبيحة تلك الليلة وقالوا لهم: يامعشر الخزرج انه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، إنه والله مامن حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم.

فحلف المشركون من أهل يثرب لقريش أنه ما كان من هذا شيء، وما علموه، وقد صدقوا لأنهم لم يعلموا بما جرى في العقبة. فان قافلة اليرببين كانت تضم خمسمائة شخص، تسلل منهم ثلاث وسبعون فقط الى العقبة وبقيت الناس نيام لا يعلمون بشيء.

فأتت قريش إلى «عبدالله بن أبي بن سلول» فسأله عما جرى في ليلة العقبة، فأنكر ذلك وقال: إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا (أي يعملوه من دون مشورتي) وما علمته كان، فهض رجال قريش من عنده ليتابعوا تحقيقهم حول الحادث.

فعرف المسلمون الذين حضروا ذلك المجلس وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه أمرهم، وانكشاف سرهم، ولهذا قال بعضهم لبعض: مادنا لم نعرف بعد فلنخرج من مكة فوراً قبل ان يظفر المشركون بنا، ولهذا أسرعوا في الخروج من مكة والتوجه الى المدينة، فزاد ذلك من سوء ظن قريش وعززت شكوكهم حول البيعة، وعرفوا بانه قد كان، فخرجوا في طلب جميع اليرببين، ولكنهم لم يتنبهوا لذلك إلا بعد خروج قافلة اليرببين من حدود مكة، والمكيين، ولم تظفر قريش إلا بسعد بن عباد.

غير أن ابن هشام يرى بأنهم ظفروا بنفريين هما: «سعد بن عبادة» و«المنذر بن عمر»، وكان كلاهما من النقباء الاثني عشر. وأما «المنذر» فاستطاع أن يخلص نفسه منهم. وأما «سعد» فقد أخذوه، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته^(١) وكان ذا شعرٍ كثيرٍ. يقول سعد:

فوالله إنني لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيء أبيض،
طويل القامة، فقلت في نفسي: إن يكُ عند أحدٍ من القوم خير فعند هذا.
قال: فلما دنى مني رفع يده فلكمني لكمةً شديدةً.
فقلتُ في نفسي: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير.
قال: فوالله إنني لفي أيديهم يسحبونني إذ رقّ عليّ رجلٌ كان معهم، فقال:
ويحك أما بينك وبين أحدٍ من قريش جوارٌ ولا عهدٌ؟
قلت: بلى كنتُ أجير لجبير بن مُطعِمِ بن عدي تجارةً، وأمنعهم ممن أراد
ظلمهم ببلادي.

فذهب ذلك الرجلُ إلى مُطعِمِ وأخبره بما فيه سعد بن عبادة من الحال، وأنه
أخبره بأنه كان يجير لمطعم تجارةً فقال مُطعِم: صدق والله إنه كان ليجير لنا
تجارةً، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده ثم أسرع إلى سعد وخلصه من أيديهم.
وكان رفقاء سعد من المسلمين قد علموا بوقوعه في أيدي قريش في أثناء
الطريق إلى المدينة، فعزموا على أن يعودوا إلى مكة ويخلصوه من أيدي المشركين،
وبينما هم كذلك إذ بدى لهم «سعد» من بعيد، وأخبرهم بما جرى عليه^(٢).

تأثير الاسلام ونفوذه المعنوي:

يصرُّ المستشرقون على أن انتشار الاسلام ونفوذه في المجتمعات تمّ بواسطة

(٢) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٤٩ و ٤٥٠.

(١) مجتمع شعر الرأس.

السيف وفي ظلّ استخدام القوّة.

اما بطلان هذا الكلام فسيثبت من خلال الحوادث القادمة.

ونحن نذكر هنا للمثال حادثة وقعت قبل الهجرة، ونلفت اليها نظر القارئ الكريم، فان دراستها والتعمق فيها يثبت بجلاء ان انتشار الاسلام ونفوذه في اوساط الناس كان في بداية الأمر نابعاً من جاذبيته التي كانت تجذب كل انسان بمجرد اعطاء شرح مختصر عنه وعن تعاليمه المحببة اليه.

واليك الحادثة بنصها:

قرر مصعب بن عمير المبلّغ والداعية الاسلامي المعروف الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله الى المدينة بطلب من اسعد بن زرارة، ذات يوم أن يدعو هو واسعد أشرف المدينة وساداتها الى الاسلام بالمنطق والدليل فدخلا حائطاً^(١) من حوائط المدينة فجلسا هناك واجتمع اليهما رجال ممن اسلم، وكان سعد بن معاذ واسيد بن حضير وهما من سادات بني الاشهل موجودين هناك أيضاً. فقال سعد لاسيد: جرد حربتك وقل لهذين (يعني مصعبا واسعد) ماذا جاء بهما الى ديارنا يسفهان ضعفاءنا، ولو لأن سعد بن زرارة ابن خالتي، لكفيتك ذلك.

ففعل أسيد ذلك وقال لمصعب ما جاء كما الينا تسفهان ضعفاءنا وراح يشتمها فقال له مصعب داعية الاسلام الحكيم، والمتكلم البليغ الذي تعلم اسلوب الدعوة المؤثر من رسول الله صلى الله عليه وآله أو تجلس فتسمع، فان رضيت أمراً قبلته، وان كرهته كفّ عنك ماتكره؟

قال: أنصفت ثم ركّز حربته وجلس إليهما يستمع لقولهما فكلمه مصعب بالاسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن، فأثرت آيات القرآن وما قاله مصعب من المواعظ البليغة في نفسه حتى عُرف ذلك في إشراق وجهه، وانفراج اساريره، وشوقه فقال: ما احسن هذا الكلام واجمله؟! كيف تصنعون إذا اردتم أن تدخلوا

في هذا الدين؟ فقال مصعب وسعد له: تغتسل فتطهر وتغسل ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي.

فقام اسيد بن حضير الذي حضر لقتل مصعب وسعد من عندهما مبتهجاً مسروراً فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين. ثم قال لهما: ان ورائي رجلاً إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، ثم اخذ حربته وانصرف الى سعد بن معاذ الذي كان ينتظر عودته على احر من الجمر فلما نظر اليه سعد وقومه وهم جالسون في ناديهم قال: أحلف بالله لقد جاءكم اسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب من عندكم فلما وقف على النادي قال له سعد ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعنا ما احببت، فغضب سعدٌ لذلك غضباً شديداً، وأخذ الحربة من أسيد، ثم خرج الى مصعب واسعد ليقتلها، فلما رآهما سعد مطمئنين وقف عليهما متشتماً مهدداً اياهما، ولكن مصعباً وزميله قابلاه بمثل ما قابلاه سابقه اسيد، وجرى له ماجرى له، فقد فعلت كلمات مصعب في نفسه فعلتها، وخضع لمنطقه القوي، وبيانه الساحر، وندم على ما قصد فعله، وقال لمصعب نفس ما قاله اسيد واعتنق الاسلام واغتسل وتطهر وصلى ثم رجع الى قومه وقال لهم: يا بني عبد الاشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وافضلنا رأياً وایمننا نقيبةً.

قال: فان كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله وبرسوله فالحمد لله الذي اكرمنا بذلك .

فلم يُمس في دار بني عبد الاشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، وهكذا أسلم كلُّ قبيلة بني الأشهل قبل أن يروا النبي صلى الله عليه وآله وأصبحوا من الدعاة إلى الاسلام والمدافعين عن عقيدة التوحيد، لا بمنطق القوة انما بقوة المنطق^(١).

(١) إعلام الوری: ص ٥٩، بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٠ و ١١، السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٣٦ و ٤٣٧.

ان في التاريخ الاسلامي نماذج كثيرة من هذا القبيل تدل على بطلان وتفاهة مقاله أو روجه المستشرقون حول أسباب تقدم الاسلام وانتشاره، فان العامل المعتمد في جميع هذه الموارد لم يكن المال والتطميع، ولا السلاح والتهديد، كما ادعى المستشرقون، وان الذين اسلموا في هذه الحوادث والوقائع لاهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أنهم التقوا أو اتصلوا به بنحو من الانحاء، انما كان السبب الوحيد هو: منطق الداعية الاسلامي القوي وبيانه الساحر الجذاب، فهو الذي كان يفعل في النفوس فعلة العجيب، خلال دقائق معدودة، لا في نفس شخص واحد فحسب، بل ربما في نفوس قبيلة بكاملها. اجل انه المنطق القوي والكلام المبرهن والحجة البالغة لاسواها.

مخاوف قريش المتزايدة:

لقد ايقظت حماية اليثريين للمسلمين قريشاً من غفلتها ونومها العميق مرة أخرى، وكانت بيعة العقبة الثانية بمثابة ناقوس خطر لها فبدأت أذاها وإضطهادها ومضايقتها لهم من جديد، وتهيأت للعمل على الحيلولة دون انتشار الاسلام ونفوذه وتقدمه في الجزيرة العربية، وبلغ ذلك الاذى مبلغاً عظيماً. فشكى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله اليه ما يلقونه على أيدي المشركين من ضغوط واذى، واستأذنوه في الهجرة الى مكان فاستمهلهم رسول الله صلى الله عليه وآله اياماً ثم قال:

«لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يشرب فمن اراد الخروج فليخرج إليها»^(١).

وبعد الاذن بالهجرة من قبل النبي صلى الله عليه وآله أخذ المسلمون يخرجون من مكة، ويتوجهون الى المدينة شيئاً فشيئاً وبحجج مختلفة لكي لا تمنعهم قريش من الهجرة.

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٢٦.

ولم يكن قد مضى على بداية هجرة المسلمين التدريجية هذه زمان طويل الا وفطن زعماء قريش لسرها، وخطرها عليهم فاخذوا يمنعون من أي تنقل وسفر يقوم به المسلمون، وقرروا ان يعيدوا الى مكة كل من وجدوه في اثناء الطريق، كما قرروا ان يحبسوا زوجة كل مسلم يريد الهجرة وله زوجة قرشية ويمنعوها عنه، ولكنهم كانوا يتجنبون اراقة الدماء في هذا السبيل، بل وكان يقتصر اذاهم على الحبس والتعذيب ولا يتعداهما.

ولكن هذه المحاولات التي قام بها زعماء قريش لوقف الهجرة الى المدينة لم تثمر لحسن الحظ^(١).

فقد استطاعت مجاميع كبيرة من المسلمين النجاة بنفسها من أيدي قريش واللحاق بزملاتهم واخوانهم في يثرب حتى انه لم يبق في مكة من المسلمين إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وعدد قليل من المسجونين، أو المرضى من المسلمين.

وقد زاد اجتماع المسلمين في يثرب من مخاوف قريش، وضاعف من قلقها، ولهذا اجتمع كل رؤساء القبائل المكية في «دارالندوة» اكثر من مرة للتشاور في كيفية القضاء على الاسلام وطُرحت في ذلك المجلس خطط متنوعة، واقترحت أمور كثيرة لتحقيق هذه الغاية ولكنها فشلت برمتها بتدبير رسول الله صلى الله عليه وآله وحكمته، وسياسته الدقيقة.

وأخيرا هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله من «مكة» إلى «المدينة» في شهر ربيع الاوّل سنة ١٤ من البعثة.

اجل لقد تضاعف قلق قريش منذ أن حصل محمد على قاعدة ثانية خارجة عن نطاق هيمنة المكيين وسيطرتهم واصبحوا حيرى لا يدرون ماذا يفعلون، لان جميع خططهم للمنع من انتشار الاسلام، واتساع رقعته، قد باءت بالفشل.

لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه بالهجرة الى المدينة والالتحاق

بالانصار وقال لهم: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ دَاراً وَإِخْوَاناً تَأْمِنُونَ بِهَا» (١) (٢).

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٦.

(٢) لقد انتهينا من تسجيل حوادث السنوات الثلاث عشرة من البعثة، وقد حاولنا ذكر كل ما كان معلوماً مشهوراً من تواريخها، ولكن لا يمكن اعتبار تواريخ كل تلك الحوادث أموراً مقطوعاً بها، من هنا ذكرنا الحوادث المثبتة في الفصل ٢٤ من دون إدراج تواريخها في الاغلب ولكن حيث أن الوقائع الحادثة بعد الهجرة وقعت في أوقات معينة معلومة لذلك فإنا سنرفق ذكر كل حادثة بتاريخ وقوعها في الفصول القادمة.

حوادث السنة الأولى من الهجرة

٢٥

قصة الهجرة

كان زعماء قريش ورؤساؤها يجتمعون عند كل نائبة تنوهم في «دارالندوة» لحل المشاكل ومعالجة ما عرض لهم من نائبة من خلال التشاور حولها وتداول الرأي فيها، ومن خلال تضافر الجهود على حلها، ورفعها أو دفعها.

وفي السنوات: الثانية عشرة، والثالثة عشرة من البعثة واجه أهل مكة خطراً كبيراً جدياً، فقد حصل المسلمون على مركز هام، وقاعدة صلبة في يثرب، وتعهد اليثريون الشجعان بحماية رسول الله صلى الله عليه وآله والدفاع عنه، وكل هذا كان من علامات ومظاهر ذلك التهديد الخطير، الذي بات يهدد كيان المشركين والوثنيين والزعامة القرشية.

وفي شهر ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة من البعثة التي وقعت فيه هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وبينما لم يكن قد بقي من المسلمين في مكة إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وأبوبكر وجماعة قليلة من المسلمين المحبوسين، أو المرضى، أو العجزة، وكان هؤلاء على أبواب الهجرة ومغادرة مكة الى المدينة اتخذت قريش فجأة قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً جداً في هذا المجال.

فقد انعقدت جلسة هامة للتشاور في «دارالندوة» حضرها رؤساء قريش

وزعمائها وبدأ متكلمهم^(١) يتحدث عن تجمع القوى والعناصر الاسلامية وتمركزها في المدينة والبيعة التي تمت بين الخزرجيين والأوسيين وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ثم اضاف قائلاً:

يامعشر قريش إنه لم يكن أحدٌ من العرب أعزَّ مِنَّا، نحن أهل الله فقد إلينا العرب في السنة مرتين، ويكرمونا، ونحن في حرم الله لا يطعم فينا طامعٌ، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا «محمد بن عبدالله» فكنا نسميه (الأمين) لصلاحه، وسكونه، وصدق لهجته، حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله، وأن أخبار السماء تأتيه، فسفه أحلامنا، وسب آهتنا، وأفسد شباننا، وورق جماعتنا، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا، وقد رأيت فيه رأياً، رأيت أن ندس إليه رجلاً منّا ليقتله، فان طلبت بنوهاشم بدمه^(٢) اعطيناهم عشر ديات.

فقال رجلٌ مجهول حضر ذلك المجلس ووصف نفسه بأنه نجدى: ما هذا برأى لأن قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فانه اذا قُتل محمد تعصب بنوهاشم وحلفاؤهم من خزاعة، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الارض فيقع بينكم الحروب وتتفانوا.

فقال أبو البختري: نلقيه في بيت ونلقي اليه قوته حتى يأتيه ريبُ المنون.

فقال الشيخ النجدى مرةً أخرى: وهذا رأيي أخبث من الآخر، لأن بني هاشم لا ترضى بذلك، فاذا جاء موسمٌ من مواسم العرب استغاثوا بهم، واجتمعوا عليكم فاخرجوه.

فقال ثالث: نُخرجه من بلادنا ونتفرغ نحن لعبادة آهتنا، أو قال نرحل بغيراً صعباً ونوثق محمداً عليه كتافاً، ثم نضرب البعيرَ بأطراف الرماح فيوشكُ أن يقطعه بين الصخور والجبال إرباً إرباً.

فانبرى ذلك النجدى يخطئ هذا الرأي أيضاً قائلاً: أرايتم إن خلص به

(١) وروي انه كان المتكلم: أبوجهل.

(٢) وفي رواية: بديته.

البعير سالماً إلى بعض الناس فأخذ بقلوبهم بسحر بيانه وطلاقة لسانه، فصبا^(١) القوم إليه، واستجابت القبائل له قبيلة فقيلة، فليسيرن حينئذ اليكم الكتاب والجيوش فلتهلكن كما هلكت أياد ومن كان قبلكم.

فتحيروا وساد الصمت ذلك المجلس، وفجأة قال أبو جهل (وعلى رواية: قال ذلك الشيخ النجدي): ليس هناك من رأي إلا أن تعمدوا الى قبائلكم فتختاروا من كل قبيلة منها رجلاً قوياً ثم تسلحوه حساماً غضباً وليهجموا عليه معاً بالليل ويقطعوه إرباً إرباً فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلها في صاحبهم فيرضون حينئذ بالدية منهم!!

فاستحسن الجميع هذا الرأي، واتفقوا عليه، ثم اختاروا القتلة وتقرر ان يقوموا بمهمتهم اذا جنّ الليل وساد الظلام كل مكان^(٢).

الإمدادات الغيبية والعنايات الالهية:

لقد كان اولئك العتاة الجهلة يتصورون أن رسالة محمد صلى الله عليه وآله المدعومة من قبل الله تعالى والمؤيدة من جانبه سبحانه يمكن ان يقضى عليها بواسطة هذه الحيل والمكائد، والخطط والمؤامرات، ولم يكونوا يدركون أن هذا النبي - كغيره من الأنبياء- يتمتع بالمدد الالهي الغيبي، وان اليد التي حفظت مشعل الاسلام طوال ثلاثة عشر عاماً في وجه الاعاصير والرياح، قادرة على افشال هذه الخطة الاثيمة، وتعطيل هذه المؤامرة أيضاً.

يقول المفسرون: بعد أن دبّر الكفار مادبروا نزل ملك الوحي «جبرئيل»، على رسول الله صلى الله عليه وآله وأخبره بما حاك ضده المشركون من مؤامرة اذ

(١) صبا فلان: أي خرج من دين غير دين غيره وكانت العرب تسمي النبي صلى الله عليه وآله الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الاسلام وتسمي المسلمين: الصباة. وهو جمع الصابئ.

(٢) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٨٠ - ٤٨٢.

قرأ عليه قول الله تعالى:

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»^(١).

وعندئذ أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالهجرة من مكة إلى المدينة، ولكن التخلص من أيدي القساة المكلفين بقتله من قبل زعماء الوثنيين وبالنظر إلى المراقبة اندقيقة التي كانوا يقومون بها لجميع التحركات، لم يكن بالأمر السهل وخاصة بالنظر إلى بُعد المسافة بين مكة والمدينة.

فاذا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من مكة وفق خطة دقيقة صحيحة كان من المحتمل جداً أن يدركه المكثون في أثناء الطريق ويقبضوا عليه ويسفكوا دمه الشريف قبل أن يصل إلى أتباعه وأصحابه.

ولقد ذكر المفسرون والمؤرخون صوراً مختلفة لكيفية خروجه النبي صلى الله عليه وآله وهجرته؛ والاختلاف الذي نلاحظه بين هؤلاء المفسرين والمؤرخين في خصوصيات وتفاصيل هذه الواقعة مما يقل نظيره في غيره من الوقائع.

وقد استطاع مؤلف «السيرة الحلبية»، أن يوفق إلى درجة ما، بين المنقولات والمرويات المختلفة ببيان خاص، ولكنه لم يوفق لازالة التناقض والاختلاف في بعض الموارد في هذا الصعيد.

على أن الموضوع الجدير بالاهتمام هو أن أكثر المؤرخين الشيعة والسنة نقل كيفية هجرة النبي، وخروجه من منزله، ثم من مكة بنحو مؤداه إسناد نجاة النبي صلى الله عليه وآله وخلاصه إلى عامل الاعجاز، وبالتالي فقد اسبغوا عليه صبغة الكرامة، والمعجزة.

في حين أن الإمعان في تفاصيل هذه القصة يكشف عن أن نجاة النبي صلى الله عليه وآله كانت نتيجة سلسلة من الاجراءات الاحترافية، والتحسبات، والتدابير الحكيمة، وإن إرادة الله تعالى تعلقت بان ينجي نبيه

(١) الانفال: ٣٠، ليثبتوك أي ليسجنوك.

الكرّم، عن طريق الأسباب العادية المألوفة، وليس عن طريق التدخّل الغيبي وإعمال قدرته تعالى الغيبية.

ويدل على هذا المطلب أنّ النبيّ توسل بالعلل الطبيعية، والوسائل والأسباب العادية (كمبيت شخص في فراش النبيّ، واختفاء رسول الله في الغار وغير ذلك مما سيأتي ذكره)، وهذا الطريق نجى رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، وتخلص من أيدي أعدائه، العازمين على إراقة دمه.

ملك الوحي يخبر رسول الله:

لقد اخبر ملك الوحي «جبرئيل» رسول الله صلى الله عليه وآله بخطة قريش المشؤومة لاغتياله وامره بالهجرة، وتقرر -بغية إفشال عملية الملاحقة- ان يبيت شخص في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليتصوّر المشركون أنّ النبيّ لا يزال في منزله، ولم يخرج بعد، وبالتالي يركزوا كلّ إهتمامهم على محاصرة البيت، وينصرفوا عن مراقبة طرقات مكة، ونواحيها.

ولقد كانت فائدة هذا العمل اي حصر اهتمام المراقبين ببيت النبيّ انه تسنى لرسول الله صلى الله عليه وآله اغتنام الفرصة والخروج من مكة، والاختفاء في مكان ما من دون ان يحبس به أحد من الذين باتوا يراقبون بيته، ويبغون قتله.

والآن يجب أن نرى من الذي تطوّع للمبيت في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وفدى النبيّ بنفسه، ووقاه بحياته؟

ستقولون حتماً: إن الذي سبق جميع المسلمين الى الايمان برسول الله صلى الله عليه وآله وبقي من بدء بعثته والى ذلك الحين يذب عنه، هو الذي يتعيّن أن يضحي بنفسه في هذا السبيل، ويقى رسول الله صلى الله عليه وآله بحياته في هذه اللحظة الخطيرة، وهذا المضحي بحياته ونفسه، هو «عليّ» ليس سواه احد، انه تقدير صحيح، وحدث مصيب.

فليس غير «عليّ» يصلح لهذه المهمة الخطيرة.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام:
 «يا علي إن قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنه أوحى إلي عن ربي
 أن اهجر دار قومي، فثم على فراشي والتحف ببردي الحضرمي لتُخفي بمبيتك
 عليهم أثري فما أنت قائل وصانع؟؟»

فقال علي عليه السلام: أَوْ تَسَلَّمَنَّ بِمَبِيتِي هُنَاكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟

قال: نعم، فتبسم علي عليه السلام ضاحكاً مسروراً وأهوى إلى الأرض
 ساجداً، شكراً لما أنبأه رسول الله صلى الله عليه وآله من سلامته، فلما رفع رأسه
 قال للنبي صلى الله عليه وآله:

إمض لما أمرت فإدراك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومُرني بما شئت اكن
 فيه كمسرتك، واقع فيه بحيث مرادك، وإن توفيتني إلا بالله.

ثم رقد علي عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله واشتمل
 ببرده الحضرمي الأخضر، ولما مضى شطر من الليل حاصر رصداً قريش - وهم
 اربعون رجلاً - بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وقد جردوا سيوفهم، ينتظرون
 لحظة الهجوم على النبي صلى الله عليه وآله ويتطلعون إلى داخل البيت من فرجة
 الباب بين الحين والآخر ليتأكدوا من بقاء رسول الله صلى الله عليه وآله في
 مضجعه، فيظنون أن النائمة في الفراش هو النبي صلى الله عليه وآله.

وهنا أراد النبي صلى الله عليه وآله أن يخرج من بيته.

فمن جانب يحاصر الأعداء بيته صلى الله عليه وآله من كل جانب،
 ويراقبون كل شيء، ومن جانب آخر تعلقت مشيئة الله تعالى وارا دته القاهرة
 الغالبة أن ينجو رسول الله صلى الله عليه وآله من ايدي تلك الزمرة المنحطة،
 فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله سورة (يس) لمناسبة مطلعها لظروفه حتى بلغ
 الى قوله تعالى: «فهم لا يبصرون»^(١) وخرج من باب البيت دون ان يشعر به
 رصداً قريش المكلفون بقتله، وذهب الى المكان الذي كان من المقرر ان يختبئ

فيه على النحو الذي سيأتي تفصيله.

وأما كيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله ان يخترق الحصار البشري المشدّد الذي ضُربَ على بيته، ويتجاوز رصد قريش من غير ان يشعروا به فذلك غير معلوم جيداً.

إلا أنه يستفاد من رواية نقلها المفسرُ الشيعيُّ المعروفُ المرحومُ عليُّ بن ابراهيم في تفسيره: قول الله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» ان رجال قريش كانوا نياماً ينتظرون الفجر عند خروج رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يكونوا يتصوّرون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد عرف بتدبيرهم ومؤامرتهم.

ولكن يصرّح غيره من المؤرّخين وكتاب السيرة^(١) بان المحاصرين لمنزل النبي صلى الله عليه وآله كانوا يقظين حتى لحظة الهجوم على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وان النبي صلى الله عليه وآله خرج من البيت عن طريق الاعجاز والكرامة من دون ان يروه ويحسوا به.

إن امكان وقوع مثل هذه الكرامة ليس موضع شك، ولكن هل كان هناك ما يوجب ذلك؟؟

ان دراسة قصة الهجرة بصورة كاملة تجعل هذه المسألة أمراً قطعياً وهي أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان عارفاً بمؤامرة القوم قبل محاصرة بيته، وكان قد دبر ورسم لنجاته خطةً طبيعيةً عاديةً، ولم يكن في الأمر اي اعجاز. لقد كان يريد صلى الله عليه وآله باضجاع علي عليه السلام في فراشه أن ينجو بنفسه من أيدي المشركين من الطرق العادية والقنوات الطبيعية من غير الاستعانة بالاعجاز والكرامة.

وعلى هذا كان في مقدور النبي صلى الله عليه وآله ان يتحسب لمسألة المحاصرة والطوق الذي كان سيُضرب على بيته من أوائل الليل، وذلك بمغادرة

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٢٨، تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٠٠.

بيته قبل المحاصرة وقبل الغروب.
ولكن يمكن ان يكون لتوقف النبي صلى الله عليه وآله في البيت حتى
ساعة المحاصرة علة لانعرفها الآن.

من هنا يكون إدعاء هذا الموضوع (وهو خروج النبي صلى الله عليه وآله
من البيت في الليل) غير منقطع به لدى الجميع لاعتقاد البعض بان رسول الله
صلى الله عليه وآله غادر منزله قبل فرض الحصار عليه، وقبل غروب
الشمس^(١).

إقتحام الاعداء لبيت الوحي:

طوقت قوى الكفر مهبط الوحي وبيت الرسالة وباتت تنتظر لحظة الإذن في
إقتحامه، والهجوم على النبي صلى الله عليه وآله في فراشه وضربه وتقطيعه
بالسيوف إرباً إرباً!

وقد أصر جماعة منهم أن ينفذوا خطتهم المشؤومة هذه في منتصف الليل وقبل
الفجر فمنعهم أبو لهب من ذلك وقال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإن في
الدار صبياناً ونساءً من بني هاشم، ولأنامن أن تقع يد خاطئة، فنجرسه الليلة،
فإذا أصبحنا دخلنا عليه.

وربما يقال أن علة التأخير هي أنهم أرادوا أن يقتلوا رسول الله صلى الله
عليه وآله عند الصباح أمام أعين بني هاشم حتى يروا أن قاتله جماعة وليس
واحدًا.

وانقشع الظلام شيئاً فشيئاً، وانفجر الصبح، ودب في المشركين شوق
غريب، مع اقتراب ساعة الصفر، فقد كانوا يتصورون بأنهم سينالون ما يريدون
قريباً، وبينما هم ينتظرون سيوفهم دخلوا حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله،
وبينما هم يهيمون بأخذ من كان راقداً في الفراش بسيوفهم، إذا بهم يواجهون علياً

عليه السلام يثب في وجوههم وهو يكشف عن نفسه برد رسول الله صلى الله عليه وآله الأخضر، وقال لهم في منتهى البطمأنينة والشجاعة: ما شأنكم؟ وماذا تريدون؟؟؟

فقالوا له بغضب: أين محمد؟

فقال عليه السلام: أجعلتموني عليه رقيباً؟!

فغضب القوم غضباً شديداً، وكاد الغيظ يخنقهم، فقد ندموا على إنتظارهم انفجار الصبح وحملوا أبا لهب الذي منعهم من تنفيذ الهجوم على النبي في منتصف الليل فشل الخطة وتفويت الفرصة، فاقبلوا عليه يلومونه ويوبخونه!!
أجل لقد انزعجت قريش بشدة لفشل هذه المؤامرة، ووجدوا انفسهم أمام هزيمة نكراء بددت كل أحلامهم، وحيث أنهم كانوا يتصوّرون بأن النبي صلى الله عليه وآله لا يستطيع الخروج عن حدود مكة في مثل تلك المدة القصيرة فهو إما مختبئ في مكة، أو أنه لا يزال في طريق المدينة، لذلك أقدموا فوراً على العمل على ترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

النبي في غار ثور:

ان ما هو مسلم به هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمضى هو وأبو بكر ليلة الهجرة وليلتين أخريين بعدها في غار ثور الذي يقع في جنوب مكة في النقطة المحاذية للمدينة المنورة^(١).

وليس من الواضح كيف تمت هذه المصاحبة والمرافقة ولماذا، فان هذه المسألة من القضايا التاريخية الغامضة.

فان البعض يعتقد بان هذه المصاحبة كانت بالصدفة، فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر في الطريق، فاصطحبه معه الى غار ثور.

(١) حيث ان الطريق المؤدي الى المدينة تقع في شمال مكة، فاختم النبي صلى الله عليه وآله في منطقة مقابلة أي في اسفل مكة، ليعمي بذلك على قريش فلا يتبعوا أثره.

وروى فريق آخر أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَهَبَ فِي نَفْسِ اللَّيْلَةِ إِلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ خَرَجَا مَعًا فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ^(١).
وقال فريق ثالث: أن أبا بكر جاء هو بنفسه يريد النبيَّ وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ خَرَجَ مِنْ قَبْلِ فَأَرْشَدُهُ «عَلِيٌّ» إِلَى مَحْبَأِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.
وعلى كل حال فإن كثيراً من المؤرخين يُعَدُّونَ هَذِهِ الْمَصَاحِبَةَ مِنْ مَفَاخِرِ الْخَلِيفَةِ وَمَنَاقِبِهِ، وَيَذَكِّرُونَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَسْهَابِ وَالْإِطْنَابِ، وَبِمَزِيدٍ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْإِعْجَابِ.

قريش تفتش عن النبي:

لقد تسبب فشل قريش في تغيير خطتها، فقد بادرت إلى بث العيون والجواسيس في طرقات مكة، ومراقبة مداخلها ومخارجها مراقبةً شديدةً، وبعثت القافة تقتص أثره في كل مكان، وفي طريق مكة - المدينة خاصة.
ومن جانب آخر جعلت مائة ابل لمن ياخذ نبي الله، ويرده عليهم أو يأتي عنه بخبرٍ صحيح.

وعمد جماعةٌ من قريش إلى ملاحقة رسول الله والتفتيش عنه في شمال مكة، حيث الطريق المؤدي إلى المدينة، على حين أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ قَدْ اخْتَبَأَ - كَمَا قُلْنَا - فِي نَقْطَةِ بَجْنُوبِ مَكَّةَ لِإِفْشَالِ عَمَلِيَةِ الْمَلَاخِقَةِ.

وتصدت مجموعة أخرى لتتبع أثر قدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَرَفِيقَهُ!!
وكان الذي يقفونهم الأثر يدعى أبا مكرز فوقف بهم على باب حجرة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ هَذِهِ قَدَمُ مُحَمَّدٍ، فَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى أَوْقَفَهُمْ عَلَى بَابِ الْغَارِ فَانْقَطَعَ عَنْهُ الْأَثَرُ فَقَالَ: مَا جَاوَزَ مُحَمَّدٌ مِنْ مَعَهُ هَذَا الْمَكَانَ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ نَاصِعًا إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ دَخَلَ تَحْتَ الْأَرْضِ، فَانْ بَابَ هَذَا الْغَارِ - كَمَا تَرَوْنَ عَلَيْهِ - نَسْجُ

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٠٠.

العنكبوت والقبجة حاضنة على بيضها بباب الغار^(٢٢)، فلم يدخلوا الغار. ولقد استمرت هذه المحاولات بحثاً عن النبي صلى الله عليه وآله ثلاثة أيام بلياليها ولكن دون جدوى، فلما يئس القوم بعد ثلاثة أيام من السعي تركوا التفتيش وكفوا عن الملاحقة.

التفاني في سبيل الحق:

ان النقطة المهمة في هذه الصفحة من التاريخ هي ما قام به علي عليه السلام من تفان في سبيل الحق، والحقيقة. إن التفاني في سبيل الحق من شيمة الرجال الذين أحبوا الحق وعشقوه بكل وجودهم وكيانهم.

إن الذين يعضون نظرهم عن كل شيء من أشياء الدنيا ويضحون بالنفس والمال والشخصية، ويستخدمون كل طاقاتهم المادية والمعنوية في سبيل خدمة الحق، وحيائه، واقامته هم ولاشك من عشاق الحق والحقيقة الصادقين. انهم يرون كما لهم وسعادتهم في هدفهم، وهذا هو الذي يدفعهم إلى أن يصرفوا النظر عن الحياة العابرة، والعيش الموقت، ويلتحقوا بركب الحياة الواقعية الأبدية.

إن مبيت علي عليه السلام في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله في تلك الليلة الرهيبة لنموذج بارز من هذا الحب الحقيقي للحق، والعشق الصادق للحقيقة، فان الدافع وراء التطوع لمثل هذه المهمة الخطيرة لم يكن إلا حب «علي» لبقاء الاسلام الذي يكفل سعادة المجتمع، ويضمن ازدهار الحياة، لاغير.

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٢٩ تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٢٧-٣٢٨ وغيرها، ولقد ذكر عامه المؤرخين هذه الكرامة هنا، ولا ينبغي - نظراً لما ذكرناه في قصة الفيل وهلاك أبرهة وجنده بواسطة الابابيل، تأويل مثل هذا الكرامات.

إن هذه التضحية والتفاني من القيمة العظمى بحيث مدحها الله تعالى في كتابه العظيم، ووصفها بأنها كانت تضحية صادقة لكسب مرضاة الله، فإن الآية التالية نزلت -حسب رواية أكثر المفسرين- في هذا المورد:

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ»^(١).

إن عظمة هذه الفضيلة وأهمية هذا العمل التضحيوي العظيم دفعت بكبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أكبر فضائل الإمام علي عليه السلام وإلى أن يصفوا بها علياً بالفداء والبذل والإيثار، وإلى أن يعتبروا نزول الآية المذكورة في شأنه من المسلمات كلما بلغ الحديث في التفسير والتاريخ إليها^(٢).

إن هذه الحقيقة مما لا ينسى أبداً فإنه من الممكن إخفاء وجه الواقع والتعظيم عليه بعض الوقت إلا أنه سرعان ما تمزق أشعة الحقيقة الساطعة حجب الأوهام، وتخرج شمس الحقيقة من وراء الغيوم.

إن معاداة معاوية لأهل بيت النبوة وبخاصة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام مما لا يمكن النقاش فيه.

فقد أراد هذا الطاغية من خلال تطبيع بعض صحابة النبي صلى الله عليه وآله أن يلوث صفحات التاريخ اللامعة ويخفي حقائقه بوضع الأكاذيب، ولكنه لم يحرز في هذا السبيل نجاحاً.

فقد عمد «سمرة بن جندب» الذي أدرك عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم انضم بعد وفاته صلى الله عليه وآله إلى بلاط معاوية بالشام، عمد إلى تحريف الحقائق لقاء أموال أخذها من الجهاز الأموي، الحاقداً على أهل البيت. فقد طلب منه معاوية باصرار أن يرقى المنبر ويكذب نزول هذه الآية في شأن

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) مسند أحمد: ج ١ ص ٨٧، وكنز العمال: ج ٦ ص ٤٠٧، وقد نقل كتاب الغدير: ج ٢ ص ٤٧-٤٩ طبعة لبنان مصادر نزول هذه الآية في شأن علي عليه السلام على نحو التفصيل، فراجع.

علي عليه السلام، ويقول للناس أنها نزلت في حق قاتل عليّ (أي عبدالرحمان بن ملجم المرادي)، ويأخذ في مقابل هذه الاكذوبة الكبرى، وهذا الاختلاق الفضيع الذي أهلك به دينه مائة ألف درهم.

فلم يقبل «سمرة» بهذا العرض ولكن معاوية زاد له في المبلغ حتى بلغ اربعمائة ألف درهم، فقبل الرجل بذلك فقام بتحريف الحقائق الثابتة، مسوداً بذلك صفحته السوداء اكثر من ذي قبل وذلك عند ما رقى المنبر وفعل ما طلب منه معاوية^(١).

وقبل السامعون البسطاء قوله، ولم يختر بيال أحد منهم أبداً ان (عبدالرحمن بن ملجم) اليميني لم يكن يوم نزول الآية في الحجاز بل لعله لم يكن قد وُلد بعد آنذاك . فكيف يصح؟!!

ولكن الحقيقة لا يمكن ان تخفى بمثل هذه الحجب الواهية، ولا يمكن ان تنسى بمثل هذه المحاولات العنكبوتية الرخيصة.

فقد تعرّضت حكومة معاوية وتعرض أهلها وانصارها للحوادث، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الذي وقع في عهده المشؤوم، وطلعت شمس الحقيقة والواقع من وراء حُجُب الجهل والافتراء مرة أخرى، واعترف اغلبُ المفسرين الأجلة^(٢) والمحدثين الافاضل - في العصور والادوار المختلفة، بأن الآية المذكورة نزلت في «ليلة البيت» في بذل علي عليه السلام ومفاداته النبيّ صلى الله عليه وآله بنفسه^(٣).

(١) لاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٤ ص٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج١٣ ص٢٦٢، ولقد أعطى ابن أبي الحديد حق الكلام حول هذه الفضيلة.

(٣) سمرة بن جندب من العناصر المجرمة في الحكومة الاموية، ولم يكتف سمرة بتحريف الحقائق وقلبها بما ذكرناه، بل أضاف الى ذلك - حسب رواية ابن ابي الحديد - أمراً آخر أيضاً اذ قال: ونزل في شأن «عليّ» قول الله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» (البقرة: ٢٠٤).

ومن جرائم هذا الرجل انه قتل يوم وُلِّي البصرة على عهد زياد بن أبيه في العراق ثمانية آلاف

كلام من ابن تيمية:

احمد بن عبدالحليم الحرّاني الحنبليّ الذي مات في سجن بدمشق عام ٧٢٨ من علماء السنّة، تعود اليه اكثر معتقدات الوهابيين، وأفكارهم. ولابن تيمية هذا آراء ومواقف خاصة من النبيّ الاكرم صلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين، وعامة أهل بيت النبوة، وقد صرح باكثر آرائه ومعتقداته هذه في كتابه «منهاج السنّة». وقد دفعت عقائده المنحرفة وآراؤه الضالّة الكثير من علماء عصره إلى تكفيره، والتبرّي منه.

ولابن تيمية رأي عجيب حول هذه الفضيلة نذكره للقاريء الكرم مع تصرف بسيط في الألفاظ^(١)

ومن المؤسف ان يكون قد تأثر بآرائه بعض السذج والجاهلين، فنجدهم يشيعون آراءه في المجتمع من دون تحقيق فيما قال، ومن دون مراجعة ذوي الاختصاص لمعرفة رأيهم في أفكاره ومعتقداته وهم غافلون عن أنّ مثل هذه الآراء قد صدرت من منحرف وكذّبه بل وكفره بسببها أهل مذهبه. هذا واليك خلاصة رأيه في فضيلة «المبيت».

يقول: ان مبيت «عليّ» في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله لا تعدّ

ممن كانوا يجنون أهل البيت ويوالونهم وعند ما سأله معاوية: هل تخاف ان تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟

أجاب قائلاً: لو قتلت اليهم مثلهم ما خشيت!!

هذا ومخازي هذا الرجل اكثر من ان تستوعبه هذه الصفحات القلائل.

وسمرة هذا هو ذلك الرجل الصلف الجاف الذي رد على رسول الله صلى الله عليه وآله طلبه بأن يراعي حقّ جاره في قضية النخلة مراراً فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله له: «إنك رجل مضار ولا ضرر ولا ضرار في الاسلام» ولمزيد التوضيح راجع كتب الحديث والتراجم والتاريخ. (١) راجع السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٢٦٣ وسبعة الجاحظ في العثمانية.

فضيلة لأن علياً عرف من طريقين بانه لن يصيبه شيء في تلك الليلة:
 الأول إخبار رسول الله صلى الله عليه وآله الصادق المصدق نفسه آياه بذلك إذ
 قال له في نفس تلك الليلة: «نم في فراشي فإنه لا يخلص إليك شيء
 تكرهه»!!.

الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله كلفه بردة الودائع واداء الامانات التي
 اودعها أهل مكة عند رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى أصحابها.
 فعلم - من ذلك - أنه لن يُقتل والا لكلف رسول الله صلى الله عليه وآله
 الآخرين بها.

فعرف «علي» من هذا التكليف أنه لن يلحقه أذى في هذه العملية وانه
 سيوفق لأداء ما كلفه به رسول الله صلى الله عليه وآله.

الجواب:

وقبل أن نجيب عن هذا الكلام على نحو التفصيل نقول إجمالاً: إن ابن تيمية
 بانكاره هذه الفضيلة أثبت فضيلة أعلى لعلي عليه السلام لأنه إما كان ايمان
 علي بصدق مقالة الرسول كان ايمانا عادياً، وإما أن كان إيمانا قوياً جداً، وكانت
 جميع اقوال النبي صلى الله عليه وآله وإخباراته لديه - في ضوء ايمانه - كالنهار في
 وضوحه.

وعلى الفرض الاوّل لم يكن لعلي يقينٌ بنجاته من تلك الواقعة لأنه لا يحصل
 لمثل هذه الطبقة من الناس (ولاشك أن علياً ليس منهم حتماً) يقينٌ من كلام
 النبي صلى الله عليه وآله، وحتى لو قبلوا به في الظاهر، فانهم سيساورهم القلق،
 ولا يفارقهم الاضطراب، واذاهم باتوا في فراشه في لحظات الخطر، فانه سيقون
 فريسة الخوف والوجل وستمرّ في نفوسهم احتمالات كثيرةٌ حول مآل الأمر
 ومصيره، وسيتمثل أمامهم شبح الموت المرعب في كل لحظة وأن.

وعلى هذا الفرض لابد أن يقال: بأنّ علياً عليه السلام لم يقدم على هذا
 الأمر الخطير إلا وهو يحتمل الهلاك على أيدي المشركين، لأنه بات وهو يتيقن

النجاة والسلامة.

وأما بناءً على الفرض الثاني فإنه تثبت لعلّي عليه السلام فضيلة أعلى وأعظم، لأن إيمان الرجل يجب أن يبلغ من القوة والكمال بحيث لا يفرق بين صدق كلام النبي وبين وضوح النهار أي أنها يكونان عنده بمنزلة سواء. ولا شك أن أهمية مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعاد لها شيء.

ونتيجة هذا الإيمان هي أن النبي صلى الله عليه وآله عند ما قال له: نم في فراشي فلن يصيبك من هجوم الأعداء الحاقدين مكروه أن ينام في فراش النبي صلى الله عليه وآله بقلبٍ واثقٍ بالسلامة، ونفس مطمئنة إلى النجاة، ومن دون أن يخالج نفسه أقل احتمال للخطر.

ولو كان مراد ابن تيمية من قوله: إن علياً كان واثقاً من سلامته، لأن الصادق المصدّق أخبره بذلك هو: إثبات أعلى درجات الإيمان لعلّي عليه السلام فقد اثبت له عليه السلام من حيث لا يشعر أكبر فضيلة، وأعلى منقبة، وهي كمال الإيمان والثقة برسول الله صلى الله عليه وآله وأخباره. هذا هو الجواب الاجمالي واليك الجواب التفصيلي:

الجواب التفصيلي:

فنقول عن الدليل الأول: إن عبارة «لا يخلص اليك شيء تكرهه» لم ينقلها بعض أرباب السيرة ورجال علم التاريخ الذين لهم سابقة لا تنكر في هذا الصعيد^(١).

نعم روى ابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠^(٢)، والطبري المتوفى عام ٣١٠^(٣) هذه العبارة وكأنها قد اخذها عن ابن هشام في سيرته^(٤) التي نقل فيها تلك العبارة

(١) مثل مؤلف الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ المولود عام ١٦٨ والمتوفى عام ٢٣٠، وكذا المقرئ في امتاع الاسماع، عند ذكرهم لتفاصيل قضية البيت.

(٢) التاريخ الكامل: ج ٢ ص ٧٢.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٩٩.

(٤) السيرة النبوية: ج ١ ص ٤٨٣.

بالصورة المتقدمة الذكر، خاصة أن عبارة ذينك المؤلفين (الطبري وابن الأثير) تطابق عبارة ابن هشام في هذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أن القضية لا توجد بهذه الصورة في مؤلفات علماء الشيعة على ما نعلم. ولقد نقل شيخ الطائفة الامامية محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ في أماليه قصة الهجرة بشكل أكثر تفصيلاً ودقة، وذكر العبارة المذكورة مع تغيير بسيط، إلا أنه تختلف صورة القضية مع ذلك عما هي عليه في كتب أهل السنة، فانه رحمه الله يصرح بان علياً عليه السلام انطلق هو و«هند بن أبي هالة» ابن خديجة وريب رسول الله صلى الله عليه وآله في منتصف الليل بعد ليلتين من الهجرة حتى دخلا على النبي صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وآله لعلي:

«إِنَّهُمْ لَن يَصِلُوا مِنَّ الْآنَ إِلَيْكَ يَا عَلِي بِأَمْرٍ تَكْرَهُهُ حَتَّى تَقْدَمَ عَلَيَّ»^(١).

وهذه الجملة تشبه الجملة التي ذكرها ابن هشام والطبري وابن الأثير، ولكن النبي صلى الله عليه وآله قالها لعلي عليه السلام مطمئناً إياه بعد ليلتين من المبيت في الفراش، وليس ليلة المبيت كما يروي الثلاثة المذكورون. هذا علاوة على أن كلام علي نفسه خير شاهد على ما نقول:

فلقد عدّ علي عليه السلام عمله هذا (أي المبيت في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله في تلك الليلة الرهيبة) نموذجاً من بذله وتفانيه في سبيل الحق كما يتضح ذلك بجلاء من اشعاره حيث يقول:

| | |
|---|--|
| وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحَجَرِ | وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطَأَ الْحَصَا |
| فَوَقَاهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ مِنَ الْمَكْرِ | مُحَمَّدٌ لَمَّا خَافَ أَنْ يَمْكُرُوا بِهِ |
| وَقَدْ وَطَنْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ | وَبِتُّ أُرَاعِي مِنْهُمْ مَا يَسُوءُنِي |
| هَنَّاكَ وَفِي حَفِظِ الْإِلَهِ وَفِي سَتْرِ ^(٢) | وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا |

(١) الأمالي: ج ٢ ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق وغيره، هذا مضافاً إلى أن الامام عليه السلام نفسه قد استنشد المسلمين مراراً بهذه القضية مستدلاً بها على تفانيه في سبيل الاسلام.

ومع هذه العبارات الصريحة لاجمال للاعتماد على قول ابن هشام الذي تدل قرائن كثيرة على خطأه، ويُحتمل، احتمالاً قوياً، بأن اشتباهه وخطأه قد نشأ من تلخيصه لسيرة ابن اسحاق، وحيث أنه (ونعي ابن هشام) قد بنى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة، مهملاً ظرف النطق بها لعدم أهمية زمن النطق بها وأنها قيلت في الليلة الثانية او الثالثة، في نظره، وروى الموضوع بنحو يوهم بان جميع هذه الامور وقعت في ليلة واحدة!!

ويؤيد رأينا هذا أيضاً الحديث المعروف الذي رواه كثير من علماء السنة والشيعه وهو: أن الله أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أنني قد آخيت بينكما وجعلت عمر احدكما أطول من عمر صاحبه فابكما يؤثر أخاه.

وكلاهما كره الموت، فأوحى الله إليهما: عبد اي ألا كنتما مثل ويلي «علي» آخيت بينه وبين «محمد» نبيي فأثره بالحياة على نفسه؟ أو قال: قد على فراشه يقيه بمهجته.

ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسة عليّ وحفظه من عدوه^(١).

واما الدليل الثاني الذي يستفيد منه ابن تيمية أن علياً كان يعلم بمصيره هو توصية النبي صلى الله عليه وآله له بأداء الامانات والودائع إلى أهلها، التي كانت تكشف عن ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعلم بأنه لن يصل إليه مكروه، ولهذا امره بردّ الودائع والامانات إلى أصحابها.

ولكننا نعتقد ان في مقدورنا الحصول على حلٍ لهذه المشكلة إذا استعرضنا بقية قصة الهجرة بشكل صريح وكامل.

واليك بقية قصة الهجرة.

الخطيب وقضية البيت:

وينبغي أن نختتم هذا الفصل بما كتبه الاستاذ عبدالكريم الخطيب حول

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٣٩ نقلاً عن احياء العلوم للغزالي.

مبيت علي عليه السلام في فراش رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: لقد دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً ليلة الهجرة، وطلب إليه أن يبيت في المكان الذي اعتاد الرسول صلى الله عليه وآله ان يبيت فيه، وان يتغطى بالبرد الحضرمي الذي كان النبي صلى الله عليه وآله يتغطى به حتى اذا نظر ناظر من قريش الى الدار رأى كأن النبي صلى الله عليه وآله نائم في مكانه مغطى بالبرد الذي يتغطى به، وهذا الذي كان من علي في ليلة الهجرة اذا نظر اليه في مجرى الاحداث التي عرضت للامام علي في حياته بعد تلك الليلة فانه يرفع لعيني الناظر أمارات واضحة واشارات دالة على ان هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة لم يكن أمراً عارضاً بل هو عن حكمة لها آثارها - الى ان قال - انه اذا غاب شخص الرسول كان علي هو الشخصية المهيأة لأن تحلّفه وتمثّل شخصه وتقوم مقامه، حين نظرنا إلى علي وهو في برد الرسول وفي مثوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه فقلنا: هذا خلف الرسول صلى الله عليه وآله والقائم مقامه (١).

بقية قصة هجرة النبي:

انتهت المراحل الأولى لنجاة رسول الله صلى الله عليه وآله وفق تخطيط صحيح، ينجاح، فقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وآله في منتصف الليل الى غار ثور، واختبأ فيه، وبذلك أفضل محاولة المتآمرين عليه.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله طوال هذا الوقت مطمئناً لا يحس في نفسه بأي قلق أو اضطراب، حتى انه طمأن رفيق سفره عند ما وجدته مضطرباً في تلك اللحظات الحساسة بقوله:

«لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» (٢).

وبقي هناك ثلاث ليال محروساً بعين الله تعالى ومشمولاً بعنايته ولطفه،

(١) راجع كتاب علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة، ص ١٠٣ - ١٠٥ ملخصاً.

(٢) التوبة: ٤٠.

وكان يتردد عليه صلى الله عليه وآله في هذه الاثناء علي عليه السلام وهند ابن ابي هالة (ابن خديجة) على رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبدالله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة راعي اغنام أبي بكر (بناء على رواية كثير من المؤرخين).
يقول ابن الاثير. كان عبدالله بن أبي بكر يتسمّع لهما بمكة نهاره ثم يأتيها ليلاً، وكان يرعى غنمه نهاره على مقربة من الغار، وكان اذا غدا من عندهما عفى على أثر الغنم^(١).

يقول الشيخ الطوسي في أماليه: عند ما دخل علي عليه السلام وهند على رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار (بعد ليلة الهجرة) أمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر: قد كنت أعددت لي ولك يانبي الله راحتين نرتحلها الى يثرب.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. ثم أمر صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام فدفع إليه. ثمن البعيرين^(٢).
وكان من جملة وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام في الغار في تلك الليلة ان يؤدي أمانته على أعين الناس ظاهراً وذلك بأن يقيم صارخاً بالابطح غدوة وعشياً: ألا من كان له قبل محمد أمانة او وديعة فليأت فلنؤد اليه أمانته^(٣).

ثم أوصاه صلى الله عليه وآله بالفواطم (والفواطم هن: فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الحبيبة لديه، والأثيرة عنده، وفاطمة بنت أسيد أم علي عليه السلام وفاطمة بنت الزبير ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم)، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه الى يثرب وتهيئة ما يحتاجون اليه من زاد وراحلة.

وهنا قال صلى الله عليه وآله عبارته التي تدرّع بها ابن تيمية في دليبه

(٢) أمالي الشيخ: ج ٢ ص ٨٢.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٧٣ مع تصرف.

(٣) الكامل: ج ٢ ص ٧٣، السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٥٣.

الأول: «انهم لن يصلوا من الآن اليك يا عليّ بامرٍ تكرهه حتى تقدم عليّ». فالملحظ للمقارئ هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله إنما قال هذه العبارة عند ما أمره باداء أمانته، وذلك بعد انقضاء قضية ليلة المبيت. أي انه أمر علياً بذلك، وقال له تلك العبارة وهو يتيماً للخروج من غار ثور. يقول الحلبي في سيرته: «وصى رسول الله صلى الله عليه وآله في احدى الليالي وهو بالغار علياً رضي الله عنه بحفظ ذمته واداء امانته ظاهراً على اعين الناس»^(١).

وتم ينقل عن مؤلف كتاب «الدر» ما يقتضي انه اجتمع به عند خروجه من لغار.

وخلاصة القول: انه مع رواية شيخ جليل من مشائخ الشيعة الامامية كالشيخ الطوسي بالاسناد الصحيحة أن الأمر بردّ الودائع والامانات صدر من جانب النبي صلى الله عليه وآله إلى عليّ عليه السلام بعد ليلة المبيت لا يحقّ لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح، ونعمد إلى الهاء العامة بالتوافه، وأما رواية مؤرخي اهل السنة هذا المطلب بشكل آخر يوحى ظاهره بأن جميع وصايا النبي صلى الله عليه وآله لعليّ تمت في ليلة واحدة هي ليلة الهجرة (ليلة المبيت) فقابل للفسير والتوجيه، لأنه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركزة على رواية أصل الموضوع، ولم يكن لظرف صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها اهمية عندهم.

الخروج من الغار:

هياً علي عليه السلام بأمر النبي صلى الله عليه وآله ثلاث رواحل ودليلاً اميناً يدعى أريقط ليترحلوها إلى المدينة، ويدلّهم الدليل على طريقها وأرسل كل ذلك إلى الغار.

(١) السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٣٥.

ولما سمع النبي صلى الله عليه وآله رغاء البعير او نداء الدليل نزل هو وصاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجها من أسفل مكة إلى «يثرب» سالكين إلى ذلك الخط الساحلي، وقد جاء ذكر المنازل التي مرّ بها في السيرة النبوية لابن هشام^(١) وفي الهوامش المثبتة على التاريخ الكامل لابن الاثير^(٢).

مفحة التاريخ الأولى:

اجل لقد خلّ الظلام في كل مكان، ولملمت الشمس اشعتها الذهبية من هذا الوجه من الكرة الأرضية لتوجهها الى الوجه الاخر منها.

وعاد جماعة من رجال قريش الذين سلكوا كل طريق في مكة وضواحيها بحثاً عن النبي، ثلاثة أيام، بلياليها، الى بيوتهم ومنازلهم متعبين مرهقين، وقد يشوا من الظفر بالجائزة (وهي مائة من الإبل) التي وضعتها سادة قريش جائزة لمن يأخذ محمداً أو يدل على مكانه، وأعيد فتح طريق مكة - المدينة التي أغلقت لهذه الغاية بعد اليأس من الظفر برسول الله صلى الله عليه وآله-^(٣).

وفي هذه اللحظات بالذات بلغ نداء الدليل الذي كان يصطحب معه ثلاث رواحل ومقداراً من الطعام، الى مسمع رسول الله صلى الله عليه وآله ورفيقه وهما في الغار وقد كان يقول بصوت خافت: لا بد ان نتخذ من ظلام هذا الليل سترأ، ونسرع في الخروج من حدود المكّين، ونختار طريقاً يقلّ سالكوه ولا يهتدي إليه أحد.

ويبدأ تاريخ المسلمين من العام الذي تضمّن تلك الليلة بالضبط، وجعل المسلمون يقيسون كل مايقع من الحوادث بذلك العام وبذلك يحددون تاريخه وزمان حدوته.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ٤٩١.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٧٥.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ١٠٤.

لماذا أصبح العامُ الهجريُّ مبدأً للتاريخ:

إن الإسلام أكمل الشرائع السماوية قاطبة، وقد جاء إلى البشرية باتتضمنه بشريعة موسى وعيسى عليهما السلام ولكن بصورة أكمل وبصيغة تطابق وتمشى مع جميع الظروف والأوضاع.

ومع أن السيد المسيح عليه السلام وميلاده المبارك يحظى بالاحترام عند المسلمين إلا أن ميلاده عليه السلام لم يُتخذ لديهم مبدأً للتاريخ، والتوقيت.

وكانت العرب قد جعلت عام الفيل^(١) مبدأً لتاريخها، وكانت تقيس حوادثها وأموورها إليه فترة من الزمن، ومع أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد وُلد في ذلك العام نفسه، إلا أن المسلمين لم يتخذوه مع ذلك مبدأً للتاريخ، لأنه لم يكن ينطوي على ما يتصل بقضية الإيمان والإسلام

ولاجل هذا أيضاً لم يتخذوا عام البعثة مبدأً لتاريخ المسلمين أيضاً لأن عدد المسلمين لم يكن يتجاوز في ذلك اليوم ثلاثة أشخاص، إذن فلم يكن في أي واحد من تلك الحوادث ما يعطي مبرراً قوياً لاتخاذ مبدأً للتوقيت والتاريخ، إذ لا بد أن يكون ما يتخذ لذلك قضية مصيرة بالغة الأهمية.

ولكنه في السنة الأولى من الأعوام الهجرية حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وباهراً، وقد أسست فيه حكومة مستقلة وتخلص المسلمون من التشرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطة واحدة، وبيئة حرة لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، من هنا جعلوا ذلك العام (أي العام الذي تحققت فيه هجرة النبي العظيم) مبدأً لتاريخهم، واخذوا يقيسون إليه - وحتى الآن - كل ما يحدث ويقع من خير وشر، لتحديد تاريخ وقوعه.

من هنا يكون قد مضى على عام هجرة النبي صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة الف واربعمائة وتسعة اعوام.

(١) وهو العام الذي سير فيه أبرهة جيشاً لهدم الكعبة تتقدمة الفيلة. راجع المحبر: ص ٥ - ٨.

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة:

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وآله التاريخ الهجري بنفسه. وإنَّ أيَّ إعراض وتجاهل لهذا التاريخ، واختيار تاريخ آخر مكانه إعراض عن سنة رسول الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله، ومخالفة لما رسمه للمسلمين في هذا المجال.

إنَّ وجود تاريخ معين ثابت (مؤلف من السنة والشهر واليوم) في الحياة الإجتماعية البشرية، من الأمور الضرورية الحيوية بل هو في غاية الضرورة والحوية، من أجل أن لا تتوقف عجلة الحياة الإجتماعية البشرية عن الدوران والحركة بسبب فقدان مقياس زمني ثابت ومعلوم للامور والحوادث. وتلك حقيقة لا حاجة إلى اقامة البرهان عليها لأنَّ الاستدلال عليها يكون مثل الاستدلال على الامور البديهية.

فهل يكون تنظيم المعاهدات، والمواثيق السياسية والعسكرية، واتفاقيات والعقود الاقتصادية وتحويل وتسديد السندات والحوالات التجارية ودفع الديون وكتابة الرسائل العائلية من دون ذكر تاريخ معين فيها أمراً مفيداً؟ كلاًهما، ودون ريب.

فعند ما سأل بعض الصحابة النبي صلى الله عليه وآله عن علة اختلاف أشكال القمر، وانه لماذا يكون هلالاً تارة ثم بديراً أخرى. ثم يعود إلى سيرته الأولى هلالاً، نزل الوحي الالهي، يبيِّن بعض حكمة هذه الظاهرة الطبيعية اذ قال تعالى:

«قل هي مواقيت للناس»^(١).

أي ان اختلاف اشكال القمر وهيئاته انما هو لاجل ان يعرف الناس به الوقت والتاريخ فيعرفوا في أي يوم من الشهرهم، في مبدئه أو منتصفه، أو منتهاه،

(١) البقرة ١٨٩ ومطلعها: «يسألونك عن الأهلة قل: هي مواقيت...».

ولكي يعرفوا بواسطة ذلك مواعيد واجباتهم الشرعية والاجتماعية، ويعرف
الذَّيَّان موعِد تسلّم دُيونهم، ويعمّد المَدِينون إلى دفع ما عليهم في وقته، ويقوم
المؤمنون بفرائضهم المقيّدة بالازمنة والاوقات كالصوم والحج وما شابه ذلك .

من هنا لاجال للنقاش في احتياج كل أمة إلى تاريخ معين ثابتٍ محدّد
تجعله ملاكاً للتوقيت، ومداراً لتحديداتها الزمنية.

إنما الكلام هو في ما ينبغي إتباعه والجري عليه من التواريخ، وتنظيم
المستندات والمكاتبات والمواعيد وفقاً له.

وبعبارة أخرى: إن الكلام إنما هو في ما ينبغي جعله مبدءً للتاريخ يقاس به
كل العقود والاتفاقات من حيث الزمان، والتوقيت.

فما الذي يصلح او ينبغي إتخاذه مبدءً للتاريخ للامة الاسلامية؟

الجواب:

إن الاجابة على هذا السؤال واضحة جداً، وتلك الاجابة هي:
اذا كانت لأمة من الامم حوادث لامعة وسوابق مشرقة في حياتها، وثقافة
خاصة بها، وديناً ومسلماً مستقلاً وشخصيات علمية وسياسية بارزة، واحداث
ووقائع عظيمة مثيرة، تبعث على الفخر والاعتزاز، ولم تكن كنبته وحشية نبتت
عفواً واعتباطاً من غير قانون ولا جذور كبعض الجماعات والشعوب الجديدة
الظهور التي لا تتركز الى أصول ثابتة معلومة.

فان على مثل هذه الأمة أن تتخذ من أعظم حوادثها الاجتماعية والدينية
مبدءً لتاريخها الذي تقيس، وتنظم عليه بقية حوادثها وأعمالها التي سبقت تلکم
الحادثة العظمى، أو التي وقعت او تقع بعدها.

ومن هنا تكون قد اكسبت شخصيتها وكيانها قوةً اكبر، وصانت نفسها من
التبعية للشعوب والأمم الاخرى، والميعان والفناء فيها.

وإذ لم يكن في تاريخ الأمة الإسلامية شخصية أعلى شأناً من شخصية رسول
الله صلى الله عليه وآله، كما لم يكن هناك حادثة أعظم، وانفع من حادثة

الهجرة النبوية المباركة، لأن هجرة النبي صلى الله عليه وآله فتحت - في الحقيقة - صفحةً جديدةً في حياة البشرية، فقد خرج رسول الاسلام واتباعه من بيئة مكة الراضجة نحت الكبت، والى بيئة مناسبة حرة مكنتهم من إحداث انطلاقة كبرى لم يشهد التاريخ البشري برمته له مثلاً.

فقد استقبل اهل المدينة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن هاجر معه من المسلمين الى يثرب استقبالاً حاراً، ووضعوا تحت تصرفه كل ما توفر لديهم من الامكانيات والقوى، فلم يمض زمن إلا وتمتع الاسلام بفضل هذه الهجرة المباركة بتشكيلات سياسية وعسكرية، واتخذ صورةً وشكلَ حكوميةً قويةً لها وزنها، وشأنها، وجانبها المرهوب في شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما نشر رايته على البسيطة كلها تقريباً، وأسس حضارةً عظيمةً لم تر البشرية لها نظيراً.

فاذا لم تحدث تلك الهجرة المباركة المعطاء لقضي على الاسلام في محيط مكة، وحُرِمَ العالم الانساني من هذا الفيض العظيم.

من هنا، ولأجل هذا اتخذ المسلمون هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله مبدءً لتاريخهم، ودأبوا على ذلك الى الآن حيث ينقضي أكثر من ألف وأربعمائة عام، أي أن هذه الامة الكبرى تركت وراءها إلى هذا اليوم أربعة عشر قرناً من الأجداد والمفاخر، وهي الآن على أعتاب القرن الخامس عشر؟

من الذي جعل الهجرة مبدءً للتاريخ؟

على العكس مما هو مشهور بين المؤرخين من أن الخليفة الثاني جعل هجرة النبي صلى الله عليه وآله مبدءً للتاريخ باقتراح وتأيد من الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام وامر بأن تؤرخ الدواوين، والرسائل والعهود وما شابه ذلك بذلك التاريخ، فان الامعان في مراسلات النبي صلى الله عليه وآله ومكاتباته التي هي مدرجة في الأغلب في كتب التاريخ والسيرة والحديث والسنة، وكذا غير ذلك من الادلة التي سوف نذكرها في هذه الصفحات يثبت أن النبي صلى الله عليه وآله هو نفسه أول من اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدءً للتاريخ،

وكان يؤرخ رسائله، وكتبه إلى امراء العرب، وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة بذلك التاريخ (أي التاريخ الهجري).

وها نحن ندرج هنا نماذج من تلك الرسائل النبوية المؤرخة بهذا التاريخ، ثم نعمد بعد ذلك الى استعراض الدلائل الأخرى على هذا الأمر، ونحن نحتمل ان تكون هناك أدلة أخرى غير ماسنذكره هنا - أيضاً - لم نقف عليها.

نماذج من رسائل النبي المؤرخة:

١ - طلب سلمان من النبي صلى الله عليه وآله ان يكتب له ولأخيه (ماه بنداذ) ولأهله وصية مفيدة ينتفع بها، فاستدعى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وأملى عليه أموراً، وكتبها علي عليه السلام ثم جاء في آخر تلك الوصية: «وكتب علي بن أبي طالب بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله في رجب سنة تسع من الهجرة»^(١).

٢ - أدرج المؤرخ الشهر «البلاذري» في كتابه «فتوح البلدان» نصّ معاهدة رسول الله صلى الله عليه وآله مع يهود «المقنا» وذكر أن مصرياً رأى نصّ هذه المعاهدة في جلدٍ أحمر اللون عتيقٍ وكان قد استنسخها، فقرأها لي. ثم نقل البلاذري نص تلك المعاهدة وقد جاء في نهايتها:

«وليس عليكم امير الامن انفسكم أو من اهل بيت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم وكتب علي بن أبو طالب في سنة تسع»^(٢) ومع أن «أبا طالب» يجب أن يكتب حسب القواعد الادبية في المقام «أبي طالب» لكونه مضافاً اليه فقد كتب: «علي بن أبو طالب» ولكن مع ذلك ذكر المحققون ان قبيلة قريش كانت تتلفظ لفظة أب في جميع الموارد (أي في حالة النصب والرفع والجر) ب: «أبو» وتكتبها كذلك أيضاً، وقد صرح الاصمعيّ بهذا من بين الادباء.

ويقول البروفيسور «محمد حميد الله» مؤلف كتاب «الوثائق السياسية»: اني

(١) اخبار اصفهان تأليف ابي نعيم: ج ١ ص ٥٢ و ٥٣. (٢) فتوح البلدان: ص ٧٢.

لما كنت في المدينة المنورة في شهر محرم سنة ١٣٥٨ وجدت في الكتابة القديمة التي في جنوبي جبل سلع في المدينة المنورة «أنا علي بن أبو طالب»^(١).

٣ - جاء في معاهدة الصلح التي نظمها «خالد بن الوليد» لاهل دمشق، ونص فيها على احترام دمائهم، واموالهم وكنائسهم: «وكتب سنة ثلاث عشرة»^(٢).

وكلنا نعلم أن دمشق فتحت في أواخر حياة الخليفة الأول.

فما يدعيه البعض من ان التاريخ الهجري قد اتخذ في عهد الخليفة الثاني بارشاد وتأييد من الامام علي عليه السلام غير صحيح فان تاريخ ذلك يرتبط بالسنة السادسة عشرة او السابعة عشرة من الهجرة، والحال ان هذه المعاهدة قد نظمت ودوّنت وأرخت بالتاريخ الهجري قبل ذلك بأربع سنوات.

٤ - ان كتاب الصلح الذي كتبه الامام عليه عليه السلام بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله لنصارى نجران مؤرخٌ بالسنة الهجرية الخامسة. فقد جاء في هذه الرسالة:

«وأمر علياً ان يكتب فيه انه كتب لخمس من الهجرة»^(٣).

ان هذه الجملة تفيد بوضوح ان النبي الاكرم صلى الله عليه وآله هو واضع التاريخ الهجري ومؤسسة الاول وهو الذي أمر علياً عليه السلام بان يؤرخ ذلك الكتاب بالتاريخ الهجري في ذيله.

٥ - جاء في مقدمة الصحيفة السجادية: قال جبرئيل وهو يفسر رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله: «تدور رحى الاسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشر، ثم تدور رحى الاسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمساً، ثم لا بد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها»^(٤).

(١) مكاتب الرسول: ص ٢٨٩ نقلاً عن شرح ملا علي القاري لشفاء القاضي عياض، وكذا الوثائق السياسية.

(٢) الاموال: طبعة مصر ص ٢٩٧.

(٣) التراتيب الادارية: ج ١ ص ١٨١ نقلاً عن السيوطي.

(٤) مقدمة الصحيفة السجادية، سفينة البحار: ج ٢ ص ٦٤١.

٦ - يروي المحدثون الاسلاميون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لام

سلمة:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يُقْتَلُ حسين بن علي على رأس ستين من مهاجري»^(١).

٧ - قال أنس بن مالك: «حدثنا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ان النبي صلى الله عليه وآله قال: لا تأتي مائة سنة من الهجرة ومنكم عين تطرف»^(٢).

٨ - أرخ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله في ايام حياته الحوادث الاسلامية بهجرته فقالوا: وقع كذا في الشهر كذا من الهجرة، مثلا كانوا يقولون: حولت القبلة من بيت المقدس الى الكعبة في شهر شعبان ستة عشر شهراً او سبعة عشر شهراً او ثمانية عشر شهراً^(٣).

على رأس ثمانية عشر شهراً فرض صوم شهر رمضان^(٤).
وقال عبدالله بن انيس أمير الوفد الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله: خرجت من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس أربعة وخمسين شهراً^(٥).

وقال محمد بن سلمة عن غزوة القرطاء: خرجت في عشر ليال خلون من المحرم فغبت تسع عشرة وقدمت لليلة بقيت من المحرم على رأس خمسة وخمسين شهراً^(٦).

إن هذا النوع من تاريخ الحوادث والوقائع يكشف عن ان المسلمين كانوا الى السنة الخامسة من الهجرة يقيسون الحوادث بهجرة النبي صلى الله عليه وآله ويؤرخون بها عن طريق عد الأشهر، حتى إذا كانت السنة الخامسة من الهجرة

(٢) تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٦٧.

(١) مجمع الزوائد: ج ٩ ص ١٩٠.

(٤) المغازي: ج ٢ ص ٥٣١ تحقيق الدكتور مارسدن جونز.

(٣) نفس المصدر: ج ١ ص ٣٦٨.

(٦) المغازي: ج ٢ ص ٥٣٤.

(٥) المغازي: ج ٢ ص ٥٣١.

أمر رسول الله صلى الله عليه وآله باحلال السنة الهجرية مكان الشهر الهجري (كما مرّ في الرسالة رقم ٤) حيث أمر النبي صلى الله عليه وآله بان يؤرّخ الكتاب الذي كتبه لنصارى نجران بالعام الهجري.

٩ - نقل المحدثون الاسلاميون عن الزهري قوله: ان رسول الله صلى الله عليه وآله لما قدم المدينة مهاجراً أمر بالتاريخ فكتب في ربيع الأول (اي شهر قدومه المدينة)^(١).

١٠ - روى «الحاكم» عن «ابن عباس» ان التاريخ الهجري بدأ من السنة التي قدم فيها النبي صلى الله عليه وآله المدينة^(٢).

إن هذه النصوص تحكي عن أنّ قائد الاسلام الأكبر قد أوضح مسألة التاريخ من اليوم الاول. وانه جعل هجرته مبدأ لذلك التاريخ. غاية ما هنالك أن هذا التاريخ كان إلى فترة من الزمن يعدّ بالأشهر ثم حل العدّ بالأعوام منذ حلول السنة الخامسة من الهجرة محل العدّ بالأشهر.

سؤال:

ويمكن ان يسأل سائل: اذا كان حقاً أن النبي صلى الله عليه وآله هو مؤسس التاريخ الهجري وواضعه الاول فماذا نفعل بالخبر الذي رواه كثير من المحدثين والمؤرخين.

فانهم يقولون: رفع رجل إلى عمر صكاً مكتوباً على آخر بدين يحلّ عليه في شعبان فقال عمر: اي شعبان؟ أمّن هذه السنة أم التي قبلها أم التي بعدها؟ ثم جمع الناس (أي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله) فقال: ضعوا للناس شيئاً يعرفون به حلول ديونهم... فيقال: ان بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم كلما هنك ملك أرتخوا من تاريخ ولاية الذي بعده ففكر هو ذلك.

(١) فتح الباري: ج ٧ ص ٢٠٨، تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٨٨ طبعة دارالمعارف.

(٢) مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٣ و ١٤ وقد صححه على شرط مسلم.

ومنهم من قال: أرخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر فكرهوا ذلك لطوله أيضاً.

وقال آخرون: أرخوا من مولد رسول الله صلى الله عليه وآله.
وقال آخرون: أرخوا من مبعثه. وأشار علي بن أبي طالب عليه السلام أن يؤرخ من هجرية الى المدينة لظهوره على كل أحد، فانه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن عمر ذلك والصحابة، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله (١).

الجواب:

إن هذا القسم من التاريخ لا يمكن الاستناد إليه في مقابل النصوص الكثيرة التي وصفت الرسول العظيم صلى الله عليه وآله بكونه واضع التاريخ الهجري ومؤسسة الأول.

هذا مضافاً إلى أنه من الممكن أن يكون التاريخ الهجري الذي وضعه النبي الكريم صلى الله عليه وآله قد تعرض للترك، وفقد رسميته بمرور الزمن وقلة الحاجة إلى التاريخ ولكن جدد في زمن الخليفة الثاني، بسبب اتساع نطاق العلاقات وأعيد الاهتمام به لاشتداد الحاجة إليه في هذا العهد.

التذكير بنقطتين:

١ - لانجد في الاقتراحات التي عرضت على الخليفة في مجال التاريخ أي ذكر للتاريخ المسيحي الذي يجعل ميلاد السيد المسيح عليه السلام مبدءً للتاريخ.

والعلة هي: أن التاريخ الميلادي ظهر في القرن الرابع الاسلامي بين

(١) البداية والنهاية: ج ٧ ص ٧٣ و ١٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٢ ص ٧٤، الكامل

لابن الاثير: ج ١ ص ١٠.

المسيحيين بعد سلسلة من المحاسبات التخمينية، فهو لم يكن رائجاً قبل ذلك .
٢ - ان البلاد والاقطار الاسلامية بحاجة اليوم إلى الوحدة والاتفاق اكثر
من اي زمن مضى .

ومن مظاهر تلك الوحدة هو السعي للحفاظ على التاريخ الاسلامي
الهجري .

ومن هنا يتوجب على الاقطار الاسلامية ان تقيم كل روابطها، وعلاقاتها
على أساس التاريخ الهجري، شمسياً كان أو قرياً .

وان هذا الأمر بحاجة الى مؤتمر إسلامي كبير يشترك فيه كبار الشخصيات
الفكرية الاسلامية من أجل توحيد التاريخ، ودراسة السبل الكفيلة بالوصول الى
هذا الأمر، والتخلص من التبعية الغربية في التاريخ .

ان من المؤسف جداً أن تتجاهل بعض الدول الاسلامية والعربية
التاريخ الهجري وتعتمد التاريخ الميلادي المسيحي، حتى أن شيخ الجامع الأزهر
الذي يشكل قمة القيادة الدينية في المجتمع السني يؤرخ رسائله بالتاريخ الميلادي،
ولا يذكر الى جانبه التاريخ الهجري على الأقل!!^(١)

مؤامرة الطاغوت:

وكانت ايران من الاقطار الاسلامية التي حافظت بشدة على التاريخ
الهجري، واعتمدته في اعمالها، ولكن في المؤامرة التي نفذت بواسطة الطاغية
المقبور في عام ١٣٩٩هـ استبدلت التاريخ الهجري بالتاريخ الشاهنشاهي وأعلن
في وسائل الاعلام عن وجوب اعتماد هذا التاريخ المختلق بدل التاريخ الهجري
الاصيل!!

ولقد تصوّر الطاغوتُ الأرعن أنه يستطيع بحذف التاريخ الهجري، واستبداله

(١) وقد رأيت أنا شخصياً رسالة من شيخ الجامع الأزهر السابق هو الشيخ محمود عبدالحليم وعليها
التاريخ الميلادي فحسب!!

بالتاريخ الشاهنشاهي المشؤوم تثبيت قواعد حكومته المهزوزة، وسلطانه المنخور، ونظامه الظالم المهترئ، مدة أطول، ولكن العناية الالهية، وهمة الشعب الإيراني المسلم العالية، وقيادة الاستاذ الاكبر آية الله العظمى الإمام الخميني قدس سره الشريف أفشلت هذه المحاولة النكراء، وآل الأمر إلى اسقاط النظام الشاهنشاهي بثورة الشعب المجيدة واقامة حكومة الجمهورية الاسلامية على انقاض الحكم الملكي المباد، واحلال التاريخ الهجري الاسلامي المبارك محلّ التاريخ الشاهنشاهي المختلق. والحمد لله^(١).

برنامج الرحلة في حادث الهجرة:

لقد كان على رسول الله صلى الله عليه وآله ان يقطع - للوصول الى المدينة - ما يقرب من اربعمائة كيلومتراً، ولاشك أن طيّ هذه المسافة الطويلة تحت تلك الحرارة العالية الدرجة بحاجة إلى خطة صحيحة، لضمان السلامة، خاصة وانهم كانوا يخافون من ان يقوم الأعراب الذين كانوا ربما يصادفونهم في اثناء الطريق باخبار قريش بهم، ولهذا كانوا يسيرون ليلاً ويستريحون نهاراً. ويبدو أن شخصاً شاهد النبيّ ومن معه في اثناء الطريق فرجع إلى مكة وأخبر قريشاً بذلك فخرج «سراقة بن مالك بن جعشم» يطلبهم طمعاً في جائزة قريش الكبرى فلحق برسول الله صلى الله عليه وآله وقد صرف قريشاً عن ملاحقة النبيّ صلى الله عليه وآله قبل ذلك ليتفرد بها.^(٢)

يقول ابن الاثير: تبعهم سراقة فلحقهم فقال أبو بكر: يا رسول الله ادركنا الطلب، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تحزن إنّ الله معنا».

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم اكفني شرّ سُراقة بما شئت» فجمع به فرسه وطرحه أرضاً.

(١) يستخدم في ايران تاريخ هجري آخر هو التاريخ الهجري الشمسي وهو ينفع لمعرفة الفصول وماشاكل ذلك .

(٢) التاريخ الكامل: ج ٢ ص ١٠٥ .

فعلم سراقه أن هذا من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله ولهذا قال بنبرة المعتذر الملتمس: يا محمد هذه إبلي بين يديك فيها غلامي.

وان احتجت الى ظهر (اي مركوب) أو لبن فخذ منه فقد حكمتك في مالي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا حاجة لي في مالك^(١).

وروى المجلسي ان سراقه قال: فسلي حاجة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: رُدَّ عَنَّا مَنْ يَطْلُبُنَا مِنْ قَرِيْشٍ.

فانصرف سراقه فاستقبله جماعة من قريش في الطلب فقال لهم: انصرفوا عن هذا الطريق فلم يمر فيه أحد، وأنا اكفيكم هذا الطريق فعليكم بطريق اليمن والطائف.

وهكذا ما كان يمر باحد إلا وصرفه عن البحث عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا الطريق بمثل هذا الكلام.

ثم إن كتاب السيرة من الشيعة والسنة يذكرون لرسول الله صلى الله عليه وآله كرامات كثيرة في طريق مكة- المدينة ونحن ندرج واحدة بعضها: مر رسول الله صلى الله عليه وآله في أثناء الطريق على خيمة أم معبد وكانت امرأة شجاعة فاضلة فنزلوا بخيمتها وطلبوا منها تمراً ولحماً أو لبناً يشترون.

فقالت: ما يحضرنى شيء وكانت أغنامها قد أصيبت بالهزال بسبب الجذب، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى شاة في جانب من الخيمة فقال صلى الله عليه وآله لها: ماهذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد من الغنم فقال: هل بها من لبن؟.

قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين ان أحلبها؟

(١) يذكر كثير من المؤرخين كتابين الاخير في الكامل: ج ٢ ص ١٠٥، والمجلسي في البحار: ج ١٩ ص ٧٥-٨٨ القصة كما نقلناها هنا، ولكن مؤلف حياة محمد يقول: ان سراقه تطير لما كبابه فرسه وألقي في روعه أن الآفة منعة منه ضالته.

قالت: نعم ان رأيت بها حلباً فاحلبها.
 فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وآله، فمسح بيده ضرعها، وسمى الله عزوجل، ودعا لها في شاتها قائلاً: اللهم بارك لها في شاتها فدرت لبناً كثيراً بفضل دعائه صلى الله عليه وآله، فطلب إناء وحلبها، فسقاها أولاً حتى رُوِيَتْ ثم سقى أصحابه حتى رَوَوْا وشرب هو آخرهم، وقال:
 «ساقى القوم آخرهم شرباً».

ثم حلب الشاة مرة ثانيةً فغادره عندها، وثم ارتحلوا عنها إلى المدينة.^(١)
 وقد ذكرت هذه الكرامة في كثير من كتب السيرة والتاريخ، وهو أمر ممكن في رؤية المؤمن بالله، لأن الدعاء أحد الأسباب التي تستطيع أن تؤثر في الطبيعة، وشأنها شأن غيرها من الكرامات التي ورد ذكرها في الكتب الدينية وصدفته التجربة^(٢).

النزول في قرية قباء:

تقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد الى مكة وكانت مساكن «بني عمرو بن عرف» ومركزهم.
 ولقد وصل رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه إلى قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، ونزل على «كلثوم بن الهرم» وهو شيخ من بني عمرو وكان ثمة جمع كبير من المهاجرين والانصار ينتظرون قدومه، ويستخبرون وروده.

ولقد لبث رسول الله صلى الله عليه وآله في قباء إلى آخر أيام الاسبوع، وقد خط في هذا الفترة مسجداً لقبيلة «بني عمرو بن عوف»، ونصب قبلته^(٣).

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٤٣؛ ج ١٩ ص ٩٩-١٠٣، الطبقات الكبرى: ج ١ ص ٢٣٠ و ٢٣١، تاريخ

الخميس: ج ١ ص ٣٣٣. أسد الغابة: ج ١ ص ٣٧٧.

(٣) تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٣٨.

وكان البعض ممن رافق رسول الله صلى الله عليه وآله يصبر عليه أن يسارع في الدخول إلى المدينة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر ابن عمه علياً.

ويقول: فما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أُمِّي وأخي، وابنتي (يعني علياً وفاطمة عليهما السلام)^(١).

وأقام عليّ عليه السلام بمكة ثلاث ليال بياهما، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع التي كانت عنده للناس فقد وقف عليه السلام على مكان مرتفع في مكة ونادى قائلاً:

«مَنْ كَانَ لَهُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ أَمَانَةٌ أَوْ وَدِيعَةٌ فَلْيَأْتِ فَلنؤدِّ إِلَيْهِ أَمَانَتَهُ».

فكان يأتيه من له امانة او وديعة عند رسول الله صلى الله عليه وآله ويذكر علامتها ويأخذها فلما فرغ عليه السلام من اداء الامانات والودائع خرج بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وامه فاطمة بنت اسد، وفاطمة بنت الزبير وآخرين ممن لم يكن قد هاجر مكة حتى تلك الساعة، وتوجه بهم نحو المدينة ليلاً سالكاً بها طريقاً في «ذي طوى».

كتب الشيخ الطوسي في اماليه في هذا الصدد يقول: إن جواسيس قريش عرفت بسفر علي مع تلك الجماعة، فخرجوا لملاحقتهم، لغرض اعادتهم الى مكة، فادركوهم في منطقة «ضجنان».

ووقع بين رجال قريش وبين علي عليه السلام تلاح وتناوش، وأخذ وردُّ، ودنا الرجال من النسوة، والمطايال يثوروها فحال علي عليه السلام بينهم، وبينها، ولم يجد عليه السلام طريقاً إلا أن يدافع عن حرم الاسلام والمسلمين، فشد عليهم بسيفه شدة الأسد الغضيب والليث الغيور وهو يقول مرتجزاً:

خَلُّوا سَبِيلَ الْجَاهِدِ الْمَجَاهِدِ أَلَيْتُ لَا أَعْبُدُ غَيْرَ الْوَاحِدِ

(١) الفصول المهمة لابن صباغ المالكي: ص ٣٥ دون ان يذكر اسماً، وامالي الشيخ الطوسي: ج ٢

فلما وجدوا ما به من الجدة والغضب خافوه وتفرقوا عنه وقالوا - بنبرة الخائف المتضرع -: إحبس عنا نفسك يا ابن أبي طالب، فقال عليه السلام: «فإني مُنْطَلِقٌ إِلَى ابْنِ عَمِّي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِيَثْرِبٍ فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ أُفْرِقَ لَحْمَهُ وَأُهْرِيقَ دَمَهُ فَلْيَتَّبِعْنِي، وَلْيَدْنُ مِنِّي».

فتركه القوم وعادوا من حيث أتوا، وواصل الركب رحلته باتجاه المدينة. يقول ابن الأثير: قدم «علي» المدينة وقد تظفرت قدماه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ادعوا لي علياً، قيل: لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ واعتقه وبكى رحمةً لما تقدمه من الورم^(١).

ولقد قدم رسول الله قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والتحق به علي عليه السلام في منتصف ذلك الشهر نفسه^(٢)، ويؤيد هذا القول ما ذكره الطبري في تاريخه إذ كتب يقول: وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ [وآله] وسلم الودائع التي كانت عنده إلى الناس^(٣).

المدينة تهبُّ لقدم النبي:

ولقد كان يوم دخول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يوماً عظيماً جداً، ومشهوداً. فكم ترى ستكون عظيمةً فرحةً الذين آمنوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ منذ ثلاث سنوات، وظلوا طوال هذه الأعوام يبعثون برسلمهم ووكلائهم إليه، ويذكرون اسمه المقدس، ويصلون عليه في صلواتهم كل يوم، إذا سمعوا أن

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ١٠٦.

(٢) إمتاع الأسماع: ص ٤٨ وعلى هذا تكون محاصرة بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد تمت ثلاث ليال قبل شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة، وقد خرج النبي من داره ليلة الاثنين ودخل غار ثور وبقي ما كثر فيه ثلاثة أيام، وخرج منه ليلة الخميس أول ربيع الأول وتوجه نحو المدينة ووصل قباء في الثاني عشر من ربيع الأول من الهجرة.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٨٢.

قائدهم ذلك الذي طال انتظارهم اياه، واشتد تشوقهم إليه كائن عند ميلين من مدينتهم قد نزل في قبا اياماً، وسيقدم اليهم ويدخل مدينتهم بعد ايام؟ وكم سيكون مبلغ ابتهاجهم، وأي ابتهاج ترى سيعم كل صغير وكبير؟ إنه حقاً لأمر يعجزُ القلم عن بيانه، ويكل اللسان عن وصفه.

ولقد كان لفتية الأنصار وشبابهم الضامنين إلى الاسلام الحنيف برنامج رائع وعظيم، فقد كانوا عمدوا بغية تطهير جو المدينة من ادران الوثنية الى كل صنم في المدينة كان يقدس ويعبد فاحرقوه وكسروه، وقد كان كل شريف في بيته صنمٌ يمسه ويطيبه، ولكل بطن من الأوس والخزرج صنمٌ في بيت لجماعة يكرمونه ويطيّبونه، ويجعلون عليه منديلا ويدبجون له^(١).

ولابأس في أن نذكر نموذجاً من هذا العمل الجليل الذي قام به الانصار في التخلص من الوثنية:

لما قدم من بايع من الأنصار في العقبة الثانية الى المدينة اظهروا الاسلام بها وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دين الشرك وعبادة الأوثان منهم «عمرو بن الجموح» وكان من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم وكان ابنه «معاذ» بن عمرو قد شهد بيعة العقبة.

وكان عمرو هذا قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناة، كما كانت الاشراف يصنعون، تتخذة إلهاً تعظمه وتطهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح كانوا يتسللون في الليل إلى صنم عمرو بن الجموح فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفر بني سلمة ومزابلها، وفيها فضلات الناس وعذرها منكساً على رأسه!!

فاذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على آهتنا هذه الليلة؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيّبه. ثم قال للصنم: أما والله لو أعلم من فعلَ هذا بك لأخزيتَه!

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٠٧.

فاذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ثانيةً ففعلوا به مثل ما فعلوا به أولاً .
فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى والوسخ فيغسله ويطهره ويطيبه،
ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك .

فلما اكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطرهه وطيبه ثم جاء
بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ماترى، فإن كان
فيك خيرٌ فامتنع، ودافع عن نفسك فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا على ذلك الصنم فأخذوا السيف من عنقه، ثم
أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بجبل، ثم ألقوه في بئرٍ من آبار بني سلمة فيها عذر من
عذر الناس وفضلاتهم . ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به .
فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر نكساً مقرزناً بكلب، ميت، فلما رآه
وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه فاسلم، وهجر الوثنية والأوثان
وحسن إسلامه .

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر
من شأنه ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| والله لو كنت إلهاً لم تكن | أنت وكلبٌ وسط بئرٍ في قرن |
| أفٍ لملقائك إلهاً مستدن | الآن فتشناك عن سوء الغبن |
| فالحمد لله العلي ذي المين | الواهب الرزاق ديان الدين |
| هو الذي أنقذني من قبل أن | أكون في ظلمة قبرٍ مرتهن |

بأحمد المهدي النبي المرتهن^(١)

النبي يدخل المدينة:

بعد أن التحق علي عليه السلام ومن معه برسول الله صلى الله عليه وآله في
قباء توجه رسول الله صلى الله عليه وآله الى المدينة ولما انحدر من ثنية الوداع (و

هي منطقة قريبة من المدينة) وحط قدمه على تراب يثرب استقبله الناس رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، استقبالاً عظيماً ورحبوا به اعظم ترحيب، وردد المرخبون أناشيد الترحيب التالية:

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ | ظَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا |
| مَا دَعَا لَلَّهِ دَاعٍ | وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا |
| جِئْتُ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ | أَيْهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا |

وكانت بنو عمرو بن عوف قد اجتمعت عنده وأصرت عليه بأن ينزل في قباء وقالوا: أقم عندنا يا رسول الله فإننا أهل الجد والجلد، والحلقة (أي السلاح) والمنعة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقبل.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وقرب نزوله المدينة فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا يمر بحيٍّ من أحياء الانصار إلا وثبوا في وجهه وأخذوا بزمام ناقته وأصروا عليه بأن ينزل عليهم هذا ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: خَلُّوا سَبِيلَهَا فَانْهَا مَأْمُورَةٌ.

واخيراً لما انتهت ناقته - وكان صلى الله عليه وآله قد أرخى زمامها - إلى باب المسجد الذي هو اليوم، ولم يكن مسجداً إنما كان أرضاً واسعة ليتيمين من الخزرج يقال لهما: سهل وسهيل وكانا في حجر أسعد بن زرارة فبركت الناقة على باب «أبي أيوب» خالد بن زيد^(١) الانصاري الذي كان على مقربة من تلك الأرض.

فاغتتمت أم أبي أيوب الفرصة فبادرت إلى رحل رسول الله صلى الله عليه وآله فحلته وأدخلته منزلها، بينما اجتمع عليه الناس ويسألونه أن ينزل عليهم. فلما أكثروا عليه، وتنازعوا في أخذه قال صلى الله عليه وآله أين الرجل؟؟ فقالوا: يخوف أم أيوب قد أدخلته في بيتها.

فقال صلى الله عليه وآله: «المرء مع راحله» وأخذ أسعد بن زرارة بزمام

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٠٨ ولكن ذهب البعض كصاحب الكامل في التاريخ إلى أنها كانا في حجر معاد بن عفراء.

الناقة فحوّلها الى منزله^(١).

أصل النفاق ومنشؤه:

كانت الأوس والخزرج قد اتفقتا على أن تملك عبد الله بن أبي بن سلول (رئيس المنافقين وكبيرهم) عليهم، وذلك قبل أن تباع رسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة وتؤمن به وتعتنق الاسلام، ولكن هذا القرار ألغي بعد اتصال الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وآله، من هنا حنق عبد الله بن أبي على رسول الله صلى الله عليه وآله واضمر له العداوة منذ ذلك الحين، ولم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله إلى آخر حياته، بل كان ينافق باسلامه.

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة وشاهد عبد الله بن أبي ذلك الاستقبال والترحيب العظيمين لرسول الله صلى الله عليه وآله الذي قام بهما الأوس والخزرج، شق عليه ذلك جداً، ولم يستطع اخفاء حنقه وغضبه، وحده وعداوته للنبي صلى الله عليه وآله!

فعندما انتهى صلى الله عليه وآله إلى عبد الله بن أبي - وقد أرخى صلى الله عليه وآله زمام ناقته لتبرك حيث تريد، أخذ عبد الله كتمه ووضع على أنفه، وقد ثارت الغبرة بسبب الزحام وقال للنبي صلى الله عليه وآله بنبرة الحائيق الغاضب: يا هذا إذهب إلى الذين غرّوك وخذعوك وأتوا بك، فانزل عليهم، ولا تُعشنا في ديارنا!!

فقام سعد بن عباد - وقد خشي أن يسوء رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الموقف الوقح الشرير فقال: يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء، فإننا كنا اجتمعنا على ان نملكك علينا، وهو يرى الآن أنك قد سلّبتُه أمراً قد كان أشرف عليه^(٢).

(٢) بخار الأنوار: ج ١٩ ص ١٠٨.

(١) تاريخ الخميس: ج ١ ص ٣٤١.

هذا ويتفق عامة المؤرخين وكتاب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل يثرب يوم الجمعة، وصلى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم، وكانت هذه أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وآله في الاسلام فخطب في هذه الجمعة وهي أول خطبة خطبها في المدينة، وقد تركت هذه الخطبة البديعة البليغة التي لم يسمع اهل المدينة مثيلها لفظاً ومعنى من قبل، أثراً عميقاً وطيباً في قلوبهم ونفوسهم.

وقد أدرج ابن هشام نص الخطبة في سيرته^(١) كما أدرجها المجلسي في بحاره^(٢) أيضاً.

غير أن عبارات ومضامين الخاتبة التي نقلها ابن هشام واثبتها في سيرته تختلف عما رواها واثبتها المجلسي، وللاطلاع على ذلك يراجع المصدران المذكوران.

(١) السيرة النبوية: ج ١ ص ٥٠٠ و ٥٠١.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٢٦.

الفهارس

- ١ - فهرس الآيات القرآنية
- ٢ - فهرس الأحاديث الشريفة
- ٣ - فهرس الأشعار
- ٤ - فهرس الأعلام
- ٥ - فهرس القبائل والأمم
- ٦ - فهرس الكنى والألقاب
- ٧ - فهرس الوقائع والأيام
- ٨ - فهرس الأماكن والبلدان
- ٩ - فهرس المذاهب والأديان ونظم الحكم
- ١٠ - فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة
- ١١ - فهرس المواضيع

(١)

فهرس الآيات القرآنية

البقرة - ٢

| الآية | رقها | الصفحة |
|---|-----------|-----------|
| وآتينا عيسى بن مريم البينات | ٧٨ | ٢٤١ |
| ولما جاءهم كتاب من عند الله | ٨٩ | ٣٥٠ و ٢٨١ |
| رب اجعل هذا بلداً آمناً | ١٢٦ | ١٤٥ و ١٤٢ |
| ربنا وابعث فيهم رسولاً | ١٢٩ | ٣٥٠ |
| إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي | ١٣٣ | ١٣١ |
| إني جاعلك للناس إماماً | ١٣٤ | ٢٤٠ |
| وما كان الله ليضيع إيمانكم | ١٤٣ | ٣٠٨ |
| الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه | ١٤٦ | ٣٤٩ |
| ان الذين يكتُمون ما انزل الله | ١٧٤ | ٣٤٩ |
| شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن | ١٨٥ | ٣٤٤ |
| قل هي مواقيت للناس | ١٨٩ | ٦٠٦ |
| ومن الناس من يعجبك قوله | ٢٠٤ | ٥٩٥ |
| كان الناس أمة واحدة | ٢١٣ | ٣١٦ |
| يسألونك عن الخمر | ٢١٩ | ٤٥ |
| وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن | ٢٣١ | ٦٣ |
| وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن | ٢٣٣ | ٦٢ |
| قالوا إنما البيع مثل الربا | ٢٧٥ | ٤٩ |
| واحل الله البيع | ٢٧٥ | ٥٠ |
| يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى | | |
| من الربا | | |
| | ٢٧٩ و ٢٧٨ | ٤٩ |

آل عمران - ٣

| | | |
|-----|-----|---|
| ٢٢٣ | ٣٧ | وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب |
| ٢٤١ | ٤٢ | يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك |
| ٤٧٩ | ٤٩ | وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم |
| ٤٧٩ | ٦١ | فمن حاجك من بعد ما جاءك من البينات |
| ٢٤٠ | ٦٧ | ولكن كان حنيفاً مسلماً |
| ٣٤٨ | ٨١ | واذ أخذ الله ميثاق النبيين |
| ٣٥٥ | ١٤٥ | وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله |
| ٤٢ | ١٥٣ | واعتصموا بحبل الله جميعاً |
| ٦٦ | ١٥٣ | وكنتم على شفا حفرة من النار |
| ٣٥٠ | ١٦٤ | لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم |
| ٣٤٩ | ١٨٧ | واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب |

النساء - ٤

| | | |
|-----|-----|---|
| ٦٣ | ١٩ | يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم |
| ٦٩ | ٢٢ | ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم |
| ٤٤١ | ٥٦ | كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها |
| ٤٤٩ | ٨٢ | ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً |
| ٢٤١ | ١٧١ | انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته |

المائدة - ٥

| | | |
|-----|-----|--------------------------------------|
| ٤٧ | ٣ | حرمت عليكم الميتة |
| ٤٧٥ | ٤٥ | وقالوا اذا ضللنا في الأرض |
| ١٠١ | ٧٥ | ما المسيح بن مريم إلا رسول |
| ٣٠٢ | ٩٠ | انما الخمر والميسر والانصاب |
| ٤٤ | ١٠٣ | ما جعل الله من بحير ولا ... |
| ٤٧٥ | ١٠٤ | واذا قيل لهم تعالوا إلى ما انزل الله |

الأنعام - ٦

| | | |
|-----|---|--------------------------------|
| ٤٣٦ | ٧ | ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس |
| ٤٧٥ | ٨ | وقالوا لولا انزل عليه ملك |

| | | |
|-----------------|-----------|--|
| ٣٥١ | ١٩ | وأوحى إليّ هذا القرآن |
| ٣٢٨ | ٥٠ | إن اتبع الآ ما يوحى إليّ |
| ١٢١ | ٧٧ | لئن لم يهدني ربي |
| ١٢٥ | ٧٩ | اني وجهت وجهي للذي فطرنى |
| ٢٣٩ | ٨٤ | ووهبنا له اسحاق ويعقوب... |
| ٤٣ | ١٠٠ | وجعلوا له شركاء الجن وخلقهم |
| ٧ - الأعراف | | |
| ١٢١ | ١٢٧ | وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه |
| ٨٣ و ٦٧ و ٤٥ | ١٥٧ | ويضع عنهم إصرهم والاغلال |
| ٢٢٤ | ١٥٧ | الذين يتبعون النبي الأمي |
| ٢٥٨ | ١٥٧ | فالذين امنوا به وعزروه |
| ٨ - الأنفال | | |
| ٥٨٦ | ٣٠ | واذ يمكركم الذين كفروا |
| ٩ - التوبة | | |
| ٢٤٥ | ٣٦ | ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً |
| ٢٥٦ و ٤٩ | ٣٧ | انما النسيء زيادة في الكفر |
| ٦٠١ | ٤٠ | لا تحزن ان الله معنا |
| ٢٤٠ | ٨٤ | ان ابراهيم لأواه حلیم |
| ٤١٩ | ١٠٠ | والسابقون الاولون من المهاجرين |
| ٣٥٥ | ١٢٢ | وما كان المؤمنون لينفروا كافة |
| ١٣٢ | ١١٣ - ١١٤ | وما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين |
| ١٠ - يونس | | |
| ٤٧٦ و ٣١٠ | ١٥ | واذا تتلى عليهم آياتنا بينات... |
| ٢٩٧ و ٣٠٠ و ٢٤٢ | ١٦ | قل لو شاء الله ماتلوته |
| ١١ - هود | | |
| ٤٧٢ | ١٣ | ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور |
| ٣٥٦ | ٤٩ | تلك من انباء الغيب نوحيا اليك |

الرعد - ١٣

٤٣٨ ٤٠-٣٨ ولقد ارسلنا رسلاً من قبلك

إبراهيم - ١٤

١٤٥ ٣٥ رب اجعل هذا بلداً آمناً

١٤٢ ٣٧ ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد

الحجر - ١٥

٣٣٢ و ٤٧٢ ٦ وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون

٤٩١ ٩ انا نحن نزلنا عليك الذكر وانا له لحافظون

٤٩٦ ٤٢ ان عبادى ليس لك عليهم سلطان

٣٩٢ ٩٤ فاصدع بما تؤمر

٤١٣ ٩٥ انا كفيناك المستهزئين

النحل - ١٦

٦ ٥٩ و ٥٨ واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً

٤٩٦ ٠٩٩ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا

٤٧١ و ٢٣٥ ١٠٣ ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر

٤١٧ ١٠٦ و ١٠٥ انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون...

٢٤٠ ١٢٠ ان ابراهيم كان أمة قانتا لله

٤٧٧ ١٢٧ واصبر وما صبرك إلا بالله

الإسراء - ١٧

٥٤٨ و ٥٣٨ و ٤٧٨ ١ سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً

١٨١ ٨٨ قل لئن اجتمعت الانس والجن

٤٧٧ و ٤٣٦ و ٤٣٥ و ٤٣٣ ٩٣ و ٩٠ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض

٤٤٣ ٣٨٥ وقرآنا فرقناه لتقرأه على مكث

الكهف - ١٨

٤٧٧ ٢٨ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم

مريم - ١٩

٢٩٥ ١٢ يا يحيى خذ الكتاب بقوة

| | | |
|-----------------|---------|--|
| ٢٤٢ | ١٥ و ١٤ | ولم يجعلني جباراً شقياً... |
| ٢٩٥ و ٢٢٢ و ٢٠١ | ٣٣-١٦ | واذكر في الكتاب مريم اذ... |
| ١٣٠ | ٤٧-٤٢ | اذ قال لآبيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع |

٢٠- طه

| | | |
|-----|-------|--------------------------------------|
| ٤٢٦ | ٨-١ | طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى... |
| ٢٠٠ | ٤٠-٣٧ | اذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على... |
| ٣١٤ | ٥٠ | رينا الذي أعطى كل شيء خلقه... |
| ٣٤٦ | ١١٤ | ولا تعجل بالقرآن قبل ان يقضى اليك... |

٢١- الأنبياء

| | | |
|-----|-------|----------------------------|
| ٣٣١ | ٥ | بل قالوا أضغاث أحلام |
| ٣٧ | ٧٠-٥١ | ولقد آتينا إبراهيم رشده... |
| ١٣٨ | ٥٧ | وتالله لا كيدن اصنامكم |
| ١٣٩ | ٦٤ | فرجعوا الى انفسهم فقالوا |
| ٢٣٨ | ٨١ | ولسليمان الريح عاصفة |

٢٥- الفرقان

| | | |
|---------------|-----|------------------------------------|
| ٣٥١ | ١ | تبارك الذي نزل الفرقان على عبده... |
| ٤٧٢ و ٣٠٤-٣٠٣ | ٦-٤ | وقال الذين كفروا ان هذا إلا افك... |
| ٤٧٤ | ٦-٥ | وقالوا اساطير الاولين اكتبها... |
| ٤٧٥ | ٧ | وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام |
| ٤٤٣ | ٣٢ | لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة |
| ٤٤٥ و ٤٤٢ | ٣٢ | كذلك لنثبت به قؤادك |
| ٤٤١ | ٣٢ | ورتلناه ترتيلاً |

٢٦- الشعراء

| | | |
|-----------|---------|------------------------------|
| ٤٧٢ | ١٥٣ | قالوا انما انت من المسحرين |
| ٣٣٦ | ١٩٥-١٩٣ | نزل به الروح الامين على قلبك |
| ٣٩٢ و ١٢٨ | ٢١٤ | وانذر عشيرتك الاقربين |
| ١٩٥ | ٢١٩ | وتقلبك في الساجدين |

| | | | |
|-----------|-------|---|--|
| | | النمل - ۲۷ | |
| ۲۳۸ | ۱۵ | ولقد آتينا داوود و سليمان علماً | |
| | | القصص - ۲۸ | |
| ۱۲۱ | ۳۸ | وقال فرعون يا ايها الملاما علمت لكم من إله غيري | |
| ۳۰۸ | ۴۶ | وما كنت بجانب الطور | |
| ۴۲ | ۴۶ | ولكن رحمة من ربك | |
| ۳۰۸ و ۲۹۷ | ۸۶ | وما كنت ترجوان يلقى اليك الكتاب | |
| ۳۰۱ | ۸۶ | فلا تكونن ظهيراً للكافرين | |
| | | الأحزاب - ۳۳ | |
| ۳۵۱ | ۴۰ | ما كان محمد أباً أحد من رجالكم | |
| | | سبأ - ۳۴ | |
| ۴۴ | ۸۹۷ | وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل | |
| ۳۳ | ۱۵ | لقد كان لسبأ في مسكنهم آية | |
| ۳۵۱ | ۲۸ | وما أرسلناك إلا كافة للناس | |
| | | فاطر - ۳۵ | |
| ۵۳۳ | ۳۶ | والذين كفروا لهم نار جهنم | |
| | | يس - ۳۶ | |
| ۵۸۸ | ۹ | فجعلنا من بين ايديهم... فهم لا يبصرون | |
| | | ص - ۳۸ | |
| ۴۷۵ | ۶۹۵ | وعجبوا أن جاءهم منذر... | |
| ۲۳۹ | ۴۵-۴۶ | واذكر عبادنا ابراهيم... | |
| ۲۴۰ | ۴۸ | وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار | |
| | | فصلت - ۴۱ | |
| ۴۳۱ | ۵-۱ | حم تنزيل من الرحمان الرحيم... | |
| ۴۵۳ | ۳۰ | ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا | |
| | | الفتح - ۴۸ | |
| ۱۷۷ | ۴ | ولله جنود السماوات والأرض | |

| | | |
|----------|---------|--|
| | | الطور- ٥٢ |
| ٤٧٢ | ٢٩ | فذكر فانت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون |
| | | النجم - ٥٣ |
| ٣٣٢ | ٥-١ | والنجم اذا هوى... |
| ٤٩ | ٤٥٣ | وما ينطق عن الهوى... ان هو الا وحي |
| ٣٢٨ | ٤ | ان هو الا وحي يوحى |
| ٤٩٣ و ٤٣ | ٢٠ و ١٩ | أفرايتم اللات والعزى... ومناة الثالثة الأخرى |
| ٥٣٩ | ١٨، ١٢ | افتمارونه على ما يرى |
| | | الصف - ٦١ |
| ٣٧٩ | ٦ | واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل |
| ٤٧٥ | ٤٨ | وعجبوا أن جاءهم منذر |
| | | القلم - ٦٨ |
| ٢٥٩ | ٤ | وانك لعلی خلق عظیم |
| ٤٧٧ | ٤٨ | واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن |
| | | الحاقة - ٦٩ |
| ٤٧٢ | ٤٢ | ولا بقول كاهن... |
| | | المزمل - ٧٣ |
| ٤٧٧ | ١٠ | فاصبر لحكم ربك |
| | | المدثر - ٧٤ |
| ٣٧٩ | ٣ و ١ | يا ايها المدثر قم فانذر |
| ٢٩٧ | ٥ - ٤ | وثيابك فطهر، والرجز فاهجر |
| ٣٠١ | ٥ | والرجز فاهجر |
| ٤٣٠ | ٣٠ - ١١ | ذربي ومن خلقت وحيداً... |
| ٤٦٩ | ٥١ - ١١ | ذربي ومن خلقت وحيداً... |

| | | | |
|-----|---------|---------------|------------------------------------|
| | | النازعات - ۷۹ | |
| ۱۷۷ | ۵ | | فالمديرات أمراً |
| ۱۲۱ | ۲۴ | | اناربيكم الاعلى |
| | | عبس - ۸۰ | |
| ۴۸۱ | ۱۱ - ۱ | | عبس وتولى ان جاءه الأعمى ... |
| | | التكوير - ۸۱ | |
| ۵۸ | ۸ | | واذ المؤودة سئلت |
| ۳۳۲ | ۲۸ - ۲۰ | | انه لقول رسول كريم ... |
| | | البروج - ۸۵ | |
| ۱۶۱ | ۹ - ۴ | | قتل أصحاب الأخدود |
| | | الضحى - ۹۳ | |
| ۳۸۰ | ۱۱ - ۱ | | والضحى والليل اذا سجى ... |
| ۲۹۷ | ۷ - ۶ | | الم يجدك يتيماً فأوى ... |
| ۲۹۸ | ۸ | | ووجدك ضالاً فهدى ... |
| | | الانشراح - ۹۴ | |
| ۳۰۰ | ۴ - ۱ | | الم نشرح لك صدرك |
| ۲۰۹ | ۴ | | ورفعنا لك ذكرك |
| | | العلق - ۹۶ | |
| ۳۲۲ | ۵ - ۱ | | اقرأ باسم ربك الذي خلق ... |
| | | القدر - ۹۷ | |
| ۳۴۴ | ۳ - ۱ | | انا انزلناه في ليلة القدر |
| | | الفيل - ۱۰۵ | |
| ۱۶۵ | ۵ - ۱ | | الم تركيف فعل ربك باصحاب الفيل ... |
| | | الكوثر - ۱۰۸ | |
| ۵۰۹ | ۴ - ۱ | | انا اعطيناك الكوثر |

الكافرون - ١٠٩

٤٧٦

قل يا ايها الكافرون

المسد - ١١١

٤١٤

٥ - ١

تبت يدا أبي لهب وتب...

(٢) فهرس الأحاديث الشريفة

| الصفحة | القائل | نص الحديث |
|--------|----------|---|
| ٣٦٢ | (علي) | آمنت قبل الناس بسبع سنين |
| ٣٦٣ | (علي) | أتعلمون أن الله فضل في كتابه السابق ... |
| ٣٦٤ | (النبي) | اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان ... |
| ٣١٦ | (علي) | أخذ الله على الوحي ميثاقهم ... |
| ٤٠١ | (النبي) | أرأيتم إن أخبرتم أن العدو مصبحكم |
| ٩٢ | (علي) | أرسله على حين فترة من الرسل |
| ٩٤ | (علي) | أرسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء |
| ٣٥١ | (النبي) | أرسلت إلى الناس كافة |
| ٢١٨ | (الباقر) | استرضع لولدك بلبن الحسان |
| ٣١٦ | (علي) | أسلمت قبل ان يسلم الناس بسبع سنين |
| ٩٤ | (علي) | اضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة |
| ٥٣٣ | (النبي) | أعطيت الشفاعة وهي نائلة من أمي من لا يشرك (النبي) |
| ٢٥٩ | (النبي) | أفضل نساء أمي اربع ... |
| ٨٢ | (النبي) | العيافة والطيرة والطرق من الجبت ... |
| ٢٨٧ | (النبي) | اللهم أنيس المستوحشين |
| ٣٦٢ | (علي) | اللهم لا أعرف عبداً من هذه الأمة عبدك ... |
| ٦١٥ | (النبي) | اللهم اكفني شر سراقه بما شئت |
| ٦١٧ | (النبي) | اللهم بارك لها في شاتها |
| ٥١ | (النبي) | إلى شهادة ان لا اله إلا الله |

- ٥٦٣ (النبي) الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء
- ٥٢٩ (النبي) أما والله لاستغفرنّ لك ولاشفعن فيك شفاعه
- ٣٦١ (علي) أمنكم أحدّ أسلم مع رسول الله
- ٣٦١ (علي) أنا أول رجل أسلم مع رسول الله
- ٣٦١ (علي) أنا اول من اسلم مع النبي
- ٣٦١ (علي) أنا اول من صلّى مع رسول الله
- ٥٦٧ (النبي) انا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم الى ...
- ٣٦١ (علي) انا الصديق الاكبر آمنت قبل ان يؤمن ابوبكر
انتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة
- ٥٧٢ (النبي) الحواريين لعيسى بن مريم
- ٣٦٤ (علي) أنشدكم الله أيها الرهط اتعلمون أن...
- ٣٥٧ (علي) أنا عبدالله واخو رسول الله
- ٣٦١ (علي) أنا عبدالله واخو رسول الله وانا الصديق الاكبر
- ٣٩٥ (علي) انا يارسول الله اكون وزيرك على ما بعثك الله
- ٢١٨ (علي) أنظروا من يرضع أولادكم
- ٣٦٢ (علي) انّ أولى الناس بامر هذه قديماً وحديثاً
- ٨٢ (النبي) ان كثيراً من التماثم شرك
- ٣٤٨ (النبي) إنّ الله بعث محمّداً نذيراً للعالمين
- ٣٤٨ (النبي) انّ الله تعالى ما بعث آدم عليه السّلام ومن بعده
- ٣٩٤ (النبي) انّ الرائد لا يكذب أهله
- ٥٣٠ (الصادق) إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف
- ٣٦٣ (علي) إنّ محمّداً (ص) لما دعى إلى الايمان والتوحيد
- ٥٥٣ (الكاظم) إنّ الله لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان
- ٣٩٨ (النبي) إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم
- ٥٨٨ (علي) أوتسلمنّ بمبيتي هناك يانبي الله
- ٣٥٨ (النبي) أولكم واردة عليّ الحوض اولكم اسلاماً

- ١١ (علي) أي بني اني وان لم اكن عمّرت عمر من ...
- ٢٦٩ (الحسن) أيها الذاكر عليا انا الحسن بن علي
- ٦٩ (النبي) أيها الناس ان الشمس والقمر آيتان
- ٩٤ (علي) ثم إن الله سبحانه بعث محمّداً
- ٢٩٤ (الصادق) حجّ رسول الله (ص) عشر حجّات
- ٣٥٩ (النبي) زوّجتك خير أمتي اعلمهم علماً
- ٤١٦ (النبي) صبراً آل ياسر فان موعدكم الجنة
- ٣٦٣ (علي) صليت مع رسول الله ثلاث سنين قبل أن ...
- ٣٦١ (علي) عبادت الله مع رسول الله
- ٣٦٢ (علي) عبادت الله قبل ان يعبده أحد من هذه الأمة
- ٦١٩ (علي) فاني منطلق إلى ابن عمي رسول الله
- ٩٥ (الزهراء) فبلغ بالرسالة صادعاً بالندارة
- ٣٦٤ (علي) فلما بعث الله محمّداً للنبوّة واختاره للرسالة
- ١٩٥ (الصادق) في أصلاب النبيين نبي بعد نبي
- ٥٦٢ (النبي) قولوا لا اله إلا الله تفلحوا...
- ٢٤٤ (علي) كنا اذا احمرّ البأس اتقينا برسول
- ٥٥٦ (النبي) لا تبكي يا بنيّة فان الله مانع اباك
- ٢١٨ (الباقر) لا تسترضعوا الحمقاء
- ٣٦٢ (علي) لا والله ان كنت أول من صدّق به
- ٢٦٢ (النبي) لا والله ما ابدلني الله خيراً منها
- ٨٠ (النبي) للدابة على صاحبها ست خصال
- ٣٦٠ (النبي) لقد صلّت الملائكة عليّ، وعلى عليّ
- ٣٦٠ (النبي) لم أوامر بذلك (قالها النبي في جواب من خطب فاطمة) (النبي)
- ٣٦٠ (علي) لم يكن معي من الرجال غيره
- ٥٦١ (النبي) لو كان مطعم بن عدي حياً لو هبت ...
- ٥٢٩ (الباقر) لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان ...

- ٣٦٢ ماأعرف أحداً من هذه الامة عبدالله بعدنيناغيري (علي)
- ٢١٨ مامن لبن يرضع به الصبي اعظم بركة من لبن أمه (علي)
- ٢٥٢ مامن نبي إلا وقد رعى الغنم (النبي)
- ٩٣ مستقره خير مستقر (علي)
- ٣٩٨ من يؤازرنى يكون أخي ووصيي وخليفتي (النبي)
- ٢٩٣ مهلاً يا أماه فان معي من يحفظني (النبي)
- ٥٧١ موعدكم العقبه في الليلة الوسطى (النبي)
- ٥٧١ نم في فراشي فانه لا يخلص اليك شيء (النبي)
- ٩٢ واشهد أن محمداً عبده ورسوله (علي)
- ٩٤ واشهد أن محمداً عبده ورسوله ابتعثه والناس ... (علي)
- ١٩٥ واشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيد عباده (علي)
- ٥٣٣ وشفاعتي لمن شهد ان لا اله إلا الله مخلصاً (النبي)
- ٣٨٢ وكيف ينزل عليّ وانتم لا تقصون أظافركم (النبي)
- ٢٩٤ ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً ملكاً (علي)
- ٢٨٦ ولقد علمتم موضعي من رسول الله (علي)
- ٧٠ يا أماه لا ارى اخوتي في النهار (النبي)
- ٢٦٣ يا حميراء ان الله تبارك وتعالى بارك في ... (النبي)
- ٣٦٠ يا علي أخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي (النبي)
- ٥٨٨ يا علي ان قريشاً اجتمعت على المكر بي ... (النبي)
- ٣٦٠ يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيه احد (النبي)
- ٤٠٥ يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر ... (النبي)

(٣) فهرس الأشعار

| | |
|---------|--------------------------------|
| ٧٧ | أحلامكم لسهام الجهل شافية |
| ٧٤ | أبني لا تنس البلية إنها |
| ٢٨٨ | أبونا شفيح الناس حين سقوا به |
| ٧٩ | إذا اختلجت عيني اقول لعلها |
| ٧٩ | إذا اختلجت عيني تيقنت اني |
| ٧٤ | إذا متّ فادفني بجرّاء ما بها |
| ٦٧ | إذا متّ فادفني الى جنب كرمة |
| ٢٨٣،٥٥ | أربا واحداً ام ألف رب |
| ٥١٤ | اصبرن يا بنيّ فالصبر احجى |
| ٣٧٣ | ألا ان خير الناس بعد محمّد |
| ٧٧ | ألا حلاً في شقه مشقوقة |
| ٤٦٠ | ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر |
| ٥٠٨ | ألا هل اتى بجزيتنا صنع ربنا |
| ٥٢١ | ألم تعلموا أنا وجدنا محمّداً |
| ٣٧٢ | أليس أول من صلى لقبيلتكم |
| ٢٩١ | اما الحرام فالممات دونه |
| ٢٩٢،٣٦٣ | انا اخو المصطفى لاشك في نسي |
| ١٨٥ | انت الجليل ربنا لم تدنس |
| ١٨٥ | إن صبح ما أبصرت في المنام |

- ١٨٥ أن آيات رينا بينات
٥١٨، ٧٢ إن ابن آمنة النبي محمد
٣٧٢ أن عليا ليمون نقيبته
٢٧٥ إن الفراغ والشباب والجدة
٢٤٩ إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا
٢١١ ان الذين سموا باسم محمد
٢٨٩ أوصيك يا عبد مناف بعدي
٢١٣ ان يكن ما اتى به احمد اليوم
٢٨٧ بشيبة الحمد اسقى الله بلدتنا
٧٧ بناء مكارم وأساءة جرح
٢٨٥ تشاجرت الاحياء في فصل خطة
٧٦ تظل مقاليت النساء يطأنه
٢٤٩ حلفت لنعقدن حلفاً عليهم
٧٥ خاتته لما رأت شيباً بمفرقه
٦١٨ خلوا سبيل الجاهد المجاهد
٣٧٤ دعانا الزبير الى بيعة
٧٨ دعوت ابا المغوار في الحضر دعوة
٣٧٢ رأيت علياً لا يلبث قرنه
٣٦٣ سبقتكم الى الاسلام طراً
٧٦ سقته اباة الشمس إلا لثاثة
٥٦ سُلِط الموت والمنون عليه
٧٦ شادن يحلو اذا ما ابتسمت
٧٩ صحوت واوقدت للجهل ناراً
٢١٤ صلى الآله ومن يحيق بعرشه
٦٢٢ طلع البدر علينا
٧٣ فالزمتني دنياً وغيري جرّه

| | |
|-----|-----------------------------|
| ٧٢ | فاني اذا كالثور يضرب جنبه |
| ٢١٥ | فان يك حقا ياخذ بجة فاعلمي |
| ٣٧٣ | فحوطوا عليا فانصروه فانه |
| ٢١١ | فشق له من اسمه ليجله |
| ٣٧٤ | فصلى الاله على احمد |
| ٢١٤ | ففي كف احمد قد سبحت |
| ٣٧٤ | فقل للمضلل من وائل |
| ٥١٤ | فلا تحسبونا خاذلين محمداً |
| ٧٣ | فلا تجعلوها كالبقير وفحلها |
| ٦٦ | فليت لي بهم قوماً اذا ركبوا |
| ٧٦ | فلوان عندي جارتين وراقياً |
| ٢١٤ | فهذا نبي الله احمد سبحت |
| ٥٦ | فيارب ان اهلك ولم ترو هامتي |
| ٧٨ | فياليت ان الجن جازوا حمالتى |
| ٧٨ | قالوا وقد طال عنائي والسقم |
| ٧٩ | قد استعذنا بعظيم الوادي |
| ٧٥ | قلبت ثيابي والظنون تجول بي |
| ٧٤ | قل للقوافل والغزاة اذا غزوا |
| ٥١٩ | قف عند رأيك واجتهد |
| ٧٢ | كذاك الثور يضرب بالهراوى |
| ٥١٧ | كذبتم وبيت الله بنزى محمداً |
| ٧٣ | كمن يكوي الصحيح يروم براء |
| ٧٥ | لا تحسبن رثائماً عقدها |
| ٧٥ | لعمري ان عشرت من خيفة الردى |
| ٢١٤ | لعمري لقد كلفت وجداً باحمد |
| ٣٧٤ | لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة |

- ٦٣ لكل ابي بنت يراعى شؤونها
 ٨٠ ليت الغراب غداة ينعب دائباً
 ٥٢١ ليعلم خيار الناس ان - ممدأ
 ٣٧٢ ما كنت احسب ان الأمر منصرف
 ٢٦٩ مع ابن عم احمد المعلى
 ٢١٤ مفاجعة قد شفها فقد أحمد
 ٣٧٣ من فيه ما فيهم ما تمثرون به
 ٤٨٤ نبياً يرى مالا يرون وذكره
 ٧٦ نجسته لا ينفع التنجيس
 ٣٧١ هذا علي وابن عم المصطفى
 ٣٧٣ هذا علي والهدى حقاً معه
 ٥١٦، ٢٩٠ وايض يستسقى الغمام بوجهه
 ٣٧٣ وإن علياً لكم مصحر
 ٨٠ وساحرة عيني لو أن عينها
 ٣٧١ وان ولى الأمر من بعد محمد
 ٥٩٩ وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى
 والله لو كنت الها لم تكن
 ٧٤ ولا ينفع التعشير ان حمة واقع
 ولو لا أبوظائب وابنه
 ٥٣٣ وكلفتني ذنب امرئ وتركته
 ١٣ وكم شققنا من رداء محبر
 ١٧٧ وكم ناديته والليل ساج
 ٣٧٢ وصي رسول الله من دون أهله
 ٢٤٩ يا آل فهدر المظنود بضاعته
 ٤٥٥ يا راكب بغير غني مغلغنة
 ٢٦٩ يا رب يا رب انت مولاه

٢٨٧

يا رب لا أرجو لهم سواك

٢٩٩

يا رب ردّ راكبي محمّداً

٧٨

يا عجباً لهذه الفليقة

٧٢

يا كحل قد اثقلت اذنان البقر

(٤)
فهرس الأعلام

(أ)

آپولو ٥٥١.

آزر ١٢٢، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٠.

إبراهيم (الخليل) ٢٩، ٣٧، ٤٨، ٥١، ٥٤، ٥٩، ٨٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣،

١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤،

١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤،

١٤٥، ١٦٢، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٩٢، ٣٥٠،

٤٩٨.

ابراهيم (بن رسول الله) ٩٦.

ابراهيم بن علي الدينوري ٥٢٨.

أبرهة ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧،

١٨٨، ٢٨٦، ٥٥٢، ٥٩٣، ٦٠٥.

ابن أبي شيبه ٣٦١، ٣٧٧.

ابن أبي الحديد ٢١٤، ٢٦٧، ٢٦٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٨،

٥٢٣.

ابن اسحاق (صاحب السيرة) ٣٥٦، ٣٧١، ٣٧٨.

ابن الاثير ١٧٠، ٢٥٩، ٣٥٧، ٣٦٤، ٤١٣، ٤٥٥، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٢، ٦٠٤،

٦١٢، ٦١٥، ٦١٩.

ابن أم مكتوم ٤٨١.

ابن تيمية ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٦٠٠، ٦٠٢.

- ابن حجر ۳۵۷ .
 ابن حذیفۃ الاسدی ۳۷۳ .
 ابن حنظلۃ ۵۲۲ .
 ابن خلدون ۱۶ ، ۶۴ .
 ابن ربیعۃ ۵۵۷ ، ۵۵۸ .
 ابن الزبیر ۲۵۰ .
 ابن سعد (صاحب الطبقات) ۳۵۸ ، ۵۶۱ .
 ابن شہر آشوب
 ابن الصباغ المالکی ۶۱۸ .
 ابن طاوس ۲۵۸ .
 ابن طلحۃ (الشافعی) ۳۶۳ .
 ابن عباس ۶۰ ، ۱۶۴ ، ۲۶۵ ، ۲۶۶ ، ۳۶۰ ، ۳۶۳ ، ۳۶۵ ، ۳۶۸ ، ۶۱۲ .
 ابن عبدالبر ۳۷۸ .
 ابن کثیر الشامی ۴۱۰ ، ۵۱۶ .
 ابن ماجۃ (صاحب السنن) ۳۶۱ .
 ابن مزاحم (مؤلف وقعة صفین) ۳۶۲ ، ۳۶۳ ، ۳۶۶ .
 ابن المغازی ۳۶۰ .
 ابن المغیرۃ الخزومی ۲۸۴ .
 ابن ہشام (المؤرخ) ۲۱۴ ، ۲۴۴ ، ۲۵۰ ، ۲۶۸ ، ۲۷۲ ، ۲۸۱ ، ۲۸۳ ، ۲۹۶ ، ۳۴۱ ،
 ۳۷۷ ، ۴۱۶ ، ۴۲۳ ، ۴۲۴ ، ۴۲۷ ، ۴۵۵ ، ۴۶۸ ، ۵۰۸ ، ۵۲۱ ، ۵۴۱ ، ۵۶۳ ،
 ۵۷۷ ، ۵۹۸ ، ۵۹۹ ، ۶۰۰ ، ۶۰۴ ، ۶۲۴ .
 ابن الولید ۴۳۱ .
 ابی بن خلف
 أحمد الاحسانی ۵۴۷
 أحمد (اسم النبی) ۲۱۲ ، ۲۱۳ ، ۲۱۴ .
 أحمد بن حنبل ۵۳۱ ، ۵۳۲ .

- أحمد بن معين بن خراش ٥٣١ .
 أحمد بن عبدالحليم الحراني ٥٩٦ .
 الاخنس بن شريق ٤٣٩ ، ٤٨٣ .
 أردشير بابك ١١٢ .
 أرقم بن أبي الارقم ٣٨٨ ، ٤١٦ .
 أريقط ٦٠٣ .
 اساف (صنم) ٩٠ .
 اسبوتنيك ٥٥١ .
 اسحاق المدني ٣٧١ .
 أسعد بن زرارة ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٨ ، ٦٢٣ .
 إسفنديار ٤٧٣ .
 إسماعيل (النبي) ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٨٩ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ،
 ٣٥٠ .
 الاسكندر ٦١٣ .
 الأسود بن المطلب ٤٨٨ .
 الأسود بن يغوث ٤٢٣ .
 اسيد بن حضير ٥٩٧ .
 إلياس (جد النبي) ١٤٦ .
 أمية بن أبي الصلت ٤٣٩ .
 أمية بن خلف ٣٩٠ ، ٤١٥ ، ٤٨٨ .
 أمية بن عبد شمس ١٥٠ .
 أنس بن رافع ٥٦٧ .
 أنس بن مالك ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٣٦٤ ، ٦١١ .
 انوشبروان ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٠٢ .
 اياس بن معاذ ٥٦٧ .

(ب)

- بحیری (الراهب) ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٧٥.
 بدر من معشر ٢٤٦.
 البراء بن معرور ٥٧١.
 البراق ٥٣٥.
 البراض بن قيس الكناني ٢٤٧.
 بركة ٢٩١.
 بريد الاسلامي ٣٦٥.
 بلال الحبشي ٤١٥.

(ت)

- تبان اسعد ١٦٠.
 توماس كارليل ٨٥.
 تيباريومس (الامبراطور) ١١٦.

(ج)

- جابر بن عبدالله الانصاري ٢٦٠، ٣٦٢، ٣٦٤.
 جاجارين (رائد فضائي) ٥٥١.
 جبر (الغلام المسيحي).
 جبرئيل ٢٦١، ٢٦٧، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٦،
 ٤٦٤، ٥٠٧، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٨٥، ٥٨٧، ٦٠٠، ٦٠١.
 جعفر بن أبي طالب ٩٦، ٢١٤، ٢٥٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٠، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٥٨،
 ٤٦٠، ٤٦٩، ٤٩٣.
 جعفر بن محمد (الامام) ١٧٩، ١٩٥، ٢٦٣، ٢٧٥، ٢٩٤، ٥٢٩.
 جلال الدين الطوسي ٢٩٢.
 جندب بن زهير ٣٧٣.
 جنيد بن عبدالرحمان ٣٧٦.
 جواد علي (مؤلف) ٩١.

جونس (دكتور مارسدن) ٦١١.

(ح)

الحارث بن عبدالمطلب ١٥٥.

الحارث بن كلدة ١٨، ١٥٦، ٥٠٤.

الحارث بن نوفل ٤٤١.

حبيب بن أويس ٥٧.

الحجاج ٣٧٥

حجر بن معاذ الغفراني ٦٢٢.

حذيفة الغدر ٦٥.

حذيفة بن اليمان ٢٦٣.

حرب بن أمية ١٥١، ١٥٤، ٢١١، ٢١٤، ٣٦١، ٣٧٣.

الحسن بن علي (الإمام) عليه السلام ٢٥٠، ٢٦٩، ٣٥٧، ٣٦٤، ٣٧٦.

الحسين بن علي (الإمام) عليه السلام ٢٥٠، ٢٦٩، ٣٧٧، ٦١١.

حضير ٥٧٤.

حكيم بن حزام ٢٧٩، ٢٨٠، ٥٠٣، ٥٠٤.

حكيم مولى زاذان ٣٦١.

حمزة (عم النبي) ١٩٠، ٢١٥، ٢٧٣، ٢٨٦، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤٢٥.

حناطة ١٦٢.

حمزة الاصفهاني ٨٨، ١٠٣.

حيدة بن معاوية العامري ٢٩٩.

(خ)

خالد بن الوليد ٦١٠.

خالد (حكيم العرب) ٤٨٠.

خالد بن زيد ٦٢٢.

خباب بن الارت ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٢٦.

خزيمة (جد النبي) ١٤٦.

خزيمة بن ثابت ۳۷۲.

خسرو پرويز ۸۸، ۱۰۱، ۱۰۲، ۱۰۳، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۳، ۱۱۷، ۱۱۸، ۴۵۲.

الخطاب ۴۲۴.

خلف ۴۲۳.

الخميني (الإمام) ۶۱۵.

خويلد ۲۶۲، ۲۶۳، ۲۶۴، ۲۶۶، ۲۶۷، ۲۷۳، ۳۶۷، ۳۸۳.

(د)

داود (النبي) ۲۳۷.

داود بن أبي هند ۳۶۰.

ديميوس ۳۱.

ديودورس ۳۱.

(ذ)

ذونفر ۱۶۲.

ذونواس ۱۶۱.

ذوالخلفة (صنم) ۹۱.

(ر)

ربيع بن الحرث ۳۷۲، ۵۵۷.

ربيعة ۱۴۷، ۳۷۶، ۵۵۸، ۵۵۹، ۶۱۸.

رستم ۴۷۱، ۴۷۴.

رينان (مسيو) ۸۵.

(ز)

الزبير بن عبدالمطلب ۲۴۹.

زرارة بن اعين ۳۴۲.

زفر بن يزيد ۳۷۳.

زكريا (النبي) ۱۷۴، ۲۲۳، ۲۶۵.

زمنة بن الاسود ۵۰۰.

- زياد بن ابيه ٥٩٥ .
 زيد بن ارقم ٣٥٦ ، ٣٦٥ .
 زيد بن حارثة ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٨٧ ، ٥٢٢ .
 زيد بن عمرو بن نفيل ٢٢٤ ، ٢٨٢ .
 زيني دحلان (المؤرخ) ٢٨٩ ، ٥٢٤ .
 الزهره (كوكب) ١٢٥ .
 زهير بن أبي اميه ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

(س)

- سالم بن أبي جعد ٣٧٠ .
 سالمين (محمد علي) ٦٠ .
 سراقه بن مالك بن جعشم ٦١٥ .
 سعد (صنم) ٩٠ .
 سعد بن أبي وقاص ٨١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٥٠٣ .
 سعد بن عبادة ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٦٢٣ .
 سعد بن معاذ ٥٧٨ .
 سعيد بن زيد ٣٨٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
 سعيد بن قيس الهمداني ٣٧١ .
 سفيان بن سعيد الثوري ٥٣٠ ، ٥٣١ .
 سلامة (بولس) ٥١١ .
 سلمان الفارسي ٣٦٧ ، ٦٠٩ .
 سلمة بن كهيل ٣٦١ .
 سليمان ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
 سمرة بن جندب ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ .
 سويد بن صامت ٥٦٦ .
 سهل وسهيل ٦٢٢ .
 سهيل (كوكب) ٥٢ .

سید قطب ١٨٢، ١٨٤.

(ش)

شنفرة ٦٥.

شهر بزاز (أخ سلمان) ١١١.

شيبة بن ربيعة ١٥٢، ٣٧٦، ٥٥٧، ٥٥٨.

شيث (النبي) ٣٧١.

شيرويه ١١١، ١١٨.

(س)

الصدى (طائر خرافي) ٥٦.

صدر الدين الشيرازي (الفيلسوف) ١٧٦.

صعصعة بن ناجية ٤٦.

الصلت بن أبي يهاب ٢٦٥.

(ط)

طارق بن شهاب الاحمسي ٣٧٠.

طالب ٥١.

الطاهر (بن النبي) ٢٧٨.

الطفيل بن عمرو الدوسي ٥٤٢.

الطيب (بن النبي) ٢٧٨.

(ع)

العاص بن وائل السهمي ٢٤٩، ٣٧٦، ٤١١، ٤١٢، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٢، ٤٨٨،

٥٠٤، ٥٠٧.

عامر بن فهيرة ٦٠٢.

عبادة بن الصامت ٥٦٩.

عباس بن عبدالمطلب (عم النبي) ٢٦٢، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٠،

٤٢٠، ٤٢١، ٤٧١.

عبدالحليم (الشيخ محمود) ٦١٤.

عبدالدار ١٤٧، ١٤٨.

- عبدالرحمان بن حنبل الجمحي ٣٧٤.
 عبدالرحمان بن عثمان ٢٥٠.
 عبدالرحمان بن عوف ٣٨٧.
 عبدالرحمان بن محمد الحضرمي المالكي (القاضي) = ابن خلدون.
 عبدالرحمان بن ملجم ٥٩٥.
 عبدالرزاق ٣٥٧.
 عبدشمس ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ٤٦٨.
 عبدالله (بن النبي) ٢٧٨.
 عبدالله (والد النبي) ١٤٦، ١٤٧، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢،
 ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٧،
 ٢٧٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٥٧، ٣٨٨، ٥٧٤.
 عبدالله بن أبي بكر ٦٠٢.
 عبدالله بن أبي بن سلول ٦٢٣.
 عبدالله بن أبي خزرج ٥٦٨.
 عبدالله بن أبي سفيان ٣٧١.
 عبدالله بن أبي شيبه ٣٦١.
 عبدالله بن أبي رافع ٤٧٠.
 عبدالله بن انيس ٦١١.
 عبدالله البجلي ٣٧٤.
 عبدالله بن برير ٣٧١.
 عبدالله بن الحارث ٥٥٤.
 عبدالله بن حجر ٣٧٠.
 عبدالله (بن حلیمه) ٢١٥.
 عبدالله بن جحش ٢٨٢.
 عبدالله بن جدعان ٢٤٩، ٤٥٩.
 عبدالله بن خبابه ٣٧٠، ٣٧١.

- عبدالله بن ربیعة ۴۵۶، ۴۵۹ .
عبدالله بن الزبیر ۲۵۰ .
عبدالله بن عمرو بن مخزوم ۱۸۶ .
عبدالله بن مسعود ۳۶۹، ۴۱۷، ۴۱۸ .
عبدالله بن مظعون ۳۸۸ .
عبدالکریم الخطیب ۶۰۰ .
عبدالملک بن عمیر ۵۳۰، ۵۳۱ .
عبدالمطلب (جد النبی) ۵۱، ۱۱۹، ۱۴۶، ۱۵۲، ۱۵۳، ۱۵۴، ۱۵۵، ۱۵۶،
۱۵۷، ۱۵۸، ۱۶۲، ۱۶۳، ۱۶۴، ۱۸۹، ۱۹۰، ۱۹۱، ۱۹۲، ۱۹۳،
۱۹۷، ۲۱۱، ۲۱۳، ۲۱۵، ۲۱۶، ۲۱۷، ۲۲۳، ۲۲۷، ۲۲۸، ۲۲۹،
۲۳۰، ۲۴۹، ۲۵۷، ۲۵۸، ۲۸۶، ۲۸۷، ۲۸۹، ۲۹۲، ۲۹۹، ۳۵۳،
۳۷۲، ۴۰۴، ۴۰۹، ۴۲۰، ۴۲۵، ۵۰۴، ۵۱۳، ۵۵۵، ۵۶۳، ۵۷۱ .
عبد مناف ۱۴۶، ۱۴۷، ۱۴۸، ۱۴۹، ۱۵۲، ۱۹۰، ۲۸۹، ۴۴۱، ۵۱۳ .
عبدالعزیز بن محمد الدراودی ۵۳۰، ۵۳۱ .
عبیده بن الحارث ۳۸۸ .
عبدالوہاب النجار ۱۹۰، ۱۹۴ .
عتبة بن ربیعة ۵۰، ۴۳۰، ۴۳۲، ۵۵۷، ۵۵۸ .
عتیق بن عائذ ۲۴۷ .
عثمان بن حویرث ۲۸۲ .
عثمان بن عفان ۲۵۲، ۳۸۲، ۳۸۸ .
عثمان بن مظعون ۳۸۸، ۴۶۲ .
عداس ۵۵۸، ۵۵۹ .
عدنان ۱۴۶ .
عدي بن حاتم ۳۷۰ .
عروة الرجال ۲۴۷ .
العزی (صنم) ۵۴، ۵۵، ۹۰، ۲۷۹، ۲۹۳، ۴۱۵، ۴۸۸، ۴۹۳ .

عطارد ٥٢.

عفيف الكندي ٢٥٩، ٣٥٧.

عقبة بن أبي معيط ٢٥٨، ٢٦٥، ٤١٣، ٤٢٣، ٤٦٢، ٥٠٤، ٥٢٢.

عكرمة ١٧٠، ٢٦٢.

علي بن أبي طالب ٩١، ١٤٩، ١٩٥، ٢٠٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٥،

٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣١٦، ٣٥٤، ٣٥٦،

٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١،

٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٥،

٣٩٧، ٣٩٨، ٤٢٥، ٤٨٠، ٥٠٦، ٥١٣، ٥١٤، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٩،

٥٣٥، ٥٤٢، ٥٨٣، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٠، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧،

٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٣، ٦٠٣، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١٣، ٦١٨، ٦١٩.

علي بن الحسين السجاد (الإمام) ٥٥.

علي بن موسى الرضا (الإمام) ٣٠٠.

علي بن إبراهيم (المفسر) ٥٨٨.

عمادالدين ابن كثير ٢٤٨.

عمار بن ياسر

عمار بن الوليد بن المغيرة ٤٠٦.

عمر بن الخطاب ٣٦٠، ٣٦٨، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢٤، ٤٢٦.

عمر رضا كحالة ٤٢٧.

عمرو بن اسد ٢٧٣.

عمرو بن الجموح ٦٢٠، ٦٢١.

عمرو بن الحمق ٣٧١.

عمرو بن عاص ٤٢٣، ٤٥٦، ٤٥٩.

عمرو بن لحي ٥٣، ٩٠.

عمرو الخزرجي ١٥١.

عمرو العلاء ١٤٨.

عمیانس (صنم) ۹۰، ۱۶۱.

عیاض (القاضي) ۶۱۰.

عیسی بن مریم ۲۰۱، ۲۰۲، ۲۰۳، ۲۰۴، ۲۴۰، ۲۴۱، ۲۹۵، ۳۴۲، ۳۵۸،
۴۵۹، ۴۹۸، ۵۲۱، ۵۷۱، ۶۰۵.

(غ)

غالب ۱۴۶.

الغرانیق ۴۸۷، ۴۸۹، ۴۹۳، ۴۹۴.

غسان ۴۰، ۸۷، ۸۸، ۸۹، ۱۵۰.

غوستاف لوبون ۴۱.

(ف)

فضل بن أبي لهب ۳۷۳.

فضل بن الحارث ۲۴۸.

فضل بن فضالة ۲۴۸.

فضل بن وداعة ۲۴۸.

فضیل بن جندب ۱۶۲.

فلاماریون ۱۰۰.

فريد وجدي (محمد) ۵۴۴.

فهر (جد النبي) ۱۴۶.

(ق)

القاسم (بن رسول الله) ۲۶۳، ۲۷۸.

القاصعة (الخطبة) ۳۵۶.

قدامة بن مظعون ۳۸۸.

القراریط ۲۵۲.

قصي بن كلاب (جد النبي) ۱۴۶، ۱۴۷، ۱۴۸، ۱۵۵.

القمر ۵۴۶، ۵۵۱.

قيس بن زهير ۶۵.

قيس بن عاصم ٥٩.

قيصر ١٦١، ٣٥٧، ٤٢٣.

قتاد بن دعامة ٣٧٥.

(ك)

كعب (جد النبي) ١٤٦.

كعب بن زهير ٣٧٢.

كعب الاحبار ٤٧٧.

كعب بن مالك ٢١٤.

كلاب بن مرة (جد النبي) ١٤٦.

كنانة (جد النبي) ١٤٦.

كلثوم بن هرم ٦١٧.

(ل)

اللات (صنم) ٥٤، ٥٥، ٩٠، ٢٧٩، ٢٩٣، ٤١٥، ٤٨٨، ٤٩٣.

لؤي ١٤٦.

لييد (الشاعر) ٤٦١، ٤٦٢.

لقمان ٥٦٦.

اللوح المحفوظ ٣٤٥.

(م)

مارسدن جونسن ٦١١.

مالك (جد النبي) ١٤٦.

مالك بن الحارث الاشر ٣٦٩.

مالك بن عبادة ٣٧٣.

المأمون ٣٧٨.

ماني ١١٣.

ماه بنداذ (اخو سلمان) ٦٠٩.

مجاهد (المفسر) ٢٠٧.

- محمد بن أبي بكر ٣٧١.
 محمد بن أحمد الذهبي ٥٣١.
 محمد بن اسحاق (المؤرخ) ٢٦٦، ٥٥٦.
 محمد بن جرير الطبري ٣٩٦.
 محمد حسنين هيكل ١٨٢، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٩٧.
 محمد حميد الله (مؤلف) ٦٠٩.
 محمد بن حنفية ٣٧٠.
 محمد بن سلمة ٦١١.
 محمد بن مسلم ٣٧٥.
 محمد عبدة ١٦٨، ١٨٢، ١٨٣، ٣٠٠.
 محمد عزت نصر الله ٢١٤.
 محمد المكندر المدني ٣٧١.
 محمود الألوسي ٧١.
 محمود بن عبد الحلیم ٦١٤.
 مخزوم بن نوفل الزهري ٢٥٠.
 مدركة (جد النبي) ١٤٦.
 مرة (جد النبي) ١٤٦.
 المريخ (كوكب) ٥٤٦، ٥٥١.
 مزدك ١١٣، ١١٤.
 المسورة بن مخزوم
 المسيح ٥٤، ١١٧، ١٦٧، ١٨١، ١٩٥، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٥٩، ٢٧١، ٢٩٦،
 ٤٥٨، ٤٥٩، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٣٦، ٦١٢.
 المشتري (كوكب) ٥٢.
 مصعب بن عمير ٥٧٠، ٥٧٨، ٥٧٩.
 مضاض بن عمرو الجرهمي ١٥٥.
 مضر بن نزار (جد النبي) ١٤٦.

- المطعم بن عدي ٤٠٦، ٥٠١، ٥٠٥، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٧٧.
- المطلب ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣.
- معاذ بن جبل ٧١، ٢٦٠، ٣٦٠.
- معاذ بن عمرو ٦٢٠.
- معاوية ٢٦٩، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٠، ٣٧١، ٥٦٦، ٥٩٤.
- معد (جد النبي) ١٤٦.
- المغيرة (جد النبي) ١٤٧.
- المقداد بن عمرو ٣٦٨.
- المقداد السيوري ١٩٦.
- الملاعلي القاري ٦١٠.
- مناة (صنم) ٥٤، ٩٠، ٤٨٨، ٤٩٣.
- مناف (صنم) ٩١، ٥٤.
- مندربن عمر ٥٧٧.
- منصور بن عكرمة ٥٠١.
- ميسرة (غلام خديجة) ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٧٠.
- ميكائيل ٦٠٠.
- موسى بن جعفر (الإمام) ٢٦٢، ٥٥٣.
- موسى (النبي) ١٢١، ١٢٢، ١٥٨، ١٦٧، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢٣٩، ٢٦٢، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٦٩، ٤٧٥، ٤٩٧، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٧٣،
٦٠٥.

(ن)

- نائلة (صنم) ٩٠.
- ناصر (غلام خديجة) ٢٥٦.
- نزار (جد النبي) ١٤٦.
- نصيرالدين الطوسي ١٩٦.
- النضر (جد النبي) ١٤٦.

النضربن الحارث ٤٣٢، ٤٦٣، ٤٧٣، ٤٧٤.
النعمان بن المنذر ٥٩، ٨٨.
نعيم بن عبدالله ٤٢٥.
نفيل بن حبيب الخثعمي ١٦٢.
النمرود بن كنعان ١٢١، ١٢٢، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠.
نوح النبي ١٤٥، ٢٥١، ٤٩٨.
نوفل بن عبد مناف ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.

(هـ)

هارون (النبي) ٣٤١، ٣٦٩.
هاشم بن عبد مناف (جد النبي) ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ٢٩٠،
٣٦٩، ٣٧٢.
هاشم بن عتبة ٣٦٩.
هامة ٨٢.
هبل (صنم) ٥٤، ٩٠.
هبيرة بن وهب الخزومي ٢٨٥.
هرودتس ٤٠، ٤١، ١٢٠.
هرقل ١١٨.
هشام بن عمرو ٥٠٤.
هند بن أبي هالة ٥٩٩، ٦٠٢.

(و)

ورقة بن نوفل ١٨٩، ١٩٢، ٢١٤، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٢، ٢٣٨، ٣٤٠،
٣٤١، ٣٤٢، ٣٩٠، ٣٩١، ٤١٥.
الوليد بن عتبة ٢٥٠، ٣٧٣، ٤٨١، ٤٨٩.
الوليد بن المغيرة ٢٨٣، ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٨٠،
٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٢، ٥٠٣.
وهب بن عبد مناف ١٩٠.

ويليام موير (السير) ٤٩٣.

(ي)

ياسر ٤١٦، ٤١٧.

يحيى بن زكريا (النبي) ٢٥٩، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٧٧.

يزدجرد ٦٢٢، ٦٢٤.

يعرب بن قحطان ٣٦.

يعقوب (النبي) ٢٣٨، ٢٥٦.

يوسف ٢٣٩.

يونس بن عبدالرحمان ٥٥٣.

يونس بن متى (النبي) ٥٥٨، ٥٥٩.

النساء:

آسية بنت مزاحم ٢٦٢، ٢٦٣.

آمنة بنت وهب ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٢،

٢١٣، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٩١، ٤٥٤، ٥١٨.

أسماء بنت عميس ٢٦٠.

أنيسة (بنت حليلة السعدية) ٢١٥.

بلقيس ٣٣.

ثوية ٢١٥.

حليلة السعدية ٧٠، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٧٧،

٢٩٣.

خديجة بنت خويلد ١٩١، ٢١٥، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠،

٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠،

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٣،

٣٢٢، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٦، ٣٦٧،

٣٧٥، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٧، ٥٠٣، ٥٠٧، ٥٥٥، ٥٥٦،

٥٩٩، ٦٠١.

- حولة ۳۸۲ .
 دلالة ۱۹۰ .
 رقية (بنت رسول الله) ۲۶۳، ۲۷۸ .
 زينب (بنت رسول الله) ۲۶۳، ۲۷۸ .
 سارة (زوجة الخليل ع) ۱۰۸، ۱۴۱، ۱۴۵، ۲۳۹، ۲۴۰ .
 سلمى (زوجة هاشم) ۱۵۱، ۱۵۲، ۲۶۳ .
 سمیة (زوجه یاسر) ۴۱۶، ۴۱۷ .
 الشیاء (بنت حلیمة السعدیة) ۲۱۵، ۲۱۶ .
 عائشة بنت أبی بکر ۲۶۱، ۲۶۲، ۲۶۳، ۲۶۵، ۲۶۷، ۳۵۳ .
 عاتكة (بنت عبدالمطلب) ۲۱۵ .
 فاطمة بنت الخطاب ۴۲۴، ۴۲۵، ۴۲۶ .
 فاطمة الخثعمیة ۱۹۱، ۱۹۲، ۱۹۳، ۱۹۴ .
 فاطمة الزهراء (ع) (بنت رسول الله - ص) ۹۵، ۲۶۵، ۲۶۹، ۲۷۸، ۳۵۹، ۳۶۰ .
 ۵۰۹، ۶۰۲، ۶۱۸ .
 فاطمة (أم قصي بن كلاب) ۱۴۷ .
 فاطمة بنت أسد (أم علي بن أبي طالب) ۵۲۹، ۶۰۲ .
 فاطمة بنت الزبير ۶۰۲، ۶۱۸ .
 الفواطم ۶۰۲ .
 مريم بنت عمران (أم السيد المسيح - ع) ۵۴، ۱۰۱، ۲۰۱، ۲۲۲، ۲۲۳، ۲۶۲ .
 ۲۶۳، ۲۹۵، ۴۵۸، ۴۵۹، ۵۲۱، ۵۲۵، ۵۷۱ .
 هاجر (زوجة الخليل - ع) ۳۷، ۱۴۱، ۱۴۲ .
 هندة ۱۴۳، ۱۴۴ .
 مارية القبطیة ۲۷۸ .
 معاذة بنت عبد الله العدویة ۳۶۳ .
 نفیسة بنت علیة ۲۷۲ .

(٥)
فهرس القبائل والأمم

- آل الرسول ٥٧.
آل سعود ٥١٢.
آل ياسر ٤١٦.
اسلم (قبيلة) ٢٨٣.
أصحاب الاخدود ١٦١.
أصحاب الكهف ٢٨٢.
الانصار ٦١٩.
الايوس والخزرج ٣٠، ٥٠، ٩٠، ٩١، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧١، ٥٧٤،
٥٧٥، ٥٧٦، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٣.
بنو اسرائيل ٢٩٥، ٤٩٨، ٥٧٣.
بنو إسماعيل ٥٧٣.
بنو اقم ١٦٢.
بنو امية ٥٤، ١٤٩، ٤٨١.
بنو بكر ٤٢١.
بنو تميم ٥٢، ٥٩.
بنو جمح ٣٧٤، ٤١٥.
بنو سالم بن عوف ٦٢٤.
بنو سعد ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧.

- بنو سلامان ۶۵، ۸۸.
- بنو سلمة ۶۲۰، ۶۲۱.
- بنو عامر ۲۴۶، ۵۶۳، ۵۶۴.
- بنو عبد الأشهل ۵۶۷، ۵۶۸، ۵۶۹.
- بنو عبد الدار ۲۸۴.
- بنو عبد مناف ۵۰۵، ۵۱۳.
- بنو عبس ۶۵.
- بنو عدي ۲۸۴، ۲۹۱، ۴۱۱.
- بنو عمرو بن عوف ۶۱۷، ۶۲۲.
- بنو قريظة ۵۶۵.
- بنو قينقاع ۵۱، ۵۶۵.
- بنو كنانة ۹۰، ۱۴۶، ۲۴۵.
- بنو مخزوم ۴۰۹.
- بنو المطلب ۵۰۱، ۵۲۲، ۵۶۳، ۵۸۵.
- بنو مليح ۵۲.
- بنو النضير ۵۶۵.
- بنو هاشم ۳۷، ۵۱، ۱۵۳، ۲۱۷، ۲۳۰، ۲۵۵، ۲۷۳، ۲۹۰، ۳۵۴، ۳۵۵، ۳۹۴، ۴۰۸، ۴۱۲، ۴۱۳، ۴۴۰، ۴۵۰، ۵۰۱، ۵۰۲، ۵۰۳، ۵۰۴، ۵۰۶، ۵۰۸، ۵۲۰، ۵۲۲، ۵۳۷، ۵۸۴، ۵۸۵، ۵۹۰، ۶۰۱، ۶۰۲.
- تباينة ۳۲.
- ثقيف (قبيلة) ۵۵۷.
- ثمود (قوم) ۳۶، ۲۳۳.
- جرهم (قبيلة) ۳۷، ۱۵۴، ۱۵۵.
- حمير (قبيلة) ۵۲.
- خزاعة ۹۰، ۱۵۴، ۱۵۵، ۵۶۰، ۵۸۴.
- دوس (قبيلة) ۱۶۱.

.٦١٦، ٦١٥، ٦٠٤، ٦٠١، ٥٩٢، ٥٩١، ٥٨٩، ٥٨٨، ٥٨٧

كنانة (قبيلة) ٢٤٦، ٢٤٥.

مذحج (قبيلة) ٢٤٣.

المناذرة ٦١٧.

اللخميون ٨٨، ٨٩.

(٦) الكنى والألقاب

«الكنى»

الرجال

- أبو أحيحة ٥٤ .
أبو الاسود الدؤلى ٣٧٣ .
أبو امامة (ابن النقاش) ٢٦٧ .
أبو أمية (ابن مغيرة المخزومي) ٢٨٤ .
أبو أيوب (الانصاري) ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٦٢٢ .
أبو البختري ٤٣٢ ، ٥٠٤ ، ٥٨٤ .
أبو بصير = اعشى بن قيس ٤٨٥ ، ٥٠٥ .
أبو بكر (ابن أبي قحافة) ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ،
٣٨٨ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٨ ، ٤٢٥ ، ٤٨٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٦٠٢ .
أبو تراب (علي بن أبي طالب) ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
أبو تمام (الشاعر) ٥٧ .
أبو جعفر الاسكافي ٣٩٧ .
أبو جهل ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٣٠٢ ، ٣٥٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ،
٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٨٣ ، ٥٠٤ ،
٥٠٥ ، ٥٢٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ .
أبو حاتم ٥٣١ ، ٥٣٢ .
أبو حازم ٣٧٥ .
أبو الحسن البكري ٢٧٠ .

أبو حكيم ٤٠٩.

أبو حنظلة ٥٢٢.

أبو داود ٣٦١.

أبوذر الغفاري ٣٦٨، ٣٧١، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٥٣٣.

أبو ذؤيب ٢١٥.

أبورافع الطبراني الهيثمي ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩.

أبورغال (ثقيف) ١٦٢.

أبوزرعة ٢٦٠، ٥٣٢.

أبوسعيد الخدري ٣٦٠، ٣٦٨، ٣٧٥.

أبوسفيان ٥٤، ١٨٩، ٢٥٨، ٢٦٥، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٩٠، ٤٣٢، ٤٨٣، ٥٣٧،

٥٦٠.

أبوسلمة ٣٨٨.

أبو طالب (عم رسول الله) ١١٩، ١٤٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢،

٢٣٤، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٨٦، ٢٨٨،

٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٧، ٣٩٤،

٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٢، ٤٥٩، ٤٦٠،

٥٠١، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦،

٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٧،

٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٦١،

٥٦٢، ٦١٩.

أبو العاص بن الربيع ٥٠٣.

أبو عبد شمس ٤٢٠، ٤٢٩، ٤٦١.

أبو عبيدة (الجراح) ٣٦٨، ٣٨٨.

أبو عثمان ٣٧٦.

أبو عمرة (بشير بن محسن) ٣٧٠.

أبو عمرو (مؤلف) ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨.

- أبو عمرو (عامر الشعبي الكوفي) ٣٧٤.
 أبو عمرو (ابن قتيبه) ٣٦١.
 أبو فرج الاصفهاني ٢٨٥.
 أبو مرزم ٣٦٩.
 أبو لهب ٥٤، ٢١٥، ٣٧٢، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤١٣، ٤٢٢، ٥٠٢، ٥٦٣، ٥٩٠،
 ٥٩١.
 أبو مسعود (عمرو بن عمير الثقفي) ٤٣٩.
 أبو مكرز ٥٩٢.
 أبو نضر (محمد بن السائب الكلبي) ٣٧٦.
 أبو نعيم (مؤلف) ٢٩١.
 أبو هالة التيمي ٢٧٤.
 أبو هريرة ٢٦٠، ٥٣٣.
 أبو هفان العبدي ٥١٦.
 أبو الهيثم بن التيهان ٥٧١، ٥٧٢.
 أبو الوليد = عتبة بن ربيعة ٤٣١.
 أبو اليقظان = عمران بن عبدالله ٢٦٣.

النساء

- أم أيمن ١٧١، ١٩١، ١٩٧، ٢٢٧، ٢٦٠، ٢٨٩، ٢٩١، ٣٦٠.
 أم أيوب (الانصارية) ٦٢٢.
 أم جميل بنت حرب ٤١٣، ٤١٤.
 أم سلمة ٤٥٤، ٦١١.
 أم كلثوم (بنت رسول الله) ٢٦١، ٢٧٨.
 أم معبد ٦١٦.
 أم هاني (أخت علي بن أبي طالب) ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٨.

«الألقاب»

- الاصمعي ٦٠٩ .
 الاميني (العلامة) ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٣٠ ، ٥٨٤ .
 البلاذري ٦٠٩ .
 البلاغي ٢٤١ .
 البيهقي ٥٤١ .
 الترمذي ٣٦٤ .
 الجاحظ ٥٩٦ .
 الجنابذي ٢٥٦ .
 الحاكم النيسابوري ٦١٢ .
 الحلبي ٦٠٣ .
 الخوارزمي ٣٦٠ ، ٣٦٩ .
 الديار بكري ٢١٠ .
 ذوالقرنين ٣٨٢ ، ٤٦٤ .
 الزرقاني ٢٩٢ ، ٢٤٦ ، ٣٦٦ .
 السيوطي (جلال الدين) ٣٦٩ ، ٣٧٢ .
 الشبراوي (صاحب الاتحاف) ٢٩٢ .
 الشهرستاني ٢٨٨ .
 الشهيد الثاني ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
 الطباطبائي ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣٤٦ .
 الطبرسي ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٤٨١ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ .
 الطبري ٣٤٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
 ٣٩٨ ، ٤٨٨ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ .
 الطريحي (المؤلف) ٢٠٥ .
 الطوسي (الشيخ) ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦١٨ .

- وفخر الإسلام ٢٤١.
 الفخر الرازي ٣٠٧، ٣٤٨، ٥٠٩.
 الفرزدق ٤٦، ٤٩.
 الفردوسي (الشاعر) ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.
 فرعون ١٢١، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٦٢.
 القسطلاني ٣٦٧، ٣٧٥.
 القوشجي ١٩٦.
 كسرى ١٠٣، ١١٠، ٢٠٢، ٣٥٧.
 لكلي ٥٢.
 المجلسي (العلامة) ٢٩٦، ٣٤١، ٤١٣، ٦١٦، ٦٢٤.
 المسعودي (المؤرخ) ٤١.
 المقرئزي ٢٠٤، ٥٩٨.
 النفيسي (سعيد) ١٠٤.
 اليعقوبي ٢٨٨، ٣٨٥.
 النجاشي ٩٦، ١٦١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩،
 ٤٦٠، ٤٩٣.

(٧) فهرس الوقائع والأيام

- أحد (معركة) ٤٨٦ .
الأحزاب (معركة) ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٤٧١ ، ٤٨٠ ، ٤٨٨ .
بدر (معركة) ٤١٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ، ٥٦١ .
بعث (يوم) ٦٧ ، ٥٧٤ .
بيعة العقبة ٥٧٥ .
بيعة النساء ٥٧٠ .
حادثة الفيل ١٥٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ، ٥٥٢ ، ٦٠٥ .
حجة الوداع ٦٤ .
حلف الفضول ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
الخنديق (معركة) ٤٨٠ ، ٤٨٦ .
داحس والغبراء (حرب) ٦٥ .
صفين (وقعة) ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ .
الفجار (حروب) ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧٣ .
القرطاء (غزوة) ٦١١ .
ليلة المبيت ٥٩٥ ، ٥٩٦ .
المباهلة ٥٣٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ .
المعراج ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

(٨)

فهرس الأماكن والبلدان

- آسيا ٢٧، ١١٦.
الابواء ٢٢٨.
الاتحاد السوفيتي ١٥٩، ٥٥١.
الاحساء ٢٨.
الاحقاف ٢٨.
الاردن ٥٣٦.
أرمينية ٩٨.
الازهر ٣٤٦، ٦١٤.
افريقية ٢٨.
امريكا ٨٥.
الاندلس ١٠٠.
انطاكية ٢٧، ٨٧، ٨٩، ٩٨.
أورية ٤٠، ١٠٠، ٢٣٧.
اورشليم ٧، ١١١.
ايران ٢٧، ٨٧، ٨٩، ٩٨.
ايطاليا ٢٧.
بابل ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١.
بادية سماوة ٢٧.
البحر الاحمر ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٢.

بحيرة ساوة ٢٠٢ .

البصرة ٣٠٣، ٣٦٧ .

بصرى ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥ .

بيت الله الحرام ٢٨٩ .

بيت المقدس ٥٣٦، ٥٣٧، ٦١١ .

بيروت ٥١١ .

تهامة (سوق) ٢٥٦ .

ثنية الوداع ٦٢٦ .

جبل أبوقيس ٢٨٧ .

جدة ٢٩، ٢٨٤، ٤٥٣ .

الجزيرة العربية ٢٧، ٣٢، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٦، ٧١، ٨٥، ٨٧،

٨٨، ٨٩، ٩٧، ٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٨٠، ٢٨٢، ٣٠٦، ٤١٥، ٥٢٠،

٥٨٠، ٥٧٦ .

الجنة والنار ٥٣٦ .

الحبشة ٨٧، ٩٦، ١٥٠، ١٦١، ٢٢٤، ٢٨٢، ٢٩١، ٤١٥، ٤٢٤، ٤٥٠، ٤٥١،

٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٦٠، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٩، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠١،

٥٠٨ .

الحجاز ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٤٠، ٤١، ٥٠، ٥٢، ٥٢، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٣٢،

١٤١، ١٤٢، ١٥٢، ١٥٥، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٨٢، ٢٨٣، ٥١١، ٥١٢،

٥٩٥ .

حجر اسماعيل ١٤٤ .

الحجر الاسود ٢٨٤، ٤١٢ .

الحديدة (ميناء) ٣٢ .

حراء (جبل / غار) ٢٨٤، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٥٤، ٣٨٢، ٣٨٣ .

الحيرة ٢٧، ٥٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٥٠، ٤٥٢ .

الخليج ٢٧، ٢٨ .

- خليج عمان ٢٧.
 الخورنق ٨٨.
 خيبر ٢١٥.
 دار الندوة ١٤٧، ١٤٨، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٦٨، ٥٠١، ٥٨١، ٥٨٣.
 دار الخيزران ٣٨٩.
 دجلة ٢٧.
 دمشق ٨٩، ٣٧٦، ٦١٠.
 الدهناء ٢٨، ٢٣١.
 ديار ثمود ٢٣١.
 ذو المجاز (سوق) ٢٤٥.
 ذي طوى ٦١٨.
 الربع الخالي ٢٨.
 زمزم ٣٧، ٩٠، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ٣٦٣، ٣٦٦.
 سبأ ٣٣.
 سدره المنتهى ٥٣٦.
 سويسرا ٢٧.
 الشام ٢٧، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ١١٧، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥،
 ١٦٩، ١٨٧، ١٩١، ١٩٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٥٦،
 ٢٥٨، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٦٦، ٤٤١، ٤٥٢، ٥١٧، ٥٢٧،
 ٥٣٧، ٥٦٥، ٥٩٤.
 شعب أبي طالب ٥١٢.
 صحراء الشام ٢٧.
 صحراء العرب ٢٧، ٣١.
 صحراء النفوذ ٢٥٨.
 صنعاء ٣٢، ٣٣.
 ضجنان ٦١٨.

الظهران ٢٨.

الطائف ٢٩، ٥٤، ٩٠، ٢٤٧.

العدن ٣١.

العراق ٨٧، ١٤٩، ٢٦١، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٧٣، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٩٥.

العربية السعودية ٤١، ٥١٢.

العرم

عسفان

العقبة ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٥، ٥٧٦.

عكاظ (سوق) ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧.

غار ثور ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠١، ٦٠٣، ٦١٩.

غزة ١٤٩.

الفرات ٢٧، ٨٧، ١٢٠، ٣٧١.

فرنسا ٢٧.

فلسطين ٢٧، ٢٩، ٣٧، ١١٧، ١٤١، ٥٣٦.

القاهرة ٣٧٩.

قبا ٦١٧.

القسطنطينية ٨٩.

القطيف ٥١١.

قم ٥١٢.

الكعبة المعظمة ٢٩، ٣٠، ٥٤، ١٣٣، ١٤٥، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٤،

١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٤٩، ٢٦٥، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٧،

٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٥٧، ٣٦٧، ٤٠٤، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٨٨، ٥٠١،

٦١١.

الكوفة ٨٨.

مازندران ١٠٦.

مأرب ٣٣، ٤١.

مجنة (سوق) ٢٤٥.

المحيط الهندي ٢٧.

مدين ٢٣١.

المدينة المنورة ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٥١، ٥٤، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٧، ١٠١، ١٢٠،

١٢٢، ١٢٤، ١٣٥، ١٦٠، ٢١٩، ٢٩١، ٣٨٢، ٤٤٢، ٥١٢، ٥٦١،

٥٦٥، ٥٧٨، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠٤، ٦٠٩،

٦١٢، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤.

مراكش ٥٩٦.

مروة (جبل) ١٤٣، ٢٣٥.

المسجد الاقصى ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٣٩.

المسجد الحرام ٢٨٤، ٤١٨، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٦٠.

مصر ١٢١، ١٤١، ٢٤٣.

المغس ١٦٢.

مكة المكرمة ٢٩، ٣٠، ٣٧، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٩٠، ٩١، ٩٦، ١٠١،

١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤،

١٥٥، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٦، ١٩٧،

٢٠٧، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٩،

٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٥،

٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٨٨، ٣٨٩،

٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١،

٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨،

٤٧٤، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠١، ٥٠٢،

٥٠٣، ٥٠٤، ٥١٥، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٩، ٥٥٩، ٥٦٠،

٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧،

٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٧، ٦٠٤، ٦٠٨،

٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨.

نجد ٣١، ٤١.

نجران ٨٩، ١٦٠، ٦١٠.

نينوى ١١٨، ٥٥٨.

الهند ٨٥، ١١٥، ٢٦٥.

وادي القرى ٢٣١، ٥٦٥.

يثرب ٣٠، ١٥٢، ١٥٨، ١٦٠، ١٩٧، ٢٧٧، ٣٠٣، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٩، ٥٧٠،

٥٧٣، ٥٨٣، ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦٢٢، ٦٢٤.

اليمن ٢٧، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤١، ٨٦، ٨٩، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٠، ١٦١،

١٦٢، ١٦٥، ١٨٧، ٢٣٣، ٢٩٣، ٤٥٢، ٥٦٥، ٥٩٥.

اليمامة ٤٨٦.

اليونان ٣١.

(٩)
المذاهب والأديان ونظم الحكم

- الآشورية ٤٠ .
الأحناف ٢٨٣ .
الاستشراق والمستشرقون ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ .
الاشكنازي ٨٧ .
الرياضة والمرتاؤون ١٨٢ ، ١٨٤ .
الزردشتية ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ .
الشاهنشاهية ٨٦ ، ٦١٤ ، ٦١٥ .
العثمانية ٣٦٧ .
الكهانة ١٥٨ .
اللاهوتية ١٠٠ .
المانوية ١١٢ .
المجوسية والمجوس ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ .
المزدكية ١١٣ ، ١١٤ .
المدرسية (الفلسفة) اسكولاستيك ١٠٠ .
النصرانية والنصارى ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٧٩ .
اليقوبية ٩٩ .
الوهابية والوهابيون ٥٩٦ .
اليهود واليهودية ١٥٩ ، ٢٩١ ، ٣٨٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧١ ،
٤٧٥ ، ٤٨٧ ، ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ .

(١٠)

فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة ضمناً

- ١٦٥ - ١ - بحث علمي حول المعجزة
- ١٦٥ - ٢ - طهارة النبي (ص) من دنس الآباء وعهر الامتهات
- ٢٠٨ - ٣ - الاحتفال بذكرى المولد النبوي ليس شركاً
- ٢١٢ - ٤ - خطأ المستشرقين في اسم النبي (ص)
- ٢١٣ - ٥ - «أحمد» كان من أسماء النبي (ص) المشهورة
- ٢١٧ - ٦ - نظرة الاسلام في تأثير الرضاع
- ٢١٩ - ٧ - بحث قرآني وتاريخي حول كرامات فترة الطفولة عند النبي
- ٢٣٦ - ٨ - مقايسة عابرة بين القرآن والعهدين
- ٢٥٨ - ٩ - خديجة في احاديث الرسول واهل بيته (ع)
- ٢٩٢ - ١٠ - بحث حول دين النبي قبل البعثة
- ٣١٦ - ١١ - دور الانبياء الاساسي في اصلاح المجتمع
- ٣٢٢ - ١٢ - بحث حول الوحي في نظر الماديين والاهلين
- ٣٤٠ - ١٣ - مناقشة الاساطير المدسوسة في قصة بدء نزول الوحي
- ٣٥٣ - ١٤ - خاتمية رسول الاسلام
- ٤٤٢ - ١٥ - النبوة والامامة توأمان
- ٤٤٤ - ١٦ - أسرار النزول التدريجي للقرآن
- ٤٩٤ - ١٧ - دراسة لآيات من سورة الحج حول إلقاء الشيطان
- ٥٣٠ - ١٨ - دراسة علمية لحديث الضحاح
- ٥٤٨ - ١٩ - المعراج والقوانين العلمية الحديثة
- ٦٠٥ - ٢٠ - لماذا اتخذ العام الهجري مبدءاً للتاريخ الاسلامي

فهرس المواضيع

١ - شبه الجزيرة العربية
أومهد الحضارة الإسلامية
٢٧ - ٣٣

٢٩ مكة المعظمة
٢٩ تاريخ مكة
٣٠ المدينة المنورة

٢ - العرب قبل الإسلام
٣٥ - ٩٦

٣٧ أخلاق العرب وتقاليدهم
٣٩ هل كان للعرب حضارة؟
٤٢ ملاح المجتمع الجاهلي العربي من منظور القرآن
٤٣ ١ - الشرك في العبادة
٤٣ ٢ - إنكار المعاد
٤٤ ٣ - هيمنة الخرافات
٤٥ ٤ - الفساد الاخلاقي
٤٦ ٥ - وأدالبنات وإقبارهنّ
٤٧ ٦ - تصوّراتهم الخرافية حول الملائكة
٤٧ ٧ - كيفية الانتفاع من الانعام
٤٨ ٨ - الإستقسام بالأزلام
٤٨ ٩ - النسي

- ٤٩ ١٠ - الربا
- ٥٠ صور من الوضع الجاهلي
- ٥٢ العقيدة والدين في الجزيرة العربية
- ٥٦ عقيدة العرب حول حالة الانسان بعد الموت
- ٥٧ الآداب مرآة أخلاق الشعوب ونفسياتها
- ٥٨ مكانة المرأة عند العرب الجاهليين
- ٦٠ المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب
- ٦٤ العرب والرّوح القتالية
- ٦٦ الأخلاق العامّة في المجتمع العربي الجاهليّ
- ٦٧ النزوع إلى الخرافة والاساطير في المجتمع العربي الجاهليّ
- ٧٠ الخرافات عند العرب الجاهليين
- ٧٢ نماذج من الخرافات في المجمع العربي الجاهليّ
- ٧٢ ١ - الاستسقاء باشعال النيران
- ٧٢ ٢ - ضرب الثور إذا عافت البقر الماء
- ٧٣ ٣ - كيّ صحيح الابل ليبراً السقيم
- ٧٣ ٤ - حبس ناقة عند القبر إذامات
- ٧٤ ٥ - عقر الإبل على القبور
- ٧٤ ٦ - نهيق الرجل إذا أراد دخول القرية
- ٧٥ ٧ - تصفيق الضالّ في الصحراء ليهتدي
- ٧٥ ٨ - الرثم
- ٧٥ ٩ - وطى المرأة القتيل الشريف لبقاء ولدها
- ٧٦ ١٠ - طرح السنّ نحو الشمس إذا سقطت
- ٧٦ ١١ - تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون
- ٧٦ ١٢ - دم الرئيس يشفى
- ٧٧ ١٣ - شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل

- ٧٧ - ١٤ - معالجة المرضى بالأمر العجبية
- ٧٧ - ١٥ - خرافات في مجال الغائب
- ٧٩ - ١٦ - عقائدهم العجبية في الجن وتأثيره
- ٨٠ - ١٧ - تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والاشياء
- ٨٠ - مكافحة الإسلام لهذه الخرافات
- ٨٣ - أوضاع العرب الاجتماعية قبيل ظهور الإسلام
- ٨٩ - الدين في أرض الحجاز
- ٩١ - العلم والثقافة في الحجاز
- ٩٢ - الإمام عليؑ يصف العهد الجاهلي
- ٩٥ - فاطمة الزهراءؑ تصف الوضع العربي الجاهلي
- ٩٦ - جعفر بن أبي طالب يصف الوضع العربي الجاهلي
- ٣ - إمبراطوريتا الروم وإيران
- إبان عهد الرسالة
- ٩٧ - ١١٨
- ٩٨ - أوضاع الروم إبان عهد الرسالة
- ٩٩ - ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي
- ١٠١ - أوضاع ايران إبان عهد الرسالة
- ١٠٢ - البذخ والترف في البلاط الساساني
- ١٠٤ - الوضع الاجتماعي في إيران
- ١٠٥ - حق التعلم خاص بالطبقات الممتازة
- ١٠٩ - صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز
- ١١٠ - حكم التاريخ في عهد الملوك الساسانيين
- ١١١ - الفوضى في الحكومة الساسانية
- ١١٢ - الفوضى الدينية في ايران الساسانيين
- ١١٥ - الحروب الإيرانية الرومية

٤- أسلاف رسول الإسلام ﷺ

١١٩-١٩٨

- ١١٩ ١- بطل التوحيد: إبراهيم الخليل عليه السلام
- ١٢٣ النبي إبراهيم ومكافحته للوثنية
- ١٢٥ حوار الخليل مع عبّاد الكواكب
- ١٢٩ طريقة الانبياء في الحوار والجدال
- ١٣٠ هل كان آزر والد إبراهيم
- ١٣٢ القرآن ينفي أبوة آزر لإبراهيم
- ١٣٣ إبراهيم محطّم الاصنام
- ١٣٧ العبر القيّمة في هذه القصة
- ١٤١ هجرة الخليل عليه السلام
- ١٤٣ عين زمزم كيف ظهرت؟
- ١٤٦ ٢- قصي بن كلاب (الجد الثاني لرسول الله)
- ١٤٧ ٣- عبد مناف (الجد الثالث)
- ١٤٨ ٤- هاشم (الجد الثاني)
- ١٥٠ أميّة يحسد هاشماً!
- ١٥١ هاشم يتزوج
- ١٥٣ ٥- عبدالمطلب (الجد الأوّل)
- ١٥٧ التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر
- ١٥٩ حادثة عام الفيل
- ١٦٠ ما هي عوامل هذه الحادثة؟
- ١٦٣ عبدالمطلب يذهب إلى معسكر أبرهة
- ١٦٥ كلمة حول المعجزة
- ١٦٩ نقاط تقتضي التأمل في تفسير حادثة الفيل بالجدري
- ١٧٢ بحث علمي حول المعجزة في نقاط خمس:

- ١٧٣ ١ - ماهي المعجزة وماهو تعريفها؟
- ١٧٥ ٢ - هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلّمة
- ١٧٦ أنواع العلل والاسباب:
- ١٧٦ (أ) العلة الطبيعية العادية
- ١٧٦ (ب) العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة
- ١٧٦ (ج) تأثير النفوس والأرواح
- ١٧٧ (د) العلل المجردة عن المادة
- ١٧٨ ٣ - هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط؟
- ١٧٩ ٤ - كيف تدل المعجزة على صحّة ادّعاء النبوة؟
- ١٨٠ ٥ - بماذا نميز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟
- ١٨٧ أوهام قريش تتفاقم
- ١٨٩ عبدالله والذ النبي ﷺ
- ١٩١ دور الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام
- ١٩٢ قصة فاطمة الخثعمية
- ١٩٣ علائم الاختلاق في هذه القصة
- ١٩٥ طهارة النبي من دنس الآباء وعهر الأمهات
- ١٩٦ وفاة عبدالله (والد النبي) في يثرب
- ٥ - مولد رسول الله ﷺ
- ١٩٩ - ٢٢٤
- ١٩٩ فترة الطفولة في حياة العظماء
- ٢٠٣ في أيّ يوم ولد رسول الله ﷺ
- ٢٠٤ أيّ هذين القولين هو الصحيح؟
- ٢٠٥ فترة الحمل
- ٢٠٧ نظرية في يوم المولد النبويّ ومواخذات عليه
- ٢٠٨ الاحتفال بذكرى المولد النبويّ ليس شركاً

- ٢١١ مراسم تسمية النبي ﷺ
 ٢١٢ خطأ المستشرقين في اسم النبي ﷺ
 ٢١٣ أحمد كان من أسماء النبي المشهورة
 ٢١٥ فترة الرضاع في حياة النبي ﷺ
 ٢١٧ نظرة الإسلام في تأثير الرضاع

٦- فترة الطفولة في حياة النبي ﷺ

- ٢١٩ الماديون وبعض المستشرقين وكرامات عهد الطفولة
 ٢٢٣ خمسة اعوام في ربوع الصحراء

٧- العودة إلى احضان العائلة

٢٢٥ - ٢٤٢

- ٢٢٧ سفرة إلى يثرب
 ٢٢٩ وفاة عبدالمطلب
 ٢٢٩ كفالة أبي طالب للنبي ﷺ
 ٢٣٠ سفرة إلى الشام مع أبي طالب
 ٢٣٢ اكدوبة المستشرقين في قصة بحيرى
 ٢٣٦ مقارنة بين القرآن والتوراة والانجيل
 ٢٣٧ ١- النبي داود عليه السلام
 ٢٣٧ ٢- النبي سليمان عليه السلام
 ٢٣٨ ٣- النبي يعقوب عليه السلام
 ٢٣٩ ٤- النبي ابراهيم عليه السلام
 ٢٤٠ ٥- النبي نوح عليه السلام

٨- فترة الشباب

في حياة النبي الأكرم ﷺ

٢٤٣ - ٢٥٠

- ٢٤٤ رسول الله ﷺ وقدرته الروحية

- ٢٤٤ حروف الفجار
 ٢٤٥ حرب الفجار الأولى
 ٢٤٦ حرب الفجار الثانية
 ٢٤٦ حرب الفجار الثالثة
 ٢٤٦ حرب الفجار الرابعة
 ٢٤٨ حرب حلف الفضول

٩- من فترة الشباب إلى مزاولة التجارة

٢٧٤ - ٢٥١

- ٢٥٣ النبي للغنم وأسباب ذلك
 ٢٥٤ إقترح أبي طالب بالتجارة لخديجة
 ٢٥٥ هل عمل النبي اجيراً لخديجة؟
 ٢٥٨ خديجة زوجة الرسول الأولى
 ٢٦٠ خديجة في أحاديث الرسول الأكرم ﷺ
 ٢٧٠ العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي ﷺ
 ٢٧٢ كيف تمت خطبة خديجة؟
 ٢٧٤ عمر خديجة عند زواجها بالنبي ﷺ

١٠- من الزواج إلى البعثة

٣١٢ - ٢٧٥

- ٢٧٦ فترة الشباب في حياة رسول الإسلام ﷺ
 ٢٧٧ أحاسيسه ومشاعره الانسانية في فترة الشباب
 ٢٧٨ أولاد خديجة
 ٢٧٨ حدس لا أساس له من الواقع في شأن خديجة
 ٢٧٩ دعوى رسول الله: زيد بن حارثة
 ٢٨٠ بداية الخلاف في صفوف الوثنيين
 ٢٨١ أعمدة الوثنية تهتز

- ٢٨٣ نموذج آخر من ضعف قريش
- ٢٨٥ أمين قريش يكفل علياً
- ٢٨٦ إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام
- ٢٨٦ إيمان جدّه عبدالمطلب
- ٢٩٠ إيمان كفيله وعمه أبي طالب
- ٢٩١ إيمان والدي النبي الأكرم
- ٢٩٢ إيمان النبي بالله وتوحيده قبل البعثة
- ٢٩٢ مناقشة الآيات التي استدلت بها النافون لايمان النبي
- ٢٩٧ الآية الأولى: الهداية بعد الضلال
- ٣٠٠ الآية الثانية: الأمر بهجر الرجز
- ٣٠٢ الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والايان
- ٣٠٦ تفسير هذه الآية بأخرى
- ٣٠٨ الآية الرابعة: عدم رجائه القاء الكتاب إليه
- ٣١٠ الآية الخامسة: قوله تعالى: «لو لم يشأ ما تلوته»
- ١١ - بدء الوحي
- ٣١٣ - ٣٤٢
- ٣١٧ دورُ الأنبياء الأساسي في إصلاح المجتمع
- ٣١٧ مثل واضح في المقام
- ٣١٩ أمين قريش في غار حراء
- ٣٢١ بدء الوحي
- ٣٢٢ ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين
- ٣٢٤ الروح المجردة
- ٣٢٥ ظاهرة الوحي عند الماديين
- ٣٢٥ أبرز التحليلات المادية لظاهرة الدين

| | |
|-----|--|
| ٣١٩ | أمين قريش في غار حراء |
| ٣٢١ | بدء الوحي |
| ٣٢٢ | ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين |
| ٣٢٤ | الروح المجردة |
| ٣٢٥ | ظاهرة الوحي عند الماديين |
| ٣٢٥ | أبرز التحليلات المادية لظاهرة الدين |
| ٣٣٣ | ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين |
| ٣٣٤ | قنوات المعرفة الثلاثة: التجربة، العقل، الالهام |
| ٣٣٦ | انواع الوحي من المنظور القرآني |
| ٣٣٦ | اساطير مختلفة حول حال النبي عند نزول الوحي |
| ٣٣٧ | بقية قصة نزول الوحي الأول |
| ٣٣٨ | خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل |
| ٣٤٠ | بطلان هذه المزاعم والاساطير |

١٢ - متى نزل الوحي أولاً؟

٣٥٢ - ٣٤٣

| | |
|-----|--|
| ٣٤٣ | الرأي المشهور بين علماء السنة واستدلالمهم |
| ٣٤٤ | ردود الشيعة على هذا الرأي |
| ٣٤٦ | الجواب الأول (التفريق بين النزول الدفعي والتدرجي) |
| ٣٤٦ | الجواب الثاني (نزول حقيقة القرآن في رمضان على قلب النبي ص) |
| ٣٤٦ | الجواب الثالث (التفكيك بين مبدأ نزول القرآن والبعثة) |
| | الانبياء والتبشير برسول الله (ص) |
| | محمد خاتم الانبياء |

۱۳ - ماسبقني أحد

۳۵۳ - ۳۸۶

- ۳۵۳ من هو أول من آمن بالنبي (ص) من الرجال والنساء؟
 من النساء: خديجة
 ۳۵۳ أقدم الرجال إسلاماً: علي بن أبي طالب
 ۳۵۴ الدلائل التاريخية والنصوص الدالة على اسبقية الإمام علي
 ۳۵۴ علي تربي في حجر النبي الأكرم (ص)
 ۳۵۷ علي وخديجة يقيمان الصلاة مع النبي
 ۳۵۷ «أنا الصديق الأكبر»
 ۳۵۸ «أولكم إسلاماً علي»
 ۳۵۹ النصوص النبوية الأخرى
 ۳۶۱ كلمات أمير المؤمنين (ع)
 ۳۶۴ كلمات الإمام السبط الحسن (ع)
 ۳۶۴ رأي الصحابة والتابعين في أول من أسلم
 ۳۷۸ مناظرة بين المأمون وإسحاق في إسلام علي
 ۳۷۹ قضية انقطاع الوحي
 ۳۸۰ اسطورة وليس تاريخاً
 ۳۸۱ اختلاف المؤرخين في مسألة إنقطاع الوحي

۱۴ - الدعوة السرية، دعوة الأقربين

۳۸۷ - ۴۰۰

- ۳۸۹ دعوة الاقربين
 ۳۹۴ كيفية دعوة الاقربين
 ۳۹۵ خيانة تاريخية وجناية أدبية

٣٩٨

النبوة والإمامة توأمان

١٥ - الدعوة العامة

٤٢٨ - ٤٠١

- ٤٠٢ الثبات والاستقامة على طريق الهدف
- ٤٠٣ ثبات النبيّ (ص) وصبره
- ٤٠٦ قريش تمشي إلى أبي طالب للمرة الثالثة
- ٤٠٧ قريش تحاول تطميع النبيّ (ص)
- ٤٠٨ نماذج من إيذاء قريش وتعذيبها للمسلمين
- ٤١٢ أبوجهل يكمن لرسول الله (ص)
- ٤١٣ أبوهلب يؤذي رسول الله (ص)
- ٤١٤ صبر النبيّ (ص) وإستقامته
- ٤١٤ بعض من أوذوا بأشدّ الأذى:
- ٤١٥ ١ - بلال الحبشيّ
- ٤١٦ ٢ - آل ياسر رمز الصُّمود والمقاومة
- ٤١٧ ٣ - عبدالله بن مسعود
- ٤١٨ ٤ - أبوذر أول المجاهرين بالإسلام
- ٤٢١ قبيلة غفار تعتنق الإسلام
- ٤٢٢ أعداء النبيّ الألداء
- ٤٢٤ عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام

١٦ - رأي قريش في القرآن

٤٤٩ - ٤٢٨

٤٢٨

حكم الوليد بن المغيرة في شأن القرآن

٤٣٠

نموذج آخر من حكم البلغاء في شأن القرآن

- ٤٣٢ تحججات قريش العجبية
- ٤٣٨ الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم:
- ٤٤٠ ١ - حسدهم لرسول الله (ص)
- ٤٤٠ ٢ - معارضة الدعوة الاسلامية لشهواتهم
- ٤٤٠ ٣ - الخوف من العقاب الأخرى
- ٤٤١ ٤ - الخوف من رد فعل القبائل العربية المشتركة
- ٤٤١ طائفة من اعتراضات المشركين
- ٤٤٢ القرآن الكريم والنزول التدريجي
- ٤٤٤ الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن الكريم
- ٤٤٧ أسرار أخرى لنزول القرآن تدريجاً

١٧ - الهجرة إلى الحبشة

٤٥٠ - ٤٦٥

- ٤٥٠ الهجرة الأولى إلى الحبشة
- ٤٥٤ الهجرة الثانية إلى الحبشة
- ٤٥٥ قريش توفد رجالاً لاسترداد المسلمين
- ٤٦٠ العودة من الحبشة
- ٤٦٢ وفد مسيحي يدخل مكة لتقصي الحقائق
- ٤٦٣ قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق في أمر النبي (ص)

١٨ - الاسلحة الصديئة

والاساليب الفاشلة

٤٦٦ - ٤٨٦

- ٤٦٦ ١ - الاتهامات الباطلة
- ٤٦٩ الإصرار في نسبة الجنون إلى رسول الله (ص)

- ٤٧١ ٢ - القرآن يرّد على جميع الاتهامات
 ٤٧٣ فكرة معارضة القرآن
 ٤٧٤ تحجّجات صبيانية وجاهلية
 ٤٧٦ مقترحات عجيبة ومطالب غريبة
 ٤٧٧ صمود النبيّ وصبره
 ٤٧٨ معاجز النبيّ (ص) لم تقتصر على القرآن
 ٤٧٨ بعض معاجز النبيّ غير القرآن
 ٤٧٨ ١ - شقّ القمر
 ٤٧٨ ٢ - المعراج
 ٤٧٩ ٣ - مباهلة أهل الباطل
 ٤٧٩ ٤ - الإخبار بالمغيبات
 ٤٨٠ حرص النبيّ على هداية قريش
 ٤٨١ ٣ - قرار تحريم الاستماع للقرآن
 ٤٨٣ واضعو القرار ينقضون قرارهم
 ٤٨٣ منع الأشخاص من الإيمان برسول الله (ص)
 ٤٨٤ ١ - الأعشى
 ٤٨٥ ٢ - الطفيل بن عمرو الدوسي

١٩ - أسطورة الغرائق

٤٨٧ - ٤٩٨

- ٤٨٨ ماهي أسطورة الغرائق؟
 ٤٨٩ محاسبة بسيطة لهذه الأسطورة تفنّدها
 ٤٩٠ رأي العقل في هذه القصة الاسطورة
 ٤٩٢ تفنيد القصة من طريق آخر
 ٤٩٣ دليل لغويّ على تفنيد هذه الأسطورة
 ٤٩٤ دراسة آيات من سورة الحج حول القاء الشيطان

- ٤٩٥ ماهو المقصود من تمنّي الأنبياء والرّسل؟
 ٤٩٥ ماهو المقصود من تدخل الشيطان والقائه؟
 ٤٩٧ ماهو المقصود من محو آثار التدخل و الإلقاء

٢٠ - الحصار الاقتصادي والاجتماعي

٤٩٩ - ٥١٠

- ٥٠٠ قریش تحاصر النبيّ والمسلمين اجتماعياً وإقتصادياً
 قریش والصحيفة القاطعة
 ٥٠٣ وضع بني هاشم المأساويّ في شعب أبي طالب
 ٢١ - وفاة أبي طالب وخديجة الكبرى

٥١١ - ٥٣٣

- ٥١٤ نماذج من مشاعر أبي طالب تجاه النبيّ (ص)
 ٥١٧ التغيير في برنامج السفر
 ٥١٨ الدفاع عن حوزة العقيدة والإيمان
 ٥٢٠ تصوّر باطل عن مشاعر أبي طالب تجاه النبيّ (ص)
 ٥٢٠ الدافع الحقيقي لأبي طالب
 ٥٢١ لمحات من توضّحات أبي طالب
 ٥٢٣ قضية ذات بواعث سياسيّة
 ٥٢٤ طرق ثلاث لإثبات إيمان أبي طالب
 ٥٢٥ ١ - آثار أبي طالب العلميّة والادبيّة
 ٥٢٦ ٢ - مواقفه من النبيّ والرسالة الاسلاميّة
 ٥٢٨ وصية أبي طالب عند وفاته
 ٥٢٩ ٣ - شهادات اقرباء أبي طالب (من أهل البيت)
 ٥٣٠ رأي علماء الشيعة في أبي طالب
 ٥٣٠ نظرة إلى رواية الضحضاح
 ٥٣١ ضعف أسناد هذه الرواية

- ٥٣١ الف: سفیان بن سعید الثوري
٥٣١ باء: عبدالمك بن عمير
٥٣٢ جيم: عبدالعزيز بن محمد الدراوردي
٥٣٢ نصّ حديث الضحاح يخالف الكتاب والسنة
٥٣٣ ١ - القرآن الكريم: لامغفرة للكافر
٥٣٣ ٢ - السنة النبوية: لاشفاعة للمشرك

٢٢ - المعراج في القرآن والسنة والتاريخ

٥٣٥ - ٥٥٤

- ٥٣٧ هل للمعراج جذور قرآنية؟
٥٤٠ أحاديث المعراج
٥٤١ متى وقعت هذه الحادثة؟
٥٤٣ هل كان المعراج جسمانياً؟
٥٤٤ ماهو المراد من المعراج الروحاني
٥٤٧ نعمة شاذة
٥٤٨ المعراج وقوانين العلم الحديث
٥٥٣ الهدف من المعراج

٢٣ - سفرة إلى الطائف

- ٥٥٩ النبي (ص) يعود إلى مكة
٥٦١ نقطة هامة
٥٦٢ الدعوة في أسواق العرب
٥٦٣ دعوة رؤساء القبائل في مواسم الحج

٢٤ - بيعة العقبة

٥٦٥ - ٥٨٢

- ٥٦٧ وقعة بُعث
٥٦٨ تفصيل الحادثة

- ٥٦٩ بيعة العقبة الاولى
 ٥٧٠ بيعة العقبة الثانية
 ٥٧٣ أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة
 ٥٧٥ ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة
 ٥٧٧ تأثير الاسلام ونفوذه المعنوي
 ٥٨٠ مخاوف قريش المتزايدة

٢٥ - قصّة الهجرة النبويّة

حوادث السنة الاولى من الهجرة الشريفة

٥٨٣ - ٦٢٤

- ٥٨٥ الإمدادات الغيبية والعنايات الربانية
 ٥٨٧ ملاك الوحي يخبر رسول الله بمؤامرة قريش
 ٥٩٠ إقحام الاعداء لبیت الوحي والرسالة
 ٥٩١ النبيّ في غار ثور
 ٥٩٢ قريش تفتش عن النبيّ (ص)
 ٥٩٣ التفاني في سبيل الحق
 ٥٩٦ كلام من ابن تيمية في مبيت عليّ (ع)
 ٥٩٨ الجواب التفصيلي على هذا الكلام
 ٦٠٠ الخطيب وقضية المبيت
 ٦٠١ بقية قصة الهجرة النبوية
 ٦٠٣ الخروج من الغار
 ٦٠٤ صفحة التاريخ الاسلامي الأولى
 ٦٠٥ لماذا أصبح عام الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي
 ٦٠٦ الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة
 ٦٠٨ من الذي جعل الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي
 ٦٠٩ نماذج من رسائل النبيّ المؤرّخة بالعام الهجريّ

٦١٣

التذكير بنقطتين

٦١٤

مؤامرة الطاغوت

٦١٥

برنامج الرحلة في حادث الهجرة

٦١٧

النزول في قرية قباء

٦١٩

المدينة تهب لاستقبال النبي (ص)

٦٢١

النبي (ص) يدخل المدينة

٦٢٣

أصل النفاق ومنشأه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وصلى الله على محمد نبي الله وعلى آله آل الله

لقد قامت مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم
المشرفة بنشاطات واسعة في مجال نشر المعرفة وإحياء التراث الإسلامي وإليكم سرداً
لبعض منشوراتها:

من الكتب التي تم طبعها

- | | |
|-----------------------------------|---|
| إعداد السيد محمد جواد الجلاي | ١- أحاديث المهدي من مسند أحمد بن حنبل |
| تأليف الشيخ أحمد الصابري الهمداني | ٢- أدب الحسين وحماسه |
| =العلامة الحلبي | ٣- إرشاد الأذهان (ج ١ و ٢) |
| =السيد طالب الخرسان | ٤- الإسلام السعودي المسوخ |
| =الشيخ علي الاحمدي المياجي | ٥- الأسير في الإسلام |
| =الشيخ ياسين عيسى العاملي | ٦- الاصطلاحات في الرسائل العملية |
| =الشيخ محمد حسين المظفر | ٧- الامام الصادق (ع) (ج ١ و ٢) |
| إشراف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي | ٨- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (ج ١ و ٢) |
| =العلامة الحلبي | ٩- ايضاح الاشتباه |
| =الشيخ محمد حسن القديري | ١٠- البحث في رسالات عشر |
| =الشيخ محمد حسين الاصفهاني | ١١- بحوث في الفقه، وتشمل على: |
| | أ- صلاة الجماعة |
| | ب- صلاة المسافر |
| | ج- الاجارة |

تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي

تأليف الشيخ محمد حسين الاصفهاني

١٢- بحوث في الاصول، وتشمل على:

أ- الاصول على النهج الحديث

ب- الطلب والإرادة

ج- الاجتهاد والتقليد

تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي

=السيد علي الحسيني الاسترآبادي

١٣- تأويل الآيات الظاهرة

=الشيخ حسين علي الفرطوسي

١٤- التوضيح النافع في شرح ترددات صاحب الشرايع

=ابن برآج الطرابلسي

١٥- جواهر الفقه

=الشيخ يوسف البحراني

١٦- الحدائق الناضرة (ج ١-٢٥)

=السيد جعفر مرتضى العاملي

١٧- حقائق هامة حول القرآن

=شيخ الطائفة الطوسي

١٨- الخلاف (ج ١-٣)

=السيد جعفر مرتضى العاملي

١٩- دراسات وبحوث في التاريخ والاسلام (ج ١ و٢)

=آية الله الشيخ عبدالكريم الحائري

٢٠- درر الفوائد (ج ١ و٢)

=السيد المرتضى

٢١- الذخيرة في علم الكلام

=محمد الرازي الدولابي

٢٢- الذرية الطاهرة

=السيد علي خان المدني

٢٣- رياض السالكين (ج ١-٤)

تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي

=ابن إدريس الحلبي

٢٤- السرائر (ج ١-٣)

=السيد جعفر مرتضى العاملي

٢٥- سلمان الفارسي

=الشيخ جعفر السبحاني

٢٦- سيد المرسلين (ج ١)

=القاضي النعمان المغربي

٢٧- شرح الأخبار (ج ١ و٢) (١-١٠)

=السيد جعفر مرتضى العاملي

٢٨- الصحيح من سيرة النبي (ص) (ج ٥ و٦)

=الشيخ محمد المؤمن

٢٩- الصلاة (ج ١) (تقريرات بحث المحقق الداماد)

=الشيخ عبدالله الجوادى الآملي

٣٠- الصلاة (ج ٢ و٣) (تقريرات بحث المحقق الداماد)

- ٣١- الصلاة (تقريرات المحقق النائيني)
 = تأليف الكاظميني الخراساني
- ٣٢- صلاة الجمعة
 = الشيخ مرتضى الحائري
- ٣٣- فرائد الاصول
 = الشيخ مرتضى الأنصاري
- ٣٤- فوائد الاصول (ج ١ و ٢) (تقرير بحث آية الله النائيني)
 = الكاظميني الخراساني
- ٣٥- فوائد الاصول (ج ٣ و ٤) (تقرير بحث آية الله النائيني)
 = الكاظميني الخراساني
- مع حواشي آية الله آقا ضياء الدين العراقي
- ٣٦- قاعدة لا ضرر وإفاضة القدير
 = شيخ الشريعة الاصفهاني
- ٣٧- قاموس الرجال (ج ١-٤)
 = الشيخ محمد تقي التستري
- ٣٨- كشف الرموز (ج ١ و ٢)
 = الشيخ حسن الفاضل الآبي
- ٣٩- كشف المراد (في شرح تجريد الاعتقاد)
 = العلامة الحلبي
- مع تعليقات عليه
- ٤٠- كنز الدقائق (ج ١-٦)
 تحقيق الشيخ حسن زاده الآمي
- ٤١- مبعوث الحسين (ع)
 = ميرزا محمد المشهدي
- ٤٢- مجمع الفائدة والبرهان (ج ١-١٠)
 في شرح إرشاد الأذهان
 = محمد علي عابدين
- ٤٣- معادن الحكمة (ج ١ و ٢)
 = المقدس الأردبيلي
- ٤٤- معالم الدين وملاذ المجتهدين
 تحقيق الشيخ مجتبي العراقي والشيخ علي پناه
 الاشتهاردي وآغا حسين اليزدي
- ٤٥- المقنعة
 = محمد ابن الفيض الكاشاني
- ٤٦- المناقب
 = الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني
- ٤٧- منتقى الجمال (ج ١-٣)
 تحقيق مؤتسة النشر الاسلامي
- ٤٨- المفيد
 تحقيق مؤتسة النشر الاسلامي
- ٤٩- الموفق بن أحمد الخوارزمي
 = الموفق بن أحمد الخوارزمي
- ٥٠- الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني
 تحقيق علي اكبر الغفاري